



او

رحلة في البلاد العربية تشتمل على مقدمة وثمانية اقسام

مزينة بالخارطات والرسوم

تأليف

امين الريحاني

الجزء الأول

الحجاز – اليمن – عسير – نجد

والنواحي التسع المحمية

الطبعة الثانية

وقد صححها المؤلف وزاد في حواشيها

طبع في المطبعة العلمية ليوسف صادر . بيروت . سنة ١٩٢٩

اقدم

هذا الكتاب

للناشئة العربية الناهضة
في كل مكان

امين ريحاني

فهرس الجزء الاول

صفحة

صفحة

القسم الثالث

السيد الادريسي

القسم الرابع

لحج والنواحي التسع المحمية

فهرس الرسوم والخارطات

رحم الله كل من قال شعراً

اوَ لم تكن تدري نوار بانني | وصال عقد حبائل جذّامها
ترّاك امكنة اذا لم ارضها | او يعتقي(١) بعض النفوس حمامها

لبيد بن ربيعة

ساعد بارض تكون فيها | ولا تقـل انني غريب

اني اهتديت لركب طال سيرهم | في سبسب بين دكداك (٢) واعقاد (٣)

عبيد بن الابرص

اراعي نجوم الليل وهي كأنها | قوارير فيها زئبق يترجرج

الحارث بن حلزه

واني متى اهبط من الارض تلعة (٤) | اجد اثراً قبلي جديداً وعافيا

زهير بن ابي سلمى

وقد طوّفت بالافاق حتى | رضيت من الغنيمة بالاياب

امرؤ القيس

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً | ويأتيك بالاخبار من لم تزوّد

طرفة بن العبد

---

(١) يأتي (٢) الغلظ من الارض (٣ ما تعقد وتراكم من الرمل
(٤) المنخفض من الارض

المقدمة

١

كنت في الثانية عشرة من عمري عند ما سافرت المرة الاولى الى الولايات المتحدة • فلم اكن اعرف غير الشيء اليسير من اللغتين العربية والافرنسية ، وما كان في ذهني من العرب واخبارهم غير ما كانت تُسمعه الامهات في لبنان صغارهن • هس ، جا البدوي ! والبدوي والاعرابي واحد اذا رامت الام « بعبعًا » تخوف به اولادها •

هجرت وطني وفي صدري الخوف ممن اتكلم لغتهم والبغض لمن في عروقي شيء من دمهم • والبغض والخوف هما توأما الجهل •

اما الامة الافرنسية فما كنت اعرف من ام الارض سواها • ولكنها معرفة مطوّسة كانت المدارس تنشر اذنابها في لبنان : ان فرنسه لأعظم امم الارض ، هي اشرفها واغناها وارقاها • بل هي قطب المدنية ، وعاصمة النور والجمال — هي الطاووس بين الامم •

كذلك كانت مدارسنا مثل امهاتنا تسقينا العلم في كأس التمويه • الا ان في كأس المدارس حلاوة زادتنا كرهًا « لبعبع » الامهات • هي كأس الجهل في الحالين ، الجهل الذي يولد الخوف والبغض ، والجهل الذي يولد الحب والاعجاب •

اما اميركه فقد كنت في ما عرفته منها بعيدًا عن الام وعن المدرسة • تناولت الكأس من يد الوجود وقد ملأها الشعب الاميركي بنفسه • ومع ذلك فلم تخلُ مما امتازت به الكأسان الاوليان • رشفت في نيو يورك الجام تلو الجام

حرث العلوم المشوبة وفيها اشياء من الجهل المتلألئ وما يمازجه من الخوف والاعجاب ٠

غدوت بعد عشر سنين في اميركه معجباً بنشاط الشعب الاميركي وبحريته في الفكر والقول والعمل ، خائفاً من نتيجة الجهاد المادي هناك ومن التكالب في سبيل الحياة الدنيا ٠ وما كان خوفي على الامة الاميركية وانا في ذاك الحين ، في عين نفسي ، قطب كل ما اهتممت له ونقطة الدائرة في كل ما ملت اليه ٠ خفت ان اغلب في ذاك الجهاد ، اشفقت على نفسي من ذاك التكالب ٠

ونسيت فرنسه الا في آدابها ، تلك الآداب التي زادتني ضعفاً وتردداً في مضمار الحياة ٠ صرفتني عن حقائق الوجود المادية ، وزينت لي في الفنون الجميلة الحقائق المعنوية ٠ صرت في نيويورك كئيباً يحمل كتاباً ، وغاوياً من غواة الفنون يمشي في الجنائن العمومية سبهللاً ، فانفتحت امامي ابواب من العلم متعددة واتسع مجال الاضطراب والغرور ٠

ولكن الآداب الانكليزية عادت بي الى الشعب الانكليزي فوجدته في امور كثيرة ، اخلاقية واجتماعية ، ارقى من الشعب الاميركي ، او احب الى من كان مثلي ٠ فكان لي في ذا العلم عون على مقاومة تيار الاقتباس والتأمرك ، فلم اتخلق مثل سواي من السوريين هناك باخلاق الاميركيين كلها ٠ والفضل في ذلك عليّ هو لفيلسوفهم الاكبر امرسون الذي كان دليلي الاول الى محاسن الانكليز في ما كتبه عنهم وعن سجاياهم [1] ٠

وقد عرّفني امرسون الى كرْ ليْل ، وكان كرليل اول من عاد بي من وراء البحار الى بلاد العرب ٠ اجل ، وقد يستغرب قولي اني عرفت بواسطة الكاتب الانكليزي الكبير سيد العرب الاكبر النبي محمداً [2] فأحسست لاول مرة بشيء من الحب للعرب وصرت اميل الى الاستزادة من اخبارهم ٠

(١) « السجايا الانكليزية » English Traits by Ralph Waldo Emerson تأليف رَلف وُلدو اِمرسون ٠

(٢) الابطال Heroes and Hero - Worship by Thomas Carlyle وتأليه الابطال » تأليف طامس كرّليل وقد ترجمه الى اللغة العربية محمد السباعي ٠

ثم في غزواتي للكتب الانكليزية غنمت كتاباً استوقفني ظاهره الفخم وراقتني الصور فيه . وما كان العنوان لينبئني بشيء اكره او احب . قرأت كتاب الالهمبرا [١] فأدركت ان المؤلف يريد بالعنوان الحمراء ، وعرفت ان الحمراء هي لؤلؤة تاج العرب في الاندلس .

لله انت ايتها البلاد العربية التي لم يشأ الله ان اجهلك حياتي كلها ، فبعث الي ، وانا بعيد عنك ، انكليزياً يعرفني الى رسولك واميركياً يصف لي محاسن ابنائك .

بعد ان قرأت كتاب الحمراء مازج عقليتي الاميركية الافرنسية الانكليزية شيء من الخيال الشرقي ، فصرت احلم بذلك المجد الماضي احلاماً تمثلني حياً فيه بل تمثله حياً امامي .

عدت الى بلادي كئيباً يحمل كتاباً ، ويرغب في ان يكون الكتاب مئة كتاب وكتاب . وكنت لا اعرف من لغتي وآدابها غير اليسير اليسير ، فتغلغلت في سراديبها دون ان ارثي لحالي . وبينا انا اتخبط في دياجي اللغة عثرت على كتاب شعر انساني الكسائي وسيبويه وكل من علم حرفاً في البصرة والكوفة .

جمعني الله سبحانه وتعالى بابي العلاء المعري بعد ان هداني بواسطة الفيلسوف الانكليزي الى الرسول العربي . قرأت اللزوميات معجباً بها ، ثم قرأتها مترنحاً ورحت افاخر باقي من الامة التي نبغ فيها هذا الشاعر الحر ، الجسور ، الحكيم .

٢

عدت الى اميركه استصحب صاحب اللزوميات ، وكنت ترجمانه هناك . فساقتني المهنة الى الدائرة الشرقية في دار الكتب العمومية ، فاجتمعت فيها

(١) الالهمبرا تأليف واشنطون ارفنغ . The Alhambra by Washington Irving

يعدد من المستشرقين الذين صوروا لي الحياة رحلة في الارض دائمة ، وصوروا الارض بادية عربية نبغ فيها محمد بن عبدالله القرشي وامرؤ القيس الكندي ، الشعر والنبوة والدهناء ، والواحات في بحار من الرمال ، والنخيل في الواحات يهمس في اغصانها النسيم ، ويهز جذوعها السموم ، وصوت الساقية هي تغني للارض المنعمة في ظلال النخيل ، وبنية البدو تغني لجمل الساقية — وماذا في نيو يورك ؟

ماذا في نيو يورك غير الضوضاء والعناء والعياء والبلاء ؟

هذا الرحالة بلغراف [1] وترجمانه اللبناني الذي صار بعدئذ بطريركاً عظيماً [2] يحدثاني عن شمّر والقصيم والعارض والرياض . وذاك المستعرب بُركهارت [3] وقد دخل الى مكة حاجاً ، مسلماً صادقاً نقياً . وهذا العلامة بُرُتن [4] يقص قصة عجيبة بطلها بزّاز من سمرقند قد حمل الكيس — ثقتا هندي شاش حرير يا بنات ! ليكشف له اسرار الحريم . ثم ركب العيس، وكان دليله ابليس ، فاقتفى اثر بُركهارت لغرض في النفس ، ونظم قصيدة كفرية كفر بها عن كل ماأتيه في التلبيس

وهذا خليل [5] الذي راح يهول بنصرانيته في وجه البدو ، فقاسى في رحلته الاهوال ، ونجا غير مرة من مخالب الاضمحلال . اضطهد في بريدة ، وطرد من عنيزة ، وسُلب وضرب ، وترك في النفود يهيم على وجهه وليس في

---

(١) قلب البلاد العربية وشرقها تأليف وليم بلغراف . Central and Eastern Arabia by W. G. Palgrave

(٢) البطريرك الجريجيري .

(٣) سياحة في بلاد العرب تأليف جان بركهارت . Travels in Arabia by J. L. Berkhardt

(٤) الحج الى مكة والمدينة تأليف رتشرد برتن . A Pilgrimage to Al-Medina and Mecca by Richard F. Burton

(٥) التجوال في البلاد العربية تأليف شارلس دوطي وقد انتحل اسم خليل . Wanderings in Arabia by Charles M. Doughty

جيبه غير خمسة ريالات ، وليس في قلبه ذرة من التدليس والتلبيس . الدرويش خليل ، كأنه كان يهوى الاخطار فيجذبها اليه . خليل النصراني ، جاء بتعصب اسكتلندي يثير في العرب التعصب الاسلامي . خليل النصراني الكافر! قطوا رأسه بالسيف ! ولكن الله اخرجه من شبه الجزيرة حياً ليكتب كتاباً لا يموت .

وكل هؤلاء من الاجانب يسيحون في بلاد كانت قديماً ولا شك بلاد اجدادي ، ويخاطرون بانفسهم فيها حباً بالعلم ، فيكشفون منه المخبأ ، ويجلون المصدأ ، ويقربون البعيد ، ويغربون في اللذيذ المفيد . وانا في نيويورك كئيب يحمل كتاباً ، ويطرق للمحرر الانكليزي المتغطرس باباً . اديب شعره طويل، وصدره عليل ، يسرف من ذهب الحياة في تسويد المقالات . آلة كاتبة ، يرقص حولها الهم والامل متخاصرين . اف لها من زوجة نقاقة ، ومن حديدة لباب الشهرة دقاقة ، واية عبودية اشد من عبودية الآلة الكاتبة واخبث . طلقتها ثلاثاً ، وعدت الى بلادي اعد العدة لرحلة تبعدني عنها وعن الكتب والمجلات والادباء والادبيات .

وكان لي صديق في دمشق يجر قيوداً للسياسة ثقيلة فحاول التفلت منها . كسرها ذات يوم فأثار السلطة عليه ، فصفع السلطة وفرّ هارباً الى الفريكة . فحل فيها اهلاً ونزل سهلاً — سهلاً في القلوب ومنحدراً في الوادي . اقام محمد كردعلي عندنا اسبوعاً عددناه من شوارد الزمان . الوادي مهد الحرية وحصنها الحصين . سمعني صديقي اردد ذات يوم هذه الكلمات فقال : لا تنخدع ياامين . الوادي قريب من دمشق ومن بيروت وفي المدينتين للعبودية عبيد وللظلم اسياد رعاديد . لا بأس بالهمس : والحمد لله ! ولكنك اذا رفعت صوتك تسمعك الصخور فتنم عليك وعلي .

فقلت : صدقت ، وفي نيتي ان اهجر حتى هذا الوادي . في نيتي رحلة الى البادية ، الى البلاد العربية على هجين يبعدني عن كل مظلمة وكل عبودية . فهلل صديقي وقال : نسير سوية . واتفقنا يومئذ ان نستعين بتجار من نجد

في الشام يمهدون لنا السبيل و يزودوننا بكتب التوصية الى اهلهم وراء النفود ·

لكن الايام عدوة الاحلام ، او انها لا تحقق منها غير ما كان ناضجاً في القلوب · تأثرت السلطة الاثيمة صديقي كرد علي فاضطر ان يتركني وحدي في الفريكه و يفر هاربا من سورية · ثم سافر الى اوروبه فذاق من حلو المدنية فيها ما استلذه فاستزادها · فقالت له : عد فعاد ، فتعددت رحلاته من المشرق الى بلاد المغرب واثمرت ثماراً طيبة تجدها في كتابه القيم « غرائب الغرب » (١) ·

اما انا فقد طوحت بي الاقدار وابعدتني ثانية عن الوادي وعن البلادالعربية كلها · عادت بي الى نيويورك · ثم نكبت الانسانيـة بالحرب العظمى فزلزلت الارض زلزالها ، فاستعادت ما لها من التراب الذي كان بشراً مسلحاً محارباً ، وقضت ، في الكثيرين ممن استبقت ، على جميل الاحلام والامال ·



ومن الاحلام ما يصبح جزءاً من حياة الانسان فلا تنفك تزعجه وان شاخت ، فتحرضه وتستحثه حتى يسعى في تحقيقها و يفلح في مسعاه ·

رافقت العرب في خروجهم على الترك اثناء الحرب ، رافقتهم في المجلات الانكليزية والجرائد العربية فكنت اقوم في ما اكتب ببعض الواجب الذي يفرضـه الحب والاعجاب · وتوفقت في تلك الايام الى زيارة الاندلس فوقفت في الحمراء في الغرفة التي كتب فيها واشنطون ارفين كتابـه النفيس ، فسمعت اصواتاً تناديني باسم القومية ومن اجل الوطن ، وتدعوني الى مهبط الوحي والنبوة ·

اكبرت الملك حسيناً الذي استنفر القبـائل على الترك وارسل اولاده الامراء الاربعـة الى ساحات الوغى · وكان الناس في اميركه يعجبون

(١) غرائب الغرب ، كتاب اجتماعي تاريخي اقتصادي ادبي · طبع في جزءين في المطبعة الرحمانية بمصر · تأليف محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي بدمشق الشام ·

بروزفلت [1] الذي قدم ثلاثة من ابنائه الى وطنه ، فقلت : ولا يصغر العربي الهاشمي اذا قابلته بالاميركي الكبير . وعندما انتهت الحرب كان الملك حسين اول من صورته الامال ملكاً يفتح لي بابها . وبينا انا افكر في طريقة تحمل اليه امنيتي القصوى ، جاءتني مجلة صديقي سليم سركيس وفيها خبر زيارته لتلك السدة الهاشمية المباركة .

واهم من ذلك يومئذٍ عندي خبر قرأته مدهوشاً مسروراً . جاءني الصديق بصديق آخر ، وهو من الخلان الاولين الذين كانوا يزورونني في الفريكة بعد عودتي الثانية من اميركه ويشجعونني في اقبالهم على رسالتي كتابة وخطابة في سبيل الاصلاح الاجتماعي والتهذيب . وهذا الصديق هو قسطنطين يني الذي ابعدته عني الحرب العظمى وحرمتني اخباره . فجاء العزيز سركيس ، كأنه رسول العناية الي ، يبشرني بوجوده في خدمة جلالة الملك حسين .

هللت وكبرت . وتناولت القلم وكتبت تواً كتاباً الى العزيز قسطنطين فيه بين السلامين مئة سؤال وسؤال ، اولها : هل يأذن جلالة الملك بالزيارة ؟ وآخرها : هل ترافقني انت في هذه الرحلة ؟ وما مضى الشهر الاول وانتصف الثاني حتى جاءني منه الجواب وفيه ما يلي :

« اتفق ان وصل كتابك الي وجلالة الملك حسين في جدة فقرأته له كلمة كلمة وتباحثنا ملياً في الموضوع ... وهو يرحب بك اذا حضرت . ومن رأيه ان لا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها فهو يساعدك على زيارة الحجاز من اقصاه الى اقصاه ، ويعطيك المعلومات اللازمة ، ويطلعك على جميع العقود والنصوص والمفاوضات بينه وبين الدول من مطلع النهضة الى اليوم ليكون في استطاعتك تاليف كتاب عن العرب مستوفٍ من جميع ابوابه . ومن رأيه انك متى درست اخلاق قبائل الحجاز تكون درست اخلاق بقية القبائل لانهم كلهم متقاربون

[1] ثيودور روزفلت احد رؤساء الولايات المتحدة .

بالعادات والمشارب ... اما زيارتك الرياض وابن سعود فهذه مستحيلة لاستحكام العداء بينه وبين الحجاز ... والسياحة توافق ان تكون في فصل الشتاء ولا تستغرق اكثر من اربعة اشهر ولو انتهت في بغداد ... واني بكل سرور ارافقك حيث شئت ... اما الكعبة فلا يؤذن لك بزيارتها في الوقت الحاضر للاسباب المعروفة ... والسياحة تكلفك لا اقل من خمسمئة جنيه . »

في هذه المعلومات يبدو للقارىء شيء من سؤالات سألتها ولم اقف فيها عند حد من حدود التحفظ والمداراة . ولا لوم علي ، وانا بعيد حقيقة وعلماً عن البلاد العربية ، اذا استنرت بكل ما ينيرني في رحلتي قبل ان اقدم عليها . ولكن سؤالي عن زيارة الكعبة ، وانا مسيحي ، يليق باميركي لا يعرف من العالم غير بلاده ، فاذا قيل له انه لا يؤذن للمسيحي بالدخول الى مكة اعتراه الدهش والعجب .

اما انا فما دهشت ولا اسفت . بل كنت اعلل النفس بتحقيق امنيتي بعد ان اقابل جلالة الملك . كيف لا وهو زعيم النهضة العربية القومية الاصلاحية، ومنقذ العرب الاكبر ، كيف لا والمسيحيون السوريون من العرب ، والاخاء والمساواة ركنان من اركان النهضة . ما اغرب الاحلام التي كنا نحلمها في بلاد الغرائب وما ابعدها . لا اظن ان من كان قادماً من القمر او المريخ يحلم احلاماً اغرب منها واعجب .

وفي معلومات قسطنطين مما استرعي له نظر القارىء ايضاً قول جلالته : « ان لا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها . » ولكنني لم اتقيد بهذا القول لاني كنت اعرف في الاقل اوليات الجغرافية العربية ، واتأكد ان « من يزور الحجاز من اقصاه الى اقصاه » لا يكون قد زار البلاد العربية كلها ولا جزءاً كبيراً منها . وهناك غير ما تقدم من المعلومات التي تأكدت بعدئذ الخطأ او التحفظ او القصد السياسي فيها . وما كان صديقي غير ناقل في اكثرها

كلام جلالة الملك الذي لم يشأ على ما يظهر ان ازور غير الحجاز · وقد خبر قسطنطين ما خبرته في اليمن مثلاً وعسير بخصوص القبائل التي يختلف بعضها عن بعض في الملابس والمشارب والعادات · وتأكد مثلي ان من يزور الحجاز فقط لا يستطيع ان يؤلف كتاباً عن العرب مستوفياً من جميع ابوابه · وادرك بعد رحلتنا الاولى من جده الى عدن بان نفقات السياحة ستكون ضعف ما ذكر ، وان مدتها قد تتجاوز السنة ولاسيما اذا تمكنت من السياحة في نجد · وما كانت زيارة الرياض وابن سعود ، والحمد لله ، بالامر المستحيل · على اني اذا ما ذكرتها الان اضحك من تلك البساطة التي حملتني على توجيه السؤال بخصوصها الى جلالة الملك حسين · انها لبساطة تدنو من البلاهة لان ليس فيها شيء من الخبث ·

٤

وهذا الكتاب وفيه ترجمة سبعة من امراء العرب غير الحسين بن علي ، وكلهم ملوك وان اختلفت الالقاب مستقلون بنعمة الله بعضهم عن بعض ، وجاهلون شخصياً بعضهم بعضاً · فاننا اذا استثنينا الملك حسيناً وابنه الملك فيصلاً لا نجد بينهم ، او في الاقل بين الكبار منهم ، من يعرف زميله الملكي معرفة شخصية خاصة ، او يعرف من الاقطار العربية معرفة حقيقية تامة غير القطر الذي هو حاكمه ·

ليس في ملوك العرب اليوم ملك ساح في البلاد العربية كلها ، وليس فيهم من يستطيع ان يقول : انني اعرف بلاد العرب وحكامها وسكانها وقبائلها واحوالها الاقتصادية والزراعية وشؤونها السياسية الداخلية والخارجية مما لدي من تقارير العارفين واخبار المنزهين عن الاغراض السياسية والتحزبات المذهبية · ولا استثني من هذا القول الملك حسيناً او الامام يحيى او السلطان عبد العزيز آل سعود ·

قد يكون الملك حسين اكثرهم علماً باحوال سكان البلاد من بدو وحضر ، و بمذاهبهم ونزعاتهم ونعراتهم وعداواتهم وسياسة امرائهم ، لان مركزه المشرف بالكعبة التي يحجها المسلمون من البلاد العربية كافة بل من اقطار العالم الاربعة يساعده على ذلك . وقد يعرف من احوال جاريه الادريسي وابن سعود ما يستطيع ان يستند اليه فينفعه في سياسته الحجازية ، ولا ينفعه بل قد يضره في سياسته العربية . اريد بذلك ان علمه ، وان تجاوز ما يتناول قبائل نجد وعسير وما يستطيع كل من حاكميها ان يجند من الناس ويجمع من المال ، ومن لهم النفوذ الاكبر في بلاديهما ، فلا يصل ذاك العلم الى عقلية الادريسي مثلاً او الى قوة ابن سعود الشخصية والمعنوية . ان لسلطان نجد في ذهن الملك حسين صورتين لا ثالثة لهما . صورة تجسم نبوغه فلا يكترث بها وصورة تنفي ذاك النبوغ فيعول عليها . فكيف السبيل مع هذا الجهل الى التفاهم والولاء ؟

اما الامام يحيى فلا شك انه يعرف ، وهو العالم الاكبر في امراء العرب ، اقطار اليمن وعسير وحضرموت وبعض الحجاز معرفة حقيقية تامة . ولكنه يجهل البلاد النجدية وسلطانها وحقيقة حال اهلها من بدو وحضر . او انه لا يكترث بذلك . ولا شك ان السلطان عبد العزيز اكثر ملوك العرب علماً بالقبائل والعشائر في نجد والحجاز وبلاد الشمال وفي مسقط وعُمان وما يليهما . ولكنه قلما يكترث اذا ذُكر اليمن في غير السياسة . فاذا حدثته عن عادات اهل ذاك القطر القديم واحوالهم الزراعية والاقتصادية والاجتماعية فكأنك تحدثه عن شعب ليس بعربي فيتفكه و يستفيد .

لست مبالغاً اذا قلت ان ليس في البلاد العربية اليوم رجل واحد يعرف البلاد العربية كلها . وليس في العالم اليوم و يا للاسف من يحيط علماً بالاقطار كافة وبشؤونها جمعاء ، بحكامها وقبائلها وزراعتها وصادراتها وخراجها وحروبها ، ومشايخها وامرائها ، و بكل ما يختص بامورها السياسية الداخلية والخارجية غير الحكومة الانكليزية او بالحري وزارة المستعمرات فيها . فهي تصدر كتاباً عن

البلاد العربية [1] مبنياً على تقارير وكلائها السياسيين والسياح العلماء ، تصححه وتعيد طبعه كل بضع سنوات مرة . وهو مع ذلك لا يخلو من الاغلاط اذا نظر في ما يختص بكل قطر منه ابن البلاد العالم بشؤون القطر المذكور كلها . زد على ذلك ان الكتاب لا ينشر للعموم وقلما يُرى خارج الدوائر الرسمية .

ولا اظن ان من وظيفة الحكومة الانكليزية او من واجباتها ، فضلاً عن ميلها ومصلحتها ، ان تعرّف ملوك العرب بعضهم الى بعض ، او ان تطلعهم على احوال الاقطار العربية كلها . ولا اظن ان احداً من ابناء العرب يستطيع ان يقوم بهذا الواجب دون ان يرحل الرحلة التي رحلتها .

فها انا اذن في هذا الكتاب ، ولا فخر ولا اعتذار ، اعرّف اسيادي ملوك العرب بعضهم الى بعض تعريفاً يتجاوز الرسميات والسطحيات . وليتأكد اسيادي ان ليس في الثناء في ما كتبت تزلف او مداهنة ، ولا في النقد تشيع او تحامل . انما غايتي القصوى تمهيد السبيل الى التفاهم المؤسس على العلم والخبر اليقين . ولا علم ولا يقين الا في تبديد الاوهام ، وانارة الاذهان .

ٮ

وفي هذا الكتاب من النقص ما ينبغي ان اشير اليه . كان قصدي الاول ، عند ما سافرت من نيويورك ، ان اسوح في الحجاز واليمن ونجد لعلمي ان في هذه الاقطار الثلاثة تجتمع العرب كافة . ففي اليمن قحطان ، وفي الحجاز ونجد فرعا عدنان اي مضر وربيعة .

ولكن المشاهدات الاولى غيرت من قصدي فشذبت ونقحت فيه حتى

---

(١) Manual of Arabia هو كتاب تاريخي احصائي سياسي جغرافي في البلاد العربية تطبعه وزارة المستعمرات وتوزعه على الوكلاء السياسيين والقناصل والسفراء لدولة بريطانيه العظمى فقط .

اصبح يشتمل على كل ما في شبه الجزيرة خارج الحجاز من امارة او شيخة مستقلة ٠

اما الحجاز وان كان اصغر الاقطار الاربعة الاولى مساحة ، واقلها عداً ، فهو اهمها مركزاً ، واولها في السياسة الدولية مقاماً ٠ وقد صار بفضل جلالة الملك محط رحال الوطنيين من العرب المجاهدين في سبيل الوحدة العربية ٠ فقل من لا يعرف شيئاً عنه ٠ الحجاز كتاب مفتوح ٠ واهم ما في الكتاب اليوم ما عدا الحرمين هو الفصل الذي عنوانه : الملك حسين والنهضة العربية ٠ فقد اكتفيت بهذا الفصل ووليت وجهي الاقطار الاخرى ابغي زيارتها كلها ٠

ولكني لم اتوفق الى ذلك ٠ ازمعت السفر الى حضرموت عندما كنت في عدن ، فاجتمعت وانا في بيت شركة البواخر الهندية بربان البويخرة التي سافرت فيها الى جيزان ٠ وكانت هذه المرة تقصد المكلا ميناء حضرموت فقلت للربان : اني معك ثانية ، فضحك وقال : لا اظنك تهوى الحياة ٠ فقلت : واي خطر على الحياة في بحر العرب وفي فصل الصيف ؟ فأجاب الملاح الانكليزي : هو فصل الموت — فصل الا « منصون »[1] ٠

ثم قال : وليس لمكلا ميناء ترسو فيه ٠ وقد لا تسمح الانواء بالرسو في عرض البحر ٠ وانت تعرف باخرتي ، عرفتها في هدأة البحر الاحمر ٠٠ وماذا في حضرموت ؟ اقبل نصيحتي الخ ٠

فانتصحت آسفاً ٠ فجاء هذا الكتاب وليس فيه غير بعض الشيء عن حضرموت اخذته عن رجال من ذاك القطر اجتمعت بهم في عدن والحديدة ٠ وهذا اول نقص فيه ٠

اما مسقط وهو البلد الاول في شبه الجزيرة الذي دخله الاوروبيون.

---

(١) المنصون Monsoon ريح تهب في اشهر الصيف من الجنوب الغربي وتجري في بحري الهند والعرب شرقاً لشمال فتحمل الامطار الى الهند وجنوبي اليمن ٠ وهي ريح صرصر شبيهة بريح السموم في الصحراء تشتد منها الانواء في الاوقيانوس الهندي والبحر العربي اشتداداً يروع حتى الملاحين ٠

والامير كيون [1] فإظني ان العروبة فسدت فيه لم اعرج عليه وما ملت اليه ٠ وقد اكون مخطئاً فأتوفق في المستقبل الى تلافي هذا النقص الآخر في الكتاب ٠

وهناك عمان وقَطر ، تلك البلاد التي تمتد من الساحل تجاه البحرين جنوباً الى مسقط ، وفيها اربع او خمس شيخات مستقلة ٠ فما عذري فيها ؟ اجيب بكلمة واحدة : العجز ٠

عندما عدت من رحلتي في نجد رأيتني مرتويًا الى حد يخشى مع الزيادة الاستسقاء او بالاحرى امسيت وذهني ونفسي كالاسفنجة وقد امتلاءت ماء فلا تحتمل من الزيادة نقطة واحدة ٠ وما رأيت ، وانا في البحرين ، ان ازور تلك الشيخات في عمان قبل ان ازور سلطان العرب الاكبر في الرياض ٠ فلم آسف على ما خسرت في جنب ما كسبت ٠ ولكنني لا ازال اعلل النفس بما فات ، فأضيف في المستقبل ان شاء الله قسماً آخر الى الكتاب او قسمين أفي فيهما عمان ومسقط وحضرموت حقها ٠

بقي ذاك القطر الجديد في الشمال الغربي الذي أنشأته السياسة الجديدة سياسة « بعد الحرب » وامّرت عليه النجل الثاني من انجال الملك حسين الامير عبد الله ٠ فما تلك الامارة في اعتقادي من الامارات العربية الثابتة الدائمة ٠ قد لا تزول في عهد اميرها الاول ، وقد يكون اميرها الاول الحامل غداً لواء الاتحاد الى ما وراء الاردن او الى ما دون العقبة وتبوك ٠ اما اذا فازت سياسة التقسيم وثبتت امارة شرقي الاردن فالعذر سلفاً الى سمو اميرها ، والتكفير ولو مؤخراً اذا ابقانا الله واياه على مسرح الحياة ٠

---

(١) في ٢١ ايلول ١٨٣٣ عقدت حكومة الولايات المتحدة بواسطة وكيلها الخصوصي ادمون د. برتس Edmund Roberts معاهدة ولائية تجارية مع سلطان مسقط سعود بن سويد ٠

٦

وفي هذا الكتاب طائفة من الآراء التي تهم العرب خصوصاً والاسلام عموماً ، والتي تهم الاوروبيين عموماً والانكليز خصوصاً ، يجدها القارىء في مكانها من البحث . اما الذين لا تهمهم السياسة بقدر ما يهمهم العلم والادب ، واخبار الاسفار ، فقد اخصصتهم بقسم مما كتبت . وقد اتخذت في ذلك اسلوباً يقرب من القارىء ما شاهدت بعيني ، وسمعت باذني ، ولمست بيدي ، فيمثله ، اذا تم القصد الفني ، حياً لديه .

وليس في الكتاب ، ادباً كان او سياسة ، وصفاً او نقداً ، الا الحقيقة غير المجردة ، لان في التجرد ، في العري ، شيئاً من سوء الادب ، لاسيما اذا كان المجرد والمجرِّد في الغربة . ولا ينسى القارىء عافاه الله اني جئت الى البلاد العربية من ارض قصية يكثر فيها التجرد حقيقة ومعنى . ثم سحت في بعض ارض الهند حيث يستشعر الناس الهواء ولا يلبسون احياناً غير نسيج من الشمس والغبار . فسئمت التجرد . ولكنني لا اخفي الحقيقة في ما ألبسها . وكأنني بالقارىء يقول : ان في احتجاجك على العري شيئاً من الدهاء . فاعتذر اليه في ما قد يعد مكابرة اذا اعترفت بالذنب . نعم ، وفيه كذلك شيء من تلك الصناعة التي يندد بها ارباب الدين على الدوام ، وتمارسها على الدوام النساء .

وما الضرر في اليسير من المساحيق والالوان ، وفي المهلهل المطرز من الكساء ؟ اذا كانت الحقيقة المجردة جميلة فهي في ثوبها المهلهل اجمل واذا كانت تؤلم فهي في زينتها ادعى الى الالم والحزن . الا انها في كل حال لا تجالس التعصب ، ولا تدنو من التشيع والتشنيع . فمن هذه الوجهة لك ان تحسبها ايها القارىء العزيز مجردة كل التجرد .

وقد تجيء في بعض الاماكن ناقصة او مخطئة ، شأن كثير من الامور والافكار البشرية . ذلك لان النقص في كل ما يرى ويدرك موجود ،

والخطأ لا يستدرك كله . فقد بذلت في التحقيق والتدقيق طاقتي ، ولا عذر مع جهد تناهى .

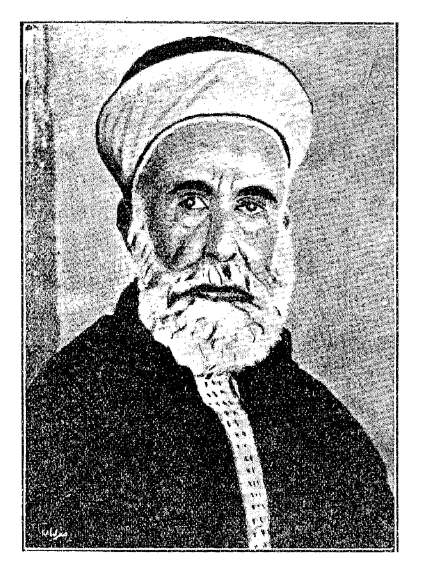
على اني متيقن ان كل من يطالع الكتاب من الناطقين بالضاد مهما كان علمه في البلاد العربية واهلها يجد فيه بعض الشيء الجديد المفيد . ولاخواني الادباء خاصة ، في سورية كانوا او في مصر واميركه ، اقول : تعالوا سيحوا معي فاعود بكم الى ما ابعدكم عنه التفرنج والتأمرك ، الى حقائق لمسنا ظلها في آداب العرب القديمة ، والى حقائق انستنا اياها الايام والغربة ، والى حقائق يجهلها كثيرون حتى من العرب انفسهم ، والى حقائق ننقلها عن علماء الافرنج ملتوية مشوهة .

تعالوا سيحوا معي فاعود بكم الى بلاد عجيبة مهما كان فقرها ، والى شعب كريم مهما كانت آفاته ، والى امة حرة ابية مهما كانت ذنوبها . ايها الاخوان الادباء ان في اكثر المدارس السورية اليوم روحاً اجنبياً من شأنه ان يبعد السوريين واللبنانيين عن كل ما هو عربي في غير اللسان . ولو استطاع لابعدهم كذلك عن اللسان — لقتل فيهم حب اللغة العربية . وفي البلاد اليوم سياسة تعضد المدارس في خطتها فتوسع الثلمة بيننا وبين العرب وبلادهم . أنظل دائماً حيث كنا منذ خمسين سنة ؟

اعود الى الكلمة التي افتتحت بها هذه التمهيدات . ان البغض والخوف توأما الجهل ، ومن الجهل ما يولد الحب والاعجاب . وان الروح الذي يسعى في ابعادنا عن العرب لا يفلح ان شاء الله في مسعاه . فقد بددت الايام تلك الاوهام التي صورت لنا الكمال كله في الامة الافرنسية ، وعسى ان هذا الكتاب يبدد الاوهام التي صورت لنا «البعبع» في العرب .

امين الريحاني

الفريكه ، لبنان
في ٢٧ ايار سنة ١٩٢٤ و ٢٢ شوال سنة ١٣٤٢



جلالة الملك حسين بن علي

القسم الاول

الملك حسين بن علي

الحجاز

حدوده : يحده شمالاً العقبة وامارة شرقي الاردن ، وجنوباً القنفذة وجبال عسير ، وغرباً البحر الاحمر . اما شرقاً فحدوده مختلف عليها وغير معروفة اليوم تماماً

عدد سكانه : نحو ثلاثمئة الف واكثرهم من البادية

مساحته : نحو خمسة وسبعين الف ميل مربع

اهم قبائله : حرب وعتيبة وجهينة والحويطات وبنو ثقيف وبنو سفيان .

الاشراف : العبادلة (ومنهم البيت المالك) وذوو حسن وقريش

اهم بلدانه : في الداخل : مكة والمدينة والطائف . وعلى البحر : جده وينبع والوجه

مذاهبه : السنة : حنفيون وشوافع ، والشيعة : جعفريون وزيديون

الفصل الاول

البدو والحضر

التلفون في الحجاز — عربية لا رطانة فيها — قدوم الملك — رسمه وحقيقة محياه — الديمقراطية العربية — العقال والعمامة — الحضر والترك — تقبيل اليد والركبة — المقامات والقبلات — البدو — خشونة الحرية — التاجر والمقاتل — الملك بين الاثنين — اللغة التي يفهمها البدو — الانكليز — العرب والاسلام — السوريون في اميركه — الملك يدعوهم الى الحجاز ·

في اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط ١٩٢٢ (٨ رجب سنة ١٣٤٠) وطئت لاول مرة ارضاً في شبه الجزيرة العربية وقابلت ملكاً ما عرف الغربيون غيره من ملوك العرب · جئت من نيو يورك ازوره وفي قلبي بعض التردد مما تصورته في رسمه الذي نشرته الجرائد ، وجاء من مكة وفي ذهنه صورة وشهرة جسمها لديه صديق لي في خدمة جلالته ، بل صديقان ، هما قسطنطين يني والشيخ فؤاد الخطيب · وقد اجتمعنا في جده يوم وصلت اليها · وكانت اولى دهشاتي فيها ان محافظ المدينة الذي تفضل فلاقاني على الرصيف بلّغ جلالة الملك بالهاتف خبر وصولي ·

الهاتف في مكة المكرمة ! ولكنه مستعرَب تماماً · فالحجاز هي البلاد العربية الوحيدة التي لا تسمع فيها : آلو آلو · الناس هناك يهتفون ويتحادثون بلغة عربية لا رطانة البتة فيها ·

— مركز ، اعطني مكة ·

ولا انتظار ، ولا ابطاء ، ولا تسويف ، ولا مشاتمة :

— مكة ، محافظ جده يتكلم · الديوان · خير · قل لجلالة الملك · · · خير · · خير · · ابشر ·

ثم كلمني المحافظ قائلاً : سيدنا لم يتأكد قدومكم في هذه الباخرة ، لذلك

لم ينزل لملاقاتكم . ولكنه يجيء اليوم .

وبعد ثلاث ساعات من حديث الهاتف جاء رسول يقول : سيدنا دخل البلد - ثم سمعنا صوت السيارة في الشارع فسارعنا الى باب القصر ننتظر قدوم جلالته . وكان قد اجتمع هناك نفر من اعيان جده وعلمائها .

وقفت امام الباب سيارة فخمة فخرج منها ناظر الخارجية ، ثم ناظر المالية ، ثم الامير زيد ، ثم الملك حسين .

صافحته مسلماً سلاماً عربياً — حي الله مولاي بالخير . ولا اذكر بأية كلمة حياني . ولكني لا انسى اننا في صعودنا الدرج كان يتلطف فيأخذ بيدي لاسير الى جانبه .

دخلنا ردهة الاستقبال في الطابق الثاني ، وهي طويلة تشرف على البحر غرباً وشمالاً . وليس في فرشها ما يمتاز عن فرش البيت ، بيت الضيافة ، الذي انزلت فيه . ان البساطة لتدنو في القصر من التقشف ، تتبدو في السجاد العادي ، وكراسي الخيزران ، والدواوين المغطاة بقماش من القطن ، والجدران العادية الخالية حتى من الايات ، كأنها تتنازل الى شيء من المدنية اكراماً للزائرين الاجانب فقط .. ولكنها الديمقراطية العربية في بعض مظاهرها التي تروق على الخصوص القادمين من البلاد الاميركية . وهناك مظاهر اخرى في ظاهر صاحب الجلالة ، اي في حديثه ، وفي لبسه ، وفي اكرامه الضيف .

من عادة المصورين انهم بصناعتهم يحسّنون في بعض الاحايين صور الناس . ويظهر عفواً في رسوم بعض الناس شيء من الحسن قلما يبدو في وجوههم . اما رسم الملك حسين الذي نشر في اوروبه واميركه اثناء الحرب فهو لا يشبهه ، ولا يمثل ما في وجهه من البشاشة وقد مازجها شيء من الغم ، ومن الجلال المقرون باللطف وليس فيه تصنع واعتناء .

وكانت دهشتي الثانية اني اجتمعت بمليك كنت اظنه من رسمه رجلاً قطوباً جافياً قاسياً . فكذب ذلك الرسم الوجه منه والحديث . اجل ان في محيّا

الملك حسين سيماء جلال طبيعي لم اشاهد مثله في غيره من ملوك العرب · بل فيه تتجلى روحانية شرقية قرنت بالتأدب الغربي · ولا غرو ، وهو من بني نُمَي من سلالة الرسول ، وقد اقام عشرين سنة في الاستانة · ان لحديثه اذن مصدرين من الانس والكياسة ، الاول اخلاقي نبوي ، والثاني اجتماعي اكتسابي·

وفي وجهه ما يفصح عن الاثنين مما غاب ويااللعجب في رسمه · فهو رقيق الاديم صافيه ، عدل الانف دقيقه ، له جبين رفيع وضاح يظهر بكمال بهائه عندما يرفع العقال ويلبس العمامة · وفي ناظريه نور يشع من حدقتين عسليتين تحيط بهما هالة زرقاء · وله فوق ذلك ابتسامة ما عرفت اجذب منها للقلوب غير ابتسامة خصمه ابن سعود السلطان عبد العزيز ·

اما صوته فألطف من النور في عينيه · واما انامله فان فيها دليلاً افصح واصدق مما في كتب الانساب على طيب الارومة والشرف الاثيل · وقد كبرت هذه المحاسن في نظري لانها عارية من مظاهر الابهة والجلال · فانك لا تميز الملك عن احد مشايخ العرب اذا كان مسافراً لولا عقال من الحرير اصفر فوق كوفية اخف اصفراراً منه · وهذا العقال ارث ثمين · هو عقال بني نُمَي ، عقال بيت الشريف ، بل تاج الملك فيه · واذا اعتمّ الملك فلا ترى فرقاً بينه وبين احد الاعيان او العلماء لولا ذؤابة عمامته البيضاء · هاك في القيافة مظهراً من مظاهر الديمقراطية التي يشاهدها السائح في كل ملوك العرب وامرائها ·

جلس الملك في زاوية من الديوان واشار الى يمينه فجلست وفيّ بعض الحياء من التصدر في حضرته · ثم دخل اعيان جده وكبارها مسلمين على صاحب الجلالة ، المنقذ الاكبر ، مهنئينه بقدومه السعيد · فانتبهت في سلوكهم الديمقراطية · وغدوت حائراً لا ادري ايبتدىء في الحجاز التترك في البلاد العربية ام ينتهي ·

دخل عرب المدينة ، عرب جده ، مطأطئين الرؤوس ، مكتفين ، صامتين ، خاشعين · فكان الواحد منهم يقبل يد الملك مرة ، والاخر مرتين ، والآخر

ثلاث مرات · ومنهم من قبل منها الكف والظهر ، ومنهم من زاد على ذلك فقبل الركبة الملكية · وكان جلالته يأذن بذلك ويقبل بعض الزائرين في وجوههم · وقد يسحب يده مانعاً من هم ارفع مقاماً من الجميع ، اي الاشراف العبادلة وهم اقارب الملك الادنون ·

ان التقبيل درجات اذن في الاحترام وفي العبودية · وكل من المقبلين والمقبَّلين يعرف مقامه فلا يتعداه ، ولا يخجل من ان يعرفه سواه · اجل ، ان بين من يقبل ركبة الملك ومن يقبله الملك في جبينه ، او يمنع عنه يده ، بوناً شاسعاً في المقامات لا يخفى على احد من الناس · واذا خفي على عرب البادية ، على البدو ، فلانهم لا يفهمون هذه الرسميات او لا يكترثون بها ·

يجيء البدوي الى البلد فيقف تحت نافذة القصر وينادي : « يابو علي » وهو سامد الرأس ، صريح الكلمة ، لهجته لهجة الاكفاء والقرناء · قل هي لهجة ابناء القفار · والملك حسين يقبلها كما يقبل قبلة الاحترام والاجلال من المتمدنين المتركين · بل يقبل فروض العبودية من الحضر باشاً كما يقبل هاشاً من البدو خشونة الحرية وسماجتها · ولا يتغير في الحالين ، ولا يأمر بتهذيب هذا او بتثقيف ذاك · ايدهشك منه هذا السلوك الملكي النبوي ؟ هو اعلم مني ومنك بامور ملكه وبدعائم السيادة فيه ·

ان الحضري عادة تاجر ، والبدوي غالباً مقاتل · والاثنان لازمان ، فنأخذ من الاول لنعطي الثاني ، ونذل الاول احياناً لنتمكن من الاخذ والعطاء ، ولاسيما اذا كان الثاني خشن الخلق ، صعب الشكيمة ، ويحمل فوق ذلك البندقية · والبدوي لا يفهم غير لغتين ، لغة الدينار ولغة السلاح ، بل لغة القوة التي تتمثل في سلاح امضى من سلاحه وساعد اشد من ساعده · اما جلالة الملك حسين فلسوء الحظ لا يحسن في معاملة البدو اليوم غير لغة واحدة هي لغة الدينار · وسنعود في ما بعد الى هذا الموضوع ·

— البدو ياحضرة الفاضل ساذجون فقراء · ولكنهم صادقون · اقول : صادقون · وهم يرعون العهود ·

في النصف الثاني من كلام جلالته نظر ، بل فيه باب للريب فسيح . الا انه اراد كما علمت بعدئذ غمز قناة الانكليز الذين لا يشبهون البدو في سياستهم وفي عهودهم . وقد عاد الى هذا الموضوع مراراً في المقابلات التالية . انه في احاديثه السياسية كثير الالغاز والرموز ، قلما يصرح بفكره ، وقلما يشرّف عدوه بذكره . ولكنه في الجلسة الاولى لمس من الموضوع اطرافه واستعاض عن البحث بذكر الايات ورواية الاشعار . وهو شغف بالاولى وله حافظة لا تزال على سنه قوية .

كان الكلام في العرب والاسلام . وكان جلالته يدعم كل ما يقوله بآية او بحديث شريف او ببيت من الشعر — « من اعز العرب اعز الاسلام — اعتصموا جميعاً بحبل الله ولا تفرقوا — الاسلام ياحضرة النجيب لا يقاتل غير من اعتدى عليه — لا نحارب الا دفاعاً عن انفسنا . اقول : دفاعاً عن انفسنا . الاسلام يعلم البساطة والصدق والمساواة والقناعة ... وليس ما يمنع المسلمين من الزواج بالمسيحيات .. حبذا السوريون لو جاءوا من اميركه واقاموا في الحجاز يتاجرون ويسعدون . اقول : ويسعدون فيساعدوننا في تشييد الملك العربي وتعزيز الوحدة العربية » .

وكنت قد رفعت الى جلالته سلام اخوان لي في نيويورك وتحيات بعض العرب والمستعربين في مصر .

— نحن نشكركم على هذه الزيارة ونكبرها منكم . فقد جئتم من اقاصي البلاد واعظمها ، اقول : واعظمها ، الى بلاد متأخرة فقيرة بينها وبين الحضارة مراحل طويلة . ولكنكم جئتم تلبون دعوة القلب . سمعتم ، ياحضرة النجيب صوت الضمير . عدتم بعد هجرة طويلة الى الاصل . بارك الله فيكم .

في صوت الملك حسين الدمقسي خفوت تضيع عنده الكلمة فيعيدها مثبتاً ممكّناً — اقول ياحضرة النجيب — كذلك يتكلم .

وكان اعيان جده وكبارها جالسين على الدواوين وهم مثل التماثيل في معابد المسيحيين لا يفصح عن حالهم غير السكوت والخشوع . ثم نهضوا مستأذنين ،

وقبلوا يد الجلالة مودعين كما قبلوها مسلمين · فنهضت على اثرهم فأشار جلالته تلطفًا ان اجلس · فعدت الى مكاني · ثم قال ، والاعتذار في صوته وكلامه ، صحيح فصيح : ان حياتنا في هذه البلاد غير ما ألفت يا ايها العزيز ، وخشونة العيش عندنا لا يشفع بها غير الحب والغيرة ··· فحاولت ان اباريه في هذا الميدان فذكرت التنازل الجميل في مجيئه من مكة ليقابلني · فأسكتني باشارة من يده ، وافحمني ، بل زادني خجلاً وعيًا ، اذ قال : وهلا نقطع فرسخًا لنلاقي من قطع البحار وتجشم الاخطار في زيارتنا ؟

الفصل الثاني

من الضب الى الطب

التبادل بالمحامد والواجبات — الانكليز — دواء النبط — الناظر الجبان الحشرات والدبابات — الضب — درس في علم الحيوان — اعقد من ذنب الضب — فصل انكلتره — انتقام الملك — اضحوكته — افصح المحدثين والطف الجلساء — الغاز الديوان الهاشمي — التعقيد في السياسة — شخصية ساحرة — ألباقي من قريش — بنو سعد — الطب — الكي — «وقد يشفيك الله بواسطة طبيب من بني سعد» — مجيء الطبيب من مكة — العلاج ·

ان الملك حسيناً ليعتقد بمبدأ التبادل في المحامد والواجبات ، ان كان في السياسة او في الاجتماعيات · وعنده من الدين على ذلك براهين · لقد امرنا الله بالصوم والصلاة وتأدية الزكاة ، ووعدنا في مقابلة ذلك بالجنة · هذا هو التبادل بالمحامد والواجبات · وقد اخذ الانكليز منا عهداً في القتال فاقمنا على العهد ، وقطعوا لنا عهداً بالاستقلال والوحدة العربية ، ولكنهم ويا للاسف نقضوا العهود ·

عندما يذكر جلالته الانكليز يستحوذ عليه الحنق والغم فينادي احد نظاره ، الناظر الحضرمي ، ويكون قد دبر له حيلة للتسلية او مفزعة ينشرح لها صدره · والناظر الحضرمي ضعيف العصب ، سريع التأثر من غريب الحركات والاصوات ، شديد الخوف من الحشرات والدبابات وفي المبادهات · وبكلمة صريحة هو جبان — الجبان الاول في الديوان الهاشمي ، اما الثاني فهو الناظر الشاعر · اذ كل شاعر في رأي جلالته جبان ·

اما الملك حسين فلا الاصوات ولا الخيالات ، ولا « بعبع » السياسات يحدث فيه ما يعد عيباً في الرجال · انه لشديد البأس ثابت الجنان · يوم ضرب الاتراك مكة والكعبة كانت تقع قنابلهم على قصره وهو فيه ثابت لا يبالي · اما

الاتراك فهم في نظره مثل الحشرات والدبابات التي يرثي لحالها ويستخدمها احياناً لترويع الناس . فقد علمت انه شغف بها ويدرس اخلاقها وعاداتها . وقد يكون فيها فائدة خاصة لجلالته ، لانها بمساعدة الناظر الحضرمي تبدد الهموم الملكية ، وتذبح الغم الاكبر الذي يتولاه لمجرد ذكر الانكليز .

جاءني احد عبيده ذات ليلة يقول : سيدنا يبغيك . فأسرعت اليه فاذا بقنصل بريطانية العظمى هناك . وبعد ان حدثنا ساعة عن الابل والاهوية في الحجاز ، وعن البدو وعاداتهم ، سألني قائلاً : أتعرف ايها العزيز الضب ؟ فقلت : في الكتب فقط يامولاي . فقال : سنريك الضب حتى اذا كتبت عنه تحسن الوصف . وضرب كفاً على كف لخضر عبد من العبيد — هات الضب .

نظرت الى القنصل وكان ينظر اليَّ ، كأن قد خطر بباله ما خطر ببالي ، فتبادلنا ابتسامة فيها الدهش والاعجاب من هذه الجلسة الملكية التي صار فيها جلالته استاذاً في التاريخ الطبيعي والحيوان .

دخل العبد وبيده حيوان شبيه بالحرباء فأخذه الملك منه ووضعه على الديوان بينه وبيني .

— هذا ياحضرة الفاضل الضب ، وهذا ذنب الضب . قال ذلك وهو يربته بيده . « اعقد من ذنب الضب » ترى ان المثل صادق . وذنبه هو سيفه ودرعه .

قال القنصل : انه يشبه الحرباء واظنه هو بعينه . فترجمت كلامه لجلالة الملك فقال : الحرباء غير الضب ، والفرق البيّن في الذنب .

ثم اومأ الى القنصل ان تقدم والمسه . فنهض ودنا من الضب ، فأخذ الملك بيده ووضعها على الذنب الشوكي وضغط عليها . فبدت في وجه القنصل علائم الالم فضحك جلالته ، واستأنف الحديث — هذا ضب صغير ياحضرة القنصل ، وقد رايت منه ما يزيد طوله الباع — كأنه ضب السياسة . والذنب كما ترى هو نصف جسمه ، اذا ضرب به ادمى ، وقد يقتل خصمه بضربتين . اقول : بضربتين . اما هذا الصغير فلا شرّ فيه يتقى ولا خير يرجى .

دخل اذ ذاك الحاجب ينبيء بقدوم الناظر الحضرمي .

فقال الملك : بلى بلى ، فيه خير (اي في الضب) وهو يواري الحيوان تحت جبته ٠

دخل صاحب الاقبال الناظر الحضرمي ، فأشار الملك الى مجلس قريب منه ٠ وما كاد يتبوأه حتى مُدت اليه يد الجلالة ، وصاحبها هادىء البال ، وفيها الضب ، وضعته في حجر الناظر المسكين ٠فصرخ وصاح صيحة طفل مرعوب ، ووثب على الديوان وثبة جاب فيها الباب ، واصطدم بالحاجب هناك ٠ فقهقه الملك وكاد يستلقي ، وضحكنا كانا ضحك الصبيان ، وفينا الناظر الشاعر الذي كان جالساً متكتفاً على عادته ، وقد كان يحاول اخفاء سروره في ابتسامة قيّدها التأدب ٠ ولكن صيحة الناظر ووثبته فكتا منا القيود فتساوى في فترة بهيجة الملك والشاعر والعبد المملوك ٠ الا ان جلالته كان اول من ثاب الى الرزانة فخاطب الشاعر موبخاً : لا حق لك انت بالضحك ٠ لا حق لك حتى تركب الطيارة او في الاقل الخيل ٠ والناظر الشاعر يخاف ركوب الاثنين خوف زميله الحضرمي من الحية والضب ٠

عند ما خرجنا من مجلس الملك تلك الليلة قال لي القنصل : هي الذ ساعة قضيتها مع جلالته ٠ وهو في غير موضوع السياسة افصح المحدثين والطف الجلساء ٠ فظننت ذلك من مثله جوراً في الحكم وان كان مصيباً ٠ لان كل من عالج السياسة رسمياً يتعمد الغموض احياناً في حديثه ٠ ولكني علمت بعدئذ ما يقاسيه الوكيل البريطاني في جده من فك الغاز الديوان الهاشمي وكشف الستار عن رموزه ٠ وخبرت بنفسي اثناء اقامتي هناك ما لجلالته من القوة في التعقيد ، والبراعة في التورية والابهام ٠ بل هو يطوف حول نقطة سبع مرات كأنها الكعبة ولا يلمسها ٠ فيدنو منها اضطراراً في بعض الاحايين ثم يبعد عنها منقلباً مسرعاً ، وجليسه ، وهو يعدو مبارياً ، وقد اعتراه من التطواف الدوار ، يدق رأسه بالحائط او يصطدم بباب في هيكل الاسرار ، فيتلفت ليرى اين هو من صاحب الجلالة فيراه ، واأسفاه ! بعيداً ويقف خجلاً مبهوتاً لا يدري ما يقول ٠ والمصيبة في السكوت مثلها في النطق ٠ فاذا قال : فهمت يا مولاي كان

من المجاملين . واذا سكت ظن سكوته استهجانًا . فيهز برأسه تخلصًا من الاثنين وينتظر الفرج من غوامض الحكمة ، في بوارق الختمة .

وطالما استمالتني اشارة مولاي اللطيفة فملت بمعقولي الى السر في يديه وفي ناظريه ، وكنت كالمسحور في فيض من المغناطيس يسيل من انامله ومن نظراته . وما السياسة ، وما الحقائق ، وما الحكمة كلها ، عند سحر ينسيك شقشقات الناس وخزعبلات الامم .

اجل ، ان لمولاي صاحب الجلالة الهاشمية ، والغوامض السياسية ، وقفات في حديثه تذري بالفصاحة والبيان ، واشارات تفك طلاسم الكهان ، ونظرات تقيد منك العقل والجنان . يبسط يديه اشباعًا اذا احس من نفسه انه افحمك ، ويضمها الى صدره تلطفًا اذا توقع منك جوابًا . ويعالج عقاله او يحرك عمامته اذا رأى منك فتوراً او دبوراً . ويغير جلسته على الديوان اذا اوجس فيك الملل . فماذا تهمك معانيه ومقاصده وهو امامك السحر الحلال مجسداً !

كنت استغنم الفرصة عند ما يفك حبوته او يعقدها فاسأله سؤالاً لا علاقة له بالموضوع ، ملتمسًا لفعلتي العذر في حب العلم وفي السياحة من اجله .

— نعم ايها العزيز . الباقي من قريش قرب خمسة الاف وهم ثلاثة اقسام : قريش الاعاضيد ، وقريش الغميس ، وقريش الطائف . ولا يزال بينهم و بين السلالة النبوية كثير من الحس والعطف ... اما بنو سعد ، وهم الذين ارضعوا النبي ، فديرتهم قرب الطائف ، وفيهم بيت يحسن اهله الجراحة ويتوارثونها بعضهم عن بعض ... هل تعلم يا حضرة النجيب ان الحمى تداوى بالكي ؟ بنو سعد الجراحون يداوونها بالكي .

وكشف جلالته عن نجاح طريقتهم في نفسه اذ انه مرض مرة بالحمى واكتوى فاراني اثر الكيين ، واحد في زنده الايمن والاخر في ساقه اليسرى .

— السر في مكان الكي . فهم يختارون اماكن في الجسم تتصل بالاعصاب التي تنتهي بمجموعها عند موضع المرض . لذلك لا يتركون الكي مفتوحًا

ليخرج منه الصديد كما يفعل غيرهم ، بل يختمونه حالاً بشيء من الملح ، اقول : بشيء من الملح ، يذرونه عليه ٠

وكان قد انتبه جلالته لحركة في يدي تدل على الم فسألني عنها فأخبرته فقال : وقد يشفيك الله بواسطة طبيب من بني سعد ٠ وبعد يوم وصل الطبيب من مكه ٠ جاء بامر جلالته يداويني فسألني ثلاثة سؤالات فقط ، ولم يفحصني والحمد لله فحصاً طبياً ٠ ثم قال : لا ينفعك الكي ٠ سخن السمن وخذ الثوم دقه وامزجه فيه وادهن ثلاث مرات كل يوم ٠ وستشفى باذن الله تعالى وتذكرني بالخير ٠ قال هذا وودع وانصرف ٠

وها اني اذكرك ياأخا العرب ، ياراعي الاباعر وياطبيب الملوك ، ياخير من قابلته في حياتي من الاطباء ٠ وسأذكر دائماً تلك البساطة فيك ، وذاك النور في ناظريك ، وتلك العظمة في صوتك ولهجتك وحركاتك ٠ وسأذكر كذلك انك لم تصف لي ما هو اصل علاجاتك كلها كما يفعل الاخصائيون في البلدان المتمدنة ٠ بل اشركت مع علاجك الله ، فكنت اكبر الحكماء واصدق الاطباء ٠ سأذكرك دائماً ياراعي الاباعر وياطبيب الملوك ، لاني كلما ذكرتك انسى آلامي ، وهذا لعمري خير علاج وانجع دواء ٠

الفصل الثالث

الابداع في الاصلاح

طريقة عون الرفيق في الاصلاح وطريقة الملك حسين — الحجاج وبئر زمزم — المياه المقدسة المعدنية — الاوبئة — فني الماء في منى — للطاهر كل شيء طاهر — والحنفية لاتضر — القضاء على المكروب — المستشفى في مكة — تقريرمدير الصحة العام — المحجر الصحي في جزيرة ابي سعد — محجر الطور — محجر قمران — البعثة الطبية لفحص المحاجر الصحية في الشرق — المعاهدة الانكليزية الحجازية — اسباب الصحة واسباب الاستيلاء — جوقة الموسيقى الملكية — طريقة الملك في اصلاحها — كتاب من جلالته .

ان لجلالة الحسين طريقة في الاصلاح تختلف مبدئياً عن طريقة عمه الشهير عون الرفيق الذي حمل مرة على الاولياء وشرع في تهديم قبورهم ومقاماتهم . اما جلالة الملك فهو اذا حافظ على تقاليد فيها بقية ، او ليس فيها شيء من الخير ، يسعى هادئاً ويتخذ الطف الاساليب في اصلاحها او ابطالها .

من مظاهر الحج العجيبة مثلاً ان بعض الحجاج من الهند ، لشدة ايمانهم وتفجر بركان اجتهادهم ، كانوا يرمون بانفسهم في بئر زمزم تبركاً واستغفاراً ، واعتقاداً منهم انها اسرع واسلم طريق الى الجنة . فلم يقل الملك حسين ان هذا غلو بل جنون في الدين ، ولكنه امر بوضع شبك من الحديد على فم البئر فقطع بها الطريق القصيرة — المقرّبة في لغة اهل اليمن — على المستشهدين . ولعله يقبل اقتراح احد رجاله المجنونين بالبعثات الفنية والمشاريع الاقتصادية جنون اولئك الحجاج بالدين فيأذن بوضع مياه زمزم في القناني لتباع للحجاج — ماء مقدس ومعدني معاً ! انها لنعمة تشكر وتستثمر ، تستثمر في سبيل الصحة العامة . وقد باشر جلالته بعض الامر المتعلق بها .

ليس من ينكر ان الامراض والاوبئة كانت ملازمة الحجاج في الماضي

ان كان في الاماكن المقدسة او في الطريق منها واليها · وقد ادرك الملك حسين ذلك واكتشف السبب الاول فيها · ان قني الماء في منى مكشوفة والحجاج وهم في بهجات الحج لا يهمهم المكروب ، هم يدوسونه بارجلهم ، ويرجمونه بالاوساخ ثم يشربونه ويقضون عليه · للطاهر كل شيء طاهر · والملك حسين كذلك يقول هذا القول · الا ان الحنفية لا تضر بالطهارة · وكل ما فيه راحة الحجاج وليس فيه ما يمس العقائد الدينية محلل · ومن ذا الذي ينكر في مكة او خارجها ان الشرب بواسطة الحنفية هو اسهل منه عبًا او صبًا ·

عقد الملك النية على ان يحجب عن الحجاج وجه المياه ، فأمر بان تغطى القني في منى ثم توضع القساطل والحنفيات ليشرب الحجاج منها · وهكذا قضى على المكروب او كاد · ثم اسس مستشفى في مكة [1] مجهزاً بالآلات والادوات الفنية ليتمم مساعيه الشريفة في استئصال الاوبئة ومكافحة الامراض · انه ليبغي سلامة الحجاج وصحة العرب قبل كل شيء ·

وهناك في جزيرة ابي سعد في مياه جده محجر صحي يفتخر الملك به ويلفت اليه نظر الانكليز قائلاً :

— وما الفائدة من محجر الطور ومحجر قمران وهذا محجرنا كامل الاجزاء، نظيف الزوايا والارجاء ، ولا يُظلم فيه الحجاج ولا يُغبنون ! هم ابناؤناواخواننا، ولا نظنكم تغارون على صحتهم وراحتهم اكثر منا ·

---

(١) جاء في تقرير بعث به اليّ الدكتور محمد الحسيني نائب مدير الصحة العام في مكة : اخذنا في توسيع نطاق المستشفى فجعلنا فيه اربعة إقسام ذات شأن احتوت على مئة واربعين سريراً · قسم منها لتمريض الجنود وافراد الشرطة · وقسم لتمريض الاهالي · وقسم لتمريض النساء · وقسم لتمريض الاطفال· وقداختص المستشفى الاهلي لتمريض الفقراء المحتاجين اما عدد الذين حضروا الى المستشفى في خلال ثلاثة اشهر مضت فهو كما يلي :

٣٤٩٥ برسم المعاينة
٠٣٣٠ برسم المعالجة في المستشفى
٣٩١٧ تغيير القروح
٠٠٣٤ الوفيات
٠٠٢١٠ عمليات جراحية

قد رافقت جلالة الملك الى تلك الجزيرة وكان فيها يومئذ مئـة ونيف من حجاج جاوا ، تهافتوا على جلالته وحاقوا بها . فعفروا — ولا استعارة — امامها وجوههم ، وقبلوا اليد والجبة والركبة والرجل الملكيـة ، ثم التراب ، ثم بدأوا بالشكوى . وقد علمت ان الماء قليل ، وان الخدامين ، وعلى رأسهم رجل تركي ، يتاجرون به ، وان الطعام رديء واثمانه غالية ، وان غرفة التطهير مقفلة لخلل في عدتها . اما البيوت التي يقيم فيها الحجـاج ثلاثة ايام فهي نظيفة لانها خاليـة خاوية ، يلعب فيها الهواء على الدوام . وهـذه لعمري فضيلة المحجر الصحي الحجازي الوحيدة .

انتهى الينا يوم كنت في جده خبر البعثة الطبية لفحص المحاجر الصحية في الشرق وكانت يومئذ قد وصلت الى مصر . فاقترحت على جلالة الملك ان يدعوهـا لفحص المحجر في جزيرة ابي سعد لعله يدرك بعد ذلك بعض النقص فيه . فقرأ في اقتراحي غير ما قصدت وامر ناظر الخارجية ان يبعث حالاً بنبأ برقي الى المعتمد الهاشمي في القاهرة يأمره بان يدعو البعثة المـذكورة لزيارة المحجر الصحي في جده وفحص اسباب التطهير والصحة فيه .

ولا اظن ان جلالته يعتقد بغير الشمس والهواء تطهيراً . — تأمل ياحضرة النجيب طمع الناس . يأخذون من الحجاج في الطور راتب تطهير قلما يفيد ، ويأخذون راتباً في قمران ، ويبغون فوق ذلك مد ايديهم الى ابي سعـد لتتم لهم السيادة على الحجاج ابنائنا واخواننا . وهذا مستحيل ، اقول : مستحيل .

ان من بنود المعاهدة بينه وبين الانكليز ، تلك المعاهدة التي جاءه بها الكرنل لورنس والمرحوم حداد باشا في شتاء سنة ١٩٢١ فرفضهـا ، ان يكون لبريطانيه العظمى الحق في تعيين اطباء انكليز في جزيرة ابي سعد . فأبى الملك حسين ، لظنه ان الانكليز في طلبهم هذا يبغون اكثر من معاش بعض الاطباء اطبائهم واكثر من السيطرة على الحجاج . وقد لا يكون لهم في الامرين غرض يذكر ويخشى . الا ان اساليبهم الحديثة لتدخلهم في شؤون البلاد وبسط سيادتهم عليها تشمل الاسباب الصحية كلها ، وقد تنحصر احياناً بها .

والحق يقال ان محجر ابي سعد من الزيادات غير المفيدة بالنظر الى محجر الطور في شمال البحر الاحمر ومحجر قمران في الجنوب منه . فاذا امر الملك باقفال ابي سعد يقفل باب الصحة الوهمي الذي يتذرع الانكليز به لتعزيز سياستهم في بلاده ويرجع الى الحقيقة العلمية البارزة في الطور وفي قمران فينتفع بها . وقد يتوصل الى اصلاح ابي سعد او بالحري ابطاله في المستقبل على طريقته المخصوصة في الاصلاح والعمران التي تقدم ذكرها .

والى القارىء مثال آخر منها . ان في مكة جوقة موسيقى ملكية امسى امرها من التقاليد الهاشمية المقدسة . وهي تضرب امام القصر ثلاث مرات كل يوم وتزعج جلالته كل يوم ضعف الثلاث المرات ، بل تكاد تخرجه من ثوب الحكمة وثوبه . ولكنها التقاليد ينبغي احترامها على ضررها ، ثم مداواتها بالتي هي احسن . ومن تقاليد هذه الجوقة ان رجالها لا يُعزلون ولا يبدلون فيخدمون فيها مدة الحياة . وعندما يموت احد اعضائها يعين الملك من يخلفه . وهاك طريقة صاحب الجلالة والحكمة في دفع هذه النكبة واستئصالها .

مات منذ سنتين راعي (صاحب) الدف فلم يعين خلفاً له . ومات في السنة الماضية احد الزمّارين فقال الملك : وما الضرر اذا نقصت زمراً ؟ ثم مات راعي الطبل فكان سرور الملك عظيماً . وانه بعون الله وعزرائيل ليتخلص تدريجاً من الجوقة كلها .

اين المصلحون يجيئون مكة طالبين العلم والارشاد ؟ الا انهم اذا كانوا مثلي ومن ملتي فلا يتجاوزون في مسيرهم حدّا [1] ولا اظنهم ينالون جزاء سعيهم اكثر مما نلت .

بعد ان اقام جلالته اسبوعين في جده عاد الى مكة لاشغال هامة وظل

(١) في كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي في الجزء الثالث صحيفة ٢٢٩ : حدّاء بالفتح ثم التشديد والف ممدودة واد فيه حصن ونخل بين مكة وجدّه يسمونه اليوم حدّا .
قال ابو جندب الهذلي :

بغيتهم ما بين حدّاء والحشا   واوردتهم ماء الاثيل فعاصما

معي من قبله وزيره الشاعر الشيخ فؤاد الخطيب وحاشيته ، اي حاشية الشيخ فؤاد ، المؤلفة من امرىء القيس والنابغة الذبياني والاخطل والمتنبي ، وكان الشيخ قسطنطين يني راعي الكاس والقرطاس فلا يدع فرصة تفوت او كلمة من الشعر تموت .

ومع ذلك غدوت كئيباً فكتبت الى جلالته كتاباً اشكو فيه الم الفراق والالم الاخر الاشد من تقليد عقيم يضطره ان يحرمني زيارة ام القرى . فكتب الي يعتذر — وتوقيعه الملكي في رأس الكتاب — عذراً لطيفاً عذباً يصح فيه ما قيل في الشعر . كتب جلالته :

عزيزي المحترم

« بعد اهدائي حضرتك السلام وجزيل الاحترام . بانامل الشوق والتكريم تلقيت رقيمك ، وبقدر ابتهاجي به وما احتوته مباحثه الكريمة كان خجلي من بقائكم في جده هذه المدة . ومخلصكم جنى على نفسه حرمان لذاته واستفاداته من فضائلك وكرائمك ، فان مهما جسمت ضرورة اسباب هذا الحرمان لا اجده الا حجة علي . وعلى كل حال ففي كمالاتك ومداركها ما يغني عن كل بيان . وبها متسع يحيط كل ما هو في معنى ذلك . وليس لي ما يهون تلك الرزية التي احكم بها على نفسي الا اعتقادي بان اسبابها ودواعيها هي مما تهتم لها فضائلكم . والله يحفظك ويمن عليّ بتلافي ما فات عزيزي . »

فهل في مروج الذهب ورياض الجنه الطف من هذا الكلام واعذب ؟ عاد جلالته بعد اسبوع من مكة ليودعني ومعه الضب يراضيني به . وكفى بمجلسه رضوةً وسلواناً .

الفصل الرابع

تلميذ في البداوة والحكمة

ضيافة الملوك — الالقاب — الهدية — البدوي الجديد — تلميذ في البداوة حقوق « الخوة » والحماية — الضيف السارح — الطنب السابح — رفيق الجنب — الاستنجاد — المحاكمة عند البدو — الجزّامون — المخبرون — المساوون — الطب في جوار مكة — الاوهام — الناقة التي لا ترضع ولد غيرها — حيلة الاعرابي — عسل الحجاز ورمانه — شهادة الخديوي عباس وشهادة السلطان عبد الحميد — نادي الصلاة — غاياته الثلاث — اعضاؤه السبعة — جلال الدين الرومي — ناي يحن الى الغاب ·

لا حاجة في الضيافة العادية الى صلة بين الضيف ورب البيت · فانك تقبل ما يقدم لك او ترفضه ، وتطلب او تتمنى ما تشاء ، ولا رسول بينك وبين مضيفك غير رسول الادب والذوق · اما في الضيافة الملكية فالامر غير ذلك· والقاعدة الاولى فيها هي انه لا يجوز ان ترفض شيئاً يهدى اليك او ينعم به عليك ·

وملوك العرب ، على ما يظن فيهم من البداوة وخشونة الذوق ، هم مثل سائر الملوك في انهم لا يبادهون الضيف فيرتبك فلا يحسن القول او السلوك · لذلك هم يعينون ، فوق من ينتدبون لخدمته ، رجلا يقيم معه فيكون له رفيقاً وسميراً ، ويكون بينهم وبينه رسولاً يحقق البغيات وينبه الى ما فيه تدارك المزعجات ·

كان صديقي قسطنطين بني هذا الرفيق والسمير والرسول ، فجاء في اليوم الثالث بعد وصولي يحدثني بالالقاب ، فذكرته بايام الفريكة والعزلة في الوادي ، ثم قلت : ومن يقيم في اميركه عشرين سنة مثلي لا يغير رأيه في الموضوع · وقد اخبرني بما كان من امر صديقي سركيس قبلي ، فقلت : وعسى ان

لا اضطر مثله ان ارفض شرفاً هاشمياً . ان امري في يدك ياقسطنطين. تدارك النعمة قبل حلولها . فقال : والهدايا ؟ فقلت : اقبل كل ما يجيئني منها .

وجاء في اليوم التالي عبد من عبيد جلالة الملك يحمل اليَّ كسوة عربية وخنجراً مكياً ، وقطعة مزركشة بالذهب من ستار الكعبة . لله در قسطنطين ، الرسول الامين ، القائل لجلالته : هذا الريحاني ناسك تليق به الآثار المقدسة ولا تليق به الالقاب . وفي الحقيقة ان قطعة من ستار الكعبة هي علق من الاعلاق لا يحوزها غير المقربين .

لبست القميص البدوية ذات الازدان ، ثم العباءة ، ثم عقال الذهب ، وتمنطقت بالخنجر [1] ورحت تواً اشكر صاحب الجلالة . فلما رآني في هذه الصورة بسط ذراعيه هاتفاً : ياحبيبي ياعيني ! وضمني الى صدره وقبلني . فأحسست من شدة التأثر بشيء غشي عيني ، فبادرت الى مكان المنديل من ثوبي الجديد ، فما وجدت حتى الجيبة فيه ، فمسحت الدمع بردني ، فضحك جلالته وقال : حقاً انك بدوي الآن .

وجلسنا نتحدث في السياسة . ثم جاء قنصل فرنسه وبعض التجار مسلمين فانتقل جلالته الى البدو — اكراماً لهذا البدوي الجديد التلميذ في البداوة — وحدثنا في حقوق الحماية والخوة .

— ثلاثة لهم حقوق الخوة والحماية : الضيف السارح [2] والطنب السابح [3] ورفيق الجنب [4] واذا دخل الضيف السارح بلداً او «ديرة» يضيفه اول بيت يمر به . له الحق الاول في الضيافة . اقول : الحق الاول . فاذا تجاوزه السارح الى

---

(١) يدعى الخنجر في الحجاز "قدمية" والقاف تلفظ جيما — جدمية — لانه يحمل من قدام ويدعى في اليمن جنبية لانه يحمل على الجنب

(٢) من كان في سفر

(٣) من دخل الديرة مستنجداً . يراد بالطنب البيت بيت الشعر ، وهو من باب تسمية الشيء بجزء منه . ويراد بالبيت صاحبه وان كان سابحاً سائحاً لا بيت له ولا مقر .

(٤) اي رفيق السفر

جاره يعدها اهانة فيطالب الجار به — مر الغريب ببيتنا قبل ان يمر ببيتكم . واذا كان لا يطالب بهذا الحق ينظر اليه بعين الاحتقار ... ومن اضاف سارحاً ايها العزيز ، عليه ان يحميه مدة اثنتي عشرة ساعة بعد ان يرتحل . . والاستنجاد، نعم له حدود . يرفع العرب الاستنجاد الى خمسة اجداد فقط وما وراء ذلك فلا حق فيه لمستنجد . ولا فرق بين العرب والاشراف من هذا القبيل الا في القصاص . حياة الشريف اذا قُتل عمداً بحياتين .

وللبدو طرائق في المحاكمة وتقاليد يحترمها حتى اليوم ملوك العرب كلهم . فلا يضطرونهم في كل احوالهم الى الخضوع للاحكام الشرعية . من تقاليد البدو مثلاً ان على كل اعرابي ان يحكم في خصومة اذا رفعت اليه . اما اذا كانت الخصومة بين قبيلتين فتسمع غالباً في ديوان الملك الخاص .

حدثنا جلالته في طريقة المرافعة قال : ينتخب كل فريق اثني عشر رجلاً لاثبات دعواه ، فينتخب المدعي رجاله من قبيلة خصمه والعكس بالعكس . ويكون من الاثني عشر رجلاً اربعة هم الجزّامون ، واربعة هم المخبرون ، واربعة هم المساوون . ويحلفون كلهم اليمين المعظمة قبل ان يشهدوا . يقول الجزّام : القضية كذا وكذا . ويقول المخبر : سمعت بما يختص بها كذا وكذا . ويقول المساوي : اذا كان كذلك فينبغي ان يكون كذا وكذا .

اي ان الجزّام يبسط الدعوى والمخبر يشهد والمساوي يحكم فيها . وانك لترى في هذه الطريقة البدوية شيئاً من احكام الامم المتمدنة بل فيها ما هو اقرب للحق واضمن للعدل ، لان كلاً من المدعي والمدعى عليه ينتخب رجاله ، اي وكلاءه وشهوده وقضاته ، من قبيلة خصمه . وما اشبه المساوين عند البدو بالـ «جوري» عند الاوروبيين .

قلت ذلك لجلالته فقال : الله سبحانه وتعالى لم يخص الاوروبيين بكل فضيلة . عندنا نحن العرب بعض الفضائل . وانت ايها العزيز النجيب اعلم بذلك . ليس كل ما يجيء من اوروبه خالياً من الغش او من الشوه والشين . قد يجهل الاوروبيون اشياء نعلمها ونعلّم بها . خذ الطب مثلاً . قد شاهدت ايها العزيز

اعظم الاطباء فلم يشفوك من آلامك العصبية . وعسى ان يشفيك الله بواسطة طبيبنا ، فتقول لهم اذ ذاك : جاءني الشفاء من جوار مكة من الله .

ثم قال : وقد يكون في ما تشكو منه بعض الوهم ايها العزيز . اقول : بعض الوهم ، والوهم يسطو على الناس كما يسطو على الحيوان . اذكر لك مثلاً في الابل - من النوق ، لمزاج فيهن او لعلة عصبية ، من لا يرضعن ولدانهن فيحمل العرب الولد الذي لا ترضعه امه الى ناقة اخرى . وهذه لا ترضعه لانه ليس بولدها . فيحتال الاعرابي على الناقة ، يسلط عليها الوهم . اقول : يسلط عليها الوهم . وكيف ذلك ؟ انه يضع في حيائها خرقة مطوية او شيئاً آخر يسمونه الدُرجة ثم يشد على عينيها عصابة وعلى انفها اخرى ويترك الناقة كذلك اياماً ، فيأخذها غم كغم المخاض . ثم يحل الرباط عنها ويخرج الدُرجة ويلطخ بها ولد غيرها فتظن انه ولدها فترضعه .

وكان ينتقل جلالته من موضوع الى آخر وفي كل منها المستغرب من اللذة والبسيط المفيد من الحكم والامثال . وهي تتعلق ببلاد وشعب يعرفهما كما يعرف الكتاب الكريم .

— ما حرمنا الله كل فضيلة ايها النجيب ولا حرمنا كل ثمرة من خيراته . قد انزلناك بواد غير ذي زرع . هذا صحيح . ولكن الحجاز ، على فقره ، يفاخر سائر الاقطار العربية بشيئين ، بعسله ورمانه . عند ما جاء الخديوي عباس حاجاً اكل من عسلنا وكان يقول بعد الشهادتين : واشهد ان لا عسل في العالم مثل عسل الحجاز . اما الرمان ، وهو يجيء من وادي ليّه قرب الطائف ، فيصير كبيراً كالجبجب (البطيخ) وهو كبير الحبة خال من البذر . اكبر والذ ما في الدنيا . ارسلنا مرة صندوقاً منه الى السلطان عبد الحميد فقال : هذا اجمل رمان جاء من اجمل بقعة في ارض الله . وهو يليق بالهدية . كذلك ينادي بائع الرمان : من وادي ليّه ، للهدية . نعم ايها العزيز في عسلنا ورماننا برهان ان الله سبحانه وتعالى لا ينسانا نحن العرب ، عرب الحجاز .

وكيف ينساهم وفي جده مظهر من مظاهر الورع والتقوى ما شاهدت مثله

في غير مكان . هو نادٍ قليل الاعضاء ولكنهم كلهم حكماء ، صغير الحلقة ولكنها حلقة نور صفي ليس فيه خيط واحد من الظلام . هو ناد فريد في بابه لا رئيس له ولا بيت ولا قانون ، يجتمع اعضاؤه كل يوم عند الغروب على كثيب رمل قرب البحر خارج البلد ، فيصلون المغرب اولاً ، ثم يبادرون الى آكرة من حديد فيتمرنون ويتبارون في رميها ، ثم يجلسون في حلقة على الرمل ويتحدثون في الادب والشعر والتاريخ .

انه يدعى نادي الصلاة ، ولكنه في غاياته الثلاث اي رياضة الجسم ، ورياضة العقل ، بعد الرياضة الروحية ، قد جمع بين اطراف الحكمة كلها . لا اظن ان في العالم شرقاً وغرباً نادياً آخر مثله ، ولا اظن ان فريقاً من الناس غير اعضائه ، غربيين كانوا او شرقيين ، توصلوا قولاً وفعلاً الى غايات الحياة الثلاث القصوى ، اي المحافظة بواسطة الرياضة على سلامة الروح ، وسلامة العقل ، وسلامة الجسد معاً .

وما اجملها ساعة نذكر الله فيها ، ثم نذكر نعمائه في الاجسام فنسعى دائماً في حفظها صحيحة سليمة ، ونذكر نعمائه في العقول فلا نهملها في الرياضة والتمرين لتساوي الجسد والروح صحة ونشاطاً .

ان نادي الصلاة في جده هو ناد لما تسامى من مقاصد الحياة كلها . ويصح ان ندعوه نادي الحكمة العملية المثلثة الزوايا . فان الحكمة كل الحكمة في المساواة والتوازن بين الروح والعقل والجسد .

اما اعضاء النادي فهم كما قلت من صفوة الناس ، كلهم اتقياء عقلاء حكماء . وقد شرفوني يوم كنت هناك بان ادخلوني في الحلقة المباركة على نقص وخلل في مثلثة الزوايا عندي . فقد غلبني شيخهم الاكبر في رمي الاكرة ، وغلبني شيخهم الاصغر في المساجلات الادبية والشعرية . اما في الصلاة فكنت اشاركهم ، دون ان اقف في الصف وراء الامام .

ومن هو الشيخ الاكبر الذي يرمي الاكرة كالشاب ومن هو الاصغر ؟ اما اذا أدخلت القارىء الى النادي الفريد في قصده وبيته فينبغي لي ان اتم العمل

فاعرّفه الى الاعضاء ، وعددهم هو العدد السري القدسي سبعة فقط .

هذا الحاج زينل علي رضا شيخهم الاكبر يحترمه التجار في الحجاز وفي بمباي وتعرفه وتحبه كل الاولاد في جده . ذلك لانه في عيد رمضان يخصهم بقسم مما كسب في الاتجار . فيجلس في ايوان داره والى جنبيه اكياس من النقود الفضية ، ريالات وروبيات ، فيوزعها على الفقراء وخصوصاً على الاولاد . يمرون امامه صفوفاً في ذلك اليوم وكثيراً ما يمر الولد الواحد ثلاث مرات فيأخذ قسمته ثلاثة اضعاف ، والحاج زينل عالم بذلك ضاحك محبور .

وهذا اخوه الحاج عبد الله محافظ جده وهو حكيم الحلقة الاكبر وصاحب الفكرة في حفظ التوازن بين العقل والروح والجسد . وان عدل الحاج عبد الله في الحكم ليجاري البر والحكمة في اعماله الخيرية واهمها المدرسة العمومية التي انشئت في جده .

وهذا الشيخ محمد نصيف اديب جده الاكبر وامير الكتب فيها . فان عنده مكتبة حافلة بالقديم والحديث من التآليف لا يقتنيها للعرض فقط بل لينتفع وينفع بها . يجيء الادباء الى دار الشيخ محمد كأنها دار الكتب العمومية فيعيرهم ما يشاءون منها ويشتري ما يعرضون من مخطوط او مطبوع . وهو دائرة معارف ناطقة يجيب على السؤالات التي توجه اليه ويهدي الى مصادر الثقة في العلوم الادبية والتاريخية والفقهية .

وهذا الشيخ سليمان قابل رئيس البلدية واخوه عبد القادر ، وهما من العرب الذين لا يفادون بنعيم الدنيا في سبيل النعيم السرمدي المنتظر ، بل يشركون بين الاثنين ، او بالحري يجعلون الواحد مقدمة للآخر . فيلبسون الدمقس والاستبرق ويتطيبون بعد الاكل وقبل النوم ولا يستكثرون الخمس الجنيهات يدفعونها ثمن زجاجة واحدة من الروائح الطيبة ، ولا الخمس الصلوات يصلونها كل يوم .

وهذا الشيخ محمد الطويل ، اصغر الاعضاء قداً ، وأنقهم كساء ، والطفهم مبسماً ، واقدرهم في عد الاموال وتصريفها - اجل ان الشيخ الطويل هو المصرف

الهاشمي ، هو خزينة الملك حسين ، هو ناظر الجمارك في القطر الحجازي ٠ وعليه دفع الكبيرة والصغيرة ٠ فاذا شاء جلالة الملك ان ينعم احداً بمئة روبية يحيله على الطويل ، واذا شاء شراء باخرة او سرباً من الطيارات فالدفع على الطويل ٠

ولا نظن ان اخصائياً اوروبياً يفوق الشيخ محمد في علمي الادارة والاقتصاد ٠ ولا يفوقه يقيناً في النزاهة والاخلاص ٠

وهذا الملا حسين الشيرازي العالم باسرار الميكانيكيات والتصوف ، يصلح القناديل وآلات الخياطة ويروي من اشعار مولانا جلال الدين الرومي باللغة الفارسية فيشدو ولا شدو البلابل ٠ فيجاوبه الحاج زينل بتلك اللغة الفخمة الشريفة ، ثم يترجم لي بعربية افخم واشرف ٠

قال مولانا جلال الدين : اني عود قُطع من الشجرة وصُنع منه الناي فهو في صوته يحن دائماً الى الغاب ٠

واني وان كنت ضيفاً سارحاً احس باني عود قُطع من تلك الشجرة المباركة شجرة نادي الصلاة في جده ، وصُنع ناياً صغيراً ٠ والناي يحن دائماً الى الغاب ٠

الفصل الخامس

قرون السياسة

الضدان والقبلتان — البعثة الفنية ونتيجة اعمالها — النقابة الوطنية — شروط الامتياز الذي طلبه النعماني — مدرسة الزراعة — المدرسة الحربية — الضغط على تجار جده — قصة الاسطول الانكليزي والاسطول الهاشمي — تعليم اولاد العرب خارج الحجاز — «سيدنا لا يأذن به» — الموسيقى وشرب الخمر — الطيارات والدبابات — نادي الكأس — مفزعة الحجازيين — شيخ الاسلام وبابا رومه — البدو جهل مسلح — «الهاشميات» لا تصلح شيئاً — ذوو حسن — بدو الرويس — البقوم — جاء سيدنا — شيخ حزين — «اتبع من تختارون» — التساهل في المؤتمرات — فيصل ضمناً وصراحة — وزيد وعبد الله — «ان ابناءنا أعداؤنا» .

في كل كبير تجتمع الاضداد . ولكل كبير من العرب اليوم قبلتان ، قبلة الدين وقبلة الدنيا ، فيولي وجهه الاولى مرة او خمس مرات كل يوم ، ثم يتطلع الى المغرب بقية يومه . يا قبلتي ساعة نلبس ، وساعة نأكل ، وساعة نركب السيارة . ولكن القبلة الجديدة كثيرة الاسباب ، كثيرة النفقات . فينبغي لنا اذاً ان نستعين عليها اما بالمعاهدات الدولية ، والقروض المالية ، واما بالبعثات الفنية والامتيازات . وقد جرب جلالة الملك حسين الطريقتين ولا يزال يتردد بين معاهدة تقيد وامتياز وطني قد لا يفيد .

منذ خمس سنوات في سنة ١٩١٩ بعث صديقي قسطنطين يني الى سورية ليبحث له عن اخصائيين ، مهندسين واطباء . فعاد قسطنطين الى جده ومعه بعثة كاملة من الفنيين ، ابناء العرب النجباء ، المخلصين للقضية العربية ، والمخلصين كذلك للذهب الوهاج ، كما اتضح بعدئذ . جاءوا مع القسطنطين راغبين مستبشرين ، فاقاموا في الحجاز سنة ينقبون و يبحثون ، و يقيلون . ولكن اعمالهم لم تسفر عن شيء مفيد . ولا يعلم جلالته اليوم اكثر مما كان

يعلمه قبل قدومهم · نعم ، ان في جوار الوجه نفطاً ينبع على الشاطىء من البحر ، وفي جبال الحجاز نحاساً وطلقاً وحديداً ، وفي مكان حول مكة معدناً من الماس ، وليس في البلاد العربية شركة مالية ذات قوة فنية تستثمر هذه المعادن ، فتخلص جلالته من ظل مخالب الشركات الاجنبية ·

اما شركة النعماني ، وفيها لا شك مال وعلم اجنبيان ، فلم تحز الحظوة لدى جلالة الملك · وقد يكون رفض الامتياز الذي طلبته منه ، على شروطه الحسنة الممتازة ، [1] لاسباب سياسية تتعلق بالمعاهدة الانكليزية الحجازية التي لا تزال قيد المفاوضات · وقد يكون « لشركة المشاريع العامة » [2] في جده كلمة نافذة لدى جلالته في تفضيل هذا الامتياز فيما بعد على سواه ·

قلت ان اعمال البعثة الفنية لم تسفر عن شيء مفيد · وما الفائدة من مدرسة زراعية بمكة ، وليس في الحجاز ارض توجب الاهتمام بعلم الزراعة · وقد انزلناك بارض غير ذي زرع ·

اما المدرسة الحربية فلا بأس بها لو كان البدو يقبلون عليها · ومعلوم ان اكثر اهل الحجاز من البدو ، وانهم لا يحتاجون الى من يعلمهم القتال وحمل البنادق · وقد يستنكرون ذلك · اما اذا كان لا بد من جيش منظم فالحكومة تضطر على ما نظن ان تدفع للبدو ، بدل ان يدفعوا لها ، راتب التعليم · وليس

---

(١) من شروط هذا الامتياز الذي يشمل من اجل البحث والتنقيب اراضي الحجاز كلها ، ان صاحبه يدفع للحكومة الحجازية اربعين في المئة من صافي ارباح عملية الاستثمار وتحتفظ الحكومة بحق الافضلية في شراء خمسة وعشرين بالمئة من البترول المستخرج باسعار تبنى على اساس سوق لندن بعد حسم مصاريف النقل الى حدود اوروبه ·

وتتكفل الشركة بانشاء خط حديدي بين جده ومكه وخط ثان بين ينبع والعلا لحساب الحكومة وذلك عند مباشرة استثمار البترول · وتسلم هذين الخطين الى الحكومة الهاشمية بكل لوازمهما فيصيران ملكاً للحكومة · ثم تستوفي الشركة قيمة ما تصرف على انشاء الخطين مع الفائدة القانونية من كامل واردات الاربعين بالمئة العائدة الى الحكومة · ومتى تم استهلاك ما صرف على انشاء الخطين ، تعود اليها الاربعون بالمئة كاملة ·

(٢) هي نقابة وطنية ترمي الى تحسين اقتصاديات البلاد من كل الوجوه المشروعة ويدخل في برنامجها الذي اجازته الحكومة الهاشمية ان لها حق النظر في الامتيازات فتستشيرها الحكومة قبل ان تعطي امتيازاً لاحدى الشركات ·

جلالة الملك من الموارد الان ما يساعد على القيام بنفقات هـذه المدرسة ، التي يرجو منها اعادة الجيش الهاشمي المنظم الى مكانته وقوته قبل وقعة تربه [١] وما وقعة تربه غير نكبة نكب الحجاز بها ولا يزال متأثراً منها ٠

فلا عجب اذا كان سيد البلاد يرهق اهله ليعيـد اليهم ، بواسطة الجيش النظامي ، عزاً قضى « الاخوان » عليه ٠ ولا غرو انه يخص التجار بما يستوجبـه تسايح البـدو ٠ فاذا ابوا يستشيط غيظاً و يسترسل الى نزعة فيـه تركية اكتسابية ٠ قد قيل لي انـه في ساعات الغضب مخيف هائل وانه اذا استدعى احداً منهم الى مكة ، بريئاً كان او مذنباً ، يكتب الرجل وصيته قبل ان يخرج من بيته ٠

رمى الاسطول الانكليزي ذات يوم في مياه جده وكان حديث الناس ، فقال احد الظرفاء بل البسطاء ان الاسطول الهاشمي اكبر واعظم منه ٠ ولو لم يكن كذلك لما جاء الاسطول الانكليزي مسلماً موالياً ٠ فوصلت الكلمة الى جلالة الملك ، فطُلب الرجل الى مكة ، وأُنزل السجن عند وصوله اليهـا ، فظل فيه اربعة اشهر دون ان يعرف ذنبه ، ودون محاكمة ٠ ثم جيء بـه الى حضرة صاحب الجلالة المنقذ الاكبر ، ففرصت اليد الملكية اذن ذاك المسكين واسمعه اللسان الملكي من الحكمة ما يعينه في المستقبل على حسن الكلام في الحكومة الهاشمية او في اسطولها ٠

حدثت احد وجهاء جده في ولد له ذكي ورغبت اليه ان يرسله — لا الى اوروبه — بل الى مصر او الى سورية ليتلقى العلوم فيها ٠ فقال : وهذه رغبتي ولكن سيدنا لا يأذن بذلك ٠ وقد تأكدت ان في جده غيره من الناس الذين يرغبون بتعليم اولادهم خارج الحجاز — في مصر او في بيروت — ولكن

---

(١) هي وقعة تربة في البلد التي تدعى بهذا الاسم وقعت في ربيع ١٩١٩ بين عرب نجد « الاخوان » وجيش الامير عبد الله المنظم الذي كان محاصراً المدينة والتي لم ينج منها غير الامير وبضعة من رجاله ٠ راجع تاريخ نجد الحديث الفصل ٢٧ صفحة ٢١٩

سيدنا لا يأذن به ٠

الا هو الشرع ، لنعد الى الشرع والى الكتاب والسنة٠ وان كل ما يخالف ذلك في حياة المسلم ، قولاً او عملاً ، وكل ما فيه شيء يطلق في المسلم حرية قد تخرجه عن المشروع والمنقول ، بل كل ما فيه جرثومة علم قد تكون نتيجتها ، ولو بعد جيلين ، حيوان كفر كبير ، فهو من الويلات التي يحاربها المتشرع الحكيم والحاكم العادل ، البعيد النظر ٠ اجل ، انه يحاربها قبل ان تظهر الى عالم الوجود ٠

وجلالة الملك حسين من ملوك العرب الذين يهمهم فوق كل شيء سعادة المسلمين الدائمة السرمدية ٠ وهذه السعادة التي نص عليها النبي ووصفها الله في كتابه وصفاً جميلاً لا تقوم بالموسيقى ، او بالرقص ، او بشرب الخمر ، او بكسب المال ، او بالتعلم في المدارس الاجنبية ٠

واذا ما تساهل جلالته في امور لا تمس « السعادة السرمدية » بضر ، كالطيارات مثلاً او الدبابات ، التي يعدها للزحف على « الاخوان » او كآلة لتصفية الماء ، الذي جعله الله في ارضه المقدسة مالحاً ، او كمعمل لصنع الثلج ، فهو لا يتساهل قطعاً في ما يبلبل الاذهان ، ويفسد الاخلاق ، ويخرج العرب ولو قيد فتر عن دين هو كنزهم الثمين في الدنيا وفي الآخرة ٠

— لا يلزمنا نحن العرب من العلم ، يا ايها النجيب ، غير ما يوافق حالنا وبلادنا ، ويمكننا ضمن حدود الدين ، اقول : ضمن حدود الدين ، من الانتفاع بالكمالات ٠

ان في جده افاضل من التجار والعلماء ساحوا في العالمين ، عالم المادة وعالم الفكر ، وخبروا الزمان ، ولم يفقدوا كنز الايمان ٠ وهم يرون في التعلم ، حتى في مدارس الاجانب ، غير ما يراه صاحب الجلالة ٠ ولكنهم ٠٠٠٠

اذا قلت المحال رفعت صوتي وان قلت اليقين أطلت همسي

وفي جده اناس فيهم ما في غيرهم من اصناف الناس من النزوع الى الكيف ، فيطربون لصوت العود ، ويبتهجون بتلك التي تشعشع في الكأس ويحسنون لعب

الـ « بوكر » ولكنهم ، اذا جاء المعلم ، يتأدبون واذا غاب يلعبون . يكفي ان اقول ان في جده غير نادي الصلاة . فيها نادي الكأس ايضاً ، ولكن اعضاءه الذين لا يتجاوزون العدد المقدس اي سبعة لا يجتمعون الا مثل الفوضو بين سراً . حدثني احدهم وكان الاحرى به ان يستعمل ضمير الجمع الحاضر بدل الغائب ، قال :

— عجيب ياستاذ امر الناس في هذا البلد . ولا تستغرب قولي ان في جده خوفاً يستحوذ عليهم من مجرد ذكر صاحب الجلالة المنقذ الاكبر . فتراهم عند ما يشرف البلد كأنهم في مأتم ، وعندما يعود الى مكة يعيدون . فيخرجون من الصناديق ، الكأس والابريق ، وترى حتى الجليل ، مسترسلاً في التهليل . هذا الشيخ قاسم يشهد على ما اقول :

فقال الشيخ قاسم ، وهو البارع الحاذق في افانين الحديث ، فيغير الموضوع دون ان ينتقل منه او ان يسيء : عندما كنت في الاستانة كنت اقول لزميلي سليمان البستاني : لا يُصلح هذا الكون الا بامرين ، ان اصير انا بابا رومه ، وتصير انت شيخ الاسلام .

فقال الضابط : لا يصلحه الا السيف .

فأجابه الشاعر : قد كان السيف بيدكم وما اصلحتموه .

فقال التاجر : مصيبتنا البدو . البدو مشكل لا يحله الا الله .

فأجابه الحكيم : جهل مسلح يزيله علم مسلح .

— احسنت احسنت . وهذه المدرسة الحربية الهاشمية قد اسست لهذه الغاية .

— اقول لك بحرية ان « الهاشميات » كلها لا تصلح شيئاً . يظل ذوو حسن [1] الى آخر الدهر لصوصاً عصاة ، وبدو الرويس [2] لا يتغيرون ولا

(١) هم اشراف ذوي حسن يقيمون بين الليث وجده يقطعون الطرق براً وبحراً فيسلبون وينهبون ولا تستطيع الحكومة الهاشمية تأديبهم .

(٢) بدو الرويس . مثل ذوي حسن الاشراف ، ولكنهم يمارسون مهنتهم في الشمال بين ينبع وجده .

يصلحون . والبقوم [1] يتذبذبون وينافقون ولا يذعنون الا للقوة وانتم — صلّ على النبي .

بينا نحن في هذا الحديث جاء الامير زيد ينبئني بان جلالة الوالد قادم لزيارتي . فارفضت الجلسة وبعد دقائق دخل عبد يقول : سيدنا . فخففنا الى استقباله ووقفنا في الباب ننتظره حتى نزع نعلاً من رجله يلبسه فوق حذائه ودخل فجلس في كرسي الى جنب الديوان الذي خصني به . ثم جاء الخادم بالقهوة وجاء عبد جلالته بالفنجان الملكي الخاص الذي يحمله في بيت من حرير مزركش باللؤلؤ الثمين .

وكان للكآبة يومئذ خيال على جبينه العالي ، بل ظلٌ في وجهه الصافي الاديم . وكان الحديث في السياسة ، وفي النهضة ، وفي مؤتمر فرساي ، وفي الانكليز ، وفي فيصل .

— لا تظنني اشكو يا ايها العزيز النجيب . اقول : اننا ثابتون في خدمة البلاد مهما تشعبت الاسباب وتعددت الصعوبات . ولا نبغي غير عز العرب . والسوريون من صميم العرب . فاذا صعدنا في الكمالات ، وبعدنا عن مفاسد المفسدين ، ودسائس النفعيين ، ولا استثني اقرب الناس اليّ — اقول : اقرب الناس اليّ . يخونون او يخطئون — فالحجاز يتبع سورية . وانا ياحضرة الفاضل اتبع من تختارون للخدمة وللزعامة . اقول : اتبع من تختارون ...

وكان الكاتب الاول في الديوان الهاشمي الشيخ احمد السقاف وهو كاتب سر جلالته يحمل حقيبة فأمر بفتحها ففتحها وقدمها للملك فاخرج منها اوراقاً رسمية اطلعني عليها .

— ما جئتك شاكياً ياايها النجيب العزيز ، ولكنها العهود ، وحقوق الاب على بنيه ... ان احقر البدو لا يخون عهداً يعاهد به . ولو اتبعوا نصيحتي ، لو

---

(١) البقوم عشيرة تسكن تربة والخرمة وفيها من الاشراف الذين « دينوا » اي اعتنقوا المذهب الوهابي . فالملك حسين يدعي رعايتهم لانهم من بني لؤي ' اشراف الحجاز ، والسلطان عبد العزيز آل سعود يدعي ذلك لانهم وهابيون . وقد فصل السيف ، سيف نجد ، بينهما في وقعة تربه .

امتثلوا امري ، لما كان ذاك التساهل والتذبذب في المؤتمرات · فتحوا للفرنسيس باب سورية ، وكادت سياستهم تقضي على القضية العربية ·

قد علمت بعدئذ من شرح المتن لجلالته ، ان الضمير في «اتبعوا» «وامتثلوا» «وفتحوا» هو عائد الى من كان يمثله في الشام وفي فرساي وعلى رأسهم الامير فيصل · وعلمت كذلك ان جلالة الملك حسيناً كان يرغب بالقدوم الى سورية ، وبان يمثل العرب في مؤتمر السلم الاول · اذن هو ناقم على فيصل · وقد قيل لي انه يوم عاد الامير آخر مرة من اوروبه الى الحجاز لم ينزل جلالة الوالد ليلاقيه في جده كما كان يفعل سابقاً ·

انها لمن المحزنات · اما الحقيقة في القضية ، الحقيقة كلها : فهي مقسمة لا تجتمع لواحد من آل هذا البيت الشريف · فلو مثّل الملك حسين العرب في باريس ولندن ايام المؤتمرات لكان الامر ولا ريب اثبت في يديه ، ولكانت النتيجة احسن للعرب · ولكن وجود الملك حسين في الشام ، في سورية ، يضيع ما قد يكون كسبه في مفاوضة الاحلاف بباريس · ذلك لان السوريين كانوا اميّل الى فيصل منهم الى والده لعلمهم انه عصري ، رحب الصدر ، دمث الاخلاق ·

فالصلابة التي تفيد في لندن وباريس لا تفيد في الشام · ومهما قيل في الملك حسين ، ومهما تعددت مناقبه الشريفة ، فهو في صفته الدينية لا يعزّز زعيماً كان او مليكاً ، في بلاد تعددت اديانها ، واشتدت من جراء ذلك النعرات والنكبات ·

ولكننا اذا ما نظرنا الى القضية من وجهة الملك الابوية نرى ، في حقوق تقضي عليها الحوادث ويمحو اثرها الزمان ، مأساة بشرية في قلبها شيخ جليل نبيل · وهو مع ذلك ثابت في عزمه ، وفي ديوانه ، وفي جريدته · يهز على اعدائه السيف واليراع ، ولا يهمه من الملك ما ضاع ، او ما لا يعطى منه ولا يباع · فهو ، ما دامت له قوة ، يطالب به على الدوام ، ولا يرضى بغير « ملك العرب » لقباً ، وان كانت سيادته لا تتجاوز الطائف شرقاً والقنفذة جنوباً ،

رضي امراء العرب او لم يرضوا ·

ملك مغبون ، وشيخ في بيته محزون ، لا يشكو الزمان ، ولكن في قلبه من الزمان جمرة حامية · ولا يلوم العربان ، وفي صدره من العربان دمّلة دامية · ولا يندم على ما تقدم في سبيل النهضة من المساعي والذنوب · فهو النهضة اولاً وآخراً ، وهو لا يزال باذن الله قوياً عصياً ، مهما كان من امر « فيصلنا » و « زيدنا » وعزيزنا في شرق الاردن · قد قال بلزاك « ان ابناءنا اعداؤنا» · وما اصدقها كلمة ولا سيما على الاسر الشريفة المالكة ·

الفصل السادس

بين الاستانة ومكة

اكبر ملوك العرب واضعفهم — ملك الحجاز وملك العرب — فضله الاكبر الثورة على الترك — نشر الدعوة في اوروبه — سيرة الملك حسين — اقامته في الاستانة — رجوعه الى مكة — عون الرفيق — قبر امنا حوا — في ظل الشريف عون — الرجوع الى الاستانة — عضو في مجلس شورى الدولة — امير مكة — الحالة في الحجاز مدة امارته — اعلان الثورة — منشور الاستقلال — سورة البقرة — العرب غير المسلمين — الدين في النهضة — الاصلاح التركي — انتصار الترك — عبد الحميد الصغير — مكه وفروق — السجن والبسفور

ان الملك الحسين اذن لاكبر ملوك العرب سناً، واظهرهم جلالاً، وارفعهم من الوجهة الدينية مقاماً، واغمضهم في السياسة مسلكاً، واضعفهم اليوم سلطة، واشدهم كرباً وغماً. هو ملك الحجاز في المعاهدات الدولية، وملك العرب في الجريدة الرسمية، والمنقذ الاكبر في عين اولئك الذين لا يعرفون من البلاد العربية غير الحجاز. وليس من ينكر انه كان منقذاً في برهة من الزمان لا اظن التاريخ يعيدها، او الاقدار تسمح بتمديد اسبابها، فتمكن الملك حسين من تحقيق امال المتهوسين وآماله الوطنية، بل احلامه الهاشمية.

ان فضله الاكبر لفي ثورته على الاتراك، وان كانت المصلحة والمساومة فيها حرعية اكثر من المبادىء التي اعلنت من اجلها. ثم في نشره الدعوة العربية في اوروبه، وان كان ذلك ضمناً في سبيل آل البيت الخاص. ثم في الثبات المدهش في مطالبته بحقوق العرب وان كانت عمومية الى حد الابهام.

ان في النهضة العربية مجد الملك حسين وانجاله البواسل الذين حاربوا في سبيلها، وان في الوحدة العربية المفازات التي ضاعت فهلكت فيها كل امالهم.

ومن المسؤول في ذلك؟ ان في سيرة الملك حسين ما يجعل غوامض الموضوع ظاهرة جلية ·

واليكها بالايجاز · هو حسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون[١]. ولد سنة ١٢٧٠ ﻫ في الاستانة وجاء في السنة الثانية من سنه الى مكه مع والده وجده ، ثم عاد والده الشريف علي الى فروق واقام فيها الى ان توفاه الله سنة ١٢٨٧ ﻫ وكان في خلال تلك المدة عضواً في المجلس الاعلى ثم صار وزيراً وعين عضواً في مجلس شورى الدولة· فزاره ابنه الحسين وكان لا يزال في طور الفتوة ، فنشأ هناك في بيئة تركية عربية ·

ثم عاد الى الحجاز بعد وفاة والده فأقام في كنف عمه الشريف عبد الله بضع سنين وتزوج بابنته عبديه خانم[٢] كان الشريف عبد الله يومئذ امير مكه · وهو مثل اكثر كبار الاشراف ربيب الاستانة التي اكسبته شيئاً من الكياسة الاسلامبولية وأشياء من السياسة التركية ·

وكان للحسين اعمام آخرون تولوا الامارة بعد عبد الله ، منهم الحسن الصالح ، الذي قتل في جده ، وعون الرفيق المصلح الذي كان يميل في عقيدته الى الوهابية · فحمل حملته المشهورة على الاولياء ، فأمر بهدم القبور والمقامات ، وكان جهاده يذهب حتى بقبر « امنا » حوا لولا تدخل القناصل وقولهم للشريف عون : لك ما تشاء في الاولياء ، ولكن حواء ام الناس اجمعين ، ونحن نحتج على

---

(١) في ما تسمى الطبقة الرابعة ممن تولوا سدانة الكعبة ، التي تبدأ سنة ٥٩٨ ﻫ (١٢٠١ م) وتستمر الى يومنا هذا ، فروع من البيت الهاشمي اسس كل فرع منها رجل كبير نبغ في قومه · فالفرع الذي آسسه في مطلع القرن الماضي في زمن ابرهيم باشا الشريف محمد بن عبد المعين بن عون سلف الشريف حسين هو صنو آل زيد الذي تغلب عليه · وهذان الفرعان اللذان كانا يتنازعان الامارة وسدانة الكعبة هما من بني حسن الذين نبغ فيهم جد الاشراف الاكبر محمد بن ابي نمي · ويتصل نسب ابي نمى بكبير اخر في السلالة الهاشمية هو قتادة ابن ادريس · وقتادة من ولد موسى الجون · وموسى هذا هو ابن حفيد الامام الحسن بن علي بن ابي طالب وابن بنت الرسول

(٢) هي ام الاميرين علي وعبدالله والملك فيصل · وبعد وفاتها تزوج الملك حسين بتركية من اسر الاتراك الكبرى هي ام الامير زيد ·

هدم مقامها · فاقتنع الشريف بما قالوا وعفا عن ذلك المقام الاكبر [١]

وفي ايام الشريف عون ظهرت مواهب ابن اخيه الحسين فتلألأ ذكاؤه واشتد عزمه وكان في شعوره ومساعيه عربياً كريماً ، غيوراً على قومه وبلاده لجوجاً متهوساً · ولا غرو وعمه الشريف عون كان يومئذ مثاله الاعلى · فرابه الاستانة امره ، فاستدعي اليها سنة ١٣٠٩ هـ ليكون ضيف البادشاه واسيره مثل من تقدمه من الاشراف ، فأُشرب هناك روح السيادة العالية ومبادىء السياسة التي اشتهر بها المابين ·

صعد الشريف حسين في الدواوين الى مقام المقربين من السلطان واسندت اليه رتبة الوزارة مثل ابيه ، وعين مثله عضواً في مجلس شورى الدولة ، فاستمر في وظيفته الى سنة ١٣٢٦ هـ اي اول سنة الدستور العثماني وكانت مدة اقامته هذه المرة في الاستانة سبع عشرة سنة · ثم عاد الى ام القرى اميراً عليها ، وظل مخلصاً للدولة او متظاهراً بالاخلاص حتى السنة الثانية من الحرب العظمى عندما اعلن الثورة وشهر الحرب على الاتراك ·

ان ما يستغرب من امره في مدة امارته هو ان الحجاز في تلك الايام ايام راتب باشا السوداء ، كان نهباً للناهبين ، ومحط رحال السفهاء من الاتحاديين ، فتعددت من فوضى الاحكام المظالم ، وغدا العدل شريداً ، والامن طريداً ، فكان الحجاج والمطوّفون يُسلبون حتى في ظل البيت الحرام في رائعة النهار ·

---

(١) هذا المقام او القبر هو في جده ، طوله خمسة وسبعون قدماً ، وامنا حواء مدفونة فيه · وقد شاهدت في البلاد العربية القبور الاخرى للعائلة الاولى البشرية وكل واحد منها يبعد مئات الاميال عن الاخر · قد يكون قايين فر هارباً بعد ان قتل هابيل فجاء البلاد التي تسمى اليوم عدن ؛ ومات ودفن هناك · فان الصيادين يدلونك على كهف عال في الجبل الى اليمين وانت سائر من التواهي الى عدن القديمة — هذا قبر قايين ! اما قبر ابوه آدم فقد سمعت به في النجف بل هو هناك وقل من يعرف ذلك من غير اهل الشيعة الذين يزورون المشهد اي مقام الامام علي · فهم اي الزوار ، عندما يقفون تحت القبة المباركة امام ضريح الامام ، يسلمون قائلين : السلام عليك ياعلي وعلى ضجيعيك آدم ونوح · ابونا آدم مدفون اذن مع علي في النجف ، وبين النجف وجده حيث قبر امنا حواء ما يزيد على السبعمئة ميل · لا بأس بالاساطير اذا كانت تنير · اللهم لا تشتت هذه الامة العربية وان كثرت ذنوبها كما شتت العائلة البشرية الاولى ·

ومع ذلك فلم يغضب الشريف حسين اثمٌ من مآثم الترك يومئذ اكثر من خروجهم ، وهو في نظره الاثم الاكبر ، على التقاليد الاسلاميــة البالية ٠ انها لعمري فضيلة فيهم يستحقون من اجلها احترام الامم المتمدنة ٠

اما الملك حسين فسجلها عليهم في رأس المفاسد والآثام ٠ وقد عدد منها في منشور الاستقلال الذي اصدره في ٢٧ حزيران سنــة ١٩١٦ و ٥ رمضان سنة ١٣٣٤ فجاءت قسمين ، قسماً نشأ مع الدستور وكان ملازماً له فصبر جلالته ثماني سنوات دون ان يحرك ساكناً عليه ، وقسما نجم عن الحرب العظمى والسياسة التركية الجديدة ٠ وقد ذكر من الذنوب الاخيرة في منشور الاستقلال « مخالفة نصوص الشرائع الاسلامية » و « اهانة النبي » و « التبديل في شريعة الوراثة الشريفة » و « المساواة في الحقوق بين المرأة والرجل » و « اعفاء الجنود الموجودين في دمشق والمدينة ومكة من المحافظة على الصوم » و « اصدار الاحكام التي فيها مخالفة صريحة لنصوص سورة البقرة » وبعد ذلك احتج على اعــدام الاحرار في سورية ٠

ومنشور استقلال العرب هو اساس الوحدة العربية ! أفما حان لنا ، أوَ لا يحق لنا ، ان نتساءل نحن العرب غير المسلمــين : ماذا يهمنا من نهضة اساسها سورة البقرة ؟ واي دخل لنا في ثورة اعلنت في ذاك السبيل ولتيك الاسباب الدينيــة ؟

على انه اذا انعمنا النظر في سيرة الملك حسين وفي ما له من الدهــاء وغريب اساليب السياسة نتأكد انه اتخذ الدين او العاطفة الدينية في العرب سبيلاً الى تحقيق مقاصده ٠

لست انكر اخلاصه في احتجاجه على ما يعتقده بدعة في سلوك الاتحاديين ٠ الا ان الحكمة في سياسته قصرت دون المراد ٠ قال : النهضة العربية عززوها ، وهو عالم بان احد ركنيها مسيحيو سورية الذين لا يستحسنون الصبغة الدينية فيها ، والركن الثاني مسلمو سورية ، واكثرهم يعطفون على الاتراك ويستحسنون

الاصلاحات الدينية التي يسعى الحزب الراقي منهم الى ادخالها في الاسلام . ليس في ما يجلو الحقائق مثل الايام ، ولا في ما يظهر كامن الشعور مثل الحوادث – ولعمري ان ملوك العرب لا يفلحون ، لا يفوزون فوزاً تحسن نتائجه وتدوم ، ما زالوا يتخذون الدين وسيلة لتأييد سيادتهم ، وتحقيق مقاصدهم ، وتعزيز العصبية فيهم . والملك حسين ، في فوزه وفي خيبته ، برهان شريف على ما اقول .

انه ليصعب على من نشأ بين الاتراك ، وتشرب روحهم ، ومارس سياستهم عشرين سنة ونيف ، ان يتجرد تمام التجرد من آفاتهم ، او ان يحاربهم بسلاح هم اعلم به منه واقدر على استعماله . ولا يفوتنك ان الاتراك حاولوا مراراً ان يعلنوا على اوروبه الجهاد ولم يفلحوا . فهل يفلح جهاد فريق من المسلمين على اخوانهم في الدين وفي هذه الايام ؟ انها لمن المخزنات . ومهما كان من انتصار العرب على الترك في الحجاز وفي سورية باسم الدين اولاً فان انتصار الروح التركية على زعيم النهضة وكبيرها انما هو رأس الخيبة والفشل في سياسته كلها .

يدعونه عبد الحميد الصغير . ولعمري اذا صح التشبيه فالتصغير لا يجوز له لان الامور تقاس ببيأتها والاشياء كلها نسبية بما فيها من خير او شر . ان مكة في نظر المسلمين لاعظم من فروق ، وقد قيل لي ان سجنها اظلم من اعماق البسفور . فما قول اهل جده وقد شاهدت بعيني ولمست بيدي ذاك الخوف المستولي عليهم ؟ الخوف من رجل مكة الظالم ، ومن سجن مكة المظلم ، ومن وحشة مكة عند المغضوب عليهم . هي وحشة لا يتخللها بصيص من الرحمة او المعروف .

الفصل السابع

بين مكة ودوننج استريت

رسول اللورد كتشنر — التجنيد في الحجاز — الشريف يعتزل السياسه — الفظائع في سورية — احتجاج الشريف وجواب جمال باشا — فيصل في الشام — حيلة الشريف في انقاذه — رجوع فيصل الى المدينة — رسل الانكليز والمفاوضات — الشروط الخمسة — التأهب للوثوب — كتاب من السر ارثور مكماهون — الشريف يطلق بندقيته — اعلان الثورة — تسليم الحاميات في مكه وجده والطائف — الشريف حسين ملك الحجاز — اعتراف الاحلاف به — تهنئة الاميرال الافرنسي — كتاب من مندوب بريطانيه العظمى في مصر السر ردجينلد ونغات ٠

بينا كان جلالة الملك ونجلاه الاميران عبد الله وزيد جالسين ظهر يوم من الايام الى المائدة في الطائف دخل الحاجب يقول : غريب في الباب يبغي سيدنا ٠ وكان الرجل رسولاً خفياً جاء الحجاز متذرعاً بالحج وهو يحمل الى الشريف حسين من مندوب بريطانيه العظمى في مصر اللورد كتشنر دعوة للانضمام الى مصاف الاحلاف ٠ فابى يومئذ الشريف ٠ ثم كتب اليه خلف اللورد كتشنر السر آرثور مكماهون في الموضوع نفسه فتردد وتودد ٠

وكان لا يزال محافظاً على ولائه للعرش العثماني مع انه لم يحضر الى المدينة ليسلم على انور وجمال عند ما زاراها في طلائع سنة ١٩١٦ ٠ وقد كان نصح الاتراك ان لا يدخلوا في الحرب العظمى ، ولكنه بعد دخولهم عرض عليهم المساعدة بشروط منها العفو عن المسجونين السياسيين في سورية والعراق ، واعطاء البلدين نوعاً من الاستقلال اي انشاء حكم لامركزي فيهما ٠ وعندما رفض الترك طلبه والحوا عليه — رغم ذلك — بالتجنيد في الحجاز راح الى قرية خارج مكة يعتزل السياسة الى حين ٠

ثم حدثت الفظائع في سورية ، ورأسها شنق احرار العرب ، فاثارت غضب

الشريف فكتب الى جمال باشا يحتج على اعماله القاسية ، فأجابه جمال ان يتقي نفسه بدل ان يدافع عن سواه . و كان الامير فيصل في الشام يومئذ فخاف الملك عليه واحجم عما كان يدبره من امر الثورة الى ان يخلص ابنه من الخطر هناك . فكتب الى جمال باشا يقول انه مهتم بالتجنيد وسيشترك العرب مع عساكر الدولة وحليفتها المانيه في الزحف على ترعة السويس . اللهم اذا اسرع فأرسل الامير فيصلاً الى الحجاز لهذه الغاية . فجازت الحيلة على جمال باشا وجاء الامير فيصل الى المدينة ومعه عشرة آلاف ليرة واربعة آلاف بندقية .

وكان الانكليز في اثناء ذلك يواصلون مفاوضاتهم السياسية مع الشريف المتردد المتودد ، فأرسلوا اليه المستر ستورس الذي صار بعدئذ حاكماً على القدس والكرنل هوغارث ثم الكرنل لورنس فاسفرت المفاوضات كلها عن الشروط الخمسة التي تم الاتفاق عليها في الشهر الاول من ١٩١٦ وهذه هي :

اولاً : تتعهد بريطانية العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معاني الاستقلال في داخليتها وخارجيتها ، حدودها شرقاً خليج فارس ، وغرباً بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الابيض ، وشمالاً حدود ولاية حلب والموصل الشمالية الى نهر الفرات ومجتمعة مع الدجلة الى مصبهما في خليج فارس ، ما عدا مستعمرة عدن فانها خارجة عن هذه الحدود . وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات والمقاولات التي اجرتها بريطانيه العظمى مع اي شخص كان من العرب في داخل هذه الحدود بانها تحل محلها في رعاية وصيانة حقوق تلك الاتفاقيات مع اربابها امراء كانوا او من الافراد .

ثانياً : تتعهد بريطانية العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من اي تدخل كان باي صورة كانت في داخليتها ، وبسلامة حدودها البرية والبحرية من كل تعدٍ ، ايًا كان الشكل ، حتى لو وقع فتنة داخلية

من دسائس الاعداء او من حسد بعض الامراء تساعد الحكومة المذكورة مادةً ومعنى على دفع تلك الفتنة · وهـذه المساعدة في الفتن والثورات الداخلية تكون مدتها محدودة اي الى حين تتم للحكومة العربية تنظيماتها المادية ·

ثالثاً : تكون ولاية البصرة تحت مشارفة بريطانيه العظمى الى ان تتم الحكومة الجديدة المذكورة تنظيماتها المادية · ويعين من جانب بريطانيه العظمى في مقابلة تلك المشارفة مبلغ من المال يراعي فيه حالة الحكومة العربية ·

رابعاً : تتعهد بريطانيه العظمى بالقيام بكل ما تحتاج اليه ريثما الحكومةالعربية من الاسلحة والذخائر والمال مدة الحرب ·

خامساً : تتعهد بريطانية العظمى بقطع الخط من مرسين او من نقطة مناسبة في تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن بلاد ليست مستعدة لها ·

وظل الشريف حتى بعد هذا الاتفاق الذي تم في كانون الثاني من سنة ١٩١٦ يعد و يسوف الانكليز ويعد العـدة سراً للعمل الخطير ، يتأهب للوثوب · وكان قد كتب الى المندوب السامي في مصر كتاباً يعلمه بذلك فاجابه السر آرثور مكماهون في كتاب مؤرخ في ١٠ اذار سنة ١٩١٦ (٦ جمادى الاول ١٣٣٤ ه) يقول :

« قد تلقينـا رقيمكم المؤرخ في ١٤ ربيع الاخر ١٣٣٤ عن يـد رسولكم الامين · وسررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تنوون اتخاذها وترونها موافقة للاحوال الحاضرة · ان حكومة جلالة ملك بريطانية العظمى تجيزها · و يسرني ان اخبركم بان حكومة جلالة الملك وافقت على جميع مطالبكم وان كل شيء رغبتم بالاسراع فيه وفي ارساله هو مرسل مع رسولكم حامل هذا · وستحضر الاشياء الباقية بكل سرعة ممكنة · فتبقى في بورت سودان تحت امركم الى حين ابتداء الحركة واعلامنا رسمياً بها · وقد انتهت الينا

اشاعات مؤداها ان اعداءنا باذلون الجهد في اعمال السفن ليبثوا بواسطتها الالغام في البحر الاحمر ، ولإلحاق الضرر بمصالحنا هناك . فنرجوكم ان تسرعوا باخبارنا اذا تحقق ذلك لديكم » .

مرت اربعة اشهر على الاتفاق الانكليزي العربي قبل ان يطلق الشريف حسين بندقيته من قصر الامارة بمكة . وكان الحجاز يعاني من شدة الحرب واهوالها اكثر من سواه من الاقطار العربية . فسدت ابواب البحر ، وانقطع الحجاج عن الحج ، ونفد القليل مما كان في البلاد من زاد ، فضجت الناس وهلك مئات من الجوع . وقد قال جلالة الملك انه ظل واهل منزله سنتين يأكلون الدُخن .

مرت الاربعة الاشهر وكان قد اصبح الامير فيصل في مأمن من الاعداء ، ولديه فوق ذلك من مالهم وسلاحهم ما لا يستهان به . وكانت الذخائر والسلاح والمال بدأت ترد عن طريق بورت سودان من المصدر الذي لا تنفد عداته وقواته .

فتوكل الشريف على الله . ونهض في صباح اليوم التاسع من شعبان سنة ١٣٣٤ ﻫ (٢ حزيران ١٩١٦ م) قبل الفجر و بيده بندقيته اطلقها طلقة واحدة كان لدويها صدى في جده والطائف والمدينة . أعلنت الثورة في مكة وجده في اليوم الاول ، وفي الطائف والمدينة في اليوم الثاني . وكان ما لديه من القوات العسكرية موزعة متأهبة كلها ، فحاصر الامير زيد بجنوده قلعة « اجياد » بمكة ، وهجم الامير عبد الله على الطائف ، وكان الشريف محسن قائداً في جده ، والاميران علي وفيصل ، وقد خرجا من المدينة ، يجمعان العربان ليحاصروا الترك فيها .

وقد برهن ابناء الشريف خصوصاً صغيرهم الامير زيد على بسالة فيهم اظهرها القتال ، وعززها الجلد في النضال . ولم يمر شهر على حصار قلعة «اجياد» التي كانت تصب نارها على مكة ، وخصوصاً على قصر الامارة فيها ، والشريف في غرفته الخاصة في ذاك القصر يدير الحركة ولا يبالي بشظايا القنابل التي كانت

تخترق السقوف والجدران ، فلم يمر شهر حتى كلل الحصار بالنصر .
سلمت « أجياد » في ٤ رمضان . ثم استولى الامير عبد الله على الطائف في ٢٦ ذي الحجة من تلك السنة .

وفي ٢ محرم ١٣٣٥ هـ (١٦ تشرين الثاني ١٩١٦ م) بويع الشريف حسين بالملك ، وفي الشهر التالي اعترفت به دول الاحلاف الكبرى ، اي انكلتره وفرنسه وايطاليا ، ملكاً على الحجاز ، وجاء الاسطولان الانكليزي والافرنسي الى جده يحملان الى جلالة الملك تهانىء تلك الدول احلافه ، فخطب في حضرته اميرال الاسطول الافرنسي ودعاه باعظم امراء العرب .

قد ينسى الملك حسين تلك الخطبة وذلك الاطراء من الاميرال الافرنسي ولكنه لا ينسى ما خُط على الورق وما لديه من الرسائل التي كان يحملها كاتب سره في تلك الحقيبة الصغيرة يوم شرفني بزيارته في دار الضيافة . هوذا كتاب من خلف السر آرثور مكماهون في مصر المندوب السامي السر رد جينلد ونجت ، مؤرخ في ١٩ نيسان سنة ١٩١٧ م و ٢٧ جمادى الثانية ١٣٣٥ هـ وفيه ما يلي :

« فاؤمل ان لا يبرح من بال جلالتكم ان الحكومة البريطانية هي التي تحترم المعاهدات وهي حامية ذمار الحق والعدل ، والحليفة الوفية التي لا تخون العهود . »

الفصل الثامن

الوحدة العربية [١]

رأس البلية فيها — معاهدة سيكس بيكو — كتاب السر ادوارد غراي الى سفير فرنسه في لندن — بشرط ان تكون المدن الاربع ، حمص وحماه والشام وحلب ، للعرب — تنازل الملك عن جزء من سورية — وماذا في شبه الجزيرة — قبلة العرب الفاتحين — الاهتمام بسقف البيت قبل الاساس — فضل الحسين قبل ان صار ملكاً — طموحه — عداؤه لامراء العرب — الخطل في سياسته وثباته فيهما — امانيه واماني ملوك العرب — الشرط الثاني من الشروط الخمسة — حلفاء بريطانيه العظمى — خداع وكلاهما او جهلهم — سذاجة العرب — دولة سورية هاشمية — تنازل الملك وانسحابه — « لا ابغيها » .

انه ليصعب على من امعن النظر وكان منصفاً ان يقول من هو رأس البلية في القضية العربية . واذا ما بغينا الحقيقة كل الحقيقة في الموضوع ، اي موضوع الفشل ، يبدو امامنا في اربعة اجزاء تجسمت في انكلتره وفرنسه ، ومن تولى الزعامة من العرب ، ثم العرب انفسهم . رأس البلية اذن تنين ذو اربعة رؤوس .

ولكن هناك عامل واحد يعد من اسباب الخيبة والفشل يشترك معه عامل اخر . الا هو السياسة الدولية السرية . لنجتنب التعميم : ان المعاهدة السرية — التي كانت سرية — بين فرنسة وانكلترة ، اي معاهدة سيكس بيكو ، هي من اهم اسباب الفشل في تحقيق الوحدة العربية .

وقد تم عقد هذه المعاهدة في ١٥ ايار سنة ١٩١٦ اي قبل ان اعلن الشريف حسين الثورة على الترك بسبعة عشر يوماً . فبينما كان السر ارثور مكماهون يفاوض مكة و يقطع للعرب العهود كان المسيو بيكو والكرنل سيكس قد اتمّا عملهما المشؤوم فقسما البلاد السورية الى مناطق سياسية

---

(١) لهذا البحث لاحق في خاتمة الكتاب في اخر الجزء الثاني

اقتصادية ، زرقاء وحمراء وسمراء ، وهي كلها اليوم اذا اعتبرت مصلحـة البلاد مناطق سوداء .

على ان الحكومة الانكليزيـة لم توافق على تلك المعاهدة دون تردد او دون شرط وقيد . فقد كتب السر ادوارد غراي ناظر الخارجية يومئذ الى سفير فرنسة في لندن المسيو كمبون كتاباً مؤرخاً في ١٥ ايار سنة ١٩١٦ يقول فيه ان حكومة جلالة الملك توافق على المشروع (مشروع التقسيم) اكراماً لمصالح الاحلاف العامة بشرط ان يشترك العرب بالحرب و يكون لهم المدن السوريـة الاربع اي حمص وحماه وحلب ودمشق .

وكان جلالة الملك حسين قد طلب من الانكليز البلاد السورية كلها ، ثم تنازل عن مرسين واسكندرونه ، واستمر يطالب بالمدن الاربع والسواحل ايضاً ، ثم اعترف للانكليز كما يظهر من الشرط الثالث في الشروط الخمسة بالمشارفـة — وقد ترجمها ترجمان الديوان الهاشمي بالاشغال — على ولاية الموصل . نعم ان الشرط ينص حرفياً على الاستيلاء مشارفة كان ام اشغالاً . والاستيلاء يبدأ غالباً بالشروط و ينتهي بالاطلاق .

ايجوز ان نقول اذن انه لولا المعاهدة السريـة بين فرنسه وانكلتره التي تقدمت المعاهدة بين انكلتره والشريف ، لكانت تحققت اليوم الوحدة العربية ؟ ليس من ينكر ان تلك المعاهدة قضت على القضية في الشمال ، في سوريا وفلسطين . ولكنها لم تصل بكل اسبابها المدمرة الى شبه الجزيرة . واني في هـذا القول لا انطق بغير نصف الحقيقة . ـ

اما نصفها الآخر فهو ان الشريف لم يكن ليهتم بشبه الجزيرة يومئذ اهتمامه بسورية وفلسطين ، ولا جزءاً من ذا الاهتمام . وماذا في شبه الجزيرة ، اذا مال بوجهه اليها ، غير الامراء الاعداء ، والقبائل المتمردة ، والصحاري والقفار ؟ اما سورية وفلسطين ، قبلة العرب الفاتحين ، فينبغي ان تكونا جزءاً من الحجاز او يكون الحجاز جزءاً منهما . لا فرق عند الشريف . وفي ذلك الانضمام تتحقق الوحدة العربية .

افلا ترى في هذه الخطة ان صاحبها يهتم بسقف البيت قبل اهتمامه بالاساس ؟ وليس الاساس ايها العربي الغيور في سورية وفلسطين ، بل هو في نجد واليمن وعسير ، في الامراء الاعداء والقبائل المتمردة . فلو تمكن الملك حسين من ضم كلمتهم الى كلمته ، وجمع شتاتهم تحت رايته ، لكانت له سيادة تذل عندها عقبات الشمال ، وتزول الوان المناطق السياسية كلها . ولكنه ، وقد فشل في سورية وفلسطين ، امسى ولا نفوذ له يذكر في شبه الجزيرة .

اقول هذا وانا عالم بما لجلالته من الفضل في سبيل القضية قبل ان صار ملك الحجاز . وانه في ثباته ومضائه ، وفي دهائه وابائه ، عندما كان يمهد السبيل الى العمل الخطير ، ذاك العمل الذي لم يقدم عليه الا بعد ان نال من دول الاحلاف مطالبه المادية كافة ، من سلاح وذخيرة ومؤنة ومال ، واخذ منهم الوعود بتحقيق مطالبه السياسية كلها ، انه ، وان كان مبدأه المساومة ، لجدير بالاعجاب والاجلال . ولكنه بعد ان صار ملك الحجاز طمع بان يكون ملك العرب . ولم يكن في اساس عمله ما يجيز مثل ذا الطمع . فهو فوق احتقاره امراء العرب الحاكمين اضمر لهم العداء كما يظهر من الشرط الثاني في الشروط الخمسة . ومهما كان من عزمه وثباته في الدفاع عما يعتقده حقاً ، فان الخطل في سياسته العربية نقدم السداد في ثورته الحجازية .

وما الفائدة اليوم من ضجة تملأ الدوائر السياسية احتجاجاً ، وقد انكشف الستار ولم يعد في القضية سر يستثمره الدهاء ؟ انه لوهم قديم طلي بذهب حلم جديد ولكن الملك حسين اصلب ساسة الارض اليوم رأياً وايبسهم عوداً . فهو وان شابت الاوهام ، وهرمت الاحلام ، لا يطوي العلم ولا يكسر الحسام . وقد يموت شاهراً سيف السياسة والدهاء على اعدائه الحقيقيين والوهميين في سبيل المجد الهاشمي ، والوحدة العربية . ما اعظمها وما اجملها ثقة ، تلك الثقة بالنفس .

اجل ، ومن يطلب ما طلبه الملك حسين من دولة بريطانيه العظمى غير رجل طماح ثقته بنفسه اعظم من ثقة الانكليز بانفسهم ؟ ومن من امراء

العرب الذي يعرف بعض الشيء عن زملائه واخوانه في الجزيرة يعلل النفس بتحقيق تلك الاماني ، اماني الشريف ، واماني الملك ، واماني المنقذ الاكبر ؟ وهي كلها واحدة لا تتغير ·

ولكنها لا تتفق مع اماني الآخرين · قلت انه اضمر لهم العداء في الشرط الثاني من شروطه الخمسة · فقد جاء فيه ان « لو وقعت فتنة داخلية من دسائس الاعداء او من حسد بعض الامراء » تتعهد بريطانيه العظمى ان تساعده « مادة ومعنى » عليهم · ولا ريب ان ابن سعود والادريسي كانا في ذهن الملك عندما امر وزيره ان يكتب هذا الشرط · ولا ريب ان معتمد بريطانية العظمى كان يدرك ذلك لما بين الملك وابن سعود والادريسي من العداء القديم · ولكن سلطان نجد وسيد عسير من اصدقاء بريطانيه العظمى واحلافها ، فكيف يمكنها ان توافق على شرط قد يوجب عليها محاربتهما من اجل الملك حسين ؟

وكيف يستطيع الانكليز ان يقوموا اليوم بشروط اتفاق نسخته معاهدة سيكس بيكو ؟ ان تلك الصفقة لصفقة يائس مستهتر · وان في تلك الشروط دليلاً على سذاجة في المنقذ الاكبر مهما كان دهاؤه السياسي · وان في قبول بريطانيه العظمى بها دليلاً على جهل في معتمدها ، او حماقة في رسلها ، او خدعة في حكومتها مهما كان من قول رجالها في برّها بالوعود ومحافظتها على العهود ·

قد أدرك جلالة الملك حسين حتى قبل انتهاء الحرب وعورة المسلك الذي سلكه في تأسيس دولة عربية ، يريدها اولاً سوريةً ، وقد لا يريدها الا هاشمية · فكتب قبل انتهاء الحرب بثلاثة اشهر الى فخامة نائب الملك في مصر كتاباً يقول فيه : « فتى اضفنا عليه تظاهر عجزي بعدم حصول ما كان يؤمل من النتائج يتحتم عليّ الانسحاب من الامر والتنازل عنه » ··· ثم قال وهو لا يزال يصر على الشروط الخمسة : « فاذا كان لا بد من التعديل فما لي سوى الاعتزال والانسحاب ··· وانها (اي بريطانيه العظمى) لا ترتاب في اني

واولادي اصدقاؤها الذين لا يتغير ولاؤهم واخلاصهم ... ثم تعينون البلاد التي يستحسن اقامتنا فيها للسفر اليها في اول فرصة . »

ولا تزال هذه لهجة الملك ولا يزال هذا قصده منذ ذاك الحين الى يوم تشرفت بمقابلته في جده ، وقد قال لي يوم ودعته . وهو يقبض على لحيته : « اني لا ابغيها (اي الزعامة) لا ابغيها . ليتفق امراء العرب عليها وانا اعتزل . ليتفقوا على تأييد الوحدة العربية فأنسحب اذا شاءوا واشاركهم بما يتفقون عليه تابعاً كنت او متبوعاً . اقولـ ، ياحضرة النجيب ، تابعاً كنت او متبوعاً . »

وهذا ما وطد فيّ يومئذ احد المقاصد من رحلتي ، فشجعني في رسالتي الوطنية العربية ، وحبب اليّ خدمة جلالته في تمهيد السبيل الى التفاهم بينه وبين امراء العرب .[1]

انتهى القسم الاول

(١) في تاريخ نجد الحديث للمؤلف ، صفحات ٢٠٣ — ٣١٦ تتمة تاريخ الملك حسين .



حضرة الامـام يحيى

في طاقية الشغل

تصوير المؤلف

راجع صفحتي ١٥٩ و ١٦٠ من هذا الجزء

القسم الثاني

الامام يحيى بن حميد الدين

المتوكل على الله

اليمن

حدوده : جنوباً خط يمتد من المخا على البحر الاحمر الى تعز فماويه فقعطبه - شمالاً خط يمر في بلاد خولان و بني بشر الى نجران · غرباً البحر الاحمر من الشيخ سعيد الى ميدي وشرقاً البحر السافي او الربع الخالي ·

الويته : لواء صنعاء ولواء الحديدة ولواء تعز ولواء صعده ·

عدد سكانه : نحو مليوني نفس ونصف مليون ٢٬٥٠٠٬٠٠٠

مساحته : نحو اربعين الف ميل مربع ·

اهم قبائله : حاشد و بكيل وحمدان والحوارثة وذو محمد وذو حسين و بنو اسلام، و بنو مطر والمكارمه ·

اهم بلدانه : صنعاء وذمار و يريم وإب وتعز وزبيد و بيت الفقيه ومناخه -

مذاهبه : الزيدية والاسماعيلية والسنة (شوافع) واليهود -

الفصل الاول

التبليغ في الترويع

« والله نذبحه » — « سفرك الى اليمن مستحيل » — وصولنا الى عدن — « بامر من الحاكم » القنصل الاميركي — وكيل بريطانيه العظمى — المعري وعمر الخيام — الخطر في السفر الى اليمن — «لا يمكننا ان نحميك» الاشاعات والشبهات — سلطان لحج يرحب بنا — زيارة بقيود — الاعتراض على رفيقي « الحجازي » — الجواسيس — السياسة في الترويع — وكيل الامام يحيى في عدن — اللغة العربية في المهجر — سفير يحمل سيفاً وخنجراً — المفسدون — حبال المحنة — وميض الامل — كتاب من دار الاعتماد — كتاب من وكيل الامام — الجاسوس التائب .

كنت ذات يوم في ادارة احدى الجرائد النيويوركية حين دخل رجل غريب اللهجة لا اللسان يبغي كتاباً يعلمه الحديث في اللغة الانكليزية . فسألته : من اين انت ؟ فقال : من اليمن . وكنت يومئذ في اهبة السفر الى بلاد العرب فاستأنست بالرجل وبلهجته وقلت ، وانا راغب في الاستفادة : اجلس وحدثني عن بلادكم . فقال على الفور : بلادنا طيبة الهواء والماء ولكن اهلها دائماً في احتراب . فقلت : ومن يحاربون ؟ فاجاب : حاربنا الاتراك ، وحاربنا القبائل ، وحاربنا الادريسي ، ويحارب دائماً بعضنا بعضاً .

— وهل الامام يحيى حاكم اليمن كله ؟

— لا . هو يحكم جزءاً صغيراً منه . نحن اهل اليمن لا نخضع لاحد دائماً . نحب الحرية ونحارب من اجلها . نذبح اقرب الناس الينا لنكون مستقلين . نقول للامام : هذا الرجل لا نشتهيه (لا نريده) حاكماً ، ونقيم منا شيخاً علينا ونقول له : انت حاكمنا انت امامنا .

قلت : واذا ابى عامل الامام التنازل عن منصبه ؟ فاجاب بلهجة هادئة : والله نذبحه .

ثم سألته ما اذا كان من اجانب في اليمن فقال : لا · وانه لا يؤذن لهم لا بالاقامة ولا بالسفر هناك ·

— واذا جاءكم الاجنبي ·

— والله نذبحه ·

— واذا ساح متنكراً ·

— اذا عرفناه فوالله نذبحه ·

— اوَ ما يؤذن للسوري وهو عربي مثلكم ؟

— اذا كان مسيحياً فهو والفرنجي سواء عند اهل اليمن · وقد يحميه لسانه او يصرف النظر عنه ·

قلت واذا انكشف امره فعرفتموه ؟ فأجاب الرجل دون ان يغير لهجته الناعمة اللطيفة : والله نذبحه · كأنه يقول نضيفه ونكرمه ·

سافرت من نيو يورك وفيَّ من قصة «نذبحه» ما يضحك ويزعج معاً · ثم رُوِّعت في مصر · قلت في بيت احد الاصدقاء اني مسافر الى اليمن وكان الاديب السوري نعوم شقير [1] حاضراً فقال على الفور : غير ممكن ، فذكرني رحمه الله بالقصة وحاقت بي اشباح من بلاد «نذبحه» · فقلت : ولماذا ؟ هل من خوف على حياتي ؟ فأجابني ثانية · مستحيل · غير ممكن · ثم صرح بما فيه بعض الاطمئنان اذ قال : لا يأذن بذلك اولياء الامر ·

— ومن هم اولياء الامر ؟

— الانكليز ·

— وهل للانكليز سيادة في اليمن ؟

— هم في عدن يرصدون الابواب · ما لك واليمن ؟ قد يأذنون بزيارة سلطان لحج وهذا يكفي · في اليمن حرب اليوم ، والاخطار كثيرة ··· زد على ذلك ···

---

(١) له تآليف ادبية وتاريخية منها « تاريخ السودان » وكان قبل وفاته يشتغل في تأليف « تاريخ لحج »

ولم يزد شيئاً جديداً . سكت فروّع ثم قال : مستحيل سفرك الى اليمن مستحيل . ودعاني للعشاء في بيته . فقلت : اني اقبل دعوتك بشرط الا تقول لي ان سفري الى صنعاء مستحيل . فقبل الشرط رحمه الله وما لسنا في تلك الليلة في الحديث حاشية من حواشي اليمن .

جئت الى جدّه واجتمعت فيها بصديقي القديم قسطنطين يني . وخطر لي ان لا بأس بل لا بد في السفر الى جبال اليمن من رفيق فسألت جلالة الملك حسين ان يأذن لقسطنطين ان يرافقني فاجاب تلطفاً سؤلي . فسافرنا متوكلين على الله ، انا في ثياب افرنجية وعقال احمل جوازاً اميركياً ، وهو في ثوب ملازم في الجيش الحجازي يحمل جوازاً حجازياً . وكانت العلائق بين الانكليز والملك متراخية في ذاك الحين كما اسلفت القول في الفصول الاخيرة من القسم السابق .

وصلنا الى عدن فاستقبلنا على الرصيف ضابط انكليزي وبعد ان اطلع على جوازاتنا احتفظ بها قائلاً : بامر من الحاكم . فقلت : وهل هو امر عام او انه يختص بنا فقط ؟ فأجاب : هو امر عام ياسيدي . ثم اخذ عنواننا ووعدنا بان يعيد الجوازات الينا في ذاك اليوم ولكن ذاك اليوم والايام الثلاثة التالية شهدت على الانكليزي فتيقنا انه لا يبر دائماً بوعده .

وقد كنت احمل كذلك كتاب تعريف من الوزارة الخارجية بواشنطون فقدمته للقنصل الاميركي وسألته ان يطلب من الحاكم اعادة جوازي . ثم اعلمته بقصدي فصفر مدهوشاً ثم قال : وقد يُقطع رأسك ولا أحد يسأل عنك ... انصحك الا تسافر — هذا اذا اذن لك .. في البلاد حرب اليوم ، والطرق غير امينة ، وانا لا اقدر ان احميك .

فقلت وكاد يملكني الغيظ : اسمع يارجل ، قد تنازلت في العاصمة وفي الوزارة الخارجية عن حقوقي كلها . ولا اسألك الآن غير كتاب تكتبه الى الحاكم تعرفني اليه وتقول له اني ابغي مقابلته . فكتب القنصل الكتاب في الحال ولكن الحاكم ابطأ في الجواب كما ابطأ في اعادة الجوازات .

جاءني القنصل صباح اليوم الثالث وفيه بعض الاضطراب يقول : لست ادري ما السبب في التأخير ولكنني اجتمعت في النادي مساء البارح بالمعاون الاول . تعال نزوره الآن . فذهبنا الى دار الوكالة فاستقبلنا المعاون قائلاً للقنصل : قد كتب اليك الجنرال وعين هذا اليوم للمقابلة . وتلطف حضرته بان قابلنا في تلك الساعة . دخلنا الى مكتب الجنرال سكوت [1] وكيل بريطانيه العظمى والحاكم المدني والعسكري في عدن ، فاذا هو كهل طويل القامة طلق المحيا . صافحنا وامر بالجلوس فجلس معنا الماجر رَيْلي معاونه الاول . وكان القنصل اول المتكلمين . ثم قال الجنرال يخاطبني : قيل لي انك شاعر . فقلت: صدق من اخبرك . فضحك وتتبع الموضوع فكان الحديث في شعراء العرب والعجم . فذكر الجنرال عمر الخيام ، ورجال الجندية يعرفونه ويعجبون به اكثر من سواهم لانه بشير الخمر واللهو والغناء . ثم قال : اما الشاعر الذي ترجمته الى اللغة الانكليزية . . . فساعدته في لفظ اسم ابي العلاء المعري . وقلت كلمة اجابة لطلبه في الفرق بين الشاعرين : فلسفة المعري عقلية وفلسفة الخيام محض حسية .

عجبني من الجنرال انه لم يفاجئني ، فيجبهني ، كما يفعل متوظف اميركي ، في الحديث عما ابغي منه . وكان في ذلك اشبه بمتوظف شرقي . ولا عجب وهو من رجال حكومة الهند خدم بلاده هناك عشرين سنة . تطرقنا من الشعر الى العقائد الدينية ثم الى السياحة فجهرت بقصدي فقال : اوَ لا تهمك الاخطار ؟ فقلت : هي لذة الاسفار . فقال : ولكن في السفر الى اليمن خطراً اكيداً ، خطراً كبيراً على المسيحيين . ونحن لا نستطيع ان نحميك في ما تجاوز حدودنا .

فقلت : ياحضرة الجنرال ، هذا ذنب لي وقد غسل يديه مثل بيلاطس في قديم الزمان . وانا راض بذلك . فاذا كنت لا اطلب الحماية من حكومتي أيجوز لي ان اطلبها منكم ؟ . . . اني مسافر الى صنعاء ياحضرة الجنرال

---

(1) Maj. Gen. T. E. Scott, C. B., C. I. E., etc.

وليس لي مهمة سياسية . لا علاقة لي باية حكومة من حكومات العالم . الا اني احب العرب ، وانا اصلاً منهم ، واحب في سياحتي ان اخدمهم ما استطعت . فاذا تأكدت بعد البحث والمشاهدة انهم في حاجة الى مساعدة انكلترة انصح لهم بالتفاهم واحثهم عليه . واني اجهر امامك وامام قنصل اميركه بذلك لعلمي اننا كحكومة وكأمة لا يهمنا اليمن ولا مطامع لنا في البلاد العربية . فاذا كنت استطيع ان اخدم انكلترة في ما اعتقده نافعاً للعرب افعل ذلك مسروراً ومجاناً . لا اسألكم مكافأة غير الاذن بالسفر الى صنعاء . واذا مهدتم لي السفر الى نجد كذلك اكون لكم شاكراً وفي ما فيه مصلحة العرب خادماً اميناً .

فقال الجنرال : لا دخل لحكومة عدن بنجد . اما السفر الى صنعاء فهو كما قلت محفوف بالاخطار وخصوصاً اذا كان المسافرون مسيحيين . فاذا اذنا لكم باجتياز حدودنا لا نكون مسؤلين قطعاً عن حياتكم وسلامتكم دون تلك الحدود .

فقلت : وهل تريد ان اكتب لكم صكاً اتنازل فيه عن حقوقي بل عن حياتي ؟ فضحك ، ثم سكت ، ثم وقف قائلاً : سأنظر في الامر واكتب اليكم قريباً .

وقال القنصل عند خروجنا من دار الوكالة : يظهر ان الجنرال يعرفك وسأبحث لأعرف بعض ما يعرفه او يظنه غير ما سمعناه الآن . وما كان موانياً او مبطئاً . فأوقفني في اليوم التالي على ما كنت اجهله من غرائب الامور التي اصبحت في البلد حديث الناس .

اولها ، اني رسول الملك حسين السياسي الى الامام يحيى . والبرهان على ذلك رفيقي الملازم في الجيش الحجازي . فكيف يأذن لنا الانكليز بالسفر الى صنعاء وهم لا يرتاحون الى عقد معاهدة بين الملك والامام .

وثانيها ، اني قادم من اميركه من قبل بعض الشركات المالية ابغي امتيازات من حاكم اليمن . والبرهان على ذلك اهتمام القنصل بامري . فكيف يأذنون بالسفر

الى صنعاء وهم المنافسون ؟ فاذا كان هناك من امتيازات ، فانما يبغونها لانفسهم؟
وثالثها ، اني ممثل حزب النهضة العربية في مصر وقد جئت سائحًا في البلاد ابث هذه الفكرة فاستثير العرب على الانكليز . والبرهان ... سبقنا في البرق الى عدن .

فهل يستغرب الترويع بعد ذلك ؟ وهل يستغرب صدور الامر الى ادارة الشرطة بمراقبتنا انا ورفيقي ؟
ولى الاسبوع وانا انتظر واحاول في الظنون التثبت والانصاف . وكنت اثناء ذلك طلبت ان ازور السلطان عبد الكريم فضل سلطان لحج واراد القنصل مرافقتي فقيل لي : ينبغي ان اكتب الى سموه وان استأذن كذلك الانكليز . فكتبت الى سمو السلطان والى معاون الحاكم فجاءني الجواب من الاول مؤهلاً مرحبًا ، وجاءني ورفيقي بواسطة القنصل اذن من الثاني مصحوب بكتاب يقول فيه ان الجولان خارج حدود لحج محظور وممنوع . وان السفر بدون حرس لا يكون ، وان امر الحرس « منوط بهذه الدائرة » اي دائرة الحاكم . اظنه خاف ان نسافر من لحج بدون اذن منه ونستغني كذلك عن الحرس . على اننا والحق يقال بتنا والخطر الاكيد احب الينا من الترويع والقيود .

دفع القنصل الكتاب اليّ وحذرني من اولئك العرب الذين يتكلمون اللغة الانكليزية : اكثرهم يزورون الماجر ريلي بعد ان يزوروك . ثم قال : ويظهر ان اعتراض اصحابنا على رفيقك اشد من اعتراضهم عليك . فأكدت له ان رفيقي صديق قديم وان لا صفة له رسمية في هذه السياحة ، واني ارفض الاذن بالسفر اذا صدر باسمي فقط .

بعد ثلاثة اشهر اي بعد رجوعي من صنعاء عرفت السبب في ابطاء سعادة الجنرال الحاكم . فقد اضطره امرنا الى مراجعات كثيرة طويلة بعيدة اتصل بعضها بوزارة المستعمرات بلندن ، وبوزارة الخارجية الاميركية بواشنطون . ومن هو امين الريحاني ؟ وهل يؤذن له بالسفر الى صنعاء ؟

عند ما رأت الوكالة البريطانية ان لا بد من الاذن اتخذت خطة اخرى. فسعت بواسطة اصحابها ، ومنهم اولئك العرب الذين يتكلمون اللغة الانكليزية ، ان تقنعني بان السفر الى صنعاء من الحديدة هو اسهل طريقاً واقل خطراً . وقد ارادت بذلك ان ازور اولاً صديق الانكليز السيد الادريسي فارى في تهامة ما قد يغنيني عن زيارة خصمهم حضرة الامام . فرفضت بتاتاً وكتبت الى معاون الحاكم ، جواباً على ما جاءني في كتابه الى القنصل ، اسأله ان يتفضل فيرفقنا بالحرس اللازم الىحدودهم اي الحدود التي تنتهيعندها حمايتهم. فجاءني منه جواب يقول فيه : قد كتبت الى سلطان لحج بخصوص طلبكم وسأعلمكم بما يجد .

اقف عند هذا الحد في القصة لارجع الى مصدر اخر من مصادرها الغريبة. بعد ان زرت الوكالة البريطانية رحت اقصد الى وكالة اخرى سياسية . يممت في فم البركان ، في عدن القديمة ، ومعي رفيقي قسطنطين ، بيت القاضي عبدالله العرشي وكيل حضرة الامام يحيى وسفيره الى الانكليز في عدن . فلما وصلنا الى دار السعادة اليمانية بادر الى استقبالنا عند الباب رجل صغير نحيل في قميص من القطن قصيرة ، تحتها قميص اخرى من الصوف زرقاء وفي رجله الخف ، وعلى رأسه ، وقد نزع العمامة ، طاقية بيضاء . هو القاضي عبد الله سفير الحضرة الامامية .

جلسنا على سجادة صغيرة في زاوية من غرفة تكاد تكون عارية وكان الى جانب مسند القاضي عدد من الجرائد المصرية والسورية وفيها جريدة نيويوركية اشار اليها فضيلته قائلا : نعم الغيرة غيرة ابناء العرب في اميركه على الوطن واللغة . ولكنني اقف حائراً في مطالعتي هذه الجريدة عند الفاظ فيها وتعابير ليست من العربية بشيء . أفلا يقرأون النحو واللغة على اساتذة من العرب هناك ؟.... اما هذه — واشار الى مجلة مصرية ، فاسلوبها « ناهي » (جميل) ... ومن الغريب يا حضرة الفيلسوف ان يوم وصلتنا برقيتكم من بورت سودان وصلت هذه المجلة وفيها مقال عنكم ، طالعناه والاعجاب بكم يسابق

الشوق اليكم . فشكرنا الله الذي حقق املنا باللقاء ... ومولانا الامام هو عالم كبير وشاعر مجيد . وعنده مكتبة من الكتب المخطوطة لا مثيل لها في البلاد العربية كلها ... يوم وصلتنا برقيتكم يا حضرة الكامل اشعرنا بالملك (تلغراف) حضرة الامام . ومتى جاء الجواب نسارع اليكم به . نحن في خدمتكم . وهذا قليل تجاه من وقف نفسه على خدمة العرب ...

وفي اليوم التالي جاء فضيلته ، لابساً ثيابه الرسمية ، راكباً السيارة ، يزورني في النزل . وكان في معيته كاتب سره واثنان من العبيد . دخل احدهما عليّ يقول : مولانا القاضي . فلبست عقالي وخففت الى استقباله . ولولا العبد المبشر بقدومه لما عرفته لاول وهلة . اين القميص والطاقية والخف من هذه المطارف الفخمة التي جاء يرفل بها . وهذا البرد اليماني المخطط بالاصفر والاحمر وقد طرحه على كتفه كأنه رداء روماني . وهذه العمامة العامرة الباهرة الالوان ، والسيف يحمله بيده ، والجنبية في زناره . هو ذا حقاً سفير الحضرة الامامية دام نصرها .

والغريب ان حضرة القاضي كان في تلك الزيارة رسمياً في حديثه كما كان في ثيابه . فما انعش لي املاً ، ولا قال انه زار كذلك صباح ذاك اليوم الوكالة البريطانية . فلا غرو اذا فتحت اذني لرواة الاخبار الذين قالوا انه راح يستشير الحاكم في امري ، وانه لا يقدم على عمل لا يُستحسن في دار الوكالة ، وانه يقبض منهم ، لا من الامام ، المشاهرة . وقال بعضهم — بئس المفسدون — انه يقبض من الاثنين ، وانهم ، اي الانكليز ، اذا شاءوا ان يمنعوني عن السفر فلا يفعلون مباشرة اكراماً لقنصل اميركه ، ولكنهم يوعزون الى القاضي عبد الله بان يقول لي ان الطريق الى صنعاء محفوطة بالاخطار ، فلا يستطيع ان يرفقني بالحرس اللازم ، وغيرها من الاقاويل . لله منك ياعدن ما اكثر الدسائس فيك والجواسيس .

جاءني بعد ايام كتاب من فضيلة القاضي « مجدداً للوعاد مؤكداً للوداد » يبشرني فيه بوصول برقية من حضرة الامام مجيباً بالايجاب . ثم قال : فاي

وقت تريدون ان تسافروا عرفوني فأرسل معكم احد خاصتي الى امير الجيش في ماويه [١] واعطيكم كتاباً اليه فيكرم وفادتكم و يرفقكم بمن يقوم بخدمتكم وحراستكم الى السدة الشريفة · انتم منا وعلينا واجب الحب والاكرام ···

وصلني هذا الكتاب وانا في لحج ضيف سمو السلطان عبد الكريم فضل انتظر الفرج من الوكالة البريطانية · وكنا ، على جميل ضيافة سموه وحفاوته بنا ، في حالة تعددت همومها · فقد مرض اولاً الرفيق قسطنطين بالحمى ومرضت انا بـ « القال والقيل » وكان داء الجدري متفشياً في البلد فخفت ان يكون قد اصيب رفيقي به · واطلعني السلطان ذات ليلة على كتاب من الحاكم : لا تأذنوا لفلان وفلان ان يتجاوزوا الحدود قبل ان يجيئهم الاذن منا · فاذا تمثل القارىء تلك الحال ، وقد بقينا امراء في القصر بلحج ، يدرك شيئاً من سروري بكتاب القاضي عبد الله العرشي ·

اسرعت باعلام القنصل فراح الى دار الوكالة يسألهم البت في الامر · ومرت خمسة ايام حسبتها خمس سنين وانا اجتهد ان اكون محسناً بالانكليز الظن · ولكني سئمت التسويف والمماطلة ، ونفرت من الاثرة في امر اربعة اخماسه بيد سواهم حقاً وعملاً · ولو كان كله موكولاً اليهم لما كنت ألوم · فها ان صاحب البلاد يرحب بنا ووكيله في عدن يعدنا بما يلزم من الخدم والحرس في الطريق من ماويه الى صنعاء · والسلطان عبد الكريم ، رغم رسائل الوكالة ، يرفقنا ساعة يشاء بحرس الى حدوده · وانا ورفيقي ، وحياتنا على كفنا ، مكتفيان بهذه الضمانة ·

— واذا مت يامولاي (كان السلطان عبد الكريم يحاول تسكين خاطري) اموت والله في حبكم ، في حب العرب ·

---

(١) هي عند حدود اليمن الجنوبيه وعلى مسافة خمسة وسبعين ميلا من عدن

فضحك سموه وامر لي بمداعة [1] وامر كاتب سره ان يكتب الى الحاكم في عدن يقول انه مستعد ان يرفقنا يوم نشاء بالحرس الى ماويه . فجاءني والحمد لله بعد يومين الكتاب التالي :

دار الوكالة . عدن . في ٥ نيسان سنة ١٩٢٢ رقم ٣٩٥

الى المستر امين الريحاني —

ايها السيد العزيز :

قد كتب الحاكم الى سلطان لحج يسأله ان يرفقكم انت وقسطنطين يني بالحرس الى حدود حمايتنا عندما تزمعون الرحيل . ولكنه رغب اليّ ان اعلمكم بان البلاد في اضطراب ، وان في السفر فيها خطراً على المسيحيين ، وانه وان كان قد سأل السلطان ان يرفقكم بالحرس الى الحدود فلا هو ولا السلطان يضمنان لكم السلامة . وليكن معلوماً لديكم بان الحاكم غير مسؤول البتة عما يحدث لكم في ما دون حدود المقاطعات المحمية . لكم باخلاص

ب . م . رَيلي

المعاون الاول للحاكم بعدن

ذكرني هذا الكتاب بالكلمة الاولى التي قالها القنصل لي : قد يُقطع رأسك ولا أحد يسأل عنك . . وكنت قد تركت عنده من امتعتي ما لا احتاجه في السفر الى اليمن ، واعطيته عنوانين . في بيروت وفي نيويورك . لينعيني في الاقل الى اهلي .

لست ادري وانا اعيد ذكرى تلك الايام ما الذي تغلب فيّ على ذلك الترويع اذا لم يكن ثباتي على احد امرين وهما ثقتي التامة باخواني العرب وعزمي على انجاز ما باشرته من السياحة العلمية . نعم قد كنت مزوداً

---

[1] تدعى النارجيلة في اليمن مداعة واظنها تحريف مدعاة لفظاً ومعنى . ففي القاموس المدعاة تفيد الدعاء الى الطعام وفي اليمن المداعة هي الدعاء الى الانس والسرور . وقد قال الشاعر فيها :

مداعتي انيستي جليستي في وحدتي
تقول في كركرها بالله خذني باللتي

بكتب التوصية من الملك حسين . وقد رأى القارىء في ما تقدم ما له من الاعتبار عند الانكليز الذين حاولوا ان يمنعوا صديقي عن السفر لانه في خدمة جلالته . واما اولياء الامر من رجال الامام يحيى فسيرى القارىء ما لملك الحجاز عندهم من الاحترام .

اما الخطر وان جسمه الانكليز فقد كان والحق يقال في حيز اليقين وخصوصاً في بلاد الحواشب ، احدى السلطنات الداخلة في حماية الانكليز ، الكائنة بين لحج واليمن الجنوبي . وكانت عساكر الامام في الزحف تلك السنة على المقاطعات التسع المحمية قد وصلت الى الحواشب ونكلت بهم ، فارسل الانكليز على اليمانيين طيارتين رمتهم بالقنابل فتفرقوا وعادوا خاسرين لذلك كان العداء لا يزال متمكناً بين الامام والحواشب . ولذلك اطلقوا الرصاص على رجال الوفد اليماني عند ما مروا بارضهم قبلنا بشهر واحد في رجوعهم من الحجاز الى صنعاء . فماذا عسى ان يكون حظنا منهم ونحن قادمون من الحجاز ووجهتنا الحضرة الامامية ؟

قيل لنا اننا اذا اجتزنا سالمين المُسَيمير ، عاصمة السلطنة الحوشبية ، نكون قد اجتزنا منطقة الخطر الاكبر في طريقنا . ولكن كلمة قالها القاضي عبدالله العرشي في صفته الرسمية — اذا لم يكن الامن موجوداً فنحن نوجده من اجلكم — وكلمة كتبها تطردان كل ما تهافت على آذاننا وتزاحم في قلوبنا من كلمات الترويع والتهويل . اما الكلمة التي كتبها الى حضرة الامام وقد اذن لنا بنسخها فاننا ندونها في هذا السفر لغرضين ، فيطلع القارىء اولاً على اسلوب المراسلة في اليمن اليوم ثم على مثال من كرم الاخلاق وحسن الظن يندر في رجل لم يعرف عن المؤلف غير ما طالعه في مجلة عربية . قال عافاه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

امد الله مدة مولانا ، ومالك امرنا امير المؤمنين ، والحجة على الخلق اجمعين ، المتوكل على الله رب العالمين ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته يردد في كل وقت وحين ٠

و بعد فصدورها للسلام ، مقبلة بواطن الاكف والاقدام ، وهي لكم صحبة السيد الماجد ... امين الريحاني الذي فيه سبق الاشعار من لملوك اليكم بوصوله الى عدن وقصده الوصول الى حضرتكم الشريفة مزاورة والمعرفة وتأدية ما معه من خدمة ونصيحة ٠وقد وجدته على جانب عظيم من الحب والمودة للعرب ، ومن اللطف ... وعرفت ان لا مانع من توجهه الى حضرتكم ٠ وكتبت في التوصية به وتسهيل سفره وحسن وفادته الى امير الجيش في ماوية ، حماها الله ٠ وسيتضح لكم حسن نيته وما هو عليه من المحبة والمودة للامة العربية كافة عند المواجهة ٠ وربما تستفيدون منه ومن نصائحه ومعرفته بالاحوال ما يكون فيه نفع الوطن وعمرانه ٠ وليس لمن مثلي ان يشير الى من مثلكم فقد نوّركم الله بمعرفة كل شخص فتعطونه حقه وفوق حقه ٠ وفي هذا كفاية ٠ والله تعالى يصلح بكم جميع الامور والسلام عليكم ٠

في ٨ شعبان المعظم سنة ١٣٤٠ من المملوك

عبد الله العرشي

قبل ان اختم هذا الفصل المؤلم المفكه معاً ينبغي ان اسجل على اولياء الامر فعلة قد يفيدهم نشر خبرها ٠ عند ما صدر الاذن بسفرنا استخدمت الوكالة البريطانية رجلاً عربياً ليرافقنا سراً في رحلتنا الى صنعاء فيتجسس اخبارنا ، ويدون احاديثنا كلها ٠ واعطته الوكالة كتاباً مختوماً ليفضه بعد ان يخرج من لحج ويعمل بموجبه ٠

ولكن الرجل تاب في آخر ساعة الى ربه وأبى القيام بتلك المهمة · زد على ذلك انه فض الكتاب في السوق بعدن واطلع بعض التجار على ما احتواه ·
سمعنا في الحرب العظمى بالغريب الفظيع من اخبار الجاسوسية ، وهذا بعد الحرب الغريب المضحك منها ·

الفصل الثاني

في الطريق الى صنعاء

حدود لحج — الحواشب — اجسام العرب — وادي دَ بَن — جبل وَرَوَه — حديث الولد الجندي — الخُندُق — ابن السلطان يلاقينا مرحباً — القصر في المسيمير — العشاء — السلطان علي بن مانع — اعداؤه واحزانه — اخلاصه للانكليز — راتبه الشهري — « عند الانكليز مال وحكمة » — صباح غير مبارك — رمي الفخار على رجالنا وهم يحمّلون — « هم يطردوننا ، عجلوا بالرحيل » — اطلاق البنادق والفطور — السلطانة تكرم الضيف — ماوِيَة — ألزيود — جيش الامام النظامي — السيد علي بن الوزير امير الجيش — مجلس القات — « هل انت حسني او حسيني ؟ » — وجاءنا الفرج في بيت من الشعر — الملك حسين واولاده ·

ركبنا قبل انبلاج الفجر سيارة صغيرة وخرجنا من لحج نبغي الدُكيم التي كانت يومئذ حدود السلطنة اللحجية شمالاً وفيها حامية انكليزية من الهنود · وكانت الحملة قد سبقتنا اليها ومعها الحرس يركبون الهجن ، ورسول القاضي عبد الله العرشي الى امير الجيش ، وبعض المسافرين الذين احبوا ان يرافقونا ·

وكان في الدكيم ايضاً عشرة جنود من جيش سلطان الحواشب علي بن مانع ، جاؤوا بامر منه يستقبلوننا ويصحبوننا في بلادهم · والحوشبي لا يثقل نفسه بالعدة والثياب · ليس في العالم جندي اخف منه حملاً ، واشد منه بأساً · ولا اظن ان في جنود الامم المتمدنة اجساماً مثل اجسام العرب في اليمن الاسفل ·هاك الحوشبي مثلاً وجلده الاسود او الاسمر يلمع في نور الشمس كالنحاس المصقول ، وعضلاته الشديدة المفتولة تتخرك كالاجزاء الدقيقة في آلة كهربائية ، وقامته المتناسقة الاعضاء تُسر بالعري فيكتفي بالفوطة يشدها على وسطه ليستر بها عورته — هوذا معرض محاسن من صنع الله تمتع به ناظريك اذ يثب صاحبه ،

والبندقية على كتفه والامان في قلبه ، كالغزال الشارد امامك .

من هؤلاء الحواشب ولد لا يتجاوز الخامسة عشرة مشى الى جنبي وهو ينظر اليّ من حين الى حين كأنه يبغي الحديث . سرنا في وادي دُبن ، وهو طويل يتصل شمالاً بمدينة اب ، والشمس حتى في نيسان تشوي الضب . وكنا بدأنا في التصعيد ، فتراءى لنا خيال اسحم على الافق البعيد ، فوق قنن من الجبال كثيرة . فهتف الجندي الصغير قائلاً : هذا وَرْوَه — جبل وروه — تراه من عدن وستراه غداً من ماويه . لم اتأكد القسم الاول من مقاله لاني لم اهتم وانا في عدن بالجبال . ولكني تأكدت المبالغة في القسم الثاني منه . رافقنا ورره يوماً واحداً وغاب عن الابصار . وكذلك الجندي الصغير الذي تأسفت على فراقه . كان يحدثني وهو ينقل البندق لثقله من كتف الى كتف ، ويمشي على بؤس حاله سامد الرأس .

— العفو يا امير حضرتك من الشام ؟ اجبته بالايجاب .

— وهل راضية الشام بالسلطان ؟ اخبرته بان حكم السلطان فيها قد انتهى ، فما سره الخبر ، فقال : السلطان رجل طيب يا امير ، ما فيه شر .

سألته : وهل تحب الاتراك ؟ فهز رأسه وأشار بعينيه ان نعم ثم قال : سعيد باشا[1] رجل طيب . كنا في ايامه مستريحين ، وكانت الظلط[2] كثيرة . اما الآن يا امير فلا سعيد ولا ظلط . انظر الى ذاك الجبل . وراءه الصبَّيحة أشر العرب . وهم دائماً يعتدون علينا نحن الحواشب المحافظين على الامن . الحوشبي فقير ولكنه منيع ، ورفع بندقيته مشيراً اليها ، ثم قال : سلامة القوافل في يده .

اما الصبيحة ياحضرة الامير فهم يحاربوننا لانهم لا يحبون الامن . ونحن نهجر حقولنا ومواشينا ورزقنا لنحمل هذا البندق ، لنوجد في البلاد الامن للعباد ، وحضرة الامير — العفو — لا يقدر ان يسافر وحده ، لا والله . بنادقنا وحياتنا ملك السلطان ، وهي الآن تحت امر الامير . هل انتم تحكمون في بلادكم ؟

(١) علي سعيد باشا الشركسي كان القائد العام في اليمن اثناء الحرب

(٢) الظلط اي النقود الذهبية والفضية

قلت له ان اسمي امين لا امير ، واني محكوم مثلكم لا حاكم ·

— ومن يحكمك ياحضرة الكامل ؟

— يحكمني الان الانكليز · هل تحب الانكليز ؟

— يقول السلطان ان الانكليز ما فيهم شر ·

— وهل الحواشب يحبون سلطانهم ؟

— اي والله نحبه ، علي بن مانع رجل طيب ، ما فيه شر · ولكن من هو الحوشبي وما هي اهميته ؟ البندق على كتفه ، والموت قدامه ، ولا يعرف في الليل اذا كانت تشرق عليه الشمس ·

سرنا في الوادي وادي دُبن والجبال حولنا وامامنا تمنع عنا الهواء ولا تقينا حر الشمس ، فوصلنا الظهر الى الخُنْدُق وهي قرية خيامها من القش والغرف ، فيها سمْسَرة [1] للقوافل والمسافرين · فاسترحنا هناك ساعة الغداء ، وارسلنا هجاناً يحمل منا كلمة سلام الى سمو السلطان علي وينبئه بقدومنا ·

استأنفنا السير بعد الظهر فالتقينا في نصف الطريق بين الخُنْدُق والمسَيمير بفرقة اخرى من جيش السلطان ، يتقدمها ابنه الصغير راكباً جواداً رائعاً · جاؤوا من قبله يلاقوننا ، فدوت في ذاك الوادي اصوات البنادق ترحيباً · اطلقوا ثلاث طلقات فاجبناهم بمثلها ، ورحنا وابن السلطان يتقدمنا ، ورجله الحافية في الركاب ، ويده اليمنى على عمامته الكبيرة الرفيعة ، الطويلة الذؤابة الكثيرة الالوان كأنها عمامة العيد ، ترقص فرحاً على رأسه ، وهو على ظهر الجواد اثبت منها ·

وصلنا عند الغروب الى قصر السلطان في المسيمير ، وهي قرية بيوتها من الحجر واللبن قائمة على ربوة خضراء ، ينساب عند سفحها في وادي دُبن سلسبيل فضي ، الى جنبيه الحقول المزروعة وهي تتموج حول اكواخ من القش · ان الجمال الذي يجلب المكان لينبيء بالسلم القروي ولكنه مفقود فلا في سلطنة ابن مانع وجدناه ولا في قلبه · ومن المسؤول ؟ سيجيب

(١) الخان في اليمن يدعى سمسرة والقهوة مقهاية

السلطان على سؤالنا . هذه جنوده تطلق البنادق ثانية ولاءً لاعداء ، تأهيلاً لا تهويلاً .

دخلنا الى بيت في القصر أعد للضيوف . وبعد قليل جاء سموه للسلام ، يتبعه الخدم و بين ايديهم اطباق الطعام : خبز بسمن وسكر ، ومرق و برغل ولحم وعسل . فجلسنا في حلقة على الارض ننطح بايدينا الزاد . وكان السلطان ، وهو ينظر الينا ، أعجب بسفي البرغل سفاً فقال : انت منا يا امين ! انت والله منا . . .

كان السلطان علي نحيلاً كالخيال ، عصبي المزاج ، حاد الطبع ، حر الكلمة . حدثنا بعد العشاء عن احواله قال : انا بين اربعة يا امين ، والاربعة يقصرون حياتي [1] هذا ابني وهذه لحيتي البيضاء . هو ابني الوحيد يا امين ، ولكني اذبحه والله ولا اسلمه رهينة لاحد [2] اما الاربعة فالواحد منهم فوق [3] يشهر علينا الحرب لاننا هادئون ساكتون لا نعتدي على احد . والاخر تحت [4] يغزونا لظنه اننا اغنياء وان خزنة الانكليز تحت امرنا . والثالث هناك [5] لا يخاف الله . والرابع [6] عدونا اليوم ، صديقنا غداً ، لا نعرف والله متى ينقلب ولماذا ينقلب ! وعلينا ان نحاربهم كلهم . واننا والله نحاربهم يا امين ، ونحاربهم حتى نفنيهم او يفنونا . . . لا والله . لا نأخذ من القوافل الا مجيدياً واحداً على كل جمل . والامام يأخذ مجيديين وصاحب لحج يأخذ ثلاثة .

— وكم تأخذون مشاهرة من الانكليز ؟

نظر السلطان علي اليَّ ويده على لحيته ، وثلاثة اصابع من الاخرى مرفوعة ، وقال ثلاثمئة روبية وهي والله غير كاملة . يدفعونها لنا كل ستة اشهر ولا يدفعون غير الف وستمئة روبية . احسبها . وعلينا ان نؤمن للقوافل الطرق ،

---

(١) قد توفي في السنة الماضية رحمه الله اي عام ١٩٢٣ (٢) يشير الى الرهائن التي يأخذها الامام يحيى من عماله وسيجيء ذكرها (٣) اي امام صنعاء الإمام يحيى (٤) اي عرب الصبيحة (٥) اي عرب الضالع جيران الحواشب شرقاً (٦) اي سلطان لحج

وان نطعم اهلنا ورجالنا ، وعندنا قبائل يذكروننا حين يجوعون وينسوننا حين يشبعون . الانكليز ضرورة يا امين .

قلت : ولو دفع لك الامام مشاهرة مثل الانكليز اتتركهم وتواليه ؟

فاجاب على الفور : لا والله . انا متعاهد والانكليز فلا اخلف . وسأبقى صديقهم دائماً . اي والله . الانكليز يا امين يعقلون . عندهم حكمة كما عندهم مال . نعم هم غير مسلمين ، والمسلمون اخوان . ولكن القلب يعرف الاخ يا امين والسياسة لا تعرف غير الضرورة .

ان الحواشب مثل الشوافع في اليمن وعسير يكرهون الامام ، لا لانه عدوهم في الحرب فقط اي في ضرورات السياسة ، بل لانه عدوهم كذلك في الدين ، وفي المذهب . هو زيدي شيعي ، وهم سنيون .

ودعنا السلطان تلك الليلة شاكرين له حسن الحفاوة والضيافة واعلمناه اننا سننهض باكراً للرحيل ، فلا نكلفه مشقة القيام مثلنا ليودعنا ثانياً . وفهمنا منه انه قبل بذلك . الا اننا في صباح اليوم التالي ، بينا كان المكارون والخدم يحملون دهشنا بل ذعرنا لحادث فيه منتهى الغرابة . كنا مقيمين في جناح من القصر قبالة الجناح الذي يسكنه الحريم ، و بيننا الحوش الذي كانت فيه الركائب والخدم ، فسمعنا بغتة ان اناء من الفخار تكسر فيه ، فظننا انه وقع من السطح . ولكن اناء اخر تبعه — رأيناه يرمى من النافذة ولم نرَ الرامي — فاصاب احد العساكر فرفع صوته شاكياً . ثم جفنة ، ثم قطعة اخرى من الفخار تحطمت بين اقدام البغال ، فعلت الضجة في الحوش وسمعنا رجالنا يصيحون : هم يطردوننا ، عجلوا يا ناس ، هذه ضيافة ابن مانع ، عجلوا بالرحيل .

خرجت وقسطنطين مسرعين فركبنا وسرنا نتقدم الحملة . نزلنا من الجبل الى السهل فالنهر وقلبنا — اقول قلبي ولا اتهم رفيقي — يختلج حنقاً ورعباً . ظننا اننا بعدنا عن الخطر وعن ضيافة صاحب السمو الحوشبي عند ما وصلنا الى النهر . ولكننا قبل ان اجتزناه سمعنا اصواتاً تنادي : قفوا ، قفوا . فلم نقف ، فاطلقوا اذ ذاك البنادق طلقات متعددة ، فقلت لرفيقي : هوذا الخطر الذي

نتوقعه . دنت الساعة يا قسطنطين ، قف واشهر سلاحك .

بعد قليل قرب القوم منا فاذا هم خدم السلطان يحملون على رؤوسهم الاطباق ومعهم بضعة عساكر . جاؤونا بالفطور ! اي بالله . كيف نسافر قبل ان نفطر ؟ وكيف نسافر قبل ان نودع السلطان الذي نهض باكراً للوداع ؟

سألناهم عن الفخار الذي رمونا به ، فاخبرونا ان السلطانة ، وهي في خدرها رأتنا من على السطح في اهبة الرحيل ، فنهضت كذلك باكراً من اجلنا . فارادت تنبيه الخدم النائمين في الطابق الاسفل ولم تشأ ان تسمعنا صوتها او ترينا من النافذة وجهها فرمتهم بالفخار تستفيقهم لينهضوا ويهيئوا لنا الطعام . الضيوف ، انهضوا للضيوف ، والحقوهم بالفطور ، واطلقوا الرصاص اذا كانوا لا يقفون .

اكثر الله ايتها السلطانة من فخارك ، وجعلنا السنة فخارك . انك في الضيافة شاعرة الاقران ، وفي البلاد العربية فريدة الزمان . كيف لا وانت السيف في اكرام الضيف . تضربين من اجلنا الكسل ، وتلحقيننا بالعسل .

تروّعين ايتها الحوشبية الالمعية ولا تجوعين . قد كنت حديثنا وموضوع اعجابنا حتى في بلاد الزيود ، التي تنسي المرء الحبيب والمعبود . وقد تنسي الغريبة الجديدة ، غرائب عديدة ، كما حدثت في ماويه اول بلد من بلدان الزيود [1] شمالي عدن .

دخلناها في اصيل ذاك النهار وهي مثل المسيمير مختبئة في الجبل وراء الوادي الذي اجتزناه . فشنف اذاننا لما كنا مصعدين اليها صوت كان وقعه جميلاً في ذاك الوادي الموحش وفي تلك الساعة . فأستأنسنا به ايما استئناس . كأننا عند حدود الامام عدنا الى المدينة والنظام . ولما بلغنا رأس العقبة رأينا على سطح

---

(١) الزيود ينتسبون الى زيد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي ابن ابي طالب وهم وان قالوا في المفرد زيدي لا يقولون في الجمع زيديون بل زيود كأنهم تريدون بذلك ان زيداً متجسد في كل واحد منهم وان امتهم امة الزيود .

من السطوح صاحب ذاك الصوت ، وهو جندي بيـده البرزان (البوق) ينفخ فيه مرحباً بنا باسم امير الجيش ٠

وكانت فاتحة الالطاف ٠ فلما دنونا من القصر سمعنـا الموسيقى العسكرية تعزف بنشيد اليمن الوطني ورأينا فرقة من الجنود النظامية مصطفة خارج السور لاستقبالنا وعلى رأسها ضابط تركي ، فترجلنا نرد السلام ، ودخلنا البوابة الى الحوش بين صفوف من العساكر المسترسلي الشعور ، اللابسي القمصان والعمائم المصبوغة بالنيل ، المسلحين بالبنادق والجنبيات ٠ وعندما وصلنا الى البـاب يتقدمنا كاتب سر الامير واثنان من رجاله ، اوقفنا الحارس هناك ونادى بكلمة حارساً آخر داخل القصر فجاء الجواب موءذناً بالدخول ٠

دخلنا وكانت بداية الرعب والكرب ، صعدنا في درج لولبي مظلم ، ذكرتني درجاته بدرجات الهرم الكبير ، كل واحدة منها دكة ، وعلى كل دكة واحداو اثنان من ذوي الشعور الطويلة ، والثياب المنيلة ، التي تفوح منها رائحة النيل الطري السائل كذلك على اجسامهم [1] كنت وانا اتلمس طريقاً اتمثل القلعـة بل السجن في ذاك القصر واتصور نفسي اسيراً فيه ، فجاء الاضطراب مع التقزز يفسد علينا بهجة الاستقبال العسكري ، وماهي الا فاتحة الكروب ، فعندما وصلنا الى الطابق الاخير اوقفنا الحرس ثانية امـام باب صغير ، ثم دخلنا فاذا نحن في غرفة صغيرة نوافذها مقفلة الا واحدة منها ، وهواؤها وقـد امتزج بالدخان كثيف فاسد ، وارضها مفروشة بالقش والحشيش ، والى جانب الاربعة الحيطان عمائم بيضاء كبيرة ، اصحابها جالسون على الارض صفوفـاً ملزوزة ، وكلهم في

---

(١) هم يغمسون ثيابهم بالنيل ويلبسونها قبل ان تنشف ليسيل الصباغ على اجسامهم ويدخلها فيسد المسام من الجلد ويقيهم حسب اعتقادهم من البرد ٠ وقد قيل لنا ان عساكر الامام وكثيرين من اهل اليمن يتنيلون لا اتقاء للبرد بل حداداً على الحسين ٠ على ان الوهم في هذه العادة أصبح من التقليد كما يظهر لان السادة وهم اولى بالحداد لا يتنيلون ثيابهم ٠

تلك الساعة يمضغون القات بل يخزنون[1] وفي الزاوية عند منضدة صغيرة ، الى جنبها مداعة ، بين اكمة من الاوراق ورزمة من القات ، رجل صغير المنكب والعمامة حاد النظر واللسان ، ناصع الجبين والبيان ، قدمنا اليه كاتب الاسرار ، فعرفنا انه السيد الامجد علي بن الوزير امير جيش الامام في لواء تعز ٠

صافحناه وهو جالس كأنه احد ملوك اليمن في الزمن الغابر السعيد ، فاشار الى فتر من السجادة حشرنا فيه بين شيخين هائلين ،وكان كل من اولئك الاجلاء المحترمين ينظر الينا شزراً كأنه يلتمس لنفسه عذراً من مجرد النظر ٠ وما اظن اننا ظفرنا بشعاع من العطف في تلك العيون ولا فزنا بنظرة واحدة فيها شيء من الارتياح او التساهل ٠

بعد ان سلمنا على الامير قدمنا له كتاباً من القاضي عبدالله العرشي وفيه

---

(١) ساعة القات عند اهل اليمن مثل ساعة الشاي عند الانكليز ٠ ولكن القات غير الشاي ٠ القات حشيشهم وافيونهم والمسكر عندهم وهم يدمنونه ادمان الاوروبيين الخمر ٠ قال شاعرهم العامي :

زمرداً يقطف الاصحاب اوقاتا ‌ ‌ ‌ ‌ يصفو به العيش احياناً واوقاتا
يا عاذلي عن حصول القات متكدا ً ‌ ‌ ‌ ‌ لا نترك القات احياء واموانا

وقال في مدحه الشاعر المتصوف :

براكهُ معراج قلبي حين يصعده ‌ ‌ ‌ ‌ جبريل روحي الى اعلى سماواتي

ان في القات على ما يظهر خاصة الحشيش الاولى اي الكيف ، وشيئاً من خاصة الافيون المخدرة ، وبعض ما في المسكرات مما ينبه الفكر ٠ وبكلمة اخرى هو يطرب النفس ؛ ويخدر الحواس ، ويشحذ الذهن ٠ بل يبعث ، على اعتقاد اهل اليمن ، في صاحبه النشاط فيقويه على السهر والعمل في الليل ٠ قد تحققت بنفسي انه يؤرق ؛ ويحدث في المعدة يبوسة وانقباضاً وفي الفم جفافاً وعفوصة مثل البلوط فيطلب صاحبه الماء كثيراً ٠ ولكني لم احس بشيء من الكيف اي خفة النفس ٠ ولم ينتبه الفكر الى غير الاوهام التي تستحوذ على الناس فتفعل بحكم التأثير الطويل المتوارث فعل الحقائق المحسوسة ٠ قد يكون هذا وهماً مني لان تأثيره في من يستعمله مرة غير تأثيره في من يستعملونه دائماً ، ويفضلونه على خبز يومهم ٠

كل الناس في اليمن ، من رجال ونساء واولاد ومن اغنياء وفقراء ، يأكلون القات — يخزنون ٠ والتخزين هو ان تمضغ الاوراق مضغاً بطيئاً طويلا كما يمضغ بعض الاميركيين التبغ ، ويحفظونها تخزينة « اي كتلة » في الفم يجترونها ٠ ولكنهم لا يبصقون مثل الاميركيين الا عند ما تذوب التخزينة فيبصقون اذ ذاك في اناء من النحاس ما تبقى منها ويخزنون غيرها ٠ ان مجلس القات لا يتم بغير اباريق الماء وكؤوس النحاس الجميلة الشكل الشبيهة بالكؤوس الذهبية التي تستعمل في الكنائس وقت القداس ٠ اما الاغرب من ذلك فان اهل اليمن لا يشربون قهوة البن بل يكثرون من قهوة قشر البن الذي يغلونه

يعرفه اما خطأ واما تلطفاً ، الى السيد [1] امين الريحاني ، فظنني حضرته مسلماً من اشراف المسلمين واراد ان يعرف الى اي الفرعين انتسب ، فسألني قائلا :
هل انت حسني او حسيني ؟

وقع السؤال علي كالصاعقة ، فبلبل الخاطر مني لاول وهلة وعقل اللسان ،
فجالت في ذهني بل جرت كجرى البرق صور كلها سوداء تنذر بالبلاء . أفلم ينذرنا الانكليز بالخطر على المسيحيين ؟ افلم يحذرنا عرب عدن ولحج من الزيود المتعصبين ؟ وها نحن في مجلس اميرهم وعلمائهم ، وفي قاعة ظلماتها كظلمات السجن او اشد ، وروائحها مثل نظرات اصحاب العمائم بل احد ، ولا نزال والحمد لله في بداية الرحلة ، وهل انت حسني او حسيني ؟

جاوب يا فتى . هل تكذب على الامير فتنتسب ، وما الحسن وما الحسين في مثل تلك الساعة ؟ اذ كرّ اني في خمس لحظات غيرت ديني خمس مرات ، فكنت انتقل كالبرق من الحسن ، الى مارون ، الى الحسين ، الى دروزين . اما اذا اكتشف الامير بعدئذٍ حقيقة دينك — اصدقه بالخبر يا رجل ولكن — هل تعلن امام هذا الجمع الزيدي الرهيب مارونيتك او مسيحيتك او درزيتك ، قد يوقفونك فيأسرونك ، يرجعونك الى حيث جئت ، هذا اخف ما في البلية ومن جهة اخرى اشدها .

كالشاي ، فتظنه البابونج لطعمه بدون سكر وهو على ما اظن مفيد لانه يقاوم بعض المقاومة مفعول القات ويخفف من اضراره . لا ريب في ان القات مضر بالصحة والنسل . فهو يفقد المرء شهوة الاكل ، ويفسد اسباب الهضم ، ويحدث مثل الافيون شللاً في مجاري البول ، ولا يقوي الباه بل يضعفه .

ان اسمه العلمي (Catha edulis) وهو نبت شبيه بالبطم الا ان شجرته صغيرة ، وورقه مثل ورق العفص ، يزرعه اهل اليمن في البساتين . مثل اشجار الثمار ويبيعونه باسعار غالية اذا كان من النوع الجيد اي الرخص الصغير الاوراق . هم يقطفونه اغصاناً ويرسلونه الى المدن رزماً ملفوفة بالحشيش الاخضر ومربوطة بقشر الشجر ، ثم يجيئون بالرزم الى المجالس ، مجالس القات ، فيفكونها ويرمون بالقشر والحشيش والقضبان على الارض . ثم يبدأون بالتخزين بعد ان يقفلوا الشبابيك ويشعلوا المداعات (النراجيل) فتمسي الغرفة في تلك الساعة كقهوة الحشاشين في دخانها وكربونها ، وكالاصطبل في فرشها .

(١) لا يدعى سيداً في اليمن غير من كان من السلالة النبوية . وليس هناك غير طبقتين من الناس ، السادة وهم الذين ينتسبون الى الحسن او الى الحسين ، والعرب وهم الفلاحون البدو منهم والحضر .

جالت هذه الصور والسؤالات في نفسي ، جرت مجرى الكهرباء ، وانا اثناء ذلك اسير خوف اشد من خوفي ساعة اطلق الحواشب الرصاص ليوقفونا للفطور . وما خفت على حياتي خوفي من تعرقل مسعاي — من الفشل ، من الرجوع الى عدن مدحوراً مذموماً . ولكنه سبحانه ، بعد ان غيرت فكري خمس مرات في خمس لحظات ، فتح علي فقلت مجيباً : انا عربي يا حضرة الامير ، احترم كل المذاهب الاسلامية ، واحب كل العرب ، واتمثل دائماً في مثل هذا الموقف بقول الشاعر :

ولكل ربع من ربوعك حرمة وهوى تغلغل في صميم فؤادي[١]

اظن ان الامير استحسن الجواب او انه احسن امام العلماء المداراة . وكان من رجاله الذين استقبلونا خارج القصر رجل بش لقدومنا بشاشة الصديق فلمسنا القلب منه في سلامه وتبادلنا واياه الثقة والولاء . فقال يعقب على جوابي مخاطباً الامير : حضرته من سادات لبنان .

فبدت منه ، بارك الله فيه ، شارة القبول والاقتناع وغير الحديث دون ان يبعد كثيراً عن الدين . بدأ الامير علي وهو فصيح اللسان بخطبة رأسها النبي والاسلام وذيلها اولئك الذين يفسدون بالبدع الدين . يتقربون حباً بالمال او السيادة من الافرنج و يدنسون الشرف النبوي بالنياشين الانكليزية . يوالون الكفار و يفتحون لهم حتى ابواب الحرمين . . . الى ان قال : الايمان بالله رأس الفلاح والصلاح ، والجهاد في سبيل الله واجب على كل مسلم سلم ايمانه . وفي سبيل من يجاهد الملك حسين واولاده ؟ في سبيل الله ؟ استغفر الله .

فتصدى قسطنطين للدفاع عن الملك وقلت انا كلمة اثبت ما قال الرفيق في ما يختص برفضه المعاهدة مع الانكليز . ثم قلت وانا انوق الى الهواء : قد يريد الامير ان يصلي المغرب . فاذن لنا بالانصراف وامر كاتب سره ورجاله ان يصحبونا الى المضيف و يعتنوا بامرنا . صافحناه مودعين فلم يقف لنا ولا وقف احد من العلماء . في مجالس القات تقل الترهات .

---

(١) كل مرة اذكر هذه الحادثة اشكر صديقي الشيخ فؤاد الخطيب صاحب هذا البيت الذي فرج عني في موقف حرج جداً .

الفصل الثالث

اليمن الاخضر القديم

الطيارات — الفاتحة — الامام — وادي الذهب — وادي نخلان — نقيل — المحرس — نجد الاحمر — رياحين لبنان — جبل بعدان — ساحة الاستقبال موكب الزيود — اسماعيل باسلامه عامل اب — مدينة قديمة عالية — وادي المرفد — شجر البن — نقيل سماره — ثمانية الاف قدم فوق البحر — قاع الحقل — يريم — الرهائن — ذمار — امير الجيش ابن الوزير الثاني — خطبته المدهشة — « لا فسق في البلاد ولا زنى » — والزانية — حديث الجنود وشكواهم — رفيقنا السيد محمد — الغرض من زيارتي الامام — البيوت في اليمن وعسير — الوحشية والاستقلال

مشينا من قصر الامير الى قصر الضيافة ، بل الى قلعة اخرى عالية مظلمة، وكل البيوت في تلك الجهات من اليمن قلاع وحصون ، فأُنزلنا في الطابق الاعلى، في غرفة سقفها واطٍ ونوافذهـا ضيقة صغيرة ضاق منها صدري ، فهربت الى السطح ونصبت سريري هناك ٠

وكان كاتب سر الامير الاديب التركي ، الذي ادرك بعض ما فيّ من الانقباض والاضطراب ، يحاول تسكين خاطري وتسليتي بما قصة علينا من قصص الحيوانات المفترسة في اليمن الاسفل ٠ فقلت له، وانا احس ان الحيوان المسجون فيّ وفي تلك القلعة يشتهي الفلاة : اننا نروم الوصول الى الحضرة الشريفة باسرع ما يمكن ونلتمس من امير الجيش ، وان كان ذلك مخلاً باداب الضيافة ، ان يسهل امرنا فنسافر في الغد ٠ فوعدنا خيراً ٠

ثم جاءنا بعض وجهاء البلد زائرين وفيهم احد اقارب الامير يحمل الينـا هدية من القات ٠ فاستقبلهم الرفيق قسطنطين وحدثهم وناقش واياهم في موضوع الطيارات ٠ فقال ابن الوزير الابر : نحن لا نخشى الطيارات ٠ نقرأ عليها الفاتحة فتسقط كالطير المذبوح الى الارض ٠ فأُفحم القسطنطين ، وبادر الى القـات شديكتنف فيه اليقين ٠ اما انا فاعتصمت بالسطح ابغي العزلة والهواء ، فصحبني

ذاك الفاضل الذي جعلني من سادات لبنان ، فشكا اليّ اموراً وامرّ اخرى :
لا شك ان حضرة الامام رجل كبير قدير ، ولكنه ظالم يرهق الرعية بالضرائب المتعددة ، ولا ينصف السنيين الشوافع في بلاده ، ولا يحسن السياسة مع الانكليز ، فقد استنزل على جنوده هول طياراتهم ، ولا يفتح المدارس في البلاد ، ولا يعزل الظالمين من عماله مثل عامل هذا البلد ، ولا يجود بما رزقه الله وهو الغني الاكبر في اليمن كله .

نمت تلك الليلة وانا افكر بالسلاح الجديد اي الفاتحة ضد الطيارات وبما عدّده الشافعي من سيئات حكم الامام . فحلمت حلماً غريباً عجيباً ما ذكرت منه عند ما استفقت غير اني كنت والامام يحيى نطير في طيارة صنعت في انكلتره ، وكُتبت على جناحيها فاتحة القرآن ، ونقشت على الواحها سورة التوحيد . فبأي سلاح يا ابن الوزير تحارب طيارة المؤمنين ؟

سافرنا في اليوم التالي عند الغروب راكبين البغال بدل الطيارات، مصحوبين بحرس من جنود الامير المنيّلة اثوابهم ، المدهونة بالسمن شعورهم . فتهنا في ضوء القمر ساعة عادت فيها اليّ الاحلام ، وانا على ظهر الدابة شطران ، شطر نائم وشطر يقظان ، فكانت تدور الارض تحتي بما فيها وتمر بي الاشجار كأنها عرائس من الجن . وكنت اسمع القسطنطين يناديني فاظنه في قارة وانا في اخرى ، ثم رئيس القافلة : هذه هي الطريق ، ثم احد الجنود : هداك الله يا مقدم ، فيخيل اليّ اني في ارض غريبة الظل والسراب ، فيها اشباح تتكلم كالعرب .

وفي الساعة الثانية بعد نصف الليل وصلنا الى قرية تدعى الشيخ صلاح فنزلنا هناك والتعب والجوع فينا يساوران النوم . فنام رفقائي في كن صغير لا يليق في بلاد الله بغير المواشي — ما رأيت اناساً يخشون البرد مثل اهل اليمن — ونمت انا في الفلاة على سطح ذاك الكن ، ساعتين لاغير . ثم نهضنا قبل الطيور نستأنف السير ، والتعب لا يزال حليف الجوع علينا .

فطرنا عند شروق الشمس ومررنا في ارض خضراء تفوح من ادغالها روائح

النبات الطيبة ، ومررنا بوادي الذهب ولا حيف بالاسم . فهو من اجمل الاودية واخصبها في اليمن الاسفل ، تجري فيه المياه ، ويزرع ثلاثًا في السنة الواحدة . رأينا الناس يحصدون عندما مررنا به في شهر نيسان [1] ثم اجتزنا وادي نخلان وفيه رأينا لاول مرة سلك التلغراف الذي يوصل تعز بصنعاء ، وصعدنا من الوادي في نقيل [2] المحرس الى رأسه فاشرفنا منه على مشهد بهيج من السهول المزروعة ، ومن القمم الخضراء والجرداء دون تلك السهول . ثم دخلنا في ما يدعى « نجد الاحمر » وهي بقعة من الارض الحمراء صخورها تعلو اربعة الاف قدم عن البحر ، لجف الهواء ، و برد الماء ، وتعددت حولنا النباتات والرياحين التي ذكرني بعضها بلبنان . فهوذا البيلسان وذاك اليانسون ، وفي تلك الادغال شجيرات من البطم والغار .

عندما وصلنا الى اعلى درجات نقيل المحرس تراءى لنا منها جبل بعدان ووراءه جبل حب اعلى وابعد منه ، وانكشف امامنا مشهد اخر من السهول والهضاب ، في وسطها ، عند منحدر من جبل بعدان ، مدينة اب القديمة . التي تتساوى في علوها ووادي نخلان ، لاننا بدأنا في النزول اليها فوصلنا بعد ساعتين الى ساحة تدعى عند اهل المدينة ساحة الاستقبال . هنالك يترجل المسافر اذا كان معروفًا و ينتظر قدوم المرحبين .

ترجلنا طائعين ، وكان قد تقدمنا احد العساكر ينبيء العامل بقدومنا ، فبتنا ننتظر « استقبالاً يليق بنا » كما قال رفيقنا رسول القاضي عبدالله العرشي . وما عتمت ان تحركت الجموع وخرجت من المدينة ، فشاهدنا عسكراً زاحفًا الينا وسمعنا اصوات الابواق والطبول . جاء العامل اسماعيل باسلامه بخيله ورجله ، وبجنده وجمعه ، و بنوبته واهازيجه ، يستقبلنا و يرحب بنا باسم الامام . و بعد السلام ركبنا وانخرطنا انا ورفيقي في ذاك الجمع المتهلل المهلل نحسب انفسنا

---

(١) من مزروعات اليمن الحنطة والشعير والذره والدخن والعدس والبطاطس والورس والحلبة والقات

(٢) النقيل في اصطلاحهم هو العقبة او الطريق السالكة في الجبال العالية .

في حلم من الاحلام ، او في موكب من مواكب الجان ، والجنود المسترسلون الشعور ، المكحلون العيون ، المزينة عمائمهم بالورد والريحان ، حولنا وامامنا ينشدون بصوت جبلي رهيب :

يا من يخالف امر مولانا ويعصيه   لا بد من يوم تراه
لا بد من يوم يشيب الطفل فيه   والطير يرسي في سماه

دخلنا المدينة دخول الفاتحين ونزلنا على الرحب والسعة في بيت من بيوت العامل اسماعيل ، المشهور في بلاد اليمن ، اعلاها واسفلها ، بكرمه وفضله وعدله ، فتمتعنا ، بعد ايام من المشقة والشقاء ، بنواعم العيش وطيباته ومثلما اسرعنا من ماويه ابطأنا في اب ، بلا حياء في الحالين . فجاءنا ونحن هناك برقية من الامير علي بن الوزير يقول فيها انه محزون لفراقنا فأعجلنا وعاد بنا الى ما كدنا ننساه من التأدب في الغربة . على ان التأدب في المشقات اجتهاد يزيد المرء بلاءً ، والخجل في السياحة ولاسيما في البلاد العربية، يمرض ويميت .

من حسنات اسماعيل بك باسلامه انه لا يخطب في ضيوفه ، ولا يفاخر بدينه ، ولا يهدد بلاد الكفار بالدمار . هو رجل هادىء الخاطر ، وديع النفس، غني كريم ، يحبه كل من يشتغل في ارضه ، كما يحبه كل من في حكمه . وهو يخلص الى الامام اخلاصاً لا يشك الامام به ، ولا يخشى من تقلبه . انه العامل الوحيد على ما علمت الذي لا يأخذ الامام رهينة [1] منه . وقد يكون السبب في تساهله ورحابة صدره انه سني حضرمي . وقد تكون هذه الخلال من فطرته وصفاء ارومته . على ان المحاسن الروحية والذوقية مثل السيئات تتغذى خصوصاً في الشرق بالمذاهب والاديان . ان اول رجل لمس قلبه قلبنا في اليمن هو

(١) سمعت بالرهائن في لحج فاستغربتها واستنكرتها ، وكدت انكر صحة ما سمعت . الا ان اغرب الامور هي اقربها في بعض الاحايين الى الحقيقة . فالامام يحيى يتقاضى كل موظف من موظفي حكومته الكبار ، الملكيين والعسكريين ، رهينة واحدة ، ابناً او اخاً او نسيباً عزيزاً ، يبقيه في حوزته كفالة الاخلاص والاستقامة في الخدمة ، وضمانة الصدق والوفاء في التابعية . وهؤلاء الرهائن — عند الامام على ما قيل اربعة الاف منهم — يقيمون في المدن المختلفة كل بعيد عن اهله ومسقط رأسه . فتعلم الحكومة بعضهم وتأسر البعض وتمنح الاخرين ، بكفالة احد وجهاء المدينة ، حرية الجولان فيها .

شافعي ، واول رجل اضافنا ولم يسب الكفار هو شافعي . على اني اظن ان اسماعيل باسلامه ، ولو كان من عباد الاشجار ، يظل في فضائله الجمة قريب من الله والناس .

جاءنا صباح اليوم التالي يسلم علينا و بيده طاقة من وردنيسان قدمها لي . وزر واياه بساتينه التي يزرع فيها من الثمار انواعها ، تلك التي تصلح في الشمال وفي الجنوب ، في المنطقة الباردة والمناطق الحارة ، فرأينا الزيتون ، والموز ، والعمب ، والعنب ، والتفاح والرمان زاهية كلها زاهرة . ان هذه الاشجار تنمو كلها في اليمن الاسفل ، لان تلك البقعة من الارض تعلو خمسة الاف قدم عن البحر ولا تبعد اكثر من عشر درجات عن خط الاستواء . فتستوي فيها لذلك حرارة الهواء والتربة .

اما مدينة إب فمسوّرة ، وهي وسخة ومزدحمة ، تروق الناظر اليها من الخارج فقط . بيوتها من الحجر واكثرها ثلاث طبقات ، تُستخدم الاولى للمواشي والدواب ، والثانية للخدم ، والثالثة لاهل البيت . ليس في المدينة مدارس غير ما في المساجد لتعليم القرآن ، وليس فيها احد من الاطباء ، ولا نقطة ولا حبة من الدواء . ويكثر فيها الجدري والحمى واكل القات . اننا كلما صعّدنا في اليمن نرى « التخزين » في ازدياد وصحة النسل في نقص ظاهر لاسيما في الاولاد . فان وفيّات الاطفال في اليمن كثيرة ، اذ قلما يعيش للرجل الواحد من عشرين ولداً مثلاً اكثر من سبعة او عشرة اولاد . واظهر ما فيهم النحول ، والشحوب ، وضعف الاعصاب .

قلت ان اب جميلة من بعيد ، فالقادم اليها من ماوية او تعز يراها في السهل وحوله الربى كأنها حفنة من اللؤلؤ على بساط اخضر ، مفروش في بحيرة جفت مياهها . والقادم اليها من يريم يراها قائمة على رأس الجبل كصخر في مرج او كبرج في جزيرة . ولها ساحة وداع كما لها ساحة استقبال . مشى معنا اليها اسماعيل بك ومعيته ، وارفقنا الى ذمار بثلاثين من الجنود النظامية على رأسهم ضابط

تركي · فسرنا بعد استراحة يومين في نعيم ضيافته ونحن نخشى ان يزاد عدد الحرس كلما دنونا من صنعاء ·

مررنا في طريقنا الى يريم بوادي المرفد الذي يفوق وادي الذهب جمالاً وخصباً ، وشاهدنا فيه لاول مرة شجر البن الذي يشبه في ورقه وزهره الليمون وشاهدنا كذلك الجوز واللوز والخرنوب · و بساتين غضة من العمب والموز ، تجري في ظلالها مياه النهر الذي يتدفق من جبل سماره · وبدأنا بعد الظهر نصعّد في نقيل ذاك الجبل ، وهو اعلى نقيل في اليمن ، فوصلنا الى وسطه عند الغروب ، و بتنا تلك الليلة في قرية تدعى المَنزل ، خبزها دون واهلها اشعبيون ·

ولما صلنا الى رأس النقيل في اليوم التالي كانت الرياح شديدة ، والهواء ، على حمو الشمس ، بارداً ، فشعرت بالبرد لاول مرة في اليمن · ولا غرو فكنا قد علونا عن البحر ثمانية الاف قدم اي علو ظهر القضيب في لبنان · ومن تلك الذروة الهائلة ، المدهشة المنعشة ، رأينا منبسطاً امامنا وتحتنا قاع الحقل والى الجنوب منه ظفار [1] التي كانت مشهورة في العهد الحميري بقصورها وحصونها · ان ذلك القاع في مزروعاته المتنوعة ، و بقاعه المحصودة ، لشبيه بطنافس خضراء وصفراء و بيضاء وسمراء تملأ العين بهجة والنفس سروراً · نزلنا اليه وسرنا معجبين بانتقالنا السريع من منطقة باردة الى ما يدنو من خط الاستواء ·

اما استقبالنا في يريم التي كانت تدعى مَرْيَمَه في عهد حِمْير فقد كان مثل استقبالنا في اب ، وذا مظهر ، فوق ذلك ، فريد · كيف لا وقد خرج لملاقاتنا اولاد المدرسة مع شيخهم الفقية فاصطفوا الى جانب الطريق ، ينشدون و يهللون مرحبين · ما فهمت من النشيدغير كلمة الله والمسلمين ، والمجاهد الامين · ولكني علمت ان الاولاد هم من الرهائن عند الامام · انه لحكم عسكري قاس شديد ، بل حكم اشتباه وارتياب · فلا عجب اذا اخلص العمال لرئيسهم الاكبر ولكل واحد ولد عنده او اخ او نسيب عزيز ·

---

(١) ولا يزال في ظفار آثار حميرية رأينا من شكلها الحلي الذهبية والتماثيل الرخام عند احد التجار في عدن وكان فيها من قصور اليمن المشهورة كوكبان و ينون وسلحين ·

سألنا في سمسرة في الطريق : هل عندكم حليب . فقال صاحب السمسرة : لا غنم عندنا ولا بقر ولا معزى . ولو كان عندنا فليس من يرعاها . شباننا في عسكر الامام ، واولادنا هاربون من التجنيد ، والعمال اخذوا اغنامنا كلها زكاة وضرائب لبيت المال .

ولكننا عندما وصلنا الى ذمار قابلنا امير الجيش فيها ابن الوزير الثاني ، السيد عبدالله ، صنو ابن عمه في ماويه ، سمعناه يقول : هذه بلادنا وهي بفضل حضرة الامام بلاد الحق والعدل والدين والصدق والوفاء . الحكم الكامل العادل تراه عندنا في اليمن ، فلا خمر ولا فسق ولا زنى ، ولا قتل ولا سرقة ، ولا رباء ولا رشوة ولا اغتصاب . كل ذلك لاننا محافظون على ديننا ، عاملون بكتاب الله ، مجاهدون في سبيله تعالى ... ثم قال : نحن نقول ونفعل ، وغيرنا يقولون ولا يفعلون ، او انهم يقولون الحق ويفعلون الباطل . العرب كذابون ساقطون ، يفضلون مال الاجانب على الجهاد في سبيل الله . نحن حاربنا الاتراك مراراً ، وجاهدنا الكفار الخونة في تهامة ، وسنحارب كل من يحاول اختلاس قيراط من ارضنا او هضم ذرة من حقوقنا . سنحارب حتى الموت . نحارب ، واذا غلبنا نتقهقر . نحارب وترجع الى الشمال ، نحارب ونعتصم بالجبال ، نحارب ونلجأ الى الصحراء . واذا لم يبق لنا غير موطيء الاقدام نحارب حتى الموت مؤمنين بالله ، واثقين برحمته ، وطيدي الامل بعونه . ولماذا لا يعمل كذلك سائر العرب ؟ اين فيصل اليوم ؟

قلنا : هو في العراق ، ملك العراق .

فقال : واي خير واي شرف في ملك عربي زمامه بيد الانكليز ؟ لكان احسن فيصل لو ذهب الى ابن سعود ليصلح بينه و بين ابيه الحسين . الملك حسين ! ان قلامة ظفر الامام والله خير منه . ياللعار ! ايفتح ابواب الكعبة للنصارى الكفار ؟

حاولنا اصلاح ظن الامير في ما أشيع عن الملك حسين . وانا اعلم انه لم يأذن للمسيحيين بالدخول الى مكة . فما هدأت من تأكيداتنا سورة غضبه .

— العرب كذابون ساقطون يحبون المال . وقد يصيرون بعدئذ ان شاء

الله مثل اهل اليمن - هذا اذا اقتدى امراؤهم بمولانا الامام واخذوا من احكامه مثالا لاحكامهم. فتتطهر البلاد كلها من الفسق والفجور، من الزنى والخمر، من الزباء والرشوة كما تطهّر اليمن.

وكان الرفيق قسطنطين قد رمقني بنظرة فهمت معناهـا عندما ذكر الامير في مطلع حديثه الفسق والزنى. ثم عند ذكره ذلك ثانية همّ رفيقي بالكلام فمنعته باشارة من يدي، فلامني عندما خرجنا من المجلس لاني حلت دون جوابه. وما جوابه؟ قد اضحكني من الامير ما اغاظ القسطنطين. ذلك لاننا في احدى الليالي السابقة، جاءت الامرأة التي طبخت لنا العشاء، والنساء في اليمن خارج المدن الكبيرة سافرات، تعرض نفسها علينا بثمن فسطان من الشيت. وقد قال لنا احد العساكر بعد ان خرجنا من ذمار: لولا السيد معكم لكانت النساء تجيئكم في كل سمسرة [1].

كنت في كل قطر من الاقطار العربية افتح الاذن دائمًا لجميع الناس، فاسمع الشريف والبدوي، والجمال والجندي، والتـاجر والسياسي، فادون احاديثهم دون رأي لي فيها اذ ذاك ابديه. واني اسألك ايهـا القارىء، وانا اشاركك الآن في ما سمعت وشاهدت، ان ترجىء رأيك كذلك الى ان تسمع الحديث كله ان كان عن الامام يحيى او عن سواه. وها قد اسمعتك كلام ابناء الوزير وهم من كبار رجال الامام، وحديث احـد الشوافع العقلاء وهم باطنًا اعداء الامام، وحديث صاحب سمسرة وهو ممن يدفعون ضرائب الامام. واليك الآن بحديث من يحارب لتعزيز وتمديد حكم الامام.

كان في حرسنا جندي اسمه احمد، حارب على صغر سنه، في ثلاثة حروب

(١) ان بعض الافاضل في اليمن وخارجه انحوا علي باللائمة لذكري هذا الحادث. فلم لم يلوموا لاني نقلت كلام ابن الوزير الامير عبدالله؟ — لا فسق ولا زنى في اليمن! أيبغون الحقائق التي تدغدغ تقواهم دون سواها؟ على الرحالة ان يصدق قراءه الخبر في كل شيء. اما الحادث نفسه فهو عادي في اي بلد من بلاد الناس ولولا خطية الامير عبدالله لما كان له في الرحلة مكان ولكنني اسف لاني دققت في التسجيل فذكرت اسم البلد والبيت (في الطبعة الاولى) وعرضت بالمرأة للاهانة. اني اعتذر اليك ايتها المجدلية اليمانية واسأل الله لك الخير والسلامة في كل حال.

مع الطليان في طرابلس الغرب ، ومع الانكليز في الهند ، ومع الترك في اليمن .
قال احمد : أخذت خدعة من عدن . قيل لي ان في الغرب حرباً بين الاتراك والكفار فركبت الباخرة ونزلت في طرابلس . وبعد ان صرت في عسكر الطليان عرفت انهم يحاربون الاتراك المسلمين . ولكنهم اعطوني مالاً واسمعوني الكلام اللطيف ، وعاملوني معاملة حسنة ، فحاربت واستغفرت الله ... الطليان احسن من الاتراك ، واحسن من الانكليز الذين كانوا يقتلوننا بالشغل والنظام . اما الاتراك فلا يهمهم النظام ، ولكنهم لا يدفعون مثل الطليان . والآن يا افندي — اقترب مني ليهمس كلمته همساً — لا مال ، ولا نظام ، ولا لطيف كلام ... اما حضرة الامام فهو رجل عظيم ، رجل صالح عادل عزوم . ولكن عماله طماعون يشتهون دائماً الفلوس ... قسمتنا خمسة ريالات في الشهر — عندما يدفعونها . ولكنهم يسيروننا في البلاد من طرف الى طرف وليس في قميصنا بغشة — اي نحاسة — واحدة . والاهالي لا يحبوننا . لانهم يدفعون ضرائب كثيرة . ولا يطعموننا ولا يأووننا الا اذا دفعنا . وماذا ندفع ؟ ما في هذه القميص شيء — نفضها ليريني انها فارغة — وثمنها يا افندي انا والله دفعته . ويجب ان ادفع ايضاً ثمن النيل لأقي جلدي من البرد . والقات ؟ من يدفع ثمن القات ؟ نحن في اليمن فقراء ، وحكم الامام يزيدنا فقراً .

وكان معنا ولد لا يتجاوز الخامسة عشرة وهو متزوج فسألته : اين زوجتك ؟ ففرقع اصابعه وهو يشير اشارة يمنية لطيفة وقال : هي هناك وراء الجبل . وهو لم يزرها منذ سنة . « ولا اعود اليها والله حتى يصير في جيبي ظلظ [1] فقال احد رفاقه : مسكينة تموت ولا تراك .

وقال آخر لحيته بيضاء ظننته يتجاوز الخمسين : لا والنبي ! لا ازال في الثلاثين . اما هذا الشيب فهو من هنا — واشار الى قلبه وسكت . ثم راحوا كلهم ، ويد الواحد في يد الآخر ، يعدون وينشدون :

يا الله اليوم فرّج وفك العسر

---

(١) نقود فضية

يا مفرج على النفس في ضياقها (١)
بدّل العسر بكل اليسر
وفتّح ابواب قطّال (٢) غلاقها
كيف قوم محوّز (٣) وقوم اخر
في المقابل (٤) على شرب تنبا كها .

لم ارَ عرباً يتكتمون في امورهم مثل عرب اليمن وخصوصاً الزيود . ولكنهم اذا سنحت الفرص ووثقوا من محدثهم يجهرون ، فيفصحون اذ ذاك و يصدقون . والسيد والاعرابي واحد من هذا القبيل . ارفقنا امير الجيش في ذمار باحد السادة اكراماً او استعلاء ، لا فرق ، فكان يركب بعيداً عن الجنود ، ولا يقترب منهم الا آمراً او ناهياً . وظل في اليوم الاول بعيداً كذلك عني . فما كان بيننا من الكلام الا السلام .

ولكنه في اليوم الثاني سألني همساً ان اطلعه السر في حفظ الماء بارداً في قنينة الـ « ترموس » التي كانت معي . فاخبرته ورسمت الشكل في الزجاج المزدوج الخالي من الهواء . فدهش وقال : الافرنج اصحاب عقول — عقول ذكية . وهم يستخدمونها دائماً في كل شيء . ونحن لا نستخدم عقولنا الا في الحروب . سأسافر يوماً ما ان شاء الله . سأخرج من اليمن متنكراً ... اهل اليمن يا امين يغارون جداً على دينهم ، و يظنون ان ليس خارج بلادهم غير الكفر والكفار . ولكني سأسافر ان شاء الله وان كفرت .

سألني السيد محمد ان اعطيه عنواني فكتبته في ورقة فأخذها وخبأها في طية من طيات عمامته البيضاء وقال : ستبقى سراً بيننا . وعند ما نصل الى صنعاء انت تنزل ضيفاً على حضرة الامام ، وانا اذهب الى بيتي ، فلا نتقابل بعد ذلك ، ولا لزوم .

وفي اليوم الثالث اقترب مني وانا اكتب فقال : ما الذي تكتبه في دفترك؟ فقلت ، وكنت خلال السفر قد سألته عن اسماء بعض النباتات والازهار : مـا

(١) في ضيقها (٢) قد طال (٣) محاصر (٤) جمع مقيل

اعلمتني به · فقال : وما الفائدة من كتابة اسماء الازهار والاشجار والحجار ؟ فقلت : قد تهم معرفتها من يجيء بعدي · فاقتنع ظاهراً ثم قال : هوذا اليوم الثالث وانا رفيقك ، أفتأذن بسؤال ؟ فقلت : نعم بعد ان تجيب سؤالي · هل انت مسافر الى صنعاء لشغل خاص بك او بامر من امير الجيش ؟ فاجاب : لي حاجة في صنعاء ولكني لولاك ما جئتها اليوم · ارسلني الامير رفيقاً حباً واكراماً وما قصدك يا امين من زيارتك اليمن ؟

— مشاهدة البلاد وتأليف كتاب فيها وفي اهلها ·

— وهناك مقاصد اخرى ·

— نعم ، اراكم حيث كان اجدادكم منذ الف سنة ، وسأقول هذا لحضرة الامام فعسى ان يسعى في ما يدفعكم الى الامام · فيفتح المدارس في البلاد و يمهد سبيل العلم والتعليم ·

العلم ناهي [1] ولا ريب في ذلك · انا من رأيك ، واقسم بالله وبهذه الشمس الغاربة اني صديقك · فقل لي هل يطمع الانكليز ببلادنا ·

— لا اعلم · قد اصدق اذا قلت لا ، وقد اصدق اذا قلت نعم ·

— الست رسول الانكليز الى حضرة الامام ؟

— لا ، ولا رسول دولة من الدول · لا ناقة لي في السياسة ولا جمل · ولكني اقول لك اني اخو العرب ، وصديق العرب ، واشتهي ان اراهم كلهم في ائتلاف بعضهم مع بعض · اشتهي ان ارى الامراء ساعين في سبيل الوحدة العربية وتعزيزها ·

— ناهي ولكن كيف تتم الوحدة ؟ اعلم ان الامام رجل عظيم ، اعظم العرب اليوم ، وهو يطمح الى حكم اليمن كله باسره · ثم الى حكم البلاد العربية كلها باسرها ·

— قد يكون الامام رجلها وابن بجدتها · ليجتمع الامراء ويتفقوا على ذلك ·

— ولكن كيف يجتمعون واين ؟ ومن يدعوهم ؟

(١) ناهي في اصطلاحهم حسن جميل

— يا حضرة السيد ، قلت وانت الصادق ان عندي رسالة ابلغها الامام . فلو اطلعتك انت على كل شيء فماذا احتفظ للحضرة الشريفة ؟

ابتسم السيد محمد وقال : كلامٌ حكيم . ولكني انا اطلعك على ما لا علم لك به . شكوت بيوتنا الضيقة ، وسقوفها الواطئة ، ونوافذها الصغيرة . فلو سحت في عسير لوجدت البيوت هناك اضيق واظلم . اتعرف السبب ؟ لا يزال اهل اليمن وعسير وحشيين ، لا يثق الواحد منهم باخيه ، ولا يركن اليه . حياتهم خوفٌ دائم واضطراب . هكذا ينامون في عسير — وبادر الى بندقيته فوضعها بين جنبيه وضمها اليه — هم كالحيوانات البرية يخشون كل من يدنو منهم . وفي اليمن ، قد رأيت بعينك ، الناس كلهم مسلحون ، وكلهم يقاتلون ، ويقتلون لامر طفيف . نحن نغار على حقوقنا . ما قيمة هذا ؟ — واخذ بيده فنجان القهوة — ولكنه لي ، هو حقي . فاذا اخذته مني ، اغتصبته ، وما سمعت احتجاجي اقاتلك ، استل عليك هذه الجنبية ، اذبحك . هذه طريقتنا في اليمن . واذا حدث قتال بين بيتين في هذه القرية مثلاً ينضم اهلها وقد انقسموا حزبين ، الى المتقاتلين ، فتشب في القرية نار الحرب ، وعندما تنطفيء ، يتساءلون : وما السبب في القتال بين فلان وفلان ؟ يقاتلون اولاً ثم يستعلمون . هذه طريقتنا في اليمن ، نحارب حتى اهلنا . يحارب الاخ اخاه ، والابن اباه . فاذا كانت هذه حالنا بعضنا مع بعض فكيف تكون حالنا مع الاجانب ؟

فقلت : وهل في اليمن اناس يشتهون رجوع الاتراك ؟

فاجاب : من يشتهي ذلك نذبحه .

— وهل في اليمن اناس من الباطنيين ؟

— كان منهم طائفة فافنيناهم بالسيف .

— أهذه هي طريقتكم في اليمن ؟

— نعم يا امين . يغار اهل اليمن على بلادهم كما يغارون على حريمهم . لا حق في البلاد لغير اهلها . ونأبى الشركة فيها كما نأباها في الحريم ، فنحارب ليسلم الشرف ، ونحارب ليسلم الوطن .

الفصل الرابع

صنعاء اليمن

وعلان — حز يَز — البن المطري — جبل لقم — صنعاء — جمال الاسماء وجمالها — جبل عشار — جبل آنس — معادن الفضة والطلق — نشيد الزامل · بير العزَب — الدوشن — بيت من بيوت الشام — ازهار لبنان — طباخ متمدن — الحمام — السيد علي زباره — القاضي عبدالله العمري — الطواف في المدينة — الهندسة العربية في البناء — الاحياء درجات — اجرة البيوت — اسعار لوازم المعيشة — « وهم مع ذلك يشكون » — حصار صنعاء ووقعة شهاره — الحضرة الشريفة — المظلة المشهورة — البنود والطبول — قصة الجندي ورسول مصطفى كمال الى الامام ·

في صباح اليوم الثاني عشر ١٨ نيسان سنة ١٩٢٢ بعد خروجنا من لحج وصلنا الى حز يز ، المرحلة الاخيرة في رحلةٍ مشقاتها تنسي المسافر ما فيها من الحسنات والمستغربات · ولكن أثر المشقات يزول فتعود الحسنات الى مقامها في الذاكرة وفي الفؤاد · اني وانا اكتب الان اتمتع بها واستأنس بترداد ذكرها · كأني في رحلة اخرى الى صنعاء ، لا مشقة فيها ولا عناء ·

بتنا الليلة السابقة في وعْلان ، وهي قرية صغيرة على مسافة خمسة عشر ميلاً من صنعاء ، وخرجنا منها باكراً فأحسست ببرد شديد يُستغرب مثله في الدرجة الخامسة عشرة عرضاً من الارض · ولكننا اصبحنا كذلك في علو يدنو من عشرة آلاف قدم فوق البحر[1] هذا هو السبب في انتقالنا تلك الساعة الى طقس اشبه بطقس الشمال · على ان الشمس ، شمس اليمن ، لتنحر بقرن صغير من قرونها

(١) هذه اصح قياسات العلو في جبال اليمن بالاقدام الانكليزية

١٠٠٠٥ جبل سماره	٩٥٠٠ جبل ذفار قباله	٦٧٥٠ مدينة اب
٠٩٠٢٠ يريم	٧٦٥٠ ذمار	٧٥٤٤ صنعاء
٠٩٠٠٠ بوعان	٨٠٠٠ مناخه	٩٨٤٠ جبل شبام

عند اشتداد البرد يجمد الماء في صنعاء وقد سقط الثلج في ذمار لاول مرة في حياة من شاهدوه في شتاء سنة ١٣٤٠ سنة رحلتنا ·

الذهبية كل ريح تهب فتدميها ، ثم تحييها ، وترسل الحرارة فيها .

وصلنا الى حزيز ، وما هي الا بضعة بيوت وسمسرة ، ساعة الضحى فجلسنا هرباً من الشمس في فيء حائط نتناول الفطور . وكان مما قام حولنا من الجبال اثنان شهيران بما ينبتان ويجاوران . وهما بنو مطر غرباً ، وفيه احسن ما يزرع في اليمن من البن ، ونُقُم شمالاً ، وفي ظله اكبر واجمل مدينة في اليمن ، بل في شبه الجزيرة العربية كلها .

وما هي الا ساعة بعد ارتحالنا من حزيز حتى تراءت لنا رؤوس المآذن في تلك المدينة . ثم قباب مساجدها وهي بيضاء تتوهج في نور الشمس الذي يترجرج كالزئبق في الجاف الشفاف من الهواء . بينا نحن ندنو من نقم الذي اصبح على يميننا ، اذ بدت لنا المدينة نفسها وهي محوطة بالجبال تمتد شرقاً وغرباً ، كأنها وهي كلها بيضاء ، سلسلة من التلال الكلسية ، في سهل ذهبي منقطع الاخضرار .

اثنا عشر يوماً في المشقات والوهلات . وهذه صنعاء تنسيك اضعافها . اي صنعاء ، مثّلك لنا التاريخ فكنت مليكة الزمان ، ومثّلك لنا العلم فكنت يوماً ربة العرفان ، ومثّلتك لنا الاساطير فكنت سيدة الجن والجان . اجل ، فكم من ليلة ، وفي اليد الكتاب والى جانب الكتاب نور شمعة ضئيل ، تغلغلنا في سراديبك ، ووقفنا عند كنوزك ، وطفنا حول قصورك ، وسمعنا الشعراء ينشدون الشعر في دورك . واليوم ، ومطيتنا غير الخيال ، نشاهد ما يثبت المقال ، ويحقق الامال . هذه بيوتك العالية وقصورك الشاهقة فما كذب التاريخ . وهذا جمالك الطبيعي وبهاؤك العربي فما كذب الشعر . وفي خزائنك الكتب النفيسة والمخطوطات فما كذب العلم . وهذه كنوزك وسحر قصورك بل سحر الاسماء فيك فما كذبت الاساطير . كنا نظنها اسماء ابتدعها الشعراء لعرائس الجن والخيال . ولكنها من الحقيقة في اعلى مكان . أفما صعدنا واياك ايها القارىء في نقيل السيّان ، واجتزنا وادي نخلان ، ونمنا في يريم ووعلان ، ونقيّلنا في ظل بعدان ، وها نحن نشرف على قصر غمدان .

اجل ان صنعاء في محاسنها لا تخيب للزائر املا · وكلما دنوت منهـا ، وهو عكس الحقيقة في اكثر المدن ، ازداد رونقها وازداد اعجابك بها · هي في مقامها الطبيعي فريدة عجيبة · فيها الهواء اعذب من الماء ، والماء اصفى من السماء ، والسماء اجمل من حلم الشعراء · وفيها البرد ، وقد علت تسعة الاف قدم عن البحر يستحيل لقربها من خط الاستواء دفاء · وهي قائمة في قاع سنحان ، تزينها من جهة الروضة وفيها البساتين والكروم ، ومن جهة اخرى الحوطة وفيها السواقي والطواحين · ثم تحيط بها الجبال دون ان تقصر ارجاءها · اقربها اليها عُصُر وهو يظلل المروج في الاصيل ، والنُقُم الذي تجري منه المياه الى المدينة وتحمل الشمس من فوقه وميض الزجاج — تلغراف المرايا — الذي يوصل اوامر الامام من قنة الى اخرى · وهذا عِشار وفيه الرخام والمرمر · وذاك آنس في الجنوب وشعوان دونه شرقاً وفيهما معادن الطلق · وهناك رضراض وفيه معدن الفضة · وهنالك شِبام شمالاً بغرب وفيه من الحجارة الكريمة الجزع والعقيق ·

وصلنا الى صنعاء الظهر فلاقانا على مسافة ميلٍ خارج السور رجال الامام وثلة من جنوده · وسرنا في موكب الفناء وما مللناه لان « الزامل » اي نشيد الزيود عكس ثيابهم المنيَّلة راقنا جداً · وكنا كل مرة يقفون فيه عند القرار الغريب الرهيب نمثلهم على العدو زاحفين ، وبمجرد الزامل غالبين منتصرين ·

سرينا على موْر [1] حل [2] السحر
ليلة مغدرة [3] ما قمرها هليل [4]
واصبح الصبح وحنّا [5] براس النقيل
فنحور [6] العدى غارسين الفتيل
نعقر جوادهم مثل عقر البقر

ساروا وهم يهزجون فمروا ببوابة عدن الجميلة الهندسة والبناء والى جانبها خارج السور ثكنة كبيرة شيدها الترك · ثم حول السور غرباً الى بوابة اخرى ،

---

(١) نهر معروف (٢) وقت (٣) مظلمة (٤) ما هل فيها قمر (٥) نحن (٦) في نحور

افضت بنا الى ساحة فسيحة بين صنعاء والحيّ الجديد منها الذي يدعى بير العزب . هناك سمعنا وشاهدنا في مظاهر الاستقبال اليمانية مشهداً اخر كان له في لبنان مثيل . الا وهو « المشوبش » الذي يدعى في اليمن « الدّوشن » فشرع يصيح مرحّباً بنا صياحاً فيه نبرات وغنّات جمعت بين رديء الخطابة والنشيد ، علمنا منها اننا نور شمس الكمال ، وقمر الفضل والجلال ، وغيرها من آيات المحال .

وعندما وصلنا الى بير العَزب ، اي الحي الذي يسكنه اغنياء صنعاء وفيه قصور الامام ومركز الحكومة ، ودخلنا البيت الذي اقمنا بعدئذ فيه بميدان الشرارة ، كان الخيال في الانتقال الى لبنان والى الشام ابهج واتم . البيت صغير ولكنه في الذوق واسباب الراحة كبير . ردهة الاستقبال فيه تشرف على صحن في وسطه شاذروان ، وحوله القرنفل والريحان ، وفوقه تتدلى اغصان المشمش والرمان ، يغرد فيها القمري والحسون ، وتتلألأ خلالها الشمس فتكلل حبال الماء المتصاعد من البركة لجيناً رجراجاً .

اما سرورنا الاكبر في اليوم الاول ففي مائدة ، على طاولة ، تحت المشمشة ، عند الشاذروان ، بادرنا اليها وعيوننا لا تصدق ان الكرسي كرسي ، وان في ايدينا الشوكة والسكين ، وان ما نأكل قد طبخه طباخ متمدن ، وان بالغ بالابازير . ثم سألنا ونحن في ذا النعيم عن النعيم الآخر — الحمام . فقام السيد علي زباره ، وهو وزير المالية ووكيل الضيافة عند الامام : الحمام يوم وصولكم لا يجوز . ولكني عرفت في اليوم الثاني عندما زرت الحمام ، الذي ارسلنا مصحوبين بجندي اليه ، ان للتأجيل سبباً آخر فيه دليل على ذوق السيد علي ولطفه . فقد بعث الى صاحب الحمام يأمره بتنظيفه واعداده لنا — لنا وحدنا .

ثم عرفت في اليوم الثالث ان السبب الاول في ذلك هو التحذر من اجتماعنا بالناس ومحادثتهم . وذلك عملاً بامر الحضرة الامامية الشريفة التي كانت يوم وصولنا متغيبة في الشمال لتحسم خلافاً بين الحواشد وعيال مريح استفحل امره . وقيل لنا في الطريق ان بعض رؤساء تلك القبائل كانوا يفاوضون السيد الادريسي

لينضموا اليه و ينصروه على الزيود . فلما أُخبر الامام بقدومنا امر الاَّ نقابل احداً من الناس قبل رجوعه .

ولكن في اليوم الثاني زارنا احد رجاله الكبار القاضي عبد الله العمْري وهو يد الامام اليمنى ورئيس ديوانه ، فاستأنسنا بحضرته وسررنا بحديثه . الفيناه على جانب كبير من الفضل والاتضاع ، ومن الحكمة والتساهل ، فحملتنا زيارته على المقابلة بينه و بين اولئك المتبجحين امراء الجيش وشكرنا الله ان في رجال الامام من ينظرون الى الامور من وجهة عالية حديثة ، ويحسنون الرأي والموازنة .

سأَلَنا زائرُنا عن زميله القاضي عبدالله العرشي فاجبنا بما نعلم فقال : له سنة عدن ولم يفعل شيئًا (اي في مذاكراته مع الانكليز بخصوص الحديدة) وسأَلناه نحن عن عمال الحكومة والسبب في الرهائن فقال : النقص موجود و بعض الخلل . ولكنها نتيجة غيرةٍ اخطأَت السبيل . الشافعي والزيدي اليوم متساويان . وحضرة الامام عالم عادل ، سديد الرأي ، سمح الخلق ، قويم الخطة ، لا يعرف في اقامة الحق غير الشرع . ولا يفرق بين الكبير والصغير او بين الزيدي والشافعي . ولكن هناك بعض الذين يغالون ولا يعقلون . نياتهم حسنة اما غيرتهم فقد اخطأَت كما قلت السبيل . . . نعم حضرة الامام يضبط الامور بيد شديدة . لولا ذلك لما كنت ترى العدل والامن والاقبال في انحاء البلاد كلها ، الا في الاطراف حيث لا يزال بعض الاضطراب .

كانت هذه من القاضي عبدالله اولى الزيارات وآخرها اثناء غيبة الامام ، وما علمنا السبب في ذلك . الا اننا كنا راغبين في مقابلة رجل آخر كان معنا كتاب توصية اليه فاستأذنا السيد علي زَبارة فقال : حينما يرجع الامام . وراح ذات يوم خادمنا الى المدينة فعاد يحدث بما شاهد فيها من العجائب والغرائب فاستأذنا السيد علياً في زيارتها بينما نحن ننتظر رجوع الحضرة الشريفة ، فما اذن بغير الطواف حول السور ، وارسل معنا عسكر بين وأحد الموظفين . مشينا في طريق واسعة بين الحقول المزروعة والسور الكبير المبني من اللبن والطين ،

ووقفنا بعد نصف ساعة عند بوابة الشام ، اي بوابـة الشمال ، فتباحث اذ ذاك الموظف والجنود وكنت قد سألتهم ان ندخل المدينة وكانوا قد ملّوا المشي في الشمس على ما اظن . فاسفر البحث عن اجابة طلبتي بشرط ان لا يعلم السيد علي بذلك . دخلنا المدينة وقد تعاهدنا على ان نكتم الخبر وجلنا في احياء السكن منها لا في اسواق التجارة .

ان صنعاء مدينة عربية صافية روحاً وشكلاً . اسواقهـا مثل اسواق جده غير مرصوفة ولكنها اوسع وانظف . اما بيوتها العالية ، و بعضها ست طبقات ، فبناؤها اكثر اتقاناً واجمل هندسة لان الاسلوب العربي فيهـا لا يشوبه شيء اجنبي هندي او اوروبي . وهي مبنية بالحجارة البيضاء والسوداء و بعضها بالآجر والبعض باللبن ، و بين كل طابق والآخر زنار من الجص الابيض المنقوش اشكالاً هندسية ، وفوق كل نافذة كوّة فيها لوح من المرمر يكاد يكون كالزجاج رقيقاً شفافاً . ولكنه امتن من الزجاج واجمل . وهناك في الطابق الاخير لاكثر البيوت غرفة واحدة هي غالباً مطلقة من جهاتهـا الاربع تشرف على المدينة وتدعى المنظرة ، يستخدمها الناس للاستقبال والقيلولة فيفرشونهـا بالطنافس والمسانـد والوسائد . ومنهم من يستعملون الزجاج الملون في النوافذ فيقسمونه اشكالاً هندسية ، ويلونونه بالاحمر والاصفر والاخضر والازرق ، اي الاصباغ الاربعة التي يصنعونها في اليمن فيستخرجونها من النبات .

اما الاحياء فتختلف رونقاً ونظافة . كان رفيقي ، ونحن ننتقل من حي الى آخر كأننا نبحث عن بيت نقيم فيه ، يقول : هذه الدرجة الاولى اي احسن البيوت في المدينة ، وهذه الثانية ، وهذه الثالثة . واهل اليمن او بالحري اهل صنعاء مثل سكان المدن كلها ، لا ينقسمون الى ما يتجاوز ثلاث طبقات . ولو كان في جوارها او فيها من البدو لكانت الطبقة الرابعة في المضارب خارج السور .

ما عرفت اليمن اثناء الحرب ولم تعرف حتى اليوم غلاء المعيشة والاجور . ان مجرد ذكر اجرة البيت في صنعـاء ليشوق اخواني في مصر ونيو يورك الى الاقامة فيها ، وقد يحمل بعضهم على السفر حالاً الى اليمن . هذه بيوت طبقاتها

من الثلاث الى الست ، وهي من الدرجة الاولى اي في احسن حي من المدينة ، وفيها المنظرات ، والمرمر ، والزجاج الملون ، وما اجرة الواحد منهـا غير اربعة ريالات نمساوية شهرياً اي اربعون غرشاً مصرياً . اما في الدرجة الثانية فالاجرة ثلاثة ريالات . ويمكنك ان تستأجر بيتاً في الدرجة الثالثة ذا ثلاث طبقات ، له زناران من الجص وكوات من المرمر بريالين فقط . اما المعيشة فلا تقل حسناً ولا تزيد نفقة بالنسبة الى البيوت (١) .

وهم مع ذلك يشكون — يشكون وقوف الاشغال ، وقلة المـال ، وعسر الاحوال . ومنهم من ينسبونها كلها الى حكم الامام ، ومنهم الى الله وحـده ، ومنهم العاقلون الذين يبرئون الله والامام من شرور هـذه الايام ، وقد وصل بعضها الى اليمن عن طريق السياسة ، سياسة الترك بالامس وسياسة الانكليز اليوم . اما الامام ففي مقاومته هذه الاخيرة كما قاوم تلك يكـثر الضرائب ، ويذخر الاموال ، فتقل ولا غرو في ايدي الناس فتسبب قلتها وقوف الاشغال وعسر الاحوال . فضلاً عما يعتري اليمن دائماً من الاضطراب والشقاق والضعف الناشئة كلها عن حروبهم الاهلية . ناهيك بالعشائر وكلها مسلحة فيندر في البلاد ذاك الغرس الطيب ، غرس الوطنية المجردة من المصالح الذاتية . اجل ان الناس مع الامام اليوم ومع اعدائه غداً . والسبب الاول في ذلك الجهل ، والسبب الاكبر هو الجهل المسلح .

---

(١) لم تتأثر اليمن لا اثناء الحرب ولا بعدها من غلاء حاجات المعيشة لان ارضهم ، ولا تزرع كلها ؛ تطعمهم ، وانوالهم تكسبهم ، فلا يحتاجون غير القطن وبعض الاصباغ من الخارج . هاك اسعار بعض لوازم المعيشة هناك :

لحم الضان ثمن الرطل ٤ غروش
لحم البقر ثمن الرطل ١٠ غروش
السمن ثمن الرطل ٣٥ غرشاً
القمح ثمن القدح ٦٠ غرشاً
البطاطس ثمن القدح ٢٠ غرشاً

القدح ٤٠ اقة ، والاقة في اليمن كيلو وثلاثة ارباع ، والريال النمساوي الذي يقسم مثل المجيدي الى عشرين غرشاً يساوي عشرة غروش مصرية .

قال المأمور دليلي : بعد ان حاصر الامام صنعاء [1] وسلم الترك غنمنـا من البنادق خيرات — اي كثيراً فكانت الموزر تباع بريال واحد · وبعد وقعـة شهاره من استطاع ان يجر مدفعاً الى بيته أُعطي له · فلا عجب اذا كان في العشائر من يناهض الامام و يعصي جيوشه المنظمة ·

عدنا بعد الطواف في المدينة فكان السر الذي تعاهدنا على كتمانه قد سبقنا الى بير العَزَب ودخل مفسداً حيث لا يستطيع سواه · لذلك لما رغبنا المرة ثانية في النزهة قال السيد علي دون ان يظهر ما علمه من سرنا : الاولاد في المدينة يجتمعون عليكم و يزعجونكم ·

سكتنا على علمنا اننا اسرى الى ان يرجع الامام · والاسير لشدة ما يحدّق بالجدران يصبح حاد النظر ، وتتنبه فيه كذلك الحواس الاخرى · فقد سمعت مرة صوتاً شبيهاً بصوت الآلة الكاتبة — تك تك — تك تك تك ، وراحت العين تبحث لتحقق ظن الاذن فاكتشفت شريط السلك اي التلغراف وعلمت ان المركز فوقنا في الطابق الثاني من البيت · وكان لمنزلنا باب موصد من الخارج بينه و بين البوابة الى السوق حوش صغير ، سمعت يوماً جلبة فيه ، فاستطلعت من ثقب في الباب الخبر ، فاذا هناك بعض العساكر يتنافرون · ثم جاء واحـد وهو يقول : هم عرب مثلنا · وفتح الباب فاستأذنته في الخروج الى الحوش فأذن هاشاً وكان هو الدليل الانيس · اخبرني اننا مقيمون في بيت من بيوت الامام العديدة ، وان الحضرة الشريفة غنية جداً ، وانها نقية ، ورعة ، عالمة ، عادلة فهي تجالس الناس كل يوم تحت شجرة في الحوش او خارج البوابة في الساحـة · اما المجلس

---

(١) هو حصار صنعاء سنة ١٩٠٤ الذي استمر ستة اشهر فأكل اهل المدينة اثناء الحصار لحم البغال والحمير حتى والفيران وكان عدد الاتراك الذين سلموا وفيهم الاهالي لا يقل كما قيل لنا عن الستين الفاً · ولكنهم اعادوا بعد ذلك الكرة على صنعاء فتقهقر الامام وجنوده الى شهاره فتبعهم العدو الى تلك المضايق الهائلة وخسر هنالك كل شيء · تلك هي وقعة شهارة المشهورة · لم يكن مع الامام غير ثلاثة الاف مقاتل غلبوا ثلاثين الفاً من الاتراك وقد حاربوهم بالصخور ايضاً يدحرجونها عليهم · واهل اليمن يحسبون النصر في تلك الوقعة اعجوبة بل كرامة من كرامات الامام ·

الرسمي في الطابق الثاني من البيت ·

نحن اذن قريبون جداً من الحضرة الشريفة ·او انها تعطفاً — وقال المفسدون تحفظاً — جعلتنا على مقربة من الاذن الامامية والعين العلوية ، ومما لا ريب فيه ان الزيود يتقون كثيراً و يتكتمون كأن هذه الخلة ، وهم قريبون من المذاهب الباطنية ، صلة الانتساب بينهم وبينها · زد على ذلك انهم يختلفون عن العرب بانهم شغفون بالفخفخة والابهة الظاهرة · ولنا في موكب الحضرة الشريفة دليل وبرهان · كنت قد سمعت بالمظلة المشهورة التي تظل الامام يوم يؤم المسجد الجامع ، فتحف به السادة والعلماء ، وتمشي امامه ووراءه الجنود ، وهم ينشدون « الزامل » تتقدمهم النوبة وثلة من الفرسان ، والمظلة في وسط الموكب كأنها القبة الزرقاء المرصعة بالكواكب ، وقدمشى تحتها القمر المنير سُبُل الدنيا والدين ·

هي ذا المظلة التي طبق ذكرها الافاق ومعها شقيقات صغيرات ملقاة في الزاوية في طريقنا الى الديوان · قال رفيقي وقد قبض على اكبرها : هذه لصلاة الجمعة · وفتحها فاذا هي كالخيمة ، قطرها ثلاثة اذرع ، وكلها مصنوعة من الحرير الازرق والابيض المزركش ، وعلى اطرافها من الخرج العريض الثمين ما يندر حتى في ملابس السيدات الفخمة ·

رأيت في تلك الزاوية ايضاً طبول الامام العديدة حجماً وشكلاً ، بعضها مشدود على الفخار وبعضها على النحاس · والى جانبها البيارق والرايات فكان الدليل اللطيف اسرع بيده مني برغبتي · فتح الراية الاولى فاذا هي خضراء مكتوب عليها بالاصفر : وفتحنا لكم فتحاً مبيناً · والثانية صفراء مكتوب عليها بالاخضر : الجنة تحت ظل السيوف · والثالثة بيضاء وعليها بالذهب آية التوحيد والشهادة ·

مررت بخروجي الى الحوش و بدليلي اكثر من مروري بالطواف حول السور وفي المدينة · ولا غرو ، فقد شاهدت الرايات والطبول ، ولمست بيدي المظلة الشريفة ، واستأنست بالجندي الكريم الذي نفعني بشيء من علومه ، ثم دخل معي الى البيت وجلس القرفصاء امامي فزادني علماً ب. رائق الامام· « كان

قبلك في هذا البيت فتحي بك [1] وكان الامام يزوره ليلاً وحده · سافر الاسبوع الماضي وهو رجل « ناهي » اعطاني هذه « الساكوة » واستدان مني عشرة ريالات اعادها اليّ عند سفره عشرين ··· لا ادري والله ولكني سمعتهم يقولون انه جاء من مصر ليصلح السلك (التلغراف) · »

ولكن الجندي في اليمن ، مثل من يقرأ الجرائد في البلاد المتمدنة ، لا يعرف من الشؤون السياسية غير ما يذاع رسمياً لابعاده عن حقيقتها · فغداً يحدّث عنا فيقول : اننا جئنا من الجامعة الاميركية لنشتري الكتب الخطية ·

(١) جاء من قبل مصطفى كمال الذي كان بينه وبين الامام يحيى في ذاك الحين مفاوضات سياسية ·

الفصل الخامس

الضيف المأسور

الامام في مجلسه — فراش الملك — خطاب ابين فيه قصدي ومذهبي — كتاب التوصية من الملك حسين — الوحدة العربية والوحدة الاسلامية — محط رحالها — « هل عندكم كلام مضبوط ؟ » — قصيدة الامام — المهنئون — تقبيل اليد والرجل — ملوك اليمن قديماً — التقاليد والعادات — جرجي النمساوي — شيخ الاسلام — « مسيحيان من لبنان » — رجل المسيح السمحاء — عدد سكان اليمن — السياسة الاوروبية — ما يؤثر عن جورج واشنطون — العرائض — عريضة تغيظ الامام — « اذهبوا اذهبوا » — الوشاية والظن — ضيف مأسور — كتابي الى الامام يعاد الي — السلك يشتغل — باب الفرج — اصل المحنة·

اربعة ايام مضت ولم نخرج من البيت الا مرة واحدة · ثم عاد الامام الى صنعاء من رحلته السالمية موفقاً فأم قصره اولاً وجلس بعد الظهر للزائرين ، فكنا بعد استئذانه اول المسلّمين المهنئين · لم اشاهد في طريقنا اليه ، لا في الرواق ولا على الدرج ولا عند الباب ، شيئاً من تلك الابهة العسكرية المصنوعة التي شاهدناها في ماويه وذَمار · حاجب واحد ، وهو جندي زيدي في عمامته غصن من الحبق ، فتح لنا الباب حين رآنا قادمين ·

دخلنا وفينا ما يعتري كل غريب على ما اظن في مثل هذه الحال ، اي الشوق الذي يسوده الاحترام ويشوبه بعض الظن · اترى الامام مثل امراء جيشه ، ام هو كريم الخلق لطيف الذوق كالملك حسين ؟ أيشف ظاهره عن باطنه ، فتترق ملامحه ، ويستطيل وجهه ، شأن معظم الائمة والعلماء ، ام يخدع بما يكنه مما لا تفصح عنه الوجوه والاشارات ؟

دخلنا فاذا نحن امام رجل ربع القامة ، صغير الرجل واليد ، اسمر اللون ، عالي الجبين ، مستدير الوجه قاتمه · له فم كفم الطفل صغير بارز الا أن في مرونته وهو يتكلم اشارة تقربه طوراً منك وتارة تبعده · وفي عينيه السوداوين القريبتين

من انف قصير عريض نور يضيء وشرارة في بعض الاحايين روّاعة · وله لحية سوداء قصيرة مستديرة يتخللها خيوط من الشيب · يلبس قباء من القطن مخططاً فوق جبة ذات اردان من نسج اليمن ، ولعمامتـه البيضاء الكبيرة ذؤابة تكاد تصل الى اذنه · دخلنا فاذا هو جالس على فراش اسود وثير ، تحته فراش آخر وسجادة عجمية ، والى جنبيه الوسائد يتكيء عليها ، وامامه زجاجة من الماء ورزمة من القات ، وخادم ينتخب الطري من غصونها فيقدمها له · وهو الامام يحيى بن حميد الدين المتوكل على الله · صافحناه مسلّمين فرد السلام مرحباً بنا دون ان يقف · جلسنا امامه على سجادة تحتها فراش ، والغرفة الصغيرة مفروشة بمثلها ، وفيها عند الباب ديوان ، وعلى الحائط خرائط البلاد العربية واليمانية باللغة التركية ·

كان في نيتي ان القي كلمة في حضرته فحدثته بها جالساً · ومما قلته بعد تهنئتي بعوده سالماً موفقاً : اني جئت من وراء البحار واقاصي الديار عملاً بعاطفة لا قوة للقومية بسواها ، ولا عز للامم بدونها · فاننا مهما استرسلنا في حب الانسانية المطلق لا ننسى اذ كنا منصفين حب الوطن الخاص · وهذا الحب يحملني اليوم على السياحة في البلاد العربية · فاني ، وان كان لبنان وطني الصغير ، وسورية وطني الكبير ، انتسب الى البلاد العربية ، وطني الاكبر ··· واني ، وان كانت المسيحية ديني ودين اجدادي ، ادين بدين كل من اقام حقاً وازهق باطلاً · بل ادين بدين فلاسفة العرب وشعرائها الكبار كالغزالي والفارض والمعري ابي العلاء · بل ادين بدين كل من قال بالوحدة العربية ، وتجديد مجد العرب ، وسعى في هذا السبيل سعياً شريفاً خالصاً لوجه الله · فمن أعَز العرب أعَز يا مولاي الاسلام ··· ولا غرو اذا جئت بلاد اليمن حاجاً هذه الكعبة المباركة وقد منعت عني تلك المقدسة كعبة الاسلام الاولى · على اني لقيت في جده ، في مقام الملك حسين الرحب العالي ، من الفضل العربي ، والمكارم الهاشمية ، ما سأذكره دائماً شاكراً مفتخراً · واول مرة ذكرت في حضرتـه اني ارغب في زيارتكم كان — حماه وحماكم الله — اول المستحسنين بل اول المحبذين

والمشجمين . فجئت يرافقني باذن جلالته صديقي العزيز القديم الشيخ قسطنطين يني، وهو في حب العرب والعربية على جانب عظيم من الغيرة والاخلاص . . . والبلاد اليمانية مهد العرب ! جئناها متجشمين المشقات ، مذللين العقبات ، مصعدين في الجبال الشامخة ، متغلغلين في اوديتها المعطرة الارجاء ، ونحن اثناء الرحيل وقبله ننظر بعين الحب والشوق الى هذه السدة المباركة نستمد منها النشاط في السير والسرى . وكنا نلاقي في كل بلد حللناه من حسن الحفاوة والاكرام ما شكرناكم بعد الله عليه ، وسجلناه لكم في صميم الفؤاد ليحفظ مدى العمر ذكراً ذكياً جميلاً .

فاه حضرة الامام ببعض كلمات الشكر والترحيب . ثم وقف قسطنطين فتلا قصيدة كان قد نظمها في الطريق فسر بها واثنى عليه . ثم قدمنا لحضرتـه كتاباً من جلالة الملك حسين ففضه وقرأه ثم قال : ولكن الـكاتب اهمل الاسم فيه . فقلت : وقد يكون ذلك عرضاً او ذهولاً . اما الحقيقة فان ناظر الخارجية في جده كان قد كتب كتاب تعريف احمله الى حضرة الامـام، فلم يستحسنه جلالة الملك، فأمر كاتبه الخاص ان يكتب آخر يعرف فيه الحضرة الاماميـة الشريفـة بالاستاذ الفاضل والعربي الصميم الخ واغفل عمداً اسمي لاسباب لا يدركها الا من كان يدرك شيئاً من غوامض السياسة الهاشمية .

لذلك ظل الامـام على شيء من الريب والتحفظ . ونحن ، لخاطر جال في ذهن الملك فلم يذكر في كتاب توصية اسم الموصى به ، نقاسي من نتيجة ذلك ما سيجيء ذكره . افضنا في الحديث بالوحدة العربية ، فكانت اول كلمات الامام في الموضوع : وصلتم الى محط رحالها . بيد انه الداعي الى الوحدة الاسلامية ، فحاولت ان اقنعه ان الجامعة القومية اصح اساساً واسهل تحقيقاً من الجامعة الدينية . ومن أعز العرب أعز الاسلام .

وكنت قد طالعت قصيدة الامام المشهورة التي مطلعها :

مغلغلة منشورة في المحافل تهيم وتذري الدمع تهيام ثاكل

والتي يستنهض فيها المسلمين واخوان الدين و يحثهم على الاجتماع والتعاضد ٠

ايا قوم هبوا شمروا وتعاضدوا وحوطوا ذمار الدين عن كل مائل
كما فعلت اصحاب طه ومن تلا — همو قافياً اثارهم من حلاحل

فقلت : ان الجنسية تجمع الشعوب والدين يفرقهم ٠ واننا نحن المسيحيين في سورية مثل العرب المسلمين فتجمعنا القومية ، وهي التي حملتنا على التشرف رتكم ، ولا يجمعنا الدين ٠ ثم انتقلنا من التعميم الى التخصيص — من مجمل القضية الى اجزائها — فكان الامام اكثر اهتماماً لذلك ٠ مما دلني على انه ذو عقل عملي حاذق ٠ واني اذكر كلمته عندما اشرنا الى المهمة التي انتدبنا انفسنا لها فسألنا قائلاً : هل عندكم كلام مضبوط ؟ الا ان بعض الزائرين دخلوا اذ ذاك فمر بيده على فمه ، فسكتنا ، وتأجل البحث في الموضوع الى وقت آخر ٠

دخل الزائرون المهنئون وفيهم بعض السور يين من طرابلس الشام و بعض الضباط الترك ، فظهر لنا ، من استقبال الامام ومن تقبيل اليد الامامية تقبيلات متنوعة لها درجات ومقامات ، ان العظمة « والمحسوبية » في صنعاء اشد منها في الحجاز ٠ ان التبعة في ذلك على الاتراك الذين علموا الامراء هذه الاباطيل في الرسميات ، وروضوا عرب المدن على هذا التسكسك والخنوع ٠ على ان تأثير الاتراك من هذا القبيل في اليمن اخف منه في الحجاز ٠ وملوك اليمن من قديم الزمان كانوا شغفين بأبهة السيادة واباطيلها ٠

قرأت كتاباً لرحالة افرنسي ، رافق في القرن السابع عشر بعثة تجارية الى اليمن ، وصف فيه زيارتهم للملك في مقره ذاك الحين بالقرب من ذمار [1] ووصف كذلك خروجه الى الصلاة يوم الجمعة وصفاً ينبئنا بما لعادات اليوم هناك من الجذوع في التقاليد ٠ وهذا الامام يحيى في القرن الثالث عشر للهجرة يجلس على فراش الملك كما كان يجلس اجداده في القرن الثالث و يأذن بتقبيل يده وكفه

---

(١) هو الامام المهدي لدين الله الذي عقد في سنة ١٧٠٩ م معاهدة تجارة وولاء مع الفرنسيس ٠ وكان مركزه في مواهب بالقرب من ذمار ٠

وركبته ورجله · بل يأكل فوق ذلك القات و يشرب من الماء و يحمد الله · ولا يقف مسلماً الا لواحد في ملكه ·

على انه تزحزح قليلاً عند ما دخل محمود بك نديم اخرُ وال من ولاة الاتراك في اليمن وهو كردي الاصل سوري المولد · فاستقبله واقفاً نصف وقفة ، و بادله قبلة اليد بقبلة في وجهه · ثم دخل ضابط تركي في ثوبه ونياشينه وجزمته فركع امام الامام وقبل يده وجلس على الديوان · ثم ذلك الافرنجي اي النمساوي الموكل بعمل الخرطوش ، اي جرجي المشهور في اليمن ، وخصوصاً في عدن وجَيزان حيث يودونه في غير اليمن · فقدمه الامام الينا قائلاً : هذا منكم · ثم دخل شيخ نحيل الجسم ، طويل اللحية ، حليق الشارب ، يشبه اميركياً من اميركي نيوانكلند القدماء فاستوى الامام واقفاً وصافحه مصافحة الاقران · هو شيخ الاسلام الذي تبوأ مكانه في الزاوية · وكان قد تقدم حضرته ثلاثة صبيان ، منهم اثنان من اولاد الامام يرفلون بالاثواب المخططة ذات الاردان وعلى اكتافهم البردُ اليمانيـة ، وعلى رؤوسهم عممٌ مزركشة بالقصب ومكتوب عليها آيات من القرآن · دخلوا دون ان يفوزوا بنظرة منه ·

غصت القاعة بالمهنئين ، وكان حضرته يعرّفهم الينا فيقول : هـذا امين ، وهذا قسطنطين ، مسيحيان من لبنان · فقلت : حضرة الامام شغف بالسجع · فقال : انتم السجع ، تنوعت الاحاديث وكان هو مدير رحاهـا ، فسألني سؤالاً غريباً ثم جاوب عليه فكان الجواب اشدُّ غرابة منه : لماذا دُعي صاحب الديانة المسيحية بالمسيح ؟ فاجبته بكلمة اثرية وجيزة فلم يقتنع ، فقال : لان رجله كانت مسحاء · واشار بيده الى رجله ، ثم توكيداً بالسبابة الى خط الانحاء اي القوس في كفها ·

قد ساءني والحق يقال هذا التشبيه وان لم يكن الاحتقار فيه مقصوداً ، وعاد بي الفكر الى جده ، الى مجلس الملك حسين ، الذي لا يسمع فيـه الزائر كلمة واحدة تكدر او تسيء · بل لا يسمع غير ما يسر و يفكه و يفيد · اما الرجل المسحاء والمسيح ! لم اتمكن على تساهلي المعروف من دفع ما وقر من هذه الكلمة

في النفس . وقد اكون اسأت الى الحضرة الشريفة في سؤال سألته لانه في ذاك الموقف لا يليق ولا يجوز . ولكن عذري اني طالب علم — سائح في سبيله . قلت : اتعلمون يا مولاي كم عدد سكان اليمن ؟ فقال : بالتقريب ، لا بالتحقيق ، خمسة ملايين . فقلت وكم منهم تحكمون ؟ فاجاب وهو يبتسم و يضم انامله الى كفه : اليسير ، اليسير . فقال الضابط التركي باللغة العربية وكان قوله ولا شك تزلفاً : كل واحد من الخمسة الملايين مطيع للامام ، فاعترضه الامام قائلا : لا لا . ومال بوجهه الي وهو يشير بيده تلك الاشارة اللطيفة البليغة كأنه يقول : حفنةً منهم فقط .

اما حدود اليمن فالامام لا يعرف منها غيرَ القديمة التي كانت تشمل عُمان وحضرموت . فاذا اعتبرنا هذا التحديد وفهمنا اشارةَ الحضرة الشريفة ظهرت لنا مطامحه السياسية باجلى مظاهرها .

و كان الحديث بعد ذلك في السياسة الاوروبية فادهشني منه ما يعلمَ وما يهتم له من اخبار العالم . فهو يطالع الجرائد المصرية ، واذا ضاق دون المطالعة وقته يدفعها الى احد كتاب ديوانه فيلخص له الاخبار . كأنه من هذا القبيل مدير شركة اميركية او رئيس وزارة انكليزية . سألني عن ارلنده — وهل حازت استقلالها ؟ سألني عن لويد جورج — وهل يخلفه في الوزارة كرزن ؟ وعن زغلول باشا — واين هو الان ؟ وعن الاتراك — وهل عقدت المعاهدة بين مصطفى كمال والفرنسيس ؟ وعن اميركه — وكم سنة يحكم الرئيس ؟ وهل يعاد انتخابه ؟ وكم مرة يجوز ان يعاد ؟ فلما اخبرته عن الرئيس الاول جورج واشنطون الذي ترأس مرتين ورفض الثالثة قائلاً : ما تحررنا من الملوك لنقيم ملكاً علينا في هذه البلاد ، اعجب جداً . اما كلمته المأثورة : استعدوا في ايام السلم للحرب . فابرق لها جبين الامام كانها حديث شريف ، واطرق وهو يهز برأسه ويقول : ناهي ، كلام ناهي ، حكمة رائعة .

وما توقف عن اكل القات وشرب الماء اثناء الحديث . ولا رد واحداً ممن جاؤوه يحملون العرائض والكتب . الا انها كانت تقدم بواسطة الحاجب فيفضها

في الحال و يقضي بها . ومنها عريضة طويلة مسحت اللطف والبشاشة من وجهه . وكنت وهو ينعم النظر فيها انظر اليه واراقب عينيه ، وفيهما يبدأ الانفجار او ما يشير اليه . انما الغريب ان قد تشهر العين الحرب عليك في حين ان الفم ، مثل رسول السلم ، يبسم لك مطمئناً . كثيراً ما شاهدت هذه السماء المتناقضة فيه . ولكنه في ذاك الاوان تغير تماماً فساد الغضب في ناظريه ، وقلص العنف شفتيه فاستأذنا بعد ان فرغ من قراءة تلك العريضة ، وكانت قد طالت الزيارة ، فاشار بيده اشارة سريعة جافية ان اذهبوا اذهبوا . ولم يفه بكلمة سلام واحدة .

خرجنا كالمطرودين ، و بتنا في امر هذا الامام حائرين . أبدوي هو اذا غضب ، وسياسي اذا رغب ، وشاعر في ما يجب ؟ أعالم مجتهد ، وحاكم مستبد ؟ أغليظ الكلمة ورقيق الشعور يجتمعان في شخص واحد — في زيدي رافضي ؟ هو في امور الدين والدنيا الحاكم المطلق المعصوم في الاجتهاد عن الغلط . ولكنه عادل ، وفي اقامة الحق لا يميل ولا يحابي ، وعند الاقتضاء سمح حليم . ان له في حكمه فضائل اخرى ، منها انه يستشير ذوي العلم والخير من رجاله ، وطريقته في الادارة والعمل منظمة ، وقوته على العمل عظيمة مدهشة . رأيته في ليالي رمضان ، وقد انصرف كل كتاب الديوان ، يشتغل حتى الساعة الواحدة بعد نصف الليل . وسيدخل القارىء بعدئذٍ الى ديوانه ، فيرى كل شيء في مكانه .

اما الان فعلائقنا — في لغة السياسيين والصحافيين — متوترة . وما بدا منا ، على ما اعلم ، ما يسيء الحضرة الشريفة بشيء . فقد قبلنا « رجل المسيح المسحاء » قائلين : ان الامام من المجتهدين ، وطويل الباع في غوامض الدين . ولكن رجل حضرته أنيقة الشكل لها قوس بليغ ، يدل بحسب علم الفراسة ، على طيب الارومة ، وحسن الذوق ، وكرم الاخلاق . فاين هذه الفضائل من تلك الاشارة العنيفة ، وذاك الوجه القطوب ؟ ونحن ضيوفه ورسل السلم والخير اليه .

مرّ اليوم الاول بعد هذه المقابلة ونحن ننتظر من حضرته كلمة تسكن منا

البال ، او اشارة تعيد الينا الثقة والامل · ومرّ اليوم الثاني ونحن نحسب كل ساعة منه شهراً · ونود لو جاءنا احد يساعدنا على محنة الريب وسوء الظن ، بل نود انفسنا بعيدين عن الزيود و بلادهم · أفلم يرضَ الامام يا ترى بكتاب الملك حسين ، ام هو في ريب من امرنا مما قد يكون سبقنا الى عاصمته والى ديوانه من الوشايات · فقد قال لي احد السادة : الناس مشتبهون بكم ، حتى الذين اكرموكم يكتبون الى الامام ليتحرز منكم · فهل تلك العريضة الطويلة سيرة حياتنا يا ترى ؟

استأذنا السيد علي زباره بزيارة المدينة فكان جوابه انه يخاف علينا من الاولاد بل على كيسنا من الشحاذين · ثم استأذناه في اليوم الثاني بالطواف حول السور فقال ان المشي في الشمس يتعبنا ، وقد تؤذينا شمس اليمن المحرقة · فالاحسن ان نخرج اذاً عند الغروب · ثم جاء سيادته عند الغروب يصحبه احد الموظفين يزورنا فتعذر علينا الخروج للنزهة · وقد قال ان اشغال الامام بسبب تغيبه كثيرة ، وسيأذن بمقابلة اخرى قريباً ان شاء الله ····

اما الرفيق قسطنطين فكان يستعين على هذه الحالة المزعجة بنظم الاشعار · فلما فتحت دفتري مساء ذاك النهار لأدون فيه بعض الخواطر اطلعت على ما يلي ، و بما اني لا اعتقد بالجن تيقنت ان البيتين من نظم مكروبٍ مثلي · قال الرفيق :

ترجو الخروج الى المدينة باحثا فيها عن الشيء الذي لا تعلم
لكن لسوء الحظ بابك موصد « ان اللبيب من الاشارة يفهم »

وفي اليوم الثالث ، وانا اشك حتى في ما قاله الرفيق ، حاولت الخروج الى الساحة فردني احد الجنود في الباب · صدقت في شعرك مرة ايها الشاعر العزيز · فنحن لا نزال اسيرين · ولكننا علمنا السبب وقبلنا العذر يوم كان الامام غائباً · فما السبب وما العذر الان يا ترى ؟ بادرت الى الورق والقلم وكتبت الى الحضرة الامامية كلمة يمكنني ان انقلها بالحرف لانها أعيدت الي ·

مولاي :

حياكم الله بالخير والسعادة · اما بعد فاني منذ وطئت ارضكم اسير فضلكم، وموضوع اكرامكم، وسأكون مدى العمر شاكراً لكم · وجئت الان اسألكم، واستميح عن ذلك عذراً لعلمي بما انتم فيه من الاشغال المتراكمة اثناء غيابكم، ان تعلموني اذا كنتم تسمحون بمقابلة خاصة ومتى · فاني مقيد بخطة سفر تضطرني الى القيام باذن الله بالمحدد من زمانٍ ومكان · وفي كل حال اني شاكر ابداً لمولاي الامام، فخر العرب والاسلام، حمى الله ذماره، واعز بنوده ومناره ·

في ٢٥ شعبان سنة ١٣٤٠ امين الريحاني

فاعاد الامام كما قلت الكتاب الي وقد كتب في اعلاه بخط يده :

عافاكم الله ووفقكم لا بد نطلبكم لما اشرتم

اليه ان شاء الله قريباً ه ·

والحرف الاخير ه علامته الخصوصية في كل ما يكتبه ويُكتب باسمه ·

زادني الكتاب حيرة واضطراباً · فضلاً عما ظننته اهانة مقصودة · أهذه طريقة الزيود في المراسلة ؟ او انها طريقة الامام في ما يختص بالنصارى ، فلا يرغب حتى بورقة من اشيائهم ؟ قد اكون اسأت الظن ساعة الحنق والاضطراب ، على ان ما عرفته بعدئذٍ وشاهدته اثناء اقامتي في صنعاء لم يكن ليزيل التأثير الاول كله تماماً ·

كادت تحملني تلك المعاملة على الاستئذان بالرحيل لاني ، ولا بد من الجهر بذلك ، سئمت ما شاهدت في طريقي الى صنعاء من مظاهر الاجتماع والسياسة · سئمتها كعربي محب لابناء جنسه ، راغب في نجاحهم وعمران بلادهم · وها اني في صنعاء اسير ريب الامام بعد ان كنت اسير فضله · فما السبب في الانقلاب ؟

ما نمت تلك الليلة الا قليلاً · وكنت كل مرة استفيق اسمع السلك يشتغل مجداً وفي انبائه البرقية ما قد يزيل في الغربة الكربة · ولا حاجة

لـ« قد » التوقع . فان سبب كربتنا كما تحققنا انما هو الملك حسين ، او بالحري، كتاب التوصية منه . فرأى الامام الحكمة في تثبت الامر قبل ان يفاوضنا بشيء ، فاشتغل السلك لذلك ، وكان الجواب من عدن ، والحمد لله ، مثبتاً ما اكرمنا من اجله ذاك الاكرام الجميل في الطريق . فاذا كان كتاب التوصية من صاحب الجلالة المنقذ الاكبر يجلب هذه الظنون والشجون فماذا عسى ان تكون نتيجة كتاب التحذير ؟

الفصل السادس

حكم الامام

الامامة بالسيف — شروطها — سبب الفتن والحروب — الرهائن — اعداء الامام — اليمن في الماضي — اول امام زيدي في اليمن — الفرق الزيدية — الائمة الاقدمون — اليمن الاكبر — القرامطة في اليمن — اول دخول الاتراك — اول ثورة عليهم — خروج اشراف ابي عريش على امام صنعاء — خروج لحج وعدن من حوزته — رجوع الاتراك سنة ١٨٤٩ — انهزامهم ورجوعهم سنة ١٨٧٢ — ثم سنة ١٨٩١ — الامام المنصور — احمد فيضي باشا — الامام يحيى — ثورة ١٩٠٤ — حصار صنعاء — الصلح — ثورة ١٩١١ — عزت باشا — معاهدة ١٩١١ — رجوع الامام الى شهارة — الحرب العظمى — رسوله الى لحج والانكليز — كتاب ملوك العرب — اعداء الامام بعد الحرب — التجاؤهم الى الملك حسين والسيد الادريسي — الشوافع — العشار ·

ان الحكم في اليمن ديني وضعاً ومدني عملاً ، له فروع في الاصل مذهبية وله مظاهر في العمل غير يمانية · فقد اخرجهم الامام زيد [1] الذي ينتسبون اليه او الداعي الاول الى مذهبه في اليمن عن العقيدة بالامام المنتظر ، وعلمهم الترك بعض النظام في الادارة وفي الجيش · ولكان الحكم هناك قريباً من الديمقراطي لو انهم انتخبوا الامام و بايعوه على طريقة الصحابة ، بدل ان يجعلوا الامامة غنيمة لمن يأخذها بالسيف · ولكن عقيدةً غامضة باطنية في من انشق الزيود عنهم حماتهم ، على ما اظن ، على التمسك بضدها · قالت فرقة الشيعة : لا امام بعد الامام الثاني عشر وهو صاحب الزمان [2] فامست من العقائد الدينية

(١) هو زيد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن ابي طالب الذي جاهد ليسترجع الامامة التي اغتصبها الامويون فاضطهد وصُلب ·

(٢) هو الامام الثاني عشر الذي ظهر فترة في الارض ثم اختفى سنة ٥٢٦ ه · غاب عن الابصار لا عن القلوب ، ولا يزال غائباً · ولكنه حي ابداً ، وموجود في كل مكان ، وسيظهر — هو الامام المنتظر — ليطهر العالم من الفساد والضلال ·

حاشية اخرى : قد تفضل احد علماء النجف فاصلح ما في هذه الحاشية من الاغلاط التاريخية والدينية فقال ان الامام الثاني عشر ولد سنة ٢٥٥ او ٢٥٦ ه ، وانه « غاب

التي ينمو فيها مكروب الخرافة ، فيفسد الحياة الروحية ، و يشين اساليب العبادة فيجعلها سخرية .

وجاء في مذهب الزيدية ما ينقضها و يقضي على صاحب الزمان . كأن الزيديين يقولون لخصومهم : اذا انتم رضيتم بامام موجود دائماً في كل مكان ، ولا يُرى في مكان ، فنحن لا نرضى . نحن نشتهي [1] ان نرى الامام امامنا ولو في مكان واحد ، وفي فترة من الزمان . ولم يهتدوا في ذاك الحين على ما اظن الى غير السيف اثباتاً لعقيدتهم وتحقيقاً لاملهم فقالوا : ان الامامة بعد الحسن والحسين شورى في ولدهما ، فمن خرج منهم شاهراً سيفه ، داعياً الى دينه ، وكان عالماً ورعاً ، انما هو الامام المنتظر .

اما شروط الامامة عندهم فاربعة عشر [2] شرطاً ، منها ان الامام يجب ان يكون مكلفاً بالغاً ، وحراً اي ليس بعبد ، ومجتهداً ، وفارساً مقداماً . هي اربعة اصول صحيحة تضمن على الاقل النظام في الملك ، لانها تنفي الوراثة وفيها من المجهول المحذور ما قد يكون الشر الاكبر في الاحكام كما يدل على ذلك تاريخ الملكيات وبعض من حكموها من السفهاء والمعاتيه . وهي تحول دون مطامع العبيد والمماليك — لا يزال منهم في قصور ملوك العرب اليوم و بعضهم يرتقون الى

من الابصار الغيبة الصغرى اي عن العامة دون الخاصة سنة ٢٦١ هـ ، وغاب الغيبة الكبرى اي عن الجميع الا نادراً سنة ٣٢٨ هـ . فيكون عمره اليوم ١٠١٨ سنة لا ٨٢٠ سنة كما يظهر من التاريخ المغلوط .

ثم قال : « والامام الثاني عشر عند الامامية من الشيعة بشر مخلوق ، يحيا ويموت ، ويأكل ويشرب ، وهو في مكان مخصوص من الارض غايته اننا لا نعرفه وربما يوجد من يعرفه . وليس هو مقيد بمكان بل يتجول في الافاق متنكراً متخفياً الى ان يأذن الله بالظهور » .

قد يشكل على القارىء قول العالم النجفي انه اي الامام المنتظر « في مكان مخصوص من الارض » وانه « يتجول في الافاق متنكراً » والذي اراه على قصر باعي في هذا العلم ، ان في الحالين شيئاً من الحقيقة . فهو يقيم في مكان مخصوص برهة من الزمن ثم يتجول متنكراً في الافاق . وقد قال لي الداعي في عدن ان صاحب الزمان هو اليوم في اميركه .

(١) اشتهى في اصطلاحهم الشيء اي اراده واحبه .

(٢) وهي ان يكون الامام مكلفاً ، ذكراً ، حراً ، مجتهداً ، علوياً ، فاطمياً ، عدلاً سخياً ، ورعاً ، سليم العقل ، سليم الحواس ، سليم الاطراف ، صاحب رأي وتدبير ، مقداماً فارساً .

المناصب العالية — الذين زعزعوا اركان السيادة العربية الاسلامية واوهنوها بما كان في الماضي من اختلاساتهم المعروفة · اما الاجتهاد فيوجب على الامام العلم · والعلم اليوم في اليمن وفي نجد ينحصر بالاربعة الاصول ، اي الدين والحديث والفقه واللغة · ولكنه شرط مرن ، فيتناول في تطور الحياة ولا شك شيئاً من العلوم الكونية · اما الشجاعة والفروسية فليس من ينكر الفضل فيهما لم تكونا الركن الاول لعقيدة دينية او لحكم مدني ·

ولعمري ان شروط الامامية في الزيدية لمن خير ما تتطلبه الجماعات في حكامها لولا هذا الشرط الذي ينزل السيف منزل الشورى والمبايعة فهو ولا عجب السبب الاكبر في الفتن والحروب في تلك البلاد الجميلة التي دعاها الرومانيون سعيدة ، ونتمنى نحن اليوم ان تكون السعادة فيها حقيقة لا خيالاً ·

وكيف يثبت ملك فيها ويدوم نظام ، وكيف تضمن سبل الفلاح والعمران ، اذا كان يحق لكل من كان شجاعاً طماحاً ، وكانت له بعض السيادة في عشيرته ، ان يخرج شاهراً سيفه ، داعياً الى دينه ، طالباً الامامة ؟ وان في اليمن اليوم عدداً من هؤلاء الطامحين اليها ، ومنهم من كان اباؤهم او اجدادهم ائمة حاكمين · فاذا احسوا بوهن في حكم الامام ، او بضعف في موقفه ، فسيف الاسلام عليه · فيتسع المجال اذ ذاك لغيره من سيوف الاسلام ، فتشب نار الفتنة ، وتدق طبول الحرب ، ويخنق دخان الفوضى روح الامن والعدل والنظام ·

لا نخطيء اذا قلنا ان الفتن في اليمن حالة مستمرة يتخللها في بعض الاحايين فترات يسود فيها السلم والسكينة · وقد كانت قبل ان جلا الترك عنها ميداناً لسيف الاسلام — الجهاد ثالث الماء والزاد — بل لسيف الامام زيد ، بل لسيف كل طماح من السادة المحترمين — ميدان هلاك ودمار ، لا يسكن فيه غبار ، ولا تخمد له نار ، الا في فترة عياء عام او تفوق شخصي مثل فترة الامام يحيى بن حميد الدين ، وقد ضبط الامر فيها بيد من حديد ، وبالعدل — والرهائن ·

ولا عجب ، وتلك طريقة الاستيلاء على الامامة ، اذا كانت الرهائن اساس

الملك . لكنه ، ولا ريب ، اساس فاسد ، لا يسلم حتى في ايام الحرب . اجل ، ان الرهائن دمّل في حكم حضرة الامام ، بل دمّل في نفسية اهل اليمن ، لان الامة التي ترضى في ايام السلم ان يؤخذ ابناؤها رهينة الوفاء والامانة ، وان كانت سليمة العقيدة ، فليست بسليمة في وطنيتها . لسنا نلوم الامام وهو يحكم مثل هذه الامة ، واعداؤه يحيطون به من الخارج ومن الداخل شمالاً وغرباً وجنوباً . ومع ان البلاد اليوم في اكثر انحائها هادئة ساكنة ، وسُبل التجارة والسفر فيها آمنة ، فهو دائماً في احتراب ظاهر مع الادريسي ، وفي احتراب خفي مع الشوافع ، وفي احتراب متقطع مع حاشد وبكيل ، وفي احتراب سياسي مع الانكليز ، وفي احتراب كذلك مع من يدعون حمايتهم من العرب في النواحي التسع حول عدن . هؤلاء اعداء الامام ، فضلاً عن السادة اقرانه ، الطامعين بمكانه . ليس فراش الامامة بالفراش الوثير ، ولا امل في تلك البلاد بالسلم الدائم واليمن والنجاح الا في نزع حق الامامة من السيف ووضعه في الشورى الحقيقية ، في المبايعة بالاقتراع بموجب السنة وعلى طريقة الصحابة .

لا ينكر ما كان لليمن في الماضي ، في عهد اسلاف الامام يحيى ، من المجد الاثيل والسيادة الواسعة . وسأعود بالقارىء الف سنة الى الوراء ولا اكلفه قراءة اكثر من صفحة او صفحتين ، فيهما حقيقة الزيدية والامامة او الخلاصة التي تهمنا في هذا المقام .

في القرن الثالث للهجرة جاء الى اليمن من العراق السيد يحيى بن الحسين القاسم الرسّي يدعو الناس الى المذهب الزيدي . فاقام في صعده يعلم عدة سنين ودُعي الامام . هو رسول الزيدية الاول في اليمن . ولكن الذي اسس الامامة في صعده هو القاسم بن محمد الذي يتصل نسبه بالرسي المذكور .

بيد ان لا تخلو هذه السليلة من التقطيع لان الشرط الذي ذكرناه — الامامة بالسيف — فتح الباب للحسني والحسيني من السادة والاشراف . فتشعبت الزيدية الى ثلاث او اربع فرق ، منها الجارودية نسبة الى ابي جارود زياد بن ابي زياد الذي سمي سرحوباً . والسرحوب كما قيل شيطان اعمى يسكن البحر .

وهذه الفرقة تقول بالنص من النبي على امامة علي وصفاً لا تسمية ، وتختلف الفرق الاخرى في الامام المنتظر . والسليمانية تتبع سليمان بن جرير وتقول ان الامامة شورى بين الخلق ، الا انها مقيدة بواحد من خيار المسلمين . وهناك امور طفيفة يختلفون عليها منها سب الخليفتين الاولين ابي بكر وعمر ، فمنهم من يقول بوجوب السب ، ومنهم من يقول بوجوب الاغضاء .

كان اليمن في عهد الائمة الاولين قطراً كبيراً يشتمل على عمان وحضرموت ، ويمتد الى الحجاز ، فيدخل فيه عسير وقسم من تهامة . فالامام شرف الدين بن شمس الدين « ٩٣٠ هـ » الذي مدحه موسى بن يحيى بهران شاعر صنعاء كان من الفاتحين الكبار . والامام المهدي احمد بن حسن استولى على اليمن كله بما فيه عمان وحضرموت . والامام المهدي لدين الله هو الذي اذن للفرنسيس ان يدخلوا عدن والمخا ، وان يزوروه كذلك في مقره بمواهب ، وعقد معهم معاهدة تجارة وولاء سنة ١٧٠٩ م .

لكن الامامة لم تكن من سلالة واحدة دائماً كما اسلفت القول ولم تكن دائماً مستقلة . فقد حكم القرامطة في اليمن ردحاً من الزمن قبل مجيء الترك ، ثم استولى السلطان سليمان القانوني على بعض الاقطار العربية في اوائل القرن السادس عشر « ١٥١٧ م » ومنها عدن وقسم من اليمن . بيد انه ما عتم ان ثار اهل اليمن على الترك فاخرجوهم بعد عشرين سنة من البلاد واستمرت الامامة مستقلة بعد ذلك اكثر من مئة سنة فثار عليها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر شريف ابي عريش بتهامة واستقل عن اليمن . سيجيء ذكر هذه الحوادث في الكلام على الادريسي . ثم ثار عليها احد عمالها في لحج فاستولى على عدن واعلن استقلاله . وسيجيء ذكر هذه الثورة في كلامنا على سلاطين لحج .

وفي سنة ١٨٤٩ عاد الاتراك بقيادة توفيق باشا الى اليمن فنزلوا في الحديدة واستولوا على ابي عريش ، وتقدموا الى صنعاء . ولكنهم لم يستولوا عليها ، ولا تمكنوا من البقاء في اليمن الاعلى . الا ان الثورات في تهامة وفي لحج قسمت البلاد ، واضعفت شوكة الامامة ، فقام السادة سنة ١٨٧٢ على الامام واستعانوا

بالترك فدعوهم الى صنعاء • ففازوا هذه المرة ، ووطدوا في الجبال العالية حكمهم الى حين • لان اهل اليمن الذين يثورون على ساداتهم والسادات الذين يتمردون على امامهم لا يوالون الاجنبي طويلاً • ففي سنة ١٨٩١ نهضوا على الترك فحاربوهم واخرجوهم من صنعاء • وكانت تلك الثورة فاتحة حروب وفتن استمرت ربع قرن ، يوماً تضطرم نارها ، ويوماً تهمد تحت الرماد • وعند ما قام عليهم الامام المنصور والد الامام يحيى بعثت الدولة الفريق احمد فيضي باشا لاخماد الثورة ، فتقدم بجنوده الى صنعاء فحاصرها واستولى عليها ، فتقهقر الامام المنصور الى صعده •

وعند وفاته خلفه ابنه الامام يحيى ، فاعاد سنة ١٩٠٤ الكرة على الترك ، فحاصرهم في صنعاء حصاراً دام ستة اشهر — «اطعمناهم النار والفار» — فسلموا بدون شرط • وقد فاز ايضاً الثائرون فوزاً مبيناً في نواحي اليمن الاسفل ، فغنموا من الترك في تلك الثورة سبعين مدفعاً وكثيراً من الذخيرة والسلاح على ان احمد فيضي باشا الذي كان يومئذ في البصرة عاد بخمسين الف من الجنود لتأديب العصاة ، فاستولى ثانية على صنعاء ، ثم تتبع الامام الذي انسحب بجنوده الى شهاره • ولكنه دُحر شر دحرة هناك [1] فعقد بعدها اتفاقاً والامام — رقّع صلحاً — لم يدم غير بضع سنين •

ففي سنة ١٩١١ كانت العشائر قد تاقت الى الحرب ، فهجمت على صنعاء واحاطت بها تطلبها باسم الامام • ولكنها لم تفز فوزها في حصار ١٩٠٤ — ١٩٠٥ • وكان يومئذ عزت باشا والي اليمن ، وكانت الدولة على اهبة الحرب مع ايطاليه • فسعى عزت بما كان له من حنكة ، وفصاحة ، وكرم اخلاق الى مصالحة الامام ليمنعه على الاقل من محالفة العدو كما فعل بعدئذٍ السيد الادريسي

وقد كان عزت كريماً جواداً ، فاستغوى العرب بالمال ، واستمال الامام بفصاحته وحذقه • فعقدت معاهدت ١٩١١ (شوال ١٣٢٩) لمدة عشر سنين وكان من شروطها ان يعترف الامام بالسيادة التركية ، وتقبل الدولة ان لا يكون في البلاد غير المحاكم الشرعية التي يعين الامام قضاتها • قد تعهدت الدولة

(١) راجع الشرح في صفحة ١١٣ من هذا الجزء

كذلك بان تدفع للامام ولرجاله السادة ومشايخ حاشد وبكيل مشاهرات مالية مقدارها الفان وخمسمئة ليرة ذهباً . وبما ان الزيود ، بموجب مذهبهم ، لا يتوجب عليهم دفع الزكاة لغير الامام امامهم كان موظفو الترك يجمعونها باسمه ويقدمونها له بعد حسم اثنين ونصف بالمئة بدل الجباية .

بعد عقد هذه المعاهدة عاد الامام يحيى الى الخمير في شهاره ، وظل والاتراك على ولاء ما داموا يدفعون المشاهرات ويجمعون له الزكاة . الا انهم لم يتمكنوا من القيام بما تعهدوا به بعد دخولهم في الحرب العظمى ، ومع ذلك فلم ينقلب عليهم ، ولا ساعدهم على الادريسي في تهامة ، ولا على الانكليز في عدن . و يظهر ان الانكليز هناك كانوا قد بدأوا يفاوضونه بطريقة غير رسمية . لينضم الى الاحلاف في الحرب فارسل بطريقة غير رسمية ايضاً ، لان رسوله جاء الى لحج لا الى عدن ، يطلعهم على احواله و يعتذر . وقد كان يومئذٍ الكرنل جاكوب ، صاحب كتاب « ملوك العرب » [1] المعاون الاول للحاكم في عدن فذكر هذا الخبر في كتابه . [2]

الامام يحيى بن حميد الدين هو من سلالة الرسول الزيدي الاول في اليمن السيد يحيى بن الحسن القاسم الرسي . وقد كان والده المنصور مفتي صنعاء ، وذا

---

(١) من غرائب الاتفاق ان عنوان كتابه الانكليزي ، الذي طبع في السنة الماضية والذي ينحصر موضوعه باليمن وصبير فقط ، وعنوان هذا الكتاب واحد . وقد قال الكرنل جاكوب في صفحة ٢٣٤ من كتابه ان التوراة التي جاء فيها ذكر ملوك العرب اوحت اليه العنوان . اما انا فاخذت عنواني من ملوك العرب انفسهم .

(٢) « بعد دخول الاتراك في الحرب في ك ٢ سنة ٩١٥ ارسل الامام رسوله محمد علي شريف الى لحج ليستطلع مقاصد الانكليز . وقد قابلت الرسول وكان السلطان علي (سلطان لحج وحليف الانكليز) حاضراً . قال الرسول ان الامام لا يخلف مع الترك وبينه و بينهم اتفاق على هدنة تستمر عشر سنين . مع انهم بعد ان دخلوا في الحرب لم يدفعوا مرتباته ومرتبات عشائر حاشد وبكيل . ثم قال ان الاتراك عرضوا على الامام ان ينسحبوا من صنعاء لتكون له السيادة فيها ولكانوا ينسحبون من اليمن كله لو سمح الالمان بذلك . فقد اقنعوا الترك بان انسحابهم من اليمن يفتح الطريق للانكليز فيحتلون تلك البلاد » .

هارلد جاكوب في كتابه « ملوك العرب » صفحة ١٥٩

نفوذ كبير في عهد الامام شرف الدين · فلما توفي الامام انتخب بالاجماع خلفاً له ودُعي بالمنصور · و بعد وفاة المنصور ظفر ابنه يحيى المتوكل على الله بالامامة · وهو اليوم في السادسة والخمسين من سنه وفي الثانية والعشرين من حكمه ، قضى اكثرها كما قلت في الاحتراب والمهادنات · ولحضرة الامام اربع زوجات شرعيات جاءه منهن اربعة وثلاثون ولداً مات منهم ثمانية عشر ، اما الباقون فمنهم محمد سيف الاسلام البكر ، والمطهّر ، والقاسم ، والحسين ، وخمس بنات متزوجات ·

عندما توفي ابوه المنصور سنة ١٩٠٢ قام بعض السادة يطالبون بالامامة ومنهم السيد احمد بن قاسم بن عبدالله بن حميد الدين المعروف بالضحياني وهو لا يزال حياً · ولكنهم لم يفلحوا · ثم بعد اعلان الهدنة تحركت ركاب الامام من السودة جنوباً ، وتحرك غيره كذلك يبغي الامامة · وكان في البلاد حزب يقاومه مقاومة شديدة فلجأ زعماؤه الى اعدائهم يستنهضونهم على الامام · هي عادة في العرب لم تتغير من عهد الامويين في الاندلس حتى اليوم · كتب اعداء الامام الى الملك حسين ، والى الادريسي ، وحتى الى الانكليز في عدن ، فبعثوا بوفد سافر رجاله سراً اليها عن طريق مأرب سنة ١٩١٩ وقصدهم السفر الى الحجاز شاكين مستنجدين · ولكن الانكليز لم يأذنوهم بالمرور فرجعوا الى بلادهم · قد سمعت من مصادر شتى ما يدهش ويضحك من اخبار هذه الفتنة ، واغربها ان الامام يحيى رشى بعض الموظفين الكبار من الانكليز في عدن ليوقفوا اعداءه اعضاء الوفد ، فحققوا له تلك الرغبة ·

قد استتب لحضرته الامر بعد ذلك فحكم بيد من حديد · وانتفع بمن تخلف من ضباط الترك فنظم قسماً من جيشه · وانتفع بنصراني نمساوي فأسس معمل الخرطوش · وانتفع بمذهب اجداده فحارب الادريسي وتغلب الزيود على الشوافع مراراً · الا وعنده المجاهدون في سبيل الله يحاربون غيرهم من المجاهدين كذلك في سبيل الله · ان المرء ليأسف على امة عربية مجيدة ترفع المذهب على الكتاب والسنة ، او بالحري تجعل المذهب وسيلة الى الاستيلاء والسيادة ·

اني على يقين ان لو حكم الامام يحيى حكماً مدنياً بحتاً ، حكماً عربياً يمانياً لا حكماً زيدياً ، لتمكن من تحقيق مطامعه السياسية . فالشوافع اذ ذاك يدينون له طائعين راضين ، او انهم يأبون على الاقل ان يكونوا آلة مذهبية في يد اعدائه . اما اليوم فمهما قيل في عدله الجم ، وحلمه الشامل ، فالشوافع في حكمه غير راضين ، والذين في الجيش منهم يحار بون الشوافع اخوانهم مكرهين . ومن المظالم التي يشكونها انه يجمع الذكاة والاعشار منهم بالتضمين كما كانت تفعل الدولة في الولايات . والعشّار مثل الجلاد ، مكروه في كل بلاد .

الفصل السابع

الضرائب والسلاح

المسموع واليقين — قوة الامام — عزلة اليمن — المذهب والجنسية والوحشية — الجند النظامي — المجاهدون — العرض يوم الجمعة — انواع المدافع والبنادق — معمل الخرطوش — قصر غمدان — غنى الامام — قصص الكنوز — حكاية السيد المقسومة الى ثلاثة اقسام، وحديثه — « الحياة هبة من الله ونحن نهبها الامام » — الضرائب — العشور — الزكاة — رسم الجمارك والقوافل — والجزية يدفعها اليهود — بيت المال — اليوم المنتظر — غلبوم العرب ٠

كنت اسمع الناس في جده يتكلمون عن الحكومة العربية فيذكرون اليمن كأنه ولاية من ولاياتها، وكأن الامام، وهو العربي الصميم — هاك قصيدته في جريدة القبلة — يبغي الوحدة التي ينشدها الملك حسين ولا يقبل بغيره زعيماً ٠ وسمعت بعض الناس في عدن يقولون ان بضع طيارات تبدد صفوف الزيود وتشتتهم في الاودية والجبال، فتنسيهم الامام، ووحدة الاسلام ٠ ولكننا سمعنا كذلك كبار قواد الحضرة الامامية الشريفة، وشاهدنا جنودها النظامية ٠ لا نظن ان عدناً تشاهد ما شاهدناه، وان الحجاز يسمع ما سمعناه، لان الحقيقة في البلدين مشوهة، او مطموسة، او مجهولة ٠

وهذا مما يؤسف له ٠ فان ملوك العرب وامراءها ناؤون بعضهم عن بعض، وقلما يعرف بعضهم بعضاً معرفة اليقين ٠ قد يسمع احد المسافرين كلاماً مثل ابن الوزير، فيحمله الى الحجاز، فيظنه الناس هناك كلام الحكومة ٠ وقد يسمع احد رجال الامام المعتدلين فيتصور في كلامه صورة لآراء الامام ومقاصده ٠ لا انكر ان شيئاً منها ينعكس في كلام الاثنين ٠ ولكن الامام الكبير، الكبير باستعداده وبقصده وبمطمحه، لا يظهر في كلمة يقولها هو او يقولها احد رجاله ٠

هو الرجل العالم الحكيم المعتدل — قد سمعته يتكلم ٠ ولكن اعماله، وقد

ادهشنا بعضها ، و بعضها راعنا ، تدل على علم يشوبه التعصب وعلى حكمة تضعفها العقيدة . اما قوته الحربية والسياسية فلا تنحصر بالزيود ، لانهم في من يحكم الثلث فقط[1] وانما هي في تلك العزلة التي توجبها العقيدة ، ويثبتها التاريخ ، وتعززها الجبال . اجل ، ان قوة الامام يحيى لفي ثلاث يقدسها اهل اليمن ، هي المذهب والجنسية والوحشية[2] وان في نفسه مواهب تتغذى بهذه القوات الثلاث ولا تقف عندها . فهو وان كان التكتم طبعاً فيه ، صريح الكلمة في مواقف الثقة والاطمئنان . وهو ، وان كان زيدياً ، يقبل هدية من الانكليز ، فيركب السيارة ، و يأذن بتصوير جيشه النظامي . وهو ، وان كان ديمقراطياً في مسلكه الشخصي ، يرغب في تلك الابهة العسكرية التي يسير بها الى المسجد ، ثم يشاهدها من نافذة قصره مرة كل اسبوع بعد صلاة الجمعة .

قد شاهدنا شراذم من الجند في ماويه واب و يريم وذمار . ولكننا في صنعاء شاهدنا يوم العرض فرقة كاملة تامة بعدتها واجزائها ، بنوبتها ، بسريتها ، بشاشها ، بمدفعيتها . وكان بعض ضباط الترك يركبون البغال ، وقد علموا ابن اليمن ان يخطو خطوة الجندي الالماني الرسمية ، خطوة البط ، Goose-step في حين ان الفرسان يلعبون بالسيف والرمح وخيلهم ترقص على نغمات الموسيقى — وشاهدنا بين الجنود الزرقاء ثلة في ثياب صفراء ، قيل لنا انهم تلاميذ المدرسة الحربية ، ضباط المستقبل .

اما السلاح فعند الامام من البنادق انواعها[3] ، بعضها مجلوب و بعضها مغنوم ، و بعضها مشترى من رجال عسير . وان معمل الفشك في قصر

---

(١) يحكم الامام نحو مليونين ونصف مليون من عرب اليمن منهم زهاء مليون ونصف مليون من السنيين الشوافع ، وعشرون الفاً من اليهود ، والباقي من الزيود .

(٢) اني استعمل هذه اللفظة ، وحشي ، كما يستعملها اهل اليمن فهم يقولون : اهل اليمن وحشيون . ويريدون بذلك انهم ينفرون من الغريب .

(٣) قيل ان عند الامام اربعمئة الف بندقية . ولكن ، منها ما هو غير صالح اليوم كالطليانية القديمة . وعنده مئتا مدفع متنوعة ، منها الجبلية والرشاشة . وقد رأيت يوم العرض مدفعين من طرز الهاون .

غمدان [1] الذي يديره جرجي النمساوي يشتغل دائماً ، فينجز اربعة صناديق كل يوم ، في الصندوق الواحد الف فشكة [2] . وقد قيل لي انه يستطيع ان يجند ، خلا الجيش النظامي [3] ثلاثمئة الف من المجاهدين . على ان هذا القول لا يخلو من المبالغة .

في كل حال يحق للامام ان يردد انشودة الانكليز الحربية الاستعمارية فيهتف قائلاً : عندنا المدافع والرجال ، وعندنا فوق ذلك المال . اني اشهد على الاولى والثانية شهادة عين ، وقد سمعت عن الثالثة اخباراً شبيهة باخبار الجن والكنوز المرصودة . فالامام غني ، غني جداً . عنده في كل بيت من بيوته في بير العزب خزنة من الذهب والفضة . لذلك تسمع الحرس في الليل يتبادلون كل ساعة كلمة الامان . وعنده في شهاره ، في قنن الجبال هناك ، كنوز لا يعرف الطريق اليها سواه . واذا اكتُشفت الطريق فالحجر الذي هو باب الكنز لا يعرفه سواه . واذا عُرف الحجر فلا يستطيع ان يرفعه احد سواه ، لانه موضوع في شكلٍ سرّه ، مفتاحه ، عند الامام . دعنا والكنوز .

ان الضرائب والميزانية تشهد ان الحضرة الشريفة غنية ، غنية جداً ، لانها مثل الاكليروس عند النصارى تأخذ ولا تعطي . في ايام الدولة كان اهل اليمن يدفعون الزكاة فقط ، وكانت العشائر معفية منها . اما اليوم فهم كلهم يترحمون على الاتراك . قد اسمعتك شكوى الجندي وشكوى الفلاح . واليك الان بحديث غريب لرجل غريب ، ما عرفته من ثيابه أجندياً هو او فلاحاً او سيداً . فقد كان يلبس فوق ردائه معطفاً افرنجياً من الجوخ ، اكل الدهر عليه وشرب ، وهو في رقاعه وطوله ووسعه وازراره البيضاء والسوداء آية في الزي والاختراع . وكان الرجل يشد فوق هذا المعطف الجنبية اي الخنجر ويحمل بدل البندق العصا .

---

(١) قصر غمدان القديم دُرس والبناء القائم مكانه اليوم يدعى باسمه ويختصرونه في صنعاء فيقولون القصر . وفيه معمل الخرطوش ، والسكة ، والسجن .

(٢) هم يجلبون الرصاص و يستخرجون من ارضهم ملح البارود .

(٣) عدد الجيش النظامي خمسة الاف .

استوقفت هذه القيافة المبتكرة نظري فسألت الرجل عن مهنته فقال : مهنة الاجاويد . فقلت : زدني علماً . فقال : نعطي ولا نأخذ . فاعتذرت واستغفرت فقال : تريدها بلغة الفقهاء . قلت : بلغة من فضلك افهمها . فاجاب وهو يهز برأسه . حياتنا هبة من الله ونحن نهبها الامام . لا نربح ولا نخسر . فقلت ولكن للهبة طرقاً واساليب . فقال ضاحكاً وهو يلطم صدره بيده : كلها عندي . انا اصلاً ، كما يقول الفقيه — وماذا يقول الفقيه ؟ — يقول : انا اصلاً واحدٌ امّارٌ بالسوء . اما انا فثلاثة وفي كلهم الخير . ثلثي يا افندي شيخ ، وثلثي فلاح ، وثلثي جندي ، والمجموع سيد .

— نعم انا سيد ، وان كان السادة ينكرون ذلك علي . الثلث الاول خدم الامام فجمع له الزكاة . جمعتها بهذه — وهز بيده العصا — جمعتها « ظلَط » « نقوداً » ، جمعتها مالا « مواشي » ، جمعتها اعشاراً ، وحتى ثماراً . وما اكلت والله ثمرة مما جمعت ، ولا لطخت يدي بنقطة دم من شاة او حمامة . كلها للامام . والثلث الثاني دفع الزكاة . وكنت ادفعها مسروراً مستأنساً ، فلا ارجم العشّار ، ولا اخبيء الحمام . دفعت خيرات « كثيراً » وما بقي شيء بعد خمس سنين من الارض او المال او الظلط . كلها للامام . والثلث الثالث يا افندي ، خاض من اجل الامام ساحات الوغى . وفيّ شاهدان ، هوذا الاول ، وذا الثاني — قال ذلك وهو يكشف عن صدره ورجله ليريني الجرحين — وما عدت الى بيتي وفي جيبي « بُخشة »[1] واحدة . لا والله . . . خمس ريالات ، هذا الرسم ولكن الريال فضة والعين لا ترى الفضة . نقبضها بخشات . ست بُخشات كل يوم — والباقي للامام . وبما اني مجاهد كنت اشتري القات من كيسي ، هم يوزعون القات على « النظام » « العسكر النظامي » القات والبُر « الحنطة » . اما المجاهدون فلله امرهم وعلى الله — ست بخشات كل يوم . والظلط مخزون ،

---

(١) الريال النمساوي يقسم الى ثمانين بخشة ، والبخشة نحاسة ضربت في صنعاء والليرة العثمانية تساوي تسع ريالات نمساوية فتكون قيمة الريال احد عشر قرشاً تركيا وقيمة البخشة ثلاث بارات .

مخزون ليوم شديد ... نقول لحضرة الامام : من شروط الامامة السخاء . فيقول لنا ، وهو العالم الاكبر : ومن شروط السخاء وضع الحقوق في موضعها ليس بالتبذير ... الامام رجل كبير عظيم ، ينظر الى المستقبل بعينين . له مقاصد كبيرة . ونحن كلنا للامام . نعطيه ، نعطيه ، ولا نأخذ منه الا ما شاء ان يتفضل به . الحياة هبة من الله ونحن نهبها الامام شاكرين . هذه هي الحقيقة ينبئك بها هذا السيد . فقد صرت سيداً يا افندي لاني لا اخدم اليوم الامام بغير الكلام .

اما الحقيقة كلها فهي ان الشكوى من الضرائب عامة ، وقليل من ينظر اليها نظر هذا السيد الظريف. فالامام يأخذ من المسلم اعشار الارض عيناً. والخضرات اي الثمار — والقات منها — تثمن فيدفع اصحابها العشر نقداً . ثم زكاة المواشي والدواجن و « القراش » « الدواب » وزكاة التجارة والمخازن ثم الزكاة الاصلية [1] ومنها الفطرة اي زكاة البدن تدفع في رمضان ، وزكاة الحلي حلي النساء من ذهب وفضة . وفوق ذلك كله اعانة الجهاد عند الحاجة . اضف الى ذلك الرسم المفروض على اليهود وان كان قليلاً . فاليهود في اليمن ذميون يدفعون الجزية ، وهي ثلاث درجات : ثلاثة ريالات في السنة على الغني ، وريالان على المتوسط ، وريال ونصف ريال على الفقير . كل هذه الضرائب تدعى في اليمن زكاة ، الا انهم يقسمون الزكاة قسمين ، ما يدفع من الجنس وهو العشور ، وما يدفع نقداً .

كل ما يجمع من العشور والاموال يحفظ في بيت المال الذي له فروع في كل الاقضية . وفي هذه الفروع اي المستودعات دائماً كثير من الحبوب والبن وغيرها من لوازم المعيشة ، التي لا يصرف شيء منها الا بامر من الامام. على ان من حسنات بيت المال انه يقرض المحتاجين مما فيه و يستوفي الدين منهم من الموسم الجديد دون فائدة ، وهي في اليمن ممنوعة اطلاقاً ، في التجارة وفي المعاملات كلها ، ممنوعة شرعاً وعملاً .

---

(١) تبلغ قيمة الزكاة الاصلية خمسمئة الف ريال اي خمسين الف جنيه .

وما سوى القرض فلا ينفق من بيت المال الا قليلاً ، لان عند الامام مصدر خراج آخر هو الجمرك ورسم القوافل · فكل ما يدخل الى صنعاء من عدن او من الحديدة اليوم يدفع رسماً معلوماً · وكذلك كل جمل وكل دابة محملة · فمن هذه الرسوم ينفق الامام على حكومته · اما بيت المال فلا تمسه يد صالحة او اثيمة · كل ما فيه مذخور بعون الله ، و بفضل الامام والرهائن ، مذخور لليوم المنتظر · غليوم العرب الامام ، المان العرب الزيود ·

الفصل الثامن

الشمائل القدسية

خادم لا يعجبه شيء — شهادته في الامام — رآه جالساً تحت الشجرة يقضي في الناس — دعوا الصغار يأتون الي — التناقض في سلوكه — القصد من الجلوس في الفلاة للناس — كيف يقضي الامام يومه — مكتبة من المخطوطات — كتاب الاكليل — « قبح الله ملكاً يدخل عليه من هو اعلم منه » — المدارس — العلماء والقراء والعامة — ذكاء الاولاد — حب العلم والحرب — الامام الامبراطور — الامام الطبيب — الكرامات والتشوير .

كان للرفيق قسطنطين خادم مدني وهو ولد مغربي نشأ في كنف الاشراف بمكة ، فما اكتسب غير المشاكسة والمكابرة ، وما كان رأس ماله في الحياة غير رأس من حديد ولسان ذي حدين . استصحبه الرفيق ، فكان اضحوكة الطريق ، واعجوبة الخطر والضيق . وكأن الاقدار تحسن الامثال ، فكان ينطبق على المدني ومطيته — بغلة كانت او ناقة او حماراً — المثل المشهور : شبيه الشكل منجذب اليه . وكم وهلة روّعتنا واضحكتنا معاً ، والمطية فيها تضرب بقوائمها الهواء ، والمدني ينطح برأسه الارض ، ثم ينهض كالجن ضاحكاً ، وان غلظت في فمه اللعنات ، و يروح راكباً فوق احماله كأنه سيد السادات . ولد لا يعرف التوبة ، ولا يحسن من الكلام ومن الظنون الا اسوأها . فما رافق احداً الا شاكسه في الساعة الثانية بعد اللقاء ، وجاء يتحفنا بمعلوماته عنه و يحذرنا منه .

ولما دخلنا الى صنعاء فاز المدني قبلنا برؤية المدينة ، فراح يطوف فيها ، وعاد ولسانه على غير عادته يقطر عسلاً من عسل الالفاظ ، وعيناه تبرقان ابتهاجاً . سبحان الله . لقد اعجبت المدينة المدني ، ففضلها حتى على جده . فقلت : افلا تفضلها على مكة كذلك ؟ فقال : لا والله . فسألته عن السبب ، فاجاب : في مكة امي . وهذه ، اي حبه امه واحترامها ، هي بعد الامانة ، فضيلة الولد الوحيدة —

قلت انه نقاد وقاد ، لا ينجو احد من لسانـه ومن ناره · ولكنه جاء ذات يوم وهو عائد من المدينة يقول : رأيت الامام ، والله وامي ، وقبلت يده ·

— أين رأيته ؟

— هو جالس الان في الساحة ، وحوله الرجال والنساء والاولاد · ولما رآني قال : حي الله الجاي · وقام من كرسيه ، والله وامي ، واعطاني يده فقبلتهـا · وسألني عن اسمي وقال : امسلم انت ام مسيحي · فقلت : مسلم والحمد لله · فقال : بارك الله فيك · هو حياني ، والله وامي ، قبل ان حييته · ما رأيت احسن منه ، والطف منه · رجل متواضع كريم الاخلاق — والعدل ! وامي لا اظن ان في البلاد العربية من هو اعدل منه · هو جالس الان في الساحة يسمع شكاوي الناس · وكلهم رجال ونساء واولاد ينادون : يا امام ، يا امام ، يا حضرة الامام · جاء وانا واقف جنبه ولد يبكي · فقال للناس : افسحوا له ، قربوه مني · دموعه افصح من الافصح فيكم واصدق · تعال يا بني · وامي ، ما اقول غير الصدق · · · لا اظن ان في البلاد العربية كلها احسن من هذا الامام ·

وهذا اجمل ما فاه به المدني في الرحلة كلها · على اننا نضرب صفحاً عن رأيه وننظر في ما تضمنه حديثه من الحقائق · قد حياه الامام عند ما رآه قادماً وقام له · وهو يعرف انه خادمنا ، ولكنه يجهل ما اذا كان مسلماً او مسيحياً · هذا جميل منه · ولكننا تساءلنا ما السر يا ترى في ما نناقض من سلوكه · ينهض لخادمنا و يستقبلنا جالساً · والسر لا يزال سراً نزفه الى القارىء ونسأل له التوفيق في اكتشافه واكتناهه ·

اما الحقيقة الثانية فهي انه قدم شكوى الاولاد ، ومنهم الولد الباكي ، على شكاوي الرجال والنساء · وهذه بذاتها ثناء على الامام لا يقارنه في النطق ثناء · نذكرها اجلالاً ساكتين حائرين · ان امر هذا العربي اليماني الشريف لغريب · يشبّه المسيح بالرجل المسحاء ، و يشبه المسيح في عطفه وحنانـه ، دعوا الصغار

يأتون اليّ . من فم مسلم زيدي تتساقط درر حبك ، وفي اليمن يُسمع صدى كلماتك ، ايها السيد الكبير الاوحد ، ايها الناصري العظيم . فما اصغر من يقيم الحدود ، و يحصر الحقيقة بالنصارى والزيود .

قد رأيت بعيني ما يثبت رواية الخادم مدّني ، بل رأيت حضرة الامـام وهو يجلس ساعة وساعتين كل يوم دون تأفف وتذمر ، فيسمع شكاوي الناس واعياً صابراً ، طلق المحيا ، عطوفاً شفيقاً ، فيقضي بينهم في بعضها و يحيل البعض الاخر على المحكمة الشرعية .

اما القصد من الجلوس في الفلاة فهو يدل على رغبة الامام الشديدة في تعميم العدل والانصاف . قد علمت ان الحجّاب في بابه يردون احياناً من ينبغي ان تسمع دعواه ، او تُقدَّم على دعوى سواه . وقد يرتشون ويظلون في مكمن من السر لا تصل اليه يد العدل والتأديب . فيجلس الامـام حيث لا حاجب بينه و بين الناس . انما هي عادته كل يوم صباحاً عند ما يخرج من قصره الى الديوان . يجلس في الساحة عند الباب ، او تحت الشجرة في الحوش ، و يقف وراءه جندي حاملاً السيف ، وآخر الى جنبه حاملاً المظلة . فيفتتح الجلسة التي تستمر من الساعة الى الساعتين . ثم يطوف في المدينة مصحوباً ببعض الموظفين والجنود و بمن شاء من الناس . ثم يصلي صلاة الظهر و يرجع الى القصر راكباً في موكب رسمي تتقدمه النوبة ، وتعلو فيـه اصوات الجنود وهم ينشدون الزامل - و بعد الغداء والقيلولة يجيء الى الديوان فيشتغل حتى صلاة المغرب ، وهو يأكل اثناء هذه المدة او بالحري « يخزن » القات ، بل يظل في بعض الاحايين حتى الساعة العاشرة مساءً في الديوان قائماً بما تقتضيه شؤون الامامة والرعية .

اما يوم الجمعة فيقضيه في الصلاة والمطالعة . وقد قيل لي ان عنده مكتبة من المخطوطات لا مثيل لها في البلاد العربية كلها . على انه يغار عليها من عيون الناس وايديهم ، وخصوصاً الاجانب منهم . فقد أُخبرت — واني اروي حديث

المكتبة كما رويت حديث الكنوز — ان كتاب الاكليل[1] كاملاً بعشرة اجزائه موجود في مكتبة الحضرة الامامية . وانه سيطبع ان شاءالله عندما تصل الطباعة الى اليمن في سياحتها العربية البطيئة وتستقر في صنعاء .

ان للامام يحيى رأياً في العلم والملك جميلاً . هو من اكبر العلماء والمجتهدين ، وعنده انه ينبغي ان يكون كذلك كل من تشرفه الامامة وترفعه الى سدة الملك . كيف لا وهو القائل : قبّح الله ملكاً يدخل عليه من هو اعلم منه . فاذا لم يكن هو اكبر العلماء اليوم فلا شك انه ابعدهم نظراً ، واشدهم همة ، وادقهم اجتهاداً[2] وقد قال لي احد السادة انه خلاصة الخلاصة .

ولكنه في حبه العلم لا يحب على ما يظهر تعميمه . لم نرَ مدرسة واحدة في المدن والقرى التي مررنا بها . اما عذر الامام في ذلك فهو انه منذ تولى الحكم وهو واعداءه في احتراب . فكيف له ان يهتم بالمدارس ؟ ولكن اهل اليمن يهتمون كل الاهتمام بالمساجد و بالصلاة و بالقات ، فلو انصفوا ، لو احسنوا الى انفسهم ، لساووا في الاقل بين التعليم والتديّن .

اما ما يتلقنه الاولاد في المساجد فينحصر بالقرآن واللغة والفقه . لكن الفقه لا يدرسه هناك غالباً الا من هم من السادة . وليس الفقيه دائماً فقيهاً . الفقيه هناك مثل معلم الاولاد عندنا وغالباً تكون مهنته ان يعلم القرآن واللغة

---

(١) كتاب الاكليل للحسن بن احمد الهَمداني . لم ارَ منه غير جزء واحد . وهو كتاب محافد اليمن ومساندها ووفياتها ومراثي حمْير في عشرة اجزاء . الاول : اصول الانساب . الثاني : نسب ولد الهميسع بن حمير . الثالث : فضائل قحطان . الرابع : السيرة القديمة الى عهد تبّع بن ابي كرب . الخامس : من اول ايام اسعد تبع الى ايام ذي النواس . السادس : في السيرة الاخيرة الى الاسلام . السابع : في التنبيه على الاخبار الباطلة والحكايات المنتحلة . الثامن : ذكر قصور حمير ومداينها ودفائنها وما حفظ من شعر علقمة بن ذي جدن . التاسع : امثال وحكم باللسان الحميري . العاشر : في معارف همدان وحاشد و بكيل .

(٢) الاجتهاد هو تفسير او تأويل او شرح بعض الاحكام في فروع لا في اصل الدين ، تلك الفروع التي ليس لها في القرآن والسنة نصوص صريحة . والامام يحيى يخرج الاحكام على اصول اجتهاد الامام زيد ابن علي بن زين العابدين وفي بعض الاحايين على اصول الامام احمد بن حنبل .

فقط . ومن هذه الجهة يقسم اهل اليمن الى ثلاث طبقات ، العلماء ، والفقهاء و يدعون بالقراء ، والعامة . ويقسم العلماء قسمين ، قسم يتولى امر التعليم والارشاد واكثرهم من الفقهاء ، والقسم الثاني هم اهل الحل والعقد ، هم السادة و بيدهم مقاليد الاحكام الشرعية والسياسية والعسكرية . اما العامة فهم الذين يعلمهم القراء الكتاب وشيئاً من اللغة ، ويعلمهم السادة الطاعة والمحافظة على كل ما فيه تعزيز سيادتهم في البلاد . لذلك تراهم يكرهون السيد و يسخرون من الفقيه .

حدثت ذات يوم ولداً ذكياً ، وما اكثر الذكاء في الاولاد هناك ولكنه كالارض الطيبة غير المزروعة ، فسألته ما اذا كان يشتهي « اي يحب » السفر . فقال : عندنا والحمد لله ما يغنينا عنه . فقلت : ولكن الاسفار نفقه وتفكه . فقال : الذي عندنا يكفي لمعاشنا فقط . فسألته كيف يبذل الزيادة لو كانت . فاجاب : والله يا سيدي انا احب المدارس ، كان عندنا في ايام الاتراك مدارس منظمة يعلمون فيها الجغرافية والحساب . وكانوا يعطوننا الكتب والالواح والورق والحبر والاقلام والدفاتر والطباشير — كل شيء ، وكله مجاناً . والله يا سيدي انا محزون . لا مدارس اليوم عندنا ولا معلم غير الفقيه . والفقيه سفيه ، لا يحب التعليم ، و يأخذ مع ذلك ثمانية ريالات في الشهر ، و ينام في المسجد والكتاب بيده . والورق والحبر والكتب ذهبت مع الاتراك . فلو كان عندي مال زائد كنت افتتح مدرسة ، واعزل الفقيه ، واجلب الكتب والدفاتر والورق والالواح والطباشير واوزعها على الاولاد مجاناً .

— ولماذا لا يفتح الامام المدارس ؟ الامام غني .

— بلى ، ولكنه ... سكت الولد ومد يده مقبوضة . ثم قال : فهمت ؟

— وهل عند الامام كتب ؟

— خيرات ، خيرات .

— وهل هو عالم كبير كما يقولون ؟

— اشتهي ان يكون لي هذا القدر — وهو يضم اصابعه بعضها الى بعض — من علمه ·

— أوَ لا تحب ان تكون جنديًا ؟

— بلى ، ولكن بعد ان احصل العلم احمل البندق ·

— وماذا ينفع العلم اذا كنت تظل راغبًا في الحرب وفي تقتيل اخوانك ؟ العرب كلهم من بطن واحد ، والمسلمون اخوان ·

— صدقت ولكن حضرة الامام اعلم منا · فاذا قال : الحرب ، فالى الحرب · كلنا نحارب من اجل الامام · وهو اعلم الناس بكتاب الله والسنة و بما يجب على المسلمين · قد امرنا الله بالجهاد ···

اعاد حديث الولد الى ذهني وجه الشبه بين هـذا الشعب اليماني و بين ذاك الشعب الذي قام في اوروبه منذ عشر سنوات يلبي امر امبراطوره بتأديب العالم و بسط السيادة الالمانيـة على اوروبه جمعاء · وكلمة الامـام اليوم مثل كلمة ذاك الامبراطور بالامس ، تكاد تكون منزلة في نظر رعيته ·

ان الامام يحيى اذن رب الحرب والاجتهـاد ، رب السيف والقلم · هو الزعيم الاول والمعلم الاكبر في اليمن · وهو القاضي العادل الشفيق يجلس في الفلاة كي لا يقف احداً بينه و بين المظلوم · قد علمت ذلك ايهـا القارىء ولم تعلم بعد ان الحضرة الشريفة تمارس كذلك الطب الحديث · تداوي المريض بالايمان وتشفيه بالصلوات · اجل ان الامام هو الطبيب الاكبر بل هو الطبيب الاوحد في اليمن ·

اخبرني احد الذين عالجهم انه كان مصابًا بداء الصرع وكان في رأسه اهتزاز دائم ، فاخذ الحشائش التي وصفها له بعض البـدو ، واكتوى ، واحتجم وظل في رأسه الصرع والاهتزاز · فجاء الى الامام ضارعًا مستشفيًا · فلبـاه الامام · أخذ الكتاب فقرأ بضع صفحات فيـه · ثم تناول ورقة وكتب فيها آية من آياته الكريمة ووضعها في كأس من الماء وحركها وهو يتلو الآيات · ثم اعطاه الـكأس قائلاً : اشرب باسم الله · فشرب المريض الماء · فقال الامام:

اذهب في شأنك ، قد شفيت باذن الله · وهذه قصة واحدة في الكرامات من عشر سمعتها ·

اما في التشوير [1] وحضرته القدسية تشوّر ايضاً ، فاليك بمثل واحد منها · جاءه ذات يوم بعض العربان شاكين ناقمين ، فمنعهم عنه ، فوقفوا في الساحة تحت النافذة ينادون ويهددون الامام · فاطل حضرته عليهم وأنبهم فثارت في رأس واحد منهم النخوة بل النقمة العربية فاطلق بندقيتـه · فقال الامام : رصاصك بين عينيك قبل ان تغرب هذه الشمس · وعاد الى مجلسه ، الى فراش الملك مطمئناً · وراح العربان الى المدينة وهم يصيحون و يستنفرون · ولكن الذي اطلق بندقيته تخلف عنهم فجلس عند بوابة صنعاء يستريح والبندقية بين يديه ، وفمها تحت انفه · نعس الرجل ونام ، ثم تحرك حركة المستيقظ ، فأُطلقت البندقية عرضاً ، فاصابته الرصاصة في جبينه ، بين عينيه ! وكان ذلك قبل غروب الشمس !

(١) التشوير ، مثل « العين » ، يصيبك منه الشر المقصود دون تحديد · ولكن في هذه الحادثة حدد الامام الوقت والمكان ، فكان ماشوّر بل تنبأ به · وقوة التشوير عند العرب تنحصر بالسادة الاشراف ·

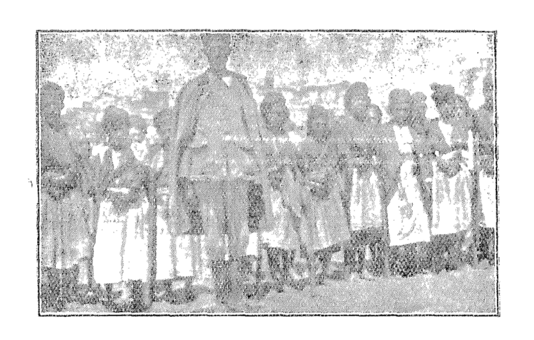
الفصل التاسع

الجو ينجلي

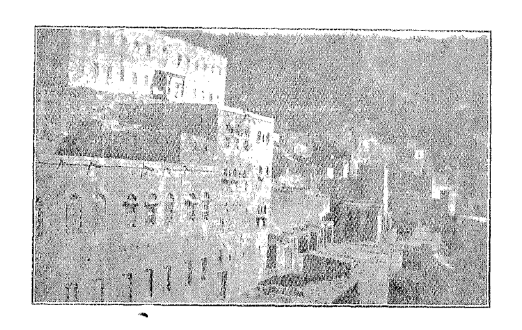
فوائد السفر البطيء — حصون اهل اليمن الثلاثة — ضعف الزيود — القرن الثالث للهجرة — العزلة والتعليم — جو الظنون ينجلي — زيارة الامام — حديث خطير — خير اليمن في السلم لا في الحرب — « افتحوا البلاد للتجارة » — الانكليز — الادريسي — خطبة الرفيق الحربية — نفور ونور — عدن والاجانب فيها — مندوب الامام الصنو صفي الاسلام احمد بن يحيى الكبسي — بداءة المفاوضات — رمضان — ابطاء السيد احمد — نحثه بالقوافي ونهجوه ·

من فوائد السفر البطيء على ما فيه من مشقة وعناء انه يمكن طالب العلم من الاستقصاء والدرس والاكتشاف · كنا في طريقنا من لحج الى صنعاء سؤالاً متجسساً ، سؤالاً حياً متحركاً ، اذا أُذن لنا بالاستعارة · وحسبنا في بعض الاماكن ان نقف ساكتين صابرين ، فيجيئنا صاحب الامام مادحاً ، ويجيئنا عدو الامام قادحاً · فضلاً عن الفلاحين والجنود ، وقد عضهم البؤس والفقر فيجيئوننا شاكين ومتبرعين همساً بما نبغيه من المعلومات · فوصلنا الى صنعاء وعندنا « خيرات » من اخبار الامام واليمن والزيود · قد دونت بعضها في الفصول السابقة ، واقول الان تمهيداً وافادةً انها تتفرع الى فرعين ، الاول وفيه تظهر قوة الزيود الطبيعية ، والثاني وفيه ضعفهم الكامن في تلك القوة · اما هذا الضعف فله في حياتهم الاجتماعية مظاهر شتى كلها قديمة ·

قد علمتَ مما تقدم ان الامام هو الزيود ، وان قوته وقوى تلك الامة تنحصر في ثلاثة — ثلاثة حصون — هي المذهب والجنسية والوحشية اي الاعتزال · اما المذهب فلا رأي لي فيه · واما الجنسية فالمدارس توسع نطاقها لتشمل في المستقبل — القريب ان شاء الله — ربوع العرب كلها · ولكنما الوحشية ، اي النفور من الغريب والنزوع الى العزلة ، تؤثر في السائح اشد التأثير وأسوأه · وهي مع ذلك اول الحصون المقضي عليها ، لانها لا تقوى في هذه



ثلة من عساكر الامام وضابطهم



مناخه

الايام على تيار العلم والتجارة ذلك التيار الذي يقرب الشعوب بواسطة البرق والبخار بعضها من بعض ·

اما ضعف الزيود في جهلهم الكثيف وتقهقرهم ، لا بالنسبة الى الاوروبيين بل بالنسبة الى المصريين والسوريين حتى والعراقيين · كأنك في السياحة في تلك البلاد السعيدة قولاً وتقليداً تعود فجأة الى القرن الثالث للهجرة · لا مدارس ، ولا جرائد ، ولا مطابع ، ولا ادوية ، ولا اطباء ، ولا مستشفيات في اليمن · ان الامام لكل شيء · هو المعلم والطبيب والمحامي والكاهن · هو الاب الاكبر ولا اظن ان في اليمن من يقوم مقامه اليوم لو فاجأته لا سمح الله المنون - على انه ، وان حافظ كالاب الرؤوف على ارواح ابنائه ، وعلى حقوقهم ، وعلى صحتهم ، فقد اهمل عقولهم اهمالاً محزناً مفجعاً · وهوذا النقص في حكم الامام ·

ان في العزلة قوة نأسف على دوامها · ولكننا نأسف كذلك على زوالها اذا كان التعليم الوطني لا يحل محلها ، فيكون فيه لاهل اليمن قوة جديدة تضاعف ما فقدوه · ولا بد مع التعليم من تحسين الصلات وتمكينها بين الحضرة الامامية وسائر ملوك العرب ، ولا سيما من يحكمون الشطر الغربي من شبه الجزيرة · اضف الى ذلك تسهيل المواصلات التجارية والاقتصادية بين اليمن وعدن ، وهي من الامور الجوهرية التي لا تتم الا بموالاة الانكليز والاتفاق معهم على ما فيه مصلحة البلاد وشيء من المصالح المشتركة ·

اثنا عشر يوماً في الطريق واسبوع في الاسر انضجت فيَّ هذه العقيدة وحصَّنتها بالمشاهدات و بالمعقول · فدخلت صنعاء وقابلت الامام وهي متأصلة فيَّ متمكنة مني ، بيد اني جئت اليمن ولا رأي ولا عقيدة لي في رجاله وفي شؤونه · فلو الفيتهم كالمصريين او كالعراقيين على الاقل لكان حديثي مع حضرة الامام غير ما ستسمع ايها القارىء العزيز ·

وهناك مسئلة هي في نظر الامام اهم من المدارس ، واهم من المعاهدة مع ملك الحجاز ، واهم من سكك الحديد والامتيازات · الا وهي مسئلة الحديدة -

الحديدة ! لا ينام الامام سعيداً مطمئناً ما دامت ، وهي ميناء صنعاء ، في يد الادريسي والانكليز . سأبسط قضيتها ، وهي قضيــة اليمن السياسية الكبرى اليوم ، في الفصل التالي . اما الان وقد اطمأن بال الامام في تثبته صدق دعوتنا وحسن قصدنا فانقشعت غيمات الظنون والشبهات ، انجلى الجو ، فانفتح في اليوم السابع من الاسر باب الفرج والسرور .

ولا تسل ايها القارىء كم كان ذا السرور عندما دخل احد الحجاب يبشرنا بقدوم الحضرة الشريفة . جاء الامام يزورنا في منزلنـا ، والحمد لله مُزيل الشكوك من قلوب عباده . دخل يحمل السيف وظل من رافقـه من الحرس في الرواق . هو يلبس ثياباً قطنية من نسيج اليمن وليس ما يميزه عن احد السادة غير العمامة شكلاً لا لوناً وذؤابتها الطويلة . وسادات اليمن مثل اشراف الحجاز وتجاره يلبسون غالباً الاجربة والاحذية لا النعال . بادرنا انا والرفيق الى الباب نستقبل الزائر العظيم ، ودخلنا وراءه فامر ان نجلس على الديوان وجلس هو امامي على كرسي ، وسيفه بين يديه .

اما الحديث فانقله من يوميتي وقد كتبت خلاصته تواً بعد المقابلة . فمـا اتكلت على الذاكرة آنئذٍ ولا أتكل عليها الان . ليتيقن القارىء اذن صدق الرواية .

قلت : لست باجنبي يا حضرة الامام ، بل انا منكم ، من العرب . ولا يُخدع من كان يجيد التفرس مثلكم . انظروا الي . ان قصتي كلهـا في وجهي . فاذا رأيتم مـا يريبكم ، او ظننتم فيّ شيئاً من التلبيس ، فمروني فاسكت واعود غداً حيث اتيت .

فاعتذر خضرته عن التأخر بما لديه من كثير الاشغال ، واعاد الكلمة التي وقفنا عندها في المقابلة الاولى عندما دخل الزائرون — هل عندكم كلام مضبوط ؟ فقلت : غير ما توجبه الوطنية العربية وتثبتة المشاهدة لا نسمعكم ان شاء الله . ولكن قبل ان افيض بالكلام اؤكد لمولاي ان لا علاقة لي البتة مع الانكليز ، ولا علاقة سياسية او تجاريــة مع اميركه ، ولست امثل رسمياً الملك حسين . انا

مندوب نفسي ، رسول فكرة هي بنت علمي ووطنيتي . اما قسطنطين فهو رفيقي بصفة صديق لا بصفة ملازم في الجيش الحجازي . وها هنا اعدت ما قلته في المقابلة الاولى عن الغرض من سياحتي ، ثم قلت : هذه بالاختصار خطتي في السفر . فاذا ساعدتموني في تحقيقها تعززون يا مولاي مصلحتكم . ما شك احد حتى الان في حبي للعرب واخلاصي لهم . ولا اظن مولاي وانا اصارحه كل المصارحة يشك في ما اقول .

فاعاد حضرته الاعتذار واكد لنا انه مطمئن البال لا يخامره شيء من الريب في حسن قصدنا . ثم قال : واسمعني الان بيت القصيد . فقلت : هما بيتان . الاول ان تتفقوا والانكليز والثاني ان تعقدوا معاهدة مع ملك الحجاز . ينبغي لكم يا مولاي ان تفتحوا البلاد للتجارة وللسياح . لان اليمن لا يحيا ولا ينجح اذا كان لا يتصل بالعالم خارج اليمن اتصالاً حديثاً . فلو عقدتم مع الانكليز معاهدة تجارية ولائية دون ان تمس استقلال اليمن بشيء او تقيد بشيء سيادتكم التامة ، يكون لكم فيها الفائدة الكبرى . واذا علم الانكليز بانكم عقدتم معاهدة مع ملك الحجاز وانكم اتحدتم لتعزيز شؤون البلادين ومصالحها المشتركة، يتسامحون في بنود المعاهدة معكم رغبة في عقدها . سأتجنب في ما اقول التعميم . اني اظن يا مولاي ان اتحادكم والحجاز يساعد في حل مشكل الحديدة على طريقة ترضيكم . بل اعتقد ان الحديدة ، وهي ميناء صنعاء التاريخية والطبيعية ، تعاد اليكم اذا استعضتم عن السيف بالسياسة . استمروا في مفاوضتكم والانكليز اذن واعقدوا المعاهدة او التحالف مع الملك حسين . ولا يخفى على مولاي انه اذا فتحتم بلادكم للتجارة ، وهي من اسس العمران ، فينبغي ان يكون لكم قوة تحافظون بها على استقلالكم وقوميتكم ، بل على سيادتكم التامة ، محافظتكم على الامن والسلم في البلاد . واما عزلتكم اليوم ، فاذا دامت ، تتلاشى فيها قواكم . انكم تبذلون اموالكم وحياة رجالكم في الحروب الدائمة وفي الاستعدادات الحربية التي هي شر من الحرب . ان عندكم اليوم قوة مسلحة يا مولاي وهذا لا يكفي فالامة

تحتاج الى ثياب تقيها من البرد ، والى تعليم يقيها من الجهل والامراض ، والى تجارة تقيها من الفقر والشقاء . ولا تنال ذلك الا بالسلم و بالعلم و بوسائطها الحديثة . لست ممن يدعون الى حرب بين الشرق والغرب و يستبشرون بها ، بل من مبادئي وآمالي ان تتحسن العلائق بين البلادين ، وان تكون العروة الوثقى عروة تفاهم وولاء بين اوروبه و بين العرب على الاقل . واني اشتهي ان تكون البلاد العربية مستقلة استقلالاً سياسياً تاماً . ولكنني اغار عليها من الجهل يا مولاي كما اغار عليها من دسائس السياسة الاجنبية . وما السبيل الى التخلص من الاثنين ؟ انما السبيل القويم في اتحادنا يا مولاي ، في اتحاد ملوك العرب وامرائها اتحاداً لا يقدح بسيادة كل منهم ، ولا يجحف باستقلالهم المركزي التاريخي . اضعفتم انفسكم بالحروب . قتلتم البلاد بالحروب . أفما حان لكم ان تجربوا طريقة اخرى ، طريقة السلم ، وفيها الولاء والاخاء والتفاهم والتحالف ؟ بل فيها الحياة والعمران والعزة القومية .

كان الامام وهو مطرق يصغي لما اقول ، ويهز رأسه مبتسماً من حين الى حين ابتسامة فيها دهش وفيها استحسان . ولما وقفت عند هذا الحد رفع رأسه وقال : كلامك مضبوط . ولكن الادريسي حليف الانكليز وعدونا ، يأخذ منهم المال والسلاح و يحاربنا بها . وهو بيننا و بين الحجاز ، هو المانع الحاجز .

— هو ينضم اليكم عندما تتحدون . لا يقف الضعيف عدواً بين قوبين .

— ولكن الانكليز يساعدونه .

— الانكليز يا مولاي لا يستمرون على مساعدة الضعيف اذا استقوى خصمه الى حد ادعوكم اليه — الى حد فيه تتم المحالفة اليمانية الحجازية . فهم اذ ذاك يغيرون سياستهم او يعدلونها و يسعون في عقد معاهدة ولاء وتجارة معكم كلكم . واي ضرر يا ترى في اتحاد الحجاز واليمن وعسير ، وفي عقد معاهدة ولائية تجارية بينها وبين بريطانيه العظمى ؟ اما الحديدة فتعاد اذ ذاك اليكم

و يسترضي الانكليز صديقهم الادريسي بما فيه توسيع حدوده شمالاً او شرقاً في الجبال . لان بلاده اليوم ان هي الا اساكل متعددة . فهو لا يحتاج الى اسكلة اخرى وعنده اللُحيَّة ومِيْدي وجَيزان والصَّليف ، بل يحتاج الى ارض مخصبة وبلاد في الداخلية تساعد على تعمير الاساكل . اذا تم اتحادكم سهل اذ ذاك تحديد الحدود بين الاقطار الثلاثة .

فقال الامام : ناهي . نحن لا نعادي الانكليز بالرغم عن سياستهم . وقد عهدنا الى وكيلنا العرشي بعدن ان يفاوضهم . ولكن لم تثمر المفاوضات ثمرة حتى الان . هم يماطلون و يسوفون ونحن صابرون .

— لا يسوفون اذا عقدت المعاهدة بينكم وبين الحجاز وعلموا بها .

وكان قد نفد صبر القسطنطين وهو يتحفز للكلام ، فقال مخاطباً الامام : بل يعيدون الحديدة اليكم . واذا ابوا فنحن اذ ذاك نضرب الادريسي من الشمال ، وانتم تضربونه من الجنوب ، فتأخذون الحديدة منه كرهاً وترغمونه فيضطر اذ ذاك ان ينضم الى المحالفة .

لم يقف القسطنطين عند هذا الحد بالرغم عن اشارتي وتحذيري السابق بل امعن في موضوعه الخاص المحبوب ، فشرع يخطب خطبة حربية ساد فيها صليل السلاح الحديثة واصوات الطيارات . فخفت منها على بناء السلم الذي ابنيه . وقد تأثرت من لهجة الرفيق وتهوره ، واعدت بعدئذٍ عليه ما طالما قلته في مواقف شتى . وهو اني رسول سلم لا رسول حرب او ثورة في البلاد العربية . وقد جئتها مبشراً بالعلم والتمدين ، لا بالوحدة العربية وحدود ابن عباس كما يفهمونها في الحجاز .

لا والله . ما جئت لانصر جهلاً مسلحاً واعزز تعصباً يفتخر بوحشيته . نبغي الحرية والاستقلال ، نعم ، ولكننا نبغي المدارس ايضاً والطباعة والمستشفيات ، ونبغي النظافة في المعيشة وفي اللبس وفي البيوت وفي المدن .

ان حضرة الامام بعيد النظر ثاقب الفكرة ، طويل الاناة . فمهما كان من صياح امراء جيشه وتبجحهم — نشتهي عدن — دعنا نزحف على عدن

فتأخذها بعشرة ايام ! — فهو يسير في جادة التؤدة والحصافة . وقد احسست بميل فيه الى السلم اكيد بالرغم عن استعداداته الحربية كلها . على انه كما قلت طماح يحلم حلاً سياسياً باهراً ، و يعد لتحقيقه العدات ، ويجمع الاموال ، الذهب والفضة ، ويخزنها لذاك اليوم العظيم . وان لعدن مرقداً ولا شك في حلمه ، وعَلَماً في محيط علمه ، كيف لا وقد كانت في الماضي زينة بلاده ، ودرة في تاج اجداده . انما هو يعلم ما يعترضه من العقبات . ولكنه لا يعلم على ما اظن ما للامم الشرقية والغربية في عدن اليوم من المصالح التجارية والمالية ، وقد اصبحت من اهم مراكز الاتصال بين الشرق والغرب . سألت احد السادة العلماء : في عدن كثير من الاجانب ، فكيف تعاملونهم اذا اخذتموها . فاجاب سيادته يدفعون مثل اليهود الجزية ! ولكن حضرة الامام ، وهو « الرفيع الجناب الوسيع الرحاب » يسمع كلام السادة وامراء الجيش ويخرج الى الساحة ليسمع شكاوي الناس .

وكأنه سمعنا نئن ، سمع النفس الصامتة تشكو الاسر ، فأذن لنا في ختام تلك الجلسة بالتطواف والتنزه ، وكان يرسل الخيل احياناً لهذه الغاية فيرافقنا بعض الجنود حيث نشاء . بيد اننا ، وان كنا قد سررنا بهذا التعطف الامامي ، عدنا بعد بضعة ايام مرت دون كلمة او اشارة من حضرته الى الريب المؤلم والظنون . وقد كان ظني ، سامحني الله ، ان القسطنطين افسد علينا الامر في خطبته الحربية ، وافقدنا ما احرزناه من ثقة الامام . ومما زاد في الطين بلة ان الرفيق ، ونحن في تلك الحال ، شرع ينظم القصائد في مدح الحضرة الشريفة وفي مدح سيفها ومظلتها وقصورها الخ . فرحت انا ابحث في المدينة عن درياق لسم الجزع والقنوط .

ان حياتنا في صنعاء في الايام العشرة الاولى كانت والحق يقال كادوار من الحمى يتخللها فترات نقهٍ قصيرات . ولم نشفَ الشفاء التام الا بعد ان زارنا ذات ليلة سيد من السادة يحمل رسالة كانت فيها والحمد لله خاتمة الكروب . دخل حضرة السيد يتقدمه جندي وجلس على الديوان بين الرفيقين يحدثنا

بجمال صنعاء الذي يفوق بهاء مصر وجلال الاستانة . ثم انتقل الى عاصمة بني عثمان فعرفنا انه كان نائباً من نواب اليمن في مجلس المبعوثان . ثم الى مصر التي اقام فيها مدة يعالج السياسة و يشم النسيم . ثم الى جزيرة رودس فعرفنا انه كان فيها اسيراً . وبعد هذه السياحة التي اتحف السائحين باخبارها تمهيداً وتعريفاً ، رفع العمامة عن رأسه واخرج من احدى طياتها رسالة من الحضرة الشريفة ، بل خطاً امامياً ، انبأنا بان السيد احمد بن يحيى الكبسي هو مندوب تلك الحضرة الينا ومعتمدها في المفاوضات بشأن المعاهدة . وقد خط الامام الخط بيده ، بالحبر الارجواني ، على طريقته الخاصة ، اي بضعة اسطر منها متنا والبقية على الهامش تحيط بالمتن كالهلال ، وختمه بالحبر الاحمر [1] اما نص خط الاعتماد فهاكه .

بسم الله الرحمن الرحيم

(صورة الختم)

يحيى حميد الدين
امير المؤمنين
المتوكل على الله رب العالمين

الصنو صفي الاسلام احمد ابن يحيى الكبسي حرسه الله . كل المراجعات بيننا وبين الشريف ناصر ثم مع السيد محمد علوي السقاف [2] باطلاعكم . وقد وصل الاستاذ امين الريحاني ورفيقه قسطنطين ومعهما كتاب من ملك الحجاز وظهر لنا من ظاهر كلام الاستاذ ارادة انجاز الكلام والمراد منه البغية المقصودة والضالة المنشودة . فليكن منكم الكلام معهما لتقرر المسئلة على الوجه الكامل ابتداءً وانتهاءً مع لوازمها الذاتية والخارجية اعانة لنا في ذلك . وليكن الكلام مكتوماً من الجميع عن كل احد . واعرضوا هذا عليهما . وقد اعلمنا الحاجب بالاذن لكم بالدخول اليهما والسلام عليكم .

في ٢٨ شعبان الوسيم ١٣٤٠

---

(١) ختم الامام احمر في ايام الحرب اسود في ايام السلم .
(٢) والاثنان تقدمانا في المفاوضات بين الملك والامام بخصوص المعاهدة .

ازال الخط كل ريب باننا مأسورون ، وتيقنا ان الحجّاب في الباب لا يأذنون بالدخول الينا الا من كان حاملاً براءة من الامام . فكان السيد احمد الكبسي اول من حظي بهذا الانعام ، وهو من سادات اليمن المستنيرين المتساهلين الراغبين في فتح كوات في سور العزلة يطل منها اليمن على العالم فيستنشق هواء المدنية دون ان يعرض بنفسه لرياحها الشديدة ومجاريها المضرة . والسيد احمد جسيم وسيم ، بطيء الحركة خفيف الظل ، فصيح الكلمة ، لطيف الاشارة . وله عين في الفتن السياسية ثاقبة اللحاظ ، وعينان في كشف الحقائق التي فيها خيره وخير الامام . اما ما سواها فهو لا يراها ولا يشتهي ان يراها .

جاءنا السيد احمد في اخر شعبان ، وكانت مفاوضاتنا واياه في رمضان فغيرنا من اجله نظام حياتنا ، وما تمكنا مع ذلك ان نباريه في النوم والابطاء . — هذا وقت الفطور يا امين ، ثم وقت القات ، ثم السحور ، ثم وقت النوم ، ثم اوقات الصلاة — ظاهر وماشي ؟ [1] ولا وقت للمفاوضات . ولكني اجيئك الليلة ان شاء الله بعد جلسة القات . فيجيئنا بعد نصف الليل او بين المدفعين مدفع السحور ومدفع الامساك . والسيد الكبسي سيد الزمان ، لا فرق عنده بين الشمس والزبرقان . وكان يجيء حرسه الله والطيب ينتشر من اردانه ، وبقايا القات بين اسنانه ، فيسأل اولاً عن دواء للصداع ، ثم يقرأ بنداً واحداً من المعاهدة ، واذا جار على نفسه يقرأ بندين ، فتدق اذ ذاك الطبول مبشرة بمدفع الافطار ، فينهض السيد مسرعاً الى فروضه ، ولا نراه بعدئذٍ الا بعد ان تتعدد منا اليه الرسل والرسائل ، وفيها من قسطنطين القوافي المحجّلة ومني المخجلة . اجل ، قد عثرت وانا اراجع مذكراتي على ما يلي :

في ١٦ رمضان الكريم .

لقد هيّج فيّ القسطنطين نهمة الى الشعر كانت راقدة . لقد طالما تاقت النفس وتشوقت العين الى شيء يخصني من ذاك العنوان الجليل في الدواوين :

(١) ومعناها في اصطلاحهم افهمت ؟ فهل هي تحريف اظهر لك شيء مما قلت ؟

وقال يمدح فلاناً . ولكني بدأت في النظم وفي الهجاء معاً ، فقلت وانا في صنعاء أهجو سيدي وصديقي السيد احمد بن يحيى الكبسي ، قدوة السادات الكرام ، وأحد اركان مولانا الامام .

صبرت على بطء ومطل من الكبسي   وقلت هو الصوم المطيل لذا الحبس
ولكن ظني قام يشكو جهالتي   ويكشف عما في الوعود من اللبس
فقلت له : مهلاً . فقال : وكيف ذا   وخرنوبه لا شيء فيه من الدبس

الفصل العاشر

المخيّم المنصور

تأثير الدين في الاخلاق — البروتستانيون والكاثوليكيون — الزيود — امام الزيود — الضيافة العربية — رسم الامام — المخيم المنصور — الامام في المخيم — ثباته في العمل — حسن الادارة — كتاب المخيم — الاخصائيون — الامام الشاعر — قصيدة قسطنطين في هجو القات — هياج الشعراء في صنعاء — قصيدة الامام في مدح القات ·

ان للدين تأثيراً في الاخلاق يفوق تأثيره في العقول · فانك لتلقى امرءاً ذا فكرة وقادة ، ونظرة نقادة ، سليم الذوق والعقل ، كبير النفس والخلق في كل اعماله واقواله الا ما كان له علاقة منها بدينه ومذهبه · فتلقاه اذ ذاك سخيف الفكر وان ضن به ، سقيم الذوق وان عالجه بالاعذار وحلو الكلام ، عقيم العقل وان اغرق في الاجتهاد ، قليل الثقة بالناس وان عظم ايمانه بالله · وقد تتفاوت هذه العيوب في الناس تفاوتهم في شدة العقيدة ، وتختلف عرضاً لا جوهراً اختلاف المذاهب وضعاً وعملاً ·

خذ البروتستانيين مثلاً · فانهم بوجه الاجمال اسلم عقيدة واوسع حرية في العقليات من الكاثوليكيين · ولكن في البروتستانية مذاهب تضيق عندها جادة الحياة وتربد آفاق الطرب والسرور · فلا يحب لذلك تقيها ، ولا يرغب في مجلس عالمها ، وقلما يطاق قسيسها اذا كان من الطراز القديم · بين ان رؤساء الكنيسة الكاثوليكية ، وان ضيقوا على العقل وقيدوه ، لا يطفئون انوار اللهو والسرور في جادات الحياة ·

ان الزيود مثل بعض البروتستانيين عقيدة وعملاً · وان امامهم الاكبر في سلوكه الديني واحكامه المذهبية ليذكرني بذاك القسيس المحترم الذي يحمل الانجيل في جيبه والعالم على منكبيه ، فيسعى ، والغم مخيماً فوق حاجبيه ، في نشر كلمة الرب في الناس · الا ان الامام يختلف عنه في انه شرقي عربي يحسن

الضيافة والمؤانسة ولا يحزن اذا ظنك في ضلال عليك ، ولا يقف مبشراً بين يديك .

انك لا تجد في ملوك العرب اليوم من هو اعلم من الامام يحيى في الاصول الثلاثة اي الدين والفقه واللغة ولا من هو اكبر اجتهاداً واغزر مادة منه . وهو اوسع نظراً من بعض ساداته العلماء الذين لا يزالون يعتقدون بسطحية الارض وله ذوق في الشعر والادب فيقضي بعض وقته في المطالعة . بل هو الشاعر الوحيد في حكام العرب كلهم . قد اشرت الى قصيدته المشهورة التي يدعو فيها الى الوحدة الاسلامية وسيطلع القارئ على شيء من رقيق شعره ايضاً .

ولكني الان مثبت ما قلته في تأثير الدين او بالحري المذهب في الاخلاق . ليسمح لي حضرة الامام اذاً ، وان كنت موضوع اكرامه وضيافته ، بالاشارة الى ما يعد نقصاً في الضيافة والاكرام . لم اكن لألمس هذا الموضوع بكلمة واحدة لولا انني احسب نفسي من العرب وانتسب مثله الى قحطان ، فاغار عليه وعلى شريف تقاليد العرب من انتقاد الغرباء جنساً وديناً في مثل هذه الاحوال . فهل يخل بقاعدة من قواعد الزيدية اذا أكل ضيفه الاجنبي ولو مرة واحدة ؟ أوليس « الخبز والملح » من شروط الضيافة عندنا ؟ وهل يقصر العربي في الضيافة او يخل بشروطها ؟ واذا كان الضيف عالماً تلذه مطالعة الكتب ، وخصوصاً المخطوطات القديمة فهل يهدم حضرة الامام ركناً من اركان الدين اذا اطلعه على بعض ما عنده منها ؟

اما اذا استأذنه الضيف باخذ رسمه فيأبى ، ثم يأذن بتصوير الجنود وهم زيود ، فلا اظنه على طول باعه في الاجتهاد يستطيع ان يوفق بين الامرين . الزيدي زيدي جندياً كان او اماماً . واذا كان من تحريم في المذهب او في الدين يختص بتصوير الهيئة البشرية فالتحريم يشمل طبقات الناس كلها . على ان آلة التصوير لم تنجح في ما اباح فلم تصح واأسفاه من صور الجيش صورة واحدة . وقد كنت في ما منع مصراً لاني كرهت ان اعود من صنعاء وليس لدي من طلعة الامام الشريفة غير الذكرى والخيال . فاستعنت بالقليل مما عندي

من فن التصوير واغتنمت الفرصة ذات ليلة كنا في ديوانه وكان هو يشتغل فدرست وجهه ورسمت عندما عدت الى المنزل ما حفظت منه فكان الرسم الذي تراه صادقاً بشهادة من عرف الامام ٠

العفو يا مولاي ٠ اننا في زمن ادبي فني يحل الرسم فيه غالباً محل الكلام ، وله في احوال شتى المقام الاول ٠ فضلاً عن ان الناس غربيين كانوا او شرقيين يرغبون في مشاهدة عظام الناس ٠ فاذا حرموا ذلك فلا يحرمون ، بفضل الرسامين والمصورين ، رؤيتهم في الكتب والمجلات ٠

وان كاتباً يتشرف بمشاهدة احد كبار ملوك العرب ليقصر في واجب التصوير ، كلمة ورسماً ، اذا كان لا يصفه في ديوانه ٠ وديوان الامام يسمى « المخيم المنصور » وهو يشتغل فيه كل يوم كأحد كتابه بل اكثر من كل كتابه ٠ ها هو جالس على الفراش الاسود فراش الملك وفراش الادارة ، في فمه « تخزينة » مضغة من القات ، وعلى رأسه عرقية نسيجها اسود يتخلله خيوط صفراء ، وقد نزع سيفه وبردته وعمامته كما ينزع احد الغربيين القبعة و« الساكوه» تجرداً للعمل - كأني به اميركي كبير يفوز في كل اعماله وهو جالس الى منضدته يملي على كاتب سره ٠

اجل ، ان الامام يحيى هو الملك العربي العامل بثبات ونشاط وادارة قلما تجدها في زملائه ٠ ديوانه بسيط ، قريب من الارض ، لا رفعة ولا ترفع فيه ٠ يجلس متربعاً وامامه منضدة صغيرة وحبر وورق واقلام ٠ ويجلس الى يمينه كاتبه الاول القاضي عبدالله العَمْري ، والى يمين القاضي عبدالله ثلاثة من الكتاب رؤوسهم فوق ايديهم ، وايديهم على ركابهم يكتبون ، وقبالهم من زملائهم ثلاثة اخرون ٠ وفي وسط الديوان جنديان جالسان امام الامام ، بيد احدهما الختم الامامي والمحبرة الحمراء يختم الرسائل والخطوط والاوامر التي تدفع اليه ، وبيد الثاني رزمة من القات ينتخب منها اوراقاً يقدمها لسيده الاكبر ٠

يُفتح الديوان في شهر رمضان مثلاً الساعة الثامنة مساء فيجيء جندي

ببريد اليوم ، بعرائضه ورسائله وتقاريره ، و يضعها امام القاضي عبدالله موزع الاعمال ومديرها . فيفضها فضيلته ، وهي كلها لفافات كالسواكير صغيرة و كبيرة ، و يقرأها واحدة واحدة ، و يأمر هـذا الكاتب او ذاك بالجواب على ما يستطيع البت فيه دون الامام . ثم يقدم له ما يستوجب النظر الامامي فيأمر بما يجب في شأنها ، وهو يطلع على ما يكتب في الديوان ويعلق عليه بحرف ه اثباتاً ، او بكلمة سلام ، وغالباً يؤرخه بخطه ، ويدفعه اذ ذاك الى مأمور الختم فيختمه و يرمّله ، ثم الى من يلفه لفافة و يكتب عليها اسم صاحبها .

الديوان الامامي او المخيم المنصور مفتوح دائماً لبعض السادة يدخلونه دون استئذان فيسلمون و يجلسون و يسكتون ، اما الرجل الوحيد المباح له الكلام والصياح فهو الحاجب في الباب ، وكثيراً ما كنا نسمع صوتـه ولا نرى وجهه — الوجع بكبدك قلت لك الامام مشغول ذا الحين ... ناهي ، ناهي .. جوابك تحت الختم ... البلا بروحك ظل مكانك ... اسكت يا يهوده ، البرص يعميك . اسكت ... « أ » در له البندق يا آنسي ... على رأسي . حسن الحرازي يا سيّدي . — لينتظر . — هو يشتهي السفر ذا الحـين . — لينتظر . — يقول ان العامل ... فيحتدم الامام غيظاً ويصيح مثل حاجبه و به — ضرب الله بروحك اسكت . اخرج !

وعند الامام يحي اخصائيون يستشيرهم و يستعين بهم . هـذا السيد احمد الكبسي المقدم الاول ، العالم بشؤون العشائر واطماع رؤسائها وطغيانهم ، قـد اقترب من الامام وفي فمه « تخزينة » عامرة ليهمس كلمة في اذنه . وهذا السيد محمد زباره امير القصر ، قصر غمدان ، ومدير السكة والسجن فيه ، يطالع استدعاء طوله ذراعان ملصوقة اوراقه بعضها ببعض . وهـذا « جرجي » ابو الخرطوش يعيد النظر في رسوم قنابل رسمها ولا يستطيع صنعها في صنعاء قد جئنا امام فراش الملك ورائحة الخمر تفوح من فيه . — وكم يلزمنا من هذه ؟ فيجيبه الامـام : الف . — ومن هذه ؟ — الفان . — ومن هذه لمدفع الهاون ؟ — خمسمئة فقط . ثم يكتب الامام الطلب بيده ويدفعه الى راعي الختم فيختمه و يرمّله .

وهوذا شيخ الاسلام يدخل محني الرأس فلا ينظر الى احد ولا احد ينظر اليه ، فيتبوأ مجلسه في الزاوية و يأخذ كتاباً مخطوطاً يقلب في صفحاته ، فلا يتبرع برأي او يتلطف بكلمة الا نادراً . وهذا — قد انتصف الليل — احد الموظفين في دائرة السلك « التلغراف » جاء برزمة من ثمار سلكه فيفضها القاضي عبد الله و يقدمها بعد ان يطالعها للامام . هكذا يستمر العمل الى ما بعد نصف الليل والامام ثابت فيه جالس لا يتحرك ، الا انه يقف هنيهة من حين الى حين فيضع القلم جانباً و يتناول غصناً من القات بيده او يشرب جرعة من الماء و يتلمظ هاتفاً : والحمد لله .

بين الساعة الواحدة والثانية بعد نصف الليل تدق الطبول ثم يطلق مدفع السحور فينهض الكتاب واحداً بعد الاخر و يخرجون متسللين دون استئذان . اما الامام وكاتبه الاول فيثابران على العمل حتى الساعة الثانية وبعدها . ذلك لان من مبادئه ان لا يؤجل الى الغد ما يستطيع انجازه في يومه . بل من قوانين الديوان ان لا يؤجل الى الغد شيء من امور اليوم ، فيجب ان ينظر في كل ما يرفع اليه في اليوم الواحد . لذلك ترى الامام وكاتبه الاول الاخيرَين غالباً في الخروج من الديوان .

والامام يحيى ، على ما هو فيه دائماً من اشغال الملك وهموم الامامة ، يستطيع حتى في رمضان ان ينظم الشعر . اجل ، قد نظم قصيدة يدافع فيها عن القات ، وكان الداعي الى ذلك ما أوحي ذات يوم بواسطتي تحت شجرة الجوز الى الرفيق قسطنطين . قلت : يا قسطنطين ، قد طفحت صنعاء بخمر قصائدك ، وكلها مديح وتباريح . فما نجا احد ، حتى ولا ولد الساقية ولا مدفع رمضان ، من قوافيك العسلية . فلماذا لا تغير النغمة والحنان ، وتستبدل القيثارة بالسندان ؟ اني مشتاق الى قصيدة هجو منك . فاجاب الرفيق : اتريد ان اهجوك ؟ فقلت : انك تفعل كل يوم وقد اصبح هجوك اياي مثل مدحك الامام مبتذلاً . فقال : أتريد ان اهجو الامام ونحن ضيوفه ؟ فقلت : اشتهي ان اسمعك هاجياً . اهجُ — اهجُ — ولم ادرِ اذ ذاك ما يستحق في تلك البلاد التخصيص والتفضيل .

ولكنني سمعت صوتًا في الجوزة يقول : لينظم قصيدة يهجو فيها القات ٠

فنهض الزعيم الشاعر في الحال و بادر الى القلم والسيكاره ، وجلس في البستان ، ثم قام يتمشى حول الشاذروان ، ومنه وثبًا الى الديوان٠وبعد ساعة في الزاوية والعرق يتصبب من جبينه الملتهب ، قام والقصيدة بيده يكرمني ، يجربها فيّ على عاداته :

القات فيه عجاب كما يقول الصحاب
درّت به الشاة لما ان طاردتها الذئاب
ذاقته فاستعذبته وسال منهـا اللعاب

الى ان قص القصة التي يروونها في اليمن ٠ اضاع الراعي شاة من غنمـه فراح يبحث عنها فرآها نائمة في فيء صخرة وورق القات في فمها ٠ فجربه مثلهـا فاستعذبه

و أمسى يجمع منـه حتى تملّى الجراب
مشى يحدث عنـه وفي الحديث الصواب
فصـدقوه وذاقو — هُ مثله واستطابوا

و بعد ان يصف كيفية استعماله في اليمن و يعدد الفضائل التي يرونها فيـه يضع القيثارة جانبًا و يرفع المطرقة فوق السندان :

ما نفعه انبئوني هل عند شخص جواب ؟
جربته واختباري يجدي بـه الاسهـاب
تنتاب جسم الفتى قشـعريرة والتهـاب
وفيه يفعل ما لا يقوى عليـه الشراب
والصدر فيه من الوخـز والعـذاب حراب
والنسل يضعف منه ما في كلامي ارتيـاب
لا نفع في القات لكن فيه الشقـا والعذاب
وتزهق النفس منه والقلب والاعصـاب
والجفن يذبل حتى يغشى العيون سحاب

وسؤ هضم وقبض منـه يغيب الصواب
والراس يثقل وطئاً وبالدوار يصـاب
ويعتري بعد هذا المفـاصل الاضطراب

ثم التاريخ ولا بد منه في قصائد القسطنطين ، لانه اشد من عرفت من الشعراء شغفاً به ، واسرع في نظمه . وقد اقترن المعنى بالصناعة في تاريخ هذه القصيدة اقتراناً طبيعياً ، وفيه الضربة القاضية :

لم يبق ارخت ريباً القات للقتل باب
في ٣ رمضان سنة ١٣٤٠

اما النفحة الثانية من جنان الوحي فهي اننا رفعنا القصيدة الى حضرة الامام مشفوعة بكتاب نقول فيه اذا كان احد من شعراء صنعاء يبغي المعارضة والدفاع فليسرع قبل ان يرحل الشاعر . وكان اسبوع في عاصمة حمير والاذواء أضرمت فيه نار القوافي فوردت علينا المحرقات منها المهلكات . اجل ، قد جاء احد الشعراء وقصيدته في خنجره يشتهي دم الشاعر الكافر الذي تجاسر ان يذم القات وما ذمه ، وهوذا ذنبه الاكبر ، بغير المبتذلات الشعرية والركاكات . فاوقفه لحسن الحظ الحارس ولم يأذن له بالدخول . وبعد بضعة ايام جاءنا من المخيم المنصور ، من الامام نفسه ، كتاب في غلاف مختوم ، على غير العادة اليمانية ، ففضضناه فاذا فيه قصيدة من نظمه وبخطه الشريف وفي القصيدة خلال الدفاع عن القـات من الغزل والدماثة والاتضاع — تلك روح الشاعر الحقيقي — ما يزيد النـاظم رفعة ومجداً ، ويزيد المعجبين به حباً واعجاباً . ومـا اجمل العذر والتواضع في الكلمة التي ذيل القصيدة بها .

الزعيم قسطنطين .

صدر ما يشبه الجواب ، ومهما رأيتم قصوراً فلا عتاب ، مع كثرة الاشغال وتبلبل البال .

قال في مطلع القصيدة ، نفعنا الله بمزاياه الحميدة ، ان للقات مزايا لا يحصاها الاسهاب ، فيذكر عشراً منها فقط :

فللعيون جلاء   للضعف منه ذهاب
وللثغور صباغ   زمردي يذاب
أحسن بثغر مليح   له المذاب رضاب
يا ما احيلاه ظلما   تشفى به الاحباب
وللنفوس مريح   وللنشاط انجذاب

. . .

ويشحذ الفكر حتى   يخاف منه التهاب
ويطرد النوم عن من   له الجليس كتاب

في البيت هذا يظهر حضرة الاديب العالم في الامام فيقرّبه من كل من آثر الكتاب جليساً . الى ان قال :

اما الذي قاله قسطنطين   فهو سراب
اليس من جاوز الحد   اكله والشراب
يكون عرضة خسر   ويعتريه اكتئاب
والاكل والشرب ما لا   به الكرام تعاب
وانما العيب اسراف   منه يبدو العجاب
هذا الملفق يا قسطنطين   منا جواب
يُهدى اليك عليه   من الحياء نقاب
لانه ليس كفؤاً   للدر وهو تراب
فاستر ملفق يحيى   فالستر فيه ثواب

ان في الابيات الاخيرة من الدماثة والخفة والتواضع ما يستحب في اصغر الشعراء واكبرهم . فكيف به في احد كبار الحكام والامراء ؟

الفصل الحادي عشر

الزيود واليهود

منزلنا بيت الصلاة — الوفد الافرنسي — ماء الوضوء — الصلوات والبصل — المتداوون — الخنازير النصارى — الحارس احد يهتدي — السيد والهجري — ظلم السادة — حزام واليهودي — قاع اليهود — السيد محمد يعدد الواجبات — وكلها من اجل اليهود وسعادتهم — يدفعون الجزية راضين — الزيدي واليهودي في حب المال واحد — رسائل اهل اليمن — لا يستعملون الغلافات — حسابات وزير المالية — الصراحة والايجاز — الاسلوب التركي والاسلوب العربي ٠

هيوا على الصلاة ! هيوا على الفلاح ! وكان المؤمنون يجيئون الى منزلي يصلون ٠ الحاجب والحارس والسيد والخادم والعشي والبستاني وولد الساقية الذي يغني لجمله من الشروق الى الغروب : صدر البُنْيَة بستان وانا زرعته ، كانوا كلهم يجيئون خاشعين فيتوضئون في بركة الشاذروان ، و يفرشون حولها في ظل شجرة الجوز بردة او احراماً ، ويصلون صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب وصلاة المساء ٠ ما عرفت ولا رأيت اناساً يصلون مثل هؤلاء الزيود ٠ وما سمعت ولا قرأت في التاريخ عن اناس كانوا يصلون مثل هؤلاء الزيود ٠ ولا اظن ان صلاة تصعد من فم بشر فتذهب كالهباء المنثور مثل صلوات هؤلاء الزيود ٠

كان في البيت ازاء بيتنا الوفد الافرنسي الذي وصل الى صنعاء يوم كنا هناك ، و كان احد الخدم يجيء ليأخذ لهم ماء من الشاذروان ، فسألته مرة : لمن الماء ؟ فقال : للخنازير النصارى ٠ فقلت : أليس في بيتهم ماء للغسل ؟ فقال : هم يشتهون الماء للشرب ٠ فقلت : اتسقونهم من هذا الماء ، من ماء الشاذروان ؟ فراح يحمل الجرة ويقول : خنازير نصارى لا يستحقون احسن منه ٠

ويجيء هذا الزيدي فيتوضاء في البركة ثم يفرش بردته تحت اغصان الجوز ويتجاسر ان يخاطب « الرحمن الرحيم ، ٠٠ رب العالمين » ويضرع اليه ليهديه « الصراط المستقيم » ٠ و يجيء البستاني كل يوم فيفتح بركة الشاذروان ليفرغها

فتجري مياهها في بستان مهمل ، ارضه طيبة ، لم يزرع فيها الا شيء من البصل واللوبياء والبرسيم . كنت دائماً عند ما ارى البستاني في عمله وفي صلاته آسف على الماء الغزير الذي يكفي ليروي حقلاً وسيعاً ولا يستخدم الا لري ثلم من البصل ، وعلى الصلوات الفائضة التي لا تروي في قلب الزيدي غير حقل زرعه البغض والتعصب .

اي اخي الزيدي ، ما الفائدة من الصلاة وليس في قلبك غير البغض ؟ ، بغض العالم خارج اليمن ، و بغض الخنازير النصارى ، وبغض اليهود في بلادك ، حتى وبغض الشوافع اخوانك في الاسلام . ان صلواتك وماء الشاذروان سواء . وان في الاثنين بركة و بركات لو نشطت ، وعقلت ، وكنت كريماً . فلا تضيع اذ ذاك ماء بلادك في الارض البور ، ولا تسقي ماء وضوءك الناس ، ولا تسمع ربك كلمات التجديف في معرض الخشوع والابتهال .

جاءني ذات يوم الحارس احمد وفي عنقه ورم والتهاب . فدهنته بصبغة اليود مرتين فشفي وعاد يشكرني . فقلت يجب ان تشكر الخنازير النصارى لان هذا الدواء اختراعهم ، صُنع في بلادهم . فقال : جزاهم الله خيراً . والله يا امين — ورفع يده ورأسه الى السماء — عينه ترى كل شيء ورحمته تسع كل الناس . ثم جاء آخر وثالث ورابع يحملون اليَّ الآلام من جرح او قرح او التهاب . وكنت كل مرة اعالجهم اذكّرهم بان شفاهم من الله ثم من اولئك الخنازير النصارى الذين اكتشفوا الادوية والمخدرات — بعد ان تعلموا الطب من اجدادكم يا اجهل العرب — ليزيلوا الامراض ويخففوا الالام البشرية . وكانوا ، وقد جاؤوني زيوداً ، يرجعون مسلمين الى الديانة السمحاء التي يقول صاحبها : الانسان اخو الانسان احب او كره .

ولما عاد خادم الافرنسيين ليأخذ الماء من الشاذروان انتهره الحارس احمد وهزَّ له العصا . — والله بالله اذا سقيتهم من الشاذروان اشكوك الى الامام . ما سررت والله بشيء في صنعاء سروري بعصا احمد وكلماته . فقد برهن الانقلاب السريع في نفسيته ونفسية اخوانه في الزيدية وفي الاوجاع على ان بذرة الصلاح

التي زرعها الله في قلب كل انسان لا تزال طيبة في قلوبهم ، ولا تحتاج الا الى عمل او كلمة او اشارة تحرك فيها الحياة ، وترويها بماء المكرمات . اما التبعة في رقاد تلك البذرة وخمودها فعلى السادة الذين لا يرغبون في تعليم عامة الناس . واذا علموهم شيئاً فمزيجه الاكبر التعصب والطاعة للرؤساء .

لا يزال للسادة في اليمن حقوق في الارض وفي الرجال شبيهة بحقوق ذوي الاقطاع Feudal Lords في اوروبه الا ان لا عبودية فيها . هم يقولون : هؤلاء قوم فلان . او القبيلة الفلانية هِجْرَتنا[1] اي في حمايتنا ، وهذا الرجل هِجْري فمتى كانوا كذلك فالعلم من وجهة اسيادهم قلما يفيد . اذكر كلمة قالها لي احد الجنود في الطريق وكان رفيقنا سيد يلبس حذاء ضغط على رجله فنزعه ومشى حافياً . دنا الجندي من مطيتي وقال بصوت خافت : كل الناس في اليمن ما عدا السادة فقراء . والسيد طاع كسلان متكبر . هذا المثل — واشار الى السيد قدامنا — وهذه اعمالهم — واشار الى حذاء السيد الذي كان يحمله — يحملني حذاءه .

وليس النصارى في مذهب الزيود وفي جهلهم احق من اليهود بالكره والاحتقار . كان الجندي حزام ، احد من مشى معي في المدينة حراسة واكراماً

(١) جاء في الحديث : من كانت هِجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها وامرأة يتزوجها فهجرته الى من هاجر اليه .

حاشية ثانية : جاء في حاشية الطبعة الاولى ان هذه الكلمة من القرآن ، فكتب يصلح الخطأ عالمان فاضلان الواحد افرنسي باريسي والثاني عربي نجفي . ولكنت وقفت عند شكر العالمين او لم يكن اسلوب كليهما في النقد يستحق بل يستوجب هذا التعليق .

كتب العلامة المستشرق لويس ماسينيون كلمة عن « ملوك العرب » في مجلة العالم الاسلامي الافرنسية واردفها بهذه الحاشية : في الصفحة ١٦٨ من الجزء الاول نقل المؤلف كلمة قال انها من القرآن فيجب اصلاحها .

وكتب العالم النجفي مقالاً طويلاً بليغاً في عمود كامل من الجريدة فوبخني توبيخاً وشتمني شتماً وذمني ذماً لا يليق من مثله بمثلي لاني خلطت بين القرآن والحديث ولم اميز بينهما .

اني مذنب يا حضرة الجهبذ النقريس . ولكني اتعزى بان لي في الذنب شريكاً كبيراً من كبار العرب المسلمين فقد قال العلامة ماسينيون في حاشيته : ان الملك حسيناً نفسه يغلط احياناً في الايات ويخلط بين القرآن والحديث . راجع العدد ١٤٥ من جريدة القبلة والعدد ٤٧ صفحة ١١ من مجلة العالم الاسلامي .

من قبل الامام ، يضرب بقبضة بندقيته كل يهودي يمر به . — ابعد يا يهودَه ضربك الله بروحك ! زادك الله عماوة يا يهوده ، اخل السبيل ! وقد لا يكون المسكين في الطريق . ولكن حزاماً وهو شغف بحب اليهودي يراه على مسافة قادماً نحونا او ماشياً بعيداً عنا فيبادر الى ملاقاته بالبندقية واللعنات ، وهو يظن انه يرضيني بذلك. ثم يبصق عليه ويهتف قائلاً : لولا الامام . بلى ، لولا عدل الامام لكان يذبحه ذبحاً . فهددته مرة ، وكان قد نفد صبري عليه ، اني اشكوه الى حضرة الامام اذا استمر يفعل هذه الفعلات . فصار بعدئذ اذا رأى ذا السوالف قادماً في جهة من الطريق يسير هو في الجهة الاخرى . واذا مرَّ به اتفاقاً يميل بوجهه ساكتاً صابراً كأنه لم يرَه .

وكان السيد محمد ، رفيقنا من ذمار الى صنعاء ، احد الاماجد الذين لا يتجاوز عددهم الستة المأذونين بزيارتنا ، الحائزين على ذا الانعام من حضرة الامام . فاستصحبته مرة الى قاع اليهود اي حيهم وهو مدينة معتزلة بينها و بين بير العزب ساحة كبيرة مثل ميدان الشرارة الكائن بين صنعاء وبير العزب . فزادني بذوي السوالف علماً و بالامام يحيى اعجاباً .

حدثني السيد محمد قال : يجب على اليهود يا امين ان يرسلوا السوالف كي لا نظنهم منا اذا شبت الحرب بيننا نحن العرب فنذبحهم خطأ . ويجب عليهم ان يركبوا الحمير فقط لانهم لم يتعودوا ركوب الخيل . والسلامة يا امين قبل الفخامة . ويجب عليهم ان يرفعوا الزخارف[1] من المراحيض ويجوز لهم المتاجرة بها فيزيد مالهم . ويجب عليهم في بناء بيوتهم ان لا يتجاوزوا الطابقين علواً فيسلم اليهودي اذا وقع عن سطحه . ويجب عليهم دفع الجزية كي لا ينسوا اصلهم وجنسيتهم يا امين فيذكروا دائماً شريعة النبي السمحاء وفضله عليهم . ويجب عليهم اذا شتمهم المسلم و بصق عليهم ان يشكوه حالاً الى الامام فيأمر المدعي بذبح فدان . فاذا ثبت الذنب دفع المسلم ثمن الفدان واخذ اليهودي نصفه . وكثيراً

(١) هو من باب تسمية الشيء بضده . واليهود في صنعاء يرفعون « الزخارف » و يبيعونها من اصحاب الحمامات ، فيستخدمونها في الوقود .

ما يتمنى اليهودي الشتيمة طمعاً بنصف الفدان · ولا نجيز لليهودي التملك الارض لنا والبيت له مدة من السنين محدودة ، تسعة وتسعين سنة · ولا يخفى عليك ما في هذه الشريعة من التساهل والرحمة ، ونجيز لهم ان يصنعوا النبيذ فيشربون · ولا يبيعون غيرهم فيحزنون · ونجيز لهم كذلك ان يعرضوا علينا بناتهم فنستخدمهن في بيوتنا ، وندخلهن حريمنا ونمنح من يستحق منهن نعمة الاسلام ·

اما اليهود فهم راضون بهذه الحال · هم راضون شاكرون ما دامت الجزية وهي تافهة تخلصهم من التجنيد · وهم لا يزالون منذ عهد نجران الزاهر على عاداتهم وتقاليدهم ودينهم الذي يلقنونه اولادهم باللغة العبرانية القديمة · فلم يدخل عليهم من جديد ، او بالحري من غريب ، غير لقب حاخامهم الاكبر الذي منحه اياه الترك ، فهو لا يزال يدعى حاخام باشا ·

قلت انه لم يكن احد ليدخل منزلنا الا باذن من الامام · ولكن يهودياً كنت قد اشتريت منه في السوق بعض النقود الحميرية واوصيته على غيرها ، ادهشني ذات يوم بوقوفه فجأة امامي في الديوان · فظننت ان الحارس حزاماً نائم او غائب ، والا فكيف يأذن له بالدخول · سألت اليهودي فقال : هو في الباب · فقلت : ألم يرك داخلاً ؟ فاجاب بالايجاب وسكت · فأشتريت منه ما اشتريت ودفعت المال فزال اذ ذاك العجب · مشى اليهودي مسروراً والمال في جيبه حتى وصل الى الباب فأوقف هناك ، فرأيت اذ ذاك حزاماً ويده على تلابيبه والبندق مرفوع باليد الاخرى ، ورأيت اليهودي ويده في جيبه يخرجها ويقاسم الزيدي ما قبضه مني من المال · الا اني لم اتحقق مصدر الفساد والخلل · ولولا علمي بتفوق الزيود واحتقارهم اليهود لقلت ان ذا السوالف زشى ابا النيل ليأذن له بالدخول والمتاجرة ، وقد يكون ذلك ، ثم رفض ان يدفع ما وعد به ، فقبض ابو النيل على عنقه وابتز منه ليس نصف الربح بل نصف المال كله · وقد يكون الزيدي في تغاضيه عند ما دخل اليهودي ، نصب له الشرك الذي وقع بعدئذٍ فيه · كأنه قال لنفسه : القنص للقناص · ليربح من ضيف الامام وانا اربح منه · ان بيت الاول من زجاج مصبوغ ، وبيت الثاني من زجاج بسيط ·

الواحد يحب المال ، والثاني يشتهي « الظلّط » وهل في حب المال ما يستنكر ومولانا سيد المحبين ؟ وهل في الاقتصاد ما يستقبح وهو في علم الاقتصاد الاستاذ الاكبر ؟

اظن ان الامام يحترم اليهود و يحميهم ويقيم فيهم العدل فيأمر بذبح الفدان اذا اهينوا ، لانهم المثال الحي لما هو عنده من قواعد الحياة في مقام الايمان . المال ، المال ، والاقتصاد بالمال . فاذا كان اليهود في عهده آمنين مطمئنين وفي تجارتهم ناجحين ، فالزيود وقد حرمهم « الظلط » امسوا من امهر الاقتصاديين . والناس على دين ملوكهم .

ان اول ما شاهدت من مظاهر الاقتصاد المدهشة في اليمن هي طريقتهم في المراسلة ورفع العرائض . فلم ادرِ ما تلك القصاصات المكردسة التي رأيتها لاول مرة امام منضدة امير الجيش في ماويه الا بعد ان وصلنا منه ، ونحن في اب ، برقية مكتوبة في ادارة السلك على شقة من « كابون » الدولة العلية . ثم وصلنا ونحن في ذمار من عامل اب برقية اخرى مكتوبة على قصاصة من معروض بالتركية مرفوع الى جناب قائمقامية حراز العالي . فالامام يحيى الذي غنم من الترك المدافع والسلاح احتفظ بما تركوه من الاوراق والدفاتر والكابونات والمعاريض ولم يأمر بتقطيعها و باستخدامها في ادارة السلك فقط بل في دوائر الحكومة كلها حتى وفي المخيم المنصور .

انه ليندر استعمال الغلاف في اليمن الا في المراسلات الرسمية الخارجية . اما في البلاد و بين اهله فالغلاف هو الرسالة والرسالة هي الغلاف . يجيئك الرسول بلفافة صغيرة مثل السيكاره فتفكها فاذا هي رسالة من حضرة الامام وقد تكون بخطه الشريف ، فتقرأها ثم تنظر في ما لها من هامش فتقطعه وتجاوب عليه ، وتلف الجواب سيكارة وتعيدها مع الرسول . واذا اسرفت في الورق واضعت مقدار ختمٍ منه دون ان تسوّده توبّخ على ذلك ، وقد تعزل اذا كنت موظفاً في الحكومة . اما اذا جاءك كتاب في غلاف فتشقه وتستعمل ظهره للمراسلة . واذا كانت الرسالة من صنوٍ وهي على قدر بطاقة الزيارة تعيدها اليه والجواب في المكان الابيض منها ، سطراً كنعلة الفرس او سطرين كخط المابين .

ومن المستغرب المستعذب ان بعض الناس يرفعون شكاياتهم نظماً في بيت او بيتين من الشعر. ومما قرأته من هذه الشكايات سطران من انسان يشكو حمار جاره في شهر رمضان المبارك . فهو يلبط وينعق كثيراً في الليل . فصدر الامر الى صاحب الحمار ان يقيده ويشكمه بين مدفعي السحور والافطار .

جاء السيد علي زباره يزورنا ذات يوم رسمياً وقد كان يزورنا كل يوم كمدير التموين والضيافة . فاغتنم فرصة وجوده عندنا ليراجع ما تكردس على رأسه — ومكتبه ايها القارىء على رأسه — من الرسائل والحسابات . فنزع عمامته البيضاء وشرع يخرج من طياتها القصاصات المشهورة ، فيقطع القسم الابيض منها ويعيده الى مكانه ثم يمزق الباقي . ومن الرسائل التي اطلعنا عليها ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

علاء الدين قد وافيت ارجو ريالاً في ريال في ريال

فسمن والحبوب وما سواها لشهر الصوم فالمصروف غالي

ثم اطلعنا على قصاصة من حضرة الامام يأمره بدفع مئتي ريال الى احد العمال . فقلت له : أتمزق هذه ايضاً ؟ فكان جوابه ان مزقها وهو يقول : اذا دفعت الفي ريال لا أسأل عنها . فقلت : وقد ينسى الامام فيسألك ان تبرز الامر فاجاب قائلاً : لا ينسى ولا يسأل . فعجبت لهذه الصلة ، صلة الثقة والامانة ، النادرة في حكومات المتمدنين ، بين الحاكم وناظر ماليته .

تلك اللفافات وفيها الشكايات نظماً ونثراً ، اني لا ازال اذكر منها رسالة جاءتني يوم سفرنا من احد الحراس يقول فيها ، بعد ان رفعني الى الجوزاء وتركني هناك ، ان القات في شهر الصوم غال جداً وان الله لا يخيب امله « بامير المحسنين العزيز امين » . وما اغرب ما ترويه هذه الرسائل واحزن ما تفشيه ، وفيها شكوى البارح وراء شكوى اليوم ، وبين الاثنين او على هامشها بياض يسوده الغد بما قد يكون ابعد غرابة واشد حزناً .

ان الاقتصاد فضيلة . ولفضيلة الاقتصاد بالورق في اليمن شقيقة اجمل منها ، الا وهي الاقتصاد بالكلام . انعم بتلك الصراحة والايجاز ، وبما يوجبه الايجاز

من اهمال الالقاب وعبارات التبجيل . أو ليست الصراحة والايجاز والخطابة البتراء من مزايا العرب المشهورة ؟ ولكنهم في ما دخل من بلادهم في حكم الاتراك كالحجاز مثلاً و بعض نواحي اليمن وعسير ، امسوا اتراكاً في ما يكتبون ، وفي الكثير مما يقولون و يفعلون .

اما في اليمن الاعلى ، في غير الرسائل الرسمية ، فلا يزالون من العرب العرباء . الا انهم اذا كتبوا الى امير او حاكم او سيد خارج اليمن فلا الترك عندئذ ولا العجم يفوقونهم في فخامة الالفاظ وضخامة الالقاب . وهاك مثالاً من تباجيلهم . اذا كان المخاطب اميراً قالوا : قدوة الامراء الكرام ، وعمدة النجباء الفخام ، عالي المجد والمقام ، فخر العرب والاسلام.... واذا كان اماماً قالوا : خلاصة الاطهار الامجاد ، وروضة المجد الرفيع العماد ، قرة العين والكمال ، عنوان الاعتبار والجلال ، الركن الاسند والسند المستند ... واذا كان سيداً بسيطاً قالوا : ذي الاخلاق الزكية ، والشمائل المرضية ، الهمام المقدام ، الرفيع المقام ، النقي التقي ...

على انه يسر كل من يكبر في العرب شمائل الاجداد ان يرى في خطوط الامام الى رعاياه وفي عرائضهم اليه تلك الصراحة وذاك الايجاز اللذين امتازت بهما قديماً خطب الامراء ورسائل الادباء . وعندي فوق ما اشرت اليه نموذج باهر في رسالة من صديقي السيد احمد الكبسي على قصاصة من الورق صغيرة . قال حجب الله عليه : لا عتب على صديقكم فالليلة هذه نتم الامور والسفر يوم الاثنين ان شاء الله . وسأحضر اليكم الساعة السابعة غداً .

لكن الامور لم تتم تلك الليلة ، ولا السفر كان يوم الاثنين ، ولا شرّف الصديق في الساعة السابعة او العاشرة من ذاك الغد . الا انه جاءنا في اليوم التالي والطيب ينتشر من اردانه ، « والتخزينة » بين اسنانه ، « وظاهر وماشي » تتمشى في بيانه ، فقال : انا مسرور لان حضرة الامام اذن بان تتعشوا عندي . فالى مساء الغد يا امين الى مساء الغد يا قسطنطين . وراح يشكو الصداع ويداويه بالقات و بالآيات .

الفصل الثاني عشر

المسئلة السياسية الكبرى

كابوس الحديدة — وعد من وعود الحرب — الترك والامام — الترك والعرب بعد الهدنة — تسليم الترك في لحج — اخراجهم من الحديدة — احتلالها — احتجاج الامام — جواب الانكليز ووعدهم — تسليم الحديدة للادريسي — سياسة الانكليز العربية — المفاوضات — بعثة الكرنل جاكوب — عرب القحراء يوقفونها في باجل — الانكليز في الاسر — الامام يسعى في انقاذهم — رجوع البعثة وفشلها — الامام يحمل على النواحي المحمية — احتلال الضالع وغيرها مما في حماية الانكليز — المفاوضات — الهدايا — الدسائس — التسويف والمماطلة — شروط الامام — مقاصد الانكليز ·

الحديدة كابوس الانكليز في عدن وكابوس الامام في صنعاء · هذا يبغيها ولاينفك يطالب بها ، واولئك ، وقد وهبوها صديقهم الادريسي ، يودون لو كان بامكانهم ان يهبوها كذلك الامام · وهناك وعد من وعود الحرب وبعدها يزيد العقدة شدة في دار الاعتماد بعدن · وما العمل ؟ ايمكننا ان نقسم المدينة بين الامامين ، الامام الزيدي في اليمن والامام الشافعي في عسير ، فننجو من الكابوس · أوَ يستطيع الامام الاكبر ان يضغط على الانكليز في جنوبي اليمن بفيلق من زيوده فيضطرهم ان يسلموا بما يطلبه منهم في تهامه ؟ انما هي مسئلة المسائل ·

الحديدة من المدن العربية المشهورة · كانت في عهد الاتراك وقبله ميناء اليمن الاكبر ، مدينة تجارتها واسعة ، وملاحتها عامرة ، وعدد سكانها يتجاوز المئة الف · وكان الترك ينزلون فيها العساكر لاخضاع اهل اليمن فمدوا منها الاسلاك البرقية الى اعالي الجبال ومنحوا شركة افرنسية امتيازاً بسكة حديد تمد من الحديدة الى مناخه فصنعاء ، فباشرت الشركة العمل بما ارسلته من مواد البناء ، فنشبت نار الحرب في اوروبه فقضت على المشروع وذهبت تلك المواد نهب العربان ·

وقد كانت الحديدة اثناء الحرب العظمى لا تزال في يد الاتراك الذين حاربهم اليمانيون اربعين سنة ، فانتزعوا منهم القسم الاكبر مما احتلوه من البلاد. ولكنهم في تلك الفترة والوا اعداءهم وهم اخوانهم في الاسلام ، فحافظ الامام على المعاهدة التي عقدها معه عزت باشا والتي تقدم الكلام عليها في الفصل السادس وظل معتزلاً السياسة والحكم مقيماً في جبال شهاره. كان يومئذٍ محمود نديم بك والي اليمن ، وعلي سعيد باشا قائد الجيوش المحتلة ، وفي حوزتهما البلاد كلها من لحج حتى صنعاء ومن الأُحيّة على الساحل حتى المخا . اما العرب من شوافع وزيود فقد كانوا على الجملة قانعين بتلك الحال ، راضين عن الترك وسلطانهم منذ المال .

ولما أُعلنت الهدنة سعت بريطانية العظمى باسم الاحلاف في اخراج الاتراك من النواحي التي كانت لا تزال في حكمهم في اليمن الاسفل غرباً وجنوباً . فسلموا في بعضها كلحج دون قتال ، وابوا في الحديدة وملحقاتها الا الدفاع . فجاءت اولاً الاوامر من عدن بالتسليم ثم المدرعات لتنفيذها ، فضربت الحديدة البلد الآمن غير المحصن . فدمرت قسماً منها وقتلت مئات من اهلها ، فهرب اكثر الباقين لاجئين الى الجبال .

سلمت الحامية واحتل عساكر الانكليز المدينة . وكان قد دخل الامام يحيى وقتئذٍ الى صنعاء وسلمه الوالي محمود بك نديم [1] زمام الاحكام في اليمن كله . او بالحري في ما كان في حكم الترك والحديدة طبعاً منها . فكتب الى المعتمد الانكليزي في عدن يحتج على ذاك الاحتلال فجاءه الجواب يقول : اننا دخلنا الحديدة لنحفظ فيها الامن والنظام وسنعيدها قريباً اليكم . وهذا الوعد هو حجة الامام السياسية في المسئلة . اما حجته الشرعية فهي في انتزاعه الحكم من الاتراك وكل ما كان تحت ذلك الحكم من البلاد أُضف الى ذلك حججاً اخرى تاريخية

---

(١) لم يكن في صنعاء يومئذٍ غير ثلاثة طوابير ، وكانوا هناك وقد قطع الادريسي وملك الحجاز وسلطان نجد الاتصال بينهم وبين الشام ؛ في شبه حصار ازدادت شدته في اواخر الحرب .

وتقليدية وجغرافية تثبت حقه وتؤيد دعواه ٠

ولكن الانكليز رغم وعدهم المذكور سلموا المدينة بعدئذ الى صديقهم الادريسي الذي كانوا يمدونه وهو حليفهم بالمـال والسلاح ليحارب الاتراك ، عملاً بمعاهدة بينه و بينهم شبيهة اساساً بمعاهداتهم الاخرى وامراء العرب الذين نصروا الاحلاف ٠ اننا في استقرائنا الحقيقة نسجلها كلها بعد ان نثبتها ولا نخفي جزءاً واحداً منها ٠ والحقيقة كلها هي ان ملوكنا وامراءنا الذين نصروا يومئـذٍ الاحلاف نصروهم لاغراض خاصة ، اغتنموا تلك الفرصة لتحقيقها ٠ فكان الواحد منهم اذا ضرب الاتراك ضربة يذخر من قواه وعدته ليضرب اخاه العربي بعدئذٍ ضربتين وثلاثاً ٠ اجل ، قد استخدم الملك حسين مال الانكليز وسلاحهم على خصمه ابن سعود فـكان من الخاسرين ٠ وحمل ابن سعود على ابن الرشيد فكان من الفائزين ٠ وظل السيد الادريسي بعد الهدنة وبمعاونة الانكليز يحارب خصمه الامام دون قصد يُشكر او نتيجة تذكر ٠

لا نلوم الانكليز اذا آثروا في سياستهم وصداقتهم من ساعد الحلفاء في تلك البقعـة من الارض على من ظل معتزلاً ٠ ولا نلومهم في تفضيل الادريسي على الامام ، وابن سعود على الادريسي ، والملك حسين على ابن سعود ٠ فقـد كانت المساعدة درجات وكان التفضيل كذلك ٠ ولكننا نلومهم لانهم استمروا بعد الهدنة في تلك السياسة المشؤومة التي كان من نتيجتها ان اتسعت الثُلَم بين امراء العرب المتخاصمين ٠ وظلوا بالرغم عن معاهدات هي وضعاً تختص بالحرب العظمى ، يمدون الادريسي بالمال والسلاح ليحارب الامام [1] فاذا تساهلنا في

---

(١) كان الكرنل جاكوب المعاون الاول في دار الاعتماد بعدن عندما عقدت المعاهدة بين الحكومة البريطانية والسيد الادريسي بل هو الذي عقد تلك المعاهـدة مع السيد في جيزان ٠ وقد ذكر ذلك في كتابه ودافع عن حكومته مستشهداً بالمادة الرابعة منها التي تقول : ان حكومة بريطانية العظمى تتعهد بان تحمي سواحل بلاد الادريسي وجزرها من التعديات الخارجية كلها دون ان تتدخل في شؤونه واستقلاله ٠ وقد فسر الكرنل جاكوب مادته بان لا ذكر للامام فيها وانه لم يكن للادريسي من عدو على السواحل يومئـذ غير الترك ٠ هذه حجته في ان الحكومة الانكليزية لم تساعد الادريسي على الامام ٠ وحجتنا في ما يفسد حجته هي واقعة الحال بالذات التي يثبتها هو نفسه في كتابه ٠ فقـد جاء في

تفسير هذه السياسة وتأويلها وانتحلنا لهم الاعذار ، فاننا لا نستطيع الدفاع عن سياستهم الخرقاء في قضية الحديدة .

قد أبرّوا بجزء صغير من وعدهم فخرجوا عسكرياً من تلك المدينة ولكنهم سلموها الى الادريسي واقاموا فيها من قبلهم وكيلاً سياسياً . فضلاً عن انهم في هذا العمل الذي قيدوا انفسهم به وجعلوا الحديدة كابوساً عليهم قد ظلموا اهل اليمن الاعلى اذ سدوا عليهم منافذ البحر وسلبوا صنعاء العاصمة ميناءها الطبيعي التاريخي الشرعي فامست في شبه حصار لا اتصال لها بالعالم الا عن طريق الانكليز الثانية في عدن .

لم تنقطع المفاوضات اثناء تلك الحوادث بين عدن وصنعاء وقد اثمرت ثمرة استحالت بعدئذ حنظلاً . ذلك ان الكرنل جاكوب ، وكان لا يزال المعاون الاول في دار الاعتماد ، سعى لدى حكومته ان تبعث ببعثة سياسية الى الامام يحيي وزين الامر لحضرته فقبل به . وكان الكرنل رئيس تلك البعثة التي دعيت باسمه ، وسافرت من الحديدة في ١٩ آب سنة ١٩١٩ تقصد الى صنعاء . بعثة انكليزية سياسية مؤلفة من مندوبين وطبيبين وتراجمين وكاتب يصحبها خمسة وعشرون من الجنود وعدد من الخدم والمكارين تسير من الحديدة كأنها قافلة تجارة دون ان تستعلم وتتثبت احوال البلاد التي ستمر بها . وقد تكون استعلمت ولكنها خُدعت .

ان في تهامة بين الحديدة وعُبال قبيلة من قبائل العرب المشهورة هناك ببأسها وسطوتها وعزة جانبها . هي قبيلة القحراء التي تحكم فعلاً في تلك الناحية ، عربها من السنيين الشوافع لا يميلون الى الامام ولا يحبون الانكليز بل كانوا يكرهونهم يومئذ لانهم ضربوا الحديدة ودمروها وقتلوا مئات من اهلها ، وقطعوا فوق ذلك موارد المعيشة مدة عنهم . وكان القنصل الانكليزي في الحديدة

صفحة ١٧٨ في كلامه على الادريسي والحديدة ما يلي : قد إستنجد (الادريسي) بحاشد وبكيل وسألنا ان نقدم المال لتجنيدهم . ثم يقول بان الادريسي جند بعض اولئك العرب فاخذوا ماله (وهل هو غير مال الانكليز ؟) وحاربوا قليلاً معه ثم عادوا الى بلادهم .

يدرك ذلك ، ولكنه بشهادة العرب والانكليز انفسهم رجل احمق متصلف عنيد ظن انه يستطيع تأديب القحراء اذا تعرضوا للبعثة بما يستعين بـه من العساكر الادريسية . فشجعها على السير وطأنها .

خرجت البعثة من الحديدة تجر اذيالها وهي تحمل كما قيل كتاباً خاصاً من جلالة الملك جورج الخامس الى حضرة الامام . وكانت الحملة ومعها الهدايا الثمينة تقدمتها لتجس الارض حتى اذا عبرت الحدود آمنة يتبعها اعضاء البعثة مطمئنين آمنين ، فمرت بباجل دون ان يعترضها احد واجتازت عشرين ميلاً منها الى عُبال فباتت تلك الليلة هناك ، فتقدمت البعثة تتبعها ودخلت في الشرك الذي نُصب لها .

وصل الكرنل جاكوب ورجاله الى باجل فرحب عرب القحراء بهم وانزلوهم ضيوفاً عليهم في بيت كان الامر فيه بعدئذ في ما يتعلق بالسفر لا للانكليز ولا للامام ولا للسيد الادريسي ، بل لسادات القحراء ومشايخها . وقد روى الكرنل في كتابه [1] خبر ذاك الاسر بما يجدر بشهم انكليزي من الصراحة والصدق . الا انه وقف في بعض الاحايين عند حد توجبه السياسة . وقد يكون احسن الظن في غير محل الاحسان واساء فهم امور قد تغمض على اثقب الناس فكراً من العرب انفسهم . كان الشيخ ابو هادي مثلاً ، وهو شيخ مشايخ القحراء ، عامل الامام يحيى يومئذ في باجل ، على ان لم يكن له في قبيلته تلك السيادة التي توهمها الكرنل وتوهمها الامام . او ان ابا هادي خدع الخصمين ، الزيود والانكليز ، ومكن عشائره من الفوز عليهما .

قد جاء في كتاب الكرنل جاكوب ان الامام يحيى ارسل الى باجل حرساً مؤلفاً من مئة جندي وثلاثة عشر خيالاً ليلاقي البعثة ويرافقها الى صنعاء . ثم ارسل محمود بك نديم ومعه اربعة الاف ليرة عثمانية لينقذ البعثة ويمكنها من استئناف السير اليه . « وجاء مندوب سياسي الى الحديدة يعرض باسم حكومة

---

(١) Kings of Arabia : Chapter XI . My Mission to the Court of the Imam of San'a . الفصل الحادي عشر ، رسالتي الى الامام في صنعاء .

بريطانية العظمى خمسين الف ليرة انكليزية على مشايخ القحراء ليطلقوا سراح المأسورين » . ثم تداخل السيد الادريسي في الامر فبعث احد رجاله الى باجل فلم يفز بغير ما فاز به من تقدمه من رسل الامام والانكليز . ثم طارت طيارة من عدن الى باجل قصد الارهاب والترويع وعادت دون نتيجة تذكر .

لم يلن عود القُحراء ولم يزعزع ذهب الامام وذهب الحكومة البريطانية عزمها . فهي كما علمنا لم تأسر الانكليز لتذلهم وتنتقم منهم ولا كما تبين طمعاً بالمال ، بل لتمنعهم عن السفر الى صنعاء لانها كانت تخشى اتفاقاً يتم بينهم و بين الامام . ولو قبلوا ان يرجعوا الى الحديدة في الاسبوع الثاني من الاسر لأذنت بذلك .

استمر الامر اربعة اشهر ، فادركت اذ ذاك الوزارة الخارجية بلندن فشلها واصدرت الامر برجوع البعثة . ولكنها لم ترجع الا بعد فتنة دُبرت لحفظ كرامة الحكومة البريطانية [1] وعندما تم الاتفاق في الحديدة بين الوكيل السياسي ووفد القحراء أُطلق سراح الانكليز في باجل وأُعيدت اليهم الامتعة والسلاح المحجوزة كلها [2] واصحبتهم القحراء بالفين من رجالها المسلحين يشيعونهم الى الحديدة .

اما الامام يحيى والسادة في صنعاء فقضوا العجب من هذه السياسة والانقلاب . أتغلب قبيلة عربية حكومة بريطانية العظمى ؟ بل الارجح انها انقلبت علينا فأنها وايم الحق تستطيع ان تبيد القحراء ، ولو شاءت ان يصل الوفد الى صنعاء لما ترددت في الوسائل ولا ادخرت من القوة في ذا السبيل .

---

(١) أُطلق سراحنا بموجب اتفاق عقد في الحديدة ، بعد فتنة دبرت بين عقلاء القحراء ومشايخها . فالعقلاء نقموا على المشايخ لانهم اسرونا . . . ونهضوا عليهم . . . فاضطروهم ان يرسلوا وفداً الى الحديدة للمفاوضة مع الوكيل السياسي الانكليزي هناك .
هارلد جاكوب في كتابه ملوك العرب صفحة ٢٢٣

(٢) قبل صلاة الظهر سلمنا المشايخ امتعتنا المحجوزة كلها ولم ينقص منها شيء . قالوا : اعطنا وصلاً بها لان الصلاة لا تحل لنا قبل ان نبرىء ذمتنا . فاعطيتهم الوصل حالاً . فقالوا : ولكنك لم تعد الصناديق . فقلت : ولا انتم عددتموها حين حجزتموها . »
هارلد جاكوب في كتابه ملوك العرب صفحة ٢٢٥

وكانت النتيجة ان الامام ، وقد رجح انقلاب الانكليز ، بادرهم الى المعاملة بالمثل ، بل سبقهم الى ذلك ، فلجأ بعد ان نفد ذرع السياسة الى السيف اذ صدر امره الى جيش الجنوب بالزحف على النواحي التسع المحمية ، تلك النواحي التي هي جزء من اليمن كما يثبت التاريخ ، جزء لا ينفصل عنه كما يقول السادة وامراء الجيش . وكأن الامام في هـذه السياسة او الخطة الحربية يقتدي بالانكليز . فقد ضربهم في ناحية هي قريبة منه ليخرجهم من بلاد لا يصل سيفه اليها . ضربهم في نواحيهم المحمية ليخرجهم من الحديدة او يضطرهم ان يسلموها اليه .

زحفت الجنود وكُتب لها النصر في اربع من تلك النواحي[1] فتردد صداه في اليمن الاسفل والاعلى وصاح الزيود المنتصرون : الى عدن ! وقد كان لصدى الصدى في دوائر لندن السياسية وقع سيء فاستبدلت الحكومة معتمدها في عدن واذنت بتغيير خطتها تجاه الامام .

استؤنفت بعدئذ المفاوضات الولائيــة ، وتبادل الانكليز والامام الهدايا عملاً بالكلمة العربية المأثورة : تهادوا وتحابوا . حملت الجمال اجزاء سيارة الى صنعاء وسافر معها من يركّبها هناك ويعلم احد الناس سياقتها ، وارسل حضرة الامام هدية من البن والخيل ، ثم عين القاضي عبدالله العرشي معتمداً له في عدن .

كان قد مر سنة على هذه الحال عندما كنا في صنعاء ولم تأت المفاوضات المتوالية بنتيجة تذكر . واني اذكر كلام احد رجال الامام في هـذا الصدد ، قال : ما كنا نهتدي في رسائل المعتمد المتسلسلة تسويفاً وابهامـاً الى الصريح الثابت من مقاصد الانكليز . وهم لا يزالون حتى اثناء المفاوضات السلميـة يساعدون الادريسي علينا . لذلك ارسل حضرة الامام الى المعتمد كتاباً شديد اللهجة فيه صراحة وحق . وقد يؤمر معتمدنا بالرجوع الى ان تصدر المراجع الانكليزية العاليــة النبأ الثابت القاطع في الامر ... النواحي التسع لنا هي حقنا . والحديدة كذلك لنا . ولا بـد من احد امرين ، اما البر بالوعد

(١) هي الضالع والشعيب والاجعود والقُطَيبي .

من قبل اصحابنا الانكليز واما الحرب . اما اذا قالوا ان حمايتهم في النواحي التسع مبنية على اتفاق بينهم و بين الترك فالجواب بسيط . قد عقد ذاك الاتفاق مع دولة كانت متغلبة علينا فخار بناها وغلبناها واخرجناها من البلاد ، ولاقيمة عندنا لاية معاهدة بينها و بين الانكليز بهذا الشأن . وكما اخرجنا الاتراك من ارض اجدادنا بالحرب والجهاد نستطيع بعون الله ان نخرج منها كل من يشتهي شفاء اثارهم .

سى ن الاتراك بذلوا في اليمن الاموال ودفعوا المشاهرات للكثيرين من السادة ومشايخ العشائر . فلا بأس اذا اقتفى سواهم هذا الاثر الحميد . والسيد احمد الكبسي نفسه ، الواقف بالمرصاد للانكليز ، والناطق بلسان السادة الاعاويز ، يردد اقوال الناس ولهفاتهم ، و يتأسف على عهد كانت « الظلط » تكال فيه كالبر وتبذل بلا حساب .

قد كنت اظن ان اليمن على ما في اهله وفي تقاليدهم وعاداتهم من اسباب التقهقر والخمول ، اشرف الاقطار العربية اسمًا ، وانزهها خطة ، وامنعها جانبًا ، لانه وحده اليوم مستقل ماليًا عن الاجانب ، اي عن الانكليز ، و يأبى التقيد بشيء من مالهم . وقد طالما سمعت من افواه العرب المتأدبين المخلصين في وطنيتهم الجاهلين اشياء من احوال الجزيرة السياسية والاجتماعية ، ان اليمن هو تلك البقية الباقية ، البقية الصالحة التي لا تنقاد بالسلاسل الذهبية الى العبودية الاقتصادية . وقد طالما قلت قبل اطلاعي على الحقيقة كلها ان هذا اليمن بفضل الامام الابر ، والاقتصادي الاكبر ، غني مستغن . وهي وايم الحق حسنة تشفع بكثير من السيئات . ولكني ، عندما وصلنا الى « بيت القصيد » قضية الحديدة ، قلت في نفسي اسفًا : علمت شيئًا وقد فاتتك اشياء .

تلك نكبة نكبت بها امالي العربية يوم علمت بان السادة الكرام ومشايخ حاشد وبكيل وكل من كان يقبض مشاهرة من الترك ينتظر مثلها بل ضعفها من الانكليز اذا تم الاتفاق بينهم و بين حضرة الامام . وقد قبلت في ما تعهدت به ان اذكر المشاهرات لدى اولياء الامر في عدن على شريطة ان ابدي لهم رأيي الخاص بها .

اما الرأي الذي صرحت به في دار المعتمد فهو ان الذهب مفسد لاخلاق العرب ، مفقرهم فوق ما هم فيه من فقر ، لانه يزيدهم كسلاً وخمولاً واتكالاً . ولا يجوز للانكليز ، وهم مدركون ذلك ، ان يستمروا في بذله مشاهرات ومسانهات ، لا استغواءً ، ولا استرضاءً ، ولا استيلاءً .

ان الخطة المثلى التي تستقيم فيها مصلحتهم ومصلحة العرب هي ان يعقدوا والامراء عهوداً ولائية تجارية ، بدون مادة الحماية ، مبنية على الثقة المتبادلة والمصالح المشتركة ، وان لا يكون للسياسة ولا لادارة الاستعلامات دخل فيها . لابأس مثلاً بقناصل انكليز في جدة والحديدة وجيزان والحسا وغيرها من البلدان ، فيقومون بوظيفتهم ضمن دائرتها المحدودة . ولكن الامراء وعقلاء العرب لايستحسنون بل يستنكرون وجود الوكيل السيامي في بلادهم . اني ارى الغاء هذه الوظيفة امراً لازماً ، اللهم اذا كنا نبغي تحسين العلائق وتثبيتها بين الحكومة البريطانيه وملوك العرب ، لاني عالم بما يؤسف له من اعمالها .

اجل ، انما هي الجاسوسية بعينها . هي هي سلاح السياسة الانكليزية في البلاد العربية ، هي خادمة الوكيل السيامي في تقاريره السرية التي تتناول كل موضوع ، وتحيط بكل حال ، وتجتاز حتى الحدود التي تقدسها التقاليد الى ما وراءها من الاسرار الاجتماعية والبيتية . مثلاً واحداً يخرجنا من التعميم . اذا كان اولياء الامر واحد ملوك العرب في مأذق من المفاوضات او العلائق ضاقت فيه عليهم الابواب ، وكانوا عالمين بان لذاك الملك او الامير عدواً من اهله او من رعيته في بلاده ، فهم يسعون اليه بواسطة الوكيل السيامي فيستغوونه بلقب او بذهب او بالاثنين معاً ، و يستخدمونه على خصمهم لتحقيق مقاصدهم فيه .

ولا تخلو مفاوضاتهم مع الامام يحيى من شوائب هذه السياسة . فانك تراهم ، اذا حدثتهم في الموضوع ، يبادرون الى السؤال عن حاشد و بكيل . هوذا موطن الضعف في حكم الامام ، لان عرب هاتين القبيلتين في اليمن الاعلى نافرون من الحكومة متمردون عليها . وليس الى استرضائهم بواسطة مشايخهم غير المال سبيلا . ان حاشداً على الخصوص مقيمة بالقرب من حدود الادريسي ، والادريسي صديق

الانكليز وحليفهم، وللانكليز عنده وكيل سياسي، وكفى . افلا تراهم ولسان حالهم يقول : اذا كان الامام يحمل علينا في النواحي التسع المحمية فنحن نحمل عليه في حاشد وبكيل [1] . ولكن الامام يحاربهم علناً في الفلاة وهم يحاربونه بالتجسس والاغراء .

اما الخلاف بين الفريقين فمحوره كما ذكرت الحديدة . ولكن مطالب الامام يحيى تجاوزتها الى حدود رُفضت في دار الاعتماد . ان موقفه تجاه النواحي التسع، اذا كان مجرداً عن الغرض السياسي الخاص، لموقفٌ وطنيٌ شريف . ولكني اظن ان السياسة تتغلب فيه على الوطنية العربية القومية . فقد قبل الامام ان يخرج جنوده وعماله من الضالع والشعيب والاجعود وبلاد القُطيْبي التي احتلها، على شرط ان تكون ادارتها وادارة اليافع والعوالق ولحج وحضرموت بيد امرائها وليس لحكومة انكلترة ولا لحضرة الامام حق التدخل في شؤونها، وعلى شرط اخر، هو الاول طبعاً، وهو ان يخلي الانكليز والادريسي الحديدة واللُحيَّة والصُليف وان تسلم هذه الاساكل البحرية وجميع ما كان بيد الترك في اثناء الحرب الى الامام تسليماً مطلقاً لا قيد ولا شروط فيه .

اما الانكليز فالقصد الاول والأهم في تقربهم من الامام وابتغائهم عقد معاهدة معه هو على ما ارى ان يبقوه بعيداً عنهم وعن عدن ويكون مع ذلك صديقاً لهم . ليست عدن كما هي ظاهراً مستودع فحم فقط، ولا هي اسكلة تجارية بين الشرق والغرب كما يودها بعض الانكليز المنزهين عن السياسة الاستعمارية، والكرنل جاكوب منهم . بل هي في نظر الحكومة البريطانية اولاً واخراً مدينة حصونٍ بحرية ومركزٌ حربي خطير . فاذا كانت كذلك فتأمينها اهم ما ترغب الحكومة فيه . واذا استطاعت ان تأمنها الى حد تستغني فيه عما تضطر ان تقيم هناك من التحصينات الحديثة والجنود فلا تقصر في ذا السبيل سعياً .

غني عن البيان اذن ان الحكومة البريطانية، وهذا قصدها الاكبر، لا تتنازل عن معاهدات عُقدت بينها وبين امراء النواحي التسع المحمية . وانما تبغي

(١) راجع الشرح في صفحة ١٧٧ .

توسيع نطاق الحماية ، وقد ترضى بالولاء فقط ، ليتناول كذلك قسماً من اليمن الاعلى . اما الحديدة فامرها من هذه الوجهة ثانوي [1] . ولكان افلح الانكليز لو اتخذوا مع الامام خطة فيها على الاقل عزم وصراحة . لكنهم يسلكون الى محجتهم السبيل الذي تقدم ذكره ، فيماطلون و يسوفون و يحاولون اضعاف الامام وافساد امره بواسطة بعض رعاياه غير الراضين بحكمه ، وفيهم الخائن الطامع بالمال والمكابر الطامع بالسيادة .

ها قد بسطت مطالب الفريقين في اعلى درجة من درجات الوطنية والسياسة . اما ما قد يتنازل كل فريق عنه الى درجة تقترن فيها المصلحة بالعدل والانصاف ، والوطنية — الانكليزية او اليمانية — بالمعقول ، فهو لا يزال تحت البحث ورهين المفاوضات .

(١) يثبت هذا القول ان الحكومة البريطانية لم تتعرض للامام عندما احتلت جنوده في نيسان ١٩٢٥ الحديدة والاساكل الاخرى التي كان يطالب بها اي اللُّحيّة والصليف

الفصل الثالث عشر

تتمة المفاوضات

الوفد الافرنسي — المنافسات السياسية — الامتيازات — المعاهدات — الفرنسيس والانكليز في افغانستان وفي اليمن — غريب على غريب — الامام يستفيد — احتكار تجارة البن — ميناء المخا — السلاح — الدخيل في عسير — الخطأ في سياسة الامام — المثلث الزوايا في قضية الحديدة — الانكليز بين السيد والامام · الشوافع حائرون — الامر ناضج للسلم — المؤتمر — برقية وكتاب الى صنعاء — الجواب ·

لو كان الافرنسيون الذين غشوا صنعاء يوم كنا فيها يعرفون بعض الشيء من اصول الاسلام وعادات المسلمين لما جاؤوا في شهر رمضان يبغون من الامام امتيازاً ، ولما جاؤوا في رمضان ومعهم من الخمر انواع يحتسونها في الطريق وامام الخدم في عاصمة الزيود · فان تمسكهم ببعض عاداتهم التي كان ينبغي ان يتنازلوا عنها اكراماً لاهل البلاد ، ولخير انفسهم لو عقلوا ، اثار عليهم ولا شك تعصب خدم الزيود فسقوهم وراء الخمر ماء الوضوء من بركة الشاذروان ·

قد لايهم الافرنسيين ذلك وهم كما ادعوا تجار ينشدون المصلحة · لكن بعض العارفين قالو انهم سياسيون جاؤوا يبارون الانكليز في خطب ود الامام · لذلك لم تأمر الحضرة الامامية باستقبالهم رسمياً ، وعندما وصلوا الى بوابة صنعاء اوقفهم الحرس هناك ليعلموا الامام ، فاذن لهم بالدخول · ثم بعد ثلاثة ايام حازوا شرف المثول بين يديه ·

ولكنهم منحوا ما حرمناه وهو الاذن بزيارة « جرجي » مدير معمل الخرطوش · كأن لكل ما يأذن او يأمر به الامام معنىً خاص يخفى احياناً حتى على ضيوفه اصحاب الانعام · ان في اجتماع الافرنسيين بجرجي برهاناً واحداً على ان مهمتهم تتجاوز حدود التجارة · هوذا معمل الامام ، وهوذا احد رجالكم ايها الافرنج في خدمته ، فهو يستغني اليوم عنكم في الذخيرة وسيستغني عنكم غداً في

السلاح · فاذا عاهدكم فكأقران يتبادلون المنفعة ·

اما الافرنسيون فيغارون كما هو معلوم من الانكليز · ويقتفون اثرهم حيثما ضربوا وحلوا · عقد الانكليز امس معاهدة مع امير افغانستان فتقفاهم الافرنسيون واثبتوا امرهم سياسياً وفنياً هناك · احس الافرنسيون ان الانكليز يبغون عقد معاهدة مع امام صنعاء فسارعوا الى منافستهم في اليمن ، والامام مطلق الارادة بمنح امتيازاته من يشاء ، ويعقد المعاهدات مع من يشاء ·

على ان الافرنسيين سباقون في اليمن وفي تجارة البن · فقد تقدم ذكر البعثة التي جاءت عن طريق المخا في العقد الاول من القرن الثامن عشر وعقدت معاهدة تجارية مع الامام المهدي لدين الله تدل شروطها على حكمة تتسع عندها لمصلحة البلاد حدود الدين ، وتنفكك من اجلها قيود المذاهب · والامام يحيى اليوم يقتفي اثر اجداده الكرام ، و يستعين كذلك في سياسته بحكومة افرنجية على اخرى · هي خطة في السياسة تجوز ، وقد تفيد اذا وقف صاحبها عند حدٍ يوجب الايضاح والتفضيل ·

اما اذا عاهد امير عربي دولتين من دول الافرنج واذن لهما بشيء من النفوذ داخل بلاده فتكون الاثنتان بلية عليه وعلى بلاده · تقتتلان في سبيل المصلحة فتقتلانها ، فضلاً عن الدسائس والتحزب · فاذا كان الامير محبوباً الى رعيته جمعاء ، لا يلبث ان يصير له فيها مناوئون واعداء · واذا كان له عدو واحد في رعيته لا يلبث ان يصير للعدو حزب سياسي · واذا كان في البلاد حزب واحد على الامير يصير فيها حزبان وثلاثة ·

اننا نعلم حق العلم ان كل وكيل سياسي في بلادٍ سيادتها الوطنية ناقصة يتخذ له حزباً من اهل تلك البلاد الناقمين لاغراض خاصة على حكومتها ، فيستخدمه لمصلحة حكومته وبلاده ·

اجل ، اذا كان ثمت خير في مفاوضة اثنين بامر واحد فان ذلك الخير يزول اذا أُشرك به الاثنان · وحضرة الامام يحيى يدرك ذلك ، فهو يستخدم الافرنسيين اليوم كما يستخدم الملك حسين الايطاليين لينال من الانكليز كلَّ او جلَّ ما يبغيه

واول بغياتــه واهمها الان ميناء اليمن الاعلى على البحر الاحمر ٠ جاءت البعثة الافرنسية تطلب امتيازاً باعادة بناء ميناء المخا المهدوم ، وميناء اخر في الخوخه ، وباحتكار تجارة البن ٠ ولكن الامام ، اذا استعاد الحديدة ، فقلما يهتم للمخا والخوخة ٠ولا سر هناك في تفضيله ٠ الا انه يريد ان يفهم الانكليز انه يستطيع ان يستغني عن الحديــدة اذا اقتضى الامر وان يستغني عنهم كل الاستغناء في في جميع الامور ٠

قد قال لنا الامام ان هؤلاء الافرنسيين تجار جاؤوا يبحثون عن احوال التجارة عندنا و يطلبون امتيازاً في المتاجرة عن طريق المخا ٠ وقد علمنا انهم لم ينالوا الامتياز الكبير الذي طلبوه وهو احتكار تجارة البن ٠ فالامام لا يسلم بذلك ، ولكنه يعاهدهم على بيع حصته او بالحري الاعشار من البن التي تبلغ عشرة الاف كيس في السنة ، و يشتري منهم ما يوافقه من السلاح ٠

السلاح ! لا شيء في البلاد العربية اكثر من السلاح ، ولا رغبة لامراء العرب اشد من رغبتهم في السلاح ٠ فما الداعي الى هذا الطلب الدائم وخصوصاً في اليمن ؟ تذكر ايها القارىء جواب الامام عند ما سألناه كم يحكم من بلاد اليمن واهله ٠ فقال : اليسير ٠ اليسير ٠ وهو يطمع ببسط حكمه وسيادته على اليمن كله — اليمن القديم من حضرموت بل من عُمان حتى اخر بلاد عسير ٠ وقد طالما سمعت في صنعاء ان الامام في احترابه والادريسي لا يريد ان يوقف عدوه عند حدوده المعلومة فقط بل يريد ان يخرجه من بلاد اليمن وعسير كلها ، لانه كما يدعون دخيل فيها ٠ كنت اسمع هذا الكلام ساكتاً لاني لم اكن اعلم يومئذٍ غير اليسير من امر السيد الادريسي و بلاده ٠

ولكني بعد رحلتي في عسير ، وزيارتي السيد في جيزان ، ومحادثتي الناس من سادة وعامة في تهامة ، بان لي الخطأ في سياسة حضرة الامام ، وتأكدت انه لا يستطيع بتلك السياسة ان يستولي على الحديدة ٠ وانّى له ذلك والانكليز لا يزالون اصدقاء الادريسي وهم اصحاب السيادة في البحر الاحمر ؟ فهم اذا استحسنوا عقد معاهدة بين السيد في جيزان والملك حسين لا يستحسنون على

اظن مثلها بين الملك حسين والامام . وقد يقبلون بعقد معاهدة او اتفاق بين الثلاثة اذا كان ذلك برأيهم ومؤازرتهم .

ان القضية في اجلى بيان تنحلل اذن الى ثلاثه اجزاء . الاول والاهم هو وجود الانكليز بين الامام والادريسي . هذه حقيقة لا يمكننا ان ننكرها او نغضي عنها او نفر منها . الثاني هو وجود الشوافع عوناً للانكليز اليوم كما كانوا بالامس عوناً للاتراك في سياستهم اليمانيــة . والثالث هو وجود الحديدة ، وهي محور النزاع ، بين الشوافع والزيود والانكليز . وقــد امست بفضل السياسة والفوضى اليفة الخراب والبلاء .

قد كان الادريسي يومئذٍ يميل الى السلم اذا حُددت حدوده على حال مرضية . وكان الانكليز قد قطعوا عنه المشاهرات والسلاح وبدأوا يشعرون بفتور منه بل بنفور فيه . فاستحسنوا سبيل المسالمة والمفاوضة رغبة في صداقته وصداقة الامام يحيى . اما الشوافع فكانوا قد قاسوا من الاحتراب الدائم عذاباً واهوالاً ، فكرهوا لذلك الامامين ، وغدوا في حال تحبب اليهم اصغر الشرين .

اذا كانت الحديدة باب النزاع اذن فهي كذلك باب السلم . وكان الامر كما بدا يومئذٍ لذي عينين ناضجاً للسلم ، فلم يبق غير الوسيلة الى ذلك . ووسيلة السلم المؤتمر . فارسلت الى صنعاء برقية اعرض فيها فكرة مؤتمر يعقد في الحديدة او في عدن ، يحضره وفود المتحاربين واصحاب المصالح المشتركة في البلاد . فجاءني الجواب وليس فيه غير ما طالما سمعته هناك :— لا حق للادريسي في جميع اليمن ، لا حق للانكليز لا قبل ولا بعد الدور العثماني في الحديدة ، لا ثمرة في المؤتمر ، الدواء كله في عدن .

ولكن عدن تستحسن المؤتمر . وكان قــد ارسل المعتمد الجنرال سكوت لاسلكياً يهنئني برجوعي من صنعاء ويقول انه راغب في مفاوضتي . ولكنني لسوء الحظ تأخرت في الحديدة وفي جيزان وكان وصولي الى عدن يوم سافر المعتمد الى لندن . فقابلت معاونه الاول والحاكم بالوكالة يومئــذ الماجر بارث وبعد ان تحدثنا ملياً في الموضوع ارسلت الى صنعاء بواسطة مندوب الامــام في

عدن التلغراف الاتي :

اني متفائل مستبشر لاني وجدت ارتياحاً الى المسالمة ورغبة في تحقيق مطالبكم بشروط لا بد منها . اي انهم يرغبون في ان يسلموا الحديدة الى الامام ولكنهم متعاهدون مع الادريسي ولا يرون لانفسهم مخرجاً في غير التسوية السلمية بين الطرفين اي بينكم و بينه . فهل تقبلون بذلك ؟ هل يقبل حضرة الامام بعقد مؤتمر في عدن يحضره ممثلون من قبله وممثلون من قبل الادريسي وممثل من دار الاعتماد اذا وعده المعتمد رسمياً بتسليم الحديدة على شرط ان يتم الاتفاق والسلم بينه وبين الادريسي ؟

قد قابلت السيد في جيزان فوجدته قريباً من المسالمة وميالاً الى الاتحاد بشرط ان يُعترف به حاكماً في لواء عسير . واظن ان عقد الصلح ممكن بينكم و بينه على شرط تسليمكم الحديدة وارضائه في الحدود الشرقية او الشمالية . ولا يتم الصلح الا بحسن النية و بالاجتماع والمداولة . عرفوني حالاً اذا كنتم تقبلون لاطلب لكم كلمة رسمية من الحكومة الانكليزية بخصوص الحديدة .

عدن في ١٦ ذي القعدة سنة ١٣٤٠ الموافق ٨ تموز سنة ١٩٢٢

بعد اسبوعين من هذا التاريخ وانا انتظر في عدن واتألم من حرها وسوء هوائها حباً بخدمة البلاد العربية خدمة صافية لوجه الله ، جاءني من صنعاء بالسلك الى القاضي عبدالله العرشي في تعز ، ومنه مع نجاب الى لحج ، ومنها مع رسول الى عدن ، الجواب التالي . وكان السلك كما اخبرني العرشي مقطوعاً من شدة الامطار « فتحير » اي تأخر وصول الجواب .

كانت المراجعة وصاحبنا . قد عرفتم حسن نيته ومحبته لكم . لكن الادريسي لا حق له في اليمن باي صورة من الصور المشروعة . وصاحبنا حقوقه واضحة معلومة عند الجميع . ونحن لا نحب الا نجاح مسعاك . ونحب صون بقية بلادنا عن الذهاب . لا لزوم للمؤتمر مهما كانت الحكومة

الانكليزية تريد ذلك . فانتم تقومون بكمال هذا الامر . وكل الصلح بيد الحكومة الانكليزية . وسنجد على صاحبنا بقبول ما اشرتم اليه من حاكمية الادريسي على عسير وتسليم الحديدة وما كان بيد الاتراك عند تسليمهم الى الامام . وضحوا للمشير اليه الحقائق . واقبلوا فائق الاحترام .

ما الحيلة بهؤلاء العرب اسيادنا أبناء عمنا ، اخواننا ؟ تريد لهم الخير الصافي الثابت الدائم وهم لا يرغبون في غير مزيج من الخير الوقتي . اني على يقين ان لو قبل حضرة الامام بعقد المؤتمر لكان السلم اليوم مخيماً على البلادين والولاء والتجارة صلتا العمران بينهما . ولكن النجاح في هذا السبيل لا يكون الا بثلاثة : الصحة والثبات والنفقات . كيف لا والمواصلات في البلاد العربية قليلة الاسباب كثيرة المشقات ، فلا يستطيع من يتبرع بخدمة امرائها واهلها ، اذا لم يكن غنياً وممتعاً بالصحة والعافية ، ان يقضي بضع سنين جائلاً فيها ، رسول التعارف والتفاهم والائتلاف .

قبل ان سافرت من عدن بعثت بكتاب اخر الى ضنعاء لامكن هناك الفكرة التي بدأت تحل في سياسة الامام محل الاستئثار ، انقل منه ما يلي :

الامر ميسر على شرط ان يتم السلم بينكم وبين الادريسي . ومن العبث ان تحاولوا اخراج الرجل من البلاد . ان حجتكم في قضية الحديدة ظاهرة ثابتة ، ينصركم فيها كل من اطلع على الحقائق . ولكن حجتكم في اخراج الادريسي على وجه انه دخيل لا يوافقكم عليها الناس . واذا تمسكتم بها تضرون بمصلحتكم وتضعفون حجتكم في طلب الحديدة [1] .

---

(١) قد تمكن الامام من احتلال الحديدة كما تقدم في حاشية للفصل السابق . ولكنه لم يتمكن من اخراج الادريسي من عسير ولا اظنه يطمع الان بذلك وقد اصبح صاحب عسير حليفاً لملك نجد والحجاز الملك عبد العزيز ابن سعود وفي حمايته .

الفصل الرابع عشر

المعـاهدة

الامارات العربية القديمة — توحيد الكلمة الدينية — توحيد السياسة — المداخلة الاجنبية — ملك العرب وملك الحجاز — المعاهدات مع الحكومات الاجنبية — الدفاع والهجوم — تهامه جزء من اليمن — تحديد المعاملة بالنقود الفضية — معمل للسلاح — مندوب للامام في مكة — مندوب للملك في صنعاء — صندوق توفير من مال الزكاة — الانشاءات العمومية — كتاب الى جلالة الملك حسين بخصوص المعاهدة — الختام ·

لا بد من معاهدة تعقد في المستقبل بين اليمن وقطر آخر من البلادالعربية· وبما ان المساعي التي تقدمت سعينا والتي ستتبعه هي ذات شأن في تاريخ القضيــة العربية ارى من الواجب ان انشر صورة المعاهدة التي تم الاتفاق عليها مع حضرة الامام · وها هي بكاملها و بالحرف الواحد :

بسم الله الرحمن الرحيم

ان المقصد الوحيد من هذا الائتلاف والاتفاق هو الانتظام في سلك وَاعْتَصِموا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً وَلاَ تَفرّقوا و به يكون التعاون والتعاضد على انفاذ احكام الله كما يجب في جميع البلاد لعمرانها واصلاح شؤونهــا وكف ايدي المعارضين عن التدخل فيها والاخلال بمصالحها و براحة اهلها وتأمين معاش سكانها وتقوية صناعتها وتجارتها · فلذلك عقدت هــذه المعــاهدة بين حضرة الامام المتوكل على الله يحيى ابن المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين و بين جلالة الملك الشريف حسين بن علي بن عون على ما تحويه المواد الاتية لتكون دستوراً للعمل بعــد تقدم اصلاح النية وجعل الاعمال مدارة على الشريعة الاحمدية في الاقدام والاحجام والنقض والابرام ·

اولاً — البلاد العربية اقصاها وادناها بلاد اسلامية لا تقبل التفرقة والتجزئة وانفكاك بعضها عن بعض من حيث الجامعة الدينية والقومية والوطنية واتحاد اللسان · وليس المراد من عدم قبولها التفرقة تغيير اشكال اماراتها القديمة وتحويل امرائها المشهورين المعلومين الذين يجرون ادارة شؤونها واعمالها وسياسة داخليتها منذ قرون · وانما المطلوب اجتماع الكلمة الدينية [١] وتوحيد السياسة على وجه يرضاه الله وتصلح به احوال البلاد من غير مداخلة اجنبية خارجية من اية الجهات تخل باستقلال البلاد العربية ووحدتها [٢] ·

ثانياً — يعترف حضرة الامام لجلالة الملك بالملك و يعترف جلالة الملك لحضرة الامام بالامامة [٣] ·

ثالثاً — يختص حضرة الامام بادارة اليمن وسياسته الداخلية والخارجية كما كان بيد اسلافه و يختص جلالة الملك بسياسة ما تحت ادارته في الحجاز

---

(١) « المطلوب أجتماع الكلمة القومية والدينية » هي الاصل الذي وضعناه فابدله الامام بما تراه في البند وسلمنا بعد المناقشة « باجتماع الكلمة الدينية » وقبل حضرته بان يضاف اليها « وتوحيد السياسة » ·

(٢) كان قد وقف الامام عند « المداخلة الاجنبية الخارجية » اطلاقاً · فاضفنا اليها الكلمات ، « تخل باستقلال البلاد العربية ووحدتها » كي لا تنفي المادة المداخلات التجارية والاقتصادية والتهذيبية · ولا يخفى ما في مثل هذه المداخلة المجردة عن العوامل السياسية من الخير للبلاد العربية · ان حضرة الامام مثل سائر امراء العرب مقتنع بذلك ·

(٣) كانت هذه المادة في النسخة الاولى من المعاهدة ان حضرة الامام يعترف بالملك حسين ملك العرب · وقضينا اسبوعاً في المفاوضات بهذا الشأن · فجاءني السيد احمد ذات ليلة بعد نصف الليل فافاقني من نومي وقال : يسلم عليك حضرة الامام و يسالك خصوصاً ان تساعده في النظر بهذا البند · لا يمكننا ان نعترف بما هو غير الواقع و يأبى الامام ان يمس شعور جلالة الملك · فكيف العمل ؟ هل عندك حل لهذا المشكل ؟ يبغيه حضرة الامام منك فعدلنا و بدلنا وتناقشنا ساعتين وانا احاول الدفاع عن قضية ضعيف جانبها · وقد رأيت فوق ذلك بعد السياحة في اليمن ان ملك الامام خمسة اضعاف ملك الحجاز مساحة وعدداً وقوة · فقبل السيد احمد اخيراً بما اقترحته حلاً لهذا المشكل وهو النص الحالي · وقد اضفت في المادة الثالثة بعد « و يختص جلالة الملك بسياسة ما تحت ادارته في الحجاز » كلمة « وغيره »

قد يكون قبل الامام في المفاوضات السابقة ان يعترف بالملك حسين ملك العرب ولكن سياسة الملك بعد الحرب وخسارة الحجاز في وقعة تربه حملتا الامام على تغيير رأيه في الموضوع ·

وغيره داخلية وخارجية · فليس لاحدهما احداث مقاولة اجنبية في ما يتعلق بما تحت ادارة الثاني من البلاد ولا يغير شيئاً مجعولاً من طرف صاحب ادارتها ولا يتدخل في ادارة داخليتها لا خاصة ولا عامة الا ان يكون بعد المشاورة بينهما [1] والاتفاق لمصلحة تطابق مراد الله سبحانه · واذا فعل احدهما شيئاً من ذلك او عقد مقاولة اجنبية في ما يتعلق بمملكة الآخر منفرداً فلا يعتبر ما فعله ولا يكون معتمداً · وليس لاحدهما نقض مقاولة سابقة لتاريخ هذا الاتفاق من الطرف الاخر في ما يتعلق بخاصة عاقدها ومملكته ولا تعتبر نافذة في ما يتعلق بمملكة الثاني اذا اشتملت على شيء من خصوصياتها ولا يعد هذا الاتفاق ناقضاً لما تقدمه من المعاهدات بين حضرة الامام والحكومة العثمانية او بين الملك واحدي الحكومات ·

رابعاً — بعد امضاء هذه المعاهدة يكون كل من حضرة الامام وجلالة الملك ومن تجري عليهم اوامرهما الشريفة من الامراء والتبعة عوناً للآخر ونصيراً له في دفع كل عدو صائل من الخارج او معارض من الداخل · وهذا التعاون والتناصر يكون موقوفاً على الطلب من اي الجانبين عند الاحتياج واللزوم وفي دائرة النصوص الشرعية ·

خامساً — عند ظهور عدو مشاق للطرفين اذا لزم لاحدهما امداد من الثاني فعلى من تطلب منه الاعانة اعانة الطالب بمقدار ما يدخل تحت امكانه من مال او رجال او سلاح او معدات حربية · وعلى الطالب للامـداد بالرجال لوازم المطلوبين مع التأمينات اللازمة ·

سادساً — بما ان المقدم قبل كل شيء تأمين طرق المواصلة والمراسلة بين الحجاز واليمن من الطريق الاسهل والاقرب لامكان المفاوضة والمواصلة بسرعة في كل ما يلزم ، ومن المعلوم وجود الحائل في تهامة التي هي جزء من اجزاء

---

(١) كان الامام مصراً على رفضه عقد المعاهدات مع الحكومات الاجنبية وخصوصاً في ما يتعلق بالامور الخارجية · فقبل بالجملة الشرطية « الا ان يكون بعد المشاورة بينهما » وبكلمة « منفرداً » في الجملة التالية ، اذا فعل احدهما شيئاً من ذلك · · · منفرداً »

اليمن ، فاللازم تقديم التعاون الحائل المانع من الحديدة ونحوها باي وجه كان اما بسياسة يتفق عليها او بقوة يكون سوقها من الجانبين بعد تقديم المذاكرات اللازمة في كلا الامرين وصفة المعاملات والحركات من الجانبين [1]

سابعاً — السكة الفضية الخالية من الغش وانواع الربى التي تضرب في الحجاز باسم صاحبها معينة قيمة تداولها تكون مقبولة ومعتبرة في التداول في المملكتين بقيمتها المعينة بعد الاعلان كتابة من الجانب الذي يكون ضربها باسمه بكيفية التداول وكمية القيمة والصفة المميزة للسكة .

ثامناً — يتعين مندوب من لدن جلالة الملك في صنعاء ومندوب من لدن حضرة الامام في مكة المكرمة لمداولة الافكار والتوسط في تعاطي المفاوضات والمذاكرات .

تاسعاً — معلوم احتياج المملكتين لانواع الاسلحة والمهمات الحربية وسائر انواع الترقيات الفنية واحتياجها الى ايجاد معامل وآلات لعمل الاسلحة وغيرها تقوم بالمقاصد . و بعد امضاء هذه المعاهدة من الجانبين تكون المراجعة وتقرير ما يلزم من الاسباب والوسائل والمقدمات والاستعدادات لايجاد المحتاج اليه من المعامل ومحل لتأسيسها واستعمالها مناسب جامع لمقاصد الطرفين وكيفية الاعمال وكل ما يلزم لذلك من المصاريف والمأمورين والمحافظين والعَمَلة وغير ذلك .

عاشراً — يكون تعيين مبالغ من الاموال معلومة مخصوصة لكل سنة بمقدار يكون الاتفاق عليه لتصرف في ما ذكر في المادة التاسعة من الاعمال

(١) سلمنا بهذه المادة ونحن عالمون بان المراد بها السيد الادريسي ولكننا لم نوافق عليها الا بعد ان اضفنا اليها الجملة الاحتياطية وهي « اما بسياسة يتفق عليها » بعد الكلمات « باي وجه كان » وقد كنا نومل ان يعقد بعدئذ معاهدة بين الادريسي والملك حسين . فيكون جلالته اذ ذاك صلة الوصل او الواسطة السلمية بين السيد والامام حليفيه فيتمكن « بسياسة يتفق عليها » من اصلاح ذات البين في تحديد حدود ترضي الفريقين . انظر المعاهدة التي عقدت مع السيد الادريسي وكتابي الى جلالة الملك حسين بخصوصها في الفصل الحادي عشر والفصل الرابع عشر من القسم الثالث في هذا الجزء .

الضرورية او ما يتفق عليه من الانشاءات والاستعدادات العمومية المهمة ·
وهذه المبالغ تحفظ من كل جانب ما يتعين عليه في خزينته الى وقت اللزوم
وتعقد تأمينات يتفق عليها بين الطرفين ويتعاطاها الطرفان لتأمين تأدية
كل ما يلزم منها في وقته وزمانه بحيث لا يتضرر احد الجانبين ولا يكون
من احد تأخر بحصول المقاصد[1] ·

احدى عشر — هذه المواد الاساسية يستمر حكمها الى عشرين سنة واذا كان
الاتفاق في خلال المدة على تعديل شيء منها او تبديله او طيه بحسب ما
تقتضيه المصالح ومداولة الافكار فكل ما يستحبه بعد تقريره فحكمه حكم
هذه المعاهدة · وبعد تمام العشرين سنة يكون تجديدها كما هي او تبديل ما
يتفق على تبديله ان شاء الله تعالى ·

حرر في صنعاء في ١٨ شهر رمضان سنة ١٣٤٠

وقد ارسلت المعاهدة مع صديقي قسطنطين يني مصحوبة بكتاب الى الملك
من حضرة الامام وكتاب مني انقل منه ما يلي :

قد تفاوضنا في الامر الذي جعلت احدى غايات رحلتي في البلاد
العربية الاهتمام به والسعي في بسطه لدى امراء العرب وتقريبه من العقول
في شكل عملي معقول · فلقينا في الامام يحيى اعزه الله اذناً صاغية ، وهمة
للعمل داعية · وهو في موقف الولاء ولا شك ثابت القدم مخلص القصد
والنية · الا انه لا يحب ان يكبر في البدء خطواته ، ولا ان يوسع كثيراً
صراطه · وان التمتع باليسير الان ، خير من الامل بالكثير · قد كانت لنا
جلسات طويلات ومباحثات ومناقشات ، يسمعكم الصديق قسطنطين
خبرها ، ويعلمكم بما بذلته في سبيل المعاهدة المرغوب فيها وفي توسيع بنودها

---

(١) ان المقصود من هذه المادة انشاء صندوق توفير من مال الزكاة في كل امارة ومملكة عربية لبذله في المشاريع العمومية المشتركة مصالحها بين الجميع كمد السكك الحديدية والاسلاك البرقية وتعبيد الطرقات وغيرها وهي احدى الفكر التي كنت ابثها وابشر بها هناك والتي صادفت استحسان كل ملوك العرب وامرائها · وعقدوا النية على العمل بها اما تضامناً واما انفراداً ·

بقدر الامكان لتعم ما ننشده من الوحدة العربية · وقد فزنا بجل المرغوب وسلمنا ببعض الجزئيات التي لا تقدح بروح القضية او تمس بجوهرها ·

ومن الحقائق التاريخية يا مولاي ان النهضات الخطيرة في الامم لا تنشأ نشأة واحدة تامة كاملة · فلا بد لها من خطوات الى ذاك الكمال وتطورات في ما يرغب فيه من وحدة الكلمة والحال · اما المعاهدة في صورتها الحالية فهي خطوة اولى مهمة الى الامام · فعسى ان تستحسنوا عملنا وتروا ، وانتم مصدر الحكمة ، صواب رأينا · وفي المستقبل القريب ، بعد ان يتم توقيع المعاهدة ، تتوفقون ولا شك الى اضافة بنود بخصوص توحيد الامور الاجنبية ، والنقود ، والتمثيل الواحد في الخارج وغيرها · اذ حين تتم وسائل المواصلة بين جلالتكم وحضرة الامام فيكون له مندوب عندكم ولكم مندوب في صنعاء تتبادلون مباشرة الاراء وتتوفقون ان شاء الله الى ما فيه تمام تعزيز المصلحة العربية والاسم العربي داخل البلاد وخارجها ·

انتهى القسم الثاني



حضرة السيد محمد بن علي الادريسي

القسم الثالث

السيد الادريسي

بلاد السيد [1]

او ما يحكمه الادريسي من عسير

حدودها : غرباً البحر الاحمر . شمالاً ابو مَتْنَه على البحر . جنوباً الحديدة . شرقاً جبال اليمن (وقد كانت الحدود الشرقية في رمضان ١٣٤٠ كما يلي : آخر جبل رَيمه جنوباً للامام يحيى ، وجبل براع المجاور لرَيمه للسيد الادريسي . وآخر جبل صعفان شمالاً للامام ، واول جبال بني سعد المجاورة لصعفان للسيد) .

سكانها : نحو مليون نفس .

مساحتها : تمتد ثلاثمائة وخمسين ميلاً شمالاً بجنوب . ومعدل عرضها غرباً بشرق سبعون ميلاً . السهل الذي يتصل بالعقبة وراء ميدي وجيزان عرضه اربعون ميلاً .

اهم قبائلها : رجال المَع والمسارِحَة و بنو مروان والقُحراء و بنو هلال و بنو عبس .

اهم بلدانها : صبيا وجيزان وميدي واللحيَّة والحديدة وابو عريش و باجل .

مذاهبها : السنيون : شوافع ، والسنة : جعفريون واسماعيليون ، والفرس واليهود والهندوس .

---

(١) بعد وفاة كبير الادارسة الامير محمد في نيسان ١٩٢٣ اضطربت شؤون عسير الداخلية والخارجية ، فضعفت شوكتها ، وتقلصت حدودها ، التي تكاد تنحصر اليوم في جوار جيزان وصبيا الى الجنوب والى الشمال ، وفي سفح الجبال الى الشرق .

الفصل الاول

سطح اليمن

الموظف الانكليزي في بلاده وخارجها — بلاد العدو — الاخطار — ثلاث لفائف — الرحيل — السيد علي يؤدب احد المكارين — جبل عصر — طريق العربات — وداع صنعاء — النبي شعيب — شبام — متنه — عساكر الدولة — « اربع ساعات الى صنعاء ! باد شاهم جوق يشا ! » — حمدان النعسان — ثلاثة فصول في وقت واحد — سطح اليمن — بوعان ولبنان — الحَيمه — حصونها الشاهقة وبساتينها — سوق الخميس — مجلس القات — الصبير والسعادين — مفْحق قبو اليمن — السامرية — المقيل — الفقيه الذي قتل تلميذته — حديث الجمال — رحم الله الدولة ٠

الكريم من لا يعللك اذا عجز عن الاكرام والمساعدة ٠ واذا اكرمك فلا يمتن عليك ٠ والكريم اذا كان متوظفاً لا يقول : لا ، بعد ان يقول : نعم ، ولا يقول : نعم ، بعد ان يقول : لا ٠ اما اذا قال : نعم ، فيشفع الاجازة مثلاً بالصنيعة والصنيعة بالبشاشة ٠ ان الانكليزي في بلاده وفي حكومة بلاده هذا الرجل ٠ ولكنه خارج انكلتره ، ولا سيما في الشرق ، مثل الواحة في الصحراء ٠ لذلك هو اكبر قدراً ، وان لم يكن ارفع مقاماً ، من زميله في انكلتره ٠

قد كان حظي في رحلتي اني مررت ببعض الواحات ، منها واحة في دار الاعتماد بعدن استأنست بظلها وانتعشت ٠ اقول « بعدن » على الرغم مما لقيت فيها من العقبات ٠ فقد كانت خطتي في السفر ان ازور الامام يحيى في صنعاء ثم اسافر منها الى الحديدة لازور السيد الادريسي في عسير ٠ ولكن الامام والسيد اعداء والبلادين في احتراب ٠ اما الانكليز ، فاذا كان لا حق لهم في اليمن الاعلى ، فهم يستطيعون ان يمنعوني من الدخول الى بلاد صاحبها حليفهم ومدينتها الكبرى الحديدة هي فعلاً في يدهم ٠ سألت المعاون الفاضل

في دار الاعتماد ، بعد ان صدرت الاجازة بالسفر الى صنعاء ، ان يعطيني كتاب تعريف الى وكيلهم السياسي في الحديدة ، فاجاب : هو اليوم في عدن وسأقول له ان يزورك . وكان كذلك . فاجتمعت بواسطة المعاون بفاضل من افاضل الهند ، روحه شرقية ، وعقله شرقي غربي . هو الدكتور محمد فضل الدين الوكيل السياسي في الحديدة لدولة بريطانية العظمى .

وكنت ، وانا في طريقي الى صنعاء ، اشكر الاثنين دائماً لاني كرهت ان اعود من حيث اتيت لا لما قاسينا من المشقات فقط بل لرغبتنا في ان نحيط علماً بالبلاد واهلها . ولكني وانا في صنعاء ظننت مرة ان الامام لا يأذن بالسفر الى بلاد العدو ، فتمثلت امامي تلك الطريق الى عدن ، وآفاق الحياة فيها مربدة كلها . ثم جاءنا احد السادة يزيدنا كرباً وغماً في ما صوّره من الاخطار في منطقة الحدود بين الحجّيلة وباجل . — اذا سلمتم فيها فلا تسلمون من الاسر . الادريسي لا يركن الى احد قادم من عند الامام .

ولكن حضرة الامام عند ما فاوضناه في الامر حقق لنا املاً في ارساله كتاباً مني الى الدكتور فضل الدين بواسطة عامل حراز في مناخة وامير الجيوش الادريسية في باجل . وقال تهدئة لبالنا : اذا جاء الجواب بالايجاب فلا بأس بسفركم .

ان المسافر في البلاد العربية ليتعلم قبل كل شيء الصبر والتجمل . صبرنا عشرة ايام وقطعنا الامل ، فتجندنا على القضاء في تكرار مشقات عرفناها فازدادت في التصور شدة وبلاء . ولكننا وجدنا شيئاً من التعزية في الآية : وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . فلا تخلو الطريق بين بلدين متحاربين من الاخطار . وبينا انا افكر ذات يوم في ما اقول لمولاي الامير في ماويه وقد سألني : أحسني انت ام حسيني ، وعرف بعدئذ اني مسيحي ، وكيف اجيب في يريم ذاك الشيخ الفقيه الذي جمع اولاد مدرسته صفاً وانشد واياهم : نصر الله المسلمين ، ورسول الخير امين ، بينا انا في هذه الورطة دخل الحاجب وبيده ثلاث لفائف قدمها لي قائلاً : من الامام . ففضضت الاولى فاذا هي :

بسم الله

مولاي القاضي العلامة عبدالله بن الحسن العمري حفظه الله وتولاه.
وشريف السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وصلى الله وسلم على محمد وآل.
هداته والله يحفظ ولي النعمة ويديم بقاه آمين ٠
وصلت الى هذا الحد وكدت من الغيظ اشتعل فصحت بالحاجب : يا رجل
هذه الرسائل ليست لي ٠ فاجاب وهو يحلف براس الامام ان قد جاء بها رسول
من الديوان يقول : هي لامين ريحاني فاستأنفت القراءة حيث وقفت مغضباً :

صدر السلام وصدر جواب البوسطة المرسول الينا ٠ العنوان لنا والمكتوب.
للريحاني كما تطلعون والله يحفظكم عامل حراز
في ١٠ رمضان سنة ١٣٤٠ علي الاكوع

ثم في حاشية : والله يجعلنا من عتقاء هذا الشهر الكريم ونعوذ بالله من النار.

اللفافة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الاجل المحترم الشهم امين الريحاني سلمه الله
بعد السلام والاكرام ٠ ورد كتابكم مع كتاب الى حضرة الحكيم محمد
فضل الدين وبوقته ارسلناه تلغرافياً اليه وورد جوابه وها هو مقدم اليكم ٠
اذا اشعرتمونا من مناخة بوصولكم نلزم القائم من طرفنا في الحجيله ليرافقكم
الى باجل٠ قائد الجيوش الادريسية
في ٧ رمضان سنة ١٣٤٠ محمد طاهر
رضوان

اللفافة الثالثة

حديدة ٨٣٣ ٧ — ٨ سنة ٤٠

الى صديقنا امين الريحاني

حياكم الله وعافاكم · سرنا عزمكم لطرفنا · اهــلاً وسهلاً بكم · حين وصول تلغرافكم اشعرنا حضرة القائد الشيخ الهام محمد طاهر رضوان قائد الجيوش الادريسية بباجل مــا يلزم · وقريباً نراكم ان شاء الله باحسن حال · في ٧ رمضان سنة ١٣٤٠

محمد فضل الدين

والحمد لله ! قد اطمأن بالنا وحسن حالنا · لا تظن ايها القارىء ان اهتمامنا لمثل هــذا الامر واشراكك بل اشغالك به هو ضرب من السخافة · فانك اذا رافقتنا في السفر وادركت بعض مقاصدنا واحسست ببعض ما كنا نقاسيه في سبيلها تتأكد ان صغار الامور تحول احياناً دون كبارها · فالحمد لله اذن على ساعة في ١٠ رمضان سعيدة ، بددت غيمات ماوية و يريم من سمائنا ، وفتحت لنا طريق الحديدة ، فصفا الذهن للمفاوضات السياسية ، التي استمرت بعد ذلك عشره ايام · ثم استأذنا حضرة الامام بالرحيل فكان في توديعه لطيفاً كريماً : — ما تمكنا ونحن في رمضان ان نقوم بالواجب ونود ان تبقوا عندنا الى شهر العنب [1] قد تعود الينا يا قسطنطين ، اما الاستاذ امين فسيسوح في البلاد العربية و يرى غيرنا · فلا تظلمنا يا امين بالمقابلة بيننا و بينهم ·

ثم امر لنــا بالركائب وكان الموكل بتسييرنا السيد علي زباره غيوراً على راحتنا ، فلم يدع شيئاً من مريحات السفر وحاجاته الا وفره لنا · مثال واحد من غيرته وعزمه ، عندما جاءت المطايا صباح يوم الرحيل رأى ان سرج احداها بلا ركاب · فسأل صاحبها عنــه فاعتذر وتبرم ، فضرب السيد علي يده على

(١) عنب صنعاء مشهور بجودته وانواعه وهو يستوي هناك في اخر حزيران

وسط الرجل واخذ الجنبية [1] منـه قائلاً : رح هات الركاب . فراح المكاري الى المدينة راكضاً وعاد ملبياً . ولم يرجع السيد علي الجنبية اليه الا بعد ان تشفعنا به . — اذا كان هذا اهماله وهو لا يزال تحت عيني فكيف يكون في الطريق ورأس الامام !

واشفع القسم بخطبة وجهها اليه والى رفاقه كلها وعيد تهديد . شيعنا السيد علي والسيد احمد الكبسي من قبـل الامام الى خارج السور فودعناهما هناك شاكرين متأسفين ، اذ كنا نجتمع بهذين الفاضلين اكثر من سواهما وكان السيد احمد خصوصاً اقرب الجلساء الينا واكبر المؤنسين .

سرنا من صنعاء غرباً نبغي البخر . وما كنا لنتصور ما دونه من الجبـال وما دون جبل واخر من هول المسافات حتى وصلنا ذاك اليوم الى رأس بوعان . ولكننا ايها القارىء العزيز لم نصل واياك اليه . اننا لا نزال بين صنعاء وجبل عُصر في سهل وسيع فيـه بقع صغيرة مزروعة تلوح بين فسحاته السمراء البور « كباقي الوشم في ظاهر اليـد » اذا آثرنا استعارة من شعراء الجاهلية . او كالشامات في وجوه البدويات اذا شئنا التشبيب . او كبعض الاوراق الخضراء — وهذا اقرب الى مـا كنا نشعر به ونحن نجتاز تلك الارض المهملة — في شجرة عرّاها الخريف . ولكن للشجرة ربيعاً يعود اليها . وهـذه البلاد في مكان من الارض شاءت الطبيعة ان يكون ربيعه دائماً ، وما شاء الانسان غير الكسل والجهل والخمول .

ان الهواء والسماء والماء تبسم كلهـا لارض اليمن . ولكن اليماني لا يستخدمها الا في مـا يحتاج مباشرة اليه . فما لا ريب فيه ان في السهول حول صنعاء ماء حيثما بحثت ، لان في قديم الزمان ، كما يقول بعض العلماء كان يجري نهر هناك . ولا تزال المياه تتدفق من جبل نُقم في قني المدينة . ولكن

(١) للجنبية اي الخنجر عندهم قيمتان ، قيمة حقيقية في مـا تصلح له ، وقيمة عرضية اجتماعية اي في ما توجبه المروءة واللياقة . فهي اذاً اعز ما يحمله اليماني ، وفي انتزاعها منه اشد تاديب له واكبر اهانة .

الصنعاني يغني طيلة نهاره لجمل الساقية • او يقضي نصف نهاره في « تخزين » القات ولا يسعى في احياء ارض فيها قيد عشرة اذرع واقل الماء والثراء اجل ، ان هناك بين لقم وعُصر وما يدعى في الشمال الارحاب من المياه ما يكفي لاشغال مئات من السواقي والجمال • فلو استخدمت لكانت تلك السهول بساطاً واحداً اخضر ناضراً • شيء محزن •

وهذه هي • طريق العربات التي بناها الترك انه ليحزنك كذلك مرآهـا وذكراها • بدأنا نصعد فيها الى جبل عُصر فحدثنا خرابها بفشل الدولة وشكا الينا اهمال الامام • هي طريق الحديدة الى عاصمة الاذواء ، الى قلاع الزيود ، بُنيت لرسل الخراب لا لرسل العمران • بُنيت لجر المدافع ونقل الجيوش ، لا للتجارة والمواصلات المثمرة خيراً • تلفتنا من آخر منعطف فيها فاذا بصنعاء وقد احتجبت بحجاب ذهبي شفاف نسجته لها الشمس الشارقة فوق أُقم العاري العقيم •

وما اجمل ما لاح لنا في سفحه خلال الحجاب • مدينة عجيبة كان لهـا من اسباب المجد والشهرة والعمران ما لاكبر مدن العالم المتمدن اليوم • لها تاريخ غابر مجيد ، لها مدنية قامت بين شمس المجوس وكواكب الاوثان ، وتعددت فيها الاسرار والكهان ، وعزّت عندها آمال الانسان ، فكانت ملكة سباء ، وكان حِمْير ، وكان قحطان • ثم التوحيد وشوكة قريش وعدنان • وما تقدمه وتبعه من علماء وشعراء ، ونوابغ في فن البناء • ناهيك بما خصتها الطبيعة مما لا يزول ابداً ولا يحول • فهي على علوها لا تعرف التلج ، وهي على دنوها من خط الاستواء لا تعرف من قيظه غير نزوات واهنات • وفيهـا من الماء القراح وغزارته مـا تقدم ذكره تكراراً • فلو عُمرت اليها الطرق الصالحة للعربات من الغرب ومن الشمال • واتصلت بها عدن والحديدة بسلك الحديد لتقاطر اليها الناس صيف شتاء من كل النواحي حولها ، ومن البلدان العربية والافريقية الشرقية كلها ؛ ولَغدت في اقل من عشرين سنة باريس البحر الاحمر •

اي صنعاء ، عاصمة الزيود والجمود ، اننا نغار عليك من الاثنين ، ونود ان يعاد اليك مجد الاجداد مشفوعاً بشيء من العلوم الحديثة التي من شأنها ان تصلح احوال الانسان فترقيه في جسمه وعقله وروحه ، وفي بيته ومدينته و بلاده . وما سواها من العلوم لا نبغي لك ولا لسواك من مدن الشرق والغرب .

اي صنعاء عاصمة الاذواء ، اننا في حبنا ابنائك وهم مثلنا من الناس ونحن واياهم من سليلة واحدة ، نفادي حتى بشيء من الوطنية من اجلهم ، فتصح اجسامهم اذا اتقوا الامراض ، وتنجلي عقولهم اذا فتحوا المدارس ، وتصفو روحيتهم اذا ادركوا من الدين حقيقته الاولى وسره الاعلى . اما الذين ادركوا بعض تلك الحقيقة و بعض ذلك السر فهم يشاركونك في صلاتك ، في فاتحة كتابك وختمته ، و يودون ان تشاركيهم في صلاتهم . نظرة اخرى يا صنعاء ونستودعك الله . . قد اكلنا من ثمارك ، وشربنا من مائك ، ونمنا تحت سمائك ، وانتعشنا بعليل هوائك ، وكنا قبل ذلك نحبك ، فكيف بنا بعد ذلك ؟ فاذا جاء بعدنا من يصلي صلاتنا وصلاتك ، من يحبك حبنا و يغار عليك غيرتنا ، ورأى فيك بعض ما تاقت اليه النفس منا وما اشتهاه العقل والفؤاد — بعض العلم ، بعض الفنون ، بعض الطرب ، بعض العمران — سنغبطه ونحن بعض السر الاكبر في الفضاء ، في اللانهاية ، وستغبطه منا التراب والعظام .

وهذه اقحوانة في الطريق واقاحي في الحقل بيضاء صفراء تبشر بالربيع . ولكنه ربيع آبدٌ نخيل يكاد يطأ الثرى فتظهر منقطعة آثاره الناعمة . ومثله لا يحيى في مثل هذا العلو بارض الشمال . انما نحن على الف قدم فوق صنعاء وتسعة آلاف فوق البحر . وقد احتجبت عنا المدينة المحبوبة احتجاباً — ابدياً ؟ الله اعلم .

وتلفتت عيني ومذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

وهو ذا النبي شعيب قريب بعيد . هنالك على الافق امامنا يلوح كالطيف اسحم رائعاً . هو اعلى الجبال في شمال اليمن بعد شبام ، فيرافقنا اليوم وغداً ولا يحتجب ما دمنا منجدين .

سرنا اربع ساعات فوصلنا الى مَتْنَه ، وهي للقادم من مناخه او من الحديدة

آخر مرحلة الى صنعاء . مَتْنَه ! كانت في ايام الترك مربعاً لعرائس الحبور ولرسل السلامة والسرور . فكم من ابناء الدولة المجاهدين — المسوقين الى الجهاد في اليمن — كانوا يخرجون من تهامة فيموتون في قيظ السبخاء ، وفي الشعاب ، وفي « النقيل » وفي مضائق الجبال ، وفي مكامن الاودية ، فيهتف من يصلون منهم الى هذا المكان سالمين : اربع ساعات الى صنعاء ، بادشاهم جوق باشا ! وكانوا يقضون يوماً او يومين هاهنا ينتظرون المتخلفين من اخوانهم فيعيدون ، ويهللون ، ويبذلون من « الظلط » ما لا يزال صاحب « السمسرة » يتلمظ بذكره . فيهز رأسه اليوم آسفاً محزوناً و يريك البيت الذي كان قصراً في تلك الايام ... وكم من يهوديات صنعاء خففن فيه من كرب المجاهدين وغمهم !

الطلول الدوارس هجرتها الاوانس

وقفنا في مَتْنَه اكراماً لعساكرنا وقد اشتهوا القهوة ، قهوة القشر . وكلهم مسرورون لانهم مسافرون في رمضان — وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أو على سَفَرٍ فعِدةٌ منْ أيام أُخَرَ — كلهم الا واحداً ، هو رئيس القافلة ، ابى التمتع بتحليل النبي ، وكان الجائع النعسان على الدوام . فما ناديناه مرة الا وكان ينعس فوق حماره وهو يمشي الهوينا مشية البقر ولا يلذ له الا مؤخر القافلة . اسمه — الدليل لا الحمار — حمدان ، فسميناه نعسان فزاد ذلك في الطين بلة . وكأن الاهانة لحقت به و بحماره فصار لا يُرى لا في مقدم القافلة ولا في مؤخرها . — يا حمدان النعسان انت الدليل ، وما نحن بفقهاء لتدلنا الى الوراء . رح يا حسن فتش عن النعسان . فيعثر الجندي به وهو يتسكع في منعطف الطريق فينتهره و يسوق بالبندق حماره . فيجيئنا النقي النقي ، الصائم النائم ، وهو يتمتم : بسم الله الرحمن الرحيم ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وعليك السلام يا حمدان ، وصلنا الى بَوْعان . وهي بضعة اكواخ عند جسر لطريق العربات جميل الهندسة ، متين البناء ، حجارته سوداء وحمراء

و بيضاء · احسن ما في هذه الطريق جسورها · في بوعان اسطبل يدعى مقهاية [1] دخل « القراش » اي الدواب والعساكر اليه ورحنا انا وقسطنطين نبغي ظلاً تحت الجسر فبسطنا غداءنا الى جنب الماء هناك · وبعد ان أكلنا واسترحنا قليلاً استأنفنا السير ، فودعنا طريق العربات التي تمر في سفح جبل بوعان وتلف في الاودية لتصل الى مفحق ومنها الى مناخه · صعدنا في الجبل في طريق وعرة زلاء ، وقلعة بوعان الى شمالنا تنطح السحاب ، حتى وصلنا الى اعاليه ، فصفرت فيه الرياح واعلمتنا بمظهر من مظاهر الطقس مدهش غريب · انما الشمس شمس الصيف ، شمس اليمن المحرقة ، وانما الزهور زهور الربيع ، اما الهواء فلا ربيع فيه ولا شيء من الصيف · كنت اذا اغمضت عيني اظن نفسي في اعالي لبنان في الشتاء · هذه ثلاثة فصول في وقت واحد ·

ان رأس بوعان لسطح اليمن · وعلى السطح صخور هي في شكلها ووضعها شبيهة بهيكل عظيم له بابان ، الشرقي اي باب صنعاء والغربي اي باب مناخة · دخلنا الهيكل من باب صنعاء ، فمررنا برواقه بين انصاب جليلة ، وعمد رائعة ، وصخور هي كالهياكل الصغيرة في الهيكل الاكبر · وما هي الا بضع دقائق حتى وقفنا في الباب الغربي ، باب المخاوف والاهوال · ان المسافر ليجد نفسه في غير ما الفه من الارض فيحس هنيهة ان دورة الدم فيه قد وقفت تماماً ، فيشهق ولا يتنفس ، ويهتف ولا يتكلم · هناك مشهد من الجبال والاودية رائع ، مدهش مخوف ، يهمس ربه في اذن الانسان : لا تكن مكابراً ، ولا تكن فخوراً ·

لا اظن ان في بلاد سويسرة مثل المشهد الذي ينبسط بل يتراكم امامك في اليمن عند ما تقف على ذروة بوعان فتشرف منها على بحر تجمد تحتك ، رؤوس امواجه قنن الجبال ، وسطحه الاودية المتشعبة الملتفة بعضها على بعض · وهنالك دون القنن الشاهقة ، والصخور الشامخة المسنمة ، والهضاب

---

(١) في الطريق من عدن الى صنعاء يدعى الخان سمسرة ، وفي الطريق من صنعاء الى الحديدة يسمونه مقهاية او قهوة

الهرمية ، والاودية المدلهمة ، والمنحدرات الهائلة ، هنالك فوق شبه الغيوم التي هي الجبال يلوح في الغرب حراز وفي الشمال سريح وكوكبان ، هنالك الغيمة التي هي مناخة وشكلها كسرج الفرس ، دلني عليها حزام ، فما صدقت ان سنكون فيها مساء الغد . وما هول المسافات والشواهق بشيء عند هول الوهاد والاعماق . لبنان ! نعم ذكرت لبنان . ولكنه وان فاق بوعان وشبام علواً ، فهو يضيع في جبال اليمن واوديته المترامية الاطراف . مناخه ! سنكون غداً هناك . انك اذا وقفت في بوعان لا تصدق ان بشراً يستطيع ان يقطع تلك المسافات في اقل من اسبوع .

وان الطير نفسه ليتعثر بسنام الصخور والقنن ، فلا نظن ان ما خلقه الانسان على شكل الطير يستطيع ان يجتاز هذا الفضاء القائمة فيه الجبال كالجبابرة ، الكامنة رؤوسها كمون العدو في السحاب . اما اذا حلقت الطيارة فوقها فهي ولا شك تضل السبيل في ما يشبه تحتها امواج البحار .

من سطح اليمن في بوعان شرعنا ننزل الى قبوه في مفحق وبين الاثنين درجات لا تعد ، ووهاد لا قعر لها ولا حد ، ومنحدرات لا وطيد فيها غير صخور تظلل الجادات ، وتسد فيها المنعطفات ، فيزل عندها حتى الانسان ، فكيف بالحيوان . مشينا والعين تبغي من المشهد الزيادة ، والرجل تبغي السلامة ، فكنا نضطر ان نقف لنحقق البغيتين . وكلما وقفنا لاح لنا في المشهد شيء جديد جليل ، في شعب هناك او في نقيل . ان جبال اليمن كجبال سويسرة في وهادها واكبر منها في اتساعها . ولكنها غير مأهولة ، وتقل فيها الاشجار والمياه .

في الطريق من صنعاء الى مناخه لم نمر بمدينة واحدة . واكبر قرية شاهدنا هي الحَيمه . قرية عجيبة في وضعها ومركزها ، تراها الى اليمين في الطريق من بوعان الى سوق الخميس ، وبيننا وبينها اودية متشعبة عميقة ، وعلى كتف احداها ارض بدكات في شكل نصف دائرة ذكرتنا بلبنان . وما اكثر ما يذكرك في اليمن بلبنان . ارض الحيمة كلها مزروعة وفيها العودان ، البن والقات .

وفوق تلك الدكات البلدة وهي عدة اقسام ، عدة احياء . كل حي قرية بذاتها بيوته عالية ومتصلة ملزوزة كبيوت المدن بعضها ببعض . وبين كل حي وحي مسافة يتخللها شعب او نقيل . امـا السبب في هذا التقسيم والتباعد في قرية واحدة فهو يتصل كما أُخبرت بثارات توارثها الاهالي وهم من عشائر مختلفة ، فاتخذ كل قوم حيّاً منفرداً بعيداً عن الاخر ، وشادوا فيه بيوتهم بل حصونهم ليكونوا في مأمن من رصاص البنادق اذا شبت الحرب بينهم . انك لتراهم مـع ذلك يحرثون الارض و يستثمرونها . اجل ، ليس في الطريق من صنعاء الى مناخة اخصب واجمل من بساتين الحيمة الغضة ودكاتها المستديرة الخضراء .

وصلنا عند الغروب الى سوق الخميس وهي قرية صغيرة قائمـة في وسط المنحدر بين بوعان ومفحق ، تحتها الوهاد وفوقها الجبال ، وفيها مركز للسلك الذي يصل مناخة بصنعاء . استقبلنا العامل ورجاله فانزلونا في دار الحكومة ، واستأذنونا بعد العشاء بان يعقدوا عندنا جلسة القات ، فقبلناهم مكرهين ضيوفاً ، لاننـا في مرحلة استمرت احدى عشرة ساعة وفي اوعر طرق اليمن التي اجتزناها كنـا قد اشرفنا من شدة التعب على الهلاك . جاؤوا برزم القـات و بالمداعات ، فقفلوا النوافذ ، ونزعوا عن رؤوسهم العمامات ، وطفقوا يدخنون « و يخزّنون » دون انقطاع حتى امست القاعة بعد نصف ساعة مثل مخنق الفيالج . خرجت الى الفلاة لانجو من الاختناق . ولما عدت الفيت القسطنطين ، زاده الله قوة وعافية ، يفكه الجلوس باخبار الطيارات . وقد تأسف عندما نهضوا بعد نصف الليل يودعون ليستأنفوا الجلسة في غرفة اخرى . فتحنا النوافذ لنطهر البيت ، وما كدنا نـنام حتى استفقنا على صوت الطبل طبل السحور .

قمنا ، و « لا حول ولا » على الالسنة نشد للرحيل . فاستأنفنا السير في نور القمر الضئيل ، نازلين من جبل الى جبل ، ومن وادٍ الى واد — نازلين الى جحيم اليمن ، الى القعر الذي لا قعر دونه في تلك الارض ، الى مفحق وما مفحق غير اسم لشعب ضيق مدلهم شاهدنا فيه لاول مرة الرباح وهو سعدان كبير وشاهدنا من الطير ما يشبه الهدهد ، ومن النباتات الشوكية وانواع الصبير ما لا نعرف له

اسمًا غير الصبير وصبر ايوب ·

من سطح اليمن في بوعان الى قبوه في مفحق مسيرة ست ساعات ، فيهما منتهى الوحشة والوعورة · ثم من مفحق عدنا الى التصعيد ، ثم النزول مراراً ، فمررنا بمقهاية تدعي العِجزْ استقبلتنا فيها امرأة ذات وجه بشوش فتك الجدري بمحاسنه ، فلم يُبق على غير الشكل والعيون · سقت « القراش » بقربة ملأتها من البئر بيدها ، وكانت في عملها وحديثها سامرية بلاد الزيود · قد شاهدنا غيرها من اخواتها لابسات السراويل المعقودة فوق الخلخال يشتغلن في الحقول ، واكثرهن يحملن في وجوههن نبأ حسنٍ ذهب فريسة الجهل والوباء · وكأن الناس هناك الفوا هذا التشويه فلا ينفرون منه ولا يحزنون ·

وصلنا بعد الظهر الى سفح جبل حراز فجلسنا هناك في مقهاية تحت خيمة من الغرف نستريح قبل تصعيدنا الاخير الى مناخة ، ففكهنا احد الرفاق بقصةٍ انستنا بعض اتعاب الطريق · كان الحديث في النساء والمحدث رجل خفيف الظل ، حسن النكتة ، رافقنا من متنه ورجلين اخرين احدهما شيخ شائب والاخر جمّال حطاب · قدم لي المحدث نوبيش المداعة قائلاً : لا يهمهم الجدري ما دام الفقيه بخير · لهذا الرجل — اشار الى الشيخ الذي كان نائمًا — امرأة مثل من رأيت وجه حسن ولسان حلو · وله فتاة اشتهت الام ان تعلمها القراءة فاستحضرت الفقيه الى البيت · فقرأت المسكينة اسبوعًا فقط ثم —وضرب كفه الايمن على قبضة اليسرى — وقعت في الشرك · طلبها الفقيه من امها فأبت فافرغ البندق في بطنها · ورأس الامام ! فقلت : قتل الام ؟ فاجاب : قتل الفتاة ! وهوذا الحين في السجن بصنعاء · وهذا الشائب — مسكين يجب ان يحمل كفنه معه في السفر — هو زوج الام وابو الفتاة · راح يطلب من الامام دم الفقيه واهل الفقيه يشتهون دفع الدية ·

— وهل تقبل الدية ؟

فاجاب وعينه تغمز وتلمز : اذا كان الفقيه علم الام كذلك فلا خوف على حياته · تقبل الام الدية · ورأس الامام ، وتسترجعه لتكمل القراءةَ · وما

قولك وهذا زوجها ، وهي كمن رأيت ، الا تظنها تقبل ؟

— واذا ابت ؟

— المأمور يا افندي يرتشي برطل زبيب ٠

فهز الجمال رأسه اثباتاً وقال : في ايام الدولة كنا نرشوهم بالظلط ٠ الترك يأكلون الزبيب ٠

فقال القصاص : خير الجود الموجود ٠ كانت الظلط في تلك الايام مثل الزبيب اليوم ٠ وكان يحملها الترك من مناخة الى بوعان ثم الى صنعاء في موكب عظيم ٠ انا مشيت مرة فيه ونجوت والحمد لله ٠ موكب عظيم يا افندي ٠ هذا الضابط حامل الظلط ، وهذا الجيش قدامه ووراءه والى يمينه ويساره ، وهو في الوسط مثل العروس يحرسها الفان من النظام [1] ٠ وهناك وراء بوعان الثائرون يكمنون للترك فيسلبون الظلط ويذبحون النظام ٠

فهز الجمال رأسه اثباتاً وقال : وكنت انا اشتغل للترك ، انقل لهم الحطب ٠ مجيديان اجرة الجمل ٠ وكان ابي واخي وعمي يحاربونهم هناك ، عند بوعان ٠ كنا كلنا نأخذ الظلط من الترك ٠

رحمة الله عليهم ٠ ما افادتهم المدافع والحصون وطرق العربات ٠ ولا نظن ان عسكراً من عساكر الدول الفاتحة في الماضي او في الحاضر يقوى على حصون الطبيعة واهل الحصون في هذه الجبال ٠

بعد ان صعدنا في نقيل مناخة واستوينا الى رأسه نظرنا الى المسافات الهائلة التي قطعناها فكان طيف بوعان وغيمة النبي شعيب في الافاق البعيدة شرقاً وشمالاً يثبتان ما نقول ٠ انك اذا قطعت تلك المسافات راكباً ، خفيف الثياب ، لأسير هولها ووحشتها ، فكيف بك اذا كنت جندياً تحمل عشرة ارطال على ظهرك ، وقنطاراً من الهم في صدرك ؟ اجل ، ان اليمن ضريح الدولة ، ولا يزال اهل اليمن يترحمون عليها ٠

---

(١) الجيش النظامي

الفصل الثاني

الى الحدود

مناخة — الحصن الحصين — عامل لا يحسن غير الواجب عليه — « لا يفلح العرب الا اذا بعدوا عن بلاد العرب » — المشهد من سطح البيت — مناخة واب — الفرق بين العاملين — قرية الهجرة — جبل وسل — العتّارة · الاسماعيلية والفرق الباطنية — الداوودية — مقهاية وسل — كيس النوم — الفقراء في لندن ونيويورك — قواعد الصحة والطب الخرافية — السعادين ترمينا بالحجارة — قاع صعفان — الحدود — الشيخ حمزه — « على الرأس امر السيد وعلى العين امر الامام » — شيخ الحجيلة — « كلنا نشتهي السلم » — المصيبة من الله — وله شريكان في اليمن ·

ان مناخة قائمة على قنــة جبل حراز التي تشبه صهوة الفرس · وهي قسمان قسم في الصهوة ، وقسم خارجها على ربوة في الجهة الشمالية · ولكنها في الحالين حصينة منيعة · فهي في علوها ، الف قدم فوق صنعاء وعشرة الاف قدم ونيف فوق البحر ، مسرح للغيوم وموطئ للنسور والعقبان · وقــد كانت بالامس موطيء قدم الدولة في اليمن الاعلى ومركز جندها الاهم · فيها ثكنة ، هي في مقدم الصهوة عند سنامها ، ثكنة كبيرة لا نسبة بينهــا و بين البلدة الصغيرة الحديثة البناء ، التي لا يتجاوز عمرها خمسين سنة ، ولا يربو سكانها على خمسة الاف منهم الفان يحملون البنادق ·

وفي مناخة اليوم مركز قضاء حراز ، ودائرة للسلك والبريــد ، ومفرزة من الجنود · وهي محطة للتجارة بين الحديدة وصنعاء · اما الحصون فلا حاجة اليها ، لانك اذا وقفت على سطح من سطوح البلد تشرف من الجهات الاربع على الهائل البعيد الغور من الاودية والوهاد والشعاب · لا اظن ان عسكراً من عساكر العالم يستطيع الاستيلاء عليها من الغرب ، قادماً من الحديدة ، او من الشرق ، قادماً من صنعاء ، الا اذا نفدت الذخيرة فيها · وعندئذ يتخذ المحاصرون

سلاحاً آخر من الحجارة يقذفون بها على العــدو ، فتفعل ما لا تفعل البنادق كما تيقن الترك في شهاره . لا عجب اذا كانت الرهائن ، وقــد عرفنا شيئاً من طباع اهل اليمن ، اساس حكم الامام وحصنه الحصين الاحصن . اذ لو اعلن عامل حراز استقلاله مثلاً ، او ابى ان يرسل اموال الزكاة ، او تصرف بقسم منها ، هو وجنوده في هذا الحصن الطبيعي الحصين ، فلا اظن ان امام صنعــاء يستطيع تأديبه والتنكيل به بغير ما عنده رهينة من لحم ذاك العامل ودمه .

أُنزلنا في بيت كبير هندسته اوروبية بناه احد ولاة الترك . ووُكل امرنا الى خادم عنده بخدمة المتمدنين بعض العلم والذوق ، اقتبسها ولا شك من اسياده السابقين ، فاقمنا يوماً هناك نستريح مما كابدناه من المشقات في مرحلتين لا مثيل لهما في رحلتنا اليانية .

زرت العامل الشيخ علي الاكوع ليلاً في مجلسه فاستقبلني وهو في قميص النوم وامر لي بمداعة ورزمة من القات . واجتمعت عنــده ببعض العلماء وفيهم سيد معجب بعرب الاندلس و باحد ادبائها الشهيرين ابن زيدون صاحب الوزارتين . أعجبني حديث الرجل ، ومما قاله : لا يفلح العرب الا اذا بعدوا عن بلاد العرب .

تفضل حضرة العامل فأرسل مع نجاب علماً بوصولنا كتبته بيدي الى قائد الجيوش الادريسية في باجل . وكان قد اعلم بذلك ولي الامر في الحدود ، وأعد لنا اكياس البن التي امر بها الامام — هدية امامية . ولم يلح الشيخ الاكوع علينا بالاقامة مثل سواه . ولا تحرك خارج بيته او ديوانه ليقوم بغير ما وجب عليه من الاكرام كعامل الامام . لا . لم يكلف نفسه زيارتنا ، ولا تذرع برمضان او اعتذر . أعجبني الرجل في سلوكه الفريد في بابه . هو حر شاذ الطباع لا يعمل غير الواجب عليه ، بل يعمل بما يأمر الامام عملاً تاماً لا نقص فيــه ولا زيادة .

اقمنا يوماً في مناخه نتمتع بمحاسنها ونستريح . صعدنا الى السطح قبل ان احاطت بها الغيوم فكان ادهش ما شاهدناه قريباً منا صخرة قائمة كمسلة فرعون

وراء القشلاق ، وحولها بعض البيوت من لونها ، تدور اليها جادة ضيقة زلاّء فتصل الى قرية وراء الصخرة تدعى كاهِل . ودونها على مسافة منها قرية الهِجْرَة المعتصمة بقنة اخرى من جبل حراز . ثم سرحنا النظر بالافاق البعيدة عن حراز فاذا بوادي مَوسَنِه منبسط امامنا شمالاً بغرب ودونها جبلا حفاش ومَلحان ، وبالاودية الشرقية التي اجتزناها امس ودونها النبي شعيب وتحته بوعان . وهناك قنن عديدة شيد فوقها ابن اليمن حصونه . فهو من هذا القبيل الجبلي يبني بيته يقيناً على الصخرة . وقد الفيناه في هذه الجهة الغربية اكبر همة واكثر نشاطاً من سواه في النواحي الاخرى . دليل ذلك الارض المحروثة والدكات والمنحدرات الخضراء .

سررنا بيومنا في مناخه سرورنا بيوم في اب ، فحملنا ذلك ، ونحن شاكرون في الحالين ، على المقابلة بين العاملين . ان عامل مناخة عربي ذو فضل ، وعامل اب عربي ذو فضل ونوافل . هذا حلو الشمائل دمث الاخلاق ، وذاك على شيء من طباع البدو الذين لا يسيئك منهم لا الكلام ولا السكوت . لم يفاخرنا الشيخ الاكوع بحكم الامام ، ولا تبجح مثل امراء الجيش وبعض السادة في ماوية وذمار . انها لمن حسناته التي تسر ولا سيما من كان مثلنا قادماً من تلك النواحي الشرقية .

في صباح اليوم الثاني جاءنا من قبله عدد من العساكر ، ضعف ما صحبنا من صنعاء ، ليرافقونا الى حدود الامام . فاستأنفنا باسم الله السير وشرعنا ننزل ثانية من سطح اليمن ، من اعلى سطوحه ، الى اوطى ارض فيه ، الى وادي حجّام في سفح جبل وسِل . وهي اوطى من وادي مفحق وبينها وبيننا عقبات كؤودات ، فيها النزول اصعب جداً من التصعيد . اما وسل فبيننا وبينه جبال وقرى نعدد منها ولا نعددها . هذا جبل الطويلة وهو خط طويل مستقيم على الافق الشمالي يتصل ظله شرقاً بالحَيمه . وهذه قنة شُبام التي تظلل مناخة بعد الظهر وهي اعلى قنن اليمن على الاطلاق . وهناك عندما نخرج من ظل شبام يتراءى لنا تجاه مغرب الشمس جبل رَيمه واعلى قنة فيه بِراع . وهذه على احدى قنن مسار

قرية تشاركه في الاسم وبينها وبين شبام الهجرة · تلك القرية العجيبة الرائعة ، المزدحمة بيوتها في ورَم برأس الجبل ، المتراكمة بعضها فوق بعض كأنها في لزّها وشكلها وعلوها قطعة شاهقة من مدينة نيو يورك ·

عند ما نجتاز الهجرة نطل على وادي وِسْل ، وهضابها كالدرج تحتنا ، واحدة تلو الاخرى ، كلها زاهية بانواع النبات والزهر ، خصبة غضة · وقد امتاز بين مزروعاتها شجر البن الذي يزرعه اليمانيون في الدكات ، في اماكن تظللها الصخور والهضاب ، اي في الشعاب والمنحدرات التي لا يصل اليها غير نصف يوم ، كل ما تحتاج اليه ، من الشمس ·

انك لتعجب من تلك البيوت بل الحصون القائمة فوق الصخور كأنها جزء منها ، في اماكن يكاد يستحيل على الانسان والحيوان الوصول اليها ·

ومما مررنا به حصن هو قرية بنفسه · بل القرية هي حصن تعتصم به فرقة من الباطنية الذين ابادهم الزيود بالسيف كما اخبرنا السيد محمد · ولكن الابادة لم تكن على ما يظهر تامة فاقام من نجا منهم في هذا الحصن الذي يدعى العتّارة وفي ضواحيه ·

انهم فرع من فروع الاسماعيلية [1] العديدة يدعى الداوودية وزعيمهم داوودي مكرمي بلدي اي انه داوودي المذهب ، مكرمي النسب ، بلدي الاصل ·

---

(١) الاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر اخو زيد امام الزيود · من فرقها المهمة النزاريّة وهم ينتسبون الى المعز الفاطمي يقيمون في بمبي بالهند وعددهم نحو مئتي الف اكثرهم تجار ذوو يسار ، وامامهم الاكبر اغا خان · ومنها السليمانية في اليمن ويسمون ايضاً المكارمة · هم اصلاً من نجران ، من قبيلة يام الكبيرة ، عددهم هناك لا يتجاوز العشرة الاف وداعيهم علي بن محسن المقيم في بدر موالي الادريسي · في الهند من السليمانية نحو الف اكثرهم متوظفون في الحكومة · ومن الاسماعيلية الداوودية وهم من بني مرة اي مرّة اليمن لا نجد يقيمون في عدن والحديدة وبيت الفقيه وفي جبلي حراز وهمدان · ويسمون كذلك البُهرة · عددهم في اليمن لا يتجاوز الخمسة الاف · ولكن البهرة في الهند مثل النزارية كثيرون ، يربو عددهم على الثلاثمئة الف ، اكثرهم من التجار ذوي اليسار ، وداعيهم اليوم طاهر بن محمد سيف المقيم في سوراة · كل هذه الطوائف اسماعيلية كما قلت لانها تنتسب الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وكلها باطنية لانها تبطن بعض اسرار الدين ولا تعلم منها عامة الناس غير اليسير ·

والداوودية اشداء حاربوا الاتراك ثم حاربوا الامام واستعانوا بالاتراك عليه ٠ وهو اليوم يعاملهم في بلاده كما يعامل اليهود ، فيأخذ منهم الزكاة و يسميها الجزية او انه يفرض عليهم الجزية و يسميها الزكاة على انهم لا يدفعون باية حال الا كرهاً ، لان في مذهبهم لا يجوز ان يدفعوا الزكاة الى احد من ائمة او من امراء المسلمين ٠

نودّع الداوودية في العتّارة ولا تزال وجهتنا مغرب الشمس ، فنطل على اللكمة ، قرية من قرى جبل مسار الذي يمتد شمالاً بغرب ، وتحتها العريف ووراءها جبل صفعان وفيه حصن مَتْوح ٠ اما وراءنا فقنة شبام لا تزال تلوح فوق كل الجبال ، ترافقنا اربع ساعات الى ان نقرب من وسل ٠

وما وسل غير بيتين ومقهاية و بستان من القات ٠ وهناك امرأة اخرى تبادر الى استقبالنا وخدمتنا ٠ بدأنا نشعر بعد خروجنا من صنعاء بوجود النساء في العالم ، النساء العاملات مثل الرجال ٠ سقت الامرأة « القراش » وشربنا نحن والعساكر قهوة القشر ، « تقشرنا » [1] وادركنا هاهنا لزوم الفنجان الخاص الذي يحمله السادة مع كيس النوم في اسفارهم ٠ اما الكيس ، اذا كان المسافر يضطر ان ينام في مثل هذه المقهاية ، فهو الزم ما يلزم ٠ هو كثير الاستعمال في اليمن خصوصاً في الجيش ٠ الا انهم لا يربطونه حول العنق كما قد تظن ، ايها القارئ بل فوق الرأس ٠ هم يجعلونه كبيراً لهذه الغاية فيتمكن صاحبه وهو فيه من زمه وعقده بيده داخلاً فيمسي اذ ذاك كله ، هو ورأسه ، في الكيس ، فيستنشق ما دام نائماً كل ما يتنفسه من حامض الكربون ولا يختنق ٠ ولا ينهض صباحاً ووجهه كالرغيف المحروق ، كأنه اكل ناراً في نومه ٠

وهم فوق ذلك يقفلون النوافذ كلها قبل ان يحتلوا الكيس ٠ فما قول اسيادنا الاطباء الذين يهددونا بالموت اذا اقفلنا النوافذ عند النوم ٠ هل جربوا حامض الكربون في انفسهم ؟ اوَ ليس من الحكمة اذا اضطر عدة اناس ان يناموا

(١) تقشرنا على وزن تقهونا

في غرفة واحدة صغيرة ان يعتزل كل عن الاخر بهذه الطريقة ، ان يحجر كلٌّ على نفسه في الكيس ؟ اليس خير له ان يأ كل هواءه — حامض كربونه — من ان يأ كل هواء غيره ؟

ان في احياء الفقراء بالمدن العظيمة كلندن ونيو يورك ، حيث تنام العائلة الواحدة في غرفة صغيرة مظلمة فاسدة الهواء ، كثيرين ممن يحسبون الكيس نعمة لو علموا به . فهو والحق يقال احسن دواء للقذارة ، ما لازمت القذارة الفقر والشقاء ، وما دام الاغنياء المالكون تلك البيوت اخدان الحكومة التي لا توجب عليهم التحسين فيها . ادخل رأسك في الكيس ايها الفقير العزيز ، انت الساكن في الطرف الشرقي بلندن او في حي اليهود بنيو يورك ، ادخل رأسك في الكيس تنجُ ليلاً في الاقل من انفاس عيالك ومن اقذار بيتك .

اما الكيس الاعظم فهو هذا الفضاء . ولعمري ان من كان هواء الجبل ارثه لا يلقي رأسه تحت سقفٍ ساعة واحدة . الا ان اليماني خصوصاً والعربي عموماً يخاف هواء الليل و يتأ ثر من البرد اكثر من سواه . كأن شدة الحر تضعف الدم او تغير في تركيبه فترق الكريات الحمراء فيه فيأثر اذ ذاك البرد في صاحبه تأثيراً مضراً . والذين ينقلون من الاقاليم الباردة و يقيمون زمناً في اقليم حار يمسون مثل اهله .

هذا الرفيق قسطنطين وهو مثلي من الشمال ، الا انه اقام بضع سنين في جده فصار يخشى الهواء في الليل كأنه سم زعاف . وكم تناقشنا في الموضوع وكنت في حجتي وفي غيظي اسيء اليه ! فلو سكتنا وعدنا الى اجسامنا ، الى صحتنا تتكلم عنا ، لكنت ولا ريب مغلوباً . لان فيه من العافيه ، وهو الذي يقفل النوافذ كلها ، ما لو وُزّع على خمسة مثلي ، انا الذي لا استطيع ان انام دون ان افتح النوافذ كلها ، لأ هّلهم كلهم للجندية . وهذا مع صحة اهل اليمن اجمالاً ما حملني على الشك في بعض قواعد الصحة التي اصبحت في الغرب ايات منزلات . وهي لا تخلو من الخرافات . ليس الهواء الطلق وفوائده موضوع بحثنا الان . الا اني اقول ، قبل ان نترك مقهاية وسل و بستان القات ، قد تكون الرئة

في الهواء المفعم بالا كسجيان كالاسفنجة اذا امتلأت مــاء . والاكتفاء حــد الافادة في كل شيء .

اما وقد اكتفينا من هواء الجبال زاداً فصرنا نتوق الى هواء فيه رائحة الملح ، الى هواء البحر ، وهو لا يزال بعيداً . لولا ذلك لما كان الحر في وادي وجّام شديد الوطأة خصوصاً على من كانوا يرتعشون في ظل شبام منذ ست ساعات . جلسنا للغذاء عند بئر قديم تحت شجرة من الأثأب وهي اكبر اشجار اليمن ، فسمعنا اصوات السعادين في الحرج فوقنا واطلقنا عليهم الرصــاص ، فبادلونا الاكرام ورجمونا . نعم رجمونا بالحجارة ، فكانت اشد علينا من الرصاص عليهم ، فارتحلنا من ذاك المكان ، تقهقرنا مغلوبين ولكننا سالمين .

عبرنا الوادي ووصلنا بعد ساعتين الى حدود الامام في قاع صعفان وهنــاك محطة التجارة بين تهامة واليمن . هناك ضابط الاتصال بين بلاد السيد و بلاد الزيود ، بين السيد الادريسي والامام يحيى . هناك في تلك البيوت والخيم مركز الشيخ حمزه ، حيث ينبغي ان نصرف عساكرنا لانهم غير مأذونين باجتياز الحدود ، ونستصحب حراساً من رجاله .

ترجلنا خارج الخيام ومشينا الى بيت حقير بينها ، فاستقبلنا عند الباب رجل صغير الجثة ، براق العين ، عريض الصوت ، ليس عليه من الثيــاب غير الفوطة يتزر بها والعمامة . فسألته عن الشيخ حمزه فاجاب : ها هو كله ، وقبــل ان دعانا الى الجلوس سلم وقال : قد تحيرتم — اي تأخرتم — نحن هنا وعساكر السيد في عبال بانتظاركم منذ ايام . لكم الان الخيار في امرين تبيتون عندنا او تكملون الى عبال . كل شيء حاضر هنا وهنــاك . من هو امين الريحاني فيكم ؟ فاجبته كما اجاب سؤالي عنــه : ها هو كله . فلم يضحك ، ولا غيّر لهجتــه — نحن يا امين تحت امر من وصــانا بكم . نحن قدامكم ووراءكم . على الراس امر السيد وعلى العين امر الامــام . راحتكم علينــا وسلامتكم مطلوبة من الله ومنا . فاذا اشتهيتم السفر الان كان السفر . واذا اشتهيتم الاقامــة فاهلاً وسهلاً .

ادهشنا هذا العربي فاحببناه . استقبلنا بقلب عار مثل جسمه ، فكان صريحاً مليحاً . وكان شريفاً اكثر منه لطيفاً . فوددنا المبيت عنده لولا اننا خفنا ان نثقل عليه . ولما اعلمناه بما اخترنا من الامرين اسفين قال : خذوا القهوة اذن وامشوا لتصلوا قبل الغروب . فدخلنا البيت وجلسنا لاول مرة في اليمن على مجالس مصنوعة من الحبال ، تستخدم كذلك للنوم ، كالعنقريب السوداني .

الشيخ حمزه تاجر كبير يسير القوافل بين تهامة واليمن الاعلى فتحمل جماله وحميره الغاز والاقمشة الى مناخة وتعود منها حاملة البن والجلود . وهو كذلك الوكيل السيامي بين البلدين المتحاربين ومندوب الامامين . رجل السلم والتجارة والامن الشيخ حمزه . عنده لكل شيء حساب . وعنده حبر وورق وكاتب هو ابنه الذكي . عندما صرفنا عساكرنا طلب كبيرهم كلمة من الشيخ الى العامل في مناخة يعلمه بوصولنا . فراح الى الزاوية في البيت حيث يجلس ابنه على صندوق من صناديق الغاز الى صندوق آخر هو المنضدة ، وامره ان يأخذ الورق ويكتب . فأخذ الكاتب طلحية وقسمها قسمين ، فأشار الاب ان اقسمها ثانياً ، ففعل . ثم ثالثاً ففعل حتى اصبح وبيده ثمن منها فقال : اكتب الآن .

من حمزه خادم الامام اطال الله بعمره الى عامل مناخة حضرة الشيخ علي الاكوع . سلام . الجماعة وصلوا بخير وسنوصلهم بخير الى عبال .

حمزه

اخذ الرسالة فلفها لفافة ودفعها الى العسكري ثم خاطبني قائلاً : هذا يقرأ ويكتب . هو فقيه . وابتسم الشيخ فكانت اول ابتسامة أبرقت علينا من وجهه القاتم العبوس . ثم ركب معنا وشيعنا الى خارج حدوده بابتسامة اخرى .

كنا نقيس الاخطار في الطريق بعدد الحرس . من صنعاء الى مناخه اثنان فقط . ومن مناخه الى الشيخ حمزه اربعة . وها نحن نسير في موكب من رجال الشيخ راعنا عدده . فلو لم يكن الخطر قد ازداد لما كان هذا الاعرابي ، وقد اطلعت على شيء من اقتصاده واختصاره في العمل ، يصحبنا بعشرة من رجاله ، ويوكل امرهم وامرنا الى شيخ الحجَّيلة بنفسه — شيخ الحجيلة العظيم في

الامس ٠ هو رجل صغير يابس مصفر الاديم ، ذو لحية محنّاة ، وشارب مقضوب ، وعين غائرة ٠ ركب حماره ، وبندقيته بين يديه مطروحة على السرج قدامه ، وسار معتزلاً الجنود العراة ، بعيداً كذلك عنا ، غير مكترث بنا ٠

دنا مني احد المكارين وقال : هذا شيخ الحجَّيلة او كان ٠ وكان في ذاك الحين اكبر قطاع الطرق في هذه النواحي ٠ تحت امره مئة بندق ، يوقفون القوافل ويسلبونها ويأتون بالغنيمة اليه ٠ من منا في اليمن وفي تهامة كان يجرأ ان يمر بهذه البلاد في ايام الدولة ؟ قلت : وهل كان يقطع الطريق يوم كان شيخ الحجَّيلة ؟ فاجاب بالايجاب ثم قال : كان يأخذ من الترك ويأخذ من العرب ٠ كلهم كانوا يخافونه ولا احد يعترضه بشيء ٠

سبحان الله ! هو الان رسول الامن والسلام بين القطرين ، وصديق الشيخ حمزه الذي يحسن ولا شك اختيار رجاله واصدقائه لمقاصده التجارية والسلمية المفيدة ٠ اجتذبني خبر الرجل اليه ٠ فسقت بغلتي نحو حماره ، وسلمت فرد السلام ٠ ثم سألت لافتح الحديث سؤالاً اجابني عليه دون ان ينظر اليّ : هذا قاع الحجَّيلة وقريباً نصل الى البلد ٠

كنا وقتئذ نجتاز ارضاً لا سيادة فيها لا للادريسي ولا للامام ، يصح ان تدعى بلاد الجن ٠ ولولا تيقظ الشيخ حمزه وحزمه لما كان يأمن فيها انسان او تسلم فيها قافلة ٠ هي نقطة الحياد بين عبال اخر حدود السيد وبين مضارب الشيخ حمزه ، آخر حدود الامام ٠ اما المسافة بينهما فلا تتجاوز العشرة الاميال ، في وسطها الحجَّيلة ، وهي اليوم اثر من آثار الحرب المفجعة ٠ شريط التلغراف فيها مقطع ، والعمد مكسَّرة ، وما تبقى من مظاهر الحكم التركي — مناضد وكراسي ودواوين — رأيناها مبعثرة تحت سقوف متهدمة ٠ اما اهل البلد فلا يزالون مشتتين في تهامة وفي الجبال ٠ لا عجب اذا كان العرب يفضلون الخيام وبيوت القش على الحجارة والخشب ٠ قد هيج هذا المشهد فيّ الاشجان واثار في الشيخ كامن الغضب ٠ وكنت لا ازال اتدرجه الى الحديث فقال :

— ما الادريسي وما الامام ؟ عندهم كل شيء ، ما عدا الاخطار والفقر ٠

وعندهم السادة يستمعون لهم و يستشيرونهم · بعيد عن الحروب ، قريب من السادة ، هـذه بلية السيد و بلية الامام · ولكان الله يغفر ذنوبهم لو بعدوا عن السادة وخاضوا المعمعة مع الجيوش· عندئذ تنتهي الحرب ··· كلنا والله نشتهي السلم · ولكن اين رجل السلم ؟ اين هو الرجل الذي يستطيع ان يصلح بين السيد و بين الامام· لا في عسير ولا في اليمن موجود· لا يتم الصلح الا بواسطة احد الكبار يجيء من وراء البحار ··· ثم تنهد وقال : مصيبتنا من الله · فقلت : من الله وحده ؟ ألا دخل للانسان فيها ؟ فقال مستحسناً سؤالي : ثلثها من الله · ولكنه لم يشأ مواصلة الحديث فساق حماره ، فلحقت به وسألته عن الثلثين الآخرين · فاجاب وهو يستحث حماره ليبعد عني : وثلث من السادة · فسقت بغلتي اليه وسألته معتذراً ان يعلمني بثلث المصيبة الثالث · فاوقف الرجل حماره ونظر اليّ وقال : الثلث الاخير ، لا والله بل الاول ، هو منكم ·

ظنني الشيخ معتمد الانكليز ، ولكنه لم يخطيء برأيه في قضية اليمن وعسير· انه اقرب رأي الى الصواب سمعته · وهو ينطبق على العرب كلهم وما يكابدون من السياسة الانكليزية ومن السادة — حيث لا سادة ولا اشراف فقل العلماء — ومن التقادير ·

الفصل الثالث

نساء تهامة

اشكال العرب — الشبان المخضبون — الشعور الطويلة والتزين — السفور — الرعابيب — المرأة واحدة في باريس وفي عبال — الحناء والكحل والطيب — شيخ عبال يزورنا — خطبته البليغة — ابنه يعطينا ريالين — طريق عدن وطريق الحديدة الى صنعاء — الاسراء — المغني المكرب — التكبيس — المحسن المجهول — ابن شيخ عبال — عساكر الادريسي السود — « الحوائج » والحسناء — العرب والترك — البرنيطة — شمس تهامة — باجل — سوقها ونساؤها — مودة عربية باريسية — ضيافة الشوافم — الشيخ محمد طاهر رضوان — القحراء — الرهائن — عساكر الزيود — اطياف الليل — الفجر — البحر ·

ان العرب على الرغم من البلايا الثلاث التي تقدم ذكرها في الفصل السابق لمبدعون مدهشون في عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية · وهم على ما بينهم من روابط الدين والجنس واللغة يختلفون بعضهم عن بعض ظاهراً ومعنىً · فلا يختلط اليماني بابن عسير ، ولا هذا بابن الحجاز · يخالطون ولا يختلطون · حتى اذا جردتهم مناسك الحج مثلاً من الثياب فالاحرام لا يساوي بين ذي القرون — الجدايل — وذي الشعر الطويل السبط ، وذي الشعر الكث الجعد الذي يشبه شعر النساء الاوروبيات في هذا الزمان ·

انك لتسافر في اميركه مثلاً من طرف البلاد الشرقي الى طرفها الغربي فلا ترى في اختلاف العادات والتقاليد والازياء مايستوقف النظر او يستحق الذكر · بل قلما ترى اختلافاً ظاهراً او معنوياً · اما في بلاد العرب فكلما انتقلت من جهة فيها الى اخرى تغيرت الثياب والازياء والعادات ، وتغيرت كذلك المساكن · فلو اجتمع الحجازي والتهامي واليماني واللحجي والحضرمي والنجدي والعراقي لكان في اجتماعهم معرض ازياء وثياب مدهش مفيد ·

من مناخة الى عُبال ! كأنك انتقلت من سويسرة الى بلاد المكسيك ·

وان جمال عُبال في القاع الفسيح ساعة الشفق ليضاهي جمال مناخة في رأس الجبال ساعة الغروب · عبال ، قرية ساكنة مطمئنة بيوتها الهرمية من القش شبيهة بخيام الهنود في المكسيك · وابناؤها يشبهون العرب في سائر الاقطار بامرين ، يتكحلون و يتطيبون ، وفي ما سوى ذلك يختلفون · فالشبان في شعورهم الطويلة الجعدة المصففة المزينة ، هم اشبه بالبنات لولا الشوارب والعضلات · فهم يدهنون شعرهم بالادهان ، و يربطونه بشرائط من الحرير او الجلد ، و يزينونه بالريش او الزهر او الرياحين ، ويقصونه مثل البنات اليوم ليساوي القذال ، ولا يقصرونه كالرجال · وهم يتزرون بالفوطة مثل اهل لحج ، وقد تكون طويلة ملونة مخططة ، فيشدونها على الحقوين و يلبسون فوقها صدرة بيضاء بينها و بين الفوطة زنار من القطن او الجلد للخنجر دائماً ، وغالباً للخنجر والخرطوش · ان اول ما يدهشك من اولئك الشبان شعورهم المزينة كشعور النساء ، وارجلهم المخضبة بالحناء ·

وفي عبال نعود الى السفور ، الى اول الاسلام · في عبال تعددت المدهشات وكان اشدها واحبها الينا النساء ، وقد وقفن في ابواب الخيام يتفرجن على الغرباء · ولا نظن انهن كن اشد تعجباً منا ونحن نتفرج عليهن · الجمال الاسمر نشدناه في كل مكان فما لقيناه حتى وصلنا الى تهامة · والرعابيب ، ها هن ذا في عبال · وسيبهجك منهن ما ستراه غداً في باجل· نزلنا في بيت اخلته لنا احدى النساء بامر من الشيخ ثم جاءت تخدمنا· فسألنا مستطلعين حالها ، فقيل لنا انها مزوجة ، مطلقة ، وتكره الرجال · اي نعم تكره الرجال · فهل تختلف المرأة يا ترى في عبال عن اختها في عواصم التمدن والجمال ؟

اجتمع في الباب وخارجه الاولاد والرجال متفرجين مدهوشين · فجاءت العساكر تبددهم لتفتح الطريق لشيخ القرية الذي بادر الى زيارتنا · وهو رجل طويل القامة ، مهيب الطلعة ، فخم اللباس ، متطيب متكحل حافٍ ، الا ان رجليه المخضبتين تلمعان بالحناء · دخل يحمل بيده السيف وبالاخرى اغصاناً من الحبق قدمها لنا وهو يسلم و يتأهل بنا· هنأنا بوصولنا الى بلاد السيد سالمين ،

ثم قال معتذراً : لا يمكننا ونحن في رمضان ان نقوم بما يوجبه علينا الشرف والناموس . انتم الان في بيتكم وان كان لا يليق بكم . ولكنكم ستنامون والبال مطمئن . عندنا سلام وامان . ولكننا نرجوكم ان لا تحكموا علينا بما يظهر . نحن نفتخر والله بضيوفنا ونود ان ننزلهم في بيوت من الرخام والمرمر . فاحمونا وانتم اهل الفضل من العين واللسان .

بعد هذه الخطبة استأذن الشيخ وودع ولم نسعد برؤيته مرة اخرى لان سفرنا من عبال كان ليلاً . ولكنه ارسل الينا ابنهٔ قائد الجيش فاسمعنا خطبة شبيهة بخطبة ابيه واعطانا ريالين قائلا : رمضان يسود الوجه . انتم ضيوفنا اشتروا ما تشتهون . فقبلنا المال منه شاكرين لان في رفضه رفض الضيافة واكبرَ الاهانات . وشربنا اللبن الرائب تلك الليلة في ضوء النجوم ، فما رأيناه في غير كأس من اللجين ، وما رأينا فيه غير اللبن الرائب . ولكننا ، على شدة شوقنا اليه ، لم نسر به سرورنا بلطف هؤلاء العرب وسذاجتهم الطيبة . ان اهل عبال من عرب المسارحة المشهورين في تهامة بشدة بأسهم ومحاربتهم الاتراك في مواقع متعددة .

نمنا تلك الليلة على ما يشبه العنقريب من الاسرة ، تحت سماء تهامة الصافية الحارة ، فما احتجنا فراشاً غير حبل مشبوك ولا غطاء غير شبُك النجوم . ان التعب في النهار مصدر النعم في الليل . فما كان في مراحلنا اليمانية العديدة اطول من هذه الثلاث الاخيرة واوعر [1] لان الطريق من عدن الى صنعاء وان كانت اطول فهي اسهل من طريق الحديدة . هذه تشبه من حدود الامام اليوم درجاً طويلاً عالي الدرجات لا انقطاع فيه وتلك تشبه درجاً منبسطاً عريض الدرجات تتخللها سهول تريحك من التصعيد الدائم ، وبكلمة هندسية : اذا مددت خطين واحداً من عدن واخر من عبال

---

(١) ركبنا في المرحلة الاولى احدى عشرة ساعة ،وفي الثانية عشر ساعات ، وفي الثالثة من مناخة الى وسل اربع ساعات ونصف ؛ ومن وسل الى الشيخ حمزه ثلاث ساعات ونصف ، ومن الشيخ حمزه الى عبال ثلاث ساعات ، اي احدى عشرة ساعة كالمرحلة الاولى .

الى صنعاء تكون زاوية الاول حادة ، وزاوية الثاني مستقيمة . والفرق بين الزاويتين لا يقل عن الثلاثين درجة .

اسرينا في الساعة الثانية بعد نصف الليل وكان قمر رمضان كمنجل من فضة فوق قنة شبام . وكان قد نهض الهواء كذلك فانعش فينا ما خدره الحر وازال ما تبقى في الاجفان من اثر النعاس . بيد انه لم يحرك في احد من الربع اللسان ، الا واحداً كانت عقيرته تذكرنا بمصر والشام في ما رددت من الاغاني القديمة ، وقد ابحرت انغامها ، ثم اتهمت ، ثم انجدت ، فافسدتها الاسفار ، واكسبتها المسافات على رداءتها ذكراً من الاوطان عزيزاً . ولكنها لم تكن عندي ساعة غناء ، بل ساعة تأمل وصلاة .

ياذا الجلال الازلي الحفني بشيء من جلالك ، ياذا النور الدائم امددني بقبس من نورك ، ياذا القوة غير المتناهية ابعث منها في قواي .

فهل من حاجة ان اصف ما حل بي ، وهذه حالتي الروحية ، من مجرد الصدى بعد السكوت في « يارائحة عالشام خذيني معاك » ؟ . ما عرفت صاحب الصوت حتى ولى ، لاننا لولا وطء الدواب كنا كالاخيلة الساكنة السارية في الليل ، فلم نتباين في نور القمر الضئيل الوجوه . ولكني سألت عند الفجر عن المغني فقيل لي انه رافقنا ساعة اكراماً وعاد الى عبال . وشد ما كانت دهشتي واسفي عندما علمت انه الرجل الذي كبّسني [1] مساء البارح فحرك الدم في العروق وازال من المفاصل التعب ومن الاعصاب الاوجاع . ثم نهض وايانا ورافقنا اكراماً دون ان يمنن وشاء فوق ذلك ان يسلينا باغاني بلادنا .

فيا ايها المحسن المجهول ، يا ايها العربي الكريم ، ما اخترت لاكرام الضيف احسن من يد مرنة تسكن الآلام ، ومن صوت مرن ، مهما شذ والتوى ،

---

(١) من العادات الحميدة في تهامة والحجاز التكبيس هو علم جاءهم على ما اظن من الهند . فيكبسون المرء من رأسه حتى قدميه . ويدلكون الاعصاب دلكاً ، ويفركون العضلات ويمسدونها بعدئذ تمسيداً . ان المسافر في تلك البلاد لا يستأنس في آخر نهار السفر بشيء استئناسه بالمكبّس . وحتى الصغار هناك يحسنون هذا العلم .

يذكر الغريب بالاوطان . وما كان اشبهك عندنا بعكرمة الفياض ، فلم نعرفك مؤاسياً منعما ، ولم نعرفك مشيعاً مكرماً . جئتنا في الغسق ، وانعشتنا في الليل ، وشيعتنا في ضوء القمر ، واختفيت دون ان تبوح باسمك كالطيف في الظلام . ومهما كان اسمك واينما كنت فانت اخو الانسان ، وامير الذوق والاحسان .

كشف الفجر عن الوجوه فرأينا في الربع بدل شيخ الحجيلة ابن شيخ عبال ، و بدل رجال الشيخ حمزه عساكر السيد ابن ادريس . وهم من العبيد صحيحو الاجسام ، خفيفو الاقدام ، قليلو الكلام . لا يختلف الواحد عن الاخر ، وكلهم سود ، بغير لون السواد . فهذا كقهوة البن ، وذاك كالشوكولات ، والاخر كالابنوس المصقول . سألت « الابنوسي » وهو يركض و يثير بحافريه الغبار : هل انت دنقلي او سوداني ؟ فاجاب : أبي طلع من البحر وانا ولدت في البر ، في هذا البر . لا اعرف غير ذلك . والمؤكد يا افندي اني اسود . قال ذلك وراح يضحك و يهز عطفيه .

بعد ان اجتزنا قاع عبال وصلنا في الساعة الاولى من النهار الى البرحاح وهي قرية فيها مقهاية رحبة نظيفة ، فدخلنا وكنا اول الزائرين ، فخرجت من البيت عربية حسناء ، ممشوقة القوام ، في جلباب انيق الشكل فوق دثار ازرق طويل الذيل . كأنها من بنات المدن وقد تدثرت عند نهوضها فوق قميص النوم . هشت لنا و بشت واسرعت في عمل القهوة التي لا تزال حتى في تهامة من القشر الا انهم يضيفون اليها بعض الاباذير كالزنجبيل والهال — كثير من الاباذير — يسمونها حوائج . وكان حسن العربية يتجاوز قوامها ووجهها الى الذوق والخلق ، فسألت وهي تشب النار : تبغونها بحوائج . فاجاب العبيد صوتاً واحداً بالايجاب . وشربوا هنيئاً وثلثوا . اما نحن ، انا والرفيق قسطنطين ، فكنا نشتهي قهوة البن . . . حوائج وهذه الحسناء ؟ اركب يا امين .

ومما زاد في كربة الرجال صباح ذاك اليوم ان لاحت لنا ونحن سائرون في القرية حسناء اخرى ، رعبوبة في شعار شفاف ، تنشر للشمس شعرها ،

كأنها خرجت من الحمام ، او من مسرح الاحلام . فحثثنا المطايا مسرعين الى القاع ، الى الفلاة ، معتصمين بحديث الشيخ علي بن شيخ عبـال . قال وهو يحدثنا عن العرب والترك : ابن اليمن مثل الحجر صلب يابس . لا الشمس تحرق رأسه ، ولا الرمل يحرق رجليه . والترك ، ما الترك ؟ هناك — اشار بيده وهو ينتقض اصابعه — هناك ، عند تلك القرية ، تحت ذاك الجبل ، حفرنا الخنادق — كنا تسعين ، تسعين فقط — واطلقنا البنادق على عساكر الدولة ، على النظام ، وهم خمسة الاف ومعهم الاطواب . من الفجر الى ان صارت الشمس فوق رؤوسنا مثل كلة مدفع مشتعلة ، كلة نار ، ونحن نطعمهم الرصاص . وعند الظهر ، والله ونور هذا النهار ، خرجنا من الخنادق تسعين لا ننقص واحداً ، ومشينا الى القاع . كانت الارض مغطاة بالقتلى . مئات من الترك اكلوا رصاصنا وسكتوا . سكتوا الى آخر الدهر . والباقي تشتتوا هربوا فما لقيناهم . ولكننا لقينا من البنادق والذخائر والمدافع خيرات . يا له من يوم . كان الواحد من رجالي يأخذ البنادق و يخبيها وراء الخنادق ويعود يفتش على غيرها . . . ابن اليمن مثل الحجر صلب يابس ، لا الشمس تحرق رأسه ، ولا الرمل يحرق رجليه . . . هؤلاء من رجالي . يمشون بل يركضون كما تراهم الان ، اثنتي عشرة ساعة كل يوم ولا يتعبون ولا يتذمرون . ولا يشكون غير حلم السيد . فهم يغلبون الزيود ، و يأخذونهم اسرى والسيد لا يأذن بتذبيحهم .

سرنا ساعة في قاع المطحلة فخرجنا من ظل الجبال ، ولاحت لنا على الافق غيمة سوداء هي باجل . كنا نمر في طريقنا بنساء لابسات البرانيط وهن يشتغلن مع الرجال في الحقول . ان البرنيطة او الشبقة لقديمة العهد في تهامة و بعض نواحي اليمن الاخرى ، وهي صنع اهلها ، يلبسها الرجال والنساء ، وكلهم عرب وكلهم مسلمون . لكن الشمس لا تعرف حدوداً في الجنس والدين ، والانسان في مقاومته العناصر الطبيعية لا يراعي التقاليد . هو ينبذها او ينساها او يغير فيها لتمكنه من دفع العدو الصائل ، بل من الدفاع عن الحياة .

و باي سلاح تحارب هذه الشمس شمس تهامة اذا اضطرك رزقك ان

تشتغل او تسافر نهاراً . أبالكوفية ، وهي اذا تلثمت بها تدفع ثائر الغبار والرمال فقط ! قد تقي العيون من وهج الشمس ولكنها لا تقي الرأس من سهام اشعتها الكاوية . اما العامة فلا بأس بها لاصحاب التجلة والكرامة ، للسادة والعلماء الذين لا يضطرون الى السعي في سبيل الرزق والرفاه . قد برهن اليماني التهامي في لبسه الشبقة على ان الغريزة في الانسان ، شرقياً كان او غربياً ، مثلها في الحيوان واحدة لا تتغير . ومن عواملها الاولى حفظ الحياة والدفاع عنها . وقد احسن ايما احسان في صنع شبقة من القش متراخية النسج فلا تمنع الهواء ، واسعة الاطراف تظلل الوجه والقذال ، عالية القبع تحفظ الرأس من سهام الشمس .

ويا لها من شمس لا تحجب ظلمها ساعة من النهار . كانت لا تزال في صهوة الافق عندما دخلنا باجل فعرفناها من ساعتها وما وددنا الاقامة في بلد هي وحدها الحاكمة بامرها فيه . ولكن باجل تنسي السائح لاول وهلة حتى الشمس ، خصوصاً اذا دخلها مثلنا يوم سوقها . هي قرية كبيرة ، بيوتها من القش وبعضها من الاجرّ الاحمر ، يقام فيها سوقان في الاسبوع ، فيؤمها العرب من كل القرى والمضارب المجاورة لها و ينزلون ومواشيهم ودوابهم في الساحة العمومية فيبيعون و يشترون طيلة ذاك النهار .

مشينا بين صناديق من الغاز واثواب من الخام ، بين المواعين المصفوفة على الارض والاكياس ، بين الاباريز والحبوب ، والى جنب كل « فرش » رجل او ولد او امرأة . والناس في الساحة رائحون جاؤون ، والنساء و بايديهن السلال اظهر ما هناك يكثرن البيع والشراء . ادهشنا من هذا المشهد مظهره النسائي لاننا لم نرَ في بلاد اليمن ، بل في البلاد العربية كلها خلا العراق ، من النساء بقدر ما كان في ساحة باجل ساعة دخولنا اليها .

وكلهن سافرات ، يلبسن الشبقات ، واكثرهن حسان الوجوه والقدود — اما البنات فما رأيت فيهن غير الممشوقة الهيفاء ، وهي لولا لونها اشبه بالانكليزية قواماً ونحولاً ، وخفة ومشياً . لكن لبسها قد ينسب لولا السذاجة والفقر الى التهتك . هي تلف ذراعاً من القماش حول وسطها فيصل الى الخلخال ولا يخفيه

وتلبس فوقه صدرة ضيقة قصيرة لا يتصل طرفها بطرفه فيبدو شيء من الكشح بينهما . ولها مشية تكشف بها الساق ، واذا ساعدها الهواء ، تنكشف الركبة كذلك . ولها لسان لا اثر فيه لما في قدها ومشيها من حسن و براعة . سمعناها تشتم الصبيان فاستعذنا بالله . ورأيناها تمشي الى السوق والسلة بيدها فاسفنا لبذاءة تشينها .

اما تلك العربية التي « تمشي الهوينا مشية البقر » فلم نجدها في باجل . ها هنا حركة كأنها اوروبية . ها هنا نشاط اميركي . وتلك الشبقة على رؤوسهن ورؤوس رجالهن تزيد بالوهم وتبعدك في الانتقال . كنت اظنني في بلد من بلاد المكسيك الجنوبية . واغرب من ذلك ان هذه الحركة في بلدعربية اسلامية وفي شهر رمضان . بل في بلد حرها [1] حتى في شهر ايار لا يطاق نهاراً . ولولا انه جاف لما كانت باجل [2] ، ولما كان في ذا القاع اهلها .

استقبلنا بعض رجال القائد العام فأنزلونا بيتاً رأس محاسنه النظافة ورأس الضيافة فيه ذوق جميل ظهر في الحديث وفي الخدمة وكذلك في الطبخ . ناهيك بشيء في اخلاق الشوافع ، بشيء من التساهل بل الاخاء والكياسة ، يمتازون به عن سواهم . تركونا بعد الفطور وشأننا ثم جاءنا منهم صندوق من العنب الاسود وآخر من الموز ، فادهشنا وابهجنا الاول لاننا لم نكن نتوقع العنب في هذا الشهر من السنة . ولكننا في تهامة ، فلا عجب اذا نضج في ايار وهو لا يزال حامضاً في صنعاء وزهراً في لبنان .

وبعد الظهر جاء يزورنا الشيخ محمد طاهر رضوان عامل باجل وقائد العساكر الادريسية فيها ، فسلم واعتذر . هو يشتغل في الليل ويصعد صباحاً الى ربوة خارج البلد لينام . سألنا عن السياسة الاوروبية ، وعن الانكليز ، وعن مصر والهند ، سؤالات دلت على عقل وعلم فيه لا يفتقران ، بخلاف العادة العامة ، الى

---

(١) في ٢٤ ايار ساعة الظهر كانت الحرارة في الظل مئة درجة ودرجة في ميزان فارنهيت .

(٢) باجل هي على مسيرة ثلاثين ميلاً من البحر .

شيء من الحكمة والذوق . فقد كان يسأل مستخبراً مستفيداً ، دون رأي خاص له يبديه . ولكنه في ما يختص ببلاده كان مفيداً مفضلاً . فعلمنا من حديثه ان القُحراء يسكنون تلك الجهات بين وادي مردود ووادي سهام ، وانهم على العموم من افضل قبائل اليمن واشجعها ومن اشد الشوافع بأساً واكرمهم خلقاً . وعلمنا كذلك ان السيد الادريسي يسير في بعض اموره على خطة الامام في الرهائن . فها هم في البيت تحتنا ، عشرون رجلاً ، وفيهم العبيد ، من الزرانيق . سيجيء الكلام على هذه القبيلة في الفصل التالي . سمعناهم في الليل يجوّدون ، و ينقرون الدف و ينشدون . وما سمعنا من فم اسير اجمل من سورة يوسف انشاداً . سمعنا كذلك « الزامل » في البلد فدهشنا لاول وهلة وسألنا عما اذا كان عسكر السيد ينشد اناشيد عسكر الامام . فقيل لنا بل هم عساكر الامام . فما صدقت حتى عاينت . وقد تأكدت ان بعض الزيود يجيئون تهامة و « يتعسكرون » عند السيد لانه يحسن معاملتهم ويدفع راتباً اكثر من « ابن حميد الدين » ولكنه ساءني في رجال السيد انهم اذا ذكروا الامام يدعونه احتقاراً « ابن حميد الدين » وما سمعنا في صنعاء واحداً من رجال الامام يقول مرة في السيد ما يشتم منه المقت والتحقير .

اقمنا يوماً في باجل وسافرنا في مساء اليوم الثاني . لا سفر في تهامة نهاراً لمثلنا في الاقل . وكانت ليلة ليلاء ، ما خفنا في طرق الجبال الوعرة الموحشة خوفنا فيها ، لان الراكب لم يكن يرى حتى رأس مطيته . وكنت كل مرة تطأ الدابة حجراً فتعثر ارى وهدة انفتحت امامي . واية الوهاد اشد هولاً من وهدة الظلام ؟ ومع ان اسراءنا كان في قاع بسيط فسيح ، بعيد عن الجبال والربى ، فما اطمأن ولا يطمئن قلب الغريب اليه . كانت تمر بنا القوافل كالاطياف فتسلم على اطياف تمر بها ، والامن والظلام رفيقان ملازمان . انه ليدهشك مثل هذا الامن نهاراً في اليمن وعسير فكيف به ليلاً ؟ وكيف به في بلدين متحار بين ؟ مهما قيل في العرب ، انهم في حروبهم متمدنون ، يحترمون حقوق الناس و يحافظون على ارواح العباد . قد صحبتنا ايها القاريء في طريق التجارة بين

البلدين فتيقنت ولا شك ان في هذا الشعب الماجد الباسل من الشرف وكرم الاخلاق والحكمة والذوق ما لا يظن مثلها في مثله · وهي تخفى على كثيرين من الناس ، وتقل بين الناس في البلاد المتمدنة ·

وصلنا في الساعة الثانية بعد نصف الليل الى مقهاية الطنم فاسترحنا فيها ساعة ثم استأنفنا السير ، وكان قد هلّ الهلال فاستأنسنا حتى بنوره الضئيل · وبعد ساعة من سيرنا في ارض رملية تتخللها السبخة بين احراج من الشَورى ، ذاك الشجر الذي لا ينبت الا بالقرب من البحر في تهامة ، اطلت علينا ربة النور والنار · ولكننا عند دنونا من البحر شممنا رائحة الملح واحسسنا بالرطوبة في الهواء ، فاستعذبنا الاثنين ·

البحر ! ذاك الخط الازرق على الافق امامنا ، ذاك العلم الازرق على ساحل العزلة العربية ، تلك الطريق الى الاهل ، الى الاوطان ، الى المدنية ، وفيها الامل الكبير بالعود الى الحياة والجهاد · البحر ! ان الطف ما اقيناه بعد صنعاء وتهامة وابهج ما شاهدته آنئذ العين انما هو البحر ·

الفصل الرابع

الحديــدة

الاشباح — قصر الوكالة البريطانية — احتلالنا القصر — ضرب الحديدة من البحر — خرائب الحرب — القنصل الانكليزي يخرب بيته طمعاً بالتعويض — فريسة الحرب وفريسة السياسة — الاستفتاء — « نبغي الترك » — « نبغي الانضمام الى مصر » — دخول الادريسي — القرض المالي — تأديب التجار — الزرانيق — التفرد والتفكك في الاحكام — بيت الفقيه — بيت بخمسة بيوت وخمسة رؤوس — من من الامامين يستحق الحديدة ٠

هوذا شبح الحرب ! من مدافن الآرغون ، من خرائب فرنسه في الشمال جاء يلاقينا في الحديدة ٠ هو اول من حيّ صامتاً عند دخولنا البلد ، اول من وقف في الطريق يلفت الى حاله نظر الغرباء ٠ ثم تبعنا كالظل ، وما توارى عن الابصار الا في جوار السلطة والمدنية ٠ فلا عجب ، ونحن ضيوف الاولى وصبيان في بهجة العيد في فناء الثانية ، اذا نسيناه كما ينسى العابر شحاذاً في الطريق ٠ نسيناه ساعة دخلنا القصر الذي يقيم فيه الدكتور محمد فضل الدين وكيل بريطانية العظمى السياسي في الحديدة وسفيرها الى السيد الادريسي ٠

صعدنا الى الطابق الاول فاذا فيه صناديق من حديد ، صناديق كبيرة ذات اقفال ضخمة ، كانت ملأى في الماضي بالصكوك والاوراق ، و بالذهب والفضة ٠ هوذا شبح آخر يحيينا صامتاً ، شبح القوة وراء العروش ، وفي الحروب والجيوش ، شبح المال ٠ انما نحن في دائرة البنك العثماني ، ولم يبق منه غير هـذه الصناديق الفارغة و بعض المواعين المكسرة ٠

صعدنا الى الطابق الاعلى ، الى مكتب الوكيل وبيته ، ففتح لنا باب من خشب الهند نخم كبير ، نقشه يبهر الابصار ، ويؤهله لاعلى مقام في دور الآثار ، فدخلنا الى ردهة كبيرة مستطيلة تشرف على البحر مفروشة بالدواوين الهندية والطنافس العجمية ، ومزينة جدرانها بالرسوم الهندسية والايات القرآنية ٠وفي سقفها العالي

من صناعة النقش بالدهان ما يدهش لوناً ودقة غواة الفن وار بابه · والى احد طرفيها ، بين السقف والارض ، ردهة خاصة تحجبها شعرية من الخشب الهندي ، كانت معدة للحريم يطللن منها على القاعة تحتهن في ايام العيد وفي ليالي الانس والطرب · وهوذا شبح آخر يستقبلنا صامتاً ، شبح الثراء والجاه ، شبح القصف والترف ، شبح السرور واللذات ·

كان القصر الذي دخلناه لاكبر الاغنياء في الحديدة ، بناه لعينه وقلبه وشهواته ، وبذل في سبيل ذلك نصف ثروته · فصار بعد موته اجاراً للبنك العثماني ، ثم بعد الحرب فتحاً للوكالة الانكليزية · وها نحن اقتداءً بالانكليز نحتل قسماً منه · فان حضرة الوكيل الذي استقبلنا مرحباً خيرنا في امرين اما ان ننزل في البيت الذي اعده لنا واما ان نقيم واياه في القصر · ومن ساح مثلنا في اليمن قلما يسيء الاختيار وقلما يستحي بذلك · قلنا نحدث انفسنا : من المؤكد ان ليس في الحديدة كلها مثل هذا القصر · ثم خاطبنا صاحبه قائلين : ما يصلح لحضرة الوكيل يصلح لنا · فرحّب ثانية بنا واصبحنا من تلك الساعة شركاءه بما يحسبه نعيماً ليس من جاء من الجبال فقط بل من يجيء من وراء البحار ·

عجبنا لسماحة الوكيل وكرم اخلاقه عندما عدنا الى المرآة بعد غيبة طويلة · فاننا كنا ، بعد شهرين فطمنا الشعر عن المشط والمقراض ، كابناء عسير في رؤوسنا وكأبناء الروس البلشفيك في لحانا ·

ولكنه ، امر اولاً باعداد الحمام ، ثم استحضر المزين الهندي ليعيد الينا شيئاً من الكرامة في الاقل ·

وكانت باسم الله بداءة احتلال دام شهراً فقط ، و بداءة صداقة لا تقاس بمقياس السياسة ولا تقيد بعوامل الاحتلال واسبابه · اما الاشباح فكنا واسفاه محاطين دائماً بها · شبح الحرب الذي لقيناه في الطريق شاهدناه من السطح في كل مكان · وشبح المال كنا نمر به كل مرة نخرج من القصر ونعود اليه · وشبح اللذات كان يحف بنا و يرف فوق رؤوسنا ليل نهار ويؤلمنا في ساعات تسود فيها ما يسود الرجال · الا انه لم يكن يحزننا حزناً شديداً غير الاول · كيف لا وقد

هربنا من دمار الحرب وويلاتها ، من ظلماتها في النفوس والعقول ، من فسادها في القلوب والاخلاق ، من سمومها في الامم المتمدنة · وها هو شبحها في الحديدة يذكرنا بها ويرينا شيئاً منها ·

ضُربت هذه البلدة مرتين من البحر ، المرة الاولى سنة ١٩١٢ في الحرب التركية الايطالية ، والمرة الثانية سنة ١٩١٨ في الحرب العظمى عندما حمل الجنرال آلنبي على الترك في فلسطين فكان ضرب الحديدة جزء من الهجوم العام· وكان قنصل الانكليز يومئذ على ظهر البارجة التي كانت تصدر منها الاوامر باطلاق المدافع · وكانت دار القنصلية ، بامر القنصل نفسه ، الهدف الاول لقنابل الاسطول ، لان فيها حسب ادعاء حضرته اوراقاً سرية · ولكن الاشاعات لا تثبت الادعاء · قيل ان القنصل دمر بيته ، امر بتدميره لان فيه فرشاً شاءحرقه طمعاً بالتعويض · وقد دفعت له الحكومة بعدئذ اضعاف قيمته تعويضاً · هذا شبح الحرب واثر من فسادها في الاخلاق ·

وفي الحديدة واهلها غيره من الاثار المحزنة مما كنا نشاهده ونسمع به كل يوم · ميل في الناس ولا حجة ، امل ولا يقين ، شكوى ولا عمل ، تحزب ولا قوة ، قوة ولا قصد ولا حسن نية · وبنايات في المدينة ولا سقوف ، وسقوف ولا نوافذ ، ونوافذ ولا خشب ولا زجاج ، وجدران نصفها في الجو ونصفها ردم تحتها ، واخشاب تحت الردم وآمال ، وهجْر في بيوت ذهبت القنابل بحياة اهلها ، وحزن تحت سقوف هجرها الناس اما خوفاً واما فقراً ، ووحشة في اسواق كانت يوماً عامرة بالتجارة · أضف الى ذلك كله ما قد يكون السبب في ذلك كله اي شكل حكم او « لا حكم » لا نرضاه لمولانا السيد ولا لاصحابنا الانكليز ·

الحديدة التي كانت من اجمل البلدان العربية على البحر واكبرها تجارة · هي اليوم مجردة عن الاثنين · فريسة الحرب هي وفريسة السياسة · ترى نفسها بين عوامل سياسية ودينية تتجاذبها وتتقاسم ما تبقى فيها من حياة ومن امل · اجل ، هي بين الانكليز والسيد والامام مثل فتاة بين ثلاثة يخطبون ودها ، ولكن الحسد فيهم وبينهم يفوق الحب والاخلاص · فلا تركن الى احد

منهم ، بل هي تخشى اذا ما اظهرت ميلها ان تفقد الثلاثة ،وهناك الطامة الكبرى ، هناك الزرانيق ٠

امـا الشوافع فيها فهم لا يميلون الى الإمام ولكنهم لا يرون في حكم السيد ما يعيد الى البلد شيئاً من تجارتهـا و بهائها ٠ وحضرة السيد لا يقدم على عمل سياسي او اقتصادي يحسن فيها التجارة والحياة لانه لا يتأكد انهـا ستكون دائماً في حوزته ٠ والانكليز لا يتدخلوا في غير ما فيه حفظ الامن والنظام لان موقفهم فيها انما هو موقف المقامر ٠ فهي بيدهم الورقـة المجهولة في الصفقة الاخيرة ، وبكلمة اخرى هي الفكرة المكنونة في سياستهم مع الاماميين ٠

وهناك فئـة من التجار يبغون امام الزيود ٠ فهم لا يرضون لا بالسيد ولا بالانكليز ، لانهم لم ينالوا من احدهما غرشاً واحداً تعويض مـا خربته مدافع الاسطول ٠ وتراهم ، اذا ما ذكروا التعويضات ، يعودون دائماً الى قصة القنصل الذي هدم بيته حبا بها ٠ على ان الانكليز يتملصون من دفعها الى الاهالي بقولهم ان ذلك متوجب على صاحب الحديدة ، وقـد اهدوه المدينة ، حباً به او نكاية بالامام على السواء ٠ ولكن صاحب الحديدة يبغي مع الهدية شيئـاً من اسباب الحكم الاولى ، شيئاً من المال ٠ فمن اين يجيء به ليدفع بعض التعويضات عن الانكليز ، وهو لا يجمع من اهلها زكاة ما يكفي لادارة شؤونها ٠

ان البلايا مثل المال يجذب بعضها بعضاً ٠ فان ادارة الحديدة في يد خمسة من الحكام اولهم اسماً عامل السيد واخرهم رسماً الوكيل السياسي ، و بين الاثنين مدير الجمرك ومدير الشرطة ورئيس المينا يشاركونهما في المسؤولية ووجع الراس ٠ الا ان الوجع الاشد هو في العاصمة في جيزان ٠ لذلك فوجئت الحديدة ذات يوم بارادة ادريسية محورهـا قرض قيمته ثلاثون الف ليرة ، تعطى به صكوك على الجمرك ٠ فجس العامل والوكيل نبض البلد واشار بنصف القيـمة ٠ فتردد التجار وتأوهوا واعتذروا ٠ وما كان السبب في ذلك غير الخوف وعدم الثقة ٠ فانهم اذا اشتركوا بالقرض اليوم وانتقلت المدينة غداً من يد

السيد الى يد الامام فمن يدفع الدين يا ترى ؟ لا لوم عليهم اذا ولا لوم على حاكم البلاد . وليت شعري من الملوم ؟ الحالة السياسية وحدها ؟ ومن المسؤول عن هذه الحالة السياسية ؟ لا ريب عندي ان وجع الرأس في دار الاعتماد بعدن اشد منه في الحديدة وفي جيزان .

و بين جيزان وعدن وصنعاء قلب مدينة يحترق وكيس مدينة يئن . قلت ان الحديدة تخشى ان تظهر ميلها وهي في هذا المثلث الزوايا السياسي . فقد اقدمت على ذلك مرة وكانت منها الاولى والاخيرة . عندما ضرب الانكليز البلد وانزلوا فيها عساكرهم الهندية ظن الناس انها بداية الاحتلال فسر التجار بذلك خصوصاً الهنود منهم . وبعد ذلك — بعد ان غيَّرت الحكومة الانكليزية في سنة واحدة ثلاثة قناصل في الحديدة ومنهم صاحب التعويضات الذي مر ذكره ، وكلهم في الحمق والتصلف واحد ، غيَّر التجار والاهالي رأيهم بالانكليز . فلما سئلوا رسمياً كما سئل السوريون مرة : من تريدون ان يحكمكم ؟ اجابوا بصوت واحد : الترك . فقال القنصل : هذا مستحيل . فقالوا : نبغي اذاً الحكومة العربية المصرية ، نبغي الانضمام الى مصر .

ثم جاء احد اعوان المعتمد في عدن يمثل اخر فصل من رواية الاستفتاء فجلس في القصر ودعا اليه تجار المدينة واعيانها وسألهم ثانية فاجابوا كما اجابوا سابقاً . فأفهموا ان رجوع الترك الى الحديدة امر مستحيل ، وكذلك حكم المصريين فيها . في ذلك الاثناء اي قبل انتهاء الفصل الاخير دخل المدينة معتمد السيد على رأس طابور من العساكر الادريسية ، فختمت الرواية في الشهر الاول من سنة ١٩٢١ بالاحتلال الادريسي الذي استمر منذ ذاك الحين . ليست هذه بالنتيجة الواحدة الغريبة لذاك الاستفتاء . ان له نتيجة اخرى ظهرت خصوصاً في التجار الذين جهروا بميلهم الى الاتراك والى المصريين .

عندما تأسست الحكومة الادريسية في المدينة استدعى العامل اليه اولئك التجار وهم خمسة الذين تولوا الزعامة فتكلموا باسم الاهالي ، واشار عليهم

ان يزوروا حضرة السيد في جيزان . فاعتذروا وترددوا . ثم استدعاهم ثانية ، وبين هم ينتظرون في دار الحكومة احاطت بهم العساكر ، وكانت الركائب حاضرة ، فاركبوهم وساقوهم امامهم الى العاصمة التي هي على مسيرة اربعة ايام من الحديدة ، فأُنزلوا في القلعة هناك وظلوا سبعة اشهر اسراء فيها . ثم اعلموا بذنبهم وبالجزاء فدفع من يستطيع الجزاء مالاً وقدم الآخرون ابناءهم رهائن « المحسوبية » والاخلاص . ان مثل هذه الحوادث في حكومة فردية ابوية لا تستغرب ولا تستنكر اذا كان القصد منها منفعة البلاد واهلها . ولكن المرء لا يرى في هذا الحادث وامثاله [1] غير الاشتفاء والاستبداد . قد حان لامراء العرب ان يعدلوا في ما يمس بكراماتهم فقط عدلهم في غيرها من الشؤون .

لا عجب اذا كانت الحديدة تخشى الاستفتاء اذن وتخشى اظهار ميلها السياسي الا سراً وهمساً في بعض الاحايين . قلت انها اذا فعلت تقع في الشر الاكبر ، شر الفوضى وما يتبعها من الغزوات ، من السلب والنهب والتدمير . اما الانكليز فالعرب لا يبغونهم محتلين ، لا يبغونهم على الاطلاق . ولو لم يكن الوكيل السياسي مسلماً لما كانوا يقبلون به مهما كانت وظيفته وحدودها . اما اذا قاموا يطلبون الامام ، قبل ان يقرر الانكليز ان يعيدوا الحديدة اليه ، فيضربهم السيد ويستنفر عليهم القحراء ، وقد يغري بهم الزرانيق . واذا قاموا يثبتون حكم السيد فيها ويعلنون رغبتهم رسمياً فقد يحرك الامام عليهم اما زبوده واما من يستطيع استنفارهم واستغواءهم كذلك من الزرانيق . أيستغرب القارىء ذكر الزرانيق واحتمال نصرتهم في الامرين ؟ . ان هؤلاء العربان لمن اغرب المستغربات في تهامة .

الزرانيق اشد القبائل التهامية بأساً ، واكثرها عدداً واكبرها قوة ، واقلها صدقاً ووفاء . هم لا يطيعون الامام ، ولا يطيعون السيد ، ولا يأبهون بالانكليز . هم مستقلون من كل حكم ، وكل نظام ، وكل سيادة غير ما لشيوخهم منها .

(١) راجع قصة الاسطول الانكليزي في صفحة ٤٨ من هذا الجزء

بل هم ، مثل اشراف ذي الحسن في الحجاز ، قطاعو طرق وقرصان بحر ، يهرّبون السلاح ، ويتاجرون بالرقيق ، وبما عندهم من قوة حربية . بلادهم في سفح جبال اليمن بين الحديدة وزبيد في طرف تهامة الجنوبي ، وميناؤهم الاولى الطائف في خور غُليْفِقة . انهم يقسمون قسمين ، زرانيق الشام اي القسم الشمالي وزرانيق اليمن اي القسم الجنوبي . اما قوتهم الحربية فتدنو من عشرة الاف بندق ، ثلثاها في زرانيق اليمن .

كان الزرانيق في ايام الترك كما هم اليوم عصاة عتاة يأخذون المشاهرات من الدولة ، ويقطعون مع ذلك اسلاك التلغراف ، وينهبون في البر القوافل وفي البحر السنابيك . اما شيوخهم فلا ينقصهم في السياسة ختل ودهاء . هم دائماً يمثلون في رواية تهامة السياسية دورين وثلاثة ادوار في وقت واحد ، ثم يميلون في النهاية الى من يزيد في المال او في السلاح . كان احد شيوخهم يفاوض مرة الانكليز ليستنصرهم على الترك ويطلب سلاحاً منهم وذخيرة . ثم قبل وظيفة من والي اليمن فصار قائمقام زبيد . ثم نصر قبيلة القحراء عندما أسرت البعثة الانكليزية في باجل ، ثم ساعد من سعى في اخلاء سبيلها . فلا عجب اذا مال قسم من الزرانيق الى الامام يحيى اليوم وقسم الى السيد الادريسي .

انت تذكر ما قيل لنا في باجل بخصوصهم ، وتذكر انهم ارونا الرهائن . اما الحقيقة فغير ما سمعت . واليك الخبر اليقين . جاء عدد من الزرانيق ، خمسة وعشرون ، الى الشيخ طاهر رضوان يقولون : للسيد القبيلة كلها ، ونحن الكافلون ، بشرط واحد . فانخدع القائد واعطاهم ما يبغون من المال . ثم عادوا — الرسالة لا تتم الا بدفعة اخرى — فلم ينخدع القائد ثانية ، فقبض عليهم واسرهم وقيدهم بالحديد ، وادعى لغرض سياسي ان الزرانيق كلهم مع السيد — وهذه رهائنهم .

قلت ان في الزرانيق سياسيين دهاة كما ان فيهم لصوصاً عتاة . لما اسر قائد باجل رجالهم قالوا : هؤلاء لصوص نتبرأ القبيلة منهم ، بل انكروا انهم من

الزرانيق · ولو كان من مصلحتهم يومئذ ان يحاربوا الادريسي لكان اولئك الرهائن من سراة القبيلة ، فيتذرعون بهم ويعلنون من اجلهم الحرب على امام صبيا وجيزان · ان عند الزرانيق شيئاً كذلك من الشرف ، شرف اللصوص ، ولهم الجواسيس في الحديدة وفي باجل وفي بلاد الامام يحيى مثل ما للحكومات المتمدنة · جاءهم الخبر ذات يوم ، كانوا ناقمين فيه على السيد وعلى الانكليز ، ان سنبوكين من السلاح اقلعا من الحديدة ووجهتهما جيزان ، فاسرع قرصان الزرانيق شمالاً ، فلحقوا بالسنبوكين · قطعوا عليهما البحر ، اطلقوا عليهما وعلى عساكرهما الرصاص ، فقتلوهم وعادوا بالسنبوكين غنيمة كبيرة · ولما افرغوهما علموا ان احدهما ملك نوتي في الحديدة ، لا ملك الحكومة ، فاعادوه اليه ! ان لهم حتى في اللصوصية قواعد يتمشون عليها وحقوقاً يحترمونها ·

واغرب من كل ذلك ما نراه في بلادهم من الادلة على ما في البلاد العربية من التفكك في عرى الاحكام والتفرد المضعف المهلك في السيادة ·

ان في قلب تلك البقعة من تهامة مدينة كانت قديماً مشهورة بالعلم والصناعة ، هي بيت الفقيه الكائنة بين زرانيق الشام وزرانيق اليمن · و بيت الفقيه ايها القارىء حرة مستقلة ذات سيادة مطلقة ، لا تعترف باحد من الائمة ، ولا باحد من الاجانب ، ولا باحد من الزرانيق سيداً عليها · بل هي نفسها مقسومة خمسة اقسام خمسة احياء ، لا يزيد سكان الحي الواحد على الالف ، وكل حي هو مدينة حرة مستقلة ، يحكمه باسم الله و باسم الالف حر مستقل شيخ لا صلة بينه و بين زملائه ، ولا يعترف لاحد منهم بشيء من السيادة ضمن حكمه · انه لأعجب ما كان وما يكون في الاحكام الحرة المستقلة · و بيت الفقيه مشهورة اليوم بتعصب ساداتها ، و بفسق نسائها ، وليست في منسوجاتها كما كانت في الماضي ·

لا عذر لحضرة الامام يحيى بهذا التفكك في حكمه الشريف · ولا يمكننا ان نعزو ذلك الى النفوذ الاجنبي والدسائس الخارجية ، اذ لا اثر لها يذكر في بيت الفقيه وفي الزرانيق · ان مثل هذه القبائل العاصية العاتية ، المتاجرة بعصيانها و بقوتها ، ومثل هذه المدن المنحطة في حريتها واستقلالها لاكبر العقبات في سبيل

القومية الناهضة والوحدة العربية · ان البلية كل البلية في هذا الجهل المسلح ، هذا الإجرام باسم القومية ، هذه اللصوصية باسم الاستقلال · ليبدأ كل امير في بيته ، فيحكمه باسم الله حكماً قاسياً عادلاً · ليحكمه بعدل لا يعرف الرحمة والحنان · ليحكمه بيد من حديد و بقلب لا يرى غير الحق ، كما يفعل اليوم ابن سعود السلطان عبد العزيز · فلا يهم اذ ذاك من يستولي على الحديدة · وعندي ان من يستطيع من الامامين ، امام صنعاء وامام صبيا وجيزان ، ان يغلب الزرانيق ويؤدبهم و يدخلهم في حكمه يستحق ان يكون صاحب الحديدة ·

الفصل الخامس

اديان واشجان

العيد — نستقبل المهنئين — معرض من الشعوب — التزاوج المختلط والنسل — لا حياء في الدين — لا دين في الترفض — الهندوس — الفارسي — كيس صواب — « ادين بكل الاديان » — الشركة الدينية لضمان الحياة الابدية — محاورة في سر الوجود والخلود — محمد فضل الدين الصوفي — التقنص — العقل سجن الروح — قصة الحكيم الصيني والفراشة — رموز زائلة لحقائق خالدة — صوفي يؤسس ملكاً في تهامة — الاولياء والتوحيد — وصف حلقة الذكر — الكرامات والشعوذات ٠

العيد ! وحق لنا ان نعيد لاننا اشتركنا في رمضان مع الزيود ومع الشوافع ، فقل نومنا واكلنا ، وحرمنا طيبات الحياة فقلت ذنوبنا ، وطالت مثل النساك شعورنا ، وكثرت تقشفاتنا واوساخنا ٠ العيد ! نهضت صباح اليوم المبارك فارتديت الخر ما عندي ، قميصاً حجازية بدوية ، و « قدمية » مكية ، وكوفية مزركشة هندية ، وعقالاً مقصباً شريفياً ، ونزلت اهنيء مضيفي وصديقي محمد فضل الدين ٠

في ردهة الاستقبال نافذة كبيرة واسعة عاليـة تشرف على البحر فرشت بسجادة ووسائد فاصبحت ديواناً يجلس فيـه الوكيل المحترم ٠ هو عرشه ساعة الاستقبال ، ومكتبه في غير الامور السياسية ، والمرصاد الذي يرصد منـه ما حام على الافق من المراكب والبواخر والقرصان وتجار الرقيق ٠ وجدتـه صباح العيد جالساً على العرش معتماً بعمامة هندية وافرة ، طويلة الذؤابة ، باهرة الالوان ، وبيده سفر انكليزي في الفطريات كان يترجمه الى اللغة الهندستانية ٠

سلمت وهنأته باسم الله ، فأعجب بقيافتي واشركني في عرشه ٠ ثم دخلنـا في موضوع لا صلة له ظاهراً بالعروش والعمائم او برمضان المبارك والنوافل الروحية ٠ ولكنه يتصل باطناً بها كلها ٠ الدكتور محمد فضل الدين رجلان مثل كل ذي فكر وعلم وحجى ، رجل يعرفه الناس والحكومة الانكليزيـة وهو

الملازم م٠ فضل الدين من اطباء الحكومة الهندية ، ورجل لا يعرفه غير الخاصة من الناس وهو محمد فضل الدين من لاهور في الهند ومن كل مكان في الفلسفة الروحيـة ٠

اما الرجل الاول اي طبيب العيون ووكيل بريطانة العظمى السياسي فنتركه للناس ٠ ليس فيه ما يميزه عن زملائه الاطباء والوكلاء السياسيين ٠ ولكن الغريب الجميل هو في الرجل الثاني ، الرجل الهندي الذي لم يفقد في معاهد الغرب العلمية وفي الدوائر السياسية جمال ارثه الشرقي ٠ ان لفضل الدين قلب شاعر ، وروح صوفي ٠ اضف الى ذلك انه مثلي جبلي ٠ هو من قرية صغيرة في جبال ال « بنجاب » التي تضاهي بجمالها جبل لبنان ٠

دخلنا الموضوع الذي اشرت اليه ، وفيه تتشابه العمائم والتيجان وتضمحل اشكالها الظاهرة ، ووقفنا عند اول ابوابه لنستقبل اول مهنئ بالعيد السيد محمد العربي عامل الحديدة ومندوب الادريسي فيهـا ٠ السيد محمـد ابن عم حضرة الامام ولكنه مصري المولد والقيافـة والحديث ٠ حلو الشمائل دمث الاخلاق ٠ وقد كان في نيتي ان ازور المدينة ذاك اليوم مستطلعاً حـال اهلها فجاءت المدينة تزورني في القصر لتهنئني وشريكي في العرش بالعيـد ٠ جاء الحديديون زرافات ووحدانا من موظفين وتجار ، وسوقة وسادة ، ونوتيين وادباء ٠ وفيهم من اجناس الشعوب العربي والسوري والمصري والسوداني والصومالي والهندي والجاوي والايراني ، وفيهم من انواع المذاهب والاديان الشافعي والمالكي والحنفي والزيدي والجعفري والاسماعيلي والمـاروني [1] والفارسي عابد النار ، والوثني عابد البقرة ، والبوذي عابد اللاشيء في اللانهايـة السرمدية ٠ وفيهم من القيافات والازياء العباءة والعقال ، والجبة والعمامـة ، والصدرة والسراويل ، وقميص النوم والنعل ، والفوطة والعري الواناً واشكالاً ٠ اجل، قد عرض امامنا صباح ذاك اليوم معرض شعوب، ومعرض اديان، ومعرض ازياء في الملابس والعري قلما نشاهده في غير مكان ٠

(١) هو ترجمان قنصل فرنسا في الحديدة ٠

تعددت الشعوب في الحديدة، بل في تهامة، وامتزج دم السوداني بدم العربي، ودم الصومالي بدم الهندي، ودم الجاوي بدم الايراني، فكانت النتيجة مستهجنة مستنكرة. ان صفاء الدم في النسل لأعز ما في الامم. وان حفظ الجنس والنسب مع الرقي العقلي والادبي لأجمل ما في الشعوب. أفلا تتقزز من هذا الشريف الغائر العين، الضخم الشفة الذي يجري في عروقه الدم السوداني وهو من ابناء بنت الرسول؟ أوَ تروقك طلعة ذاك السيد صاحب العين اللوزية «جاوية صينية» والانف المفلطح «تكروني دنقلي» واليد العربية الجميلة؟ وهل تسرك رؤية ذاك الهندي الام، الصومالي الاب، العربي اللسان، الاسلامي الدين، ولا شيء فيه من صدق العقيدة ومن الفصاحة والحسن والبراعة؟ فلا هو مسلم، ولا هو عربي، ولا هو صومالي، ولا هو هندي، لا في اخلاقه، ولا في وجهه، ولا في ملابسه.

ان من يعتقد من العلماء بان امتزاج الشعوب بالتزاوج يحسن النسل ليغير عقيدته، لينبذها اذا جاء الحديدة. ولو كان ذا الامتزاج يقرب اصحاب الاديان والمذاهب بعضها من بعض لكانت تشفع هذه الفضيلة الواحدة، خصوصاً في الشرق، بسيئاته كلها. ولكن الهندي يظل هندياً، والفارسي يظل فارسياً، والمسلم يظل مسلماً، ولو امتزجت في سليلة كل واحد منهم دماء الشعوب كلها.

كنت جالساً انا وفضل الدين نشرب الشاي ذات يوم فجاءه زائراً احد الهندوس، اصحاب السراويل الشفافة التي تهف حول الجنبين وتبوح بكل اسرارهما، فسألني ان اقدم له بيدي فنجاناً من الشاي. ففعلت، فرفض. ثم قدمه له فضل الدين فرفضه كذلك باسماً. والسبب في رفضه فنجان الشاي؟ انهذا الهندوس يتنجس منا من المسيحي ومن المسلم، بل من كل من لا يعبد البقرة مثله. ولا خجل في فعلته ولا حياء.

وهناك من يلبس دينه كما يلبس ثيابه، وهي قديمة ولكنها نظيفة، باليد اليسرى دون اعتناء. ان للمعلم الكبير ازدرَشْت رعية في الحديدة لا يتجاوز

عددها الواحد الفرد . وقد كان يزورنا كل يوم فيزيدنا علماً بدينه الجميل و بجاله . هو خان باهادور الفارمي اصلاً ، الهندي بلداً ، الازدرشتي ديناً ، الانكليزي لساناً . خان باهادور ، وحديثه كزقزقة العصفور ، فيه تكسير وفيه تنغيم . على رأسه عمارة ابناء جنسه ، شارة مذهبه ، وعلى قامته الطويلة الا « فراك » الاسلامبولي مزروراً تحت الذقن ، وتحته بانطالون افرنجي ابيض عريض ، وعند ما يجلس يظهر خلال الا « فراك » طرف قميص بيضاء تدعى في دينهم « سُدْرا » Sudra اي الصراط المستقيم ، وفيها جيبة صغيرة تدعى « كيس صواب » اي كيس الافكار والاعمال الصالحة .

— ولكن الكيس فارغ يا مستر امين . لا شيء في « كيس صواب » —

السبب لا شيء . تسألني ؟ تراني وحدي في هذه المدينة . منذ عشرين سنة انا وحدي في الحديدة مقيم بين اناس لا يعرفون شيئاً من ديننا . يظنون اني اعبد الشمس . ومَن يعبد الشمس في الحديدة ، هذه الشمس الظالمة المحرقة ، من يعبدها ؟ وكيف لا يعرفون الحقيقة ، وكلهم مثلي بشر ، ابناء الهواحد ؟ بدأت اشك في هذا الدين ، في ديني . لو كان الاله العظيم يهتم للحقيقة لما تركها وحدها في ادارة القهوجي [١] وقد يكون يهتم يامستر امين . وقد لا تكون الحقيقة كلها محصورة بالا « سدرا » . كنت اشغل فكري كثيراً بالاخرة ، فاين أُدفَن مثلاً وليس في هذا البلد برج من ابراج السكينة ؟ [٢] في الهند نضطر ان نلبس مثل الهنود ، ونتكلم لغه الهنود ، ونطهر « نعمّد » ابناءنا ببول بقر الهنود . الفارسي يامستر امين يقتبس كل شيء . ها هنا في الحديدة ترى المسلم والبنيان [٣] والمسيحي وكان فيها اليهود . وتراني انا خان باهادور الفارسي الوحيد فيها اقتبس كل شيء . ادين بكل الاديان . انا مسلم و يهودي ومسيحي وهندوس وفارسي ساقط لا ينفع .. الصلاة ؟ اصلي قليلاً . فلو كنت اصلي مع الجميع لما بقي لدي وقت

(١) خان باهادور هو في الحديدة وكيل شركة بواخر القهوجي بعدن .
(٢) برج السكينة Tower of Silence عند الفرس هو برج عال يضعون فيه موتاهم ليأكلها العقبان .
(٣) هم الهندوس او بالحري التجار منهم .

للقهوجي وبواخره . اتعرف يا مستر امين ان اليهود والمسلمين والنصارى اخوان لنا هم منا . بيننا وبينهم قرابة تتصل بازدرشت وابراهيم الخليل . من هو ابراهيم الخليل ؟ الا تعرف وانت العالم المطلع على كل شيء ؟ ابراهيم الخليل هو ازدرشت بنفسه [١] هو نبينا ونبيكم . اضطُهد في ايران فسافر الى فلسطين . ازدرشت هو خليل الله وخليل الله ابراهيم الخليل هو ازدرشت . لا تتعجب اذن من قولي اني مع الكل . نعم يامستر امين انا مع الكل . ولكني لا اخاف لاني متمسك بال « سُدْرا » . البسها كما ترى دائماً ، و « كيس صواب » لا يظل فارغاً دائماً ان شاء الله . عندي خادم مسلم لا يعرف من دينه غير الله كريم . اسمعه يرددها دائماً . فصرت ارددها مثله : الله كريم . اذا كان سراط خادمي السراط المستقيم فانا معه . واذا كان في ضلال فهذه « سدرتي » يامستر امين وهذه كذلك ال « كُسْتي » حياتي مضمونة في الاخرة وان كانت في هذه الدنيا لا تساوي مسماراً في باخرة من بواخر القهوجي . الشركة الدينية ، لضمان الحياة الابدية ، مؤسسها خان باهادور ، هي شركة قوية يا مستر امين . واحسن من الشركة التي تضمن البواخر للقهوجي . الا تريد ان تشترك فيها ؟

الفرس يغسلون اولادهم ببول البقر [٢] والعادة هندية اتبعوها في الهند خوفاً من الاضطهاد . لكنهم يربطون على وسطهم اثناء الغسل ال « كستي » اي زنار الايمان ، وهو شريطة بيضاء من صوف الغنم تغزلها نساء الكهان ، ويرددون هذه الكلمات : الافكار الصالحة ، الاقوال الصالحة ، الاعمال الصالحة . وكل ما يحرز الفارسي منها يضعه في « كيس صواب » ليوم الحساب . كان صديقنا خان باهادور يرينا الكيس ، وهو شارة قدر طابع البريد على قميصه ، ويقول : الكيس كبير يا مستر امين ولكنه فارغ . . . الله كريم . خان باهادور يموت

(١) هذا رأي في ابراهيم الخليل غريب . وقد سمعت في الهند اغرب منه . اخبرني احد العلماء هناك أن بوذا هو التجسد العاشر لخليل الله .

(٢) عجبت لكسرى واشياعه وغسل الوجوه ببول البقر .
ابو العلاء المعري

في الحديدة وتأكله العقبان وهو مرمي على شاطىء البحر • ولكن سيصلي من اجله المسلم والهندوس والمسيحي • وكل واحد منهم يضع شيئاً في كيس صواب • الله كريم • الشركة الدينية لضمان الحياة الابدية ، الله رئيسها يا مستر امين •••••

كنا انا وفضل الدين نقضي ساعات في المساء على السطح تحت النجوم وحديثنا الحياة والآخرة وسر الوجود والخلود • وما احلاها ساعة انستنا السياسات والاديان كلها• ان في شخصية فضل الدين الروحية العقلية من الادب الشرقي ما هو مزيج من الاسلام والصوفية • بل في عقيدته الاسلامية شيء من الاسرار البوذية والغوامض الهندية • ولا عجب اذا ظل هذا الاساس الهندي وهذا الظل الآري في عقيدة الهندي المسلم المستنير • كنت اشعر وهو يتكلم عما يفهمه بالاسلام ، دين التوحيد ، اني مثله مسلم • وكنا عندما نصل الى ذروة الوحدة الكلية نشعر بما حولها من الفيوضات الكونية الالهية فنتأكد اذ ذاك اننا واحد في الشك وفي اليقين •

— اتعتقد يا فضل الدين بالتجسد ثانية وتكراراً ؟

— لا احب ان اعود الى هذا العالم وهذه الحياة • اما اذا كان في تلك النجوم حياة اخرى بشرية او روحية محضة فلا شك انها تكون اسمى من الحياة التي نحن فيها •

— يروعني التأمل بحدود الادراك في الانسان ، بل يملأني حزناً وغماً • خذ العقل واركن اليه فيخونك في النور احياناً وفي الظلام • وراء ذاك الافق يهجرك او تحت هذه المياه • أوَ ليس من المحزنات ان يضمحل هذا العقل بالرغم عن حدوده وشذوذه ؟ وهو الذي يقيس المسافات بين تلك الكواكب وبيننا و يعرف اجزاءها والوانها وسرعة دورانها •

لا يدهشني ذلك ولا يحزنني • في اضمحلال العقل على ما اظن تتحرر الروح • العقل للروح مثل السجن للجسد • واظن ان الحياة مجردة عن الهيولية ، الروح مجردة عن العقل البشري المحدود بل عن الادراك البشري

الذي يدور على محوره ولا يعرف غير ال « انا » فيه ، هذه الروح خالدة وتحيا ما وراء الحدود التي تحزنك . واظن كذلك انها تكون مقرونة بادراك يوافق طبيعتها، وعقل يوازي قوتها ، فتكتشف حقائق في الكون جديدة ، وتتغلب تدريجاً على العناصر المادية كلها . وقد تتدرج في التجسد الى ادراك درجات التجسد كلها ، وادواره البشرية والروحية كلها . نعم ياعزيزي الريحاني ان العقل في هذه الحياة سجن الروح . وكثيراً ما اشعر بظلمه واتألم من قيوده .

— وما برهانك ان الروح تحيا حياة مستقلة مجردة خالدة بالرغم عن انفصالها عن العقل الذي تدعوه سجناً ؟

— انها تحيا بسبب هذا الانفصال وليس بالرغم عنه . برهاني ؟ لا برهان عندي غير تلك الانوار ، انوار النجوم والكواكب . ان فيها ، في اشعتها وفي فلكها عقلاً يديرها ، وقد يكون ذلك العقل مكوناً من ارواح من تقدمنا من الناس . وهي منفصلة كلها من روح الله ومتصلة بها ، منفصلة في الفردية متصلة في الجوهر الكلي . قد تكون تلك الارواح كنه الجاذبية في الافلاك .

— ارواحنا اذن تحوم حول تلك الانوار كالفراشة ولا تحترق ؟

— فراشة النفس ، نعم ، وهي من نور ، فتجذبها نار الحب نار الالوهية اليها ولا تحرقها . وعلى ذكر الفراشة ، قرأت مرة قصة حكيم صيني حلم في نومه انه فراشة في بستان الحبور تنتقل من زهرة زكية الى اخرى . وعندما استفاق حزن جداً لما شاهد من حقيقة حاله فسأل نفسه حائراً بائراً : هل انا رجل يحلم بانه فراشة ام فراشة تحلم بانها رجل ؟

— جميل ، جميل . ومن يزيل الحيرة من قلب الحكيم ؟ يخيل الي يا فضل الدين اننا في هذا العالم رموز زائلة لحقائق خالدة . وكل حقيقة تتكون تكوناً روحياً جديداً كلما طوي رمزها . وفي كل تكوّنٍ تزداد انتشاراً وقوة وحباً . فيكون رمزها في هذا العالم شبيها بها ، ممثلاً لها ، عظيماً في الناس . ويستمر هذا الطي والنشر ، هذا التجسد في الرمز والنمو في الحقيقة ، الى ان تجتمع ، وها هنا

معنى جمع الجمع في نظري ، بالفيض الاولي الاكبر ، الفيض الالهي . فيكون في ذلك اوج مجدها ، النهاية في اللانهاية ، ويكون اخر التجسدات لرمزها المادي البشري . هذا ما تراه عين البداهة في التجسد والخلود ، وهذا ما افهمه بجمع الجمع في اصطلاح الصوفي .

— ولكن عقلك لا يثبت ذلك . العقل عدو البداهة . العقل — اعود الى ما قلت — سجن الروح .

— وما دمنا في السجن لا ارى اصلح من البداهة غذاءً وهواء . وفي البداهة كذلك شيء من الخيال هو خير التعزية اذا نكب البرهان .

— وما الفرق بين الخيال والاوهام الدينية ؟

— الفرق بين اعتقادك بالخلود واعتقاد خادمك العبد بالجنة .

— وهل تسميها جنة العبيد — عبيد الاوهام ؟

— قد سماها من هو اكبر منا [1] بجنة البله .

— اني افضل ان اكون فراشة .

— فراشة من النور تجذبها اليها نار الالوهية ولا تحرقها ؟ اني اشاركك في التفضيل .

في صباح اليوم التالي اهداني صديقي كتاباً صغيراً ما عرفت من عنوانه شيئاً من اغراضه . ولكن مؤلفه السيد احمد بن ادريس مؤسس الحكم الادريسي في عسير هو من اولئك الروحيين الذين يرفعهم محمد فضل الدين الى مقام ابن العربي وجلال الدين الرومي . امر عجيب يتلوه في تهامة امر اعجب . كيف لا وهذا الصوفي يؤسس فيها ملكاً عالمياً ، الطريقة فيه اساس الحكم ، والحكم اساس الطريقة . ولكن الطرق تفسد التصوف فكيف بها في الاحكام ؟

لعمري ان اجمل الكمالات التي نتمناها محققة في الحياة هي تلك التي تقترن فيها روحية الصوفي الحقيقي بالاعمال الاجتماعية والسياسية والادبية .

(١) ابو حامد الغزالي .

كلها . فتصفو مجاري العقل في مواردها ، وتدق خيوط النفس في منسوجها ، ويقل الجشع والخداع والوهم في فروع الحياة الثلاثة المذكورة . ولكن التصوف اجتهاد شخصي ، ونعمة فردية ، لا تورَّث ولا تعلَّم ولا تُنشر بالاجازات . ومن الاسف انه لا يبقى منها ، بعد موت صاحبها ، غير الطريقة او الحلقة وخزعبلاتها ، والمشايخ وجربزاتهم .

قال فضل الدين عند ما اهداني الكتاب : الجهل المخيم في هذه البلاد يفسد اغراض هذا الرجل الكبير . تجيء المرأة اليَّ وهي تشكو من مرض او الم فاعالجها فتشفى بفضل « الشيخ احمد » . يجيء العربي وهو يصرخ من اوجاعه ويصيح : جرني يا شيخ احمد يا شيخ احمد لا تنساني ! يغيظني هذا الاشراك بل هذا الكفر . اكاد اجن منه . قلت مرة لاحد المرضى : رح الى الشيخ احمد يداويك . ورفضت مرة ان اعالج امرأة حتى انتقلت في استغاثتها من الشيخ احمد الى النبي . فصحت بها : لا احمد ولا محمد يا كافرة . استغيثي بالله : اتكلي على الله وحده .... اما حلقة الذكر فستشاهدها باذن الله في الحديدة .

وكان قد توفي فيها يومئذٍ شيخ الطريقة المرغنية [1] فاشتركت الطرق كلها في حلقة ذكر من اجله ضمت اربعمئة من المصلين واستمرت خمس ساعات . صحبني تلك الليلة الى مسجد الشجرة خارج المدينة مدير الشرطة وكاتب العامل وأحد اصحاب فضل الدين . فجلسنا في منصة في صحن المسجد اشرفنا منها على الحلقة كلها . وكان الناس جالسين على الارض في الفلاة وعلى الحصر في الايوان ، ووقف في الابواب وحول الجدران جمع من المتفرجين ، وجلس في الصدر في حلقة خاصة ابناء الشيخ المتوفي ومشايخ الطرق الاخرى ، وبينهم سراج منير وقارىء كان يقرأ ساعة وصولنا المناقب التي تفتتح بها حلقات الذكر .

ان المناقب شبيهة بسير القديسين في الكنيسة الكاثوليكية ، فهم يعددون.

---

(١) الطريقة المرغنية لاحمد المرغني الذي اخذ عن احمد بن ادريس هي احدى الطرق الاحمدية الادريسية في عسير وعدن والسودان .

فيها فضائل الفقيد ، فيجيئون بنبذة من سيرة حياته ، و يذكرون بعض كراماته . استمرت مناقب الشيخ المرغني ساعة ، وعندما وقف القارىء الوقفة الاخيرة فيها هتف المصلون : آمين . ثم ارتفع صوت شجي ينشد قصيدة يرثي فيها الفقيد الابر فكانت مثل المناقب طويلة ، وما كنت وحدي متضجراً . قال مدير الشرطة وهو يمسح العرق من جبينه : طويلة ، والله طويلة . الشيخ يحتاج الى الصلاة لا الى الاشعار .

ولكن الشعراء لا يملون من استماع قوافيهم . هوذا اخر لا حسنة حتى في صوته . ولا حقٌ جعلنا نترحم على السابق . ثم هتفنا مع المصلين : آمين ، آمين . وكان الحر شديداً ، والهواء ساكتاً عنيداً ، لا يحرك منه لساناً ، فينعش قوانا ، والرطوبة اثقل ما فيه ، واللزوجة افجع قوافيه . فاستجرنا منه بروح الشيخ الطاهرة ، ورفعنا الادعية والطلبات الى سدتها الجليلة الباهرة : يا لطيفة ، ياشريفة ، يا كليمة ابي حنيفة ، يا مسكتة الشعراء ، ومنطقة الاولياء ، يا مسكّنة النهقات ، ومحرّكة الحلقات ، اسمعينا ، ارحمينا ، آمين .

استجيبت في الحال طلبتنا ، فوقفت الحلقة اربعة صفوف الواحد وراء الآخر ، ووقف الشيخ احد ابناء الفقيد في وسطها فحركها باسم الله . بدأ بصوت هادىء واشارة لطيفة ، بدأ بـ« لا اله الا الله » . فمالت الحلقات الى الامام ، ومالت الى الوراء ، وراحت تكررها وتردد الشهادة . وكان صوت الاربعمئة مصلي ، وكأنه صوت واحد ، وحركة الاربعمئة مجلي ، وكأنها حركة واحدة ، يتدرجان سرعة وهياجاً ، عملاً بلهجة الشيخ و باشارة يمناه ، وهو يجول في الحلقة مستحثاً محرضاً .

الاّ الله ! وضرب كفاً على كف فرددت الحلقة : الاّ الله ! بسرعة لمح البصر ثم امست كأنها تصيح : للهللهلله ، وسكتت فجأة كمن أغمي عليه . ثم عادت تدريجاً الى الميزان الاول في الصوت والحركة : لا اله الا الله . وجلس الشيخ . فقام آخر يثب وثباً و يقول : حيُّمْ قيُّمْ[1] . شرعنا نتقدم هياجاً .

(١) اي الحي القيوم .

دخلنا في دور الزبد والرغاء • حيٌّم قيٌّم ! وتحركت الحلقة حركة سريعة شديدة كأنها تدق رأسها في الارض ثم نطحاً في الجو ، واستمرت في حيٌّم قيٌّم نصف ساعة والشيخ يثب في وسطها و يخلج ، ويصفق كفاً على كف كل مرة ينقلها من درجة في السرعة الى اخرى • وما كادت تنتهي حتى بدأ يسقط صريعاً من فاز بنعمة في « الحال » •

ثم نهض ولد لا يتجاوز الثانية عشرة سناً ، وهو اصغر اولاد الفقيد ، فبدأ حيث انتهى اخوه • وكان يتلوى كالسكران ، و يرقص تارة و يثب طوراً كالمجنون • مثّل الولد دوره تمثيلاً ادهش حتى الذين الفوا الحلقات ومدهشاتها واضحكهم كذلك • كهرب الولد الحلقة • اضرم فيها النار • قبض على ما تبقى من رشدها ورماه خارجاً • صاح بها فرددت الصيحات ولم نعد نفهم ما يراد • الا انها اشبه بالانين • كأن الار بعمئة رجل اصيبوا بألم شديد فأنوا انة واحدة • و بدأت تظهر كرامات الشيخ • هوذا عبد امسى جماداً ، فرفعه اثنان فوق رؤوسهم واخرجوه • وذاك وقد خرج من الحلقة فراح يدق رأسه بالحائط فسقط صريعاً مغمى عليه • وهاك من يبغي الاجتماع بالله بواسطة عمود من اعمدة المسجد فامسكه رفيقاه فتفلت منهما وضربهما ، ووثب وثبة هائلة كان العمود ورأسه خاتمتها المفجعة • حملوه مضرجاً بدمه الى خارج المسجد •

بدأت تظهر كرامات الشيخ الفقيد • سقط امام الولد الزعيم في وسط الحلقة شيخ لحيته بيضاء طويلة والزبد يسيل من فيه عليها ، فوثب فوقه ولم يأبه له • وهذا آخر يخلع ثيابه •

« خلعت عذاري واعتذاري لابس الـ خلاعة مسروراً بخلعي وخلعتي »

رمى بعمامته و بجبته و بدثاره الى الارض • فاوقفوه عند هذا الحد واخرجوه في شعاره من الحضرة الروحانية • استجرنا من ذا المشهد بروح الشيخ الطاهرة : يا لطيفة ، يا شريفة ، يا كايمة ابي حنيفة ، يا مسكتة العباد ، ومنطقة الجماد ، يا ربة الحال ، وسراج الترحال ، قني ، والطفي • لا تقتلينا بالكرامات ، ولا تسكرينا بالشعوذات ، ولا تؤاخذي شيوخ الطرق والحلقات ، امين ، امين •

الفصل السادس

احمد بن ادريس والتصوف

قطبا الصوفية في العالم الاسلامي — مولد السيد احمد — يدرس ويدرّس في فاس — اجتماعه بالشيخ عبد الوهاب التازي — العلم بالغيب وما يدعى عند الافرنج Clairvoyance — اجتماع التازي بالشيخ عبد العزيز الدباغ — اجتماع الدباغ بالخضر ابي العباس — الطريقة الاحمدية — « امرنا كله جد · من يعطِ الجد يعطَ الجد » — السيد احمد في مكة — رحلته في تهامة — انتشار الدعوة — وفاته في صبيا — تلميذ الشيخ ابرهيم الرشيد — الطريقة الرشيدية وترهاتها — آيات صوفية — فلسفة الزهد والفقر — الامام علي وقطب الجان القَدَاني — المُجَيدري يأخذ عن قطب الجان والسيد احمد عن المجيدري — محامد وصلوات ونقمات — استعارات صوفية — السالكون والمشعوذون ·

كتبت عند وصولي الى الحديدة كتاباً الى السيد محمد امام صَبْيا وجيزان استأذنه بزيارته ، و بت انتظر الجواب · وانتظر كذلك سيارة استشرقت في الشرق فصارت تعمل يوماً في الاسبوع وتعيِّد ستة ايام · فعيدت معها وكان سروري مزدوجاً لاني اجتمعت ايام العيد بقطب دائرة التقديس ، السيد احمد ابن ادريس ، كبير بيت الادارسة ومؤسس ملكهم في عسير · وفزت بطرفة من ترجمة حياته ، وبنفحات من قدسياته ، فجئت أمتع القارىء بها عله اذا كان مادياً يستفيد ، واذا كان روحياً يستزيد ·

ان في العالم الاسلامي قطبين للصوفية وموردين هما ايران وبلاد المغرب · والسيد احمد ، نور من انوار الثاني · فقد كان شروقه عكس الكواكب من الغرب وغروبه الظاهري في الشرق في بلاد العرب · ولد في بلدة العرائش على ساحل البحر من اعمال فاس في السنة الثانية والسبعين والمئة بعد الالف (١٧٥٨ م) وهو شريف حسني من السادات الادارسة المشهورين في بلاد المغرب · درس العلوم في مدينة فاس ثم شرع يعلم هناك في « ما شاء الله » اي في المواضيع التي شاءت العزة السرمدية تلقينه اياها بالوسائط وبدونها ·

كان السيد احمد وهو في الدور الاول من استشرافه على الاسرار الالهية والكونية يكثر الترداد على المشايخ العارفين الابرار الذين اصبح قطبهم بعدئذ في العلوم والسلوك .

اما الشيخ عبد الوهاب التازي الذي كان يحضر دروس السيد احمد في فاس فقد صار بعدئذ شيخه الاكبر ونور طريقه الانور . ولا اهمية للسن في الموحيات ولا للشيخوخة في الربانيات . فمن جمال هذه الارواح القدسية وكمالاتها ان المعلم الطالب الحقيقة لا يأنف ان يأخذها ، وهو شيخ طاعن في السن ، عن تلميذه بل عن احقر الناس واصغرهم لديه .

قد اجتمع السيد احمد بشيخه التازي بواسطة عالم من علماء شنقيط يدعى المُجيْدري ، وكانت في الاجتماع الاول فاتحة الالطاف والاشراف . ولا عجب اذا كان الصوفي يهتم لكل حادث في حياته يفتح له باباً او يشير الى باب من ابواب الحقيقة الكلية الازلية . اني اتصور المجَيْدري يقول للتازي : هذا الشاب الادريسي مجد مجتهد ، وهو على سنه طويل الباع في علوم اسرار الكتاب والسنة . فيقول التازي : قد علمت بذلك قبلك . سمعته في بادئ امره يدرّس فقلت في نفسي : لا بد ان يشرق على كلماته نور الاذن الرباني . وها دنت الساعة يا مجيدري ، ائتني به فاجمعه برسول الله .

وكذلك كان . ذهب السيد احمد مع المجيدري الى الشيخ عبد الوهاب واحس من اول لحظة ان ها هنا الباب الاول ، ها هنا سراج الطريق . فلازمه وانقطع اليه بكليته . وقد كان للتازي في ساعات الحال نظرات تخترق استرة الغيب فيرى ما لا يُرى ويشعر بما يحدث بعيداً عنه على الطريقة التي يدعوها علماء اليوم Clairvoyance منها انه عرف وهو في فاس بموت المجيدري ساعة وفاته في شنقيط . وقد علل الشيخ التازي للسيد احمد هذا العلم بالغيب تعليلاً لطيفاً جديراً بالذكر . ان المربي او الواسطة الاولى بين النفس والمصادر الروحانية اذا اتجه في ساعات الحال الى احد تلاميذه يراه بعين الغيب ويراه ما دام حيّاً في حالات شتى ، « تارة انور وتارة اظلم بحسب سلوكه وطاعته ، وتارة اقرب الى

الله وتارة ابعد » . اما اذا رآه على حال واحدة في المكان الذي يعهده فيه فيستنتج من ذلك انه مات . أفلا ينطبق هذا الكلام اللطيف على الانسان اطلاقًا ؟ هو ما دام حيًا منقلب ، او بالحري يتنازعه دائمًا عاملان ، عامل الخير فيقربه من الله وعامل الشر فيبعده عنه تعالى . ولا يوحد العاملين او يزيلهما الا الموت .

والشيخ التازي على كرامته لم يكن للسيد احمد غير الواسطة الاولى . اما الثانية ، وهي بشرية كذلك ، فتجمعه بالخضر ابي العباس . الا انه قبل ان نصل الى الخضر لا بد من الدخول في الباب الثاني اي شيخ الشيخ التازي . نعم قد كان للتازي كذلك شيخ هو عبد العزيز بن مسعود الدباغ من فاس . وما كان لعبد العزيز من الحياة الدنيا غير ستة وثلاثين سنة لزمه التازي مدة سبع عشرة سنة منها .

قد اخبرتك كيف اجتمع الادريسي بالتازي ، فاخبرك الآن كيف اهتدى التازي بالشيخ الشاب عبد العزيز الدباغ . يظهر ان شيخ سيدي احمد كان تاجراً في اول امره ، او انه كان يتجر في بعض الاحايين ارتزاقًا . فمر يومًا بالدباغ وهو يريد ان يتجر في الحنطة فدنا الدباغ منه وهمس في اذنه : لا تتجر في الحب واتجر في السمن . اشتره من يوم كذا وبعه في يوم كذا ولا تبقه بعده . فعمل التازي بما قال فربح ربحًا كثيراً . فجاء اليه شاكراً . فقال الدباغ : ليس المقصود هذا ، وانما المقصود ان تتجر تجارة لن تبور ابداً . فقال التازي : كيف ذلك ؟ فاجاب الدباغ : اخرج مما ملكت يدك فتصدق به . فعمل بامره ولزمه منذ ذاك الحين واطلع على اسرار في العلوم والتفسير تلقنها بواسطته من الخضر ابي العباس . وقد عاش التازي ستين سنة بعد وفاة شيخه الدباغ وكان هو وتلميذه الادريسي يزوران ضريحه وينشدان هناك الاشعار .

لقد نبتت في القلب منكم محبة   كما نبتت في الراحتين الاصابع

. . . . .

تعشقتكم طفلاً ولم ادر ما الهوى   فشاب عذاري والهوى فيكم طفل

من كرامات التازي انه غاب عن بلده مرة يذكر اخوانه في الله فمات ولده فأُخبر بذلك فارسل الى اهله يقول : لا تدفنوه حتى احضر . فحضر بعد ثلاثة ايام فخاطب ابنه قائلاً : من قال لك تموت ؟ قم باذن الله . فقام الولد حياً . ان كاتب الترجمة التي اعتمد عليها يذكر هذه الكرامة كأنها حادث عادي مألوف . واني ناقل الخبر حباً بنشر ما اظنه ظلاً الهياً لحقيقة كلية لا بد في مستقبل الانسان والايمان ان تصبح قوة من القوى البشرية العامة يستخدمها صاحبها لخير الناس . يستخدمها في الشفاء من الامراض على الاقل . فاذا مرض احد في بيتك تقول له : من قال لك تمرض . اشف باذن الله تعالى فيشفى في الحال . وكان التازي يهذر احياناً بين اصحابه امتحاناً لهم ، فيقول مثلاً : وددنا لو جاءنا احد بثمر من القوقاس ، او بعنب من البحر . فيقول بعض اصحابه : كبر سن الشيخ . ولكن السيد احمد ، وقد كان اطوع له من بنانه ، كان ينهض فيتهيأ ويتزود للسفر ويجيء الى شيخه فيقبل يده مودعاً ويقول : سأجيء لك بعنب من البحر . فيقول له التازي سراً في اذنه : يا احمد امرنا كله جد ، من يَعط الجد يُعط الجد .

ما اكبرها وما اجملها كلمة . اخذها السيد احمد عن شيخه التازي وجاء بها الى مصر . من يَعط الجد يُعط الجد . كان يومئذٍ في العقد الرابع من العمر ، فاقام في ارض الكنانة قليلاً ثم سافر الى مكة فاقام فيها ثلاثين سنة يجادل ويناقش العلماء ، ويشرح ويعلم العلوم الروحية . وكان يقول دائماً : لكل نبي دعوة مجابة ، ولكل ولي عند نبيه طلبة مقبولة . هذه هي نقطة الخلاف بين السالكين من سنيين وشيعيين وبين اهل التوحيد الوهابيين الذين كانوا قد استولوا في ذاك الحين على الحرمين .

اما اذا قبلت قاعدة السيد احمد فينبغي لك ان تقبل كذلك نتائجها . فنقول ، والمنطق اساس المعقول : ولكل شيخ طريقةٍ عند وليه طلبة مقبولة ، ولكل سالك عند شيخه شفاعة ، ولكل امرىء عند السالك مثلها الخ . هذا نظام في العقيدة والايمان يفسد غالباً الغرض السامي منهما . قد رأينا مثالاً

منه في حلقة الذكر . وهناك امثلة اخرى عديدة في من يلجأون الى الاولياء والى المشايخ ، بل الى الاشجار والاحجار عند ضريح من كان من الابرار . ليس المقام مقام جدال في الدين وتفضيل بين السالكين والموحدين . ولكني اقول ان السالك الحقيقي يصل في نهاية امره اللهم اذا كان مجداً مخلصاً الى اسمى درجات التوحيد .

هذا السيد احمد ابن ادريس الذي لم ينقطع قط عن صحبة المشايخ العلماء يأخذ عنهم وعن المتقدمين من السالكين حتى قيل له من الحضرة الالهية : لم يبق على وجه الارض احد تنتفع منه الا القرآن . فقضى بعد ذلك سنيناً عديدة لا يشتغل بغير الكتاب وتفسير آياته ودرس حقائق معانيه . واظن انه قال اثناء ذلك كلمته المأثورة : طريقتي سم السعادة . ثم تدرج منها الى كلمة اكبر واجمل : طريقتي ما فيها كون [1] القدم الاول ها هنا والثاني عند الله . هوذا الصوفي في اسمى درجات التوحيد .

قد تدرج السيد احمد في الوسائط كذلك . فقد كان بينه و بين النبي كما تبين واسطتان بشريتان هما التازي والدباغ وواسطة روحية هي الخضر ابو العباس . والخضر الذي كان يجتمع بالنبي في حياته هو الواسطة بينه « ص » و بين الدباغ عبد العزيز الذي كان يجتمع به و يأخذ عنه في اليقظة وفي المنام . و كذلك السيد احمد ، فقد استغنى رو يداً رو يداً عن الوسائط كلها ، كما استغنى بالقرآن عن العلماء اجمعين ، وصار في آخر امره — و يصح ان نقول في بدايته — يجتمع بالنبي مباشرة مثل الدباغ في اليقظة وفي المنام .

قال السيد احمد : اجتمعت بالنبي اجتماعاً صوريًا ومعه الخضر فامره النبي ان يلقنني اوراد الطريقة الشاذلية [2] فتلقنتها بحضرته « ص » ثم لقنني بامر

---

(١) يريد بالكون الوجود بعد العدم والعدم بعد الوجود . اي لا عدم في طريقته سابقاً ولاحقاً .

(٢) قد سمى السيد احمد طريقته احمدية نسبة الى اسمه وهي تدعى كذلك في تهامة وعسير اما عنوانها فعنوان الطريقة الشاذلية لان اتباعها يسلكون بالتهليل والادعية مسلك الشاذليين . وقد كانت طريقة التازي شاذلية ناصرية تتصل بواسطة شيوخ بني ناصر في

من النبي ايضاً سائر الاذكار والصلوات . ثم رفع النبي السيد احمد الى مقام الخضر وصار يكلمه بدون واسطة : يا احمد قد اعطيتك مفاتيح السموات والارض وهي التهليل المخصوص[١] والصلاة العظيمية[٢] والاستغفار الكبير[٣] المرة الواحدة منها بقدر الدنيا والاخرة . وقد قال له بخصوص الاستغفار الكبير : خزنتها لك يا احمد . ما سبقك اليها احد . علمها اصحابك ليسبقوا بها الاوائل .

لعمري ان من يتجه بكل قواه العقلية والروحية والقلبية الى كتاب او الى امر او الى عقيدة او الى طريقة صوفية كانت او تجارية يرى منها ومن نفسه العجب . فكيف لا يجتمع بالنبي من قضى ستين سنة يفكر بالنبي ، ويقرأ ويردد كلمات النبي ، ويتوسل « بالصلاة العظيمية » الى النبي في اليقظة وفي المنام ؟ ان صورة اصورها في قلبي كل يوم لتنعكس امامي من حين الى حين فاراها بالعين المجردة كما اراها بعين الحلم والروح ، وان شئت فقل بعين الخيال ، واسمعها كذلك تنطق بما طالما حلمت به ورددته مراراً وتكراراً ، يقظة ومناماً . فضلاً عن ان السيد احمد الذي ابتدأ بالتازي معلماً وانتهى بمحمد اصبح والنبي شيخه الاكبر ونوره الانور . وهو اي السيد احمد القائل : الاستفادة من شيخك اكثرها يكون بالتوجيه القلبي . اسأله بقلبك فيجيبك بقلبه[٤] هوذا

المغرب بالشاذلي . وطريقة بني ناصر هي في نظر العارفين اشرف الطرق الشاذلية هناك ولا يسمحون بها الا للعلماء .

(١) اي لا اله الا الله في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله

(٢) منها : اللهم اني اسألك ... ان تصلي على مولانا محمد ذي القدر العظيم ... صلاة دائمة بدوام الله العظيم ، واجمع بيني وبينه كما جمعت بين الروح والنفس ظاهراً وباطناً ، يقظة ومناماً ، واجعله يارب روحاً لذاتي من جميع الوجوه في الدنيا قبل الاخرة يا عظيم . — كتاب الاحزاب والاوراد صفحة ١٨٢

(٣) منه : استغفر الله العظيم ... واتوب اليه من جميع المعاصي كلها والذنوب والاثام .. من الذنب الذي اعلم ومن الذي لا اعلم عدد ما احاط به العلم واحصاه الكتاب وخطه القلم ... كما ينبغي لجمال وجه ربنا وجلاله . — كتاب الاحزاب صفحة ١٨١ —

(٤) واسألك يا الهي ان تحققني بشهود ذاتك باذا الجلال تحقيقاً كلياً وشهوداً عينياً يستغرق جميع ذاتي وصفاتي وجملة اجزائي وكلياتي ويخرجني من شهود كل شيء سواك ... واسألك باسمك العظيم ان تنعمني في شهود تجليات ذاتك بالعين التي لا يحجب عنها شيء في

الصوفي الحقيقي يتكلم . وهذه فيه صورة من صور الجمع العديدة .

اما من وجهة علمية عرفية فقد كان السيد احمد سيد العارفين وقطب المحققين ، جامعاً بين علمي الظاهر والباطن . وله فيهما الباع الطويل على الاخص في علمي القرآن والحديث « رواية ودراية » كما يقول صاحب الترجمة « وكشفاً وتحقيقاً » وهو يريد بذلك المعقول والمنقول ، الحقائق الوضعية والتقاليد ، ما رُوي منها وما ادركته البداهة وأقره العقل . واني از يدك من كلام كاتب الترجمة ما لا غلو فيه ولا مبالغة : « قد اخصه الله بالمواهب المحمدية والعلوم اللدنية [1] والاجتماعات الصورية » . كل هذا صحيح شريف . واشرف من الاثنين الاخرين الاول اي تخلقه باخلاق النبي او ببعضها .

على ان هناك امراً يختص بعلوم السيد احمد قد يُظن في ظاهره الشعوذة التي اجله عنها . ولكنه استحال علي فهم السر في يده . فقد كانت كما قيل لوح العلم المكنون ، ينظر اليها فيرى و يسمع ما وراء المحسوس والمظنون . بل كان اذا سئل عن شيء في القرآن ينظر الى باطن كفه ثم يشرع يفسر بما شاء من العلوم اللدنيـة . واذا سئل عن حديث شريف ينظر الى ظاهر كفه ثم يتكلم بما يبهر العقول . فما الصلة يا ترى بين كفه و بين تلك العلوم والاسرار ؟ حبذا لو اذن للشيخ السنوسي بشرح « احزابه واوراده » . فقد يكون تمكن من اماطة النقاب عن هذا السر في طريقة السيد احمد وفي يده . ولكنه لم يأذن للسنوسي بشرح الاحزاب خوفاً من ان تفسدها الشروح . فقد قال له : لا تخربها يا ولد السنوسي ، انما شرحها في جنة عدن .

اما السيد محمد السنوسي الذي اجتمع عندما جاء مكة للحج بالسيد احمد الادريسي فهو من علماء المغرب الكبار . وقد أعجب جداً بالسيد احمد ولزمه

الارض ولا في السماوات وأفض على جميع ذاتي لذة ذاك الشهود حتى اكون كلي لذة ذاتية الهية سارية في نفسي من نفسي لنفسي . — كتاب الاحزاب والاوراد صفحة ٨ و٩

(١) العلوم اللدُنية التي هي من لدنه تعالى اما رأساً بالوحي وبالبداهة واما بواسطة بشرية او روحية .

مدة اقامته في مكة ، فاخذ عنه واذعن له الاذعان التام . لذلك ترى الطريقة السنوسية في كفرة اليوم جامعة بين الادريسية والشاذلية . ولكنها تدعي محمدية لاتصالها بواسطة الادريسي فالتازي فالدباغ فالخضر بالنبي . وقد عادت الى الغرب بواسطة السنوسي ، وسارت الى افريقيه بواسطة محمد المجذوبي السواكني ، احد اولياء السودان « الشهير في وقته بين الخلائق ، بالكشف الصادق ، والكرامات الخوارق » . فقد صحب السيد احمد مدة مديدة واخذ الطريق عنه .

ثم اتجه القلب الى اليمن ، فبعث الله منها احد السادة ، جاء مثل السنوسي للحج . وليس خير من مكة لمن يروم الصيد ، صيد القلوب . كلها تحوم هناك . جاء السيد عبدالرحمن بن سليمان الاهدل [1] مفتي زبيد في عصره فالفى السيد احمد فيها « كالعافية للسقيم وكالشفاء للجرح الاليم » ولما عاد الى وطنه حدّث في زبيد عن شيخه الادريسي واثنى عليه كثيراً . ثم كتب ترجمته في كتاب دعاه النفس اليماني والروح الريحاني . وبين هو وبعض العلماء يوماً في ذكر كراماته — بذكر الصالحين تتنزل الرحمات — هزهم الشوق اليه ، ومثلهم الوجد بين يديه ، فقال السيد الاهدل : هذه ساعة الاجابة ان شاء الله . ارفعوا ايديكم بالدعاء ان يأتي الله به الينا . فلما تم المجلس قال : أرّخوا اليوم وهذه الساعة . وكان في مكة يومئذٍ ان حرّك الله ذاعي السفر في قلب السيد احمد ثم امر به فخرج يبغي مريديه يوم هاجهم الشوق اليه . وعندما وصل الى تهامة كان اول نزوله في زبيد عند السيد الاهدل عبدالرحمن .

جاء الادريسي اليمن مبشراً بعقيدته ، داعياً الى طريقته ، ناشراً ما منحه الله من علوم اسرار الكتاب والسنة . وكان حيثما نزل محترماً مبجلاً ، فنظمت في مدحه القصائد وتبارى في ذي الحلبة شعراء زبيد وبيت الفقيه وتعز ووضاب ، وتهافت عليه الناس خاصة وعامة يستنيرون بمشكاته وينتفعون

---

(١) آلسيد عبدالقادر الاهدل في مراوغه اليوم هو حفيد السيد عبدالرحمن واحد أفاضل العلماء هناك .

ببركاته[1] بل كان العلماء والمشايخ له سامعين ، وعنه اخذين ، وكانت زبيد نقطة دائرة اماله . اقام اول مرة فيها عشرين يوماً ، وعاد بعد ان طاف في تهامة اليها ، فاقام فيها بضعة اشهر ، فاخذ الناس يتسابقون الى اقتبال دعوته ونشر طريقته ، التي اجازها للسيد عبد الرحمن بن سليمان الاهدل هو واولاده اجازة عامة « في جميع العلوم المقربة من الله تعالى » . ولا تزال زعامتهـا في بيت الاهدل الى اليوم .

مما يحزن في اخبار رحلة السيد في اليمن ان تلك البلاد كانت منـذ مئة سنة ارقى مما هي اليوم . لقد كان اهلها متيقظين ، وفي العلم راغبين . كيف لا والشعراء والعلماء يومئذ في المدن والقرى ، وقد لا تجد اليوم في تهامة كلها شاعراً واحداً ينظم باللغة الفصحى . اتلوم الترك الذين حكموا بعدئذ البلاد ، ام تلوم التصوف الذي ينفع الفرد ولا ينفع عامة الناس . اني متيقن ان لا تصوف في الجماعات ، وقد استحال عندهم طرقاً وحلقات .

عاد السيد احمد شمالاً في رحلته فزار الحديدة ومراوعه وباجل ثم صبيا البلدة المشهورة القريبة من ابي عريش ، فاستقر فيها واستوطنها ، فكانت هناك خاتمة الرسالة الصوفية ، وفاتحة الطريقة الاحمدية .

شرفت صبيا بكم فغدت موردا للعلم والنزل
ليت شعري ما الذي فعلت فعلت قدراً على زحل

ان اخر من اخذ عنه اثناء اقامته هناك هو الشيخ ابراهيم الرشيد صاحب الطريقة الرشيدية . فقد صحبه في صبيا منـذ السبع السنوات الاخيرة من حياته فاغتنم فيوض بركاته حتى النفحة الاخيرة منهـا التي فاضت من نفس السيد احمد ورأسه الشريف على ركبة تلميذه ، وذلك في تسعة بقين من رجب في السنة الثالثة والخمسين والمئتين والالف (١٨٣٧ م) .

قد قيل ان الرشيد كان اقرب الناس الى الشيخ صبيا ووليها ، وارسخهم

(١) ولقد املى عافاه الله من تلك الرقائق والحقائق ما استنارت منه قلوب سليمة ، وتداوت من جراحات غفلاتها قلوب أليمة . — من كتاب النفس اليماني والروح الريحاني

قدماً في علومه واسراره . ولكننا سمعنا وشاهدنا في طريقته ما ينفي ذلك . حلقة حضرناها في عدن فيها الولدان ينغمون ، ورجال يطيبون و يتصابون ، وصفوف من الحسن والشوق تميل بعضها الى بعض ، وعيون ترنو الى القمر في السماء ثم الى الاقمار امامها ، وشيخ الحلقة جالس على منصة يراقب منها العمل بل التمثيل . انه في تعليم الولدان ، لاستاذ بارع يعلمهم الغناء والحداء والسجود ، فيستصبي في اذكارهم الجلمود ، و يغرس في الحلقة سر الوجود — خاتمة المحامد والورود . ان مثل هذا التطور في التصوف ليحزن جداً . واني اجل السيد احمد عما يجري باسمه اليوم في تهامة وعسير وفي السودان ، واعتصم بروحه الشريفة الطاهرة منها .

حققني يا الهي بانسانيتي حتى اكون انسان العين الكلية الالهية التي لا يحصرها شيء ولا يقدر قدرها سواك .

واسمعني غاية لذيذ خطابك ومحادثتك في كل حال من احوالي بجميع كلياتي حتى لا تخلو ذرة من ذرات اجزاء ذاتي من ذاك السماع الالهي لحظة ولا اقل من ذلك .

واجعلني يا الهي لك عبداً محضاً عبودية خالصة لا رائحة ربوبية فيها على احد من خلقك .

وتجلّ لي يا الهي بمقام الاستواء الجامع للمراتب الحقية الالهية كلها حتى اعطي كل مرتبة الهية حقها من نفسي .

وتجلّ لي يا الهي بسر توحيد الذات المُطَلسم في آية الانانية الموسومة : انا الله لا اله الا انا فاعبدني .

وتجلّ لي يا الهي ياذا الجلال والاكرام فاجد لذة الوحي الالهي مني الي دائماً ابداً سرمداً .... منزهة ان يلحق بها او يقرب منها لذة في جميع الوجود بحيث لو وضع منها قدر رأس شعرة على جميع العالم لهام بعضه ببعض ، من غير ان تفارقني تلك اللذة لحظة ولا اقل منها حتى اكون حقاً

الهياً في نفسي .[1]

من اين للعامة الذين يصيحون في الحلقات و يرقصون ان يتفهموا مثل هذه الروحيات ، ويتذوقوا مثل هذه الالهيات ؟ بل من اين لمشايخ الطرق والسادات المتصوفين ان يدركوا معاني شيخهم الاكبر في « الاستواء الجامع للمراتب الحقية الالهية » وفي « آية الانانية الموسوية » و « بسر توحيد الذات» و « بانسان العين الكلية الالهية » ؟ انهم لو ادركوا مقدار ذرة من مقاصده ومعانيه في هذه الحقائق والتشوقات لفروا من الحلقات هاربين ، وراحوا افراداً ساكتين قانتين سالكين . ان بشراً يصبو الى قلب الالهيات بل الى ذروتها و يبتغي ان يكون انسان عين الله لتستوي عنده مراتب الحق كلها ، فيرى في كل مرتبة ، في كل دين ، في كل مذهب ، صلة الهية فيعطيها حقها من نفسه . ان مثل هذا البشر العظيم لينفع في حياته الناس ، ولا ينفع بعد موته غير افراد من الناس بل يضر كثيراً في ما يقام له من التكيات وما يسود باسمه من الجربزات .

اجل ، وقد يضر اشد الضرر بفلسفةٍ في الزهد والفقر تصلح للزاهدين ولا تصلح للامم والشعوب الا اذا عمتهم اجمعين . ولعمري انها حتى في كليتها وشمولها تخالف الناموس الطبيعي الذي جعل في العمل خلاصاً للانسان ونعمةً ويمنا . بعرق جبينك تأكل خبزك انها لحقيقة اقتصادية والهية معاً . ولكنني انا الكسلان اتفلسف في الزهد وقد اكون صادقاً في زهدي مقتدياً بالنبي القائل : لكل نبي حرفة وحرفتي الفقر والجهاد . وقد اكون كذلك فصيحاً بليغاً ، فاكتب رسالة اسميها « كيمياء اليقين » كما فعل سيدي الابر احمد بن ادريس ، فابرهن فيها ان طلب الرزق حرام ، واجيء بالشواهد الدينية ، والاحاديث النبوية ، والنوادر والملح اثبت ما اقول واستغوي به الناس ، فاظلم امة كاملة بحديث من الاحاديث النبوية : — لو ركب الانسان الريح وهرب من رزقه لركب الرزق البرق وادركه حتى يدخل فمه .

(١) كتاب الاحزاب والاوراد صفحة ١٢ — ١٥

ما اجمله والطفه حديثاً ، وما اقرب الموت من حقيقته . قد ينجو بها امرؤ وتهلك بها امة جمعاء . اني اذا اخترت لنفسي الفقر والزهد اخطىء اذا استخلصت منها قاعدة ليسلك بموجبها الناس او مثلاً يتمثلون به فكيف بي اذا قصصت تعزيزاً لطريقتي مثل هذه القصص اللطيفة . كان امرؤ يصلي في المسجد و يلزمه دائماً ليل نهار . فسأله الامام : من اين تأكل ؟ فقال له : من ملك السماوات . فقال : وهل يدلي اليك بالقفة ؟ فاجاب : نعم . فاخذه الامام الى بيته ودلاه في البئر وذهب الى السوق . وكانت امرأة الامام وخادمتها وامامها اكلة طيبة همتا باكلها ، فطرق الباب طارق فخبأت الاكل في البئر . دلته بسلة فوقعت على الزاهد فتناولها واكل هنيئاً . دلى له الاكل ملك السماوات . اجل ، رزقك يتبعك كالظل . كنز المؤمن ربه . قد وعد الله العباد برزقهم والله صادق بوعده ... ان الاهتمام بالرزق اذن تكذيب لله . ها هنا قلب الجمود في ما التوى من الاسلام ، وموطن الضعف والخمول في معظم المسلمين .

ولكن في هذا الكتاب الصغير الكبير ، كتاب الاحزاب والاوراد ، غير رسالة « كيمياء اليقين » العجيبة التي يستوقف عنوانها المبتكر الانظار ، و يفكه فحواها الابرار والتجار ، و يساعد كذلك من يبغي في الصوفية والزهد مسلكاً صالحاً قوياً ان فيه كذلك « الحزب السيفي » وقصته اغرب ما فيه .

قد عرّفتك ايها القارىء تعريفاً سطحياً بالجيدري العالم الشنقيطي الذي جمع « سيدنا احمد بمولانا عبدالوهاب التازي » . واز يدك الان به علماً . يظهر ان روحية المجيدري كانت مزدوجة اي مزكبة من روحيتي الانس والجن . ويظهر انه كان يباري الدباغ بالاسفار في عالم الغيب يقظة ومناماً . فاجتمع هناك بكبير من كبار الجن الذي كان رفيقاً لسيدنا علي رضي الله عنه . من المعلوم في التاريخ ان علياً حارب الجن وغلبهم ثم اصطحب بعض المؤمنين منهم في جهاده اخوانهم الكفار . ومن اولئك الصحابة قطب الجان القفائي الذي كان لعلي كالخضر لابي العباس للنبي . هو القفائي الشهير بعينه الذي اجتمع به

المجيدري فلقنه « الحزب السيفي » عن الامام علي . ثم تلقاه السيد احمد عن المجيدري بروايته التامة وحرفه الواحد . اللهم افتح لنا .

ان الفرق بين هذا الحزب و بين غيره من الاحزاب يحملنا على تفضيل الخضر في الرواية والحديث . بل فيه ما يحط من قدر الانس والجن واسطة ولا يزيد الامام علياً والسيد الادريسي رفعة وفضلا . فيه من مرادفات الادعية والمحامد ، والطلبات والاستغاثات ، ما نجده في غيره من الصلوات . وفيه من التسخط والغضب على الاعداء والاستغاثة بالله عليهم ما يروعك و يزعزع فيك لاول وهلة الايمان بالصالحين الابرار . ولكنك اذا تبصرت قليلاً يطمئن بالك وتري في دعوات السيد الساخط عين الصواب . خذنا بحلمك في ما ستسمع . ان من يستحسن شيئًا ليرغب فيه . فلو كان السياسي او التاجر او الجندي او الكاهن او الطبيب او المحامي يدعو على اعدائه دعوات سيدي احمد لقلت : كفر بالله . ولكن المجنون بالحقيقة الكلية ، المجذوب اليها بجمعيته ، ومن صح ايمانه ، وصدق يقينه ، وكرمت اخلاقه ، وسمت اشواقه ، وتنزهت عن اللؤم والجشع والانانية والكبرياء والنفاق اعماله ، وكان مجاهداً في سبيل الفضائل الروحانية والخلقية كلها ، ان هذا الرجل يشتهي ان يطهر العالم والناس من اضدادها .

وان اعداء مثل هذا الرجل لاعداء الحقيقة والصدق والامانة والايمان والشرف والنزاهة وكرم الاخلاق . فيحق له ان يستجير منهم بالله وان يسأله تعالى — وصاحب هذه الرحلة كذلك من المستجيرين السائلين — ان يباعد بينه و بينهم كما باعد بين المشرق والمغرب . وفوق ذلك ، نعم ، واكثر من ذلك : اخطف اللهم ابصارهم بنور قدسك ، واضرب رقابهم بجلال مجدك ، واقطع اعناقهم بسطوات قهرك ، واهلكهم ودمرهم تدميراً ، كما دفعت كيد الحساد عن انبيائك ، وضربت رقاب الجبابرة لاصفيائك ، وخطفت ابصار الاعداء عن اوليائك ، وقطعت اعناق الاكاسرة لاتقيائك واهلكت الفراعنة ودمرت الدجاجلة لخواصك المقربين وعبادك الصالحين ... اللهم بك نصول على الاعداء ، واياك

نرجو ولاية الاحباء والاولياء والقرباء امين .[1]

هذا في كتاب الاحزاب ، ويتلوه من المحامد ما لا تضاهي ورعًا وانسانية ما جاء في اوله اخص منها المحمدة الثانية وهي جامعة مستوفية ، وجيزة بليغة . هي روح المحامد كلها .

الحمد لله بجميع محامده كلها ما علمت منها وما لم اعلم ، على جميع نعمه كلها ما علمت منها وما لم اعلم ، عدد خلقه كلهم ما علمت منهم وما لم اعلم .

ولكن السيد احمد بشر كريم صادق اللهجة في حالاته كلها فقد كان له فترات من الحياة فيها الظلام اكثر من النور ، والبؤس اشد من الحبور ، فخرج لذلك من التعميم الى التخصيص ، ومن الحمد على ما لا يعلم الى الشكوى مما هو معلوم محسوس . اجل ، وقف مرة في « كنف الله وجواره » يعدد مثل ايوب الصديق المصائب والافات والامراض والمفاسد كلها ، ولم ينس الفالج والباسور ، ولا استثنى وحشة القبور .

هذا ما في « الحزب السيفي » الذي تلقاه الادريسي عن الجيدري عن قطب الجان القفائي عن الامام الاكبر رضي الله عنهم اجمعين .

ولكنت وقفت ها هنا في التعريف لولا حاشية « لبعض الواجدين من اهل العمل المحققين » التي تذكرنا بالمتنطعين والمشعوذين . قال المذكور في كلامه عن حزب آخر[2] : ان المثابرة على الدعاء السيفي معه مؤثر للثروة والغنى ، وهو بدونه لا يخلو من الرجعة والفقر . اي انك اذا قرأت الحزب المغني وحده تفتقر واذا قرأت الحزبين تغتني . فما اشبه هذه الشروط بل هذه الرشوات في الاوراد والاحزاب بالمغفرات والاجور عند المسيحيين . انها والحق يقال لآفات التقوى وسيئات الصلوات .

اسألك اللهم بنور عظمة ذاتك الذي لا يحتمل ظهوره احد غيرك .

---

(١) كتاب الاحزاب والاوراد صفحة ٦٦

(٢) الحزب المغني لسيدي أويس القرني . ولم يذكر شيئاً من مصادره الانسية او الروحية او الجنية .

لولا لطفك بحجبك النورانية لاحترقت صور الكون كلها ·

ان دون الله عزّ وجلّ سبعين حجاب من نور وظلمة وما تسمع نفس شيئًا من حس تلك الحجب الا زهقت ·

ما قرأت في الاستعارات الصوفية ، وما سمعت من انغامها ، وما شاهدت في صورها ، اجمل من « حس تلك الحجب » وقد حركتها النسام الربانية فهمست اسرارها همساً في الاكوان ·

واسألك بسر ذاتك الذي اضمحلت فيه حقائق انبيائك والمرسلين وطاشت بجماله الباب ملائكتك الكروبين ، وانعدمت فيه معارف اوليائك واصفيائك المقربين ، حتى تاه الكل في الكل ، وتحير الكل في الكل ··· ان تخرجني من شهود كل شيء سواك ··· فتتفجر ارض طبعي كلها عيونًا عشقية ··· هنا وهناك ··· وراء الوراء بلا وراء ودون الدون بلا دون ·

وهذه في نظري اجمل الازهار الروحية في روضة الصلوات الصوفية ، اذا فاز بها السالك ، كان المالك هنا وهنالك · كلمة اخرى قبل ان اختم هذا الفصل · لو ارتقى كل السالكين الى هذه الدرجة من الادراك الروحي والتذوق الالهي لبطلت حلقة الذكر · واذا لم يرتقوا فحلقات الذكر كلها لا تفيد ·

الفصل السابع

الادارسة في عسير

الرسالة الروحية — الحكم في عسير في ايام ابرهيم باشا المصري — انتشار الوهابية — ثورة الاهالي على الحكم المصري الحجازي — انتشار الطريقة الاحمدية — خروج المصريين من البلاد — حكم الشريف حسين — رجوع الاتراك سنة ١٨٤٩ — امام صنعاء والاساكل البحرية — الادارسة واشراف ابي عريش — زيارة المقام في صبيا — الادارسة في مصر والسودان — التزوج بالجواري العبيد — فساد الدم والملك — السيد محمد الكبير — اخلاقه — مصادر قوته — معاهدته مع الانكليز — احترابه واعداءه — الترك والزيود — ما كسبه بعد الحرب — الصوفي والسياسي ومصدر القوة والضعف فيهما — علي بن محمد الامام الحالي — شجرة بيت ادريس ·

واجعلني يا الهي لك عبداً محضاً عبودية خالصة
لا رائحة ربوبية فيها على احد من خلقك ·
احمد ابن ادريس

ان الرجل الذي توفي سنة ١٨٣٧م في صبيا · فكفّن بكفن التقديس وشيع الى القبر ولياً ، لم يبغ السيادة على احد من الناس · ولم يحلم على ما اظن واعتقد بملك عالمي ادريسي في البلاد العربية او خارجها · ولكن من ضريحه ، وقد امسى مقاماً ومزاراً ، ُمدت يد السيادة وهي تحمل رسالة طالما سمعها العرب ، خصوصاً البدو منهم ، واذعنوا لها · ولا غرو والدين عندهم اساس الملك في الدنيا ، والسبب الاول في خرابه لو انهم يفطنون · يموت الرجل الصالح الابر الذي لم يرغب في غير العبودية لله الخالصة ، المجردة من الربوبية على احد من خلق الله ، فيرفع الى مقام الاولياء ، و يؤخذ من ضريحه حجر الزاوية لملك عربي جديد ·

كانت تهامة وعسير يوم توفي السيد احمد بن ادريس في حكم مضطرب لا تركياً ُيعرف ولا مصرياً · ومع ان البلاد من القنفذة حتى المخا كانت في حوزة



بعض عساكر الادريسي

امام بيت من القش

ابراهيم باشا ابن محمد علي الكبير الذي احتلها بجنوده سنة ١٨٢٦ باسم الباب العالي . فالاهالي على الرغم من الاحدى عشرة حملة التي حملها عليهم من الطائف ومن البحر ظلوا نافرين منه ثائرين عليه .

ومن اسباب ثورتهم على المصر بين والحجاز بين ان كثيرين منهم ، اقتداء بزعيمهم ابي نقطة ، انتحلوا المذهب الوهابي وكانوا من انصار الامير سعود الكبير الذي استولى على الاقطار العربية كلها . وقد كان انتشار الوهابية في تهامة احد الاسباب في نجاح الطريقة الاحمدية . بالمقاومة تظهر القوى الكامنة في المذاهب وفي الجماعات . ولكن السيادة الروحية المغربية فازت نهائياً على السيادة الوهابية . لان « توهيب » الناس يومئذ في تهامة لم يكن غالباً عن اعتقاد بل كرهاً للحكم الشريفي الذي كان يوماً تركياً ، ويوماً مصرياً ، ويوماً عربياً ، ودائماً حكماً ظالماً جائراً .

استمرت هذه الحال عشرين سنة . وعندما قررت الدولة ان تسحب جنودها من تهامة وعسير سنة ١٨٤٠ م [1] كان يطمع بالسيادة فيها ثلاثة من امراء العرب ، هم الشريف محمد بن عون في مكة الذي كان يساعد ابراهيم باشا في حملاته على تلك البلاد ، والشريف حسين بن علي بن حيدر من اشراف ابي عريش الذين كانوا يحكمونها ، والامام الزيدي في صنعاء الذي كانت تهامة سابقاً في حوزته وجزءاً من بلاده . فاتفق ابراهيم باشا يومئذ مع اقدر الثلاثة وادهاهم وهو الشريف حسين فسلمه زمام الحكم في تهامة ، على ان يدفع سنوياً الى الدولة قيمة من المال .

كان الشريف حسين في حكمه ظالماً ، وفي سياسته مراوغاً مستبداً ، يطمع بالاستيلاء على اليمن كله وباخراج الانكليز من عدن . فنشبت بينه وبين امام صنعاء حرب استمرت بضع سنين تناوبته فيها الهزيمة والنصر ، فوقع مرة في يد الزيود اسيراً ، وبسط بعدئذٍ سيادته على اساكل تهامة كلها حتى المخا ، فأنّت من جوره ومظالمه الناس .

---

(١) في الفصل الثاني من القسم الرابع في هذا الجزء بيان الاسباب في الجلاء .

ثم عادت الدولة سنة ١٨٤٩ تحاول الاستيلاء على اليمن وعسير ، فنزلت جيوشها بقيادة توفيق باشا في الحديدة واسترجعت الحكم من الشريف حسين الذي عاد الى مقره في ابي عريش ·

ومن غريب ما يعيده التاريخ من حوادثه ان امام صنعاء كان يحارب يومئذ ليسترجع الاساكل البحرية من الشريف حسين كما يحارب اليوم ليسترجع الحديدة من الادريسي · وكان الانكليز يومئذ كما هم اليوم منذبذبين بين الاثنين اي بين حاكم الاساكل وحاكم الجبال ·

نزل توفيق باشا في الحديدة ، وبسط شيئاً من حكمه في تهامة ، وتقدم بجيوشه الى صنعاء كما اسلفت القول في الفصل السادس من القسم الثاني من هذا الكتاب · وقد كان اليمن الاعلى اهم ما يبغي في خطة الاستيلاء ، فعادت تهامة الى ما كانت فيه من الاضطراب لا يحكمها فعلاً لا الاتراك ولا اشراف ابي عريش · فجاء ابن ادريس يشيد بين ظلال السيادتين المتداعيتين حكماً روحياً ، بل حكماً حقيقياً ، انتشرت كلمته وتعددت رسله شمالاً وجنوباً في البلاد ·

جاء الناس من اليمن ومن تهامة وعسير يزورون المقام في صبيا ويتبركون · وكان السيد محمد بن الولي الجديد مقيماً هناك تتنازعه عوامل الدنيا ونوافل الدين · ولكن المقام صار عرشاً ، وصار سيد المقام تدريجاً سيد الاقوام ، فسرت في مجاري القدسيات السياسة ، وشرع ابناء ادريس يناهضون سراً وعلناً اشراف ابي عريش حتى تغلبوا عليهم · ثم حاولوا بواسطة العشائر ، ابناء الطريقة الاحمدية الجديدة ، ان يتغلبوا على الاتراك فلم يفلحوا في بادىء الامر · ولكنهم استمروا يستثمرون تلك السيادة الارثية التي اصبحوا بسببها اثبت قدماً ، وابعد نفوذاً ، واوسع جاهاً من سائر اعدائهم في البلاد · وقد تجاوز ذاك الجاه عسيراً فوصل بالمهاجرة الى مصر وبلاد المغرب ·

جاء ابن ادريس مهاجراً من الغرب ، وراح ابن ادريس مهاجراً من

بلاد العرب . ولد للسيد محمد ولد دعاه عبد المتعال فلما شب سافر الى مصر وتزوج واقام هناك في قرية الزينية قرب الاقصر . وولد للسيد عبد المتعال عدة اولاد سافر بعضهم الى المغرب فتزوجوا من بيت السنوسي هنالك واقاموا في القيروان . ان لهم كذلك بيوتاً في الزينية وفي ارجو بالسودان . اما في عسير فمنهم اليوم ثلاثة هم السيد مصطفى والسيد السنوسي والسيد العربي ابناء عبد المتعال . وقد حافظ هذا الفرع من بيت السيد الاكبر على مقامهم وسليلتهم فلم يتزوجوا من غير بيوت الاكفاء والاقران .

اما جدهم السيد محمد فقد استرسل الى اهوائه فاساء الى شريف ارثه . بل ان فعلته التي اضرت ولا شك بسليلته لتتجاوز الاساءة لانها حدثت وهو لا يزال في ظل ابيه الابر ، قريباً من اثاره القدسية . قلت في فصل سابق كلمة في اختلاط الشعوب جنساً ولوناً بالمزاوجة ، وقدمت شهوداً احياء على بعض نتائجه . ان من يحب بيت ادريس ويغار على خيره واسمه ليأسف جداً لما بدا من السيد محمد الاول رحمه الله وما كان عمله ليستوقف الانظار ، ويحزن الانصار ، لولا مقامه الديني والمدني ، لان من يقتنون الجواري في الحجاز وعسير ويتزوجون بهن حتى من الاشراف كثيرون . الا ان من كان بعيد النظر حكيماً يدرك ان البيت الشريف الطالب السيادة والملك لا يسلم بين شريفين كبيرين ، شريف مكة وشريف صنعاء ، اذا كان لا يحافظ على شرفه في دمه ونسله .

اقتدى السيد محمد بالسادة زملائه فتزوج بجارية سودانية ولدت له ابناً دعاه علياً ، فكانت بداية الدم الاسود في سايلة بني ادريس بعسير . ثم تزوج السيد علي بفتاة هندية هي ام السيد محمد الثاني فلم يصلح في خطأ ابيه شيئاً ظاهراً . ومع ان هذا الولد الهندي الام ، السوداني الاب انجب ونبغ في بيته ، فلا النجابة ولا النبوغ يصلحان ما تفسده السياسة بسبب النخاسة في ملكه .

ولد السيد محمد الذي يستحق ان يدعى الكبير في صبيا سنة ١٨٧٦ (١) وجيء به شاباً الى مصر فدخل كلية الازهر وتخرج فيها . ثم سافر الى كفره

(١) توفي في نيسان سنة ١٩٢٣

بالمغرب فقرأ هناك على السيد السنوسي ، وجاء منها الى السودان فاقام في ارجو بدنقله ، وتزوج بابنة الشيخ هرون الطويل شيخ الطريقة الاحمدية هناك . رسا وتزوج في بلاد السود بلاد ابيه وجدته ، لانه لم يكن في دمه وهيأتـه ما يوفقه الى غير ذلك . ولكن نفسه الكبيرة الشريفة ابت عليه الخمول والاستعباد . وكانت الاسفار قد زادت بعلومه ومداركه ، فكبرت معها المطامع واستيقظت قواه فشد للرحيل .

عاد السيد محمد من دنقله الى عسير ، الى مسقط رأسه ، الى قاعـدة ملك جله في ذاك الحين صوري او متزعزع ، فكانت الفوضى ضاربة في البلاد اطنابها ، وكان الترك جنوباً يحكمون حيثما يستطيعون ، ويستغوون رؤوساء العشائر بمشاهرات لا يدفعون غير اليسير منها . فانقلبت عليهم اصحاب الديون واستمالهم الادريسي اليه . وقد شاهد غيرهم من المشايخ يتشاغبون ويتفانون فاستفاد بما هم فيه ، واستعان بزعيم على اخيه . حتى ساد اكثرهم فثبت كل كبير في قومـه ، واقتدى بامام صنعاء فأخذ منهم الرهائن ليأمن منهم الردة والخيانة . ثم مد سيادته شمالاً وشرقاً الى الجبال فجمع عدة افخاذ وبطون من العشائر تحت لوائـه الذي رُفع برهة عند حصن أبها وعلى حدود حاشد وبكيل .

ولكن نجم السيد محمد لم يعلُ ويتلألأ في سماء آل ادريس الا خلال حربين بين الدولة العثمانية ودول الافرنج ، اي حربها سنة ١٩١٢ مع ايطاليـا ثم اشتراكها في الحرب العظمى على الاحلاف . فقد كان في الحربين خصم الترك اللدود ، والحلف الذي لا ينقض العهود . اخذ من الايطاليين سلاحاً فاستخدمها ناراً وسياسة على عدوها وعدوه . واخذ من الانكليز مالاً وسلاحاً نخدم الاحلاف في الجزيرة خدمة ، وان صغرت ، لا تشوبها الاطماع ، ولا يفسدها الخداع . وقد كان لا يزال له غير الاتراك عدواً . فحارب هذا العدو كذلك بما جاء من الحليفتين . ولكن انتصاره على الزيود في ذاك الحين كان يعد انتصاراً على الاتراك .

ان من فضائل السيد محمد ثباته منذ بداية امره على مبدأ واحد . فقد كان عربياً صميماً ، جسوراً في سبيل ما يبغيه ، يحالف اية دولة كانت على اعدائـه

الترك ومن كان حلفهم من امراء العرب عليه·· فما تذبذب في مبدأه ، ولا تحول عن عزمه · حازب الاتراك وحليفهم الشريف وصديقهم الامام فكان في الغالب منتصراً ودائماً عزيزاً · لا انكر ان الاحوال كانت حليفته ، ولكنه سلحها من لدنه بالعزم والمضاء ·

ومما يجهله الافرنج والعرب ان السيد محمداً كان اول من انضم الى الاحلاف من امراء العرب ، واول من حمل في البلاد العربية على دولة الترك حليفة الالمان· فقد عقد معه الانكليز بواسطة حكومتهم في عدن المعاهدة الاولى في نيسان سنة ١٩١٥ التي بموجبها تعهدوا ان يقدموا له السلاح والمال ، ويحموا اساكل بلاده من التعديات الخارجية · فباشر في الشهر التالي القتال · خرج ابن عمه السيد مصطفى في اثني عشر الف مقاتل على الاتراك فدحرهم دحرات متواليات ، ووصلت جنوده شرقاً الى قرب صَعْدة وشمالاً في تهامة الى القنفذة · ولكن الادريسي بعد ان استولى عليها في ١٠ تموز سنة ١٩١٦ اخلاها للملك حسين اكراماً لاصدقائه الانكليز الذين عقدوا معه معاهدة ثانية في كانون الثاني سنة ١٩١٧ تتعلق بجزيرة فَرَسان وكان قد اخرج الحامية التركية منها واستولى عليها ·

كان السيد محمد حصيفاً ذكياً ذا حنكة ودهاء ، يستعين على عدوه بكل ما حوله من زعامات وشقاقات ، بالزرانيق مثلاً على الاتراك ، وبالشوافع على الزيود ، وبالعشائر على الاشراف ، وبالانكليز على الجميع · وكان له عون كبير في ارثه الروحي ضاعف نفوذه الشخصي وزاد ذكاءه الفطري لمعاناً ·

ان مثل هذه السياسة الروحية المدنية المتوكلة في معظم شأنها على الانكليز لا تُستغرب من امير يُعد في البلاد دخيلاً ، وهو في تجهيز العساكر والدفاع عن نفسه يحتاج دائماً الى المال والسلاح · اما خراج عسير فلا يتجاوز المئة الف ريال اي اثنا عشر الف جنيه شهرياً ، منها ثلاثون الف ريال من الحديدة [1]

---

(١) اي ان خراجه السنوي نحو مئة وخمسين الف جنيه ، منها ١٥ في المئة عشور اي حبوب وغيره و ٨٥ في المئة ذهب وفضة ·

بيد ان جنده لا يتجاوز في ايام السلم الخمسمئة نفر وهو يقوم اذ ذاك مقام الشرطة في البلاد ٠

ولكن الادريسي يستنفر في الحرب القبائل بواسطة المشايخ والمقدمين فيلبيه ثلاثون الف مقاتل و يزيد ، وهم يحاربون على الطريقة الاولى حرب البدو ٠ يجيء رجال كل قبيلة او بطن او نخذ بزادهم وركائبهم وما عندهم من السلاح ، فيعطيهم الادريسي ما يحتاجون اليه زيادة ، ويمدهم بالذخيرة ، ويدفع فوق ذلك رواتب مرضية ٠ ولكن الغنائم هي الجاذب الاكبر في حروب العرب كلها ٠ لولاها لما كان جند في تلك البلاد يذكر ٠ اما الامير الكريم الذي يغدق على المشايخ والزعماء فهو الفائز على زملائه في السياسة ، والمنتصر على اعدائه في الحروب ٠ ولم يكن في سلاح السيد محمد الادريسي وقواته في حروبه كلها امضى من هذا السلاح اي الكرم ٠ فقد كان يحسن كذلك الى الكثيرين من السياحلة والمشايخ الذين يؤمون صبيا من بلاد المغرب ومن مصر ٠

دعوته بالكبير ، وهو لا مشاحة اكبر من حكم في عسير من بني ادريس ، بل هو مدنياً سيدهم الاكبر كما ان جده السيد احمد اميرهم الاكبر روحياً ٠ وفي الاثنين ، الصوفي والسياسي ، مصدر القوة والضعف في الحكم الادريسي ٠ قد تكون العبارة مبهمة ، فيفهم منها ان مصدر القوة في واحدة من تلك القوتين ومصدر الضعف في الاخرى ٠ ليس هذا ما اريد ٠ ان في الاساس الديني لهذا الحكم قوة تعززه في البداية وتضعفه في النهاية ، تعززه في دور التأسيس والنشوء ، وتخذله في دور التوسع والاستيلاء ٠ ولا بد في الدورين من التطور ، ولا بد في التطور من التفكك في العناصر المذهبية ٠ اي ان حكماً مثل حكم الادريسي يضعف في التوسع ، يرق في الامتداد ، لان اساسه المذهب واساس المذهب الطريقة ٠ والطريقة لها مقام قد تصفو في جواره ولكنها تفسد وتعقم كلما بعدت عنه ٠ وها هنا لعمري فشل الصوفي ٠

اما السياسي فمصدر الضعف فيه ، وقد ذكرت مصادر القوة في السيد محمد ، انما هو في الدم الذي تخلل صفاء النسل وسلامة النسب في بيته ٠ وليس نبوغه

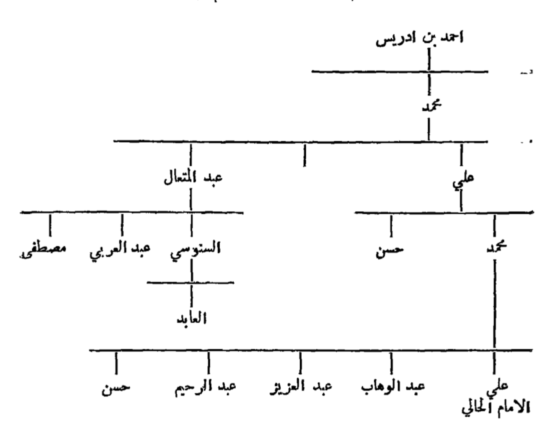
وكبر اخلاقه بحجة على ما اقول . فلو كان المرء شاعراً او صوفياً او فلاحاً او تاجراً لما هم لونه وشكله ولما اثر الدم في حياته ومقاصدها . ولكن في الملك وفي السياسة ترى ذلك في يد اعدائه من الحجج القاطعة عليه . خدمت الحروب الاجنبية مقاصد السيد محمد فاتسع ملكه وما ازدادت شوكته . فقد كانت قبل الحرب حدوده جنوباً بين ميدي واللُحيّة عندسيل يدعىوادي العين ، فامتدت بعد الحرب الى ما دون الحديدة فدخلت هذه المدينة ومعها اللحيّة والصليف و باجل وعُبال والزيدية في ملكه . ولكني لم اشاهد عندما كنت هناك ، لا في الحكم المدني ولا في السيادة الروحية ، ما يساعد على عمرانها ويثبت قدم السيد فيها .

فهل تتغير الاحوال فتخدم خلفه في ما ضنت به عليه ؟ ان ابنه البكر علياً في التاسعة عشرة من سنه . وقد بايعه الناس بعد ان عرضوا البيعة على عمه السيد حسن شقيق المرحوم السيد محمد فرفضها متعللاً بصحته وعزلته . والسيد حسن في العقد الرابع من العمر وهو يتحدى في سلوكه وزهده جده السيد الاكبر .

ولد السيد علي الامام الحالي في دنقله سنة ١٩٠٥ من ام سودانية هي كما تقدم ابنة الشيخ هرون الطويل . وهي اول حرم الادريسي ولا تزال حية ومقيمة في جيزان . وكانت قد اقامت وابنها علياً سبع سنوات في دنقله بعد رجوع السيد محمد منها ، ثم جاء بهما السيد مصطفى سنة ١٩١٢ الى صبيا ، فقرأ السيد علي فيها الكتاب والحديث واللغة ، ونشأ في ظل ابيه متشرباً مبادئه في السياسة والوطنية . ان العارفين هناك وفيهم سلطان لحج يثنون عليه ويقولون انه على جانب كبير من النباهة والهمة . اما المقربون اليه ففيهم رفيق صباه وصديقه الحميم السيد العابد السنوسي الادريسي المولود في مصر المقيم في جيزان . والسيد العابد شاب اديب ، عصري الروح ، ذكي الفؤاد ، له آراء حديثة صائبة في عمران البلاد سيتوفق ان شاء الله في قربه وقرب ابيه من حضرة الامام الى

تحقيقها [1] وللسيد علي اربعة اشقاء هم عبد الوهاب وعبـد العزيز وعبد الرحيم ٠ هؤلاء الثلاثة من امهات حبشيات متوفيات ٠ ثم حسن الصغير وامه كذلك حبشية ولا تزال في قيد الحياة ٠

هاك شجرة هذا البيت الحاكم في عسير



(١) لم يتوفق السيد العابد ولا ابوه ولا عمه السيد مصطفى ولا الامام الشاب ومن تبقى معه من العشائر في دفع اغارات الزيود في ربيع سنة ١٩٢٥ ٠ فاستولوا باسم الامام يحيى بن حميد الدين على الحديدة كما تقدم وعلى الاساكل البحرية الاخرى ٠ واستمر بعد ذلك الحكم الادريسي مضطرباً متزعزعاً الى ان تنازل الامام علي عن الامارة لعمه الامير حسن الذي عقد وجلالة ملك نجد والحجاز الملك عبدالعزيز ابن سعود معاهدة بمكة في سنة ١٩٢٧ شبيهة بالمعاهدات التي كان يعقدها بعض امراء العرب والانكليز اي ان لبها هو مـا معناه ، سنحميك بشرط ان تسمع وتذعن ٠

الفصل الثامن

على ظهر الباخرة

ثيابي المنثورة — رفيقي المحزون — الوداع — الرفيق الجديد — الحر والليل والأمواج ساكتة — بوتخرة القهوجي — جثث المسافرين — شيء ينعش — اصوات تذبح النوم — الفجر الفضاح — لا خوف على من ينام بين الحك والخارطة — ربان انكليزي كريم — يهدينا الباخرة — يجيء الى المائدة مثلنا في ثيابه الرسمية — «وخلعت نعلي اكراماً لكم ايها الافاضل» — شاطيء تهامة — جزيرة قران — الحجاج — السيد الحضرمي — ضجيج بعد نصف الليل — الربان يساوم العبيد ويؤدبهم — التربية الشرقية والتربية الانكليزية

جاء الجواب من حضرة الامام مرحباً بنا ، ورست في ميـاه الحديدة ذاك اليوم باخرة وجهتهـا جيزان ، فآثرناها على السيارة التي استمرت معيّدة وقمنـا نتأهب للسفر بحراً ال العاصمة . لكن التأهب لا يشغل كثيراً من اصبح في ملابسه وحاجاته اخف من الجندي في تهامة . ان قصة ثيابي قصة محزنة . نثرتها في الطريق براً وبحراً . تركت الرسمية منها في مصر — ومن غير الانكليز من عبـاد الله يحمل ثوبه الرسمي الى البادية ؟ ثم تركت الشتوية منها في جده ، والصيفية في عدن ، وها انا في الحديدة افاخر الدراويش والسالكين بما ارتقيت اليه من القناعة والبساطة والحكمة . اجل ، ومـا فضل المسافر اذا كان لا ينتفع بشي من عادات البلاد واهلها ؟ خرجت من القصر في قيافتي الحجازية احمل عصاي وفوطة فيها ما لا يستطيع حتى السالك ان يستغني عنه .

اما رفيقي الجديد — وقد يسأل القارىء عن الرفيق الاول، عن القسطنطين . فالجواب واجب قبل ان نستأنف السفر . فُجعت في الحديدة بفراق القسطنطين . فقد وصله كتاب من جده فيه ان الوزير الشاعر في الديوان الهاشمي لم ينظم بيتاً في غيابه ، وان الفارس الفيلسوف في القشلاق لم يسحب السيف مرة من

نصابه ، وان نظارة الطيران مكسرة الاجنحة ، والطيارين يائسون ، وان مدير الميناء هجر الشراع وراح يرعى الابل ، وان الشريف الايطالي الذي استودعه ماله فر هارباً ، وان « توتو » كلبته المعبودة ، وقد أضناها الشوق والنوى ، مشرفة على الموت . فلو لم يكن من نكبة جدة في غيابه غير ما حل بتوتو لكفى بها نكبة تستوجب رجوع الرفيق الزعيم في الحال .

جاءني صباح يوم والكتاب بيده ، والدمعة تترقرق في زاوية عينه ، وهو يقول : اعذرني يا امين . اود ان ارافقك في الرحلة كلها . ولكن توتو — اقرأ — اقرأ ما يقوله الطبيب . توتو في حال الخطر . ولا عزيز في الدنيا كما تعلم اعز عندي منها — هوذا المركب في المينا . ساركب اليوم فاراها بعد يومين اعذرني يا امين .

ثم نادى خادمه وبدأ يجمع ثيابه . فقلت أوَ لا يبقى المدني معي ؟ فقال الولد وهو يثب من رأس الدرج الى اسفله وثبة واحدة : وأمّي ، انا مشتاق الى امي ! مبالغاً على عاداته في الضم والتشديد . اطال الله بعمر امك يا مدني ، وحرس الله توتوك يا قسطنطين ، يا من لا يبالي بما يفعل ويقول ياعدو نفسه في بعض ما يراه ويهواه . رأيتك ذات يوم عائداً من الباخرة تحمل رزمة كبيرة ، كل ما وجدت في خزانة القيم من الدخان ، ما قد يكفي عشرة رجال شهراً . فظننت انك تنوي المتاجرة في الحديدة بالسكاير . ولكني سمعتك تقول : قد لا يرسو في المينا باخرة اخرى في هذا الاسبوع .

كنت اشفق عليك منها ، ايها الرفيق العزيز ، وكنت ارى لك الخير الجم في نجد ، اجل ، كنت ابغي تأديبك هناك ، وفطمك عن هواك . فياليتك دمت رفيقاً لأراك « تبسَّط » في بلاد الوهابيين اذا داومت التدخين . فما شأنك الان وتلك اللفائف التي كانت تتلو الواحدة الاخرى في فمك ؟ وكنت تدخن في اول الرحلة المعطرة الذهبيةَ الفم ، فصرت تدخن ، لهفي عليك ، ما لو شمت رائحتها « توتو » لأغمي عليها . وانت الشاعر الذي لا يسر بغير الجميل من منظور وملموس ومشروب ومشموم . فاسأل الله ان يعصمك

دائماً من كل مكروه ، ومن كل هوس يشوّه النفس ، وان يمكنك دائماً من تلك المعطرة الذهبية الفم ، ويعلمك فوق ذلك الحكمة والاعتدال ، دمت محروساً في كل حال ، رفيق الحقيقة شقيق الخيال .

اما الرفيق الجديد فيحمل في اسفاره بدل الدخان سجادة الصلاة ولا يقتدي ظاهراً بالسالكين في سواها . فقد كان معه كذلك من الامتعة والحقائب ما لا يليق بالفلاسفة ، وخادم هو من السادة ، ليفرش له السجادة . وكنت انا في ذي الابهة جزءًا منها افتش على رفيقي الصوفي فلا اجد غير الوكيل السياسي ، واغرب ما في حاجاته ومواعينه سجادة الصلاة .

خرجنا من القصر فاذا بثلة من الجنود العارية في الباب رافقتنا الى الرصيف . وكان هناك وجهاء المدينة والمتوظفون في انتظارنا للوداع ، لوداع الوكيل المحترم ، وانا في معيته عباءة وعقال ليس غير . فما سرني ذلك لان البشرية آنئذٍ تغلبت فيّ على الصوفية . ثم سمعت فضل الدين يزجر العساكر والمودعين . لم يشأ ان ان يرافقوه في السنبوك الى الباخرة ، فاستأنست بذلك وحمدت الله . لا بد ان يظهر التصوف في صاحبه ، في كلمته او اشارته ، ولو في الدقيقة الاخيرة من ساعة الرسميات والترهات .

وكان الهواء ساكناً ، والحر من شمس النهار كامناً فيه ، والبحر رهواً ، وضوء القمر عليه كالكفن يكفن الامواج فاشغل النوتيون المجاذيف ، ووصلنا بعد ساعة الى جانب بوَيخرة لا صوت فيها ولا حركة ، ولا نور غير ذاك الاحمر الضئيل في رأس الدقَل . فنادى احد رجالنا الربان فلم يجبه ، ثم نادى وكرر النداء فنهض احد النوتيين يفرك عينيه ، ثم نهض آخرون وبادروا الينا يسبون ويزجرون . — « لسنا بلصوص يا كلاب انزلوا السلم لحضرة الوكيل » فانزلوا السلم واعتذروا ، فصعدنا الى ما هو اشبه بمركب فحم ٍ منه بباخرة .

مشينا بين جثث بشرية عارية هامدة قضى الحر والليل اللزج عليها فلصقت بعضها ببعض ، ونامت نوم الاموات بين البضائع وفوقها ، تحت الالغام وعلى الصناديق ، في الاقذار ، في كل مكان . صعدنا سلماً اخر الى ما يسمى

الدرجة الاولى فرأينا في الغرف المفتوحة ابوابهـا اناساً نائمين نوم الاطفال ـ مـا افاق نداؤنا احداً منهم · ثم نزل الربان وهو انكليزي حليق في ثوب النوم فسلم على الوكيل واعتذر · فاستأنست بصوته المومىء الى مـا في نفسه من التهذيب والكياسة · ثم نادى احد الخدم فكفر عن اهماله بان امر لنا بزجاجة من السودا باردة وبكأس من الوسكي · فشربنا وشكرناه ، ورغب في الحديث فحدثناه · فكان انتقالنا في ساعة الى شيء من المدنية مستحب ، وادب في ربان باخرة مستغرَب ·

وكأنه احسّ بما تسلل الى الاجفان فنهض يتقدمنا الى ظهر الباخرة ، الى كنفه الخاص ، حيث الاسرّة العسكرية ، فنمنا كلنا تحت القبة الزرقاء وليس بيننا وبينها غير حجاب واحد هو الشراع · ساعة فقط · ثم ضجات وقرقعـات ، واصوات تزعج الاموات ، وسلاسل تُشد ، وابواب تسد ، وحبال تئن ، وجرس يطن ، وصوت الربان فوقها يحرك العبيد والحديد · سرت الباخرة ، وهدأت الاصوات والضجات ، فعدنا الى ما يشبه النوم وانبلج بعد قليل الفجر على وجوه صفراء ، وعيون فيها الذبول والعياء ·

اول ما شاهدته قرب دولاب الربان، ووراءه ولد في ثوب ازرق على صدره نيشان ، يقرأ الحُك ويدير الدفة · وكان الربان واقفـاً قباله وراء طاولة عليها الخارطة البحرية · فقلت في نفسي : لا خوف على من ينام بين الخارطة والحك · امـا الولد صاحب الثوب الازرق والزنار الاحمر والنيشان فهو من الذين ورثوا الحرفة عن اجدادهم · هو من سليلة اولئك البرتقاليين الذين فتحوا الهند قبل الانكليز ، ولكنهم لم يثبتوا فيها اعزاء · فقد كان الجزويت في استئثارهم عوناً للانكليز عليهم · اما ابناؤهم اليوم ، وقـد اختلط دمهم بدم الهنود وسلم شيء من دينهم الكاثوليكي ، فهم يقيمون على شواطيء البحر الهندي ويدعون غوا Goa ويستخدمهم الانكليز في كل الوظائف النوتية ما سوى العالية منها · ذكرت النيشان ، وما هو الا تطريز بالخيط الاحمر والاصفر يطرزون به قمصانهم ، كلٌّ لنفسه في ساعات الراحة من العمل · ما رأيت في النوتيين

انظف ثوباً ، واخف حركة ، والطف شكلاً ، من ولد الـ « غوا » ابن الهند والبرتقال ٠

كشف الفجر عن البويخرة وركبها فكان فضاحاً ٠ هناك رهطاً كرهط الحجاج في اشكالهم والوانهم واجناسهم وقيافاتهم وعدم اكتراثهم بما هم فيه من ضيق وحريق وقذارة ٠ كل يهتم لأمره ، لما يلزم المؤمن و يتحتم عليه ساعة الفجر ٠ هذا يصلي ، وذاك يدق البن ٠ هنا امرأة تنفخ بالنار ، وهناك شيخ يغسل فناجين القهوة ، واخر يدخن المداعة ٠ هذا يعد اكياسه ، وذاك يلبس ثيابه ٠ وهناك فوق زنابيل التمر شاب احكم بين رجليه مرآة صغيرة وهو يلف عمامته على رأسه لفاً هندياً بتأني الفتاة التي تجلس الى المرآة تزين شعرها ٠والى جانبي سابر الغور يرمي بجديدته الى القعر و يسحبها منادياً بالانكليزية : سبعة ، ثمانية ، عشرة ونصف ! فلا نزال قريبين من الشاطىء ، شاطىء تهامة الموحش العقيم ، ولا يزال رفاقي نائمين ، الا فضل الدين ٠ فقد كان تلك الساعة من المصلين ٠

ان الباخرة التي نحن فيها مسافرون ، وقد صنعت في بلاد الانكليز ، هي من بواخر القهوجي المشهور في عدن والبحر الاحمر ، صاحب صديقنا خان باهادور الفيلسوف الحُديدي ٠ والقهوجي اسم لشركة من « عبدة النار » نوتيوها كما ذكرت من الـ « غوا » النصف المسيحيين ، وربانها معاونه والمهندس من الكفار التي صنعت الباخرة في بلادهم ٠ هذه شركة ملاحة شرقية هندية ، ولكنها لا تستغني عن الانكليز مديرين لبواخرها ٠ وهذا الانكليزي ، وقد اعتاد ان يأمر في الشرق ، لا يمتعض من حال توجب عليه الائتمار باوامر الهنود اسياده ٠

قال الربان هاي : كنت قبل الحرب اسيّر باخرة في البحر الاتلنتيكي محمولها خمسة وعشرون الف طن ٠ وتراني الان على رأس هذا المركب العجيب اخدم القهوجي الفارسي بخمس ما كنت اتقاضاه من شركة انكليزية ٠ وما العمل ؟ حامض القهوجي احسن من مر البطالة في بلادي ٠ ٠ ٠ ولكني احب العرب واحترمهم ٠ ما رأيت شعباً هادئاً في السفر كريماً ، على ما تراهم فيه ، مخلداً

الى السكينة ، جلوداً قنوعاً سكوناً مثل العرب ٠

نزلنا الى المائدة في ثيابنا الرسمية ، انا في قميصي البدوية واردائي مربوطة حول وسطي ، وفضل الدين في سرواله الهندي وتكّته تصل الى ركبته ٠ وجاءنا الربان هاي ، بارك الله فيه وفي ذوقه ، حافياً يلبس « البجاما » اي ثوب النوم ٠ جلسنا الى المائدة وهو يقول : خلعت نعالي اكراماً لكم ايها الافاضل ٠ اهلاً وسهلاً بكم الى بيت القهوجي ، بل الى بيتكم ٠ الباخرة لكم ، تأمرون فيها بما تشاؤون ٠

كذلك كنا نجتمع الى المائدة ورئيسها هذا الانكليزي المهذب الفاضل الذي رأت عيناه احسن من « افريقيا » [1] باخرة واحسن منا ركباً ٠ وهو دوماً لا يرى غير الحسن في الناس ٠ وما كان في حديثه مرة مستهجَناً ، بل دائماً مفكهاً مفيداً ٠ الرسميات ؟ ربطنا في عنقها صخراً ورميناها في البحر ، فبدت لذلك الباخرة الصغيرة وبفضل الربان هاي ، ونحن في كنفه على الظهر في عزلة الاماجد وعزهم ، بدت كيختنا الخاص ، لا نتكلف فيه شيئاً يزعج او يسيء ، ولا نضطر الى اجهاد النفس حتى في لبس النعال ٠ بدو متحضرون ، برابرة متمدنون ؟ اي وابيك ٠ انما هذه هي اللذة الصافية الحقيقية في الاسفار البحرية ٠

كنا نسير في مضايق خفية وظاهرة قرب الشاطيء بين جزر صغيرة لا اسماء لها ، الا قمرَان وهي اكبرها ٠ ولها في جنوبي البحر الاحمر من الاهمية ما للطور في الشمال ، لان فيها محجراً صحياً للحجاج القادمين بحراً من الشرق ، من الهند وجاوَه ومن العراق وايران ، فيعرجون عليها للتطهر في رواحهم ومجيئهم ، قبل الحج و بعده ، فتتقاضاهم السلطة الانكليزية رسماً مدة الثلاثة الايام التي يقيمون فيها ٠ وجلالة الملك حسين يحتج على الرسم ، وعلى الثلاثة الايام ، وعلى محجر قمران ، وعلى الجزيرة كلها بحذافيرها ٠ لا لزوم لها وعندنا جزيرة ابي سعد ٠ هذا صحيح ٠ ولكن في قمران مركزاً لا سلكياً

---

(١) اسم الباخرة

افادنا ، ومعمل ثلج انعشنا ونحن في الحديدة - وهما يفيدان وينعشان كثيرين غيرنا ، فلا نشارك جلالة الملك اذن الا في قسم من احتجاجه . لا تظلموا الحجاج بدفع الرسوم .

وها هي الجزيرة الى شمالنا ونحن نسير بينها وبين الشاطيء .وها هي الخارطة على منضدة الربان تنبيء بالاعماق المختلفة تحتنا وحولنا . من هو يا ترى اول من سبر هذا البحر العربي ، البحر الاحمر ، وغيره من بحار الشرق ؟ من ذا الذي ركب الامواج والاهوال ومد يده الى مكامن اليم يستطلع اسراره ، ويكشف للنوتي اخطاره ؟ من ذا الذي قاس المد فيه والجزر وحدد الطرق بين الصخور الكامنة تحت المياه ؟ من ذا الذي فتح سبل البواخر وامّنها في الليل بالانوار ؟ هو الانكليزي ابن البحار وسيدها . ليعترف بفضله كل من سيّر باخرة في الابحر الشرقية ولجأ الى علومه ليسلم من الاخطار .

اجل ، قد تستغني شركة بواخر شرقية عن الربان الانكليزي . ولكنها لا تستغني مهما كانت عظيمة عن خارطات الانكليز البحرية . هب ان دولة بريطانية العظمى تفككت غداً وتقسمت ، وعادت انكلترة كما كانت في عهد السكسون الاولين ، حكومة صغيرة وامة مثل جزائرها حقيرة ، فهي تظل غنية بعلومها وبرجالها . ولا خوف وايم الله على امة عندها العلم وعندها الرجال . لا ترتاب ايها القاريء العزيز بما اقول ان الانكليزي الحقيقي هو مثل هذا الربان الذي يسقط من عرشه ويظل مليكاً باخلاقه في احط الحالات الاجتماعية واحقرها ، مليكاً يعمل ليومه ، ولا يأنف ولا يشمخ ولا يكابر . بل يعمل العمل المفروض عليه مجداً مخلصاً نزيهاً .

كان معنا في الدرجة الاولى رجل من حضرموت ينام في الغرفة لا على الظهر ولا يؤاكلنا . رجل طويل القامة ، حسن الطلعة ، قوي البنية ، مفتول الساق . وهو من سادات صَيْوُون ، مدينة العلم في ذاك القطر ، ومن ادبائها ، حاد الذهن ، فصيح اللسان . حدثته فحدثني متنازلاً متكلفاً ، وما كان في ما باح به ليخرج من دائرة التكتم والتأدب . الا اني علمت من تلويحاته انه عالم من العلماء وخطيب

من خطباء حضرموت المشهورين . وهو ينظم كذلك الشعر . قرأ شوقي وحافظ ابرهيم والمنفلوطي والبستاني وغيرهما من شعراء وادباء مصر وسورية ، ولم يسمع بالريحاني الا مؤخراً في عدن .

— سمعت ان الاستاذ جاسوس للانكليز .

— قد يكون ذلك .

— وكيف ينخدع به امراؤنا يا ترى ؟

— العصمة لله .

— صحيح . ولكني سمعت كذلك انه رسول الملك حسين وفي خدمته وانه مع ذلك لا يحسن اللغة العربية .

— كثيرون حتى في الحجاز من لا يحسنون اللغة العربية .

— صحيح . وفي حضرموت كذلك .

— وهل انت مسافر الى جيزان ؟

— ان وفق الله .

وكان قد اخبرنا الربان ان السيد من تجار حضرموت ، حسب ادعائه ، وانه مسافر الى ميدي . ولكن رفيقاً من عدن اخبرني انه رآه في دار الاعتماد هناك يبغي مقابلة المعاون . ثم علمت انه من زعماء الحزب الكثيري في حضرموت القائم على الحزب القُعيطي وسلطانه ، وانه جاء ليرفع قضيته الى الانكليز في عدن والى السيد في جيزان . اما فضل الدين الذي يعرف السادة من رائحتهم فقال اذ رأى الرجل : هوذا سيد شحاذ . كثيرون مثله يجيئون الى جيزان ليمدحوا الامام ويستجدوه . وعند ما نزل مساء ذاك اليوم في ميدي ظننت فضل الدين متحاملاً فقلت : بل هو تاجر كما قال الربان . فاجابني هو شحاذ كما اقول . وسيرجم وسترى . قد قدر الله ان يكون الرجل رفيقنا الى جيزان ومنها ، فسيسمع القارىء عنه ومنه في ما بعد .

ميدي بنت الحرب ، اي انها نشأت في اثنائها وهي اكبر مدينة تجارية اليوم بين الحديدة وجيزان . بيد انه لا وكالة لشركة القهوجي فيها فيضطر

الربان ان يقاول العمال الذين يجيئون لنقل البضاعة من الباخرة الى البلد ويدفع اجورهم . واكثر هؤلاء من العبيد والمولدين . هذه كلمة تمهيد لما اقص عليك . نمت تلك الليلة على عادتي فاستفقت نصف الليل لاصوات تلج وتضج وقد اختلط اللسانان فيها ، الانكليزي والعربي ، وتناكرا .

— يا اولاد الزنى تجيئون في هذه الساعة من الليل تساوموني ؟

عرفت من الصوت ان الربان يتكلم . ثم — وهي الكلمة العربية الوحيدة التي يحسنها — امش ، امش .

وكان الربان الثاني وهو رجل ضخم الجثة عريض الصوت قد استفاق مثلي وسمع زميله يتسخط ويسب . فخاطبه بصوت عريض ناعس مطاط .

دعهم يا قبطان وعد الى سريرك . اولاد الزنى غدارون . ثم الربان : يا نتانة العبيد ، يجيئكم رزقكم فلا تقبلونه الا بشروط . امش ، امش ! والا اكسر رؤوسكم . اذا كان القهوجي يعبد النار فهل يحق لكم ان تسرقوه ، يا نتانة العبيد يا اولاد الزنى ! اذا كنتم لا تشتغلون بروبية واحدة مثل العادة — امش .

ثم الربان الثاني وهو يقلب في سريره من جنب الى جنب ويئن : دعهم يا قبطان وعد الى سريرك . اولاد الزنى ، انا اعرفهم ، غدارون .

الربان : ما في شغل لكم . امش . الباخرة تسافر هذه الساعة . امش .

زعيم العمال — على ما ظننت — باللسان الانكليزي المفجع : يشتغلون يا قبطان كما تريد . يشتغلون بروبية واحدة . انا الكفيل .

ثم سمعت الربان وهو عائد الى سريره يقول : اذا كان الانسان يعبد النار فهل يحق لهؤلاء العبيد ان يسرقوه .

ولكن العبيد قبلوا ، شكراً لغضبه وامانته ، ان يشتغلوا بروبية واحدة نهاراً ، فباشروا عملهم في الليل واتموه قبل الفجر . هذه هي الحادثة التي ايقظتني تلك الليلة فسلبني العبيد بعد ذلك ، في ضجيج العمل والقرقعة ، الراحة والنوم . ومع ذلك قد كنت مسروراً بما علمت . لا اظن ان شركة القهوجي التي لا يزعج يقظتها الدائمة شيء في البر والبحر تعرف ان ربان احدى بواخرها يدافع عن

مصلحتها هـذا الدفاع · ولا اظن ان الربان هاي ، وانا اعرف شيئاً من طباع امثاله الانكليز ، يخبرها ويمنن عليها · فهو يعمل ما يعتقده واجباً عليه ويسكت ·

في صباح اليوم التالي جاءني فضل الدين يقول : قـد عاد السيد · هو سيد شحاذ كما قلت لك ·

فقلت : هل علمت بحادث الليل البارح — هل سمعت الربان يتسخط على العبيد ؟

فقال : سمعته وشكرته باسم القهوجي · لو كان السيد ربان هذه الباخرة لما كان يتزحزح من سريره في تلك الساعة اكراماً لاحد من الناس ·

— ولكن تربية السيد شرقية وتربية الربان انكليزية ·

— نعم ، والشرق كله في حاجة الى التربية التي تقدس العمل وتغرس في العامل مبادىء الجد والامانة والنزاهة والاخلاص ·

الفصل التاسع

جيزان

القلعة — المدينة — الذهب والفضة — جيزان في ايام الحرب — المتاجرة — الزوار — الى السدة الادريسية — الاستقبال العسكري والسياسي — في مجلس الامام — « غسان ريحانة العرب » — « هل ملك اميركه اليوم من الهنود ؟ » — « هل للاميركيين دين ؟ » — الاقتراع والانتخاب — قصة جورج واشنطون — استحسان السيد محمد واعتراضه — سؤال في الجغرافية — قصة لم تقص — محاسن السيد محمد — اجتماعنا به في الليل — الحر في جيزان .

وصلنا الى جيزان بعد الظهر ساعة الجزر ، فانكشفت امامنا ونحن في السنبوك بقعة من الارض سوداء بين الشاطيء والماء لا يمكن المرء اجتيازها الا حافياً مشمراً . فلاقانا الى حد الجزر رجال يحملون الكرامي او بالجربي الاسرة التي تشبه العنقريب ، فانزلونا واجلسونا فيها ، وحملونا على مناكبهم الى البر في شبه السبخة التي كانوا يغرقون فيها الى الركبة . وهناك استقبلنا بعض الجنود والمتوظفين يتقدمهم السيد العابد ابن السيد السنوسي الادريسي الذي رحب بنا باسم حضرة الامام ومضى وايانا الى القلعة القائمة على ربوة خارج البلدة قريبة منها ومن البحر . والقلعة هذه نصفها قديم هندسته يمانية ، اي انه ضخم البناء رفيعه صغير النوافذ قليلها ، والنصف الاخر جديد بناه السيد مصطفى الادريسي ، واعده للضيافة التي يليق بها . فهو يشتمل على عدة غرف كبيرة ترقص فيها الشمس وتلعب فيها الهواء والغبار ، وعلى حوشين الواحد ضمن الاخر ، وحمام ومائدة افرنجية ، وسطح مسوّر جميل .

كنت مما سمعته عن جيزان امثل لنفسي بيتاً من القش نقيم فيه ، وجواري حبشيات يخدمننا ، وولداناً يقفون فوق رؤوسنا و بايديهم المراوح يروّحون . اما الجواري فما رأينا غير أثر من آثار ايديهن في الدواوين البيضاء الشريفة ، والوسائد الوثيرة اللطيفة ، واغطية الفرش النظيفة . واما الولدان فكانوا واقفين

في الحوش يحملون بدل المراوح البنادق والجنبيات ٠

جيزان بلدة قديمة في تهامة تكاد تبعد عن ابي عريش شرقًا بعدها عن صبيا شمالاً ٠ فهي من البلدتين رأس المثلث الزوايا على البحر الذي يحيطها كالهلال من ثلاث جهات ٠ بلدة صغيرة لا يتجاوز سكانها الستة الاف نفس ولكنها كانت في الماضي على ما يقال اكبر مما هي اليوم واوسع عمرانًا ٠ بناها احد المحسنين الى الانسانية ليقرّب ابناء الجبال من البحر والرزق ، احد المحسنين المدفونة اسماؤهم في اثارهم ٠ على انه لم يبق من مؤسس جيزان واثاره غير اسم البلد الذي يحلله العارفون الى كلمتين جا وزان اي جاء الزائن ، من اسس المدينة وزينها بخلق الله ٠ ولكننا لا نعرف من هو ولا نتيقن ان ما شيده وزينه كان في مكان جيزان اليوم او في غيره من سبخات تهامة ٠

نظرنا اليها وهي من القلعة شمالاً فاذا هناك مجموعة اكواخ من القش هرمية الشكل يتخللها بيوت من الحجارة شبيهة بمعابد الاقدمين ، مربعُ سطحها اصغر من مربع اساسها ٠ وبينها مفردات وثريات من النخيل ، وحولها ذاك الخط الذي يحيط بها كنعلة الفرس ، وهو ازرق ساعة المد ، اسود ساعة الجزر ، اصفر في ساعات الشفق والغروب ٠ وفي الساحة الكبيرة بينها وبيننا قفص من القش يأوى اليه احد الحرس في النهار ٠ وفي الجهة الغربية من الساحة المسجد الجامع ، وهو بناء صغير ذو مأذنة متواضعة وايوان تحتله الشمس طول النهار ٠ ووراء القلعة ، او بالحري القصر شرقًا بجنوب ، قلعة اخرى تشرف على البلد والبحر ، فيها بعض المدافع وحولها المتاريس ٠

مررنا ببيتنا الجديد ، وهو احسن ما في جيزان مركزاً وبناء ، واستأنسنا بمشاهد من نوافذه لا ابهة فيها ولا جلال ٠ ولكنها تومىء كلها الى حياة بشرية بسيطة ، اجمل ما فيها ، من وجهة فلسفية ، القناعة والصبر والسكينة والاطمئنان ٠ على اني من وجهة اجتماعية اقتصادية ، حرت في امر اصحاب هذه الفضائل القدسية ٠ حرت في امر اهل هذه البلدة وموارد رزقهم ٠

عندما رسونا في مياه جيزان كان اول ما دنا من الباخرة سنبوك يحمل صاحبه بعض الرسائل واكياساً صغيرة ثقيلة ، اكياساً عديدة فيها الذهب والفضة . فسألت الربان هاي عما اذا كان لمصرف عدن فرع في جيزان . فضحك ثم قال : اني اعجب لهذا الامر . من اين يجيء الذهب الى هـذا البلد ؟ وفي كل سفرة نحمل منه اكياساً الى عدن .

اجل ، ان في جيزان ذهباً وفضة ، وان كنت لا ترى فيهـا سوقاً او اثراً ظاهراً للتجارة . وان في جيزان ستة الاف نفس تحيا وتحمد الله ، وان كنت لا ترى حولها بقعة ارض خضراء . فمن اين يجيئهم الرزق وكيف يتاجرون ويثرون ويتمكنون من تخزين اموالهم ذهباً وفضة في المصارف بعدن ؟ سؤال بديه حري بالجواب .

كانت جيزان في سنتي الحرب الاوليين المدينة الوحيدة في تهامة المفتوحة للتجارة . وكان القسم الغربي من شبه الجزيرة او جله يستقي من مواردها . فكان ميناؤها ميناء البلاد كلها . ثم انتقلت التجارة الى ميدي . اما اليوم فجيزان هي احدى عاصمتي الادريسي ، وهذا اول مصادر الخير فيها . هي نقطة دائرة خصبة انحاؤها ، غضة حواشيها . يؤمهـا الناس من المغرب الاقصى ومن مصر ومن اعالي عسير ومن المدن جنوباً وشمالاً في تهامة ، فيجيء معهم الرزق ، التجارة والكسب والخيرات . يحمل الحنطة اليهـا تجار ميدي وابناء الجبال ، ويحملون من معادنها الملح ومن شواطئها البضاعة التي تجيء بهـا بواخر القهوجي والسنابيك . جيزان مركز توريد وتوزيع . جيزان مورد تجري اليه الاموال من هذه الجهة ومن تلك ، فتتوزع منه الى الجهات كلهـا . وهكذا تعيش جيزان من لا شيء يرى ، وتضيف فوق ذلك السادات والعربان ، وتغدق على كل محترم كـالان . اما سيد هذه الحركة الخفية ، وقطب تلك الاريحية ، فهو السيد الادريسي .

جاء رسوله بعد ساعتين من وصولنا يدعونا اليـه ، فركبنا الـ« موتر » السيارة وسرنا في اسواق البلدة الضيقة والصبيان يركضون وراءنا ويصيحون

حتى وصلنا في المنحنى الغربي منها الى ربوة تشرف على البحر يحيط بها سور كبير . استقبلنا خارج السور فرقة من الجنود الادريسية اصحاب الشعور المنفوشة ، والصدور المكشوفة ، والبنادق المشوفة . لاضباط من الترك ها هنا ولا صوت الزامل ولا البرزان [1] نزلنا من السيارة ومشينا بين صفين من الجنود الى بوابة حارسها مولّد عمليق سلّم ويده على رأسه وادخلنا آمنين ، فاذا نحن في حوش كبير وبين اخرين من الجنود . مشى فريق منهم الى باب دخلناه فاذا بقيّم مولانا واعوانه يسلمون ويرحبون . خلّوا محل الجنود فتقدمونا الى حوش ثالث واستقبلنا عند بابه وزيرا حضرة الامام وحاشيتها فدخلنا واياهم الى رواق صغير ، وقفنا فيه عند باب كبير ، فخلعنا نعالنا هناك ودخلنا الى المقام الشريف المنيف ، الى قدس الاقداس والتقديس ، الى مجلس مولانا الامام ابن ادريس .

وما المكان غير بضعة ابواع اخرى من ارض الله وسقفه القبة الزرقاء . وهو محوط باربعة جدران عالية في احدها باب يفضي الى بيت الحريم ، وفي الثاني باب آخر يدخل الامام ويخرج منه ، وفي الثالث ثالث هو باب المسجد الخاص . اما الساحة ففي وسطها منصة تعلو قدماً واحداً عن حاشيتها مفروشة بالسجاد والدواوين المرتفعة والمساند . فهوذا المجلس الشريف والمقام المنيف ، وفي صدره حضرة الامام جالساً ، ووراءه عبد يروح له بمروحة كبيرة من الخوص .

وقف لنا ورحب بنا ترحيباً جميلاً . فسلم على الدكتور فضل الدين سلام الامامة على احد المقربين منها ، قبّله في وجهه ، وسلم على مصافحنا ، ثم امر لنا بالجلوس على ديوان قربه . وكان في المجلس ساعتئذ السيد السنوسي والمفتي وقاضي القضاة وغيرهم من اصحاب الوجاهة والعلم .

رأيتني لاول مرة امام سيد من السود ، امام عبد يسود مليوناً من العرب ، وفيهم الوف من السلالة النبوية . وقر المقزز لاول وهلة في نفسي

(١) راجع الفصل الثاني من القسم الثاني صفحة ٩٠

ولكنه لم يكد يتكلم مسترسلاً حتى ارتحت الى حديثه وملت اليه ، فرأيتني رويداً رويداً مكبراً الرجل معجباً به . كان السيد محمد بن علي بن محمد بن احمد ابن ادريس ، رحمهم الله اجمعين ، جاحظ العين صغيرهـا ، رفيع الجبين ، دقيق الانف ، ضخم الشفة والرقبة ، مستدير الوجه ، نحيف اليدين ، عريض المنكبين ، طويل القامة ، شديد البأس واللهجة والغضب . لم يكن فيه من ملامح العبيد البارزة غير فمه ، وشكل وجهه ، ولونه الشديد السواد . وكان فيه من اثر الجنس السامي الآري — اسلفت القول ان امه هندية — مـا ذكرت ، اي الانف والجبين واليدين . وكان يلبس النظارات المصبوغة لضعف في عينيه ، ويجلس متربعاً على الديوان ، ويتكلم بصوت عال فيه بعض الغنة ، وله في الوقفات اشارة تمكين خاصة به كأنه يجر الالف والهاء ثم الهاء والالف ليثبت ما يقول .

شكرته على ما لقيناه في الطريق منذ دخولنا بلاده من الحفاوة والضيافـة والاكرام ، فقال : هذا ما نبغيه ، وهو قليل في جانب ما تسعون اليه . انتم تسيحون في البلاد العربية لخيرها وخير اهلها ، وتقاسون المشقات من اجلهم ومن اجلنا نحن حكامها . فتستحقون اضعاف الاكرام الذي تشكروننا عليه . ولاشكر يا حضرة الاديب على الواجب .

فقلت : وانا كذلك اقوم في رحلتي بما اعتقده واجباً عليّ . اني اشعر يامولاي بان في عروقي من الدم الذي يجري في عروق العرب . اظن ذلك ، بل اعتقد به . نعم ، وان كثيرين في بر الشام من قحطان ، من بني غسان ، مثلي .

فقال السيد وهو يرفع النظارات عن عينيه : ونعم النسب . غسان ريحانة العرب . ونحن نحترم كل عربي صميم يعرف الواجب عليه ويقوم به من قحطان كان او من عدنان . نحن يا حضرة الاديب عرب قبل كل شيء ، ونغار على اصغر صغائر الامور الوطنية من المطامع الاجنبية والسياسة الاوروبية .

ثم انتقل فوراً الى اميركـه . كأنه لم يشأ ان يكون الحديث ساعتئذ في الموضوع الذي لمس حاشية من حواشيه . وكانت سؤالاته تدل على انـه عالم ببعض شؤون تلك البلاد الا انه لم يطالع تاريخها . قصصت عليه قصة نيويورك

واصحابها الهنود الاولين و بيعهم المدينة من الاوروبيين بشيء من الودع لا تتجاوز قيمته الخمسة وعشرين ريالاً . فسر جداً بها وسألني قائلاً : وهل ملك اميركه اليوم من الهنود ؟

فقلت كلمة في الجمهورية الاميركية ورئيسها . فقال : وهل للاميركيين دين؟ فاجبته قائلاً : شيء من الدين ، نعم . ثم سألني وكأنه كان يستدرجني الى امر اراده ، لانه كان عالمًا بما في اميركه من الاديان .

— وهل الكاثوليك هناك اكثر من البروتستانت ؟ — وكم عددهم اذن ؟

— لا يقل عن عشرة ملايين ،

— كثير . وما تأثيرهم في السياسة ؟

— يزداد نفوذهم يومًا فيومًا .

— وهل يكون رئيس البلاد منهم ؟

— ليس ما يمنع ذلك شرعًا او في القانون الاساسي . ولكن الحكم في البلاد للاكثرية و بالاقتراع .

فاستزادني ايضاحًا في طريقة الاقتراع والانتخاب وكان يعي الكلام ويتأمله ويهز برأسه من حين الى حين استحسانًا .

— ولكنهم يبذلون اموالاً كثيرة في انتخاب الرئيس . افما كان خيراً ان يعطوه ربعها راتبًا ويقيموه ملكاً عليهم ؟ فيوفروا ملايين من الريالات .

— كان جورج واشنطون يا مولاي رئيسًا اولاً وثانيًا — هي القصة التي كنت اقصها على امراء العرب وفي مجالسهم ، وصرت اخجل ان ارددها . « ما هربنا من الملوك لنقيم منا ملكاً علينا » كلمة قالها جورج واشنطون الاول والاخير ، ابو الجمهورية ، اعجب بها كل من سمعها في الجزيرة . اما السيد محمد فقال : امرنا نحن العرب غير امر الاميركيين . اذا رفض اميرنا الامارة فعشرون حوله في الميدان يطلبونها ويتنازعونها ويحتربون من اجلها . على الامير الحاكم اذن وهذه حالنا ، مهما تعددت تكاليف الملك واشتدت صعوباته ، ان يقف مكانه كالجندي و يقوم بواجبه دفعًا للفوضى ، وحقنًا للدماء .

ثم انتقل مرة اخرى فوراً ، وما كان اسرعه انتقالاً وابعده ، فسألني سؤالاً جغرافياً : وهل اميركه بعيدة عن خط الاستواء ؟

— اميركه الشمالية من حدودها الجنوبية تبعد عن خط الاستواء يا مولاي خمسة عشر يوماً في البحر . واميركه كلها ، اي قارة العالم الجديد ، هي شطران ، الشطر الاكبر شمالاً والشطر الاصغر جنوباً من خط الاستواء .

وهل يمكن الوصول الى روسية عن طريق اميركه ؟

— بحراً من سان فرنسيسكو الى اليابان ثم الى سيبيريا فروسيه ، نعم .

— نعلم هذا ولكن هناك طريق اقصر . بين اخر بر اميركه واخر بر روسيه مضيق ، اتذكر اسمه ؟

— مضيق بيرِنغ .

— نعم ، مضيق بيرنغ ما هي المسافة فيه بين البرين ؟

وهـا هنا رأيت نفسي في مضيقٍ من البحث . ما جال قط في ذهني اني سأُسأل مسائل جغرافية في مجلس الامام لا استطيع الجواب عليها . ولا تأهبت لمثل هذه المبادهة المزعجة . فقلت : لا ادري . ولكني اظن .... وكان ظني بعيداً عن الحقيقة . ولا عجب . ان اخر عهدي بمضيق بيرنغ يوم كنت ادرس الجغرافية في مدرسة ليلية بنيو يورك ، وكان استاذنا يقول بين المزح والجد : من يجيد السباحة يمكنه ان يسبح من اميركه الى روسيه .

لكنني لم اتذكر القصة الا بعد خروجنا من مجلس الامام ، فتأسفت جداً . ولمت ذاكرتي ووبختها لانها لا تلبيني ساعة يلزم ويليق وتعيدها الى الذهن ساعة لا تفيد . وتنسيني قصة افكه حضرة الامام بها ثم قلت في نفسي : سأقصها في المقابلة الثانية ان شاء الله . ولكن الامام لم يدنُ بعدئذٍ من الموضوع . ولا انا ، والحق يقـال ، تذكرت القصة الا مرة واحدة وذلك لما كنا نتباحث في المعاهدة بينه وبين الملك حسين . فكيف يجوز ان اوقف البحث لاقص قصـة مهما كانت مضحكة ؟ هل اقول له : على ذكر بني عائض يا مولاي ، او على ذكر القنفذة اقص عليك قصة مضيق بيرنغ ؟ حالت السياسة والذاكرة دون القصة

ورغبتي الشديدة في قصها فلم يسمعها السيد محمد·

خرجت من مجلسه و فيّ من الرجل تذكارات كلها حب واعجاب ،وهي اليوم ، وانا بعد سنتين اعيد ذكرها ، لا تحرك فيّ غير الاعجاب والحب· فيصح اذن ان انقل الى القارىء كلمةمن مذكراتي في جيزان·

اول ما يروقك ويطربك من السيد محمد لسانه العربي الفصيح المجرد عن الاصطلاحات واللهجات المحلية · ثم وقفاته في الحديث وكلمته — اهآ — في التمكين والتثبيت · واول نظرة في مواهبه واخلاقه تريك انه ذكي الفؤاد شديد العارضة ، حصيف حكيم ، وهو ساذج ، كريم الاخلاق · لا اثر للروحانيات في وجهه · ولكن قياس الفراسة الذي يصح في البيض قلما يصح في السود · ان في الولايات المتحدة عبيداً يسرقون الدجاج وعبيداً لا يحيون بغير الكتاب المقدس والسيد المسيح — جاء في المزمور الواحد والخمسين : طهرني بالزوفى فاطهر · اغسلني فابيض اكثر من الثلج · وهم يؤمنون بكل الانبياء و بكل شيء · اذا خيرت احداً منهم في رئاسة الجمهورية وقيثارة داوود يفضل القيثارة ولا غرو···· قد تكون روحانية السيد محمد اذن كامنة لا تظهرها كلمات اللغة وسيماء الوجوه ، لا تظهرها غير الاعمال · واني متيقن انه لو كان في الولايات المتحدة لساد الملايين من السود هناك ·

نظرة ثانية : اضف الى ما تقدم ان السيد محمد الادريسي صريح في حديثه ، صادق في ما يقول ، ساذج في ما هو دون معقوله ومعلومه · كبير الخلق والقلب · يميل الى السلم والائتلاف ··· احسن ما في العبد قلبه اذا حسنت اخلاقه · واكبر ما في السيد محمد قلبه ولا غرو ···

تعددت الجلسات والاحاديث التي كان قطب دائرتها اولاً الملك حسين والوحدة العربية وثانياً الامام يحيي والصلح · وكان اجتماعنا دائماً ليلاً لان الحر في جيزان لا يأذن ابداً بالتجوال او باقل الاعمال نهاراً · فكنا بحكم الشمس والبحر ، والميزان دائماً فوق المئة « فارنهيت » في الظل ، نستسلم الى ما تبطل

فيه الحركات كلها ، الا حركة التنفس . وهذه تضعف فنقف احياناً نستغيث .
ولكننا كنا نحمد الله مرتين في النهار على حمامين باردين بكرة واصيلاً ونكفر
ليلاً عما نهمله عمداً او في حال الاغماء من المحامد .

خبرت الحر في اماكن كثيرة ، من المكسيك الى عدن والعراق ، فما وجدت
حراً جامعاً محاسن الحر كلها وفي اعلى درجة منها مثل حر جيزان . ان الشمس
ها هنا قريبة جداً منك . كأنها على الارض تشتعل فترسل اشعتها عكساً الى
كبد السماء . بل كأنها حبيبتك تشاركك في الحياة فتجلس على ركبتك تقبلك
في فمك قبلة تدوم اثنتي عشرة ساعة ولا تنقطع . واذا ما نظرت اليها وانت تلجأ
الى الماء منها تراها ترقص في هواء كأنه حجاب من الشاش الهندي الابيض
فتبدو اشعة الشمس فيه كخيوط الفضة ساعة الظهر ، وكالوهج الاصفر ساعة
الاصيل فترفع يديك الى عينيك لتقيهما سهامها الذهبية .

اما الرطوبة ، وها هنا يشترك البحر والشمس عليك ، فلها لون يجيئها من
يدي المد والجزر ، ولها جسم من كرم العناصر في تهامة ، ولها رائحة هي بنت
الطحلب والسبخة والملح ، ولها فوق ذلك خاصة في الهيام تلصقها بك اذا دنت
منك . فهي كورق الغراء الحلو تجذب الذبابة اليها فتعلق بها . بل هي
كثوب يلبسكه البحر وقد رآك تنزع كل ثيابك من اجل معبودتك الشمس ،
فتلبسه كرهاً وانت تشتهي فوقه ثوباً من الامواج . لله موجة تعيد اليك
الحياة . ولكنك في القلعة ، في القصر ، ضيف محترم . والامواج تحتك للفتيان
والفتيات يلاعبونها ، فلا يليق بك في ذي البلاد العربية التي يرم فيها الاحترام
فيؤلم ، ما يجوز للصبيان .

الفصل العاشر

بين الامامين

ساعة الاكل · والرأس المقطوع — ساعة الاستقبال · والخيل والليل — السيد والملك حسين — « المسئلة بيننا وبين الشريف قريبة ميسرة » — ابن سعود — المحالفة الرباعية — الاتراك — « حاربناهم واخرجناهم من البلاد » — الامام يحيى — « كنا واياه متعاهدين » — قصاصة من ورق — كتاب من الامام الى الادريسي — « وهذا اليكم كتاب اخ الى اخيه » — كتاب من الادريسي الى الامام — « وقد انكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة » — الفرق بين الامامين ·

كنا في القلعة نحوم على الظل حوم الفراش على النور ، فننتقل من غرفة الى غرفة ، ومن رواق الى رواق ، اتقاء وجه الشمس · وما كنا نخشى مثل ساعة الظهر خطبا ، ساعة يجيء الخدم من بيت السيد السنوسي وعلى رؤوسهم الاطباق ، وفي مقدمتهم طبق عليه غطاء ، وتحت الغطاء الرأس المقطوع · فنجلس الى مائدة شيخها هذا الذي كان منذ ساعة حياً وقد حشي بالارز والبيض والزبيب ، وفي الوسط الرأس ينظر عطفاً اليك · اخجلني والله وحبب اليّ التنحس في مذهب الهندوس ·

والحق يقال انني مللت اللحم ، خصوصاً في مثل ذلك القيظ ، وكنت اشتهي بعد سف شيء من الارز بقعةً خضراء ارعى فيها · واشتهي قبل كل شيء الماء فاجده في النعارة فاتراً ، فاصبه في الكأس فاذا هو اصفر اللون ، فاغمض عيني واشرب باسم الله · اما كرم الادارسة فما كان ليخلّ قطعاً بقاعدة الضيافة عندهم — قوزة كل يوم · اغدق الله عليكم ايها الافاضل ، وبارك الله فيك يا جيزان ، بركةً تشمل من اجل اسيادنا بني ادريس آلة لتصفية الماء ومعملاً للثلج ·

— هات المروحة يا أبكر ·

يدخل السيد ابكر و بيده عدة مراوح وعلى لسانه خبر ما مر فضل الدين .
— قل له الحكيم نائم . ليجئني نصف الليل .
ثم يدخل الحاجب . الشيخ الشنقيطي يبغي التسليم على الاستاذ .
— صلّ على النبي . هات القميص والعباءة يا ابكر .
وكان فضل الدين يدفع عني احياناً مؤونة المقابلات في النهار .
— قل للشيخ ان الاستاذ لا يستقبل الا ليلاً — بعد نصف الليل .

كذلك تنعكس الحياة في تهامة . تُقعدنا الشمس ، تنهكنا ، فيجيئنا الليل فزعاً ويوقظنا القمر . ساعة من الفرج — . الا اننا والحق يقال لم نكن لنسر بشيء سرورنا بكلمة الحاجب : جاءت الخيل . والخيل من حضرة الامام ومعها رسول يدعونا اليه . فنركب ونسير في ضوء القمر فننتعش ، ونحضر مجلس الامام فنستأنس ، ونواصل السعي في سبيل السلم ، فالالفة ، فالتضامن ، بين ثلاثة من ملوك العرب .

— المسئلة بيننا و بين الشريف [1] — الكلام لحضرة الامام — قريبة ميسرة . نحن اولاده ، نحترمه ونجله . ولكننا نطلب منه ان يبادلنا الاحترام . قال تعالى : وشاورهم في الامر ، اهاً ، ليسألنا ، ليشاورنا . نعم ، هو لنا بمثابة الاب ونحن ابناؤه الراشدون . عندنا حكمة ، اهاً ، حكمة في الدين وفي السياسة . وعندنا قوة . القبائل في يدنا . . . والله لا تمر اربعة اشهر على المعاهدة الا نكون اصلحنا الامر بينه و بين ابن سعود فتسير القوافل آمنة الى مكة والمدينة . . . ان عند الشريف الحرمين ، ونحن نبذل انفسنا من اجل حب الحرمين . لا خير في حياة المسلم اذا كان لا يغار على الحرمين و يسعى دائماً في المحافظة عليهما .

اغتنمت الفرصة عند ذكره ابن سعود فقلت : اذا اصلحتم بين جلالة الملك وسلطان نجد فهو ولا شك يسعى ليصلح بين سيادتكم و بين الامام يحيى . فيتم اذ ذاك الاتفاق الرباعي ، او المحالفة الرباعية ، وهي كما اظن حجر الزاوية في

(١) اي الملك حسين .

الوحدة العربية ٠

فقال سيادته : هذا كلام حق ٠ ولكن الامر بيننا و بين ذاك الرجل[1] بعيد ٠

— وليس على الله يامولانا امر عسير ٠

— نعم صدقت ٠ وما نحن يا حضرة الاديب بعيدين مما تروم ٠ ولكن ذاك الرجل أضرّ بنا ، أضر بنا والله ضرراً جسيماً ٠ ونحن نفعناه ٠ وكان نفعنا مجرداً عن كل ضرر وغش ٠ اما نحن والملك حسين فقد كان الضرر والنفع بيننا منا ومنه ٠ لذلك ترى الامر قريباً بيننا ٠٠٠ العرب خداعون غدارون ٠

كان يردد رحمه الله هذه الكلمة كل مرة يجيء على ذكر هذا الرجل ، اي الامام يحيى ، في المقابلات الاولى ٠ ولكنه عندما تحقق مقاصدي غير لهجته ٠

— نحن اول من حمل على الاتراك في الحرب الكبرى ، اول من انضم الى الاحلاف ٠ اما هو فاتفق والترك وانسحب الى شهاره واقام هناك بعيداً عن ساحة القتال ٠ ايّ خير جاءنا نحن العرب من الترك ؟ اية منفعة نفعونا بها ؟ نحن حاربناهم قبل الحرب ، وحاربناهم اثناء الحرب ،وسنحاربهم اذا عادوا الى بلادنا ٠ نحن كنا نحاربهم في تهامة لنردهم عن ابن حميد الدين ٠ اوقفناهم مراراً في زحفهم عليه ٠ دفعناهم عنه فراح يعقد واياهم صلحاً وراء ظهرنا هذا في اثناء الحرب ٠ اما قبلها فكنا واياه متعاهدين ٠ عقدنا محالفة لمحاربة الاتراك وطردهم من اليمن ٠ ولما جاؤوا يمرون في بلادنا ليضربوه من جهة الشمال اوقفناهم وقلنا لهم : كيف نقبل و بيننا و بينه عهد الله ٠ وصل الترك بعدئذ الى صنعاء فهموا بضربنا من وراء ، من الجبال ، فلم يمنعهم ابن حميد الدين ، حليفنا صنو عهدنا ٠ كأن العهد عنده قصاصة من ورق ٠

وفي كتابين اطلعت عليهما الواحد من الامام يحيى الى السيد والثاني جوابه ما يزيد سياسة الرجلين بياناً ، وعقليتهما جلاءً ٠ [2]

---

(١) اي الامام يحيى بن حميد الدين ٠

(٢) بعد دخول الانكليز الحديدة وخروجهم منها واستلام الادريسي زمامها سعى بعض رجال الامامين في عقد الصلح بينهما ٠ وقد ذكر الامام يحيى اسماء ثلاثة من رسل السلم والوفاق ٠

في كتاب الامام الى « الصنو السيد العلامة » بعد السلام مقدمات ادارية في تاريخ المفاوضات ووسائطها [1] ثم انه يرحب بسعي كل من يرجو الله في دفع الدسائس الاجنبية « وصون هذه القطعة العربية اي اليمن من تدخل الاجانب، وعدوان يحدث من اي جانب » .

واعلموا يقيناً ان ليس لنا غرض ولا مقصد في غير القيام بخدمة الله بالقلب واليد واللسان . ووالله لولا ان نرى تحتم القيام علينا بالدفاع عن عادية الكافرين على هذه الاصقاع لما حركنا ساكنا ، ولما اظهرنا كامناً . ونصرح لكم بانه معا بينكم و بين الدول من الروابط والسلم بما لهم من المقاصد الضارة بالاسلام والمسلمين وما يرومون من التسلط العام والسيطرة الشاملة على كل من قعد وقام ، وبانهم لا يدفعون الاموال والذخائر الا مقابل غرض عظيم يعدون الاستفادة منه لدولتهم وملتهم . ولم يحملهم على اظهار عدوانا الا عدم المساعدة منا لهم في بعض البلاد اليمنية . ولولا ذلك لما كان بيننا و بينهم ما كان وما سيكون . قد انصفتم بما اوضحتموه لشرفي من القيام بالعدد والنحر والتشمير لدفاعهم ومنعهم وحربهم في البر والبحر [2] وذلك هو الغرض المقصود . ولكن بقي امر وهو هل لهم من حجة يحتجون بها ويجعلونها ذريعة لهم الى مقصدهم الخبيث من ادعاء الحق في اي جانب لهم من اليمن . وهل لكم من فكاك من تلك الرابطة يزول به كل وسيلة لهم الى اي تجاوز .

---

(١) تاريخ الكتاب ٢٥ جمادي الثاني سنة ١٣٣٩ والاشارة الادارية فيه هي : بعد وصول نقيب حسن بن مقبل واتفاقه (اجتماعه) بالقاضي عبدالله الفخري واطلاعهما على ما بيد شرفي والعرض علينا . . .

(٢) اي الانكليز . وفي هذه الجملة اختلاف على ما قيل لي وقصد سيء . لان شرفي لم ينطق بهذا الكلام او بمثله ولا السيد الادريسي ولا احد خاصته . ومن اين للادريسي ان يحارب الانكليز براً وبحراً . فضلا عن انه كان يومئذ صديقهم وحليفهم . اما القصد منها فظاهر . وقد كان الادريسي يخشى تقرب الانكليز من الامام كما كان يسعى الامام ليبعد بين السيد والانكليز .

المؤمل من صداقتكم مع كتابنا هذا ان لا تكتموا شيئاً . فانه لا مخبأ بعد بوس ، ولا عطر بعد عروس . وانتم اعرف بسياسة الدول ومسالكها الى الوصول الى اغراضها بما تبرمه من متلونات الحيل . وهذا اليكم كتاب اخ الى اخيه للنظر في ما يعز الاسلام والمسلمين ويدفع كيد وضرر الكافرين ...

وختام الكتاب انتحاب مجد السلام الغابر ، واستنهاض المسلمين على جهاد الكفار الذين « تسلطوا بانواع التسلطات الخبيثة على المسلمين فصاروا لا يملكون مستقلين قياد انفسهم . ولكنها الاهواء عمت فأعمت ، ولو عقل المسلمون وعملوا بما امر الله به الخ . »

اما جواب السيد محمد بن ادريس الى « الجناب الشريف والمقام المنيف » الصنو العلامة الامام يحيى بن حميد الدين فبعد حمد الله والسلام يعلمه بوصول كتابه مع النقيب الشرفي ويؤكد له ان بغيته المقصودة وضالته المنشودة « ان نرى انفسنا على محكم الاخاء والوفاق مع جميع الامة فرداً فرداً . فضلاً عمن هو مثلكم ممن ضمنا وضمه رحم العلم والنسب »(١)

ولو نظرنا الى ما جرى من الحوادث حتى كاد لم يكن هناك رحم توصل ، ونفوس بين يدي الله مما تفعل وتسئل ، فدعا الاخ اخاه الى حكم السيف والسنان ، بل كر عليه بما هو انكر من ذلك من وخزات القلم واللسان ، لطال الشرح وتمادى الحال . ولكن حيث اوجب تعالى على الكافة ان يكونوا اخواناً ، وفي الحق اعواناً ، فلا مخلص لنا ولكم لدى الباري من الحجة ، الا ان نسلك واضح طريق هذه المحجة ... اما ما اشرتم اليه في ما بيننا وبين الاجانب فلو راجعتم التاريخ بالنظر لما قد مضى بيننا وبين الطليان وقد أمددنا بما علمتم ثم وقع الصلح بينهم وبين

---

(١) « من ضمنا وضمه رحم العلم والنسب » . اما العلم فلا مشاحة ان السيد محمد كان صنو حضرة الامام بالعلوم الاسلامية والفقه واللغة . واما النسب فقد طعن الزيود به طعناً يثبت ما قلته في التسرّي واختلاط دم السود بدم الاشراف في فصل سابق .

الترك فانكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة [1] . بل ظهر للعموم ما اجراه الله على يدنا من الخير المعلوم [2] لاتضحت لكم الحقيقة الحاضرة وعرفتم المثل السائر : ما اشبه الليلة بالبارحة . وفي الجملة مـا حالنا وحال اهل اليمن الا كما قال حجة الاسلام :

غزلت لهم غزلاً دقيقاً فلم اجد   لغزلي نساجاً ....

ان الله تبارك وتعالى اذا فتح باباً للخير فلا راد لفضله . واما ما طلبتم البيان فيه عن اليمن وما ترمي اليه السياسة الاجنبية فمن المعلوم انهـا لمـا قامت الحرب الاوروبية اعلنت دولة بريطانية بمساعدة العرب اذا ارادوا الاستقلال دون ان تتدخل في شيء من شؤونهم . ولكن من الاسف انهم على اراء متفرقة واهواء مختلفة . ومرت هذه الفرصة وكادت تمر ولم يرفعوا اليها رأسا ... على ما نشهده الان في الاختلاف وعدم الانتباه ، لمـا يرفع شأنهم ديناً وسياسة . اثبتوا على انفسهم عدم الرشد فاحتقرتهم اعين العالم وصاروا عرضة لانحطاط قوميتهم من بين سائر الامم . فـلا حول ولا ... ومثلكم على وفور من العلم والسياسـة ، وبمحل من المعالي والرئاسة ، فلا يخفى عليكم كيف يكون لم شعث هذه الامـة ، وما هو الاقوم عند الله طريقةً في زوال هـذه الغمة ، وحسبنا

---

(١) « انكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة » عندما تعاهد وايطاليه أتهم بدسيسة يراد منها ادخال الاجانب الى البلاد العربيـة . قالوا : هذا اجنبي — والزيود يحسبون الادارسة دخلاء في اليمن — ويتواطأ والاجانب علينا . فكان انه اخذ مال الاجانب وسلاحهم واستخدمها في محاربة اعدائه الاتراك . امـا الايطاليون ، وهم في الشاطيء الافريقي من البحر الاحمر قبالة الادريسي ، فلم يطأوا ارض تهامة ، ولا اثر لنفوذهم هناك اليوم . ثم أتهم التهمة نفسها عند ما دخل الانكليز الحديدة ، وما عتموا ان خرجوا منها .

(٢) « اجراه الله تعالى علي يدنا » كل امراء العرب او من قام منهم بعمل خطير نافع يقول هذا القول : سخرنا له الله ، وفيه تواضع وتفوق . فالرجل الكبير متواضع لانه لم ينسب كبير عمله الى نفسه بل الى الله الذي اجراه على يد عبده . في هـذا الادعاء يقول ضمنا للناس : لو لم اكن عظيمكم وزعيمكم لما خصني الله بهديكم واختارني آلة لخيركم .

الله ونعم الوكيل في ١٥ شعبان سنة ١٣٣٩

في هذين الكتابين يتضح امران ، الاول : ان دعوة الامام يحيى دينية ظاهراً وسياسية ضمناً ، ودعوة السيد الادريسي دينية اساساً وسياسية قومية عملاً - الثاني : في كتاب امام صنعاء غموض مقصود وعموميات قلما تفيد ، وفي كتاب امام جيزان صراحة مبرورة وتخصيص ليس فيه ابهام ·

الفصل الحادي عشر

المعاهدة

الصلة بين الضعيف والقوي — النفع السوي المتبادل — سياسة الانكليز بعد الحرب — السلاح والمال — السياسة الجديدة ، لا مشاهرات ، ولا دسائس ، ولا تجسس ، ولا ارهاب — الامتيازات الاقتصادية — البحث في المعاهدة — نقطة خلاف تختص بالانكليز — حجة السيد وحجتي — رغبتي في خدمة الملك حسين — نص المعاهدة وشرح بعض بنودها .

من طبع الضعيف وان كان مستقلاً ان يوالي الغني و يستنصر في اموره القوي . ومن مظاهر القوة ان الضعيف في مكانه و بيئته هو غالباً اقوى منها في غير مكانها و بيئتها . فالقوة وفيها الحكمة تستعين بمثل هذا الضعيف فيقوى بها وتنتفع به . وما دام الانتفاع متبادلاً متساوياً ، وهو لا يكون كذلك الا اذا كان في الفريقين شيء من الوجدان ، فالولاء بينهما امر طبيعي . اما اذا اختل التوازن في المنفعة ومالت كفة الميزان فهناك السيادة الفاسدة اجنبية كانت ام وطنية ، من القوي كانت ام من الضعيف . هناك الاستيلاء والاغتصاب والظلم والاستبداد . وبكلمة اخرى ان القوي القليل الوجدان يستخدم الضعيف لمنفعته الخاصة فقط ، يضمه اليه فيبتلعه او يستعبده . والضعيف ، الضعيف الوجدان ، يخادع القوي و ينافق فيكتسب بعض القوة التي يسيء استخدامها ، فلا ينفع نفسه نفعاً يذكر ولا ينفع احداً من الناس . هذه حقائق في الحياة تنطبق على ما يماثلها في السياسة وفي الملك .

كان السيد الادريسي يدرك امرين في حياته جوهريين ، اولهما انه قوي في ذاته ، وثانيهما ان ملك الادريسي ضعيف بين اقوياء هم اعداؤه . بديهي اذن انه ، وهو الطموح الحكيم ، اذا عرف قوياً يروم الولاء والاه واستنصره على الاعداء . و كذلك كان . جاء القوي عدو الاتراك — ايطالية ثم انكلترة — والمرء في ايام الحرب ابعد عن المخاتلة والخداع منه في ايام السلم ، فتنفع

الادريسي وانتفع به · ها هنا قوة وضعف فيهما حكمة ووجدان ، وفي اتحادهما نفع سوي متبادل ·

اما بعد الحرب فانقلبت الحال ، وساءت الاعمال · امست حليفة السيد ولا قصد لها ظاهراً في بلاد العرب غير نفوذ تمده الى مقامات السيادة ، لغرض مجهول كثر المتكهنون به وقل المدركون ، دون ان تبذل شيئاً مما كانت تبذله اثناء الحرب · زد على ذلك انه كان لها في الحرب عدو حقيقي معروف ، وليس لها الان غير اعداء سياسيين · فاستمرت على سياسة الغموض توالي هذا الامير علنا وتفاوض عدوه سراً حتى ساء حالها ، وساءت اعمال رجالها ·

وبودي ان يعود الفريقان ، الانكليز واصدقاؤهم العرب ، الى شيء طبيعي عادل في العلائق السياسية والولائية تكون الفائدة فيه متبادلة متساوية · الا ان ذلك لا يكون الا بالسياسة القومية الصريحة من قبل الانكليز ، و بالصدق والنزاهة والاقبال على الحسن من التمدن الاوروبي من قبل العرب · كانت انكلترة تقدم في الماضي السلاح والذخيرة وتدفع الاموال فتسيطر بواسطتها على الرجال ، فانتفعت منفعة محلية وقتية ، وما كسبت بوجه الاجمال من العرب غير المقت والاحتقار ·ولعمري انها في ما كسبت غير مظلومة · فقد افسدت باموالها الامراء واهلكت بسلاحها العشائر ، وهي لا تزال تسعى في نفوذها وتثبيت سيادتها في البلاد العربية على تلك الطريقة القديمة · وهذا لا يكون بعد كل ما تغير وساء من الاحوال · فالسيد الادريسي نفسه لم يذعن لمثلها الاذعان التام حتى يوم كان يقبض مالها و يسلح العشائر بسلاحها · وكثيراً ما كان يردهم في ما يقترحون خائبين « لم يربط الانكليز احد مثلي · انا رقّصت الانكليز »· سمعته يردد هذه الكلمات مراراً في حضور وكيل انكلترة السياسي صديقي محمد فضل الدين · ومهما كان من زعمه فلا احد ينكر ان السيد كان عربياً حراً صمياً يأبى التسيطر الاجنبي كما يأباه غيره من ملوك العرب الكبار ، الا انه لا يرى الضرر والكفر في موالاة اجنبي ينتفع به · اما الانتفاع اثناء الحرب فعرفناه ·فماذا عسى ان يكون في ايام السلم ؟

حبذا دوام العلائق الولائية بين امراء العرب وبين انكلترة · ولكنها لا تدوم كما قلت على الطريقة القديمة · لا ولاء متبادل ولا اكرام حقيقي مع التذبذب والتجسس ، والدسائس والارهاب · ان الحكمة كل الحكمة والخير كل الخير للفريقين في خطة جديدة مجردة عن السياسة وحب السيادة التي لا طائل تحتها · واذا كان لا بد من السياسة الى حين فحبذا فيها تلك الصراحة البعيدة عن ال « لا » وال « نعم » معاً ، وعن الختل والخداع ·

اني لا ارى في هذا الزمان غير التجارة والاقتصاديات والعلم سبلاً قويمة الى الولاء الاكيد بين الامم وفيه النفع المتبادل الدائم · اننا نتاجر معكم ، ونمنحكم الامتيازات ، ونأذن لكم ببناء المستشفيات مثلاً والمعاهد العلمية ، ونؤمّن لكم فوق ذلك طريق الهند من البحر الاحمر ومن الخليج ونحافظ عليها ، فتمدونا في مقابلة ذلك بالمساعدات الادبية والسياسية والمالية التي من شأنها ترقية البلاد وتعميرها واحياء موارد الرزق والثروة فيها ، وتعفونا من الوكيل السياسي والمعتمد والمندوب او تستبدلونهم بالقناصل ، فتستقيم العلائق بيننا وتصفو موارد الثقة والوداد [1] ·

هذا ما اشرت به شفاهاً واشير به كتابة على الدوام ، وقد كان السيد الادريسي من رأيي · فلما وصلنا ونحن نبحث ذات ليلة في المعاهدة بينه وبين الملك حسين الى بند يحدد علاقة الامير العربي بدولة اجنبية قال : ولا بأس من ذكر انكلتره في المعاهدة ، بل يجب ذكرها · فقلت : وان كنت من رأي سيادتكم في تفضيل انكلترة على سواها من الدول الاوروبية فلا استحسن ذكر اسمها في المعاهدة بينكم وبين جلالة الملك حسين · ولم اكتم السبب وجله سياسي في ما دعاني الى مخالفته ، بل صرحت برأيي ، وكان فضل الدين حاضراً الجلسات كلها ، دفاعاً عن القضية العربية والقصد الاكبر فيها ، وهو

---

(١) في معاهدة جده التي عقدت في ٢٠ آيار سنة ١٩٢٧ بين جلالة ملك بريطانية العظمى وجلالة ملك نجد والحجاز برهان ساطع على ان الحكومة البريطانية بدأت تعمل بهذه السياسة الجديدة السديدة التي تشترك فيها المصالح العربية والانكليزية وتتساوى فيها الحقوق والواجبات ·

بتآلف ملوك العرب وتحالفهم في سبيلها • فقد كان الملك حسين ناقماً يومئذٍ على الانكليز ، وكان الامام يحيى حرباً عليهم ، وانا ابغي عقد معاهدة بينهما وبين الادريسي ، فكيف السبيل الى ذلك واحد الثلاثة يقيد نفسه بانكلتره. ويسجل في بند من بنود المعاهدة تفضيله اياها على سواها من الدول الاوروبية • فقلت مصراً :

خير لكم يا مولاي ولانكلتره ان لا نذكرها في المعاهدة • واني لا ارى ما يوجب ذكرها هنا خصوصاً في معاهدة بينكم وبين امير عربي آخر :

كنت افكر دائماً بالملك حسين الذي رغبت في خدمته خدمة حقيقية تقرب امراء العرب منه وتربطهم بالمعاهدات واياه ، خدمة تفيده اكثر من ارساله الوفود الى انكلتره وجنيف ، وكانت هذه الرغبة تشير بما افعل واقول • ولم يكن الامام يحيى ولا الادريسي مغبوناً في عمل مجرد عن الاغراض السياسية والذاتية كلها • فخفت ان يفسده ذكر انكلترة ، فيرفض الملك ان يوقع المعاهدة بسببها وينكر الامام كذلك مساعي الملك في سبيل الصلح بينه وبين الادريسي • لذلك دافعت عن نظريتي بكل ما عندي من حجة ويقين • ودافع السيد عن نظريته لا اعتقاداً فقط على ما اظن ، بل رغبة بالمحافظة على صداقة الانكليز • فلما خرجنا من المجلس تلك الليلة هنأني فضل الدين وقال : قد نلت من الامام ما لم ينله احد قبلك •

جاءت المعاهدة وليس فيها ذكر بريطانية العظمى ولا كلمة تشير اليها • وكان الانكليز مع ذلك راضين بها • مما دل على ان انكلتره لا تعارض في عقد معاهدات ولائية اقتصادية — دفاعية كذلك — بين امراء العرب اذا وُفق الامراء الى من يسعى في هذا السبيل سعياً فيه نزاهة ووطنية حقة ، ثم شيء من الاعتدال والانصاف •

وها اني اثبت من هذه المعاهدة ما يختلف في موادها عن المعاهدة بين الملك حسين والامام يحيى •

التمهيد واحد في المعاهدتين •

المادة الاولى : البلاد العربية اقصاهـا وادناها بلاد اسلامية لا تقبل التفرقة والتجزئة وانفكاك بعضها عن بعض من حيث الجامعة الدينية والقومية والوطنية واتحاد اللسان · وليس المراد من عدم قبولها التفرقـة تغيير اشكال اماراتها الموجودة وتحويل امرائها وحكامها المشهورين المعلومين الذين يتولون ادارة شؤونها واعمالها وسياسة داخليتها · وانما المطلوب اجتماع الكلمة القومية [1] وتوحيد السياسة على وجه يرضاه الله وتصلح به احوال البلاد من غير مداخلة اجنبية تخل باستقلال البلاد العربية [2] على مـا سيعرف من المواد الاتية ·

المادة الثانية : يعترف جلالة الملك لسيادة الامام الادريسي بالامامة ويعترف سيادة الامام لجلالة الملك بالملك [3]

المادة الثالثة : يختص جلالة الملك بسياسة ما تحت ادارته في الحجاز وغيره داخلية وخارجية · ويختص سيادة الامـام الادريسي بادارة بلاده الداخلية والخارجية · وليس لاحدهما ان يعقد معاهدة اجنبية في مـا يتعلق بادارة الثاني من البلاد ، ولا ان يغير شيئاً جارياً من طرف صاحب ادارتها ، ولا ان يتدخل بادارة داخليتها لا خاصة ولا عامة [4] الا بعد المشاورة والاتفاق بينهما · واذا فعل احدهما شيئاً من ذلك او عقد مقاولة اجنبية في ما يتعلق ببلاد الاخر منفرداً فلا يعتبر مـا فعله

---

(١) قبل السيد محمد بالنص الذي قدمته وهو هذا ، وانما المطلوب اجتماع الكلمة القومية راجع شرح هذه المادة في معاهدة الامام صفحة ١٩٢ من هذا الجزء ·

(٢) راجع الشرح في معاهدة الامام صفحة ١٩٢ من هذا الجزء ·

(٣) كان قد اعترض الدكتور فضل الدين على هذه المادة لان المادة الثالثة تفي بالغرض المطلوب · فقبل حضرة السيد اعتراضه · ثم جاءني منه مع نسختين من المعاهدة الرسمية هذه الكلمة : بعد اهدائكم التحية الزاهرة · صدرت نسختان احداهما بدون مادة الاعتراف بالامامة والملك حسبما اعترض جناب الحكيم البارحة لاننا نظرنا لذلك بعدئذ معنى صحيحاً · وفي الاخرى تلك المادة · فلكم الخيار في اية النسختين اردتم ·

(٤) كان قد اصر الامامان بالوقوف عند هذا الحد فاقنعتهما باضافة الجملة الشرطية بعدها اي « بعد المشاورة والاتفاق بينهما » الى اخر الجملة اي « فلا يعتبر ما فعله ولا يعتمد عليه » والغرض منها تقييدهم في ما يمهد السبيل الى الوحدة العربية ·

ولا يعتمد عليه · وليس لاحدهما نقض مقاولة سابقة لتاريخ هـذا الاتفاق من الطرف الاخر في ما يتعلق بخاصية عاقدها وبلاده ، ولا تعتبر في بلاد الثاني الا اذا تم الاتفاق على ذلك · ويلزم على هـذه المادة فصل الحدود بين الفريقين على الوجه المعتدل حتى يصلح كل فريق الجهـة التي اليـه ويعد بهـا المعدات اللازمـة وقت الحاجة للطرفين [1] ولو كانت جرت المذاكرات بالوفاق مثل ما جرت الان قبل سنة تقريباً لتمكن الجميع من اختبار الحدود المعتدلة وما يترتب عليها من الفوائد المشروحة اعلاه · حيث كان لا حائل بين الجوارين ولا منازع آخر بينهما · اما الان بالنسبة للحدود فيكفي حصول التزام ثابت من جلالة الملك حسين لعدم الاعتراض في مسئلة لواء عسير على فرض ارتفاع المنازع الاخر منه بالكلية [2] او ارضائه بجزء لا يحول بيننا و بين جلالة الملك حسين في الجوار · وهـذا يقتضي ان نقوم بسعي الاصلاح بينه وبين السلطان عبدالعزيز ابن سعود [3] لاجل تمييز حدود معتدلة بين الاطراف الثلاثة ·

المادة الرابعة : الاتفاق على مدافعة من اراد الاعتداء على احد الطرفين · وهـذا حق المسلم على المسلم · والكل منا يبحث في تلك الحادثة والسعي فيها بما امكن من الاصلاح سواء كانت مما يرجع الى الخارج او المعارض في الداخل · فاذا لم يكن الا مجرد الاعتـداء والبغي فيلزم كل من الفريقين المناصرة لصاحبه · ويلزم الامداد بقدر مـا امكن من مال او

---

(١) ما يلي اي من « ولو كانت جرت المذاكرة » الى اخر المادة · اضافها السيد محمد · فارتأيت ان تضمن في كتاب خصوصي الى جلالة الملك لانها جملة شرحية لا اساسية ، فلم يستحسن رأيي وامر ان تكون جزءاً من هذه المادة · وفي ذلك دليل اخر على سلامة نية السيد وتساهله رحمه الله ·

(٢) يراد بهذا المنازع ابن سعود سلطان نجد وهو محتل مدينة ابها التي كانت قاعدة لواء عسير في الماضي ·

(٣) ولا شك ان السيد الادريسي كان قد فاز بسعيه هذا الشريف لما كان بينه وبين سلطان نجد من الثقة والولاء ·

رجال او سلاح او معدات حربيـة وعلى طالب المدد ان يقوم بلوازم المطلوبين [1]

المادة الخامسة : اذا وقع تشـاجر بين رعايا الفريقين يرد الى حـكم الشرع فينصب قاضيان من الجهتين او قاض من احداهما حسب التراضي لفصل المـادة .

المادة السادسة : الاتفاق في العمل الذي يحفظ القطرين من اي تدخل اجنبي . فاذا حدثت مسئلة مهمة كالعقود والمعاهدات يلزم كل من الطرفين اخـذ رأي الطرف الاخر حتى يؤمن الالتباس في الموضوع ويكون العمل بقوله تعالى : وامرهم شورى بينهم . وقوله عز وجل : شاورهم في الامر .

المادة السابعة : تبادل المنافع التجارية من الطرفين مع تسهيل امور الصادر والوارد والمحافظة على اطمئنانها .

المادة الثامنة : التي تختص بصندوق توفير من مال الزكاة هي مثـل المادة العاشرة في معاهدة الامام [2] والمادة التاسعة التي تختص بتعيين مندوبين من قبـل الفريقين هي مثل المادة الثامنة [3] والمادة العاشرة اي الاخيرة هي مثل المادة الاخيرة كذلك في معاهدة الامام . [4]

---

(١) في هذه المادة الدفاعية نقض مادة الهجوم اي المادة السادسة من معاهدة الامـام . والقصد منها كف يد حكام الشطر الغربي من الجزيرة بعضهم عن بعض . راجع المـادة السادسة وشرحها صفحة ١٩٣ .

(٢) راجع تلك المادة والشرح عليها في صفحة ١٩٤

(٣) « « « « « « ١٩٤

(٤) « « « « « « ١٩٥ من هذا الجزء

الفصل الثاني عشر

جوار وسادات

نائب ابليس في عاصمة ابن ادريس — اخبار العاصمة — الجارية المجرمة والسيد العادل والقاضي الذي نبتت في قلبه ريحانة الرحمة — ابو فراخ — الدنقليات الحسان — وفد ابن سعود — المناقشة بين الوهابيين وعلماء شنقيط — « لا تشغلوها يا ابناء نجد » — السيد الحضرمي — فصل الشحاذة عند السادة — الاتراك يعتقون الجواري والعبيد — السيارة تسير — شجر الشورى — مظهر من مظاهر المد — سيد من الاماجد — ميدي — سوق الرقيق — «يلزمنا جارية للاستاذ» — سنبوك الجواري المنتظر — سيد من غير الاماجد — ضللنا الطريق في الليل — اللحية — السراب — الصليف — معادن الملح — القطن — آخر غرقاتنا في الرمل — السائق اصيب بدوار — السيد الحضرمي يقرأ الفاتحة — النجدة من القرية — بنت الجن

وقف الحاجب في الباب يقول : الحاج محمد . فنهض فضل الدين واستوى جالساً على الديوان . ومن هو الحاج محمد ؟ هو في عاصمة ابن ادريس نائب ابليس . درويش وجريدة اخبار وحجام ، وطبيب يطبب العيون ، و يتاجر بالدر المكنون ، ويمارس كل الفنون . هو من مراكش ، جاء مثل كثيرين من اخوانه الى بلاد السيد حاجاً ، وبقي فيها ينتقل مع الامام فيعيش في ظله المغذي للروح والجسد معاً . والحاج محمد جبار ، يكسّر بيده الحجار . صافحته مرة واحدة وصرت بعدئذ اكتفي بالسلام من بعد عشرة اقدام . اعجب بتلك اليد ، يد ولا مخالب البهموت ، كل اصبع منها نبوت ، وهي مع ذلك يد ساحر ، يمدها الى ادق اعضاء الجسم البشري الى العين فيشفيها — بشهادة الدكتور فضل الدين — من الآلام . يقبض السكين ، وبغيرها وغير الله لا يستعين . وما فشل مرة في عملية من العمليات ، ولا عصته العيون والحدقات .

لكن ذلك لا يؤهله لاكرام فضل الدين الذي كان يستقبله ولا يستقبل غيره في النهار . دخل يلهث والعرق يتصبب من جبينه ، فجلس على الارض ، طوى نفسه على السجادة امامنا ، وبدأ باسم الله .

— سافر ال« موتر » الى صبيا منذ ايام وعاد اليوم كاملاً بكل اجزائه والحمد لله . وحضرة القاضي فيه سالماً متعافياً باذن الله . وقد وفق بين السيد .... وجارية من جواريه جاءت تشكوه الى مولانا . ولدت هذه الجارية ابنة فلم تعش يوماً كاملاً . فعول السيد على بيع الجارية فاحتجت معتصمة بالشرع والحق في جانبها لانها ، وقد ولدت له ولداً ، اصبحت زوجة شرعية . ولكن السيد يقول : هي جارية نحس ، جارية جانية . لو انها ولدت ابنة حية لما استحقت ان ارفعها الى مقام الزوجة فكيف وهي تجيئني بالاموات . جانية تستحق فوق البيع الذبح . ولكني ارحمها وابيعها فقط . فقال القاضي ، وقد نبتت في قلبه ريحانة الرحمة : بمثلك وانت من اهل البيت يليق العدل ويليق الحنان . فقد قال صلى الله عليه وسلم . قال : نسيت يا دقتور الحديث . ولكن القاضي اقنع السيد فدخلت التقوى والحنان الى قلبه . فقاطعه فضل الدين قائلاً : نار الجحيم في قلبه . فقال الحاج : ولكنه رحمها يا دقتور . قال لها : ساشرفك ببذرتي مرة اخرى فاذا جئتني بولد ذكر حي كان لك ما تريدين . والا اتبعتك بابنتك . قبلي يد القاضي ، وركبته ، ورجله . واشكري الله على مجيئه . وجيزان تشكر الله على عودته سالماً في ال« موتر » .

رفع الحاج محمد رأسه ومسح بطرف قميصه العرق من جبينه ثم طوى نفسه ثلاث طيات — اليتيه على كعبيه وصدره على ركبتيه — ومد عنقه نحو فضل الدين وهمس قائلاً : سيدخل عم مولانا الامام على فتاة اخرى . ابو فراخ يبغي شراء فرخة سوداء وراح امس يستأذن صهره . وراحت المسكينة الى الامام تبكي وتستغيث . فقال الامام الى عمه الشائب : لا اسمح لك بها الا اذا كتبت كتابك عليها . اخذتُ ابنتك بالكتاب والسنة فكيف احل لك ما لا احله لنفسي . فقبل ابو فراخ بذلك وسيدخل الليلة هذه الليلة على الفرخة الدنقلية ..

لا والله ما رأيتها ولكني سمعتهم يقولون انها اجمل ما جاء من وراء البحر - درة سوداء ·

ورفع الحاج رأسه وصعد الزفرات ثم قال : والسيد ··· عافاه الله وحجب عليه · جاءته احدى جواريه بولد ··· ابعد الله الدنقليات عن بيت اسيادنا · فرخة سوداء ، رأس البلاء ، في كنف ادريس · الادارسة يا دقتور يذبحون انفسهم ولا يذبحون سود الفراخ ·

ضحك الدكتور وامر له بالقهوة فشرب الحاج ومسح بقميصه العرق من جبينه ووجهه واستأنف الحديث ·

— سيرجع غداً وفد ابن سعود · اعطى مولانا كل واحد منهم كيساً وكسوة · وقد كانوا ليلة البارحة في المجلس الشريف فتناقشوا وعلماء شنقيط في التوحيد والاولياء · خفت والله على الشناقطة من هؤلاء الوهابيين · تذكر الرجل الذي ذبح ابنه في ابها لانه افترى على زوجة ابيه وفر هاربا الى صبيا ، فقبض عليه فيها وسجن بامر من الامام · جاء كتاب من عامل ابها يقول فيه : ارسلوا الجاني الينا · انتم لا تحسنون القصاص · شرائعكم لا تنفع · عندكم محاكم وتأجيلات وتعويضات ورشوات · حيلوه علينا عندنا السيف · وامس قال احد هؤلاء الوهابيين : لا يطهر الاسلام من الشرك الا السيف · وهو حجتهم الوحيدة · من يصلي الى العظام في القبور و يستغيث بالاشجار والحجار يشرك بالله ، يكفر بالله ، والكافر يقتل · فرد عليه احد علمائنا بقوله : وانتم تستغيثون بالنبي ، انتم كذلك مشركون · فقال الوهابي : نذكر النبي اجلالاً ولا نستغيث به ابداً · فقال عالمنا الذكر والاجلال يتضمنان الاقتداء ، والاقتداء هو ضمن النداء ، وفي النداء الاستغاثة · فقال الوهابي : هذا ابهام وكفر الابهام اشد من الكفر الصريح · دامت المناقشة ساعتين فدخل اذ ذاك مولانا فقال : لا تشعلوها يا ابناء نجد · وجادلهم بالتي هي احسن · ثم قال والانكليز مشركون وليس علينا ان نهديهم الى الدين الحنيف ··· من آمن بالله و باليوم الاخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم « الاية » ونحن اصدقاء الانكليز · تخلص لهم مسا

داموا مخلصين لنا ، وانتم في نجد كذلك ان الله يهدي من يشاء . هـذا ما قاله مولانا الامام . وقف الحاج محمد هنيئة وقد عمد الى طرف قميصه فرهـا اولاً وثانياً على جبينه ثم دنا من فضل الدين هامساً : سنبوك جوار يصل الى ميدي بعد يومين . ثم مال بوجهه اليّ وقال : السيد الحضرمي يسلم عليك .

كنت قد نسيت رفيقنا في الباخرة . وها ان الحاج محمد يثبت مـا قاله فضل الدين . — قرأ السيد قصيدة في مجلس الامام يمدحه فيها فامر له مولانا بمئة ليرة ، وهو عائد معكم في الـ « موتر » الى الحديدة .

وثب فضل الدين لهذا الخبر عن الديوان مستعيذاً بالله . ثم دعاني وهو واقف امام الشباك لاشاهد مـا شاهده في ذاك الحين فرأيت في الرواق الخادم ابكر — السيد ابكر — وحوله بعض ابناء قريتـه جاؤوا يسلمون عليه ويقبلون يديه — هذا سيد ولكنه خادم مخلص . لا بأس اذا قبل يده ابنـاء بلده . ولكن في السادة الشحاذ واللص والزاني والقـاتل والمتاجر بالرقيق . والناس يقبلون ايديهم وركابهم . ان مراوعة[1] مدينة السادة ، كلها سادات وفيها من كل من ذكرت . ينزل السيد الى السوق حاملاً السلة فيملأها ممـا يحتاج اليه خضر وحبوب ولحم وحلوى ، دون ان يدفع غرشاً واحداً . ولا احد يقول : لا . ولا احد يجرأ ان يمنع رزقه عنهم . وفي اشهر رجب ورمضان وشوال يخرج السادة يشحذون . رمضان والشهر السابق واللاحق ، هـذا فصل الشحاذة عند السادة . جاء في الكتاب : وأنذر عشيرتك الاقربين ، فمن ينذرها اليوم ؟ عادات وخزعبلات وقباحات يبرأ منها الاسلام . اذا تزوج السيد ابنة من غير آل البيت وولدت له ابناً فمن الواجب عليها ان تقبل يده وركبته ورجله كل يوم لانه سيد ولانها من عامة الناس . وابنها يحتقرها ، ينظر اليهـا نظر السيد الى العبد . مثل آخر : سيد عنده جارية وخادم متزوج بامرأة حرة . فزوجة الخادم تحتقر جارية السيد ولا تحترمها ولو صارت اماً وزوجة شرعية . وكثيراً ما يحدث في مثل هذه الحال ان السيد يبيع الجارية من خادمه ويكرهه

(١) مراوعة هي على مسافة عشرين ميلاً شرقاً من الحديدة .

على طلاق زوجته فيتزوج بها . فساد لا يطهره غير الجحيم... من فضل الاتراك انهم كانوا يعتقون الجواري والعبيد و يعطونهم شهادات العتق . وكانت السادة يوم كان الترك في البلاد يعتبرون هذه الشهادات. اما الان فلا قيمة لها... ولا تظن ان سادات حضرموت ارقى من سادات اليمن . هـذا واحد منهم عرفناه رفيقاً وسيرافقنا مرة اخرى اعوذ برب الفلق .

ولكننا علمنا بعدئذٍ ان حضرة السيد سبقنا الى ميدي وسيرافقنا من هناك . فقال فضل الدين : والحمد لله الذي دفع عنا بعض البلية . ركبنا السيارة صباحاً يصحبنا جندي من جنود الامـام ، وهو سيد من سادات اليمن الاعلى يناهز الستين عمراً ، دقيق الانف والفم واليدين ، حليق الشارب ، ابيض اللحية ، بهي الطلعة ، لطيف المحيا . جلس بعد ان سلم الى جنب السائق ، وبندقيته بين يديه فسرنا نبغي ميدي التي هي على مسيرة ستين ميلاً من جيزان. وكان السهل الذي رحنا «نموتر» فيه كبلاد حرب كله درب . مررنا بمعدن ملح هو للحكومة قرب قرية تدعي مَضايه . ولم يكن في الارض حولنا مـا يريح النظر من السبخات غير شجر الشورى الذي كانت صفوفه تمتد اميالاً الى جانب الشاطىء كانها جدار اخضر قائم بين البحر والسهل . اما قشر هذا الشجر فابيض مثل عوده والمتكسر منها شبيه بالعظام يجمعه العرب حطباً . واما الورق الشبيه بورق الغار فيرعاه الغزلان . كنا نرى اسراباً منها عادية ، شاردة ، نافرة من كل ما تحرك في تلك الارض سواها .

وفي تهامة مظهر من مظـاهر المد غريب . ان مياه البحر تجري تحت الارض ، خلال شقوق في التربة رملية ، فتتسرب الى مسافة خمسة اميال في بعض الاماكن ، وتظهر فوراً في السهل بحيرات مالحة ، تجف في الصيف مياهها فتبدو سبخات موحلة لزجة اذا علقت السيارة فيها استحال على غير الجمال جرّها منها .

عجبت لسكوت السيد قدامي وتأدبه . سألته سؤالاً فأدار بوجهه واجاب بصوت لطيف ولغة فصيحة أنه من عرب حاشد ، من الحوارث فيهم ، وان

جبال حاشد هي كالحلقة حولهم . نعم ، هو زيدي ولكنه منــذ عشر سنين « في خدمة هذا الامام » اي الادريسي . بعد ان اجاب سؤالي امال وجهه وسكت . أعجبني من الرجل محاسن ثلاث فيــه ظاهرة — حسن طلعته ، وحسن منطقه ، وحسن ادبه . وهو سيد زيدي . بل هو سيد مــن الاماجد ، شريف حتى اطراف انامله كما يقول الانكليز . وفيه برهان جلي على ان في التعميم ضلالاً . اجل ، ان في السادة كما في طبقات الناس كلها ثلاثة رجال ، الشريف طبعاً ، والشريف وراثة ، والذي لا شرف له .

وصلنا الى ميدي التي هي على مسيرة ساعتين في السيارة من جيزان قبل ان يشتد حر الشمس ، فاقمنا فيها يومــاً نستطلع احوالها ونستكشف اسرارها . امــا الاسرار فهي والحريم ـفي بيوت القش الهرمية ، واما الاحوال فاول ما يظهر منها اناس اكثرهم من السود والمولدين يزدحمون في اسواق تباريهم فيها الروائح والاقذار .

ولكن للاشغال ، للصناعة والتجارة ، اثراً باهراً فيها لا تجد مثله حتى ـفي الحديدة . ذلك لان ميدي اليوم هي كجيزان في اثناء الحرب العظمى ، وقــد كانت المدينة الوحيدة على شاطيء البحر الاحمر الغربي المفتوحة للبواخر والتجارة فتسير القوافل منها الى العقبة ، عقبة اليمن ، فجبال عسير ، وفي السهول شمالاً الى جده . اما تجارة ميدي فاكثرها بالسلاح و بالرقيق و بالتهريب . اذا احتــاج امام صنعاء مثلاً الى الذخيرة والبنادق يشتريها في ميدي او يطلبها لترسل عن طريق ميدي . واذا اراد احد تجار الحجاز ان يهرب بضاعته فلا يدفع عليها رسوم الجمرك يستجلبها الى ميدي ، ومنها براً الى جده . واذا اراد احد السادة شراء جارية حسناء يجيء الى ميدي فلا تضل خطاه ومناه . وانك لتجد فيها اللؤلؤ ودهــن السمسم الذي يعصرونه بين حجارة تديرها الجمال ، والبنيّات السافرات اللواتي ينفرن من آلة التصوير نفور الغزلان . ولا غرو وشهرة ميدي هي في المحرم الممنوع ، اي في الرقيق والسلاح ، وسهام الملاح .

ان الدكتور فضل الدين في صفته الرسمية والخصوصية هو رقيب المتاجرين

بالرقيق وعدوهم الاشد . اخبره الحاج محمد المغربي بان سنبوكاً من الجواري يصل قريباً الى ميدي فباشر عند وصوله البحث والاستقراء . جاء احد « اصدقائه » من تجار الرقيق مسلماً . فسأله كيف السوق ؟ فقال : واقفة يا حكيم .

— يلزمنا جارية للاستاذ .

— غرضك يا حكيم على الرأس والعين . ولكن لا يوجد اليوم . لا والله ولا واحدة .

— ولا عند اصحابك ؟

— لا والله السوق واقفة . لم يدخل ميدي سنبوك واحد منذ شهرين .

— غرض الاستاذ عزيز لدينا . فتش ولو على دنقلية . والثمن يرضيك .

— سنبذل الجهد . غرضكم يا حكيم وغرض الاستاذ على الرأس والعين .

راح ولم يرجع . وجاء اخر فكانت اجوبته تومىء الى ريب في نفسه بحسن نية الوكيل . فانكر بتاتاً .

— لا جواري في ميدي ، ولا احد يتاجر بالرقيق اليوم . لا والنبي ولا احد يشتري .

— وها من يشتري ويدفع ما تشاء . هات لنا ولو سودانية .

— توكل على الله غرض الحكيم نشتريه بعيوننا .

وراح كذلك ولم يرجع . ثم جاء رجل طويل القامة ، طويل الشارب ، اجش الصوت ، جاحظ العين ، فسلم سلام الاحباب وتربع على الديوان .

— سترى قريباً ما يسرك يا حكيم . والله ما نبغي الا خدمتكم وخدمة مولانا السيد . لا يوجد جارية واحدة اليوم في ميدي . نظفنا البلد . والتجار كلهم يلعنوننا . لا يهم والله اذا كنتم راضين . اول سنبوك يدخل ميدي نحن ورجالنا نحجزه باسم مولانا ونعلمكم بذلك .

وقد علمت بعدئذ ان الرجل من اكبر تجار الرقيق في تهامة . له قصر كبير بين ميدي واللحيّة يستخدمه لتهريب الجواري والسلاح . والرجل عالم بقصد الحكيم ويظن انه يخادعه . على انه ينجح احياناً في ما يحتال به . فاذا حجز

سنبوكاً مرة في السنة وسلم من فيه الى الحكومة يشتريهن بعدئذ بواسطة احد رجاله و يأخذهن الى القصر ٠

سأله فضل الدين عن السنبوك المنتظر وصوله فقال : بعد شهر في الاقل ٠ صاحبه سافر البارح الى جيبوتي [1] عيننا عليه ، كن مطمئن البال ٠

وقد يكون « صاحبه » احد رجاله ٠ عرفنا بعدئذ انه كان صادقاً في بعض ما قال ٠ ولكن الرجل لم يسافر الى جيبوتي ٠ ان في هذا الخبر بداءة حادثة يجيء ذكرها في الفصل الثاني ٠

نزلنا الساعة الثانية بعد نصف الليل الى الساحة لنركب السيارة فلقينا هناك رفيقنا السابق السيد الحضرمي وهو ينتظرنا ٠

وضع الخادم ابكر امتعة سيده في السيارة عند ارجلنا وأحكم بيننا حقيبة جاءت شبه مسند استندنا اليه ٠ ثم اشار فضل الدين الى السيد ان يجلس جنب السائق ٠ فابى وقال : ارفعوا هذه الحقيبة فاجلس معكم ٠

فضل الدين : يد الاستاذ تؤلمه وهو يحتاج الى شيء يسندها اليه ٠ تفضل اجلس قدامنا ٠

السيد : مثلي لا يجلس جنب السائق ٠

فضل الدين يتلو الفاتحة ، والسيد يحوقل ، ثم : اجلس او نمشي ٠ فهز السيد رأسه ، فامر فضل الدين السائق بالسير ، فرفع السيد امتعته الى السيارة وصعد الى جنب السائق وهو يتلو الفاتحة ٠ فقلت انا مع الاثنين : اهدنا السراط المستقيم ٠

والظاهر انه لم يكن فينا احد ممن انعم الله عليهم ٠ او ان السيد هو سيدُ برج النحوس فجذبنا كلنا اليه في تلك الساعة وحجب عنا سواه ٠ بل اعمانا فبتنا لا نعرف في السماء نجماً نهتدي به ٠ ضللنا الطريق ، وبقينا ساعة ندور في سهل كله درب مثل بلاد حرب ، ولا اثر فيه يرى لدواليب هذه السيارة المباركة التي لم تزل طفلة في البلاد ٠ بعدنا في الدوران ثم عدنا فدنونا من

---

(١) مدينة على ساحل بلاد الحبشة جنوباً وهي مستعمرة افرنسية ٠

ميدي ، فمن الله علينا برجل هدانا السراط المستقيم · ثم ضللنا ثانياً وثالثاً قبل ان نصل الى حبْل ، وهي القرية التي فيها قصر التاجر بالرقيق ، وعدنا اتفاقاً او وحياً الى اثر الدواليب المتقطع الذي كان يبدو ويختفي في نور القمر الضئيل ·

وصلنا الى اللحيّة عند شروق الشمس ، فالفيناها كالحديدة حافلة بآثار القنابل الايطالية والانكليزية ، لانها ضربت مرات من البحر في الحرب الايطالية التركية وفي الحرب العظمى · الا انها لا تزال على شيء من العمران في ابنيتها الكبيرة ، وفي اسواقها التي لا تشبه اسواق ميدي بالروائح والاقذار ، ولا بالناس وحركة الاشغال · هي قريبة من البحر ولا تزال الكياسة التركية بادية في بعض ارجائها ولا سيا في دائرة الحكومة ، حيث استقبلنا بعض الافاضل من عسير ومن الحجاز كانوا سابقاً في خدمة الدولة ، منهم رجل له ابن في الرويس كان حاضراً ليلة الوليمة والرقص التي احياها جلالة الملك حسين اكراماً لي فكتب الى ابيه يصفها · ومما قال : وكنا ساعة الفجر لا نزال نرقص حول النار · هذا اجمل ما سمعت في وصف تلك الليلة التي وصلت اخبارها الى اليمن ·

اما سكان اللحية ، وفيهم الصومالي والسوداني والمولّد ، فلا يتجاوز عددهم اليوم الخمسة الاف وهو خمس سكانها قبل الحرب · وفيها ثكنة مهجورة وقلعة متهدمة ، واخربة كما قلت كثيرة · فقد كانت في اخر الحرب العظمى هدف الرصاص والنار من البحر ومن البر ، لان عساكر الادريسي بقيادة ضابط انكليزي كانوا مخندقين خارج المدينة ، وكانت ابو حاَق على مسيرة ساعة منها جنوباً ، في يدهم · فتجيئهم الذخيرة والمؤونة والماء كذلك من المراكب الحربية · وما عتم ان تغلب الاسطول الانكليزي فخرج الترك من المدينة ودخلت عساكر الادريسي اليها · وبعد قليل وصل الى تلك البلاد خبر الهدنة فأرخه الانكليز هكذا : ١١ — ١١ — ١١ ، اي ان الخبر وصل الى اللحية في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر من

سنة ١٩١٨ كان السيد مصطفى يومئذٍ نائباً عن ابن عمه الامام والدكتور فضل الدين طبيباً في الجيش الادريسي • فنزل بعض الضباط الانكليز الى البر يعيدون معها للخبر السعيد • احتفلوا بالنصر وبانتهاء الحرب في بلاد لا تنتهي وا أسفاه فيها الحروب •

استأنفنا السير صباح ذاك اليوم فمررنا ونحن قريبون من الشاطيء بالتُمْنيّة وهي قرية صيادين ، وكذلك بالخوْبَة التي لم يكن فيها ساعتئذٍ غير الاولاد • فخرجوا جمعا يلاقوننا ويركضون ليسابقوا السيارة • وظل بعضهم وهم يثبون كالغزلان سائرين معنا بضع دقائق ، فتقهقروا الا واحداً ادهشنا في ثباته وعدوه • ثم سمعناه يقول للسائق : دَاَهْ دَاَهْ ، اي على مهل • كأنه اراد ان يرافقنا بل يسابقنا الى الحديدة •

سمعتْ السموات والارض طلبة الولد ، فوقفنا فجأة ، وقفنا تماماً • غرقت دواليب السيارة في الرمل ، فخرجنا كلنا الا السيد الذي ظل جالساً ، وجاء الولد يساعدنا فدفعناها الى الامام • اخرجناها مع من فيها من الرمل وعدنا الى مجالسنا وفضل الدين يقول : والحمد لله يا سيد • فاجاب بلا خجل ولا اعتذار : والحمد لله •

دع السيد يادكتور واستقبل السراب • هوذا السراب ، وقد تراءى لنا بعيداً فظنناه لاول وهلة احدى تلك البحيرات المالحة التي تتسرب اليها مياه البحر ، او لساناً من البر امتد اليه • وكانت اكواخ القرية تنعكس في السراب فيشبه ظلها ظل الاشجار — ظلال في المياه ، ولا مياه ولا ظلال • اما لون السراب فكان اشبه بلون السماء منه بلون البحر • لذلك كنا نرى قرية ابن عباس كانها واحة في وسط البحيرة او بستان معلق في الفضاء ، تحته وفوقه السماء • ولما دنونا منها بدت اكواخاً لا ريب فيها ، وكانت المياه اي السراب المحيط بها يتقهقر ويصغر كلما تقدمنا حتى غاب رويداً رويداً عن الابصار •

بعد ان اجتزنا ابن عباس غرقنا ثانية في الرمل ، فخرجنا ندفع ونجر ، والسيد في مكانه لا يتزحزح • فرجوناه ان يتفضل فينزل في الاقل فتخف

علينا المصيبة ، ففعل متردداً · ومـا كادت رجله الشريفة تطأ الارض حتى تحركت الدواليب وجرت السيارة باسم الله ، فركض السيد وراءها وهو يظن انها ستستمر جارية ·

وصلنا الى الصَّليف المشهورة بملحها · وقد كانت قبل الحرب عامرة بشركة انكليزية منحتها الدولة امتيازاً لاستخراج الملح من ارضهـا · انها لقرية جميلة قائمة على طرف هلال من البر في البحر ، والهلال ذيل ضلع اسي جبل يمتد شرقاً الى الزيديَّة في سفح جبال اليمن · خطر لي ونحن نجتاز هـذا الجبل الضيق الطويل ، هـذا الضلع في الارض ، خاطر قد يهم الانكليز والامامين اذا كانوا حقًا يبغون الصلح · ها هنا الحدود الطبيعية في تهامـة بين اليمن وعسير ، بين امام صنعاء وامام جيزان · فتكون الزيديَّة ومـا دونها جنوبًا للزيود ، وتكون الصليف وما دونها شمالاً للادارسة · والجبـل فاصل بين الاثنين ·

تغيرت التربة دون ذاك الجبل جنوبًا فقلَّت فيها السبخة وكثرت الرمال · وقلت كذلك المياه المالحة وبدت هنا وهناك ، في النبات والاشجار ، دلائل الماء القراح · فهناك السَّلم والاثْب والعشر والنخيل · وهناك دلائل الاجتهاد في بقعة من القطن شاهدنا غيرها في الطريق بين دير البحري وعجلانه · تبارك المـاء العذب ولكن الرمال ···· كنا قد علقنا ثلاث مرات اخرى فيها وما كان السيد يشرف الارض برجله الا بعد ان ندعوه رسميًا ونرجوه ·

انتصف النهار واشتد القيظ الى درجة يكاد لا يحتملها حتى ابناء البلاد ، فكنا ونحن نساعد السيارة على عدوّها الرمل نحس بالنـار تخترق نعالنا فتحرق ارجلنا · وكان السيد الحضرمي يزيد بالطين بلة في سلوك يغيظ حتى الاولياء · فضل الدين ، ويده على السيارة ورجلاه مثـل دواليبها في الرمل المحرق : يا سيد يا ابن النبي تعال ساعدنا والا تبقى هنا · فنزل هـذه المرة السيد ولبس نعله وجاء على مهل يعيننا فوضع يده على السيارة وهو يقرأ الفاتحة كأنه يريد تسييرها باللمس والصلاة · فازدادت السيارة تمرداً ، وفضل الدين غيظًا ، فقال :

سيادتك مثل السراب ، بل السراب احسن لانه يسر العين .

كنا ساعتئذٍ في اشد حالنا أُصيب السائق بدوار فوقع مُغمي عليه ، وكدت انا اقع كذلك من شدة القيظ والعياء ، وفضل الدين وحده يعالج السيارة و يستعيذ بالله من برج النحوس . فارسلنا السيد الصالح ابكر الى تربه اقرب قرية منا يستنجد رجالها ، فعاد بعد ساعة ومعه بعض الاقوياء من العرب والسود يرأسهم قزم جبار سلم علينا فاضحكنا ، وحرك السيارة فادهشنا وملأ قلوبنا ابتهاجاً .

— السلام عليكم وعلى بنت الجن . هل تبغون تكسيرها او تسييرها . اذا تبتم الى الله نكسرها وننزلكم عندنا وتركبون غداً الهجين مثل المؤمنين .

خلصونا مما كنا فيه ، بارك الله فيهم ، واخذ الصغير البخشيش فتقاسمه ورجاله وودعنا قائلاً : احمدوا الله وتوبوا اليه . ولا تقطعوا الحمد ما دمتم في بنت الجن هائمين .

ما كدنا ننتهي من الحمدلات حتى بدأنا بالحوقلة . وكان السائق لا يزال متأثراً مما اصابه فغاصت السيارة للمرة العاشرة وعلقت الدواليب و — قم يا سيد !

فقال السيد المحترم : لا اقوم ولا انزل حتى نصل الى الحديدة . فقلت ، وكانت شعلة الغيظ قد اضطرمت فيّ ايضاً : ستنزل هنا وتبقى هنا . ان من يراك يظنك قوياً نشيطاً ولكن لا قوة فيك لا جسدية ولا روحية ، يا لضيعة النسب .

لم يجب الرجل بكلمة . وظل ساكتاً حتى وصلنا الى الحديدة فودعنا هناك واعتذر عما بدا منه .

وبعد يومين جاء الخادم يقول : رأيت السيد الحضرمي في السوق والتجار الحضارمة يمشون وراءه بعيدين عنه ، وهو يمشي و يهز كتفيه كأنه حاكم البلد .

ثم علمت انه من كبار سادات صَيوون ومقامه هناك شبيه بمقام اسقف

عندنا . فمثلت لنفسي اسقفاً رفيقنا في السيارة نجلسه جنب السائق ، ونستعينه على جرها من الرمل ، ونقول له فوق ذلك : انت مثل السراب . بل السراب احسن منك لانه يسر النظر . فاسفت لما بدا ، ووددته رفيقاً مرة اخرى لا كفر عن ذنب كان فيه ، سامحهٔ وسامحنا الله شريكاً كريماً . [1]

---

(١) جاءتني جريدة عربية تطبع في جاوه وفيها مقال طويل كتبه احد الحضارمة هناك يدافع فيه عن هذا السيد الحضرمي ، كبير قومه ، وفخر السادة العلماء ، ويطعن علي طعناً عجيباً ، كسف الغيظ فيه كل اقمار العلم والادب في صيوون . ولكن الكاتب لم يتصد لنفي شيء مما جاء في هذا الفصل والفصل السابق من اخبار السيد المحترم .

الفصل الثالث عشر

تجارة الرقيق

المراقبة في البحر الاحمر — الحكومة الانكليزية في عدن — الحكومة الافرنسية في جيبوتي — سلطان تاجورا — بلاد الحبشة — مصدر التجارة — رئيسها الاكبر — حديث مع الوكيل في عدن — الشريعة تقيد الوجدان — في الحجاز يحللون النخاسة — الحكومة الحجازية تقاومها ظاهراً — حادثة الحديدة — الوكيل يحاول توقيف السنبوك وتخليص الارقاء — الحكومة تأذن بنزولهم الى المدينة — كتاب الى عامل الحديدة — الارقاء يساقون ليلاً الى ميدي — آيات قرآنية واحاديث نبوية تأمر بالاعتاق — التبعة على السادة والاشراف ٠

ايما رجل كانت له جارية فأدبها
واعتقها وتزوجها فله اجران ٠

حديث شريف

كنت انكر وجود النخاسة في العالم اليوم ، فجئت هذه البلاد ورأيتها بعيني ٠ كنت اظن ان التجارة بالرقيق محرمة وممنوعة شرعاً في هذا الزمان فخاب في البلاد العربية ظني ٠ كنت اؤمل ، على فرض وجود الرقيق والنخاسة ، ان تكون الحكومة ناهضة للامر متعقبة المجرمين ، ساعية في محق هذه التجارة المستنكرة ، الاثيمة ، فوجدتها في الحجاز وفي عسير نائمة وا أسفاه او متناومة ، او عاجزة ٠ بل وجدت الحكومة احياناً حليفة الاشقياء ٠

اما الحكومة الانكليزية بعدن فلها بعض الفضل في المراقبة في البحر الاحمر ، وفي ما تحجز بواخرها الحربية احياناً من السنابيك حاملة الرقيق ٠ ولكنها لا تكمل عملها ٠ فهي بعد ان تحجز السنبوك تطلق سراح العبيد والمستعبدين معا ٠ او بالحري تعيد العبيد اذا شاؤوا الى بلادهم وتبعث النانخوذاه والنوتيين الى جيبوتي لتحاكمهم هناك الحكومة الافرنسية ٠

والحكومة الافرنسية الجيبوتية رعاها الله تحمي اكبر تجار الرقيق في بلاد الحبشة اي سلطان تاجورا[1] . اما هذا السلطان الدنقلي المستقل الذي لم انشرف بزيارته فالذي يظهر من امره هو انه ابعد نظراً واكبر دهاء من الذين يحمونه . هو سلطان ، نعم . ولكنه كذلك عامل حاذق ، وتاجر ماهر ، يحب المال كثيراً ، وله في احرازه حرفتان غير « التسلطن » واحدة شريفة وهي السكافة — ليس في تاجورا من يحسن صنع النعال مثله — والاخرى .... تباركت ثمرة بطنك ايتها الحبشية . اذا كسدت النعال عند السلطان فلا تنفد الجواري ولا تكسد سوقهن .

ان لسموه في بلاد الحبشة رجالاً يجيئونه دائماً بمن يبتاعون او يخطفون او يستغوون من البنات والصبيان ، وهو يبيعهم من تجار الحجاز وعسير . الى تاجورا اذن لا الى جيبوتي يجيء تاجر الرقيق ، فيرحب به السلطان الاسكاف ، ويفتح له الكيس ، فيملأه التاجر ذهباً وفضة ويعود بسنبوك الى بلاد العرب ملؤه الجواري والعبيد . قد قيل لي ان الحكومة الجيبوتية الافرنسية تقاسم السلطان الدنقلي ارباحه في هذه التجارة المستنكرة . ومما لا ريب فيه انها تحسن معاملته وتكرمه وتجامله . دعاه مرة الحاكم الافرنسي لينزل بضعة ايام ضيفاً عليه في جيبوتي ، فقبل السلطان الدعوة .

جاء الى جيبوتي يزور الحاكم فاستقبل استقبالاً يليق بمقامه وانزل في قصر فخم فرشه ورياشه من باريس . فحدثت السلطان نفسه ان هؤلاء الافرنسيين تجار مثله ويربحون من بلاده ارباحاً كثيرة . فلماذا لا يقتدي بهم ؟ اغتنم السلطان هذه الفرصة الثمينة فدعا تجار المدينة الى القصر ، وباعهم كل ما فيه من فرش ورياش ، ووضع المال في كيسه وعاد الى قاعدة ملكه .

ان تاجورا اذن مصدر التجارة بالرقيق ، وان سلطانها ، وهو تحت الحماية الافرنسية ، سلطان تلك التجارة . أفتعجب بعد ذلك من فساد المدنية الغربية في الشرق ونفور الشرقيين منها ؟ حدثت وكيل المعتمد في عدن بالامر فقال

(١) تاجورا مقاطعة حبشية مستقلة شرقي جيبوتي شبيهة بالنواحي التسع المحمية حول عدن

ان لا حق لهم من وجهة شرعية بمعاقبة النخاسين لانهم غالباً من بلاد لا سيادة لهم اي للانكليز فيها . فقلت : ومن جهة ادبية ، ومن جهة دينية ، ومن جهة محض انسانية ؟ اذا جردنا المدنية الغربية من الادب والتهذيب والحب الانساني فلا يبقى فيها ما يؤهلها للسيادة يوماً في الشرق . واذا المعتمد مثّل بنخاس من تهامه او من الحجاز او من اليمن فامر بشنقه في ساحة عدن أيظن ان السيد الادريسي او الملك حسين يحتج عليه ؟ واذا احتج ملوك العرب كلهم اتظن ايها القارىء ان العالم المتمدن ينصرهم في هذا الامر على الانكليز مهما كان حقهم الشرعي ؟ اينصرهم العالم والنبي نفسه يأمرهم باعتاق الرقيق ؟ اني انصر كل من يسعى في محق النخاسة وان تجاوز حدوده الشرعية على من يحميها او يتغاضى عنها وان كانت حكومته مقدسة .

ان في الحجاز من يحللون ويحبذون النخاسة ومنهم من يأسف انها غير مستمرة ويلعن المراقبة الانكليزية الا اني سمعت ان الملك حسين يستنكرها وينهي عنها وان حكومته تسعى في مقاومتها واستئصالها . فشرعت ابحث لأثبت الامرين . لا ريب ان جلالة الملك حسين يستنكر العبودية وهو اعلم الناس بما جاء في القرآن وفي الحديث بشأن الرقيق والاعتاق . ولكن حكومته واسفاه هي يوماً نائمة ويوماً متناومة . وقد تأكدت انها تشارك النخاسين في ما تفرضه ضريبة على كل رقيق يدخل جده .

حدث انها حجزت ذات يوم سنبوكاً من سنابيك الاثم والعار بما فيه من جوارٍ وعبيد فآوتهم واحسنت معاملتهم ثم — ماذا ؟ قد اطلعت على نسخة من تقرير الوكيل البريطاني في جده وفيه ما يلي : قيل ان الحكومة باعت الارقاء على حسابها . والحقيقة انها اذنت ببيعهم على حساب اصحابهم ، واكتفت بتحصيل الضريبة المفروضة اي خمسة وعشرين ريالاً على كل رقيق . . . يجيء النخاسون بالعبيد اما بحراً في السنابيك واما براً من ميدي . وقد اطلعت القارىء على شيء من حال النخاسة في تلك البلدة واسمعته كلام بعض النخاسين وهم يخادعون الانكليز والحكومة الادريسية . على ان احد السادة قال لي واثبت قوله

بعض المتوظفين ان الحكومة واقفة للنخاسين بالمرصاد · بالمرصاد ؟ بعد وصولي الى الحديدة حدث حادث يدل على احد امرين ، اما ان الحكومة تقف بالمرصاد وتنام ، او انها لا ترصد الا عندما يكون الجو صافياً ، فلا ترى اذ ذاك ما يشغل البال ·

اعود الى يوميتي فانقل منها ما يلي :

الحديدة في ٢ يوليو ١٩٢٢ — ٣ ذي القعدة ١٣٤٠

دخل على الوكيل مأمور المينا يقول : سنبوك جوارٍ رسا في المينا والناخوذاه ورجاله دخلوا البلد · وقد اعلمنا ايضاً انهم سائرون الى ميدي وانهم لم يرسوا في الحديدة الا ليبتاعوا بعض الزاد ·

الوكيل : قل لمدير الشرطة ان يحضر حالاً ·

بعد عشر دقائق حضر المدير ·

الوكيل : هل علمت بسنبوك الجواري الذي في المينا ؟

المدير : نعم ·

الوكيل , وكيف تأذن بدخول الناخوذاه ورجاله الى المدينة ؟

المدير : معهم اذن يا سيدي من الحكومة ·

امر الوكيل مدير الشرطة ان يحضرهم امامه · فاحضرهم بعد نصف ساعة وكان يتقدمهم رجل طويل القامة ، شديد الوطأة ، حاد النظر ، دخل المكان كأنه سيده وتقدم الى الوكيل فصافحه مصافحة الاقران وجلس على الديوان · مَن الرجل ؟ هو من كبار الموظفين في الحكومة الادريسية بميدي الذي اشار اليه تاجر الرقيق هناك ، جاء الحديدة خصوصاً ليلاقي السنبوك المذكور ويرافقه محافظاً الى مقره ·

بعد استنطاق الناخوذاه علمنا انه جاء من تاجورا ، وان معه اربعة وعشرين رقيقاً منهم عشرة صبيان والبقية بنات يتراوح عمرهن بين الثامنة والثالثة عشرة ،وان صاحب « المال » — البضاعة — سبقهم الى ميدي · وما هم الا مأجورون مأمورون · اما اذن الحكومة فها هو المحافظ بنفسه ·

ها هنا انتهت صلاحية الوكيل السياسية ، ولكنه طبيب وله كذلك صلاحية طبية . فسأل الناخوذاه ان يحضر الارقاء ليفحصهم قبل ان يدخلوا المدينة . فوعد ان يجيء بهم بعد الظهر .

تكاد تكون الحديدة اليوم منقطعة عن العالم ، والسبيل الوحيد الى المراسلات البرقية هو بواسطة سنبوك الى جزيرة قمران ، اي ست ساعات في الريح الموالي ، ومنها باللاسلكي الى عدن . صدر الامر باعداد السنبوك للسفر ، وولى الاصيل ودنا الغروب ولم يبر الناخوذاه بوعده على انه جاء في المساء يعتذر ، فلم يتمكن من شدة النوء والريح من انزال العبيد الى البر ولكنه سيحضرهم صباح الغد — « والله بالله » واشار بيده الى السماء .

وكان قد كتب الوكيل الى عامل الحديدة الكتاب التالي :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . قد بلغني ان بالقرب من ميناء الحديدة اليوم سنبوكاً يحمل عدداً من الجواري والعبيد ، قيل خمسة وعشرين ، جاء بعض تجار الرقيق بهم من الشاطيء الافريقي . وهم متوجهون الى ميدي قصد التجارة . وقد سمعت ايضاً ان الحكومة الادريسية اباحت لهم ذلك ، الامر الذي استغربته جداً ، فجئت الفت اليه نظر سيادتكم وأُعيد ما قلته مراراً ان التجارة بالرقيق ، فضلاً عن انها مذمومة في الكتاب الكريم بل منهي عنها ضمناً ، وفضلاً عن ان الدول المتمدنة وفي مقدمتها بريطانية العظمى تمنعها منعاً باتاً ، فهي تشين الاسم الادريسي وتضر بالحكومة الادريسية ادبياً وسياسياً ضرراً جسيماً . واني في طلبي من سيادتكم ان تحلوا المسئلة محل الاعتبار والاهتمام افصح عن عقيدتي وعواطفي كمسلم وعن رغبة الحكومة البريطانية التي امثلها . اما السنبوك المذكور فاملي ان تتخذ الحكومة الطريقة السريعة الفعالة لحجزه ومعاقبة ناخوذاه و بحريته وتجار الرقيق فيه ، ثم تعتق اولئك البنات والصبيان من الامر . فان في مثل هذا العمل تزيد الحكومة الادريسية اسمها شرفاً

وعدلها عدلاً ، وتبرهن على رغبتها وقوتها في تنفيذ احكامها المبنية على الشرع الكريم . وفقكم الله الى ما فيه خير الجزاء .

محمد فضل الدين

معتمد بريطانية السيامي

جاء الجواب ، فلم يكن مرضياً ، على ما فيه من عذر ووعد وتأكيد ، امـا الجواب الحقيقي فاليكه من يوميتي :

في ٣ يوليو — ٤ ذي القعدة

جاء مأمور المينا هـذا الصباح وفي وجهه خبر مفجع . ثم جاء مدير الشرطة وفي وجهه ما يثبت الخبر . نعم انزلوا الجواري والعبيد ليلاً خارج المدينة وجاء ... « احد متوظفي الحكومة في الحديدة » فاختار من الجواري واحدة واشتراها . ثم ساقوا الباقين وهم حفاة عراة براً الى ميدي .

سألت وسذاجة الجاهل في سؤالي : وهل اعدوا لهم الركائب للسفر ؟

فاجاب المدير : اعدوا لهم يا سيدي السياط .

امش — امشوا . وهم يمشون حفاة عراة من الحديدة الى ميدي ، مئتي ميل في شمس تهامة وقيظها . وانك اذا وقفت دقيقة في تلك الطريق في نصف النهار تخترق النار نعلك وتحرق رجليك .

رحماكم ايها السادة انتم اعيان الحجاز ووجوه اليمن ، انتم حياة التجارة بالرقيق ، انتم امل النخاس الاكبر ومورد رزقه ، انتم الطالبون ، انتم الراغبون في الاستعباد . فاذا كنتم حقاً مسلمين فعودوا الى كتابكم واقرأوا عفا الله عنكم ما جاء في سورة النساء وسورة المائدة من النصح بالاعتاق الجزءي المتدرج ، ثم في سورة البلد وسورة التوبة وفيهما الامر بالاعتاق التام .

وهل من يأمر بالاعتاق التام يروم دوام العبودية في العالم ؟

ايما رجل كانت له جارية فادبها فاحسن تأديبها
واعتقها وتزوجها فله اجران — حديث شريف ٠
ولا يقل احدكم عبدي أمتي وليقل فتاي
وفتاتي — حديث شريف ٠

فهل من يدعو الى المساواة يحلل الاستعباد والنخاسة ؟ انه لمن العار ايها السادة ان تنادوا بالحرية والاستقلال ، وتدّعوا البر والاحسان ، وتفاخروا بالعلم وحب الانسان ، ثم لطمع بالخدمة مجاناً او لغرض في النفس تستعبدون في هذا الزمان من هم مثلكم من طينة واحدة ، ولا عذر لكم في ذلك ، ولا ما يحلله او يجيزه لا ادباً ولا شرعاً ولا ديناً ٠ واذا اتخذتم الاية — وما ملكت أيديكم — حجة وسلاحاً فانكم تحتجون وتتسلحون بالحرف على المعنى ، وبالعرض على الجوهر ، وبالحال ، وقد زال ، على الحقيقة ٠ تتسلحون بظاهر الامور وكل ما فيها من جوهر وقصد شريف هو ضدكم ، يشهد على جهل فيكم ، او على علم افسده حب الذات ٠

اجل ان اكثر الذين يقتنون العبيد اليوم لمن الاشراف والسادة والاعيان ، فلا اظنهم يجهلون ان النبي اراد محق العبودية تماماً بالطرق الممكنة في زمانه ٠ فنهى عن ظلم العبيد ، وامر بتعليمهم ، وبالاحسان اليهم ٠ بل امر باعتاقهم. وجعل الاجر في الاعتاق اجرين بل اضعاف الاجرين ٠

ايما رجل اعتق امرءاً استنقذه الله بكل عضو منه
عضواً منه من النار — حديث شريف ٠

افلا ذكرتم يا اسيادي ، وانتم تفاخرون بانكم من السليلة النبوية المباركة ، ما جاء في الكتاب ؟ افلا أنصتم الى الحديث الشريف ؟ افلا اقتديتم ولو في هذه بالنبي ؟ اليكم صحيح البخاري ، اقرأوا فيه الفصل في الاعتاق وفضله ٠

دخلت جارية على عائشة فقالت اشتريني واعتقيني ٠ فقالت عائشة : نعم ٠ فقالت الجارية : ولكن لا يبيعوني حتى يشترطوا ولاءي ٠ فرفضت عائشة ٠ ولما

علم النبي بذلك اغتاظ جداً وجاء الى عائشة يقول : اشتريها واعتقيها ودعيهم يشترطون ما شاؤوا ٠

فهل من يقول هذا القول ويعمل هذا العمل يحلل العبودية والنخاسة ؟ ان من يستعبد الناس لا يستحق الحرية ٠ ان من يتاجر بالرقيق في هذا الزمان لا يستحق لقب انسان ٠ وان من يشتري الرقيق يفادي بشرفه ويفقد كرامة نفسه ٠ اجل ، وان امة لا تستنكر النخاسة ولا تنهض عليها فتمحقها لأذلّ في عين الله ممن لا يعرفون الله ، واحط في نظر العالم المتمدن ممن يعبدون الحجارة ، ويأكلون لحم الانسان ٠

الفصل الرابع عشر

خطوات الى الوحدة

كتاب الى الملك حسين — والامر شورى بينهم — اصلاح ذات البين — حسن نية الادريسي — تمييز الحدود بين الحجاز وعسير واليمن — بريطانية العظمى — المداخلة الاجنبية — الخطوة الاولى الى الوحدة — كتاب الى وزير الخارجية — الاتفاق مقدمة لازمة للوحدة — توحيد النظام العسكري والسياسة الخارجية — التلغرافات اللاسلكية — العهود القومية — صندوق التوفير من مال الزكاة — لماذا لم يوقع الملك حسين على المعاهدة

ودعت الحديدة بعد تلك الحادثة التي دونت في الفصل السابق · بل ودعت تهامة آسفاً لما كان من ختام رحلتي فيها · على انه لو حدثت قبل سفري الى جيزان ، وكانت فاتحة الاشجان ، لما اظنني كنت فزت بما ابغيه من عقد معاهدة بين السيد والملك · وكيف افوز ومثل هذه الحوادث ، بل هذه المآثم التي تقترف تحت عين الحكومة ، تثير السخط والغيظ ، وتضعف فوق ذلك العزم واليقين في من يسعون في سبيل الامة وعمرانها · ولا عمران وربك مع نخاسة ، ولا رقي مع رقيق ·

بيد ان لنا في من يشعرون شعورنا في البلاد العربية ويرون رأينا املاً بمحق تلك التجارة المعيبة واستئصال شأفتها · ان اقرب السبل الى ذلك انما هو العزم في الحكومة ، والوجدان في السادة والاعيان· ثم اتفاق بين الملوك والامراء الحاكمين على المؤازرة في مقاومتها ومحقها · ولكنت سعيت في اضافة بند في هذا الموضوع الى المعاهدة لو كان لي سابق علم به · فعسى ان ما فاتني لا يفوت غيري ممن سيقتفون الاثر ، ويسعون في انجاح العمل ان شاء الله ·

قبل سفري من الحديدة ارسلت المعاهدة الى جلالة الملك حسين مشفوعة بالكتاب التالي :

صاحب الجلالة العظمى ايده الله ٠

حي الله مولاي الملك بالخير والسعادة ٠ اما بعد قد ارسلت كتاباً مع الصديق قسطنطين في الشهر الماضي فعسى ان يكون حاز موضوعه استحسان جلالتكم ٠ والان ، وقد عدت من جيزان ، اسارع الى الكتابة بخصوص المعاهدة التي تباحثنا فيها وتم الاتفاق عليها ٠

ان في سيادة السيد الادريسي قلباً كبيراً ، وله نظر في الامور غالباً ثاقب ، وعنده لجلالتكم من الاخلاص ما لا غبار عليه ٠ من حديثه الذي علق في ذهني : المسئلة بيننا وبين الشريف قريبة سهلة ٠٠٠٠٠٠ [1] وقد اطلعني سيادته على نسختين من معاهدة او تمهيد لمعاهدة كان النظر فيهما سابقاً مع السيد السقاف ٠ فاضفنا بعض ما جاء فيهما الى المعاهدة التي كتبتها وعرضتها على سيادته ٠ ثم اضاف سيادته اليها ، بعد تكرار البحث والمداولة ، المادة الخامسة وما جاء في المادة الرابعة ابتداءً بـ « وكل منا يبحث في تلك الحادثة ويسعى فيها بما امكن من الاصلاح » الى حد « مجرد الاعتداء والبغي » وما جاء في المادة الثالثة بخصوص الحدود ابتداءً بـ « ويلزم على هذه المادة فصل الحدود بين الفريقين » الى اخرها ٠وقد استصوبت رأي سيادته بخصوص اصلاح ذات البين قبل العداء ، وبالنص في مسئلة الحدود على هذا الشكل اي التعهد من جلالتكم بعدم الاعتراض في لواء عسير الى ان يتم بينكم « تمييز حدود معتدلة فاصلة بين الاطراف الثلاثة » وعسى ان يكون الاربعة كذلك ٠ فاني اعتقد ان لحضرة الامام يحيي رغبة بالتسوية ايضاً اللهم اذا جئناه من باب يأمن اليه ٠ وان مفتاح هذا الباب بيد جلالتكم الان ٠ اما ما اضيف الى المادة الثالثة بخصوص الحدود فما هو الا الاساس للعمل ٠

بقي مسألة اخري ٠ كان قد اضاف سيادته بنداً بخصوص بريطانية العظمى وحاجة امراء العرب الى موالاتها وصداقتها ٠ فبحثت وسيادته

(١) راجع الحديث في الفصل العاشر صفحة ٢٩٧

في الموضوع وصرحت برأيي الذي يختلف مبدئياً عن رأيه ، وقد تضمن في المادة الاولى من المعاهدة في قولنا « وتصلح به احوال البلاد من غير مداخلة اجنبية تخل باستقلال البلاد العربية » وقد اقتنع سيادته بقولي ان ينبغي ان يكون الولاء والاعتماد من الامور المعروفة والمتفاهم فيها بيننا ، لا من الامور المسجلة في المعاهدات الرسمية . فتنازل عن تلك المادة . اني مقدم المعاهدة لجلالتكم يصحبها كتاب من سيادة الامام واخر من السيد السنوسي . فعسى ان تنال استحسانكم فتوقعوها قريباً وتعيدوها مع الوفد الى جيزان . لست ارى يامولاي غير هذه الطريقة الى تحقيق امالنا في الوحدة العربية . لان الحقيقة الثابتة التي لا يماري فيها من كان عارفاً باحوال الجزيرة هي ان امراءنا اليوم ، وان كانوا يميلون الى الاتفاق ، لا يزالون متنافرين متشاقين . وقل كذلك متحاربين . فينبغي اذن ان تكون الخطوة الاولى خطوة سلم وولاء بين الاقران والاكفاء ، يتبعها ان شاء الله خطوات فيها ما ننشده من وحدة سياسية قومية عربية . واني لأسعى طاقتي في هذا السبيل . ولكن لا نجاح لعمل لا يشارك فيه ذو الامر ذوي الاراء . فالامر الان لجلالتكم . ولا اشك انكم ستسعون ، وسيكلل سعيكم بالنجاح ، في اصلاح ذات البين بين السيد الادريسي والامام يحيى ، كما انه سيسعى هو في الاصلاح بينكم وبين ابن سعود . وفقنا الله الى عقد محالفة رباعية في الجزيرة قريباً . ايدكم الله في المساعي الوطنية الشريفة .

المخلص لجلالتكم

الحديدة في ٢٤ شوال سنة ١٣٤٠

وكتبت الى صاحب الاقبال وزير الخارجية صديقي الشيخ فؤاد الخطيب ما يلي :

عزيزي الشيخ فؤاد ٠

السلام عليك ، عسى ان تكون بخير ، وان يكون وصلك كتابي السابق الذي ارسلته مع العزيز قسطنطين ٠ وها اناذا اكتب اليك الان بخصوص معاهدة اخرى تباحثنا والسيد الادريسي فيها وتم الاتفاق عليها٠ وقد ارسلتها الى جلالة الملك حسين مصحوبة بكلمة صريحة يشفع بها علمي واخلاصي ٠ لا بد من الصراحة في الامر ٠ ان الاتفاق بين امراء العرب مقدمة لازمة للوحدة السياسية ٠ والاتفاق لا يكون الا اذا تنازل كل امير عن بعض اشيائه ٠ انتم في الحجاز تبغون الوحدة العربية ونحن نبغيها ٠ والامراء الذين حدثتهم يبغونها ٠ولكنهم حراسٌ على استقلالهم ، وهم يخشون نفوذاً يظنونه مسرى اليكم وتمكن منكم ٠ قد ازلت هذا الظن من صدورهم ودافعت في مواقف عديدة عن جلالة الملك ٠ اظن ان قسطنطين اخبركم بذلك ، وبما اصلحته من سوء الظن في القنصلية الاميركية بعدن ٠

بقي ان اقول هذه الكلمة ٠ لا تطالبوا الان بتوحيد العلَم ، وتوحيد النظام العسكري ، وتوحيد السياسة الخارجية ٠ لا ٠ ولا بالاعتراف بان جلالة مولانا الحسين هو ملك العرب ، لان ذلك مبتسر ٠ وقد يفسد ما هو الزم في البداية ٠ ان الوحدات هذه درجات في سلم الرقي القومي السياسي ، ولا بد ان تصلوا اليها وتصعدوها ٠ الحكيم يا شيخ فؤاد لا يكره صاحبه ٠ عليك اذن وعلى الامير زيد ان تمعنا النظر في المسئلة وتبذلا الجهد في اقناع جلالة الملك حسين اذا كان لم يقتنع بما كتبته اليه ٠

قد يكون عقد هاتين المعاهدتين امراً بسيطاً ، ولكنه مهم اذا اعتبرناه مقدمة لخطير الاعمال ٠ ومن الزم الاشياء التي ينبغي ان تصحب هذه المعاهدات التلغرافات اللاسلكية ٠ فقد تباحثت والسيد الادريسي خصوصاً بذلك ، وهم مستعدون ان يقوموا بنفقات آلة تُركب في جيزان او في صبيا ٠ اني افضل صبيا ٠ وستبحثون ملياً في الامر عندما تؤمون

جيزان ، والمعاهدة بيدكم وقد وقعها جلالة الملك حسين . اما انكلتره فهي على ما علمت راضية بمثل هذه المعاهدات ، راغبة فيها . واما ما قد يتبعها من عهود قومية فذلك من شأن امراء العرب لا من شأنها . فمتى تمت وسائل المواصلة بوجود ممثلين للامامين في مكة ووجود التلغراف اللاسلكي بينكم كلكم تتوفقون ان شاء الله الى تقرير امور اخرى مهمة في التوحيد السياسي العربي .

وعندي ان من اهم المواد في هذه المعاهدات المادة التي تختص بادخار قيمات معلومة من المال كل سنة لتصرف في المستقبل في الانشاآت العمومية المشتركة اسبابها ومنافعها . في هذه المادة اذا عمل بها بداءة الاستقلال الاقتصادي الذي بدونه لا يتم استقلال سياسي في هذا الزمان . واني رسول هذه الفكرة ابثها في ديوان كل امير وكل سلطان عربي . صندوق توفير من مال الزكاة ، هوذا سر استقلال العرب ومفتاحه اذا كانوا يفقهون . صندوق مشترك يصرف منه بعد عشر سنين مثلا في مد سكة حديد بين الحجاز وعسير واليمن . واذا احتاج حكام البلاد الى اخصائيين من الاجانب يستأجرونهم ويدفعون اجورهم من اموال عربية ، ويشترون ما يحتاجون من مواد وادوات باموال عربية . فلو كانت المعاهدة بين الملك والامام وبين السيد والملك محصورة في هذه المادة ومادة الدفاع والمناصرة فقط لكفى بها الان خيراً ونفعاً للجميع ، وقعوها اذن . وفقكم الله واطال بقاكم .

صديقكم المخلص

......

ها هنا تنتهي مهمتي السياسية في اليمن وعسير .

رغبت في خدمة الامام بتقريب قضيته من فهم الانكليز ومصلحتهم ، وبتقريب الانكليز من عقلية الامام ، وبتمهيد السبيل الى الصلح بينه وبين الادريسي ، فاقترحت ان يعقد مؤتمر يتبادل هو وخصومه فيه الاراء ويتعارفون

ويتفقون ، فابى حضرته لاسباب ادركها ولا سبيل الى تداركها ان الامام طامع بالاستيلاء على اليمن كله ، وهو طامع كذلك ، على ما اظن ، باللقب الذي لا يعترف به للملك حسين ·

ورغبت في خدمة الملك حسين بعقد معاهدتين تربطان الحجاز واليمن وعسير في البداية ولو بخيط من حرير ، لاعتقادي ان جلالته يمثل فكرة عربية قومية شريفة · فلم يوقع واحدة منهما ولا اظنه استحسنهما لاسباب ادركها ولا سبيل الى تداركها · لم يعترف الامام يحيى ولا السيد الادريسي بان جلالة الملك حسين هو ملك العرب[1] · ولكنهما مدا اليه يد الولاء والمؤازرة فرفضها · من هو حجر العثرة اذن في سبيل النهضة العربية ؟ ·

انتهى القسم الثالث

(١) كان مبدأ هذا الهاشمي في الحياة هو مبدأ ذاك البطل في رواية ابسن : كل شيء او لا شيء · وقد كانت نهايته بعد ثلاث سنين مثل نهاية البطل في الرواية : لا شيء — الا الغم له ولا آله ولكل مريديه · اني متيقن — واظن ان كل من له شيء من العلم الحوادث العربية بعد الحرب يشاركني هذا اليقين — انه لو وقع الحسين هاتين المعاهدتين لما نكب تلك النكبة في خريف سنة ١٩٢٤ · راجع تاريخ نجد الحديث ، صفحات ٣٠٤-٣١٧



سمو السلطان عبد الكريم فضل
سلطان لحج

القسم الرابع

لحج

والنواحي التسع المحمية

لحج

والنواحي التسع المحمية

حدودها : جنوباً ساحل البحر العربي من باب المندب الى بلحاف بالقرب من التقاء الخطين الثامن والاربعين من الطول الشرقي والرابع عشر من العرض الشمالي • شرقاً حضرموت • غرباً البحر الاحمر • شمالاً البلاد التي يحكمها الامام يحيى • وقد قلقلت جيوشه بعض الحدود القديمة بينه وبين اصحاب الحماية •

مساحتها : نحو الفين وخمسمئة ميل مربع •

سكانها : نحو ثلاثمئة الف نفس •

اهم قبائلها : العَبادِلة واليَوافِع وآل فضل والعوالق والحواشب والصُبَّيحة •

اهم بلدانها : شقره والحوطه وبلحاف على البحر العربي • ولحج وأبْين وأنصاب ومُسيمير وحُبان •

مذاهبها : السنة ، شوافع وحنفيون • الشيعة ، جعفريون واسماعيليون وزيديون • وفي عدن اليهود والهندوس والنصارى • وفي القبائل داخل البلاد من لا يزالون على العادات الجاهلية لا يعرفون الاسلام •

الفصل الاول

الثالوث المادي في عدن

المبدأ المرن في السياسة الانكليزية — درجات المرونة في البلاد العربية — ربقة تسر وربقة تخنق وربقة لا تضر — المعاهدات والمشاهرات والتدخلات — « انت تبغي الاستقلال ، انت مستقل ، ونحن ندفع لك المال لتحافظ على استقلالك » — النياشين ومدافع الترحيب — بعثة افرنسية تزور عدن سنة ١٧٠٩ — عدن كما شاهدها المسيو لاروك — عدن اليوم — شعوب واديان — التواهي اي القسم الاوربي — الثالوث المادي — البرق والنور والبخار — الاستعمار والاستئثار — الاوروبيون اعداء بعضهم لبعض — الدفاع عن عدن — المبدأ التجاري في الدفاع — المال ارخص من الرجال — من هو الكاسب من يدفع المشاهرات ام من يقبضها ؟

قال المستر لويد جورج مرة ان المبدأ المرن في السياسة هو اصلح المبادي لحل المشاكل الخارجية والاستعمارية . لا تكن قاسياً فتكسر . ولكننا نظلم الانكليز اذا ظننا ان هذا المبدأ هو دائماً مبدأهم في البلدان التي يحكمونها خارج الجزائر البريطانية . اما في البلاد العربية فلا ريب ان المرونة هي غالباً روح سياستهم قولاً وعملاً . وقد يتخللها في الازمات اطلاق مدفع او في الاقل مناورة بحرية ، فتعود السياسة بعدئذ الى مجاريها الملتوية المائعة .

ان من يمعن النظر في بلاد العرب واحوالها الجغرافية والسياسية والدينية ، وفي تشتت امورها واختلاف نزعاتها ، يرى بعض الحكمة في خطة سياسية تمتد الى كل مكان دون ان تنقطع او يعتريها شيء من الضعف . مدها ، مطها ، من عدن فتصل الى صنعاء رقيقة لطيفة . مطها من الكويت فتصل الى ما وراء الدهناء ، ومن شرقي الاردن فتصل الى الجوف ، فتداعب اطرافها الوهابية وتتعلق باناامل ابن سعود . مطها من الحديدة فتنعقد في صبيا ، ومن جده فتلتوي وتدق ولا تنقطع حتى في ظلال الكعبة . ولكل مطة خطة ،

يد تمط اسلوب خاص بصاحبها في اللين ربقات لكل الرؤوس ، والسوائل تدخل في كل الكؤوس .

ان اجلى ما هنالك من مظاهر المبدأ المرن هو ما يصنع في دار الاعتماد بعدن من الربقات السياسية . هذه ربقة تسر ، وهذه ربقة تخنق ، وتلك تؤلم ولا تضر ، وبينها كلها درجات في الضغط والارخاء ، في الربط والحل ، توجبها احوال اليمن الاسفل والعشائر القاطنة تلك الانحاء . كيف لا وفي سلاطينها من لا يلبس غير الفوطة ، يستر بها عورته ، ومن هو في لبسه وفرش بيته واخلاقه وتهذيبه من ارقى امراء العرب . اجل ، ان بين الاثنين درجات في الوحشية والتمدن لا يمكن الحاكم الذي لا يهمه من الامر غير الحكم والمصلحة ان يشملها كلها بنفوذه ، ويقيدها بحكمه ، الا اذا عمل بقاعدة لويد جورج السياسية .

ولهذه القاعدة مظاهر شتى ، اولها المعاهدات الولائية ، ثم المشاهرات المالية ، ومدافع الترحيب والتوديع لمن يجيء الى عدن من السلاطين او يسافر منها ، ثم الالقاب والنياشين ، ثم التحزب لبيت طامع بالملك على بيت مالك او عكس ذلك ، فالتدخل في السياسة المحلية عند انتخاب او تعيين احد الحكام . واخيراً ، بل يصح ان يكون الاخير اولاً ، المحافظة على استقلال كل سلطان وامير ، عملاً برغبتهم و بمصلحة بريطانية العظمى . نعم ، ما من امير وسلطان او شيخ قبيلة الا يبغي الاستقلال التام ، ولا بأس اذا قيد بمشاهرات و بهدية كل عام . هذه لعمري بلية العرب الكبرى التي توافق مصلحة الانكليز الكبرى . وكأني بهم يقولون للامير العربي : انت تبغي الاستقلال . انت مستقل . نحن نعترف بذلك وندفع لك المال لتحافظ على استقلالك . نحن لا نبغي الا ما تبغيه وهذا عهد الولاء والحماية . ولكن في هذا العهد الربقة التي تخنق ، فيه البند المشهور : لا يحق للسلطان او الامير ان يتعاهد وأحد زملائه او ان يبيع او يأجر او يهب شيئاً من بلاده الى احد امراء العرب او الاجانب او يمنح امتياز دون ان يستشير و يستأذن الحاكم في عدن .

هي سياسة التفريق ولا شك [1] وسياسة الاستيلاء والاستئثار كذلك . فالانكليز وهم اسياد عدن ونواحيها لا يبغون غيرهم من الاوربيين هناك ، وامراء العرب يعاهدونهم على ذلك لقاء مشاهرات يقبضونها ذهباً وفضة وحماية عند اللزوم بما لدى السلطـة من جند وسلاح . كلمة الانكليزي وعهده : سنساعدك يا حضرة الامير لتحفظ استقلالك فندفع عنك كل صائل من الداخل ومن الخارج .

اما الحماية فامرها عجيب وفيها غالباً تنعكس الآية ، فيحمي العربُ الانكليز لا الانكليز العرب . لذلك هم يستحقون في الاقل المشاهرات . ومنهم «اصدقاؤنا المخلصون المحبون» الذين حازوا من ملك انكلترة وامبراطور الهند لقباً [2] او رتبة ونيشاناً فتطلق لهم المدافع ترحيباً وتوديعاً في عدن .

هذه خطة الانكليز في عدن والنواحي التسع المحمية ، وهي تختلف عن خطتهم في عسير مثلاً بعض الاختلاف ولا تلتئم اساساً بخطتهم في العراق . وبين هذين الطرفين في القاعدة المرنة ، بين عدن وبغداد ، مظاهر اخرى في المرونة ستراها في الكويت وفي البحرين .

كانت عدن منذ خمس وثمانين سنة من املاك الدولة العثمانية اسماً وفي حوزة سلطان لحج فعلاً ، وكانت قبل ذلك اي قبل ان تأسست سلطنة لحج في حكم ملك اليمن او امام صنعاء تفاخر المدن بمجدها والاساكل البحرية

---

(١) كانت سياسة حاكم عدن الاول القائد هينس Capt. Haines مبنية على القاعدة : فرّق تسد . لان الحكومة او بالحري ادارة شركة الهند يومئذ لم تشأ ان تمده بما يحتاج من الجنود لحماية عدن فاذا قامت على الانكليز احدى القبائل كان الحاكم يثير قبيلة اخرى عليها . « حرض القبيلة الموالية على القبيلة المعادية فلا تضطر الى جنود بريطانية » . .
« وانه وان كان هدر الدماء مما يؤسف له فمثل هذه السياسة تفيد الانكليز في عدن لانها توسم الثلمة بين القبائل » . هذا ما كتبته ادارة شركة الهند الى الحاكم هينس نقله الكرنل جاكوب في كتابه « ملوك العرب صفحة ٤٥ »

(٢) النياشين الانكليزية التي تمنح الانكليز والاجانب في الشرق الادنى والاوسط تنحصر برتبتين K. C. I. E. اي Knight Companion of the Indian Empire و K. C. S. I. اي Knight Companion of the Star of India.

بتجارتها · فقد جاءها في سنة ١٧٠٩ م بعثة افرنسية تجارية تبغي التجارة بالبن ، يصحبها رجل اسمه لاروك ، كتب كتاباً صغيراً يصف فيه تلك الرحلة [١] · فعرّفنا هذا الاجنبي بعدن العربيـة في ذاك الزمان ، وبحاكمها الكريم الاخلاق الذي ارسل عندما ابصر مراكب الاجانب رجالاً من قبله يستقبلونهم ويرحبون بهم ، وخدامين يحملون اليهم الزاد والحلوى والمرطبات ·

اقام الافرنسيون في عدن بضعة اسابيع شاهدوا فيهـا ما لا يشاهده السائح اليوم · قد كانت في تلك الايام عدن العرب والتوحيد ، بل عدن الشرق الصميم ، الرقيق الجانب ، الكريم الخلق ، العزيز الشأن · والفضل لكاتب تلك البعثة المسيو لاروك في وصف المدينة وصفاً تثبت جله صورة حفرها على النحاس رسام هولندي في ذاك الزمان · رأيت الصورة وقرأت الكتاب ، فقلت : اين ارميا ينثر الاشعار في ندب الديار ؟ اين سورك الذي كان يطوق الجزيرة ياعدن؟ واين قصورك تفوق قصور ابن ذي جَدَن ؟ واين حماماتك الجميلة المرصوفة بانواع الرخام ، المزدانة ببقيـة من عمد الاصنام ؟ واين مساجدك ذات القباب البيضاء والزرقاء ، والمآذن الدقيقة البناء ؟ واين آثار ادبائك وشعرائك ، ومن كان يمشي سامد الرأس تحت لوائك ؟ بل اين تلك اللغـة اليوم من رطانات وطمطمانيات سرت من الشرق ومن الغرب اليهـا ؟ بل اين تلك الروح روح قحطان ، وتلك المكارم مكارم عدنان ، وذاك المظهر الشريف النقي مظهر الوحدة القومية ، تزينه الفصاحة والفروسية ·

قلت ان عدن تلك الايام كانت عدن العرب والتوحيد · ولا اريد بالتوحيد الدين فقط بل اللغة ايضاً والجنس · اما الوحدة الجنسية فكان قد تخللها شيء من خليط الهنود الذين هاجروا الى هذه الزاوية من البلاد العربية قبل ان احتلها الانكليز · كان البنيان [٢] في عدن يوم جاءتها البعثة الافرنسية ، والمسيو لاروك يذكرهم في كتابه ويقول انهم يهود المدينة اي التجار والصيارفة فيها · وكان

---

(١) Voyage dans l'Arabie Heureuse par La Roque.

(٢) بنيا في لغتهم اي صاحب حانوت والبنيان فينيقيو الهند كثيرو الاسفار والاتجار.

العربي اليماني الزيدي يكرمهم ويتخذ له منهم الاخدان ، ويحسن اليهم كل الاحسان ، وهو لا يدري ان ابناءه في المستقبل سيكونون من خدامهم وخدام من جاءوا كذلك من المغرب ٠

اما عدن اليوم فمدينة الشرك هي لا مدينة التوحيد٠ مدينة عمومية لا اوربية ولا شرقية ولا عربية ٠ مدينة التجارة والفحم والمضارب العسكرية٠ هي من الوجهة الحربية جبل طارق الشرق ، ومن الوجهة التجارية مركز توريد وتوزيع مهم في البحر العربي ، ومن الوجهة البحرية العمومية هي مستودع فحم لبواخر العالم التي تجري بين الشرق والغرب ، وهي فوق ذلك وقبل كل ذلك المستودع الثالث للبواخر الانكليزية في الطريق بين الجزائر البريطانية والهند ٠ اما المستودعان الاول والثاني ففي جبل طارق والسويس ٠

ان المدينة تقسم قسمين عدن الفحم والحصون والسياسة وتدعى التواهي ، وعدن التجارة والموبقات وتدعى كَمب اي المعسكر ٠ في الاولى وهي على الشاطىء دار الاعتماد والقنصليات وبيوت الضباط والمتوظفين والانزال ، وبعض المخازن التي تباع فيها بضائع الشرق والغرب الرديئة باسعار غالية ٠ وفي الثانية وهي وراء الجبل على مسافة خمسة اميال ، في فم البركان ، او ما كان بركانًا في قديم الزمان ، وفيها اربعون الفًا من السكان من كل شعوب الارض والاديان ٠ فيها المسلم الذي يصلي الى الله ، والفارسي الذي يصلي الى الشمس ، والبُدْيا الذي يصلي الى الاوثان ، والمسيحي مكرم الصور والصلبان ، والاسماعيلي صاحبُ صاحب الزمان ، واليهودي مسبِّح الذهب الرنان ٠ وفيها من يغسلون و يكفنون امواتهم ومن يحرقونهم ومن يحملونهم الى برج السكينة لتأكلهم النسور والعقبان ٠

كل هؤلاء يتاجرون ولا يتنافرون ويربحون ولا يفاخرون ٠ اما بيوتهم فواحدة لا تعرف أعربية هي ام هندية ام اوروبية ، واما اديانهم فهي كالاشجار والادغال في الغاب ، وهم في ظلالها لا يتغيرون ولا يتطورون ٠ الزاهرون والزاهرات والشائكون والشائكات ٠ قلت ان يوم زار المسيو لاروك عدنًا لم يكن فيها غير الاسلام وحفنة من اليهود والبنيان ٠ اما اليوم ففيها من المذاهب الدينية

مئة مذهب ومذهب تعيش كلها في فم البركان ، بسلام وامان . وليس فيها غير واحد من المذاهب السياسية ، تصونه النقية ، ويعززه الدينار والقوة ، هو مذهب الاحتلال . والتاجر ، وطنياً كان او اجنبياً ، هو دائماً مع الحكومة . او بالحري لا يهمه من الحكومة غير الامن والنظام . ومهما قيل في حكومة عدن الانكليزية فالامن والنظام ركنان فيها ثابتان .

تدعى عدن الثانية المعسكر لان فيها الثكنات وقسماً من جيش الاحتلال . وهي في حلقة من الجبال السحماء بكلل قننها حصون قديمة مهجورة لان الانكليز يستغنون عنها اليوم بالمراكب البحرية . اما اشهر ما فيها من الاثار ما تبقى من ظل مجدها الغابر فهي اسداد الماء [1] تلك الاسداد المبنية في مضيق متحدر بين جبلين ، بناء متينا محكماً ، محفوراً بعضها في الصخور . سد فوق سد ، يصب الواحد مياهه حين يمتلي في السد تحته ، حتى تفضي بعد امتلاء عدة اسداد الى الخزان الاخير القائم عند سفح الجبلين . ولكن هذه الاسداد وهي من اجمل الاعمال الهندسية في العالم ، لا تمتلي لقلة الامطار الا مرة او مرتين في كل بضع سنين .

وفي النواحي اي عدن السياسة دائرة اشغال هي اهم من كل ما ذكر هناك . بين تلك الربى المكالة بالحصون الحديثة ، المتصلة بعضها ببعض بواسطة الانفاق ، رابية لا علاقة لها مباشرة بالحروب او بالسياسة . رابية عامرة نيرة منيرة ، بيوتها كلها حديثة بناء وهندسة ، ومهنة سكانها اهم من المهن الرسمية كلها . هي قرية قائمة بذاتها فيها المطعم والحانة والنادي واسباب اللهو والرياضة والراحة جميعها . واليها ومنها تمتد الاسلاك ، اسلاك السحر الحديث ، سحر العلم والعمل . من الشرق وجزر الشرق الكبيرة ، من استرالية والفيليبين ، من افريقية واوروبة ، من قارات الارض تجري امواج السحر في اسلاك العلم والعمل . فتهمهم وتطن

(١) تاريخ هذه الاسداد مجهول . فمن المؤرخين من يقول انها بنيت في القرن الخامس للمسيح ومنهم من يعود بها الى الف وخمسمائة سنة قبل المسيح . ومما لا يختلف في امرها انها كانت مردومة عند الاحتلال الانكليزي فحفرت ورممت سنة ١٨٥٦ وانها تسع ثمانين مليون جألون من الماء .

في اعماق البحار ، وتبرق تحت الماء على صدر اليبس ، ونورها كامن في السلك ، والسلك في القماش ، والقماش في القار ، والقار في الحديد · هي انباء العالم ، انباء التجارة والسياسة والاجتماع ، يحملها البرق تحت الامواج فتصل الى عدن ، الى تلك الزبرة المهمة فيها ، الى مركز البرق هناك · ثم تتوزع منه كما تتموج اليه امواجاً · فتربط الامم الشرقية بالغربية ، وتقضي على المسافات في المعاملات والمراسلات، تحصرها في سلك نصفه يمتد من تلك الرابية شرقاً وجنوباً ، والنصف الاخر غرباً وشمالاً · وهذا السلك هو حياة الاتصال بين الشرق والغرب ، بل هو حياة التجارة واحد اركان المدنية والعمران ·

لا شك ان في العالم دوائر برق اكبر من تلك التي في عدن · ولكن ليس في العالم على ما اظن اهم منها · اقطع ذاك السلك ، اوقف العمل على تلك الرابية ، اسكت المئة آلة التي تدندن ليل نهار هناك ، فتعود البحار الى ظلمها القديم واستبدادها في المسافات ، وتمسي قارات العالم القديم كلها ، آسية واوروبة وافريقية واسترالية ، وكل منها في عزلة الجزر او الجبال ، لا صلة بينها غير تلك التي يحملها الرسول او البخار ·

اجل ان شركة التلغراف في عدن لاحدى ايدي المدنية والعمران· وهناك في تلك الاهرام والركام ، على شاطيء البحر يدٌ سوداء ولكنها في العمران بيضاء ، هي يد الفحم والبخار · وفوقها وفوق المدينة نور وهاج ينير الميناء ليلاً ويدير حركة البواخر والمراكب بانواره الملونة · هوذا ثالوث عدن المادي · عرش البرق على هذه الرابية ، وعرش النور على جارتها ، وعرش البخار على الشاطيء فوق ركام الفحم العالية · ان فيها كلها حياة يكبر الغربيون اسبابها ولا يزدريها باطناً الشرقيون · وكيف يزدرونها وهي في بلادهم تحيي التجارة والبحارة فيها ! ليطفأ نور تلك المنارة ، منارة عدن ، فتصطدم وتغرق المراكب في البحر · لتقفل ابواب شركات الفحم فتقف وتبطل حركة البواخر بين الشرق والغرب ، وتنقطع اذ ذاك آخر صلة حديثة بين القارات كلها ·

ها هنا اذن في اسلاك البرق وفي اسباب البخار اهمية هذه الزاوية الجنوبية

من البلاد العربية . ومعلوم ان اساس الاثنين العلم والاجتهاد . وسياج الاثنين الامن والنظام . أيستطيع سلطان لحج او امام صنعاء ان يوجد الامن والنظام ويوطدهما في عدن ؟ أوَيستطيع اذا فوض اليه امرهما ان يحافظ عليهما ؟ لا اظن ان احداً من ابناء العرب مهما صفت وطنيته وكبرت همته يجيب اليوم بالايجاب . أوَ يستطيع العالم اليوم شرقاً وغرباً ان يستغني عن البرق والبخار ؟ لا اظن ان رجلاً عاقلاً يجيب بالايجاب . وهل يريد الشرق ان يستقل كل الاستقلال فيقطع الصلات كلها بينه وبين الغرب ؟ لا اظن ان احداً من الشرقيين مهما غالى بالوطنية يجيب بالايجاب .

لا بد اذن من البرق والنور والبخار في عدن . ومن يدٍ تديرها وتحافظ عليها وتحميها . واليد اليوم انكليزية . وقد تكون غداً يابانية او عربية . لكن الغد لله . يهمنا اليوم ويهم العالم اجمع ان تبقى هذه المحطة الكبيرة ، هذه الصلة المهمة ، في كنف الامن والنظام . ولو كان فيَّ ذرة من اليقين ان الامام يحيى يستطيع ان يقوم مقام الانكليز لما فضلت احداً وطنياً كان او اجنبياً عليه . اني آسف ان الروح العربية تقلصت في عدن واضمحلت ، وانه ليحزنني ويحزنك ايها القارىء العربي العزيز ، وقد اشرفنا على شيء من مجد غابرها ، ان نراها في يد الاجانب . ولكننا في زمان سيده المال ، وحاكمه الاقتصاد ، ومديره الاول العلم . وليس عندنا من الثلاثة ما يؤهلنا اليوم لوظيفة صغيرة في معمل هذا الزمان الاكبر .

لنعدل حتى في انفسنا . لنقل الحق ولو كان علينا . ان عدناً محطة في طريق العالم ، وان للعالم كله مصلحة فيها . مهما استأثر الانكليز اذن فهم ولا ريب مقيمون ببعض الواجب عليهم . وان العرب انفسهم لينتفعون بحكم فيه الامن والنظام . على اننا نبغي من الانكليز اكثر ما يشاهده السائح في اليوم الاول من اقامته في عدن . نبغي منهم العدل الذي اشتهروا بحبه وبتعزيزه في بلادهم . نبغي منهم الانصاف الذي هو من مزايا الشعب السكسوني . نبغي منهم الاهتمام لما فيه تعمير البلد وصحة اهله في اجسامهم وعقولهم — المحافظة على شيء من

الروح العربيـة — مدارس تعلم الناشئة لغتهم واداب بلادهم — ماء يصلح للشرب [1] . مضى على الانكليز في عدن خمس وثمانون سنة وهم لا يزالون يستخدمون الانسان والقربة لرش الاسواق .

قلت الانصاف ، وهاك مثالاً واحدا من آفاته . في عدن صيارفـة وتجار عديدون يتاجرون بالاوراق المالية والنقود ولكن ليس فيها غير مصرف واحد هو فرع من فروع مصرف الهند — الانكليزي — المشهور . وهذا المصرف لانه الوحيد يستبد بالتجار استبداداً يعرقل التجارة ويضعف اسبابها . قـد شكا كثيرون منهم الامر الى القناصل علَّ مصرفًا اميركيًا او افرنسيًا او ايطاليًا يفتح له فرعًا هناك بواسطتهم فيخفف بالمناظرة استبداد مصرف الهند واستئثاره . ولكن دون ذلك صعوبات ظاهرة وخفية ، ولحكومة عدن ولا ريب يد فيها .

اني لا ارى عذراً لمثل هذا الاستئثار الذي يعد صغارة في الاستعمار . بيد ان من العدل ألاَّ افرد الانكليز بالذنب واخصصهم دون سواهم بالتثريب . فالافرنسيون في جيبوتي مثلاً والايطاليون في مصوع هم من هـذا القبيل مثل الانكليز في عدن . قد لا تجد تاجراً واحداً انكليزيًا او ايطاليًا في جيبوتي فكيف بمصرف غير افرنسي ؟ وقد لا تجد عاملاً افرنسيًا او انكليزيًا في مصوع فكيف بمصرف غير ايطالي ؟ ان هذه الروح الاوروبية الصغيرة في التجارة والاستعمار ، وان شئت فقل روح الاستئثار والاحتكار ، لمن اول اسباب الانحطاط الاوروبي في الشرق . فاذا كنت لا تطيق اخاك الاوروبي مزاحمًا ، اذا كنت تضن عليه بفرصة يغتنمها فيستثمرها مثلك في بلاد غريبة ، فكيف تطيق الوطني او تحسن به الظن في الاقل ؟ وباي حق والحال هذه تطلب منه الثقة والاحترام ؟ اني مخلص لك ايها الاخ الاوروبي في ما اقول . قد يطيعك الشرقي ويخدمك ،

---

(١) المرافق في عدن لا تزال من الطراز القديم . والماء وهو مالح يُجر من بئر في شيخ عثمان ويوزع ببراميل تجرها الجمال . والطرق وهي دائمًا في حاجة الى الاصلاح والانارة لا تزال على الطريقة القديمة . اما عذر الحكومة في ذلك كله فقلة المال .
هارلد جاكوب في كتابه « ملوك العرب » صفحة ٢٦٣

ويكون لك جاسوساً على اخيه ، ولكنه في قلبه يكرهك ويحتقرك . وليس هو وحده المسؤول الملوم . عد الى نفسك ايها الاخ الاوروبي وفكر في ما اقول . اني ابغي لك ولابن الشرق خيراً في بلاده مشتركاً ، متبادلاً ، متساوياً .

لكن روحك ايها المستعمر لا تعجب المنصفين من الامتين . كأني اسمعك تقول : جئنا هذه البلاد وفتحناها وعمرناها وليس لغيرنا الحق ان ينتفع منها وفيها انتفاعنا . هذه هي روح الاستعمار الاوروبي في عدن وفي جيبوتي وفي مصوع ، وقل ان شئت في الهند وفي الجزائر وفي طرابلس الغرب . وهي الروح التي تفسد على الشرقي اهم مظاهر الحكم الغربي اي الادارة والنظام . فحبذا الحكمة في اطماعهم تلطفها ، وحبذا الحصافة في استئثارهم تخفف من عواقبه الوخيمة . لست ممن يغمضون عيونهم ويضربون ، ولا ممن يولون المغرب وجوههم ويكرهون . ولكني اخشى والله على الاوروبيين من يوم يعم فيه البلاء فينهض الشرق — الشرق العاقل والشرق المجنون ، الشرق المتعصب والشرق المتساهل — ينهض نهضة واحدة على المدنية الاوروبية كلها ، بحذافيرها ، لانه لا يرى فيها غير سيئاتها ، غير الشره والشهوات ، والاستئثار والمنكرات . بودي اذن قبل ان تأزف تلك الساعة ان يعدل الاوروبي ويعقل الشرقي ، فيتفاهم الاثنان ويأتلفان ، وينتفع الواحد بالاخر ومنه .

قلت ان الامن والنظام في عدن ركنان ثابتان ، ولا شك ان الانكليز قد بذلوا في سبيلهما شيئاً من القوة جسيماً مقروناً بمثله من السياسة والدهاء ، ثم بتضحيات من مال ورجال ليس في الامم الاوروبية اكرم منهم فيها واسبق منهم اليها . بيد ان احتلالهم عدن واستيلاءهم على النواحي المجاورة لها لا يخلوان من الحيف والاجحاف والخداع . لا ينكر ان الامن والنظام من الامور الجوهرية الاساسية ولا تقتصر اهميتها على الانكليز وحدهم بل على العالم اجمع . ولكن الاسباب اذا اكتشفت تشين ، والسبل اذا ادركت تستثير كوامن الوجد والغضب . من المشهور عن الانكليز انهم في سبيل مقاصدهم كرماء ، ولكنهم ايضاً حكماء . اذا بذلوا المال يعدون ما توفر عليهم من الرجال . واذا دفعوا المشاهرات يتقاضون

بذلها الارادات ٠

قد علموا عند احتلالهم عدن بانه يجب لحمايتها جيش كبير يقيم فيها ٠ ولكن ادارة شركة الهند يومئذ فضلت تلك الخطة التي تقدم الكلام عليها ٠ ثم عندما استلمت الحكومة البريطانية زمام الامور في الهند ، واستخدمت بعض القوة في تأييد مركزها في عدن ، رأت انها تحتاج الى قوات بحرية وبرية تقيم فيها دائماً ٠ وقد تعجز مع ذلك عن الحماية اذا لم يكن لعدن منطقة كالدرع يصونها من تعديات العرب الذين يحيقون بها من الجهات الثلاث اي من الشرق والغرب والشمال ، ويحاربون كالقرود ، ويعتصمون بالجبال ٠ فاتخذت لذلك سياسة لين تدعمه الشدة ، وباشرت المفاوضات ، وابتاعت من الاراضي ما لم تستطع الاستيلاء عليه بالسياسة ولم تشأ اخذه بالقوة ٠ فتم لعدن الدرع الذي تحتاجه وهو خط يمتد من الغدير على البحر غرباً الى دار الامير شمالاً ، ومنها شرقاً بشمال الى ام العُمُد على البحر ٠ ثم اقامت في هذه المنطقة الانكليزية الاستحكامات العسكرية ، ونقلت اليها الجنود من الهند ، وظلت مع ذلك في خطر دائم من العرب المحيقين بها ، من الصُبَيْحة والحواشب واليوافع وغيرهم ٠

فما العمل اذن ؟ قد يكلفنا الدفاع عن عدن الف ليرة في الاقل يومياً اذا فرضنا انه يتعين علينا ان نقيم فيها دائماً عشرة الاف جندي ٠ وقد يكلفنا الدفاع عن المنطقة التي ظنناها درعاً منيعاً الف ليرة اخرى ٠ ولكني اقف عند حد في النفقات لا يتجاوز نصف هذه القيمة ، اي الف ليرة كل يوم ، وافترض ان الحكومة الانكليزية تستطيع بذلك ان تدوخ العربان وتؤدبهم ، وتستولي على بلادهم فتدخلها في منطقة الاحتلال ٠ ولكنها تضطر عندئذ ان تضاعف قواتها العسكرية ، فتتضاعف النفقات ، لتدفع عن هذه المقاطعات غارات عرب الجبال من زيود وشوافع شرقاً وشمالاً ٠ النتيجة : اننا كلما توغلنا في اليمن زادت النفقات والاخطار ٠ فالولاء اذن خير من العداء ٠ على ان لا بد لنا من قوة نرهب بها اولاً من نبغي ولاءه ٠ فاذا كسرنا هذا الامير ، ونكلنا بذاك الشيخ ، ثم صافحنا ووالينا وبذلنا المال مشاهرات ، كان لنا من الصداقة والاذعان ما نريد ٠

وكذلك كان · مرت على عدن بعد احتلالها سنون فادت فيها انكلترة بكثير من المال والرجال · حاربت القبائل ثم عاهدت امراءهم واحداً واحداً · ضربتهم، وفرقتهم، واقامت الحدود بينهم، ورفعتهم الى مقام السلاطين، واشترت صداقتهم بالمشاهرات المالية · وما هي تلك المشاهرات بالنسبة الى نفقات الحرب والدفاع ؟

اليك جدول الحساب الثاني · في المنطقة المحمية تسع ولايات او امارات او سلطنات · فلو فرضنا ان كل امير يتقاضى الانكليز اربعمئة روبية كل شهر وهي اكبر المشاهرات، اذا استثنينا مشاهرة سلطان لحج، وان في كل امارة زعماء، رجالَ الامير او اعداءه، يتقاضونهم كذلك مثل هذه القيمة، فيبلغ ما تدفعه عن ولاء الامراء التسعة ورجالهم سبعة او ثمانية الاف روبية كل شهر اي خمسمئة ليرة انكليزية [1]· فلو دفعت هذه القيمة يومياً لا شهرياً لتوفر عليها ضعفها او في الاقل مثلها كل يوم · واذا فرضنا ان في الافتراضين، اي حساب الجيش وحساب الامراء، بعض المبالغة فهي دون الحقيقة لا فوقها · ان النسبة بين الاثنين في كل حال لا تتغير ولا تخل · عشرون الف جندي للدفاع يقوم مقامهم عشرة امراء او سلاطين · هذه هي النسبة الاساسية · مَن الكاسب اذن ؟ أمَن يدفع المشاهرات ام من يقبضها ؟

انها من الانكليز سياسة العزم، تتلوها سياسة الحكمة اي المبدأ المرن المقرون بالقاعدة التجارية في الاشغال · وهم لامراء تجار لا بارون، كما انهم ساسة محنكون · فاذا خيروا بين نفقات الجيش والمشاهرات يختارون الثانية ولا غرو · انها، اذا اعتبرنا مصلحة انكلترة اولاً ثم العالم الذي يهمه محطة المواصلات البرقية والبخارية، لصفقة غانمة · اما اذا اعتبرنا مصلحة العرب فيعترينا الاسف والغم لانهم الخاسرون في كل حال، الخاسرون وان تضاعفت الاموال ·

---

(١) راجع لائحة المشاهرات في آخر هذا الجزء ·

الفصل الثاني

من اجل شركة الهند

المسئلة الشرقية — انكلتره تدافع عن الدولة العلية — خوفها من محمد علي باشا — معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ — اخراج ابرهيم باشا من سورية ومن اليمن — شركة الهند — مستودع للفحم — عدن — احتلالها سنة ١٨٣٩ — معاهدة الانكليز مع سلطان لحج — بنودها — المبدأ المرن — « انت صاحب الامر ونحن نتولى تنفيذه عنك » — توسيم حدود عدن — كيف اشتروا الشيخ عثمان — طريقة لا يحللها الانكليز في بلادهم — والشيخ عثمان لا تكفي — توسيع المنطقة المحتلة — كيد وقيد ومشاهرة ٠

لا يزال اولو العلم يذكرون ، بالرغم عن عاديات الحرب الكبرى وذاريات مؤتمر لوزان ، تلك المسئلة المشؤومة في سياسة اوروبة والشرق الادنى التي تعثر في اذيالها اكبر السياسيين ، بل تحطمت في طواحينها اكبر الاحلام ، وأُفسدت في ظلالها احسن المقاصد والنيات ، فكان انتفاع كل امة منها وبسببها بالنسبة الى ما فادت به من الشرف والوجدان ٠ الا وهي المسئلة الشرقية ٠ ولا يزال اولو العلم والانصاف يذكرون كذلك ، على الرغم من انقلابات كان للدهر فيها اليد الكبرى — قلت الدهر واريد الحوادث التي تسيطر على الرجال والامم — وعلى الرغم من صيحات الهند التي اختلطت فيها اصوات «الخلافة» باصوات الـ « صَوارَج » [1] وعلى الرغم من تهاليل في انقرة والاستانة ، ومناجزات في دوائر السياسة يكابر الديك « الغالي » فيها الاسد البريطاني ، ان انكلترة في مقدمة الدول واحياناً وحدها كانت تدافع دائماً عن سلامة الدولة العثمانية ٠ ولم يكن دفاعها لينحصر في الكلمة المنشورة والمقولة بل كان يتجاوزها الى السيف والمدفع والاموال ٠ بيد انه لم يكن مجاناً لوجه الله ٠

(١) صوارج Swaraj كلمة هندية يراد بها الحكم الذاتي المستقل او ما يدعى في انكلترة Home Rule

ليس القصد من هذه الكلمة ان اجدد ذكر تلك المسئلة السياسية الخطيرة التي يظن الناس ان قد حل عقدها مؤتمر لوزان ٠ وانما قصدي ان اعود بالقارىء الى تسعين سنة مضت فاقص عليه قصة تتعلق بعدن وبشركة الهند الشرقيـة ، وبدفاع بريطانية العظمى عن الدولة العثمانية ٠

من الحقائق البارزة التي كانت تشغل الدولة والانكليز في تلك الايام ان محمد علي باشا بواسطة ابنه ابرهيم كان قد استولى على سوريـة واحتل من البلاد العربية عسيراً وتهامة وجزءاً من اليمن ٠ فسعت الدولة ان تخرجه من هذه الاقطار فلم تفلح ٠ ورأت انكلترة ان مطامع محمد علي باشا في البلاد العربيـة لا تلتئم بمصالحها ، لاسيما ما كان يتعلق منها بالهند وبشركة الهند الشرقية ، فامتشقت الحسام ، او بالحري حركت الاسطول دفاعاً عن الدولة ، وكانت هي العامل الاكبر في اخراج المصريين من البلاد السورية وفي انسحاب ابرهيم باشا من اليمن ٠

ثم عقد مؤتمر لندن فأُبرمت في ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ معاهدة كادت تفضي الى الحرب بين فرنسة وانكلترة ، أُعيدت بموجبها سورية الى الدولة العلية وأُثبت محمد علي في ولاية مصر ٠ ولكان قضي على محمد علي في مصر كذلك لو فازت في ذاك المؤتمر السياسة الافرنسية التي كانت تخشى مقاصد الانكليز الخفية ٠ لم تكن تلك المقاصد يومئذ غيرها اليوم ، وقد كشف الزمان عنها الحجاب ، وحققت بعضها الحوادث ٠ فها قد انفتحت طريق البر من مصر الى سوريـة ، فالعراق ، فالهنـد ٠

اما الطريق التي كانت تستوجب الاهتمام مباشرة فهي طريق البحر ٠ وقد كانت انكلترة في تلك الايام ، ايام البخار الاولى ، تفتش عن مكان في البحر الاحمر او البحر العربي يصلح لان يكون مستودعاً للفحم لتموين البواخر في طريقها الى الهند ومنها ٠ فرأى رجال الشركة الهندية الشرقية ان عدن اصلح مكان لهذه الغاية ، وظلوا عشرين سنة يحومون عليها ويسعون بالمعاهدات وبالسياسة ان يرفعوا فوق قلاعها العلم البريطاني ٠ وكان ابرهيم باشا وهو في تهامة

يبغيها كذلك ويخابر سلطان لحج بخصوصها · اوجس الانكليز خوفاً من ابرهيم فاقترنت مصلحتهم بمصلحة العثمانيين واتحدوا سياسةً عليه ·

كتب رئيس الوزارة الانكليزية يومئذ اللورد بالمرستون الى محمد علي باشا سنة ١٨٣٨ يقول ان لا حق له في البلاد العربية فيجب ان يسحب جنوده منها ·ثم عقد معاهدة مع الدولة تخول الانكليز الاتجار في الممالك العثمانية ، وطلب منها عدن لتكون لهم مركزاً تجارياً في تلك الانحاء · على انهم كانوا يبغونها مستودعاً للفحم كما قلت · وما هي اهميتها للدولة في كلا الحالين ؟ عدن ، اين هي عدن ؟ وراء ثلاثة بحار ، في آخر البلاد العربية ، تبعد الفي ميل عن الاستانة ، ولا سيادة حقيقية للدولة فيها ·

منح السلطان عبد المجيد الفرمان · ولكن شركة الهند الشرقية كانت تعلم ان السيادة الحقيقية في عدن هي للعرب وان الفرمان وحده لا يكفي · فينبغي للاحتلال حادث يتذرعون به · كانت المراكب الانكليزية تمر في تلك الايام بعدن للمتاجرة فحدث ذات يوم ان مركباً شراعياً غرق هناك فسطا عليه العرب ونهبوه ، فبعثت ادارة الشركة القبطان هينس[1] على مركب حربي في ثلاثمئة من الجنود يطلب التعويض ، فجاء الى عدن وفاوض السلطان ، سلطان لحج ، الذي كان مقيماً فيها ، فابى سموه ، فاحتج الانكليزي بالفرمان ، فاستشاط السلطان العربي غيظاً · ومن هو سلطان العثمانيين ؟ وهل يهب بلاداً ليست له ؟

ضرب القبطان هينس عدن في ١٩ ك٢ سنة ١٨٣٩ فامر السلطان الحامية بالدفاع ، فحدث بينها وبين الانكليز قتال لم يدم طويلاً · سلم العرب ، ولكن سلطان لحج في ازدرائه الخط الهمايوني ومقاومة الفاتحين تمكن من عقد معاهدة معهم حفظت له بعض حقوقه ، وقطع الانكليز معه عهداً بان يدفعوا له تعويضاً عن الاحتلال ستة الاف ريال مسانهة ، كانت بداءة تلك المشاهرات التي تبلغ اليوم نحو مئة الف روبية ·

احتل الانكليز باسم شركة الهند الشرقية قسماً من عدن يدعى التواهي

---

(١) Captain Stafford Haines راجع الشرح في صفحة ٣٤١

ولم تكن يومئذ غير اعشاش لصيادي السمك ، لا يتجاوز سكانها الستمائة نفس. وظل السلطان مقيماً فيها مدة قصيرة فقط اذ قلما يقوم الى جنب السلطة الانكليزية سلطة اخرى وطنية او اجنبية ، فتراخت العلائق بين السلطان ووكيل بريطانية العظمى ، فحدث قتال ثان كان للانكليز رغبة فيه — يقول عرب عدن : كاد الانكليز كيدهم المعروف — فانتصروا على العبادلة اي قبيلة السلطان واخرجوهم من النواحي واستولوا على عدن استيلاءً تاماً . منذ ذاك الحين لم يأذنوا لسلاطينهم ان يكون لهم في عدن بيت ولو صغيراً . ثم جددت المعاهدة التي من شروطها :

اولاً : ان يعترف السلطان بسيادة الانكليز ويقبل حمايتهم في مملكته .
ثانياً : ان تكون البلاد مستقلة في داخلها استقلالاً تاماً .
ثالثاً : ان تكون المقابلات بين العرب والسلطان رأساً دون تدخل الانكليز . « قد كان هذا التدخل احد اسباب الخلاف بين الفريقين »
رابعاً : ان يكون له الحق بان يصدر ما شاء من القوانين في بلاده .
خامساً : ان لا يعقد معاهدات مع الاجانب (امراء العرب لا يعدون من الاجانب) [1]
سادساً : ان يكون له راية خاصة وجند وحق بمنح الالقاب والرتب .
سابعاً : ان تكون بوابة عدن الحدود بين المتعاهدين وان يكون ما دونها بما فيه بلدة الشيخ عثمان من املاك سلطنة لحج .
ثامناً : ان لا يجوز لاجنبي التملك في لحج او الدخول اليها بدون اذن من السلطان تعطيه الحكومة البريطانية .

الخط تحت الكلمات الاخيرة مني لالفت النظر اليه خصوصاً . تأملها ايها القارىء . ان فيها مثالاً للقاعدة المرنة في السياسة . لم يقل الانكليز : بدون

---

(١) قد تدرجوا من هذه القاعدة الى قاعدة اعم ، فصار الامير العربي المستقل في نظرهم كالامير الاجنبي ، فلا يحق لامير آخر عربي ان يعقد معه معاهدة دون ان يستشير ويستأذن حكومة « جلالة الملك » .

اذن تعطيه الحكومة البريطانية ، وهي حقيقة الحال ، لانهم يتحاشون ان يمسوا كرامة السلطان . فطوا البند ليبرر السيادتين ويرضي الفريقين . انت يا صاحب السمو صاحب الامر . ولكننا نحن خدامك نتولى امره ، نتوكل عنك في اعطاء الاذن . وهو للآن كذلك . اذا وصل السائح الى عدن وشاء زيارة سلطان لحج يتحتم عليه ان يقوم بواجبين : اولهما ان يكتب كتاباً الى سموه يستأذن بالزيارة والثاني ان يطلب الاذن رسمياً من دار الاعتماد . فاذا كان هناك من مانع يعلمون سموه بذلك ويرفضون الاذن عنه . والا فيمنحونه ويحددون وقته وصلاحيته ، فلا يتجاوز حامله حدود لحج ولا يقيم فيها غير ايام معدودة .

اشرنا في الفصل السابق الى صعوبة الدفاع عن عدن اذا كانت وحدها البلدة المحتلة ما لم تخصصها الحكومة بفيلق وبعض المدرعات فيضطرون اذ ذاك الى مكان نقيم الجنود فيه . وبكلمة بسيطة ضاقت دونهم عدن فسعوا في توسيع الحدود . ولكنهم اكتفوا ببضعة اميال شمالاً وفيها بلدة الشيخ عثمان ، فطلبوها من السلطان فرفض طلبهم . قالوا : نشتريها ، فقال : لا . قالوا : هي لازمة ، فلم يكترث .

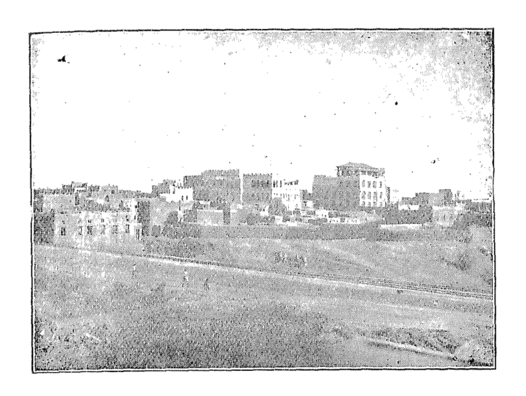
فلجأت اذا ذاك دار الاعتماد الى وسائل لا تحللها الحكومة البريطانية في بلادها . كان للسلطان شقيق يحب المال اكثر من حبه الشيخ عثمان وكانت لهذا العبدلي يد في ادارة امور السلطنة ، معززة بثقة اخيه . فتقرب الانكليز منه وتم سنة ١٨٨٢ الاتفاق بينهم وبينه سراً على التنازل عن الشيخ عثمان في مقابلة مبلغ قدره عشرون الف ريال ، اي اربعون الف روبية ، اي الفان وخمسمئة ذهب انكليزي . فامضى صك البيع بالنيابة عن اخيه السلطان ، فاعتبره الانكليز صكاً شرعياً وحددوا بموجبه حدودهم التي شملت تلك القرية وهي على مسافة عشرة اميال من عدن .

اما السلطان فلما علم بالامر طرد اخاه من البلاد وصادر املاكه وحرمه حقوقه في الاسرة المالكة . ولكن ذلك لم يؤثر في خطة الانكليز وسياستهم . دخلوا الشيخ عثمان واقاموا فيها حامية قوية لم يستطع السلطان ولا خلفاؤه ان

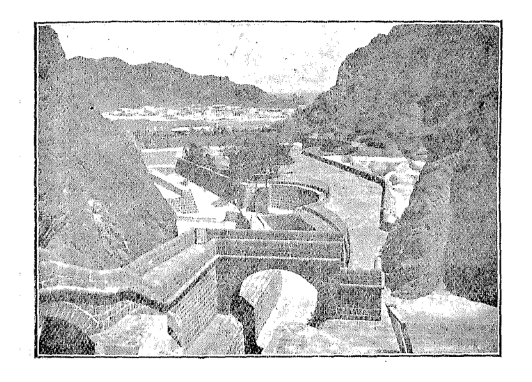
يقاوموها . ولم يكن احتجاجهم الدائم على شرعية البيع ليجدي نفعاً ، فرضوا بعد مدة بقسمة الجبار فيهم ، وعقدوا معاهدة جديدة مع الانكليز قبلوا فيها ان تكون دار الامير ، وهي قرية تبعد نصف ساعة عن الشيخ عثمان ، الحدود الفاصلة بين لحج وبين الحكومة المحتلة .

ومنذ ذاك الحين حتى اليوم لم تضطر هذه الحكومة في الدفاع عن عدن الى توسيع الحدود مرة اخرى ، فلا يزال جمرك السلطنة اللحجية في دار الامير .

اما الشيخ عثمان فقد اصبحت بلدة عامرة بالعساكر الهندية والحانات ، وبالصوماليات السافرات ، وبانواع الموبقات . وفيها كذلك مقام الولي حاتم بحر ، وبساتين اغنياء عدن ، وجنينة حيوانات سكانها غزال وقنفذة وسعدان .



الحوطه عاصمة لحج



الاسداد في عدن

الفصل الثالث

سلاطين لحج

مؤسس سلطنة لحج — اصل العبادلة — السلطان محسن بن فضل العبدلي — المعاهدة بينه وبين الانكليز — السلطان فضل بن علي بن محسن — اركان الملك الاربعة — السلطان احمد بن فضل — اتفاقه وامام صنعاء على الاتراك — المفاوضات السرية بينه وبين الادريسي — الملك حسين نصير الاتراك — السلطان احمد اول من سعى في سبيل الوحدة العربية — سفره الى مصر — الزراعة في لحج — السلطان علي بن محسن بن فضل — ابن عمه المحسن المصلح محسن بن فضل — السلطان الحالي — تحسين علائقه مع الانكليز — المفاوضات بخصوص معاهدة جديدة — مطامع العبادلة في النواحي التسع — طريقة الوراثة وتدخل الانكليز — العقال وانتخاب السلطان ·

في سنة ١٧٠٩ ، عندما جاءت البعثة الافرنسية الى اليمن ، كان حاكم عدن مستقلاً عن امام صنعاء · وبعد ست وعشرين سنة من ذاك الحين استولى على عدن اول سلطان من سلاطين لحج · كان هذا الرجل قائداً من قواد الزيود ، طامعاً بالسيادة والمجد ، متساهلاً على ما يظهر في الامور الدينية · اقامه امام صنعاء عاملاً على اليمن الاسفل فتوسع بالاجازة الامامية واقام نفسه حاكماً مطلقاً مستقلاً ، بل اقام نفسه سلطاناً · وبما ان عرب البلاد التي استولى عليها من الشوافع ، فلا يعززون حاكماً زيدياً ولو اطاعوه ، نبذ من اجلهم وفي سبيل مطامعه مذهب اجداده ، واتخذ المذهب الشافعي سراطاً الى النجاح قويماً · هو مؤسس سلطنة لحج ·

ثم خلفه في الحكم امراء من عرب العبادلة الذين اشتهروا بالشجاعة والعدالة ، وبجبهم الزراعة التي هي حتى اليوم مصدر ثروة لحج الصغيرة وموضوع اهتمام سلاطينها · والعبادلة من اليمن الاعلى ، زيديو الاصل كما تبين يمتون بنسبهم الى عرب حمدان ·

من سلاطين لحج اربعة مشهورون ، اولهم محسن بن فضل الذي احتل

الانكليز عدن في عهده • وقد كانوا عقدوا في سنة ١٨٠٢ اول معاهدة ولائية تجارية مع والده السلطان احمد فاستمرت مرعية الى سنة ١٨٢٧ ، فنقضها السلطان محسن عند ما ادرك مطامع الانكليز الذين كانوا يبحثون في تلك الايام عن مكان في البحر العربي يصلح مستودعاً للفحم • ولكنه غُلب في نهاية امره فاضطر ان يعقد واياهم معاهدة عندما احتلوا عدن سنة ١٨٣٩ كما اوضحت في الفصل السابق • ومن بنود تلك المعاهدة بندان لا نرى لها غير الاثر الضئيل في المعاهدات الحديثة ، اولها : ان لا يحق للاجنبي ، وان كان موظفاً بريطانياً في حكومة عدن ، ان يدخل الى لحج بدون اذن من سلطانها ، والثاني : ان من يرتكب جرماً من الانكليز او من رعاياهم في البلاد يحاكم بموجب شرائعها •

قبل الانكليز في البداية بهذين البندين ، ثم سعوا في توسيع الحدود الشرعية شيئاً فشيئاً ، فعدلوا البند الاول بل نقضوه باضافتهم اليه تلك الكلمة الاعتيادية ، فقالوا : لا يحق لاجنبي ان يدخل الى لحج بدون اذن سلطانها والاذن يطلب من دار الاعتماد بعدن • وقد اسسوا محكمة قاضيها مسلم هندي فقضت على البند الثاني الذي يختص بمحاكمة الاجانب •

كان السلطان محسن غيوراً على استقلاله ، تواقاً الى السيادة الواسعة النطاق ، محسناً الى العشائر ، محباً للعلم والعلماء • ولكنه كان متقلباً في سياسته ، يترقب الفرص لتحقيق مقاصده التي لم تتفق يوماً واحداً مع مقاصد الانكليز • غلبوه اولاً وثانياً ، في سنة ١٨٣٩ عندما احتلوا التواهي وفي السنة التالية عندما حاول ان يخرجهم منها ، فدارت عليه الدوائر وكان هو من الظاعنين • اخرجوه من عدن ولم يأذنوا بان يكون له بعدئذٍ بيت فيها • ولا اذنوا بذلك لاحد من خلفائه كلهم •

ولكن خلف السلطان محسن لم يناوىء الانكليز ولا همّه ظاهراً امرهم ، بل ولى وجهه الشمال والغرب فسعى ان يعوّض في داخل البلاد عما خسره سلفه في سواحلها• هو السلطان فضل بن علي بن محسن والد السلطان الحالي •

وقد كان باسلاً مقداماً حكيماً ، يقرن البطش باصالة الرأي ، ويرى ، وهو امي ، ان لا عز للملك بغير الثروة ، ولا ثروة بغير الزراعة ، ولا زراعة بغير الامن والعدل . فسعى في سبيلها كلها سعياً شريفاً . امتشق الحسام وكان منتصراً في غزواته كلها ، فاستولى على الحواشب ، ومكن نفوذ العبادلة في العشائر ، واكتسب بسياسة الصدق والعزم ثقة الانكليز واعجابهم . ولكنهم غلبوه بسياسة اللين ، بالقاعدة المرنة ، فاعاد الى سلطان الحواشب ملكه بعد ان استولى عليه بضع سنين ، فاستحكمت بعدئذٍ العلائق بينه وبين عدن والمسيمير.[1] حكم السلطان فضل ثلاثين سنة وكان في حكمه عادلاً حكيماً ، فسن شرائع لا تزال حتى اليوم مرعية تتعلق بالزراعة ، وبادارة الاوقاف ، وبتسهيل صلات العشائر بعضها ببعض .

اما خلفه السلطان احمد بن فضل بن محسن ابن عم السلطان الحالي وقرين سلفه السلطان محسن في الذكاء وحب العلم والعلماء ، فقد كان اشد حنكة ودهاء من اسلافه ولكنه لم يكن مثلهم كريماً . احترمه الانكليز ظاهراً وتعمدوا في معاملته ما كان من خلقه اي التكتم والمواربة .

وقد كان بين السلطان احمد والامام المنصور والد الامام يحيى صلة ولاء ادت الى اتفاق سري بينهما ، من شأنه مقاومة الترك والنزعة التركية في اليمن . ولم يقف السلطان احمد عند هذا الحد في مناوئته الاتراك ، بل مد يد الولاء والعون الى السيد الادريسي فكان سراً عضداً له في عسير ، وارسل الى الشريف حسين وهو يومئذٍ امير مكة دعوة للانضمام اليهم ، او الكف في الاقل عن مساعدة الاتراك على امام صبيا وجيزان [2]

---

(١) المسيمير هي عاصمة سلطنة الحواشب .

(٢) كان الادريسي في تلك الايام خارجاً على الدولة ومهدداً بمؤامرة تركية شريفية زيدية . فسعى السلطان احمد ان يقاومها ويدفعها باتفاق او حلف عربي فلم يفز بذلك . جاء عزت باشا الى الحجاز في اذار سنة ١٩١١ يستنجد الشريف على الادريسي فانجده بحملة يقودها نجلاه الاميران عبدالله وفيصل . وكتب الى السلطان احمد يستنصره على عدو الدولة ويسأله ان يسعى في سبيل الصلح بينها وبين الامام يحيى . ولكن سياسة السلطان احمد كانت يومئذ مخالفة لسياسة الشريف حسين .

هوذا السلطان احمد عدو الترك واول من سعى على ما اعلم في سبيل الوحدة العربية . فقد دعا امراء العرب الى مؤتمر عام يعقد في احدى عواصم الجزيرة للنظر في مصير الامة العربية وتوحيد كلمتها وسياستها . ولكنه ، بعد ان ارسل منشوره الى الامراء ، عدل عن عمله لاسباب مجهولة . وقد تكون الحرب التركية الايطالية احد تلك الاسباب ، لانه تغير في سياسته وفي عواطفه بعد تلك الحرب تغيراً سريعاً مدهشاً .

كلما جئت على ذكر الاتراك في البلاد العربية اراني مكبراً السيد محمد الادريسي وثباته في مبدأه وجهاده . فقد كان الامام يحيى عدو الاتراك فصار صديقهم في الحرب العظمى . وكذلك كان سلطان لحج السلطان احمد بن فضل ، فتحول في الحرب التركية الايطالية عن سياسته ومبادئه ، كانه لم يسعَ سراً وجهراً في تقويض السيادة التركية في البلاد العربية . وقد كان من امراء العرب الذين ساعدوا الدولة بالمال ايضاً ، فدعي لذلك الى مصر ليقابل مندوبها السامي رؤوف باشا ، فلبى الدعوة ، وعاد من القاهرة يحمل وساماً من اوسمة الدولة ، ويحمل ايضاً غراساً من ارض الفراعنة .

ان للسلطان احمد مساعي مبرورة في تحسين الزراعة في لحج . فقد جلب الاغراس من مصر ومن الهند وكان في اهتمامه بها مثالاً للفلاح عالياً . وقد كان شغفاً كذلك بالاوسمة ، فصك منها باسمه وشرع بمنحها الناس من عرب وهنود وانكليز . ثم باشر تنظيم المالية والجمرك فسن قوانين عديدة ، حالت دون تنفيذها الحرب العظمى . لا مرية في القول انه كان سلطاناً كبيراً ذا همة قعساء ، وذكاء ودهاء . هو السلطان الزراع السياسي ، محب الابهة والاشجار الغريبة . ولكنه لم ينجح في دار الاعتماد نجاحه خارجها .

وما كان في خلفه ما يومىء الى التوفيق والتحسين من هذا القبيل . كان السلطان علي بن محسن بن فضل سلف السلطان الحالي رجلاً ورعاً تقياً يحترم علماء الدين والسادة الاشراف احتراماً جزيلاً ، ولم يكن له ارادة تستقيم وتشتد في السياسة والرئاسة . ولكنه لم يهتم لادارة الملك فاتكل في ذلك

على ابن عمه محسن فضل شقيق السلطان الحالي ·

كان السلطان محسن [1] اديبًا ذكي الفؤاد ، عصريًا في ارائه واعماله ، محبًا للاصلاح والعمران ، عالي الهمة ، بعيد النظر ، شديد البأس ، ثابت العزم والارادة · فباشر في ايامه القصيرة اصلاحات كثيرة في الجندية والمالية والمعارف ، ولكن الاقدار لم تشأ ان يكملها بنفسه فتوفي في عدن عقيب الهدنة عن اثنين وثلاثين ربيعًا · ان مثله من امراء العرب الشديدي النزعة الى القومية العربية ، الراغبين في تعليم الناشئة على الاسلوب الحديث ، الساعين في تحقيق اماني الوطنية العالية ، ليؤسف على موتهم في ريعان الشباب · وقد وقف السلطان محسن ثروته كلها على انشاء مدرسة عصرية ومستشفى وصيدلية في الحوطة ، فتأسست المدرسة وسيتم قريبًا بناء المستشفى بفضل السلطان الحالي ·

هو السلطان عبد الكريم فضل العربي الصميم في حديثه واخلاقه ، ولا اقول في ملابسه التي هي هندية اوروبية · اما ملامحه العربية فمثل اخلاقه وحديثه لا غبار عليها · هو نحيل الجسم ، عصبي المزاج ، مستطيل الوجه ، دقيق الانف ، غائر العين ، وفي الخامسة والاربعين من العمر · لكنه يظهر اكبر من ذلك لما في وجهه من تجعد وقتام ، ولما قاساه اثناء الحرب من الشدة والاحزان · وهو مثل اخيه الباسل وابيه سلطان لحج الكبير يكره النفوذ الاجنبي ويسعى سعيًا هادئًا سلميًا في مقاومته وتقويضه · ولا عجب اذا كان من مساعيه ان يستعيد بعض الحقوق التي نالها السلطان فضل ابوه فاضاعها مَن خلفه ·

على ان السلطان عبد الكريم يفتقر الى شيء من شدة ابيه وطموحه ، ومن نشاط اخيه وعزمه · فهو والحق يقال اقرب الى الادب والزراعة منه الى السياسة والادارة · له ذوق في الموسيقى ويحسن بعض الاحسان العزف على البيانو · وله رغبة في المطالعة فيهتم خصوصًا بتاريخ العرب والاسلام · وهو

---

(١) كل اعضاء الاسرة المالكة يلقبون بالسلاطين ، وهم يدعون السلطان الاكبر « الوالد المالك والسلطان الأمان » ·

مثل السلطان احمد شغف بالزراعة يقضي ساعات من يومه في بساتينه · لذلك قيل فيه على ما اظن انه قليل الاكتراث ضعيف الارادة · وقد يتخال عزمه ، وهو عصبي المزاج ، فترات يسيء الناس فهم اسبابها ونتائجها ·

ومن مزاياه انه يحترم الرأي والحرية الفكرية في الناس · اما علاقته مع الانكليز فالمداراة اظهر ما فيها · على ان له في دار الاعتماد مقاماً محترماً وكلمة مسموعة ، فيستشيره اولو الامر في كثير من المسائل التي تختص بالعشائر واحوال البلاد الداخلية ·

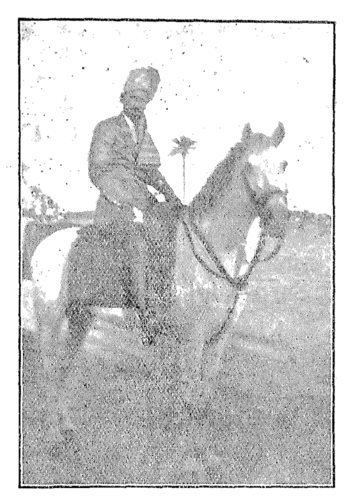
ان في لحج على صغرها نهضة في التعليم تذكر ، وهي على صغرها سيدة النواحي التسع المحمية ، سيدتهم ادبياً ومعنوياً وفي بعضها سياسياً ايضاً · فان ام السلطان عبدالكريم من اليوافع ، وبينه وبين العوالق ولاء وثيق العرى ، وله على الصُبَّيحة والحواشب سيادة لا بد ان تمتد الى سواهما ·

اما الامارة في لحج وفي النواحي التسع فهي انتخابية لا ارثية · لذلك تقدم السلطان عبدالكريم اثنان من اخوته بعد موت ابيه السلطان فضل · ولكن الانتخاب اي المبايعة هي من قبل الخاصة فالمبايعون هم العقال [1] اي حكام البلدان الذين يعينهم السلطان فيجتمعون مع رؤساء العشائر لينتخبوا ولي العهد الذي يجوز ان يكون من غير الاسرة المالكة · ولا شك ان هذه الطريقة تفتح ابواباً واسعة لتدخل الانكليز في شؤون البلاد وسياستها فيولون عليها من الموالين لهم مَن يشاؤون·

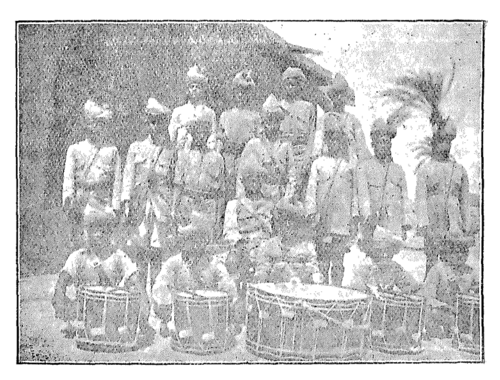
اما ولي العهد فهو يُنتَخب في عهد السلطان الحاكم فيصبح منذ ذاك الحين مقيداً بالسياستين ، سياسة لحج وسياسة عدن ، ورهين الارادتين ، ارادة المعتمد وارادة السلطان التي قد تكون ، وان كانت وطنية ، جائرة مثل الاولى · هوذا موطن الضعف والخلل في تلك الحكومات العربية الصغيرة كلها · لا اقول ان الانكليز اخترعوا هذه الطريقة في الارث ووضعوا قواعدها ، ولكنهم ولا شك ينتفعون بها انتفاعاً يضر بمن هم اصحابهم وحلفاؤهم واصحاب البلاد التي احتلوها ·

(١) حاكم الولاية او ما يماثلها يدعى في اليمن عاملاً وفي نجد ميراً وفي هذه النواحي عاقلاً·

حبذا لو ساعدوا اذن في تغيير هـذه الطريقة فيكتسبون حب الناشئة العربية الراقية وثقة اولياء الامر في البلاد . ولا اظنهم يفقدون في ذلك شيئاً من حقوقهم الشرعية او من نفوذهم الصالح المفيد . اما غير ذلك من حق او نفوذ فهو يضر بالانكليز اليوم اكثر من ضرره بالعرب . اجل ، ان الحقيقة البليغـة الرائعة التي يجب ان تتدبرهـا اليوم وزارة المستعمرات بلندن او دائرة الشرق الاوسط في تلك الوزارة هي هذه : كلما قل تدخل بريطانية العظمى في شؤون الامراء الوطنية والخاصة تعزز مركزهـا لديهم . وكلما تقلص نفوذ الانكليز في داخل البلاد ازداد في السواحل . او بالاحرى كلما امتنعوا ، حكمةً ونزاهةً ، عن مد يدهم الى ما وراء حدودهم المعروفة ثبتت قدمهم ضمن تلك الحدود . ولا اظنهم يبغون اكثر من ذلك .



سمو السلطان احمد فضل شقيق السلطان عبد الكريم



جوقة لحج الموسيقية

الفصل الرابع

لحج في الحرب العظمى

جزيرة الشيخ سعيد — ضربها واحتلالها — احتجاج الامام يحيى — زحف الاتراك على عدن — الجنود الانكليزية تتقدم الى الشيخ عثمان — تأخير النجدة الانكليزية — الامير لواء علي سعيد باشا يفاوض سلطان لحج — وقعة الدُكيم — تدمير لحج — وصول النجدة الانكليزية في الليل — اطلاق النار خطأً على السلطان ورجاله — الاسرة المالكة في عدن — لحج وعدن تتهادنان وتتسالمان — تركي كريم النجار — وما جزاء الاحسان الا الاحسان .

في باب المندب ، على مقربة من رأس البر اليمني ، جزيرة صغيرة تدعى الشيخ سعيد ، قد جاء ذكرها في تقارير عدن الرسمية اثناء الحرب ، وسيجيء ولا شك ذكرها في المستقبل في تقارير وصكوك لا يطلع عليها غير القليل ممن تهمهم امتيازات النفط والمعادن .

هذه الجزيرة هي اليوم في حوزة الامام يحيى بن حميد الدين ، وقد كانت اثناء الحرب في يد الاتراك تابعة للساحل الجنوبي الغربي الذي يتصل ببلاد عرب الصبيحة . وعندما انضمت الدولة العثمانية الى الدول الوسطى ، وشهرت في تلك الحرب الضروس السيف على الحلفاء ، قررت القيادة في اليمن الزحف على عدن . فلما علم بذلك الانكليز اوقفوا ثلاثة طوابير من الجنود في البحر كانوا مسافرين من الهند الى السويس ، فضربوا في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ الشيخ سعيد ليدمروا الابار والحصون والمستودعات فيها . ولكنهم لم يستطيعوا ، لشدة الانواء ، النزول الى الجزيرة فنزلوا الى البر [1] قريباً منها في رِحمى مدافع البواخر

(١) قد اغضب هذا الاعتداء الامام يحيى فاحتج عليه . فكتب اليه الكرنل جاكوب المعاون الاول يومئذ في دار الاعتماد يقول : ان الضرورة الحربية حملتهم على ضرب الشيخ سعيد وان ليس لهم في ذلك قصد خفي او سياسي ، وان جلاءهم قريباً عن تلك الناحية يثبت ما يقول . — ملوك العرب . صفحة ١٥٩

الحربية ، فتقهقر العدو الى داخل البلاد . ثم دمر الانكليز قلعة ترْبه وغيرها من الحصون في تلك الناحية ، وغنموا بعض المدافع فظنوا انهم اوقفوا الاتراك في الزحف على عدن . نعم ، اوقفوهم سبعة اشهر ، فعادوا اذ ذاك الكرة على جزيرة الشيخ سعيد فاحتلوها ، ومشت جنودهم من ماوية الى لحج تقصد الهجوم على عدن .

وكانت السلطة الانكليزية فيها قد احتاطت للامر بما لديها من قوات الدفاع القليلة ، فامرت بنقل الحامية من عدن الى الشيخ عثمان ثم بالتقدم الى لحج . جاء في التقارير الرسمية : « ان شدة الحر وقلة الماء وفرار الهجانة المأجورين اخّرت الجنود في الطريق وحالت دون الغاية المقصودة » .

على ان طليعة الجيش وصلت مع ذلك الى محجتها في ذاك اليوم ونازلت الاتراك خارج لحج قبل ان تصل الجنود اليها ، فدارت الدائرة على الانكليز ، فتقهقروا عن لحج مهزومين ، فدمرها الاتراك في ٥ تموز سنة ١٩١٥ ونهبوها . ثم زحفوا على الشيخ عثمان فاحتلوها في اليوم التالي .

ولكن النجدة التي وصلت بعدئذ الى عدن اخرجت الترك من الشيخ عثمان في ٢٠ تموز ، فعادوا الى لحج وتحصنوا فيها ، وظلت شرذمات منهم في أم العُمُد والوَهط ، فحاول الانكليز مراراً ان يخرجوهم منها فلم يتمكنوا من ذلك الا بعد ان انجدتهم عشائر العرب التي استنجدوها . ولكنهم لم يستطيعوا ولا حاولوا بعدئذ ان يخرجوا الاتراك من لحج . فظلوا فيها الى نهاية الحرب .

هذا ما وصل بالطرق الرسمية الى الدوائر الحربية في الغرب من اخبار تلك الزاوية العربية القصية ، وليس فيه كلمة عن نكبة لحج وعما حل بالاسرة المالكة وبسلطانها حليف بريطانية العظمى . فجئت اروي الخبر كله كما سمعته وتثبته من مصادر شتى هناك .

في السنة الثانية من الحرب اي في صيف سنة ١٩١٥ كان للدولة العثمانية في اليمن خمسة وثلاثون طابوراً ، اي نحو خمسة عشر الف جندي ، اكثرهم من السوريين . وكان منهم قسم في ماوية تحت قيادة الامير لواء علي سعيد باشا

الجركسي الذي سعى ان يضيف اليه قوة من العربان . كان سعيد باشا كريم الاخلاق جوّاداً ، فاحبه العرب وانضم الى جيشه بضعة الاف من الحواشب واليوافع والصبيحة [1] فعول اذ ذاك على مهاجمة عدن ولم يكن قصده غير اشغال الانكليز هناك . وبما ان لحج ، وهي في طريقه ، سلطنة مستقلة بعث الى سلطانها يستأذنه بالمرور ويعده بالمحافظة عليه وعلى ملكه . فابى السلطان علي لانه حليف الدولة البريطانية وتحت حمايتها . ما اشبه لحج واللحجيين من هذا القبيل بالبلجيك واهلها : ليست بلادنا بدرب يجتازها المتحاربون .

خرجت جيوش سعيد باشا من ماويّة وسقطت على لحج ، فاستنفر سلطانها الورع بعض العشائر المجاورة فانجدوه ، وخرجوا وهم بضعة الاف يلاقون الاتراك وهم ضعفهم عدداً واضعافهم عدة . فاصطدم الجيشان قرب الدكيم ، على مسافة عشرة اميال من لحج ، فانهزم اللحجيون . ولذلك اسباب ثلاثة — اولاً : لم يكن معهم من عتاد الحرب غير القليل . ثانياً : لم يكونوا على شيء من النظام . ثالثاً : لم تجئهم النجدة من الانكليز الا بعد الهزيمة . وقد جاء في التقارير الرسمية ان لابطاء تلك النجدة ثلاثة اسباب ايضاً . ولكن هناك سبباً آخر غير القيظ وقلة الماء وفرار الهجانة . فقد سمعت في عدن ان الجنود الهندية عصوا يومئذٍ ضباطهم لانهم كرهوا ان يحاربوا اخوانهم المسلمين . والحقيقة التي لا ريب فيها انهم ابطأوا في الانجاد ثم انهزموا .

عندما دخل الاتراك لحج كان السلطان علي واسرته لا يزالون في القصر يدافعون عن انفسهم ، فاضطروا ان يخرجوا منه عند ما بدأت الحجارة تتساقط عليهم من الجدران التي كانت تخترقها القنابل ، فبادروا في الغسق الى الفرار ووجهتهم الشيخ عثمان . اما الجنود البريطانية فكانوا قد خرجوا من تلك البلدة لينجدوا اللحجيين ، فالتقوا بالسلطان واسرته تحت جنح الظلام ، فظنوهم من كشافة العدو ، فاطلقوا عليهم النار ، فقتلوا عدداً منهم واصيب السلطان علي

(١) وقد كتب الى الامام يحيى يطلب منه المساعدة فلم يلب الامام طلبه كما تقدم . بل ان الامام ، كما قال سعيد باشا عندما سلم الى الانكليز ، كان يعارض رأيه في الزحف على عدن .

برصاصة في رجله ، فنقل الى عدن وتوفي من اثر الجرح هناك [1]

دخل الاتراك الى لحج فدمروا قصور السلاطين ونكلوا باهل المدينة ، ففر الى عدن من سلم من الاسرة المالكة وكثيرون من الاهالي . وعندما خلف السلطان عبد الكريم السلطان عليًا كان من اول اعماله انه احتج احتجاجًا شديداً على حكومة الانكليز لانها لم تقم بواجب المعاهدة بينهما وبين اجداده ، فقبلت حكومة لندن الاحتجاج وعزلت حاكم عدن وقائد الحامية فيها .

اقام السلطان والاسرة المالكة في عدن مدة الحرب كلها ، وهم يستعينون على الدهر بما كانت تدفعه الحكومة لكل منهم ، في حين ان املاكهم وقصورهم وبلادهم كانت في حوزة الاتراك يتمتعون بها وبخيراتها . حتى اصبح هؤلاء في غنى عن الامداد والتموين من مركز القيادة العثمانية في داخل اليمن . بل كانوا بعد ان استقر امرهم في لحج على شيء من اليسر وجانب من الامن والاطمئنان يُستغرب مثله في ايام الحرب بين المتحاربين .

والسبب في ذلك بعد الفريقين على ما اظن عن ساحة الحرب الكبرى وعن مركز حكومتيهما . كان الجنود والضباط يسمعون ولا شك بويلات تلك الايام واهوالها ويحمدون الله لما بينهم وبين تلك الويلات من المسافات . فلما امن الانكليز على مركزهم في عدن والشيخ عثمان تركوا لحج للاتراك . ولما امن الاتراك على لحج ونواحيها تركوا عدن للانكليز . قنع كل بما ملكت يده ، وكُللت القناعة بكرم الاخلاق .

اجل ، بينما كانت رحى الحرب تطحن الانسانية في شمالي فرنسة وتملأ الارض هولاً وقبوراً ، كان الترك والانكليز في هذه الزاوية المباركة من اليمن السعيد يتبادلان المعروف والاحسان . وكان للقائد الجركسي سعيد باشا الفضل الاكبر في ذلك بشهادة الانكليز انفسهم . اما العرب فلا يزالون يذكرونه حتى اليوم بالفخر والاعجاب .

---

(١) « اننا في اهمالنا مسؤولون عن وفاة السلطان علي المبتسرة » . هارلد جاكوب في كتابه ملوك العرب ، صفحة ١٦٧

قلت ان شيئاً من اليسر عاد الى لحج بعد نكبتها لان الاهالي والعساكر شرعوا يزرعون ويشتغلون ، فازدهت بالاخضرار والثمار تلك البقعة الخصبة التي تستقي من فرعَي وادي دُبن . اما عدن وهي في فم البركان فلا ترى فيها ولا في جوارها ورقة خضراء . فتبادل القائدان السلام ، ثم الكلام ، ثم : — هذه بقولاتنا نرسلها اليكم كل يوم على الرأس والعين . فشكر الانكليز الترك قائلين : وهذا الارز والسكر لكم منهما ما تبغون . وهذه فوق ذلك السكاير . فهتف عسكر الدولة : ليحي الانكليز .

كذلك تم الصلح بين الاحلاف والدول الوسطى ، او بالحري بين ممثليهم في عدن وفي لحج ، قبل ان انتهت الحرب بسنتين . ولما اعلنت الهدنة دخل علي سعيد باشا الى عدن ليسلم سيفه الى الانكليز ، فاستقبل فيها استقبالاً جميلاً . دخل المدينة لا كالمهزوم بل كالفاتح المنصور .

الفصل الخامس

التمدن الحديث في لحج

اثر من الاثار في تاريخ البخار — بين عدن ولحج — وفد المرحبين — ملابس اللحجيين الزاهية — سمو السلطان — ردهة الاستقبال — صحيح البخاري والفونوغراف — وزير السلطان السيد علوي الجفري يفوه بكلمة — المستر كروس قنصل اميركه يلقي خطاباً ، يفوه بعشرين كلمة وكلمة — سلطان متمدن — الموسيقى العسكرية تصدح بالنشيد الاميركي — مائدة السلطان — غرفة « البلياردو » — في البساتين مع شاعر وسلطان — اشجار لحج — شاعر لحج وفيلسوفها — ولي العهد الصامت — المدرسة الفضلية — المدافع والالقاب — عرب الحُجور — خناجر لحج — البخاري والمسواك وعائشة — البخاري وصندوق الزجاج — ثالوث الحرية في لحج ٠

كتبت بعد وصولي الى عدن كتاباً الى صاحب السمو السلطان عبد الكريم فضل ارغب اليه في التشرف بزيارته ٠ وكتبت بواسطة قنصل اميركة الى دار الاعتماد استأذن بذلك ٠ فجاء في اليوم التالي جواب السلطان مرحباً بي ، ثم جاءني بعد يومين من معاون المعتمد كتاب ضمنه اذن باسمي واسم رفيقي واذن اخر باسم القنصل الذي شاء ان يرافقنا ٠

ركبنا من محطة عدن قطاراً عسكرياً ، خطه ضيق وعرباته قديمة ، جيء به من الهند ، وقاطرته اثر من الاثار في تاريخ البخار ٠ فرقصت بنا وهي ترجرج وتقرقع في ارض سبخة قريبة من البحر ، ومرت باكام من الملح هناك مستخرج منه ، ثم بواحة الشيخ عثمان بين صفوف من مقاهيها ٠ ومنها الى دار الامير الي الحدود بين عدن ولحج ، ثم صُبر ، فجلاجل ، فنوبة المراني ، فالحوطة ٠ وكلها ما عدا العاصمة ودار الامير اسماء لأكواخ من القش واللبن يتخللها شيء من شجر الاسل واميال من القفر الذي تهب فيه رياح البادية وهي تحمل السموم والموت من الربع الخالي ٠ ويمتد خط الحديد من الحوطة الى مكان يبعد ستة اميال عنها يدعى الحُداد ٠

اما المسافة بين عدن والحوطة فلا تتجاوز العشرين ميلاً . اجتزناها بساعتين — حتى البخار يستشرق في الشرق — ووصلنا الى العاصمة بخير وسلامة ، فرحب بنا في المحطة ولي العهد واخو السلطان وغيرهما من القصر ، وهم في ملابس تدهشك منها لاول وهلة الالوان الزاهية البهيجة ، ثم شكلها الذي يختلف عن ملابس البدو والحضر في اليمن وفي الحجاز . ماذكرني اللحجي في فوطته المخططة التي تصل الى الركبة وعمامته الطويلة الذؤابة بغير الاسكتلندي اذا لبس ثوب عشيرته اي التنورة الملونة والقبعة ذات الريش .

ولكن السلطان احمد وهو قائد الجيش يلبس مثل اخيه السلطان المالك عبد الكريم ، الاّ ان له شغفاً بالالوان الباهرة . رأيته اول مرة في بنطالون ابيض ضيق حول الساق ، وفوقه معطف الى الركبة اسلامبولي الشكل ، الا انه من الحرير الازرق المخطط ، يشطره زنار وافر مشدود الى وسط نحيل ، وفي الزنار خنجران هائلان مرصعان بالحجارة الكريمة ، وعلى رأسه عمامة صفراء حمراء زرقاء ملفوفة في شكل هرمي — هي الموضة ، عند اعيان لحج — وطي اضلعه ما يناقض كل ذلك اي روحٌ عصريةٌ حتى الكفر . سنعود الى السلطان احمد بعد ان نقابل سمو اخيه .

ركبنا من المحطة في سيارة اوصلتنا الى القصر فخف الى استقبالنا عند الباب سمو السلطان ، وهو يلبس فوق ثيابه الافرنجية عباءة بنية ، وعمامة ملونة هندية ، ومعه حاشيته ووزيره الاول السيد علوي الجفري . ثم صعد بنا الى ردهة الاستقبال في الطابق الاول ، وهي رحبة انيقة جليلة ، يدخل اليها نور الشمس في جلباب من التقوى يُلبسه اياه الزجاج الملون في النوافذ — كأنه من بيت الصلاة عند المسيحيين — وتلطّفه السُجُف البيضاء المخرمة كأنها من قصر انكليزي . ان في هذه القاعة مجلسين افرنجياً وغربياً ، فرش الاول غربيٌّ الشكل الاّ انه من صناعة الهند ، تحتل زاوية منه آلةُ الفونغراف ، وفرش الثاني دواوين عربية تُقطّعها المساند والوسائد . وهناك بين المجلسين طاولة عليها مجلدات ضخمة هي شرح البخاري ، ذاك السفر الجليل المدهش ، الفريد في بابه ،

الممتاز بالشروح الثلاثة للكلمة النبوية ، اي شرحُ شرحِ الشرح · ولا يجوز ذكره بغير الاجلال كامل الاسماء ، فهو القسطلاني على صحيح البخاري ، والخزرجي على القسطلاني ، والامام النووي على الخزرجي · · · ·

— وهوذا يا صاحب السمو المستر كروس C . M . Cross قنصل اميركة في عدن .

فرحب سموه به واجلسنا ، اكرامًا له على ما اظن ، في المجلس الاول الرسمي الذي يستقبل فيه ضيوفه الافرنج · ثم تعطف فاحلنا كلنا محل الاهل والاحباب على الدواوين العربية التي تبعدنا عن الفونوغراف ونقربنا من البخاري ·

— كان قنصل اميركة السابق صديقنا يزورنا من حين الى حين · ولكم ما كان له عندنا من الحب والاكرام · قال هذا السلطان ، وكنت انا الترجمان فسررت بالقنصل لانه قليل الكلام · شكر سموُّه وسكت · فاستلمت اطراف الحديث شاكرًا ، ونشرت منها المألوف في السلام والتبجيل ، ثم المعروف من ظاهر سياحتنا ، فاوقفتني عند هذا الحد كلمةٌ من السيد علَوي شوّقت الي حديثه · وهو لطيف الابتسامة ، برّاق العين ، فصيح اللسان ، يستأنس به جليسه من مجرد النظر اليه · ولكني عرفت انه الوزير الاكبر وانه اهل لذا المقام العالي لانه مثل القنصل الاميركي قال كلمته وسكت ·

— مقاصدكم شريفة يا حضرة الفاضل وقد عرفناها ·

فاضاف السلطان عبد الكريم الى ذلك كلمةً اخرى لطيفة : وسيزيدنا الاستاذ معرفة ان شاء الله · زيارة مثله لا تنقضي في جلسة واحدة · ثم سألنا عن صحة الملك حسين ، فكان دور القسطنطين ، الذي اجاب بما يسر المحبين ، ويريح بال المعجبين برجل مكة الاكبر · ثم مال سموه الى القنصل فقال : يجب ان تغض النظر يا حضرة القنصل · ليس عندنا ما يليق بكم ويشرفنا في نظر الامة الاميركية العظيمة غير حبنا لكم واخلاصنا ·

ترجمت الى اللغة الانكليزية هذه الكلمة وفيها جميل التواضع واللطف فادهشني من المستر كروس جوابه الذي تجاوز الكلمتين قال لا فض فوه : سأنقل كلام سموكم الى حكومتي واحب ان اقول بالاصالة عن نفسي ان في العرب

فضائل كثيرة تشرفهم في نظر الامم الغربية ٠

هنأته بعدئذ بحسن جوابه وحسن سلوكه ٠ ومن ادرى باخواني الاميركيين مني ؟ فقد كنت اخشى منه سكوتاً يسيء او كلمة توجب الشرح والتفسير ٠ وهو مثل اكثر الاميركيين لطيف كريم في ما يفعل اكثر منه في ما يقول ٠

بعد ان شربنا القهوة نهض السلطان وتقدمنا الى الجهة الاخرى ، الى المجلس العربي قائلاً : هذا بيتكم ٠ ربما انتم تعبون ٠ وراح نتبعه حاشيته الى داخل القصر ٠ فجلسنا نحن الثلاثة وفي كل منا شيء يأبى الكتمان ٠

— سلطان عربي في ثياب هندية افرنجية ٠

— سلطان كريم حكيم ٠

وقال المستر كروس : سلطان متمدن ٠

وستدهشك من تمدن هذا السلطان اشياء اخرى كثيرة ٠ هذه مجلة عربية من مصر ، وهذه جرائد من القاهرة ومن الاستانة ، وهذه في ألواح الفونوغراف اغاني مصرية واناشيد انكليزية ، وهوذا يا مستر كروس النشيد الوطني الاميركي تسمعكه جوقة لحج العسكرية ! سررنا بالنشيد الاميركي لانه كان من اجمل آيات الترحيب والاكرام ٠ والحق يقال ان ما من احد يزور لحج الاّ ويعجب بذوق سلطانها الذي تفصح عنه مجالسه ، ومائدته ، وسياراته ، وخيله ، وكتبه ٠ انك لترى اشياء من الشرق والغرب مجتمعةً غير متنافرة في قصور لحج ، وتجد حتى في ازالة الضرورة الطريقتين الشرقية والغربية ٠

نمنا في الاسرة ضمن الكلل ، وجلسنا والسلطان الى مائدة تعددت وتنوعت الوانها ، فكأن الطاهي شرقي خدم في مطبخ نزل اوروبي ، وشربنا التنبك في المداعة الهندية الشكل الطويلة القوام واللي [1] وركبنا السيارة يصحبنا ولي العهد واحياناً السلطان نفسه او اخوه السلطان احمد الى خارج البلد نشرف على بساتينها الا ان الدهشة الكبرى كانت في غرفة « البلياردو » وفيها طاولة انكليزية

---

(١) المداعة الارجيلة واللي النربيش

كبيرة اعدت عليها ذكرى ايام كنت في هذه اللعبة هائماً مبرزاً .

اما محاسن لحج ومستغرباتها فاكثرهـا في قصور الامراء وفي البساتين ، وللسلطان عبد الكريم عناية خاصة بالاثنين . اجل ، انك لتجد الشرق والغرب مجتمعين حتى في الاشجار . فهذا التفاح الشامي في جوار العَمْب الهندي . ولكن الزراعة ، على اهتمام سلاطين لحج وشغفهم بها ، لا تزال في طور النشوء . مشينا صباح يوم وسمو السلطان الى احد تلك البساتين فكان اول ما اوقف النظر منا رجال يحفرون بئراً كما لو كانوا في ايام عاد وثمود . فما المانع من استخدام الآلات البخارية ونفقاتها مثل اجرة العمال ان لم تكن اقل : ان ارض لحج صالحة للآبار الارتوازية . وهي مع ما يجري فيهـا من مياه وادي دُبن تحتاج الى هذه الابار لان نهري الوادي يجفان في الصيف فلا تكفي الارض اذ ذاك مياه الصهاريج .

ها هنا وجدنا النقص في اسباب الزراعة واحيائهـا ، فان ارض لحج خصبة جداً . ويمكن ان يزرع فيها القطن الذي رأينا قليلاً منه في البساتين اذا بني سدّ في طرفها الشمالي على مرتفع من وادي دُبنْ تصب مياهه في الصيف فيسقي الارض المزروعة كلها .

— اظن ما تشكوه يا مولاي من صغر ثمر العَمْب ناتجاً عن امرين عـدم التلقيح وقلة الماء .

— ولكن عمبنا في لحج على صغره اطيب من عمب الهند .

والعمب اي Mango والحِثاء Papaya من الاشجار التي لا ترى في غير المناطق الحارة . مشينا في ظلالها الوارفة وسموه يعرفنا بما ينبت في لحج وما يزرع في البساتين .

— هذا السَمُر الذي يذكره الشعراء .

فقال رفيقنا الامير صالح وهو شاعر :

كأني غداة البين يوم تحمّلوا لدى سمُرات الحي ناقف حنظل

ومنه الشوكي العربي واللاشوكي الهندي .

— وهذه شجرة تعطي قطناً افخر من القطن ودود الحرير نسميها شجرة « القطن الحريري » · هي تشابه في طولها ونحولها شجر الحور ·

— وهذا العُشر الذي يستخرجون منه البارود ·

فقال الامير صالح : وكان عود الكبريت عند الاقدمين ·

وهذا الأَسَل صديق الابل ·

قلت : وهو شبيه السَلَم ·

فقال الامير الشاعر :

أمن تذكر جيران بذي سَلَم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

ولكن شاعر لحج وفيلسوفها ، الذي لا ينظم ولا يكتب كلمة للنشر ، انما هو السلطان احمد فضل · قال لي ذات ليلة طال فيها السمر وما ذوي غصنه :

— وما التعصب وما المذاهب كلها ؟ بلية الامم والله ونكبة الاوطان · لو كان العرب يعقلون لعلموا ان خلاصهم ها هنا لا ها هنا « واشار الى رأسه ثم الى قلبه » نعم ، ان العقل — وانت يا حضرة الاستاذ ادرى بما قاله شاعر العرب الكبير ابو العلاء المعري — ان العقل مصباح الحقيقة · والحقيقة اساس كل عمل صالح ثابت مفيد سياسياً كان ام دينياً · اما القلب فغالباً ضال ، والعواطف مضلة · هذا الزيدي يغمس ثيابه وجسمه في النيل لظنه ان النيل يقيه البرد · والظن يصبح بالممارسة عقيدة · والعقيدة يثبتها الوهم · والوهم منشأ العواطف والتصور · انا جرّبت النيل لما كنت شاباً فلم يدفع عني البرد · ولو حكّم كل امرىء عقله في الامور لبان الضلال في كثير منها مثل النيل ، ولما رأيتَ هؤلاء الجهال المتنيلين عندنا · وستراهم ، سترى خيرات « كثيراً » منهم غداً عند الزيود · قد قيل لي ان الزيود ينيلون اجسامهم وثيابهم حداداً على الحسين · لا يزالون الى اليوم يحدّون على الحسين ! والاجدر بنا يا استاذ ان نحدّ على العقل في بلادنا وعلى العلم ·

انما السلطان احمد ، وهو الجندي الفيلسوف ، الحاد المزاج ، الشديد اللهجة

والبأس ، فيحد في قلبه لا في ثيابه . كان يزورنا كل يوم وهو يحمل الينا ضمة من الورد فينعش النفس منا ، كما كانت الوان ملابسه تنعش البصر ، وكما كان حديثه ينعش العقل والامال . وهو لا يتجاوز الاربعين . له شغف بالعلوم والفنون نادر في تلك الناحية القصية من البلاد العربية . يطالع الجرائد والكتب والمجلات ، ويحدثك في سياسة الامم كما لو كان نزيل القاهرة . وهو من غواة الصيد والتصوير والموسيقى ، فيحسن العزف على كثير من آلات الطرب ويدير الجوقة العسكرية التي اسمعتنا النشيد الاميركي . ولكن مهنه المتعددة لا تبعده عن الحقل والبستان ، فهو مثل اخيه مزارع كبير يحب العمل في الارض بيده . اما رأيه في المدنية الغربية فهو على شديد نزعته العربية لا يرى فيها الضرر الذي يتوهمه بعض الشرقيين .

— وما ضرنا اذا لبسنا الافرنجي وكانت عقولنا سليمة ووطنيتنا صادقة ؟ اذا كانت قيمتي في هذه العمامة وفي هذه الجنبية فلا كانت الجنبية ولا كانت العمامة ولا كنت انا .

ان السلطان احمد فضل هو السلك الكهربائي في لحج . وهناك السلطان الصامت مهدي بن علي ابن عم السلطان الحاكم . وقد يكون صامتاً لانه ولي العهد الظاهر المؤيد ، وقل المقيد ، بالسياستين العدنية واللحجية ، الانكليزية والعبدلية . قلت : الظاهر ، لان سمو السلطان عبد الكريم ، في ما يسعى اليه من الاصلاح الذي تقدم ذكره ، يأمل ان يكون ولي العهد ابنه الامير فضل ، وهو في السادسة عشرة من العمر يتلقن العلوم واللغة الانكليزية من اساتذة في القصر . اقترحت على السلطان ان يرسل الامير فضلاً الى مدرسة في سورية او في مصر فقال انه يرغب في ذلك ولكن الام لا تصبر على فراق ابنها .

— ولكننا سنحضر الى لحج انشاء الله اساتذة من مصر وسورية يعلمون في مدرستنا .

هذا ما قاله لي عندما زرته ثانية بعد رجوعي من اليمن لاهنئه بعيد الاضحى . وقد هنأه يومئذ تلاميذ المدرسة الفضلية بما القوه من القصائد والخطب

القديمة الاسلوب العقيمة المعنى · اما كتب التدريس التي امر المعلمين بان يطلعوني عليها فهي مصرية ومنها سورية وكلها حديثة · فاستبشرت بذلك وقلت في كلمة القيتها على التلاميذ ان لحج زاوية اليمن المباركة ، وستصبح بفضل سلطانها زاوية العلم والتمدن · هذا اذا اتم ما يقصده من الاستعانة بالاساتذة والاطباء العرب يجلبهم من سورية او من مصر ·

وحبذا الانكليز عوناً له في هذا السبيل · حبذا منهم المساعدة في تأسيس مدارس وطنية تعلم فيها اللغة العربية والعلوم الحديثة · حبذا لو انهم يهتمون للتعليم ربع اهتمامهم للسياسة ولكل ما يعزز جانبهم فيها · فقد ساعدوا في تنظيم جيش لحج الصغير ، وسهروا على ارضاء سلاطينها بما يظنونه اكراماً كبيراً · ومما يضحك في تاريخ علائقهم السياسية والولائية انه « في ١٩ ك١ سنة ١٨٩٥ قررت الحكومة ان تزيد المدافع التي تطلق لسلطان لحج من التسعة الى الاحد عشر مدفعاً · وفي سنة ١٩٠٣ امنحت سموه لقب ورتبة « فارس في كوكب الهند » · وهم في رسائلهم يخاطبونه كما يلي : عمدة الامراء الكرام ، وقدوة النجباء الفخام ، سمو السلطان محبنا وصديقنا السير عبد الكريم فضل بن علي العبدلي كاي · سي · آي · اي · « K.C.I.E. »[1] وهو يبادلهم هذا الاكرام والتبجيل فيرده اليهم كلمة كلمة · لو تُرجمت « عمدة الامراء الكرام وقدوة النجباء الفخام » الى الانكليزية ، وهي تتقدم اسم موظف انكليزي ، أكانت تفكه وزارة المستعمرات · ولكنها تظل مخزونة في رؤوس الكتاب والمترجمين في دار الاعتماد ·

اما العرب فلا يحفلون بمثل هذه الترهات وقلما يعرفونها · فهم يخاطبون سلطانهم بقولهم : السلطان المُعان او الوالد المالك · واهالي لحج من عرب اليمن والمولدين ، اهم قبائلهم بعد العبادلة العَزَيبي واهل البان واهل سلاّم · وفيهم الحُجور من ناحية في حضرموت تدعى حجْر قرب مكلاّ ، سمرتهم شديدة تضرب الى السواد ، فيظنهم السائح لاول وهلة عبيداً · هؤلاء الحجور[2]

(١) راجع الشرح في صفحة ٣٤١ (٢) جم حجري

يشتغلون في لحج كل الاشغال الشاقة · في الحقول تجدهم وفي القصور ، يحرثون ويخدمون ويحسنون العمل ·

ان الحجري اكبر جسماً واشد ساعداً من اللحجي ، على ان وجه هذا ادق ملامح من ذاك ، وفيه من سيماء الذكاء ما قلما تجده في الحجري النشيط الباسل · اما الثياب فالحجور يستغنون عنها كلها ما عدا الفوطة والعمامة · وقلما تجد لحجيا ايا كان ومهما بالغ في اللبس او العري ، لا يحمل خنجراً من تلك الخناجر الرائعة المفضضة القبضة والنصاب التي تصنع في لحج · ومنها ما يكون نصابها مزدوجاً بشكل اللامين في « الله » فتظن صاحبه حاملاً خنجرين · ما رأيت في كل من يستغنون عن الثياب في البلاد العربية ويقربون بسمرتهم الى السواد من هو اشد بأساً ، وارهب طلعة ، من حجري يلبس عمامة كبيرة منيلة ، ويحمل خنجراً مزدوج النصاب · انه مع ذلك لتقي ·

كنت وسمو السلطان في احد بساتينه خارج المدينة فرأيت الحجري يحرث الارض ، ورأيته يصلي وهو واقف على صندوق كبير في الجو فيه ماء للقاطرة حيث تنتهي سكة الحديد · عامل من عمال الشركة يشتغل في تصليح مستودع الماء ، فآذنت الشمس بالغروب ، فترك عمله ، ووقف مكانه يصلي صلاة المغرب · ان ذلك لجميل ، وان ديناً يستوقف العامل في عمله ليذكر الله لاَجمل ·

بيد ان بعد ساعة رأيت الوجه الثاني من ذا الجمال · عند رجوعنا ذاك اليوم الى القصر تناولت مجلداً من صحيح البخاري وفتحته عرضاً فاذا انا في باب المسواك والاحاديث النبوية في المسواك والشروح وشروح الشروح على الاحاديث النبوية في المسواك · أطبقت الكتاب وفتحت جزءاً آخر منه فاذا بعائشة تحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم وعما كان مسلكه في الغسل قبل الجماع وبعده في الليلة الواحدة ، فخلتني اقرأ مذكرات احدى الخواتين الافرنسيات ·

ولما جاء السلطان احمد يزورنا تلك الليلة اشرت الى ما كان من حظي في

البخاري فقال : لو قرأته كله كما نقرأه نحن في شهر رجب أكان حظك احسن . ثم قال : البخاري يا حضرة الاستاذ مثل صندوق زجاج يجيئنا من اوروبه . صندوق كبير ، كبير جداً ، فيه ست كؤوس او ستة قناديل ملفوفة ، مدفونة ، في قنطار من القش . هذا هو البخاري .

است اذكر الان اذا كانت الكلمة هذه للسلطان احمد او للشيخ علي رضا السوري الطرابلسي ناظر الجمارك في السلطنة اللحجية . كلاهما عريق في الحكمة وحرية الفكر والتساهل الديني . الا ان علي رضا ، مثل السلطان مهدي ، سكوت لا يحب الظهور . وقلما يعرض فكره في غير مجلس الالفة والاطمئنان . كان من حظي ان اجالسه غير مرة ، وان له ولابن اخيه عبد الغني الرافعي فضلاً عليّ بيعض المعلومات في الفصلين الثالث والرابع من هذا القسم من الكتاب

الفصل السادس

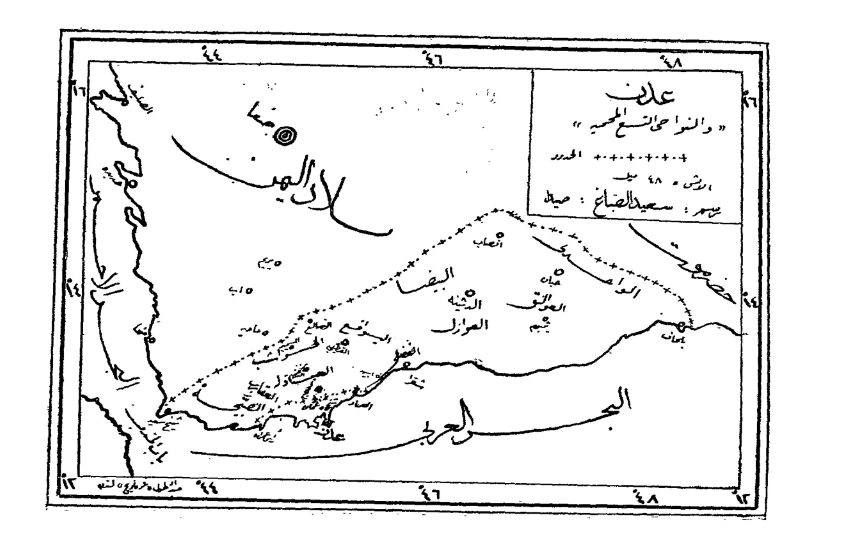
النواحي التسع المحمية

مبدأ الحياة في السياسة الانكليزية — المعاهدات الولائية — البندان او القبدان — دور الولاء والعطاء · ولا بأس بالعداء — دور الحماية · ولا بأس بالنكاية — « لنا يد على فلان في منصبه » — الصُبيحة — آل فضل او الفضلي — العوالق — قوم لا دين لهم — الواحدي — عرب لا يعرفون القرآن ولا النبي — العوازل — اليوافع دولتان مستقلتان — سلطان اليوافع السفلى يبغي من الانكليز زيادة في المشاهرة ولقباً ونيشاناً — سلطان اليوافع العليا لا يبغي من الانكليز غير البعد والهجران — العلوي — القطيبي — الحواشب — العقارب — اقدم السلطنات واصغرها — الضالع — سياسة الامام يحيى — الشيخ الاخرم يهتدي — الزيود يطلقون المدافع ترحيباً به — الامام يقتدي بالانكليز — الولاء ثم العطاء ثم الاستيلاء ·

ان السياسة الانكليزية جسم حي يتعهده الساسة الانكليز بالتربية ويساعد في نموه الزمان · وانك لتتيقن ذلك في كل قضية مهمة ، خارجية كانت او داخلية ، اذا اطلعت على تاريخها · فقد اعربت في الفصل الاول من هذا القسم عن سياستهم في عدن وكيف نشأت وتطورت ، وازيد القارىء علماً في هذا الفصل الاخير ببعض جزئياتها ·

بدأ الانكليز عند احتلالهم عدن يعقدون والعشائر عهوداً بسيطة تضمن لهم المدنة في الاقل ريثما تجيئهم النجدات · وتدعى هذه العهود عهود صداقة وولاء · اول من عاهدهم من العرب عشيرة العُزَّيبي التي هي اليوم من عشائر لحج · والمعاهدة هي آية في البساطة والايجاز · فبعد ذكر اسماء الفريقين تقول :

هذه معاهدة بين الانكليز والعزَّيبي · نحن الان اصدقاء ونتعهد بالسلم والولاء · قلوبنا وبغياتنا واحدة · الامان الدائم على عدن وعلينا نتعهد به


عدن
" والنواحي التسع المحمية "
الحدود
الانش = ٤٨ ميل
رسم : سعيد الصباغ : صيدا
صنعا
بلاد اليمن
البيضا
الدثينه
العوالق
العوازل
حضرموت
البحر العربي
عدن
٤٤
٤٦
٤٨
١٢
١٤
١٦

امام الله . واذا اخذ الانكليز احداً من عشائرنا او اخذنا احداً من الانكليز فلا يؤذى المأسور او يهان .

في سنة ١٨٣٩ عقدوا مثل هذه المعاهدة مع اليوافع من المنطقة السفلى من بلادهم ومع الحواشب وغيرهم ، والقاعدة السياسية فيها كلها واحدة : الولاء ثم العطاء ثم الاستيلاء . فقد تدرجوا من المعاهدة ذات البند الواحد الى المعاهدات الطويلة ، وفيها كلها تجد اليوم البند الاول المهم الذي يقيد الامير او السلطان او الشيخ بالانكليز دون سواهم من الامم . اذ لا يحق له ان يفاوض او يراسل دولة اخرى ، او يعاهدها ، او يقبل مساعدات مالية او غير مالية منها بدون معرفة بريطانية العظمى واجازتها .

والبند الثاني اهم من الاول :

لا يحق لفلان « الامير المعاهد » ان يبيع او يأجر او يهب او يرهن شيئاً من ارضه او ملكه لغير الحكومة البريطانية .

وفي بعض المعاهدات يُجمع البندان في بند واحد شامل وهو :

يتعهد فلان « الامير المعاهد » في مقابلة مساعدة مالية ان لا يتنازل عن شيء من ملكه لغير الانكليز ، وان يذعن لما توجبه السياسة الانكليزية ، وان لا يقبل مساعدات مالية او غير مالية من دولة اخرى .

واذا اخلّ باحد هذه البنود يقطعون عنه الراتب الذي شرعوا منذ ذاك الحين يخصون به المتعاهدين . كانت هذه الرواتب تافهة في البداية تتراوح بين العشرة ريالات والمئة ريالاً في السنة الى كل امير ، ثم نشأت تزداد مع السياسة والمصلحة حتى اصبحت الان تتراوح بين الخمسين والاربعمئة روبية كل شهر . اما سلطان لحج ، وهو كما تقدم اكبر المتعاهدين ، فمشاهرته تزيد على الثلاثة الاف روبية .

هذا دور الولاء والعطاء · ولكن الانكليز كانوا يتدخلون في بعض الاحايين في شؤون اصحاب المشاهرات ليصلحوا مثلاً بين صديقين متخاصمين من اصدقائهم ، فيورثهم التدخل مسؤولية توجب عليهم الاستمرار · فيستمرون مصلحين ويكتسبون ما لا بد منه من عداء احد المتخاصمين · يقيمون الحدود بين الفريقين له فينصبون العمد البيضاء الفاصلة ، فيجي من لا يرضى بتدخلهم ظاناً نفسه مغبوناً ، فيرفع تلك العمد بل يكسرها ، فيقوم جاره الذي رضي بالصلح ، صلح الانكليز ، ويدافع عنها ، فيعاديه ثانية ويقاتله ، ويستنصر عليه اصدقاءه الانكليز ، فيضطرون ان ينصروه بالسياسة والمال وبالرجال ايضاً ليعززوا في الاقل كلمتهم ويثبتوا نفوذهم · فينتج عن ذلك كله تلك الحماية التي لم تكن كما يقول بعضهم من مقاصدهم السياسية الاولى · ولكنك تذكر ايها القارىء ما كتبه مجلس ادارة شركة الهند الشرقية الى المعتمد الانكليزي الاول في عدن[1] · هوذا الجسم السياسي الحي الذي يساعد في نموه الزمان ·

انتقلنا من دور الولاء الى دور الحماية فاصبح الانكليز حلفاء صديقهم الامير العربي والمسؤولين عن استقلاله وسلامة ملكه · قد تطول مدة النشؤ كما في تاريخ اليوافع مثلاً الذين عاهدوا الانكليز سنة ١٨٣٩ عهد صداقة وولاء ، ولم يعقدوا معهم المعاهدة التي امسوا بموجبها تحت حمايتهم الا بعد خمس وستين سنة · وكأن النمو السياسي يوجب على الساسة اكثر ما يتعمدونه في البداية ويرمون اليه · فالانكليز في عدن لم يقفوا عند حد التدخل لاصلاح ذات البين بين امير وامير ، بل تجاوزوه الى التحزب السياسي الذي اشرت اليه في فصل سابق · خذ البرهان من هذه العبارة التي تكثر في التقارير الرسمية التي يرفعها المعتمد الى وزارة المستعمرات :

« ان لنا يداً على فلان في منصبه فقد نصرناه على من كان من اسرته ينازعه الامارة » ·

اما الذين عاهدوهم من العشائر وساعدوا في تقسيمهم امارات وسلطنات

(١) راجع الشرح في صفحة ٣٤٣

و بسطوا الحماية الانكليزية عليهم ، فهم يقطنون البلاد التي تدعى النواحي التسع المحمية اي الجهة الجنوبية من اليمن الاسفل . وهاك اسماءها وبعض ما علمته من الثقات عنها .

الصبيحة

النقطة المركزية عدن . فاذا نظرنا غرباً منها نرى قسماً من بلاد الصبيحة التي تمتد على الساحل من رأس عمران حتى باب المندب . والصبيحة عشائر متعددة منها العَطيفي والبريمي يحكمها الشيوخ والعقال حكماً بدوياً . وهم مشهورون بالغزو والغدر ، يُقدر عدد من يحمل السلاح فيهم بعشرين الفاً . على ان لا سلطان لهم ولا زعيم كبير ليجمع شملهم او بالحري شرهم . وليس لمشايخهم وعقالهم مشاهرات معلومة . لكنهم يجيئون الى عدن كل ثلاثة اشهر مرة او يرسلون اقاربهم ليقبضوا الاكراميات التي تتراوح بين الخمسين والمئة روبية ، و بعضهم يتناولها بواسطة سلطان لحج .

آل فضل او الفضلي

واذا اتجهنا من عدن شرقاً وتمثلنا امامنا مئة ميل من الارض ممتدة على الساحل من حدود العبادلة « لحج » الشرقية عند ام العُمُد الى حدود العوالق الغربية في المقاطن — والبلدتان على البحر — نحيط بملك آل فضل ، الذين هم اقوى العرب واشدهم حول عدن شرقاً بشمال منها . فان لسلطانهم عبدالقادر بن حسين الفضلي عسكراً من قبيلته الخاصة ، وعنده من العشرين الى الثلاثين الفاً يحملون السلاح [1] اما عرب الفضلي فمن البدو ، وهم ذوو بأس ومروءة ، يسارعون الى النجدة ويرغبون دائماً في القتال . ويظهر ان السلطان

(١) يتبع هذا الفصل لائحة في المشاهرات كلها وما يستطيع ان يحشده كل سلطان من المقاتلة وقد يكون الفرق شاسعاً بين عدد من يستطيعون حمل السلاح وعدد المسلحين .

عبد القادر يرغب مثل زميله العبدلي في توسيع ملكه ، فقد طلب من الانكليز سلاحاً ومدافع فلم يلبوا طلبه ، والعلائق بينه وبينهم متراخية في هذه الايام . بيد انه لا يزال يقبض المشاهرة وهي اربعمة روبية ، ولا يزالون يرحبون به بتسعة مدافع عندما يشرف عدن .

العوالق

هم جيران آل فضل على الساحل ، وبلادهم اكبر النواحي التسع ، مساحتها مئة ميل ونيف شرقاً ومثلها شمالاً . وهي تقسم الى قسمين العوالق العليا والعوالق السفلى . اما الاولى فيحكم اليوم قسماً منها السلطان صالح بن عبدالله العَولقي ومركزه في الانصاب . ويحكم قسماً آخر شيخ يعادل بل يفوق السلطان صالح قوة ونفوذاً ومركزه يشْبوم . وهناك بلد اسمها العِرْقة وميناء هو الحَوْره يحكمها شيخان مستقلان الواحد عن الاخر ، ومستقلان ايضاً عن شيخ يشبوم وسلطان الأنصاب .

في العوالق العليا آثار حميرية كثيرة ما اكتشف غير اليسير منها وفيها مشايخ وعلماء يؤثرون المال على الاستقلال ، ويعملون في مقابلة ما يتقاضونه من المشاهرات لتوسيع النفوذ البريطاني في بلادهم . بيد ان ليس بينهم وبين عدن غير معاهدة ولاء عقدت سنة ١٩٠٣ .

اما العوالق السفلى فاهلها اصدقاء الانكليز منذ سنة ١٨٥٥ حين عقدوا معهم عهد ولاء على ان يمنع السلطان دخول الرقيق من افريقية الى بلاده . ولكنهم مع صداقتهم للانكليز واختلاطهم ، وهم على ساحل البحر ، بالاجانب ، فلا يزالون على شيء يروع من الوحشية . وفيهم قبائل لا يعرفون الديانة الاسلامية ولم يسمعوا بالنبي محمد . وهم يتزوجون بدون عقد نكاح مثل عرب الجاهلية ، وينكحون اخواتهم وزوجات ابائهم ، ولا يصومون ولا يصلون . سألت مرة في دار الاعتماد عما اذا كانت السياحة في بلادهم ممكنة فاجابوا : نعم ، اذا كانت لا تهمك حياتك .

ان لسلطان العواقل السفلى الحالي ابي بكر بن ناصر مشاهرة صغيرة لا تتجاوز المئة روبية . اما عدد من يستطيع حمل السلاح في هذه الناحية الكبرى فيقدر بثلاثين او اربعين الفاً . ولكن عدد من يستطيعون تجنيدهم لا يتجاوز الثلاثة الاف .

الواحدي

هم جيران العواقل شرقاً بشمال ، عاصمة بلادهم حَبان وميناؤهـا المعروف بَلحاف ، وسلطانها علي بن محسن له مشاهرات وليس له مدافع تكريم وترحيب . ذلك لان عربانه البدو بخلاف عربان العواقل وامرائهم ، ينفرون من الانكليز ويحاولون التفلت من ربقة الحماية التي اوثقوا بها منذ سنين . والغريب العجيب في هذه الجهة من اليمن الاسفل ان حَبان ، وهي بلدة قديمة ذات ماض موصوف بالعلم والادب ، ويشبوم ، وفيها اليوم عدد من العلماء ، لا تبعدان خمسين ميلاً عن العواقل السفلى التي لا يزال فيهـا من العرب من لا يعرفون القرآن والنبي . اما النواحي الاخرى فللاسلام ولسلالة النبي السادة والاشراف مكانة عالية فيهـا . ولكل قبيلة سيد يسمى منصب هو رئيسهم الروحي فيأخذ منهم النذور ، ويحكم بينهم ، ويستغاث به وبكبار اجداده .

العوازل

اذا عدنا من بلاد الواحدي غرباً فاجتزنا بلاد العواقل عنـد الخط الرابع عشر شمالاً من خط الاستواء نصل الي الدُثَيْنه بلاد العوازل البدو ، وهي في ملتقى الاودية الثلاثة رُقوح وذُرَى ومروان ، تربتها خصبة ، ورجالها اشداء . كانت الدثينة في الماضي عاصمة التمرد و « ديرة » العصيان ، فقد رفض العوازل الحماية الانكليزية ، وحاربوا الجنود الذين صعدوا من عدن اليهم فهزموهم وردوهم خاسرين . ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا التخلص من النفوذ الاجنبي لان جيرانهم العواقل اصدقاء الانكليز وانصارهم . قيل لي ان يوم خرجوا على

السلطة البريطانية انتقم الانكليز من المقيمين منهم في عدن فاجلوهم عنها بالسياط ٠

اليوافع

اذا واصلنا السير غرباً عند الخط الرابع عشر من العرض وقطعنا وادي الرقوح نمر بالطرف الجنوبي من الجبال البيضاء ، وهي بلاد خصبة فيها بضعة انهار واهلها موالون للانكليز ٠ ثم ندخل في بلاد اليوافع وفيها كما يقال سبعون الف مقاتل وعدة شيخات مستقلة خلا السلطنتين العليا والسفلى ٠ هي مثل العوالق تقسم الى قسمين ٠ اما اليوافع السفلى فاكثر اهلها من البدو وهم منذ سنة ١٨٣٩ اصدقاء الانكليز مخلصون لهم ٠ ويظهر ان اليوافع ثابتون في العداء ثباتهم في الولاء ٠ فقد كان بينهم وبين جيرانهم آل فضل عداء منذ ١٨٧٣ استمر عشرين سنة ثم بسطت الحكومة البريطانية حمايتها عليهم سنة ١٨٩٥ فازالت ذلك العداء القديم او كادت ٠ ولكن سلطان اليوافع السفلى محسن بن علي ناقم على الانكليز اليوم لانهم رفضوا ما طلبه من الزيادة في المشاهرة ٠ وهو يبغي فوق ذلك لقباً يصحبه نيشاناً ومدافع ترحيب مثل الزملاء والجيران ٠

اما سلطان اليوافع العليا فضل بن محمد ومركزه الحوطة فلا علاقة له بالانكليز ولا فضل لهم عليه ، ولا هو يبغي منهم غير البعد والهجران ٠ هؤلاء اليوافع مثل العبادلة اكثر عرب النواحي التسع ثروة وتمدناً ، فيهم من التجار من تتصل تجارتهم بالهند و بالجزائر في البحر الهندي ٠ وبينهم وبين العبادلة نسب وقرابة ٠ واهل اليوافع العليا يفاخرون اقرانهم وجيرانهم باستقلالهم كل الاستقلال فيقولون : لم يدخل ولن يدخل اجنبي الى بلادنا ٠ اما حكومة عدن فكانت قد عينت في الماضي احد مشايخ عربان الشعيب ليحافظ على عمود الحدود هناك براتب شهري قدره سبعة ريالات ٠

العلوي

هم من العشائر التي لم تتمكن حكومة عدن من ضبطهم واستدراجهم الى الموالين المحميين . فلم يكن بينهما وبينهم منذ سنة ١٨٣٩ حتى سنة ١٨٩٥ علائق رسمية ، ولكنهما كانت تدفع المشاهرات الى شيخهم بواسطة جارهم الى الغرب سلطان الحواشب . ثم عقدت معهم معاهدة شبيهة بالمعاهدات التي عقدت مع جيرانهم . اما الحماية او الولاء او الصداقة فلا تزال اسمية . وكذلك

القطيبي

وهم مثل الصبيحة قوم غزاة . كانوا في الماضي يغزون الضالع والعلوي ، ويتقاضون القوافل رسوماً ، ويقطعون عند الحاجة الطرق . ثم دخلوا في صف المتعاهدين اصحاب الاعاشات ولكنهم ابوا الحماية ، ودار الاعتماد لا تركن اليهم . اما شيخهم الحالي الشيخ محمد صالح الاخرم شيخ بلاد القطيب والاجعود فقد قاوم الزيود عند ما زحفوا منذ ثلاث سنوات على النواحي التسع يبغون الاستيلاء عليها كلها . ثم صالحهم لان دار الاعتماد لم تمده بالمساعدة الحربية والمالية التي كان يطلبها ، وصار من عمال الامام يحيى تخسره الانكليز . وقد يخسرون بسببه العلويين وغيرهم من المحميين . اما

الحواشب [1]

جيران القطيبي ولحج والصبيحة فهم والعزيبي اول من عقدوا مع الانكليز معاهدات . ويحاربون مع من « يملأ كفهم قروش » [2] عندهم من الخمسة الى

(١) راجع الفصل الثاني من القسم الثاني صفحات ٨٧ الى ٨٩

(٢) اشارة الى الكلمة المأثورة في تلك النواحي اوردها بلغتهم . لا نا قبيلة حد ولا حد دولتي « سلطاني من ملا كفي قروش »

العشرين الف مقاتل كما يقال وسلطانهم اليوم محسن بن علي بن مانع . هو الذي كان ولي العهد عندما زرنا اباه في المسيمير .

العقارب

قبل ان نتقدم شمالاً لنختم هذا الفصل يجب ان نعرّف القارئ باقدم السلطنات المستقلة واصغرها ، اي سليطنة العقارب ذات القبيلة الواحدة والبلد الواحد . العقارب فخذ من العبادلة اعلنوا استقلالهم في العقد السابع من القرن الثامن عشر ، اي حين اعلنت الولايات المتحدة الاميركية استقلالها . وهي مثل تلك الولايات لا تزال مستقلة عزيزة ، بل هي فريدة في بابها لا زادت عداً ولا نقصت ، ولا كبرت ولا صغرت . اهلها قانعون بقسمة الجبار فيهم يجمعون شتاتهم وكلتهم في بير احمد مدينتهم الوحيدة بل بلادهم جمعاء ، فيقيمون فيها مطمئنين . وما اشبههم بين الانكليز والصبيحة والعبادلة بمملكة لكسمبور قبل الحرب بين المانية وفرانسة والبلجيك . ولكن الحرب قضت على لكسمبور ، ودمرت لحج ، فقربت من سليطنة بير احمد ولم تمسسها بشيء من الضرر والويل .

الضالع

ينقلنا البحث في هذه الناحية من الجنوب الى الشمال ، ومن سياسة الانكليز الى سياسة الامام ، لانها تدخل في منطقة اليمن الاعلى ، وهي في الطريق الى صنعاء شمالاً بغرب من بلاد العلوي ، وفيها قبائل متعددة . كان يحكمها الامير نصر بن شايف الذي اجتمعنا به في لحج يوم كنا هناك لأن الزيود كانوا قد احتلوا الضالع واخرجوه منها . ولا عجب اذا استعاد الامام يحيى هذه المناطق التي كانت سابقاً من ملك اجداده . قد قيل ان اجداد مشايخ الضالع من المولدين ، كان اباؤهم من عبيد ائمة اليمن ، ثم استقلوا في طليعة القرن الماضي واقاموا منهم اميراً عليهم .

قد احتل الزيود بلاد القطيب والاجعود ايضاً ، ووصلوا الى الجبال البيضاء ، فشرعوا ينشرون الدعوة الامامية وينصبون حبائل السياسة والاستيلاء شرقاً وجنوباً حتى بلاد اليوافع وآل فضل . وقد كان الشيخ محمد الاخرم اول من وقع في حبالهم ، اول من اتبع الهدى .

دعاه الزيود الى الضالع باسم السلم والامام فلبى الدعوة بعد ان خذله الانكليز كما تقدم . ولما دخل البلد اطلق الزيود من اجله ، اقتداء بحكومة عدن ، اربعة مدافع ترحيباً واكراماً ، فترنح الشيخ ورفع الادعية للحضرة الامامية بصنعاء ، فعينه الامام امير الجيش في القطيب والاجعود ، واختصه براتب شهري ، وبربع العشر من زكاة تلك المقاطعات ، وبالف قدح من الذرة ، وباربعمئة جندي من الزيود الاشاوس ليكتسح النواحي العاصية ويدخلها في طاعة الامام . ولم يكن الشيخ الاخرم ليقبض من الانكليز غير مئة روبية كل شهر . فهل يلام اذا ولى وجهه شطر صنعاء وعاد الى قديم التبعة والولاء ؟

ان حضرة الامام ، اذا ثابر على هذه الخطة ، لمن الفائزين بما يبغيه من الانكليز . فهو يقتدي بهم فيحاربهم في اليمن الاسفل بتلك السياسة التي هي عندهم رأس اسباب السيادة . الا وهي سياسة الولاء والعطاء ثم الاستيلاء . وتراه لا يقصر حتى في الجزاء والاكرام ، فيرفع الى المناصب العالية المشايخ والعقال ، ويدفع لهم المشاهرات ، ويخصهم فوق ذلك بجزء من الزكاة . اي دهاة الانكليز ، ان عندنا المدافع ايضاً نطلقها مرحبين ، باخواننا المسلمين ، ابناء اتباعنا الاقدمين .

لائحة

الرواتب الشهرية وجيوش النواحي المحمية

الراتب الشهري روبيـة	ما يستطيع ان يحشده من الجنود		
٣٢٨٠	٢٠٠٠	السلطان عبد الكريم فضل بن علي سلطان لحج	
٣٦٠	١٠٠٠	« عبد القادر بن حسين الفضلي سلطان شقره	
٢٥٠		« صالح بن عبدالله العولقي سلطان العوالق العليا	
٣٥٠	٣٠٠٠	الشيخ محسن بن فريد العولقي شيخ « «	
١٥٠		« محسن بن رويس « « «	
١٦٠	١٠٠٠	السلطان ابو بكر بن ناصر سلطان العوالق السفلى	
٢٠٠		السلطان محسن بن علي سلطان بني قاسد	
٨٠		« صالح بن عمر « « ضبي	
٨٠	٣٠٠٠	الشيخ سالم بن صالح بن عاطف جابر شيخ ضبي	بلاد يافع
١٠٠		« ابو بكر علي شيخ الموسطه	
٥٠		« محمد علي محسن « «	
٨٠		« عبد الرحمن المفلحي شيخ المفلحي	
٤٠٠	١٠٠٠	السلطان محسن بن علي بن مانع سلطان الحواشب	
٣٠٠	١٠٠٠	الامير نصر بن شايف امير الضالع	
١٠٠	٥٠٠	الشيخ محمد صالح الاخرم شيخ قبيلة القطيب	
١٠٠	٥٠٠	« عبد النبي العلوي « « صهيب	
٦٠٤٠	١٣٠٠٠		

ولاصحاب هذه المشاهرات اكراميات ايضاً ، يتناولها بعضهم كل ستة اشهر مرة وبعضهم كل سنة ، تتراوح بين الثلاثمئة والالف روبية . وهناك آخرون من المشايخ والعلماء تخصهم عدن بمشاهرات واكراميات صغيرة .

اما السلطان عوض بن عمر القعيطي سلطان مكلاّ في حضرموت فيستطيع ان يحشد الفي جندي ، ولكن مشاهرته اسمية ، وهي ستون روبية لا غير ، لان آل القُعَيطي ذوو ثروة كبيرة في حضرموت وفي الهند .

(تم الجزء الاول)

ملوك العرب

او

رحلة في البلاد العربية تشتمل على مقدمة وثمانية أقسام

مزينة بالخرائط والرسوم

تأليف

امين الريحاني

الجزء الثاني

سلطنة نجد وملحقاتها

الكويت — البحرين — العراق

طبع في المطبعة العلمية ليوسف صادر . بيروت . سنة ١٩٢٥

فهرس الجزء الثاني

القسم الخامس

عبد العزيز آل فيصل آل سعود سلطان نجد

صفحة

القسم السادس

آل صباح شيوخ الكويت

صفحة

القسم السابع

آل خليفه شيوخ البحرين

القسم الثامن

الملك فيصل والعراق

صفحة

فهرس الخرائط والرسوم

رحم الله كل من قال شعرا

أنا لعمرك لا يضام — حليفنا أبداً لدينا

عبيد بن الابرص

اذا ما الملك سام الناس خسفاً   أبينا ان نقر الذل فينا

عمرو بن كلثوم

قالوا: الطراد، فقلنا: تلك عادتنا   او تنزلون فانا معشرٌ نُزُلُ

الاعشى ميمون

وما يك من خير اتوه فانما   توارثه آباء آبائهم قبلُ

زهير بن ابي سلمى

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

النابغة الذبياني



ص ١٠-٩

عظمة السلطان عبد العزيز آل فيصل آل سعود

القسم الخامس

عبد العزيز آل فيصل آل سعود
سلطان نجد

سلطنة نجد وملحقاتها

حدودها : شرقاً خليج فارس من الجافوره وقطر الى رأس المشعاب ثم منطقة الحياد بين نجد والكويت من رأس المشعاب الى رأس القليّة

جنوباً خط يمتد من أبْها في عسير الى ملتقى الخطين الثامن عشر من العرض الشمالي والسادس والاربعين من الطول الشرقي، ثم يدور شمالاً الى السليّل ومنها حول الربع الخالي شرقاً الى الاحقاف فحدود قطر فالجافوره حتى الخليج .

شمالاً منطقة الحياد بين نجد والعراق، وهي في شكل قطعة بقلاوه بين الخطوط ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ من العرض الشمالي والخطوط ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ من الطول الشرقي، ثم خط يمتد من قرب شعب الاعوج شمالاً الى بير ليفه، ثم شمالاً بغرب الى بير مُنْيا فجدَيده فجبل عنيز الكائن بين الخطين ٣٢ و ٣٣ من العرض الشمالي والخطين ٣٩ و ٤٠ من الطول الشرقي

اما غرباً من جبل عنَيز الى شرقي الاردن ومن شرقي الاردن الى آخر الحجاز الجنوبي الغربي فلا تزال الحدود مختلفاً عليها . الا ان الجوف وحرّة خيبر هما اليوم في حوزة سلطان نجد .

عدد سكانها : نحو مليوني نفس

مساحتها : نحو خمسمائة الف ميل مربع

اهم قبائلها : مطير وحرب وعتيبه وسبيع والدواسر والعجمان والعوازم والسهول وبنو مرة وقحطان

اهم بلدانها : الرياض وبريده وعنيزه وحايل وثرمدا وشقرا والمجمعه وحريملا والهفوف والقطيف .

مذاهبها : الوهابية والشيعة وبعض السنة

الفصل الاول

شئنا حرَيْملا فشاءَ اللهُ اضرُما [١]

العقبات الثلاث بيني وبين ابن السعود — في فم البركان بعدن — الحمى والجدري والانكليز — قلت: نجد فقالوا: العراق — جاء الاذن بالسفر — الشرطة تستقبلني في بمباي — السفر الى العراق — مغبوط محزون — الامر الذي يتعلق بسفري — وكيل ابن سعود يصل الى بمباي — «مولانا السلطان يرحب بكم» — والانكليز لا يأذنون — كتاب من كاتب اسرار الحاكم العام في الامور السياسية الى مدير الشرطة في بمباي

كنت في لحج يوم كتبت الى عظمة السلطان عبد العزيز اطلعه على الغرض من رحلتي في البلاد العربية واستأذنه بزيارته والسياحة في بلاده . وكان بيني وبينه بحر الهند ثم النفود ثم الدهناء ثم الانكليز . والحق يقال ان العقبات الثلاث الاولى كانت سهلة بالنظر الى الاخيرة . فلها المقام الاول وقد يكون في قصتها عبرة للسياسيين وفائدة للسائحين وللقراء . كتبت كتابي قبل ان سافرت الى صنعاء وارسلته بواسطة تاجر معروف في عدن ليرسله الى وكيل ابن سعود في البحرين ، وفي الكتاب رجوت من عظمة السلطان الاسراع في الجواب عن يد وكيله القصيبي حتى اذا مررت بالبحرين في سفري الى العراق اتشرف بعلم تتوقف عليه خطتي في الرحيل . وكان في نيتي اذا كان الجواب بالايجاب ان اسوح في نجد قبل ان ازور العراق. هي خطة يوجبها المسلك الجغرافي وطرق البحر ، فضلاً عن الاقتصاد بالوقت والمال .

عدت بعد ثلاثة اشهر من صنعاء الى عدن واقمت فيها تحت سرادق القيظ ،

---

(١) مثل من امثال نجد يضرب بمعاكسات الزمان ، وحريملا واضرما بلدان في العارض . هم يُسكنون فاء الاسم فيقولون اضْرما .

في فم البركان، بين اشباح الجدري والحمى، ستة اسابيع انتظر من اصحابي الانكليز اذناً بالسفر الى — الى نجد؟ كلا . بل الى العراق . فان ابن سعود عند هؤلاء الاماجد شخص مقدس لا يدنو منه غير المقربين من قدس الاقداس على شاطىء التميس . وانك اذا جهرت لاحد الوكلاء او المندوبين السياسيين في السواحل العربية برغبتك فضلاً عن الاستئذان تجد الرجل واحداً من ثلاثة : فاما انه يرجيء ويسوف سياسةً ، او يبتسم هزءاً ، او يرفض بتاتاً . وقد لقيت الثلاثة في اولياء الامر بعدن . قلت: نجد، فقالوا : العراق . قلت : ابن سعود ، فابتسموا ثم رفضوا : لا علاقة لنا بالرجل واموره . ثم جاءني كتاب من الحاكم يقول فيه : قد وصلنا نبأ برقي من المندوب السامي في العراق يأذن لك فيه بالسفر الى بغداد . ومن كتاب آخر تلاه علمت ان لا بأس بمروري بالبحرين ، واني بعد مقابلة اولياء الامر في بغداد اسافر الى نجد اذا كان جواب ابن سعود يأذن بذلك .

كان قد مر اربعة أشهر ونيف على كتابي الى السلطان عبد العزيز ، فسافرت من عدن الى بمباي قاصداً من هناك البصرة ، وفي قلبي تشوق الى الجواب شديد . ولا اكتم القارىء ان رغبتي بزيارة رجل نجد الكبير كانت تزداد شدة كلما تعددت وحالت دونها العقبات .

وصلت الى بمباي فوجدت ان امري موكل برجال الشرطة هناك . ولكنهم اكرموا وفادتي فزرت الدائرة ولم يكلفوني زيارة السجن . وقد اظهر المدير رغبته في التعرف الى هذا السائح العربي الاميركي الذي تفتح له ابواب اقفلت مراراً دون سواه . اذ ان السفر في تلك الايام حتى الى العراق كان محظوراً على غير الانكليز . وقد علمت ان بعض التجار الاميركيين انتظروا شهرين في بمباي ليجيئهم الاذن بالسفر الى العراق، وكانوا بعد ذلك من الخائبين . فلا عجب اذا أكبر امري . وقد ظهر لي، بعد ان اقمت اسبوعاً في بمباي وتحدثت وبعض رجالها من تجار وكتاب وسياسيين ، اني من المغبوطين في سفري الى بغداد . ولكن ذلك لم يسرني كثيراً .

شئنا حربًا فشاء الله اضمرٌ ما . قال المدير : امرنا ان نسهل طريقك الى العراق . واظنهم اي «اولياء الامر» في ما كتبوا الينا يقولون ان لم يصلهم بعد الجواب من ابن سعود . سابحث عن الامر وارسل نسخة اليك اذا شئت .
شكرت للمدير هذا التلطف وعدت الى النزل فاذا بعض التجار والادباء من المسلمين ينتظروني هناك . وقد اخبرني احدهم — وما كان حديثي في تلك الايام ليخلو من سؤال عن نجد وسلطان نجد — ان عبد الله القصيبي وكيل ابن سعود في البحرين وصل صباح ذاك اليوم الى بمباي . فبادرت في اليوم التالي اليه يصحبني الحاج علي رضا زَينل احد كبار التجار في الهند وفي الحجاز .

وكان موضوع الحديث السلطان عبد العزيز وكتابي اليه . قال الوكيل : نعم وصلنا كتابكم بوقته وارسلناه الى حضرة الامام . فجاء الجواب مرحباً بكم ، وامرنا مولانا باعداد كل ما يلزم من اسباب السفر والراحة عند وصولكم الى البحرين . ثم قال : ونحن من زمان ننتظركم . ابطأتم في السفر او انكم غيرتم في الخطة التي كتبتم لمولانا عنها . قلت : لا التغيير ولا الابطاء بيدي . فقال : بل بيد الله . فقلت مستفهما : واصحابنا الانكليز ؟ فضحك حضرة الوكيل وسكت . وبعد رجوعي الى النزل استلمت كتاباً من معاون مدير الشرطة ضمنه نسخة الامر المتعلق بسفري ، وهذه ترجمته الحرفية :

رقم ٣٥٨ —
الدائرة السياسية . مكتب كاتب الاسرار . بمباي في ٢٢ آب سنة ١٩٢٢
من آي . اف . كِندرْزلي كاتب اسرار حاكم بمباي في الامور السياسية الى مدير الشرطة .
الموضوع سفر المستر امين ريحاني الى البحرين ونجد .

سيدي :
جواباً على كتابكم رقم ف — ٢٠٧١ المؤرخ في ٢١ آب سنة ١٩٢٢ .

اقول ان قد امرني الحاكم ان اخبركم لكي تخبروا المستر امين ريحاني ان الاذن بسفره الى نجد لم يصلنا حتى الان ولكنه منتظر في البحرين. اما سفره الى العراق فلااعتراض عليه. وفي كل حال يجب ان يسافر اولاً الى بغداد.

اتشرف ياسيدي بان اكون خادمكم المطيع
عن كاتب الاسرار السياسية
دجاي . اراتون

اما التناقض بين كلام الوكيل، وكيل ابن سعود في البحرين، وبين امر الحكومة، حكومة بريطانيه العظمى في الهند، فسوف تنجلي الحقيقة فيه ان شاء الله.

الفصل الثاني

في بغداد

حقيقتان جوهريتان — مفتاح نجد — انكليزية عراقية — ولا تزال امرأة — التقارير السرية — الملك فيصل — صراحة بحدود — سكوت يشف عن الريب — وما الغرض الحقيقي من رحلتي ؟ — «جزيت على ابتسام بابتسام» — المندوب السامي — حادث العيد في القصر — زيارة ابن سعود — اشد العقبات — «ولتغلبنّ الانكليز» — الحفلات الادبية — اما السياسة فالبيداء دونها — تباركت المرأة — الباب ينفتح — تعللني بالوعود — « سأبقى في بغداد الى ان يجيئني الاذن بالسفر الى نجد» — صوت في الهاتف يقول : «ستسافر مع المندوب السامي » — ما قضت به الحكمة .

لم يُؤذن لي بالسفر الى البحرين .

شئنا حريملا فشاءَ الله اضرُما . وصلت الى العراق وقلبي يحدثني بنجد ، وفكري يبعدني عن حسن الظن بالانكليز . وقد وجدتهم في بغداد ، كما هم في بمباي ، الاسياد المطاعين بالرغم عن النهضات الوطنية والدسائس السياسية . ثم بدت لي حقيقتان جوهريتان استنرت بهما قولاً وعملاً في عاصمة العباسيين . الحقيقة الاولى هي ان مفتاح نجد للاجانب الذين يبغون الدخول الى تلك البلاد من الجهة الشرقية انما هو بيد المندوب السامي . اما الثانية فهي ان الباب قلما يفتح لغير الانكليز ، بل لاولئك القلائل منهم المنتدبين لامور سياسية او المقربين من النظارة الخارجية . وقد رفض الوكيل السياسي في خليج العجم مراراً ان يأذن لبعض الاطباء الاميركيين في البحرين بالسفر الى نجد . هذه هي الحقائق الراهنة التي جُبهت بها في الدوائر السياسية وغير السياسية . بسموا لجسارتي بل لجهالتي في الحديدة ، واحالوني في عدن على المندوب السامي ، وسوفوني في بمباي . فماذا عسى ان يكون من امرهم في بغداد ؟

بعد ان زرت جلالة الملك فيصل على شاطىء دجلة الشرقي جئت الى دار الوكالة في الشاطىء الغربي ، لاقابل السيدة جرترود بلّ كاتبة اسرار المندوب

السامي في الامور الشرقية . والعراقيون يدعونها الخاتون . ولكنها في قوامها ونحولها وتيقظها انكليزية لا غبار عليها . كانت المقابلة الاولى في مكتبها . وكانت ، وهي القابضة على زمام الحديث ، تدخن السيكارة تلو السيكارة ، ثم تنهض عن الديوان فتتخطر في القاعة ، ثم تجلس وترفع رجلاً على رجل وهي تتكلم ثم تتكلم بدون انقطاع . فقلت في نفسي : لا تزال الخاتون امرأة والحمدلله . عرضت امامي عقلها في الجلسة الاولى فاعجبت به ، وكشفت الحجاب عن زاوية من قلبها فدهشت . وكادت ترفع الستار السياسي كله لتريني انها اخلصت العمل لفيصل وللعراقيين ، وان الانكليز لا يزالون اصدقاء العرب واقرب الناس اليهم . ثم قالت : لا شك انك تيقنت ذلك في رحلتك ياامين افندي .

وكنت شاكراً لانها لم تقف لتسمع جوابي ، بل استمرت في الحديث واطلعتني على امور تتعلق برحلتي لم يدهشني علمها بها . لاني اعلم ان وكلاء انكلترا السياسيين ومندوبيها في البلاد العربية يتبادلون التقارير السرية من حين الى حين . ومنهم من يكتب تقريره كل اسبوع فيرسل نسخاً منه لزملائه في مصر والسودان والعراق والهند الغربية .

عادت السيدة جرترود الى الملك فيصل الذي كان في تلك الايام غاضباً على المندوب السامي وعليها ، فلا يوقع المعاهدة المشهورة بين الانكليز والعراق فقالت : قد سعيت سعياً متواصلاً من اجل الملك فيصل ، فاقنعت رؤساء العشائر واستملتهم اليه . كانوا يقولون لي يا امين افندي : هذا حجازي اجنبي . وكنت اقول لهم : انا اكفله ، انا الكفيل . صدقني ياامين افندي اني احب العراق اكثر من حبي بلادي . انا عراقية .

تفقهت في مجلس الخاتون وتفكهت . وكان اعجابي بها وهي امرأة اقل من ارتيابي بشأنها وهي ولية الأمر او ولية العشائر في العراق . ولا يظن القارىء ان كاتبة المندوب السامي باحت بكل اسرارها الشرقية والعربية والعراقية في الجلسة الاولى . لا ولا في الجلسات العديدة التالية . فهي من هذا القبيل تكذّب ما نشيعه نحن الرجال عن النساء . وما ذكرت السيدة جرترود في هذا الفصل من

الكتاب الا لانها كانت في عهد السر برسي كوكس تقبض على مفاتيح الامور السياسية في العراق، وفي البلدان العربية والعجمية على الخليج التي يتولى المندوب السامي البت في شؤونها . ومفتاح نجد من هاته المفاتيح ، فهل تأذن به ياترى؟

سألتها سؤالاً دون ان اكشف عما جال في صدري من الريب بحسن نية زملائها، ودون ان اشير الى التناقض في ما قاله لي وكيل ابن سعود وما كتبه حاكم بمباي، فتغيرت عندئذ لهجتها وتغير اسلوبها ، فلم تجبني بالصراحة التي عرضت امامي مثالاً منها في حديثها عن العراق . ذلك لانها كانت لا تزال في ريب مما قد يكون من امري وسلوكي السياسي في بغداد . أجئت مبشراً بالوحدة العربية ، أم جئت اضرم نار الثورة على الانكليز ؟ . أجئت انصر الحزب الوطني او الحزب الحر او اصحاب الانتداب ، أم جئت من اميركه رسولاً سرياً لشركة من شركات النفط هناك ؟

هذه بعض الاشاعات التي انتشرت في بغداد وحامت على مكتب الخاتون ، ولكنها لم تتنازل ان تسألني سؤالاً واحداً صريحاً بخصوصها . بل كانت في حديثها تشير اشارة الى ما فيه الحجة الراهنة — بحسب ظنها — على علمها الوافر الشامل بكل ما يختص بالسياسة الانكليزية في البلاد العربية . واظنها اتخذت سكوتي دليلاً على الاقتناع ، او انها قرأت فيه شيئاً من الميل الى التصديق . واللوم او بعضه علي . فقد كنت حتى في ابتسامي اول مرة قابلت الخاتون غير الرجل الذي اعرفه ويعرفه الناس . وما ذلك الا لخوفي ان تحول امرأة دون رغبتي ، فداريتها في دارها . ولكني لم اخاتل ولم اداج ولا جمجمت الكلام في كل ما القيته من الخطب في بغداد . خرجت من مكتب المس بل وفي نفسي يتنازع الريب والامل . هي الحاملة المفتاح ، مفتاح نجد ، فهل تفتح لي الباب ؟

بعد ذلك قابلت المندوب السامي السر برسي كوكس ، فكان نقيض كاتبة اسرار الخاتون في انه اولى جليسه اولاً الحديث . سألني سؤالات تتعلق برحلتي فاجبته عليها بصراحة زمامها التحفظ . ثم ذكر حادثة القصر عندما

راح يهنىء الملك بعيد جلوسه ، فتكلم بما يبرىء نفسه من العسف والاستبداد في نفيه زعماء الحزب الوطني واقفال جرائده وناديه . ثم انتقلنا في الحديث ، فاخبرني حضرة المندوب ان في نيته زيارة السلطان عبد العزيز قريباً ، عله يتوفق الى رتق الامر بينه وبين العراق. وهناك معاهدة يريد استئناف المفاوضات بخصوصها .

قلت : زيارتكم اذاً في سبيل السلم والولاء بين اثنين من ملوك العرب . فقال : بل اكثر من اثنين ، وان اقصى تمنياتي ان امهد سبيل الاتفاق والولاء ما استطعت . فقلت : هو كذلك قصدي وسعيي . خذني معك اذاً الى ابن سعود فاخدمك في ما تأذن به ولا اتقاضاك والحكومة الانكليزية اجرة على ذلك . فضحك وفاه بكلمة لم اسمعها ، لان الخادم دخل اذ ذاك يقول : الغداء حاضر . فاستأذنت وانصرفت .

خرجت من مكتب المندوب كما خرجت من مكتب الخاتون متيقناً ان محجتي لا تزال بعيدة ، بل ان العقبة الاخيرة بيني وبين نجد هي كما قلت في اول الفصل اشد العقبات كلها . وليس الذنب في ذلك ذنب ابن سعود . فقد اجاب على كتابي كما تقدم بالايجاب والترحاب. ولكن للانكليزي في سياسته عوامل يأذن احياناً بالعرضي منها ليتمكن من مقاومة الجوهري الخطير .

جلست اسائل نفسي واناقشها : هل يمنعونك وانت اميركي ؟ قد منعوا غيرك من هذه التبعة ، وهم يكرهونها في العراق . الا يستطيع قنصل اميركه السعي من اجلك كما فعل زميله في عدن ؟ هو لا يعترف بالعجز ولا يتيقن الفوز اذا سعى . ألا يقدرون خدماتك في اليمن وعسير فيجازونك عليها ولو باجازة سفر الى نجد ؟ . الانكليز لا يعترفون رسمياً بخدمات تقدم لهم مجاناً . قد يشكرون وبعد ذلك لا يذكرون . واذا رغب ابن سعود بزيارتك وهم رغبوا عنها فاية رغبة تحقق ياترى ؟ . لا رغبتك ولا رغبة ابن سعود . لان سلطان نجد لا يغيظ الانكليز في صغيرة او كبيرة من اجلك .

هذا ما كنت اعتقده بسياسة ابن سعود في تلك الايام . ولا ازال على شيء

من الظن انها الخطة المثلى — وان كانت على فلست الوم — في ما لا يضر بمصلحته ولا يجحف بحقوقه . فمن هو الريحاني ليعادي سلطانُ نجد الانكليز من اجله ؟ ومن هو ليتغلب على الانكليز ؟ عييت عن الجواب ، ولكني لم افقد الامل ولا يئست . بل سررت جداً على الرغم من معقولي عندما قال المندوب السامي : سأزور قريباً ابن سعود . فرأيت نفسي — وما الفائدة من الخيال ومن الاحلام اذا كانت لاتشركك بنعيمها ؟ — رأيت نفسي مسافراً واياه الى الحسا . ولم يهمني اني في عملي هذا اثبت التهمة على نفسي . فيقول المخدوعون من الاصدقاء والاعداء : الا ترونه مسافراً والمندوب السامي ؟ فكيف لا يكون في خدمة الانكليز ؟ ولا بأس . كنت اعود ، ساعة يستحوذ علي اليأس ، الى هذه الرؤيا فانعش بها املاً بزيارة نجد كاد يتلاشى ، فينعشني الامل واسمع اذ ذاك همس صوت يقول : واتغلبن الانكليز .

اقيمت الحفلات الادبية في بغداد ، الاولى والثانية . . . . . والعاشرة ، وكانت الحكومة حكومة الانتداب تبعث بمن يسمع فيخبرها او يخبر بالحري المس بل بما اقول . واظنني هدمت جانباً من معقل الريب في اول خطبة فهت بها . تباركت في مثل هذه المواقف المرأة ، فانها اسرع الى التصديق وحسن الظن من الرجل ! دعتني المس بل الى بيتها بعدذلك مراراً . واقامت في مكتبة السلام التي هي رئيستها حفلة دعت اليها كبار العراقيين والانكليز وافتتحت هي الحفلة بخطبة ما أثر فيَّ ثناء مثل الثناء فيها ، ليس لانه من امرأة عالمة فهيمة ، بل لانه من نفس احسنت بعد ان اساءت الظن ، واخلصت بعد ان اظهرت الوداد .

ومع ذلك كنت عندما اقول : نجد . تقول هي : العراق . وعندما اقول : ابن سعود ، تعللني بالوعود . ولىّ الشهر الاول وتلاه اسبوعان من الشهر الثاني في بغداد وانا رهين مكارم الادباء العراقيين . ومعهم كما اشرت بعض افاضل الانكليز . وقد تسنى لي ان ازور اثناء ذلك الاماكن التاريخية والآثار القديمة في العراق ، فلم يبق في النفس حاجة ولا في البلاد أثر يشغلني او

يسليني عن امنيتي القصوى. ومتى شبع السائح من بلاد تقفل ابواب عقله دون الاستفادة منها مهما كان من اسبابها ومظاهرها. شبعت من العراق، وسئمت الاقامة خصوصاً في بغداد لاني مرضت ثلاث مرات فيها بالحمى. زد على ذلك، اني كنت مشتاقاً الى بلادي واهلي، فحدثتني نفسي مراراً بالسفر الى سورية الا اني كتمت ذلك عن المندوب وعن الخاتون، وما اظهرت غير تلك الرغبة الشديدة في زيارة ابن سعود. فأشعت في مجالس رسمية ان سوف لا اتحرك من بغداد حتى يجيئني الاذن بالسفر الى نجد. الحرب خدعة وحرب الارادات لا تخلو من الخداع. اني على يقين ان لو علم المندوب السامي آنئذٍ بما جال في خاطري، لو علم اني سئمت الاقامة في بغداد وكنت على وشك السفر الى سورية، لسوفني اسبوعاً اخر ولأفلحت سياسة الملاطفة والتأجيل. فأكون قد حُرمت علم اهمّ ما في البلاد العربية اليوم.

ولكن المس بل اخذت الامر بناصيته عندما حان وقت السفر للمندوب السامي والتني معروفاً اسجله لها، شاكراً سعيها وحسن ظنها. كلمتني يوماً بالهاتف فقالت: ستسافر مع المندوب السامي. ولكن سقوط وزارة لويد جورج في ذاك الحين اضطرت المندوب الى تأجيل سفره. وبما اني كنت وعدت ادباء البصرة بزيارة سافرت من بغداد قبله، وفي نيتي حسب الاتفاق ان انتظره هناك، فنترافق الى البحرين ثم الى العقير.

اشرت فيما تقدم الى مظهر في سلوكي الادبي والاجتماعي هو ثمرة الاسفار في البلاد العربية، بل ثمرة الحكمة العلمية. فلولا تلك الحكمة كنت فشلت في اول المراحل وعدت خائب الامل. اجل، قد داريت في بعض الامور، واكثرها سطحية لأفوز بكل ما اروم من العلوم والاخبار. او بالحري كنت صريحاً على عادتي عند ما كانت الصراحة تفيد. وقد كنت اشد تحفظاً واتقاءً في المعيشة والاسفار حباً بالرجوع سالماً اولاً الى اهلي وثانياً الى مهنتي. اذ ما الفائدة لمثلي من رحلة عربية اذا كنت لا اسلم فيها لاخبر عنها ولو في كتاب واحد؟

كانت الحكمة العمليــة شرعتي اذاً ودليلي . فهي التي حملتني على السفر وحدي الى ابن سعود . واظنها كلمت السر برسي كوكس كذلك في الموضوع فانتصح مثلي بنصيحتها ، فابرق يخبرني بانه سيتأخر اسبوعاً ثانياً وان لي ان اسافر قبله اذا شئت . وحسناً فعل وفعلت كما سترى ايها القارىء العزيز . فاني اعدك بالصراحة في ما اكتب الان ، بكل الصراحة التي الفتها مني ، على شرط ان يكون فيها دائماً شيء من الفائدة او التفكهة .

الفصل الثالث

في البحرين

نجدي يحذرني من السياحة في نجد — رسول اليقين والخير — «عظمة السلطان ينتظركم في الحسا» — من سراديب بغداد الى قصور البحرين — في ضيافة وكيل السلطان — الشوق يهمد والفكر يشتغل — من هو ابن سعود؟ — ما سمعته في الحجاز وفي العراق — رأي الانكليز — رأي اديب نجدي — كتاب من السلطان — ما تخبئه الصحراء .

وقد حاول بعض اصحابي في البصرة ان يحولوني عن عزمي وقصدي ، قالوا اني لا اقوى على مشقات الاسفار في البلاد النجدية ، في تلك البلاد الغنية بالمفاوز والرمال . جسموا في عينيّ المخاطر في ركوب البعير ، وفي الدهناء ، وفي بلاد البدو والاخوان . كنت ذات ليلة ضيف حضرة الفاضل احمد باشا الصانع متصرف البصرة ، وهو نجدي لا يزال يلبس العباءة والعقال ، فقلت خلال الحديث عن اليمن : عند ما دخلت الى صنعاء احسست اني رجعت بغتة الى الجيل العاشر . فقال احمد باشا : وسترجع الى الجيل الخامس في نجد . ما لك وهذه السياحة وكلها مشقات واخطار ؟ يمكنك ان تزور ابن سعود في الحسا وترجع . هوذا نجدي يحذرني من السياحة في نجد . فهلا انتصحت وارعويت ؟ لا انكر انه اعتراني آنئذٍ شيء من الخوف .

ولكن في اليوم الثاني زارني اديب من الادباء ، وقد شاءت الاقدار أن يكون بعدئذٍ رفيقي في السفر وعشيري في الرياض ، فعرفت فيه العربي الحر ابن القفار والبحار الذي يسرك ويسيء اليك عفواً دون تكلف في احد الامرين . وسيجتمع القارىء ، من حين الى حين ، بالسيد هاشم ابن السيد احمد الرفاعي من الكويت . كان يومئذٍ في خدمة سلطان نجد كاتباً من كتاب ديوانه ، وقد جاء البصرة في مهمة رسمية ، فزارني يوم كنت والحق يقال في حاجة شديدة

الى زيارة مثله . حدثني السيد هاشم فازال ما كان يخامرني من الخوف في السفر الى نجد ومن الريب برغبة ابن سعود الحقيقية في زيارتي ، ثم قال : عظمة السلطان يعرفكم مما يطالعه عنكم في الجرائد التي تصله كل اسبوع ، وهو متشوق الى مشاهدتكم وينتظركم في الحسا . . . نعم ، السلطان عبد العزيز يحب الاجتماع بكل اديب عربي مخلص لبلاده . وقعت هذه الكلمات في اذني وقع الانغام المطربة . ولكنت قبّلت السيد هاشم بين عينيه لو ان الرسميات التي الفتها في البلاد العربية تسمح بذلك . الا ان القلب رقص طرباً دون ان يشين ادبي او يحط من كرامتي امام الزائر الكريم . سافرت وانا في هذه الحال الى البحرين . ومن حسن الاتفاق ان السيد هاشم كان رفيقي في الباخرة .

البحرين ، جزيرة اللؤلؤ ، هي بعد الكويت اهم محطة في الجهة الغربية من خليج العجم لبواخر الهند وللتجارة بين الهند ونجد . وهي كذلك درجة امام الباب — باب نجد الشرقي — لا بد للمسافر ان يقف عندها فيستبدل فيها البخار بالشراع اذا كانت وجهته العقير او القطيف . وفي البحرين وكالة لابن سعود يرأسها عبد الله القصيبي احد اعضاء البيت التجاري المشهور هناك .

نزلنا من الباخرة بعيدين عن الجزيرة وسرنا في شراع فوق منازل اللؤلؤ الراقد تحت الامواج ، والبحر ساعتئذٍ رهوٌ ، والهواء عليل ؛ وشمس الصباح تتهادى بين الاثنين . فبدت المنامه خلالها مشرقة بيضاء كانها ابراج شيدت من لؤلؤ ؛ او جبال لؤلؤ صعدت من اماكن الغوص ورستْ في صدر الخليج . وكان الشراع يهمس سلاماً عند ما يمر بشراع اخر وكلها مثل اجنحة الحمام تميس وتتهادى على بساط من الزمرد ، كانها تتلو القصائد في مديح اميرة اللؤلؤ ولؤلؤة البحار .

وما ساءنا ان وصلنا اليها لانها عن كثب وعن بعد سواء . فمن الرصيف سرنا الى بيت على البحر جميل اعده القصيبي لضيوفه وضيوف سلطان نجد . وكنت انا والسيد هاشم في اليوم الاول سيدَي تلك الغرف الفسيحة المشرفة كلها على الخليج ، وذاك الايوان الواسع الطويل المحيط بها من الجهات الاربع .

وفي اليوم الثاني انفردت بالسيادة فانساني هذا القصر سراديب في بغداد كنا نأوي اليها في النهار، وسطوحاً نلجأ اليها في الليل . ليست البحرين بنجد ولا من بلاد نجد اليوم . ولكن ضيافة ابن سعود ومكارمه تبادر الزائر اليها لترحب به وتحييه باسم سيد العرب في بلاد العرب . جاءني القصيبي بكسوة وبخياط يوم وصلت فاصبحت في اليوم الثاني وانا عربي نجدي في ما تحت وما فوق الزبون (١) وزرت في المحرق الشيوخ شيوخ آل خليفه فعلمت آسفاً اني اخطأت فيما سبق من امري فلم انزل ضيفاً عليهم . ولكنني اقت ببعض الواجب الادبي وكان عملي على ما اظن مرضياً .

عند دخولي البحرين فقدت حريتي في ما يتعلق بالاسفار او بالحري تنازلت للسيد هاشم عنها . وكان من فضل الرجل انه وقف نفسه على خدمتي قبل ان ينتدبه السلطان لذلك . فمنذ اليوم الاول في الجزيرة الى اخر يوم في الرياض تواصلنا وتآخينا في ما يشمل حتى العقليات وشيئاً من الروحيات . ولا بد في مثل هذه الحال من فترات تنقبض فيها النفس فتضيق الطريق، ويسيء الرفيق الى الرفيق .

سافر السيد هاشم وحده الى الحسا ليجيب عن المهمة التي انتدب اليها في البصرة فارسلت معه كتاباً الى عظمة السلطان اخبره بوصولي الى البحرين . وعدت بعد ان خلوت بنفسي الى النظر في ما اجتمع لديّ من الاراء المتضاربة فيه . عندما قربت من الرجل سكن الشوق قليلاً واستيقظ الفكر وما يلازمه من الهواجس والظنون . فقد كان شوقي قبل وصولي الى البحرين كنار الغضا تأججاً، فاصبح وقد قربت محجتي، وزالت — ذُلّلت — العقبة الكبرى، كلهيب العرفج صامتاً هادئاً .

ذكرت ما قيل في الحجاز وفي العراق : ابن سعود بدوي جاهل ظالم . ابن سعود جلف، لا قلب ولا دين له . هو من الخوارج ، بل من الذين يخدعون

(١) الزبون في العراق وفي نجد هو القباء او ما يسمى في سوريه القنباز .

وينافقون باسم الدين . والاخوان رجاله ذئاب تعصب ضارية يذبحون ويحمدون الله . يسلبون وينهبون ، ويكفرون من لا يقتدي بهم . يشنعون بالقتلى في الحرب ويرتكبون من الفظائع ما تقشعر منه الابدان . . . ان دعوة ابن سعود مذهبية لذلك لا تنجح خارج نجد . لا أمن في الجزيرة ولا راحة للعرب ومطامع ابن سعود السياسية تزداد يوماً فيوما . هذا ما يسمعه الناس دائماً في الحجاز وفي العراق وقد رددت مصر والشام صداها .

وذكرت ما قيل لي في الحديدة وفي عدن وفي دار الوكالة الانكليزية ببغداد : ابن سعود رجل كبير . هو نابغة بلاده ، هو السياسي المحنك ، والقائد الباسل ، والحاكم العادل . هو اكبر امراء العرب اليوم واقواهم . . . رجل عظيم رجل نجد . هو ابن البادية التي ينبغ فيها من حين الى حين كبار الرجال . فيظهرون فجأة ويسودون الناس بالعقل قبل ان يسودوهم بالسيف وهذا ما يقوله الانكليز وبعض العرب خارج الحجاز والعراق .

اما رأي الفريق الاول فمصدره مكة والاشراف . بل هو ثمر ذاك العداء القديم الذي لم يزل مستحكماً بينهم وبين الوهابيين . ومصدر رأي الفريق الثاني انما هو المشاهدة والمنقول عمن شاهدوا . وقد يكون مصدره السياسة او المصلحة السياسية . كنت اعجب عندما اغربل هذه الاراء المتناقضة في سلطان نجد لما تبقي في الغربال فاقول : وشهادة الصديق مثل شهادة العدو ، اساسها الميل والغرض . فلا تصدق الاشراف ولا تصدق الانكليز . الرجل حليف هؤلاء وصديقهم ، الرجل عدو اولئك الأكبر .

ثم اجتمعت في البحرين برجل يرى غير ما يراه الفريقان ، وهو اديب وهابي من ادباء نجد معجب بابن سعود ولكنه قليل الكلام فيه . سألته رأيه فقال : انت ذاهب اليه والراغب مثلك في الحقيقة يصم اذنيه ويفتح عينيه . ثم قال : اسألك يا حضرة الاستاذ بل ارجو منك ان تشير على عبد العزيز وتلح عليه بان يفتح المدارس في بلاده . وهذه كلمة رسخت في ذهني لان قائلها مجرد عن الاهواء السياسية والمذهبية . هي مصباح بيد صديق لابن سعود اضاء موطناً من مواطن

الضعف في بلاده . وقد ذكرتني كلمة الاديب النجدي بكلمة متصرف البصره :
ستنتقل وانت في نجد الى القرن الخامس .

وكان في البحرين يومئذٍ رجل اخر معجب بابن سعود راغب في تحسين حال من احوال نجد وهو الميجر دكسون وكيل المندوب السامي او بالحري مأمور الارتباط بين المندوب السامي في العراق وبين لسلطان عبد العزيز . ذلك لان السلطان طلب من الانكليز ان يكون اتصاله بحكومة لندن رأساً اي بواسطة مندوبها في بغداد لا بواسطة حكومة الهند (١). والميجر دكسون انكليزي ولد في سوريه وله شغف بالعرب وبلادهم ، لست ادري اين تبتدىء المصلحة فيه . حدثني ذات يوم قال : ابن سعود رجل عظيم وقد يكون نظري فيه نظر من يؤله الابطال . هو الحاكم العربي الوحيد الذي تمكن من تأديب البدو وعرف كيف يحكمهم . عنده السيف ، وله القلب الكبير ، ولكن يلزمه ادارة في ملكه . ويلزمه زيادة في الخراج . اني اودّ من صميم قلبي ان يكون القطيف ميناء كبيراً لنجد ترسو فيه البواخر فتتحول اليه التجارة من البحرين ومن الكويت . ولكن ذلك يستوجب ان يكون في القطيف قنصل انكليزي . والسلطان عبد العزيز لا يقبل قناصل في بلاده . حدثه في الموضوع عندما تقابله .

وهاك من انكليزي معجب بابن سعود نوراً يضيء موطناً آخر من مواطن الضعف فيه . وهل هي مواطن القوة ؟ كاني باهل نجد يقولون نحن نخشى الاجانب ولا نريدهم في بلادنا ، الرجل الاولى تجر وراءها الالوف . انه لعذر مقبول ولكن ما العذر في الجهل ؟ أيكره التعليم غير البدو ؟ أيرغب في الجهل غير البدو ؟ أبدوي اذاً سلطان نجد ؟ وهل للبدوي اخلاق سامية وشعور لطيف ، ومطامع في الدنيا مقرونة بالحكمة والاعتدال ؟ ها اني قربت من ابن

---

(١) والفرق بين الاثنين كالفرق بين طريق العربات في الجبال وطريق الرجل اي المقربة . والسلطان عبد العزيز على ما اعلم يكره الدورات . ان لحكومة الهند مثلا وكيلا في البحرين ، ولها دوائر سياسية ونظارة خاصة في لندن لا يهم ابن سعود شيء منها ، لان علاقته هي مع نظارة الخارجية . وما حكومة الهند غير عقبه ، بل هي مثل الدهناء بينه وبينها .

سعود وقربت من الحقيقة فيه . وبت انتظر جوابه لأصل اليها واتيقنها بنفسي. وهاك الجواب الذي جاءني بعد اسبوع من سفر السيد هاشم :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود الى حضرة الوطني الغيور والمصلح الكبير امين افندي الريحاني المحترم دامت افضاله امين.

سلاماً وشوقاً وبعد فبأشرف طالع وردني كتابكم الكريم المنبيء بوصولكم الى البحرين وانكم مزمعين التوجه الى طرفنا . اهلاً وسهلاً على الرحب والسعة . تالله لقد سررت جداً بذلك فطالما كنت مشتاقاً للقياكم . وقد حققت الايام شوقي والحمدلله . الا انه لا يسعني الا أن اظهر شديد اسفي لعدم اشعاركم لنا تلغرافياً في حين توجهكم من البصره ذلك الأمر الذي اوجب فتوراً قليلاً في اخبارنا وكيلنا في البحرين لملاقاتكم لاني سألت الخبيرين بمعرفة اوقات وصول المراكب الى البحرين وعلمت منهم ان المركب القادم من البصرة ربما يتأخر وهذا وحده حصل تأخير منا فارجوكم المسامحة . نحن بانتظاركم وقد أمرنا وكيلنا القصيبي ان يهيء لكم سفينة تقلكم الى العقير وبوصولكم اليها تجدون السيد هاشم بانتظاركم وبالختام تفضلوا بقبول الاحترام ودمتم

في ٢٧ ربيع اول ١٣٤١ الختم

هذا اول كتاب جاءني من السلطان عبد العزيز . نشرته لتظهر حقيقة فيه اثبت الخبرُ خبرها . فالرجل لا يتكلف اللطف ولا يتكلف التواضع ، لانهما من خلاله الفطرية . ولكان اللطف والتواضع اجمل ما في الكتاب لولا درة الاخلاص . ومع ذلك فلا بد من التحليل والتعليل توصلا الى الحقيقة كلها . قد تقترن عفواً رقة الشعور بالشدة حتى في البدوي . فهو اذ ذاك رجل كبير الخلق . وقد تقترن كرهاً اي صناعة فهو اذ ذاك سياسي يحسن التلبيس .

والمجاملة . وقد لا تقترن قطعاً ، وسواء كان شديد البأس او دمث الاخلاق ، فهو في هذه الحال رجل عادي له من يومه ما لعامة الناس . فهل الرجل الذي انا زائره ممن طُبعوا على شيمة اللطف والرقة وكانت القوة فيهم او في اعمالهم بنت الحوادث والاحوال ؟ ام هو سياسي محنك يغلب خصومه بالمكارم ويسود امته بالدهاء ؟ هل ابن سعود من اولئك الافراد القليل عددهم في البلاد العربية بل في العالم اجمع ، أولئك الذين يبقون على شيء من الفطرة مهما عظموا او تعاظمت شؤونهم ، اولئك الذين يسيرون الى محجتهم في السراط المستقيم فيأخذون الحكمة من لوح الوجود لا من الكتب ، ينبغون ولا يتفوقون ، ويكرهون ولا يخاتلون ، ويحبون ولا يملقون ، ويسودون ولا يظلمون ، ويعدلون ولا يخافون غير الله ؟ اننا في الطريق ايها القارئ وستنكشف لنا الحقيقة التي تخبئها الصحراء دون ذلك الافق اللازوردي وراء تلك الاكام الذهبية .

الفصل الرابع

في ظل الشراع

حسنات السفر البطيء — السفينة والقطار — منكرات البخار — في ظل الشراع — الجلبوت — سكن الريح — طرد في القبة — الامر برفع الشراع — «شلنا وتوكلنا على الله» — ! الرياح تسبق البخار — الصلاة في ظل الشراع — الامير والقصر — ما هما في نجد — العقير — موانيء السلطان الثلاث — الطريق الشرقية الى نجد — سفن اليم وسفن الصحراء تتبادل احمالها .

من حسنات الاسفار تنوع اسبابها وطرقها . وان الابطاء في القديم منها أحب الى السائح من الابطاء في الحديث الذي اخترع ليطارد الريح ، فينهب كما يقال المسافات . ما الفائدة اذاً من بخار لا يحسن النهب ؟ أبحرت من عدن ووجهتي ابن سعود فاجتزت اولاً بحر الهند في باخرة كبيرة فخمة الرياش معتدلة في سيرها . ثم خليج العجم ، فصفرت الباخرة ، وبخست العدة ، وطالت علينا المسافة والايام . ثم قطعت فيافي العراق بين البصرة وبغداد في قطار مخلّع مرجرج — هو اثر من آثار الحرب — لا شك ان قطار الشحن في اميركه اسرع منه . وعدت من بغداد في مركب من مراكب دجلة وقد آليت على نفسي الا اكون غير شرقي كسول فلا اعد الساعات ولا احاسب البخار والآلات . فكانت السفرة لذلك جميلة ، قصرت وان تعددت ايامها . ثم في رجوعي من البصرة الى البحرين خبرت في البواخر ابطأها سيراً فقلت : تباركت الاقدار في الاسفار . هي تبدل في الاسباب التي تزداد ابطاءً كلما قربنا من محجتنا ، فنتمرن اثناء ذلك على الصبر والتحمل ، وعلى التأمل والتفكير . ولا شك انا نصل الى تلك المحجة بالرغم عن طول المسافات وبطء المطايا البخارية والحيوانية اللهم اذا ثبتنا في السير والترحال .

قد كان سروري في خروجي من البحرين مثل سروري في الوصول اليها

كيف لا وكل خطوة الان تدنيني من البغية القصوى. فقد ذللت من العقبات البحر والانكليز ولم يبق امامي غير زاوية من الخليج تأبى البخار، وارض لا تلين لغير الابل. ان الساحل في تلك الزاوية، جنوباً بغرب من البحرين، على مسافة اربعين ميلاً من المنامه. هو اول ما نشاهده من ملك ابن السعود. هناك العقير [1] وشاطئ الاحساء الذي يرى من مكان في اخر الجزيرة يدعى رأس البر. اما المسافة بين البلدين فهي رهن الشراع، والشراع رهن الرياح. فاذا لانت كان حظك من السفر على طريقة الاجداد ست ساعات فقط. واذا عارضت تفوز بالثلاثين. وقد تتجاوز الثلاثين اذا كنت الى « نبتون » من المقربين.

قد احبني اله البحر فاستبقاني في مجلسي، في الجلبوت [2] نهاراً واحداً وليلتين. اذ بعد ان خرجنا من مياه المنامه مساء سكنت الريح ولم يتحرك بما يرضي الله والشراع حتى انتصاف الليلة الثانية. وكنت اثناء ذلك اذكر القصيبي بالخير واشكره خصوصاً على كرسي نمت عليه وطاء انعشني بشيء من المرق. وبينما انا نائم في الليلة الثانية، بل مرمي كطرد في القبة وقد برد الدم مني وتعقدت الاعصاب، سمعت صوت الناخوذاه يصدر الاوامر برفع الشراع، وسمعت الملاحين يرددون انشاداً: شلنا وتوكلنا عْلالله. شلنا — وتوكلنا عْلالله. فتحركتُ في معقلي الصغير وقد انعشني الهواء كما انعش من الجلبوت الشراع. وشكرت مسكّن الرياح ومثيرها. فقلت: لا شيْل يقيناً لولاها ولا توكل على سواه. — شلنا وتوكلنا على الله.

كنا في الهجيع الثاني من الليل قريبين من بر ظننته الاحساء فما صدقت

---

(١) القاف في بعض الكلمات تلفظ جيما في نجد فيقولون العجير.

(٢) الجلبوت مركب شراعي، صدره وهو للبضاعة مرتفع مستطيل. وفي مؤخره قبة او علية للمسافرين يسميها الملاحون عرشة. وهو اذا كان كبيراً شبيه بالمهيلة في العراق وبالسنبوك في البحر الاحمر. واذا كان صغيراً فلا يكون له عرشه فيشبه اذ ذاك البلم. اما اسمه جلبوت، ولا يسمى كذلك الا في البحرين، فهو على ما اظن تحريف Jolly Poat في الانكليزية اي مركب لطيف.

ظناً ، وشد ما كانت دهشتي وخيبتي لما علمت اننا لا نزال عند بر الجزيرة . على ان الرياح تجاري اذا شاءت البخار ، وتسبق الحديد الدوار . ولا اظنك تماريني في ذلك اذا كنت ملاحاً . اجل عندما ينتفض فيمتلي الشراع فقل للمسافات : الوداع . ان هي الا ساعة حتى اجتزنا رأس البر وكان الهواء قد اثقل جفني فنمت قليلاً ، ثم ايقظني صوت الملاحين وهم اذ ذاك يشتغلون في قلب الشراع طوعاً للريح ويرددون : صلِّ على النبي . صلِّ عا لا النابي ! . وربك ايها القارىء ما سمعت في انغام الليل على المياه اطرب منها . الا ان يكون صوت المؤذن في الخليج وهو يؤذن الفجر . ليس في صلوات الامم كلها ادعى منه الى الورع والخشوع ، وقلَّ فيها ما هو اجمل وقعاً في النفس من صلاة الملاَّح في ظل الشراع .

صلى اخواني الفجر ، عندما دخلنا ميناء العقير ، ورفعوا العلم ، علم ابن سعود ، وهو اخضر ذو حاشية بيضاء مكتوب عليه : لا اله الاّ الله . وقد كان ينتظرنا هناك على الرصيف السيد هاشم وامير القصر ، فمشينا معهما الى البيت المعد للضيوف . وفيه سرير ابهجني مرآه . واعجبت كذلك بذوق رفيقي الذي علم السبب في ابطاء السفينة وقرأ في وجهي قصة الليلتين ، فتركني والسرير وانصرف .

ذكرت الامير والقصر . فلا يظنن القارىء ان القصر قصر وان الامير امير . بل هي اسماء اصطلح اهل نجد عليها . فهم لا يرغبون في الالقاب بل يزدرونها ، ولا يرون غير المساواة ، وقد ساوى بينهم دين التوحيد شرعاً وسنة . اما اذا شاء امامهم ان يسمي عماله امراء ، وقد يتضمن ذلك التحقير لمن يدعون النبالة ولا يستحقونها ، فهم لا يعترضون . واذا شاء النجدي ان يسمي خربة له في الصحراء قصراً فلا الامام يعترض ولا الرعية . اما الامير الحقيقي عندهم فهو من يعبد الله وحده ، ولا يشرك به احداً ، ولا يخاف ولا يرتجي سواه . واما القصر الحقيقي فهو المسجد

ليست العقير بمدينة او قرية ولا هي حتى مضرب من مضارب البدو . انما

العقير اسم لقصر من القصور التي ذكرت ، ولجمرك من جمارك نجد في الاحساء على ساحل الخليج . العقير هي احدى موانيء السلطان الثلاث يتبعها القطيف والجبَيْل شمالاً منها . ولكنها موانيء قلما يُرى فيها غير المراكب الشراعية . ومن العقير تبدأ الطريق الشرقية الى نجد .

اما القصر فبناء كبير مستطيل يقيم في جناح منه الامير والضيوف ويستخدم الجناح الاخر للجمرك وللحامية التي لا تتجاوز العشرة الانفار . وامام القصر على الساحل ساحة كبيرة تمرح فيها الابل وتُنزل اليها البضاعة ، فتتبادل سفن الصحراء وسفن اليم احمالها . الخام والارز والسكر من بُمباي والزيت من عبّادان—احملها يا بعير الى ما وراء الدهناء . والتمر من الحسا والجلود والصوف من سدْير والوشم ، والسمن من الخرْج والافلاج — خذها يا جلبوت الى البحرين لتنقل من هناك الى ما دون الخليج والبحار .

الفصل الخامس

الملتقى في النفود

قدوم المندوب من العراق — خروج السلطان من الحسا — اول يوم على الذلول — الغزالتان — النفود — ام الذر — الجمّار المجّان — المراح والمناخ — الشيوخ — الارض الذهبية — السادة والخدم يلعبون — حلم تحققه الايام — « من الربع ؟ » . السلطان قادم اليكم — التأهب لاستقباله — سجادة ورحل ونار مشبوبة — « ياسعيّد ! » — الليل والنفود — « ضج المكان بموكب السلطان » — السلطان يزورنا في الخيمة — ما قيل له وما قاله بخصوص الريحاني — امراء العرب والوحدة العربية — « حبّذا (نحن) العرب » — اول من دعا الامراء الى الاجتماع والائتلاف — رجل يثق بالله وبنفسه

يوم سفري من البحرين اخبرني الميجر دكسون بان المندوب السامي السر برسي كوكس يسافر من بغداد في القريب العاجل وقد يصل الى الجزيرة بعد بضعة ايام . وعندما وصلت الى العقير اخبرني السيد هاشم بان عظمة السلطان يخرج قريباً من الحسا ليلاقي المندوب السامي في المكان الذي نحن فيه. فاخرجت خريطتي وقست المسافة بين الحسا والعقير — ٤٠ — ميلاً وقابلت بين اثنتي عشرة ساعة على الذلول ذهاباً ومثلها اياباً ، اذ لا بد من الرجوع مع السلطان ، وبين يوم على الشاطيء استعيد فيه قواي واستعد ، اتمرن على ركب البعير . للسفر في البادية ، فكان الحكم والحكمة في جانب الثاني ، وكتبت الى السلطان اطلعه على حقيقة حالي واستشيره في الأمر . — اذا امرتم بالقدوم اليكم او بانتظاركم في العقير فسمعاً وطاعة في الحالين .

حمل كتابي نجاب الامير صباح الثلاثاء ، وعاد صباح الاربعاء بجواب فيه ما تناهى من لطف الاسلوب ورقة الشعور . — الامر راجع لرغبة حضرتكم وتبعاً لراحتكم — . واخبرني السلطان انهم سيخرجون يوم الخميس من الحسا ويسيرون الهوينا ليصلوا صباح السبت الى العقير . كنت قد عزمت على ملاقاته

في منتصف الطريق اذا قويت على ذلك، وعندما علمت من السيد هاشم بان سموه قد يرغب في الاجتماع بي قبل ان يجتمع بالمندوب السامي شددت حقويّ وقلت : الى البادية .

أعدَّت لنا الركائب وسافرنا — سرحنا — صباح الخميس انا ورفيقي الاديب يصحبنا خمسة من الخدم . وكان اول عهدي بالذلول[1] وبالنفود[2] فابهجتني هذه وازعجني ذاك : وكنت في كل حركة احس بشيء تحتي او حول رجلي وجنبي لا يجوز في نظري ان يكون هناك . والغزالتان[3] بليتان، تدق الواحدة صدري والاخرى ظهري كلما حدوت الى الامام والى الوراء . والكور، اكاد اطيح منه . هو مائل الى الامام . مائل الى اليمين، مائل الى اليسار ! والشداد « الرحل » ان فيه ما يحتك بالجنب . وما يقرص الرجل . ، وما يسيء — اي والله يسيء الادب ! ياسيد هاشم . . . — ابشر ابشر .

بارك الله فيه ماكان الطفه في تلك الايام واكرمه . أنخنا الركائب، وجاء احد الخدم يقول سَمّ[4] فعدل الرحل واصلحه . ثم ركبنا وتوكلنا على الله،

---

(١) الذلول الهجين المعد للركوب من ذلّل ذالله للركوب . ولا يكون الذلول غالباً الا ناقة وما سمعت له جمعا . وهم عندما يريدون الجمع يقولون الركائب .

(٢) النفود بادية رمل بين ساحل الخليج والحسا تمتد من القطيف شمالاً الى راس الجافورة جنوباً وعرضها من حيث نقطعها الى الحسا ٢٥ ميلا . اما الاسم فقد يكون مشتقاً من نفد اي نفدت الارض من الماء والكلاء . والنفود تختلف عن الدهناء في تكوين تلالها الرملية وعلوها . فهي في بعض الاماكن شبيهة بالجبال وليس فيها مقالي اي مراعي . والدهناء في بلاد العرب واحدة، والنفود كثيرة .

(٣) الغزالتان خشبتان مرتفعتان مستقيمتان في الكور، واحدة الى الامام والاخرى الى الوراء تقيان الراكب من السقوط، وتستخدمان في التحميل لشد الحبال وتعليق الاحمال . وهما في شكلهما وفي وضعهما انواع . فالغزالتان في نجد مثل الخطين المستقيمين في الهندسة، او مثل الشمعتين في شمعدان واحد . وفي بعض الاكوار تراهما مائلتين الواحدة نحو الاخرى وترى الراكب بينهما كانه فحمة في ملقط . ولكن النجدي على الذلول اقوم من الغزالة واثبت . اما في الشمال اي بادية الشام فالغزالة توضع في شكل زاوية منفرجة Obtuse، الواحدة الى الوراء والاخرى الى الامام، فيضبح مكان الجلوس في الكور منفرجاً والراكب مهما حدا في مأمن من الدق والاحتكاك . وفي عمان هم يستغنون عن الغزالة، فالكور عندهم مثل السرج الانكليزي

(٤) اصطلاح نجدي وهي مختصر بسم الله .

فاجتزنا الاول والثاني من افاق النفود الذهبية ، ووصلنا الى مكان يدعي ام الذرّ [١] ، انخنا فيه وكنت انا اسرع الى ذلك من سواي. لان سَمْ « بسملة » الخادم لم تصلح الرحل ولا ألانت قلب الغزالة ولم اكن يومئذ لأرى لها مصلحاً غير الله. عند ما انخنا طفق الربع ينكثون الرمل بايديهم فيظهر الماء تحت قدم اوقدمين منها. ان ام الذرّ مورد القوافل الوحيدة في هذه الطريق من النفود.

ملأنا القرب واستأنفنا السير. وكان معنا حمّار مجّان ، كثير الاسفار والهذيان يحمل حماره بعض المواعين والحطب ، وهو يعدو وراءه كالسعدان ، فيرقص رجليه ويديه ، ويسمعنا نكات اهل الامصار — البصرة والبحرين والكويت — ويمثل لنا رقص البطن ؛ ويردد كلمات ما سمعتها لا في الشرق ولا في الغرب. حمار مجان! ما رأيت اصقع منه حينما كان يجثو على ركبتيه كل مرة يظن نفسه اجاد ، وما اجاد بغير البذاءة لفظاً وايماءً. على انه انساني بعض ما كنت اقاسي من ركب الذلول. وكانت ضحكتي تضيع في قهقهة الربع ، وكلمتي تتلاشى عند امواج ثرثرتهم.

—اسمه ياهويدي « تصغير عبد الهادي » جاوب الاستاذ. هو يسألك أيشو الـ« موتر » [٢] ؟

—الموتر يا افندي تجري ، وتغزل ، وتدور. الله ، الله! الدعشوقه ، الخفيفة ، السريعة الحركة هي الموتر.

قال هذا ووقف يهز كتفيه وعطفيه. مهما كان من بذاءة الرجل فقد احسن الي في يومي الاول في البادية فخفف مشقة عشرين ميلاً اجتزناها في ذاك اليوم. ثم مرحنا [٣] العصر في مكان يدعى العلاة [٤] وعلمنا من بعض

(١) ام الذر من شجر حول المكان يدعى الذر وهو شبيه بالعشر.

(٢) في البلدان العربية على ساحل الخليج وفي العراق يسمون السيارة -الاوتوموبيل- « موتر » ويطلقون في البصره اسم الموتر على الراقصة التي تجيد الرقص.

(٣) مرح القوم اي اناخوا للمبيت وسرحوا اي خرجوا من مراحهم. ويسمى المكان المراح. اما الاناخة فلا تكون الا للراحة ولشرب القهوة اثناء الرحيل.

(٤) العلاة من علو المكان على ما اظن وهو لا يعلو اكثر من ثلاثماية قدم فوق سطح البحر.

الذين كانوا قادمين من الحسا بان الشيوخ [١] مارحون في الجشه على مسافة عشرة اميال منا . فارسل السيد هاشم رسولا يعلمهم بمكان مراحنا ، واننا سنقفهم هناك في الطريق صباح الغد . واظنه رغبة في راحتي ، اباح للرسول بما كنت احاول كتمانه . — الذلول ذبح [٢] الاستاذ .

ولكن التعب والالم لا يدومان طويلاً في فسح الرمال وسكينة النفود . فبعد ان نصبنا الخيمة وشببنا النار وتقهونا [٣] تهافتت حسنات المكان علي . فلكني من السرور ما كان قد هجرني راكباً ، ورحت اتغنى . بمدح ارض يحلو هواؤها ، يحلو شكلها وفسحاتها ، يحلو لونها وسكونها ، يحلو وطؤها ، تحلو مجسّتها . وبعد العشا تبارينا برمي الجريد ، وتسابقنا حفاة في العدو ، ووقف ماجد على يديه ليبرهن لرجحان ان رجليه ارفع من رأسه «اي رأس رجحان» وانه مستقيم وان كان « ابدُوي » بدوياً ، كيفما وقف او مشى ، وانه قوي يغلبه بكل شيء : بالصراع ، بالعدو ، بالقنص ، بالركوب ، وباو . . . فاوقفناهما عند هذا الحد في المفاخرة . فاستعاضوا عنها بالغناء واللعب « الرقص » .

دخلت الخيمة والخدم لا يزالون في السمر ، فاستلقيت على السرير وانا في بهجة مَن حققت الايام حلماً من احلامه ، فهاهي الصحراء ، وهوذا الهجين ، وهؤلاء العبيد عبيدي ، وها انا ذا جار لامير من امراء العرب ، لسلطان نجد . وما كاد الحلم الذهبي يغمض جفني حتى سمعت صوتاً يسأل : مَن الربع ؟ ثم اناخ عند نارنا رجلان عرفهما السيد هاشم ، رجلان من رجال السلطان ، جاءا ينبئاننا بان رسولنا وصل وان سموه — نهض السيد هاشم مدهوشاً وبادر الي يقول : قم يا استاذ ، قم حالاً . السلطان قادم الينا .

نهضت مسرعاً فلبست ثيابي — وما احسن الثياب العربية خصوصاً في مثل

---

(١) يطلق لفظ « الشيوخ » في الاصل على الامام وحاشيته من أقاربه وخدمه اذا كانوا مجتمعين . ولكن اهل نجد يخرجون عن القاعدة الاصلية فيقولون الشيوخ وهم يريدون السلطان او الامام بعينه .

(٢) انهكه اضناه في اصطلاحهم

(٣) اي شربنا القهوة .

هذه الحال . حسبك عباءة تغطي بها قميص النوم ثم كوفية وعقال ثم — حي الله الجاي ، مرحباً بالضيف .

وراح الربع يجمعون الحطب للنار وفرشنا انا والسيد هاشم البيت ! مددنا السجادة ثم وضعنا الكور في الصدر مسنداً على عادة العرب — وهذا كل ما هنالك تأهباً لاستقبال مليك من ملوك العرب .

وكان الليل صافي الجبين رقيق الجلباب شأنه في البادية . تدنو النجوم في سمائه من الارض بريقاً وتسمع فيه الاصوات ، كأنها على طول المسافات ، الابواق في الغابات لها دوي لطيف ينجد ويغور ، وصدى يماوج كالنور . وما ارهب واجمل صوتاً سمعناه آنئذٍ وراء الاكام في مروج الليل ينادي : ياسُعَيِّد — يَسْعَـــــايِّـدْ ! مبشراً بقدوم السلطان او بمروره في ذاك المكان . والمنادي يتقدم موكب سموّه حتى اذا سمعه احد من البادية او الحضر يروم منه امراً ، او يحمل اليه شكاية ، او يبغي الركوب في موكبه ، يقصد مسرعاً مكان الصوت فيفوز ببغيته — ياسُعَيِّد — يَسْعَـــــايِّـــدْ ![1]

وبعد هنيهة ضج المكان ، بموكب السلطان ، فاناخ عندنا ، على اكمتنا . حول شراعنا الصغير مئتان من الركائب . وهي تزبد وترغي . اخْ — اخْ — وصوت الخيزران على رقاب البعارين كصوت المطر على النخيل . ثم نصبت الخيام ، وشبت عشرات من النيران ، وسمعت على الفور المداقّ في الاجران .

خرجنا نبادر الى استقبال الزائر الكبير ، فاذا هو قد خف الينا ، وفي معيته اثنان فقط من حاشيته . قلت الزائر وهو الذي شاء تلطفا وتنازلاً ان يعكس الاية . وكانت اول مشاهدة على الرمل ، تحت السماء والنجوم ، وفي

---

(١) سُعيِّد تصغير التصغير . الشائع كثيراً في نجد . وسعيد نداء ابن سعود يدل على تواضع في امراء هذا البيت جميل . كان الامير يقول لكل واحد من رعيته : ان السعادة الكبرى من الله ، واما الصغير الصغير منها فقد يجيئكم من الامير . ولأكثر امراء العرب منادون وكلمة نداء خاصة بهم ينادى بها كذلك يوم يخرج الامير الى الحرب او الى الغزو في الحجاز مثلا نداء الملك حسين : يافرحان . وفي جبل شمر كان نداء ابن الرشيد : يامرزوق .

نور النيران المتقدة حولنا. الفيته رجلا لا يمتاز ظاهراً بغير طوله، وكان يلبس ثوباً ابيض وعباءة بنية، وعقالاً مقصباً فوق كوفية من القطن حمراء.

اين ابهة الملك وفخفخة السلاطين؟ انك لا تجدها في نجد وسلطانها. وان اول ما يملكك منه ابتسامة هي مغناطيس القلوب. لست ادري كيف حييته وانا في دهش وابتهاج من تلك المفاجأة الكبيرة. ولكني اذكر انه حياني باسما بالسلام عليكم وظل قابضاً على يدي حتى دخلنا الخيمة، فجلس والكور الى يمينه يستند اليه، والنار قباله تنير وجهه. ثم عرّفني بمن كان في معيته، وهما الدكتور عبد الله الموصلي [١] وعبد اللطيف باشا المنديل [٢] فجلسنا كلنا في صف امامه.

وما اضعنا وقتاً في تبادل المبتذل من السلام والتحية. اعتذرت الى سموه في ابطائي بالوصول اليه وقلت ان ساطلعه على حقيقة الامر فيعلم ان الذنب ليس ذنبي. فقال: علمنا بذلك واستغربناه. اما نحن فما ترددنا ولا ابطأنا في الجواب. وكيف نرد من يبغي زيارتنا وهو من صميم العرب؟ قالوا لنا انك اميركي جئت تنشر الدين المسيحي في البلاد العربية. وقالوا انك تمثل بعض الشركات وجئت تبغي الامتيازات. وقالوا انك قادم من الحجاز وانك شريفي تسعى لتحقيق دعوة الشريف. وقالوا غير ذلك. فقلنا اذا كان في الرجل ما يضر فنحن نعرف كيف نتقيه. واذا كان فيه ما ينفع فنعرف ايضاً كيف ننتفع. ونحن اعلم يا حضرة الاستاذ بمهمتك. بارك الله فيك.

فاستأذنته اذ ذاك ان اخبره بالمقاصد الثلاثة في رحلتي فقلت: وقد تم الاول بمشاهدتكم، وسيتم الثاني بما سأكتب ان شاء الله في ما شاهدت. اما

---

(١) الدكتور عبد الله الدملوجي الموصلي هو طبيب السلطان، وكاتب سره في الامور الخارجية، ورسوله وترجمانه ووكيله في ما يختص بالاجانب سواء كانوا من رجال الحكومة ام من رجال العلم السائحين. والدكتور عبدالله درس في الاستانة، وخبر الطبابة في الحروب وخبر الحياة في عواصم اوروبه، فطاف وشاف وعاف. عافاه الله. ثم رسا في نجد.

(٢) عبد اللطيف باشا المنديل، صديق السلطان الحميم ووكيله في العراق. هو نجدي الاصل، عراقي الاقامة ولا يزال في حديثه وسلوكه الحر اثر من البداوة. وساعود الى ذكره في القسم الثامن من هذا الكتاب لانه تقلد عدة مناصب عالية في الحكومة العراقيه.

الثالث فلا يتم الا بمساعدة ابن سعود . واني متيقن يامولاي ان الوحدة العربية لا تتحقق الا باجتماع امراء العرب كلهم للتعارف اولاً والتفاهم ، فهم اليوم في معزل بعضهم عن بعض اذا لم نقل في احتراب دائم ، ولا يعرف الواحد منهم الاخر معرفة حقيقية .

فاجابني بكلمة صريحة رددتها بمثلها دون ان ادرك انها تلمس فيه وتراً حساساً . فقد تكلمت في حضرته عن امراء العرب كما تكلمت في حضرة سواه ولكنه يعرف انه كبيرهم ويظن انهم في غير بلادهم لا يعتد كثيراً بهم . فما كدت انتهي من قولي ان امراء العرب في عزلة بعضهم عن بعض حتى قال : من هم العرب ؟ حنا العرب «اي نحن العرب» . وضرب السجادة بقضيب يحمله من الخيزران .

من غريب الامور اننا في الجلسة الاولى تناقشنا في الموضوع وما كان ذلك نقصاً في تأدبي فلم اكن لاقدم على مساجلته في تلك الساعة لو لم يتقدمني بصراحة علمت بعدئذ انها من سجاياه الكبيرة ، وانه قلما يقف فيها عند حد من حدود التحفظ . اجل ، قد هدم السلطان بكلمة من كلماته حواجز الرسميات ، فجعل نفسه ، تنازلاً ، في مقام الصنو والرفيق .

— لك الحرية ياحضرة الاستاذ ان تتكلم معي بكل حرية ، ولا اقبل منك غير ذلك . وانا اكلمك بكل حرية ، ولا تتوقع مني غير ذلك . انت تقول امراء العرب . اسمع انا اعلِّمْكْ . انا اعرفهم ، وقد خبرتهم ، عجمت عودهم ، العرب ياحضرة الاستاذ لا يعرفون الا مصلحتهم ، وغالباً لا يعرفونها فنعلّمهم بها ونكرههم عليها . وقد قاسينا كثيراً في سبيلهم ، وكانت الخيانة في اقرب الناس منهم الينا .

دخل عبد من العبيد يحمل بيده اليسرى ابريق القهوة وباليمنى الفناجين فصب للسلطان اولاً ثم لي ثم للحضور .

— اتعرف يااستاذ اننا اول من دعوا امراء العرب الى الاجتماع والائتلاف ؟ وسنطلعك ان شاء الله على ما يثبت ذلك . فتتأكد اننا اقربهم

الى الالفة والاتحاد . حبذا اهل نجد لا نبغي المحافظة الا على امرين : ديننا وشرفنا ... ثم قال : ولا نثقل عليك الليلة وفيك تعب يدعو الى النوم .

قمنا نشيع السلطان ، وكان قد انتصف الليل فخيم على المضارب السكون ، ولم يبق حولها غير بصيص من النار . وعند ما عدت الى الخيمة التي كانت منذ حين مجلس سلطان اقل ما يقال فيه انه عربي حرٌ كريم لم يكن «فيَّ» لا تعب ولا نوم ، فاشعلت الشمعة وكتبت في مذكراتي بضع صفحات انقل منها ما يلي :

« ها قد قابلت امراء العرب كلهم فما وجدت فيهم اكبر من هذا الرجل . لست مجازفاً او مبالغاً في ما اقول . فهو كبير : في مصافحته ، وفي ابتسامته وفي كلامه ، وفي نظراته ، وفي ضربه الارض بعصاه . يفصح في اول جلسة عن فكره ولا يخشى احداً من الناس . بل يفشي سره ، وما اشرف السر . سر رجل يعرف نفسه ، ويثق بعد الله بنفسه . « حبذا العرب » . ان الرجل فيه اكبر من السلطان . وقد ساد قومه ولا شك بالمكارم لا بالالقاب ... غريب عجيب ! جئت ابن سعود والقلب فارغ من البغض ومن الحب كما قلت له . فلا رأي الانكليز ، ولا رأي الحجاز ، لا الثناء ، ولا المطاعن اثرت بي . وها قد ملأه . ملأه حباً في اول جلسة جلسناها . على ان الحب لا يكون مقروناً دائماً بالاعجاب . سنرى . قد عاهدته على ان اكلمه بصراحة وحرية . وسأكون في ما اكتب كذلك حراً صريحاً ... ولكني احسن شيئاً من الفراسة ، وصرت اركن الى ما تشعر به النفس في المقابلة الاولى . فضلاً عما عندي الان من الملوك للمقابلة والتفضيل ... اني سعيد لاني زرت ابن سعود بعد ان زرتهم كلهم . هو حقاً مسك الختام » .

وكانت الساعة الاولى بعد نصف الليل عند ما نمت والساعة الرابعة عند

ما ايقظني رفيقي السيد هاشم قائلا : قام السلطان . وكانت ضجة التأهب للرحيل . سمعت الابل ترغو وتعج وقد بادر العبيد والخدم اليها بالرحال والاحمال . ورأيت النار تشب في كل جانب ، وسمعت المداق في الاجران تدق البن ، ثم صوتاً يؤذن الفجر : الصلاة خير من النوم . الصلاة خير من النوم : لا اله الا الله ، لا اله الا الله ! وما هي الا فترة حتى صلى السلطان ورجاله وشربوا القهوة وارتحلوا . رفع العرب الخيام ، كما يقول الشاعر الانكليزي ، وسرحوا ساكتين .

الفصل السادس

في موكب السلطان

السفر في نجد — غلبتُ في الابكار — مهارة تجيئني فجأة كالوحي — في موكب السلطان — من على السنام في النفود — حديث في السياسة — اميركه والرئيس ولسون — اوروبه باب من حديد لا شيء داخله — المُضَحّى — الاستقبال على الرمل — « افخر الطنافس في مجلس الله » — المراح — ساعة مع السلطان — الذباب في البادية — الصلاة — السلطان يغضب — فهد الهذال والانكليز — لا نبغي غير الحق ولا نخاف غير الله .

من عادات العرب في السفر ، خصوصاً عرب نجد ، انهم يبكرون وغالباً يسرون . والسلطان عبد العزيز ابكر المبكرين دائماً واعجلهم تأهباً للرحيل . حتى انه ليصلي الفجر احياناً اول وقت الصلاة كي لا يضطر الى الاناخة بعد ذلك قبل الضحى . هو نظام عسكري يتمشى عليه ، ولا بدع فالرجل قوي البنية ، شديد العصب ، يكفيه من النوم ساعتان ، ثم ربع ساعة للرحيل .!

وها هنا غُلبت . قد يكفيني ما يكفيه من النوم ، ولكني في يومي الثاني في البادية لا استطيع ما يستطيعه لا في التأهب ولا في الركوب . الا ان اعجوبة حدثت صباح ذاك اليوم فكان قد سبقنا الموكب الكبير ، موكب السلطان ، وسرت انا والسيد هاشم في موكبنا الصغير نحث الركائب حتى لحقنا به بعد ساعة . وكان الشفق يتماوج ورديا وعصفراً على الاكام ، وعقال سلطان نجد الذهبي بادياً في رأس الموكب فوق كل الرؤوس . فاخترقت الصفوف ، احث ذلولي ، وانا معجب بمهارة في الركوب جاءتني دفعة واحدة ، فجأة ، كما يجيء الوحي الشعراء[1] . . . فاعتزلت ربعي وسرت مستقلاً ابغي الى جانب السلطان مكاناً .

---

(١) قد يكون الفضل في ذلك للذلول لا لي . وقد علمت بعدئذ انه من العمانيات اي نجائب الابل التي تأبى السير الا في مقدمة الجيش .

وفُزت به فادهشته فقال اذ رآني : ما ظنناك تنهض باكراً .

صبّحت ابن سعود اول مرة من عُلي السنام في النفود. وسرت واياه نحدو في وجه الشمس بصف يتراوح عـدده بين الخمس والخمس عشرة من الركائب يتبعه خمسة صفوف او خمسة عشر اخر دون نظام في مثل هذه الحال . اننا في الطريق لا الى الغزو ايها القارىء بل الى مؤتمر سلم يعقد في الباديـة . لذلك كنت ترى البنادق[1] معلقة بالرحال من الوراء والسيوف في اغمادها ثم في بيوت من الجلد تمايل حولها اللفائف الحمراء والشراريب الطويلة . وكلٌ في رحله ملتف بعباءة السكينة والاطمئنان . انه لموكب بهج مهيب . وكنت افضّل السير في مؤخره لاملاء النظر منه لولا رغبة اشدّ، وواجب احبّ الي .

السلطان عبد العزيز فصيح اللسان، سريع الخاطر ، لطيف الجواب . وهو مثل امراء العرب كلهم يقدم السياسة في الحديث وتهمه على الخصوص منهـا سياسة اوروبه في الشرق الادنى . على انه شاء صباح ذاك اليوم ان يكون الموضوع : اميركه وسياستها مع الاحلاف .

سألني السبب في سقوط الرئيس ولسون فاعلمته بطرق الانتخابات هناك وبما للاحزاب السياسية من السيطرة على الحكومة وعلى البلاد .

— عجيب ألا يسوقهم الشقاق الى الحروب ؟

— يحلون مشاكلهم السياسية بالاقتراع .

— زين . وكم حزباً عندهم ؟ .

— الرئيسية اثنان والثانوية كثيرة .

— زين . وكيف يُرضي الحزب المنتصر بقية الاحزاب ؟

— الاقلية تخضع دائماً يامولاي لحكم الاكثرية .

— وكيف سقط ولسون اذاً وهو الحاكم والاكثرية مع الحاكم .

— لم تكن معه في الانتخاب الاخير فقد هجره من انصاره كثيرون . انقلبوا واقترعوا عليه .

(١) العرب يختصرون لفظة بندقية فيقولون بندق جمعها بنادق .

فهز السلطان عصاه يربت بها رقبة الذلول وقال : لا اظنهم احسنوا . لان ولسون رجل عظيم ، وله الفضل الاكبر في تنبيه الشعوب الصغيرة المظلومة. استنهضهم ولسون الى الحرية والاستقلال . وهو ايضاً عرّفنا باميركه . ما كنا نعرفها قبل ولسون . اما اليوم وقد تكلم بلسانها فله فضل عليها كما ان فضلها على العالم . . . انا احترم اميركه ، ياحضرة الاستاذ ، وان كانت سياستها الان مع الاحلاف غير سياسة ولسون . . . اميركه ام الشعوب الضعيفه. ونحن العرب منهم . والعاقل يكفيه التنبيه والاشارة . . . انا احسن اليك » ومال بوجهه اذ ذاك الى من كان في الجانب الاخر منه » أفتبغي كذلك ان اطعمك بيدي ، ان أضع اللقمة في فمك ؟ يكفي ما عملته اميركه ، ما قالته للشعوب الصغيرة المظلومة ، ما قاله ولسون عنها . والعاقل من سعى وانتفع .

اما اوروبه فللسلطان عبد العزيز رأي فيها افصح عنه بكلمة بليغة وجيزة اذ قال : اشبه اوروبه اليوم بباب حديد كبير ولكن لا شيء داخل الباب . وهو لذلك لا يلوم اميركه على اعتزالها الاحلاف وانسحابها من السياسية الاوروبية . ثم قال مخاطباً احد رجاله : ان مشاركة امريكه واوربه اليوم مثل مشاركتي انا ابن سعود وبادية الشام . ترى الصحيح .

فهز الرجل رأسه استحساناً

صعدنا الى اكمة فسيحة مستديرة بين العلاة وأم الذر اختارها السلطان مناخاً فانخنا وتفرقنا ارهاطاً كل رهط جلس في حلقة على الرمل . وكان وقت الضحى [1] اي ساعة الفطور فطاف الخدم بجفان مما كان قد طبخ الليلة البارحة من الارز واللحم ، ثم قدموا التمر وصبوا اللبن من القرب لمن اراد فاكلنا وغسلنا ايدينا وكان قد اتم السلطان عمله مثلنا فسمعناه ينادي من مكانه : انجيئكم او تجيئوننا ؟ فبادرنا اليه فتصافحنا ثم عرفني ببعض حاشيته اذكر منهم اخاه محمداً وعبدالله بن متعب امير حايل الاخير وعمه فيصل بن الرشيد ،

(١) قبل الظهر بساعتين والمكان الذي ينيخون فيه للفطور يسمى المضحّى .

فوقفوا صفاً امامي بعد المصافحة والتسليم دون ان يفوه احدهم بكلمة. ثم، باشارة من السلطان، انصرفوا. فجلس اذ ذاك سموه على الرمل وقال: تفضل يا استاذ، هذه احسن سجادة عندنا.

يقيناً هي كذلك. فاي فرش انعم من رمل النفود وانظف؟ واية سجادة اجمل لوناً واعجب صنعاً؟. جلسنا متربعين على افخر الطنافس في مجلس الله. وكان السلطان فينا اجملنا اتضاعاً وافصحنا في لغة الحكمة والورع لساناً: «حنّا» اهل نجد نبغي المحافظة قبل كل شيء على امرين، ديننا وشرفنا.

استأنفنا السير وانخنا بعد ساعتين عند ام الذر التي كانت مراحنا ذاك اليوم. فسرحت الابل، ونصبت الخيام، فكان فسطاط السلطان على رأس الاكمة والمضارب حوله متفرقة متنوعة، منها الخيم الاوروبية، ومنها بيوت من الشعر كبيرة وصغيرة. ثم حفرت الحفر وشبت فيها النار، واخرجت المعاميل [1]، وبعد قليل شرع السقاة يطوفون بالاباريق والفناجين. وجاء عبد يدعوني الى مجلس السلطان فشربت القهوة هناك وبقيت وسموه ساعة كان الانكليز فيها موضوع الحديث.

عدت الى خيمتي وبي شيء من التعب والنعاس، فوجدت فيها جيشاً من الذباب استحال علي طرده والتغلب عليه. ما رأيت حياتي اثقل واقبح من الذباب في البادية، في صحراء الرمل، في تلك الجنة التي جردها الله من كل شيء سوى السكينة والهواء الطيب، فجاء الذباب يفسدهما عليك. ومن اين يجيء؟ هو يركب الذلول واياك. على ظهره، وعلى ظهرك، وعلى رأسك، يرافقك مخاوياً، فيسبقك الى الخيمة ويذبح فيك ما تبقى من أمل بالحياة.

ثم يحيي الله سبحانه الامل عند الغروب. فيخرج الناس من الخيام ملبين دعوة المؤذن ويصطفون وراء الامام، والسلطان في وسط الجماعة وأحد الحجاب

(١) المعاميل في اصطلاحهم هي ادوات القهوة اي مقلاة التحميص والجرن والاباريق والفناجين.

وراءه يحمل السيف ولا يشترك في الصلاة[١]. وكانت اول مرة سمعت الوهابيين يصلون وهم يرنمون بعد تلاوة الفاتحة : آمين ، فتجيء شبيهة بصلاة المسيحيين. غير المغضوب عليهم ولا الضالين . واذ ذاك يصعـد من الصفوف صوت مئتين من المصلين يرنم ترنيماً : آمين ! ، صوت يـتراجع في الفضاء المهيب كصوت الاجراس في الجبال ساعـة الغروب ، في تلك الساعة التي تبشر بقـدوم الليل وبركاته . اصوات المصلين ، يذكرون الله رب العالمين — اهدنا السراط المستقيم ! فمن لا يشترك في مثل هـذه الصلاة خصوصاً في الباديـة ؟ . انها لطلبة تصح حقيقة كما صحت مجازاً في تلك الفيافي والمفـازات . اي بالله . ان كل من سار حادياً في بحر الرمال ، في ارض تهب فوقها الرياح فتمحو بنظرة كل اثر فيها من آثار البشر والحيوان ، ليبغي السراط المستقيم . واننـا لنهلك يقيناً اذا ضللناهـا .

في صباح اليوم التالي جاء نجاب من العقير يحمل البريـد الذي يتبع السلطان الى حيث يكون ، وفيه خبر من البحرين بسفر المندوب السامي اليها . فدفع الكتاب الى اخيه ثم الى بعض حاشيته فتناوبوا قراءته وكل يهمس ان الخبر اغضب السلطان .

سار الموكب والسكوت يظلله والمهابة تماشيه ، فما كنت تسمع غير صرير الرحال وطق الخيزران على رقاب الركائب . ثم رفع احـد الركب صوته يتلو شيئاً من القرآن ، وكلنا نحدو في وجه الشمس ساكتين خاشعين ، وتحدو تحتنا الابل على نغم الايات . وبعد قليل ساد السكوت ثانية وقـد تجسم فيه غضب الشيوخ . ثم تكلم فاعلمنا بما اغضبه صباح ذاك اليوم .

ان المندوب السامي على ما يظهر قد اصطحب رجلاً غير مرغوب فيـه . رجلاً من العرب الناقم عليهم ابن سعود . وهو فهد الهذال[٢] شيخ العمارات

---

(١) قتل الامام تركي بن سعود في وقت الصلاة فجرت العادة منذ ذاك الحين في استخدام حاجب يحرس الامير ساعة يصلي في الجماعة .

(٢) فهد بك الهذال انتخب بعدئـذ عضواً في المجلس التأسيسي في العراق . وقـد اصطحبه يومئذ المندوب السامي لانه كما قيل خبير بالحدود بين العراق ونجد . والحقيقة ان

في الشمال ، والعمارات فخذ من عنزة . ويظهر ان لا دخل لفهد في السياسة والمصالح التي سيعقد مؤتمر العقير من اجلها . ولكن للانكليز قصداً باصطحابه كما ظن السلطان وقد جاءوا يحققون هذا القصد على حساب ابن سعود . وقد يكون لفهد الهذال كذلك قصدٌ جاء يحققه على حساب الانكليز

فرفع رجل نجد صوته في تلك الارجاء الرملية ، وهو على ذلوله ، والخيزران بيده ، يسير في راس الموكب ، بين اثنين من رجاله .

— لا لا هذا ما يصير . لا نتنازل عن شيء من حقوق اجدادنا . اما اذا قال الانكلايز نبغي هذا منك وجاؤوني بامر مختوم فانا ابن سعود اسلّم لهم . ولكن في اول فرصة تسنح اسعى لاسترجاع حقوقي المهضومة . ترى الصحيح . وماذا يبغون لابن الهذال ؟ وماذا يبغي ابن الهذال منا ؟ دعهم يغزلون فاننا لا نتحول عن جادة الحق ، ولا نعمل عملاً فيه ظلمة او غموض . ووجه هذا الضحى ، لا نعمل عملاً ولا نقول كلمة فيها ظلمة اوغموض . ولا نطلب غير حقوقنا ولا نخاف غير الله . . . ومن هو ابن الهذال ليجرأ علينا ؟ ابن الهذال الغزال ، ليغزل وعشائره ما شاؤوا . وليغزل « الانكلايز » من اجلهم . وكان يرفق هذه الاستعارة بحركة من سبّابته لطيفة . انا ابن السعود لا اعرف غير الجادة القويمة ولا اقول غير الحق . لست من الغزّالين . اما الانكلايز فهم اصدقائي وانا صديقهم . اذا قالوا : نبغي هذا منك ، قلت : لكم ما تشاؤون . ولكن ــ ولكن الصبر له حدود . ويظهر اننا قربنا منها ذا الحين . ترى الصحيح .

الا لا يجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

السياسة الانكليزية كانت ترجح اعطاءه بعض الاستقلال في ناحيته او تؤسس شيخة مستقلة من العمارات بين العراق ونجد على طريقتهم حول عدن



ص ٤٨—٤٩

عظمة السلطان عبد العزيز على جواده

الفصل السابع

السلطان عبد العزيز

ينتعل ويتطيب — عيناه وعصاه — الورد والنصل في شفتيه — ساعة الغضب — سرعة خاطره — تهكمه — نكتة من نكاته — الربع الخالي — مدنية العقير — السلطان في الفسطاط — عرشه وفراشه — ساعته وناظوره — « علينا الكبيرة والصغيرة » — حافظته وتيقظه — مع الانكليز على مائدة متمدنة — مع السلطان على الرمل — « نحتسي اللي لنا واللي علينا » .

السلطان عبد العزيز طويل القامة ، مفتول الساعد ، شديد العصب ، متناسق الاعضاء . وهو اسمر اللون ، اسود الشعر ، ذو لحية خفيفة مستديرة وشارب يقضبه على الطريقة الوهابية . له من السنين سبع واربعون ؛ وله في التاريخ — تاريخ نجد الحديث — مجد اذا قيس بالاعوام تجاوز السبع والاربعين والمئة . يلبس في الصيف اثواباً من الكتان بيضاء وفي الشتاء « قنابيز » من الجوخ تحت عباءة بنية . وينتعل ، ويتطيب ويحمل عصاً من الشوحط[1] طويلة يستعين بها على الافصاح عن ارائه — على تشكيل كلماته ، اذا صحت الاستعارة ، وتمكينها . وله في الحديث غيرها من الاعوان . له انامل طويلة لدنة يشير بها في مواقف البلاغة . وله عينان عسليتان تنيران اما كن العطف واللطف ساعة الرضى ، وتضرمان في كلامه ساعة الغيظ نار الغضا . وله فم هو كورق الورد في الحالة الاولى ، وفي الحالة الثانية كالحديد . يتقلص فيشتد ، فهو اذ ذاك كالنصل حداً ومضاء .

اجل ان ابن سعود ليتغير ساعة الغضب كل التغير ، فيذهب العطف من ناظريه ، ولون الورد من شفتيه . وفي افترار يستحيل النور ناراً بيضاء ،

(١) الشوحط شجر تتخذ منه القسي او نوع من النبع شبيه بالشريان ينبت في نجد الغربية

فهو اذ ذاك رهيب . سألني لما كان يصب غضبه على الهذال والغزالين[١] : وما رأيك ياأستاذ ؟ وكان بيني وبينه بضع مطايا ولا رأي لي اصيح به في تلك الساعة ، فاجبته بكلمة مبتذلة : ان الله مع الصابرين يامولاي . فردد الكلمة ووكر كتف ذلوله برجله فراح يدرهم وتبعناه كلنا مدرهمين[٢] .

ولا اكتم القاريء انه اعتراني شيء من الانقباض اول مرة شاهدت ابن سعود غضباً . وكنت عند مـا يقاطعني الحديث قائلا : اسمع انا اعلمك ، احس اني في مجلس رجل غير الرجل الذي زارني في خيمتي بالنفود . ولكن ما عتمت ان علمت انه سريع الغضب سريع الرضى . فهو اذا ضرب الارض بعصاه مرة يلمس القلب منك عشر مرات . وقد يتسرع في الكلام احيانـاً ثم ينبه الى ذلك فينتزع من خصمه السلاح . احضر امامه رجل ليجيب عن ذنب اقترفه ، فقال بعد ان سمع قصته : الحق عليّ لاني لم احذرك ، فلا اقاصك اذاً هذه المرة .

ان في الرجل ضميراً حياً كلمه وسرعة خاطر تقارن التيقظ في ذهنه . يبدد بكلمة غيوم الانقباض في مجلسه ، ويجلو افقاً قد يكون الاضطراب فيه من كلامه . وهو خفيف الروح ، حلو النكتة ، لطيف التهكم . كان يحضر مجلسه احد الثقلاء المتعجرفين وهو من بيت معروف في نجد . فقال السلطان يصفه يوماً : هو ربع الدنيا . ثم اردف كلمته بـ «الخالي» — ربع الدنيا الخالي . وقد اشار بذلك الى الربع الخالي في بلاد العرب — الخالي من كل شيء غير الرمال .

ولما نصبت الخيام للمؤتمر في العقير كان نصفها معداً للمندوب السامي ووفد العراق ، وهي من الخيام الكبيرة الجميلة ، وكانت في معزل عن خيامنـا بيمننا وبينها قرب مئة باع ، وفيها فسطاط للاستقبال وآخر للاكل تناولنا فيه الشاي يوم وصولنا . فقال سموه : هذا شاي متمدن — وكان قد صب مع الحليب

(١) اي اصحاب المفاسد والفتن

(٢) الدرهام درهم يدرهم نوع من الخبب واللفظة من اصطلاح عرب نجد والحجاز وهو ثلاث درجات : درهام خفيف ، ودرهام «صقلاوي» نسبة الى الخيل الصقلاوية ، ودرهام يقرب من الغـارة .

في فناجين كبيرة بدل ان يكون صرفا في الاقداح كما هي العادة في نجد والحجاز — شاي متمدن !

وسلطان يتهكم ويسر . كان عندما ينتقل من الجهة العربية الى تلك الجهة الاوروبية يقول لي : الى مدنيــة العقير ، تعال ياأستاذ نسافر الى البلاد المتمدنة ، ولا تظننا بعيدين كثيراً عنها ، عشر خطوات فقط . . . وها نحن في المدنية — مدنية العقير — هات الشاي ياغلام ! ثم يجلس على الكرسي قائلا : لنتمدن قليلاً . تفضل ياأستاذ شاركنا في التمدن . وهو يشير الى كرسي آخر .

نصبت خيام تلك المدنية وخيامنا على تل مشرف على الخليج وفي معزل عن القصر . وكانت خيمتنا انا والسيد هاشم عند رأس التل قرب الفسطاط السلطاني الكبير ذي الابواب الاربعــة التي يفتح ويقفل بعضهــا وفقاً لمهب الريح ولرغبة سموه بالهواء . وقد كان مفروشاً بالطنافس وفي الصدر فراش فوقه سجادة فخمة ورحل يقسمه الى مجلسين ، مجلس السلطان — عرشه — ومجلس اخر لمن يُكرم اكراماً خاصاً من الضيوف . لكل عربي من هذا القبيل بيته وعرشه ، اي المضرب ، والسجادة ، والرحل . والسلطــان عبد العزيز مثل كل اعرابي ينام على الفراش والسجادة في الليل ، ويضعها تحته على الكور في السفر . وهو لا يحمل شيئًا في جيبه ، لا ساعــة ؛ ولا قلماً ، ولا ذهباً ، ولا فضة . ولا اظن ان في ثيابه جيوباً البتة . الا انه يحمل ساعة في الخرج عند السفر ويضعها تحت الوسادة عند ما يقيم في مكان . وهي لا تزال في صندوق المخمل الذي جاءت فيه من المعمل . ويحمل كذلك ناظوراً كبيرا لا غنى له عنه . فهو دائما يراقب من مجلســه حركات رجاله وخدامه فضلاً عن انه لا تمر غيمة في الافق الا ويرفع اليها الناظور متيقنا متثبتا . — امرنا مشكل ياحضرة الاستاذ . علينا الكبيرة والصغيرة . فاذا كنا لا نداوم المراقبة لا نكون عالمين بكل ما يتعلق بشؤوننا . . . العبد والامير ، عينتــا على الاثنين حتى ننصف دائماً الاثنين ونعدل بينهما .

كان اذ ذاك يراقب قافلة اناخت عند خيمة المونة تحمل الينا الخضر

والماء من الحسا. فامر ان يحضر قيمها، فسأله سؤالاً بخصوص جمل من الجمال، فقال القيم: هو حرون ياطويل العمر. فاجابه السلطان: اتركه يرعى مع الجيش[1] لا ترجعه معك.

وعاد الى حيث وقف الحديث فاستأنفه قائلاً: العدل عندنا يبدأ بالبل - الابل - ومن لا ينصف بعيره ياحضرة الاستاذ لا ينصف الناس.

كثيراً ما يقف السلطان عبد العزيز في حديث مهم لينظر في امر ظاهره طفيف، ثم يدخل عليه احد الخدم او الكتاب فيقطع عليه الحديث ثانية فينظر في الامر الثاني ثم يعود - وهذا ما كان يدهشني جداً - الى الكلمة الاخيرة من حديثه الاول دون ان يسأل كما هي العادة في مثل هذه الحال عند اكثر الناس: ماذا كنت اقول؟ لا. ما سمعته مرة، وكانت احاديثنا معرضة دائماً للتقطيع، يسأل هذا السؤال. فهو شديد الحافظة ومتيقظ دائماً. عليه الصغيرة والكبيرة يقيناً. وله اليد الصالحة المصلحة في الاثنتين.

اقمنا في العقير ثلاثة ايام قبل وصول المندوب السامي وكان الخدم في اثنائها - العرب وربك - يشتغلون في تشييد المدنية الجديدة، مدنية العقير! نصبوا الخيام وفرشوها بالطنافس والكراسي والمنضدات واواني الشرب والغسل ومعدات الكتابة. ولم ينقص فسطاط المائدة شيء من اسباب المدنية ونوافلها في الطعام. فقد جيء لاخواننا المتمدنين بالماء ليس من وراء الحسا بل من وراء البحار - من اوروبه في القناني المختومة. وما فات الانكليز منهم شي مما الفوه. اما نحن في مضارب البدو فما كان فينا على ما اظن من يحسدهم على ذلك.

اعجب لهؤلاء الانكليز الذين لا يتنازلون عن شيء من «انكليزيتهم» حتى في البادية. رأيت احدهم في رحلتي يسير وفي قافلته حمار يحمل صندوقين كبيرين من قناني الصودا. واظن ان الوسكي كانت مخبأة في الاحمال الاخرى. ولما دعيت الى تناول الطعام على مائدة المندوب السامي كان سعادته وسعادة حاشيته وصاحب الاقبال مندوب العراق في الثياب الرسمية Smoking بالعقير! وانا وحدي مع

---

[1] الجيش تطلق على مجموع الابل من ركائب ومحملات.

السلطان في الثياب العربية . فسر سموه بذلك . ولكنه لم ينتقد الانكليز حتى ولا مندوب العراق العربي الذي لم يتنازل فيلبس العباءة والعقال .

اكلنا تلك الليلة بالاسباب ، اي الشوكة والسكين والملعقة ، وشربنا من ماء «يزبير» المبارك ، وقدم لنا الطعام بانتظام وترتيب ، وكانت الحلويات تزيد على ما تعودناه ، وفوق ذلك فاكهة الثمار ، الموز والتفاح والبرتقال ، ثم خرجنا وما فينا مـا ينبيء بان سعادتنا قد تمت على الارض وكللت في زاويـة من الجنة تدعى العقير .

خرجنا من فسطاط المائدة الى فسطاط الاستقبال فودعنا المتمدنين عند الباب ، وسرت والسلطان عبد العزيز ، وقد نزعنا نعالنا ، نتمشى ويدي في يده ؛ حفاة على الرمل — على الرمل البارد المنعش ، تحت النجوم القريبة البريق ، الدافئة الضياء . فاحسست اذ ذاك بان ما يقربني من هذا الرجل ويقربه مني ليتجاوز القيافة والاشتراك ذوقاً ببعض العادات . هو هو السر الذي يقرب منا النجوم ويبرد تحت ارجلنا رمال البادية . واليك ايها القاريء كلمة اخرى من مذكراتي :

« مهما قيـل في ابن سعود فهو رجل قبل كل شيء . رجل كبير القلب والنفس والوجـدان . عربي تجسمت فيه فضائل العرب الى حد ينـدر في غير الملوك الذين زينت آثارهم شعرنا وتاريخنا ، وتجسمت فيه كذلك من آفاتهم ما لا يحاول ان يخفيه . رجل صافي الذهن والوجدان ، خلو من الادعاء والتصلف ، خلو من التظاهر الكاذب . قص علينا ليلة امس قصة حرب من حروبه وبيت الرشيد وختم قصته العجيبة بهذه الكلمات : لا اخذناهم في تلك الموقعة ولا كسرونا . ترى الصحيح . تحتسي اللي لنا واللي علينا [1] . ونفخ في يده وقد رفعها في شكل بوق الى فمه كأنه يقول : ننثرها كالهواء لمن يريدها ولا نخاف غير الله » .

(١) تحكي الذي لنا والذي علينا . عرب العراق والشام يلفظون الكاف تش . وعرب نجد يخففونها فيلفظونها تسي . تحتسي ـ تحكي .

الفصل الثامن

بين العراق والحجاز

مؤتمر المحمّرة — المعاهدة بين نجد والعراق — العمارات والظفير — «هم ابناء عمنا» — وعنده حجج ثلاث غيرها — رعايا اجدادنا — العمارات والروله فخذان من عنزه — نوري الشعلان وفهد الهذال — ابن سعود والانكليز — الشريف واولاده — جريدة القبلة — كتاب من الملك حسين — حاوي خير — مصالح الانكليز في الخليج العجمي — ابن سعود حامي بريطانيه العظمى — لا يساعدون الامراء في عقد مؤتمر عربي عام ولا يتركون الامراء وشأنهم — كيف يحسمون الخلاف بين اميرين متخاصمين .

اول مرة قابلت المندوب السامي في بغداد قال لي ، كما يذكر القارىء ان القصد من زيارته لابن سعود هو ابرام المعاهدة بين نجد والعراق ، تلك المعاهدة التي عقدت في مؤتمر المحمّرة ولم يوقعها السلطان عبد العزيز لان مندوبه تساهل يومئذٍ في امر القبيلتين ، العمارات والظفير ، اللتين يدّعيهما وتدّعيهما كذلك حكومة العراق. وقد قال لي الملك فيصل ان خير حلٍ لهذه القضية هو ان تعين لجنة من الخبراء بالعشائر والحدود للنظر فيها ، وان تقبل الحكومتان حكمها . وقد جاء السر برسي كوكس الى العقير ليقنع صديقه ابن سعود في وجوب عقد المعاهدة وقبول حكم الخبراء في العمارات والظفير .

ولكن السلطان عبد العزيز جاء الى الحسا ثم الى العقير لغير هذه الغاية . ولم يكن يخطر في باله ان المندوب السامي وحكومة العراق يبغيان تجديد النظر في معاهدة المحمرة . فلما علم صباح ذاك اليوم بقدوم المندوبين غضب تلك الغضبة الشديدة وهو راكب في موكبه يجتاز النفود . وقد قال لي انه هو الذي طلب الاجتماع بالمندوب السامي . فدعاه الى الحسا ، وجاء من اجل ذلك يلاقيه الى العقير . اما العمارات والظفير فما كان ليكلف

نفسه الخروج من الرياض من اجلهما . وقدكان اعد لمندوبه في مؤتمر المحمرة دفاعاً عن حقوقه فيهما هذه خلاصته :

اولاً : عند ما سقطت دولة آل سعود ، انقسمت الى قسمين كان احدهما بيد الترك والاخر بيد ابن الرشيد . ثم ظهر السلطان الحالي ، الذي احيا تلك الدولة واستعاد ملك ابائه واجداده . فاستولى على نجد ، واخذ القصيم من يد ابن الرشيد ، وهزم الترك وطردهم من الاحسا والقطيف ، وهو لا يزال يطالب بما تبقى من املاك اجداده وعشائرهم شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً .

ثانياً : ان عشيرة الظفير التي تقطن اليوم الشامية «بالعراق» كانت في الماضي من رعايا آل سعود . اما العمارات والروله فهما فخذان من افخاذ عنزه ، وكانوا يسكنون نجداً خصوصا القصيم ، ومشايخهم بنو الهذال وبنو الشعلان هم ابناء عم آل سعود ومن رعاياهم .

ثالثاً : ان الانكليز عند ما احتلوا العراق احترموا فيه حدوده السابقة التي كانت تحترمها الحكومة العثمانية ، كالحدود الشرقية بين حكومة ايران والعراق مثلاً ، والجنوبية بين العراق والكويت . وقد اعترفوا ايضاً بالاحوال الجارية والقواعد المرعية بين الترك قبلهم وحكام العرب المجاورين لهم ، وفي مقدمتهم امارة بيت الرشيد . وبما ان سلطان نجد الحالي استولى على امارة الرشيد . وادخل في ملكه وحوزته جميع ما كان لتلك الامارة المتفرقة من بادية وحضر ، فله الحق بمن تشرد او تسرب منهم اي العمارات والظفير الى العراق .

وكثيراً ما سمعت السلطان يقول : هم رعايا ابائنا واجدادنا ، بل هم ابناء عمنا . وهذه الكلمة الاخيرة كانت غالباً تسبق كل حجة في كلامه عن الخلاف بينه وبين امراء العشائر — هم ابناء عمنا . اضحكتني مراراً منه هذه الكلمة ،

بل شغلت بالي . فقد خفت ان تصل دعواه الى سوريه والسوريين وهناك الطامة الكبرى. الا ان قوله ان ابن الهذال وابن الشعلان من ابناء عمه هو مبني على كونهما شيخي العمارات والروله . وهاتان القبيلتان فخذان من عنزه كما قلت ، وعنزه كما هو مدون في كتب الانساب ، اخو وائل من ربيعه ، ونسب ابن سعود السلطان عبد العزيز يتصل ببكر بن وائل . فقبيلة عنزه اذن هي كلها جمعاء ابنة عمه وله عليها حق الرعية . واذا كان نوري لا يحسن سياسة عشائرها وفهد لا يستطيع ان يؤدب بدوها ، فالشوحط بيد ابن سعود لا ينفع ولا يضر ، ان هو الا خشبة ، اذا كان لا يسارع بـه الى الشمال فيحمي ذمار ابنة عمه عنيزه المتشردة الضاربة في بوادي العراق والشام ، شمالي جبل عنيز شرقاً وغرباً ، ويعلمها حسن السلوك . ليطمئن بالك يافهد ، وليطمئن بالك يانوري ، وليطمئن بال صديقتيكما انكلتره وفرنسة . ان لشوحط ابن سعود ما يشغله عنكم الان . ولكن من يكفل المشاهرات والانتدابات الى الابد ؟

قلت ان السلطان عبد العزيز هو الذي دعا السر برسي كوكس اليه ، وجاء يلاقيه في العقير . اما القصد من هذه الدعوى فمزدوج . حدثني سموه قال: « يظن الناس اننا نقبض من الانكليز مبالغ كبيرة من المال . والحقيقة انهم لم يدفعوا لنا الا اليسير مما تستحقه الاعمال التي قمنا بها اثناء الحرب وبعدها . ونحن لا نخلف معهم قبل ان يخلفوا معنا . بيننا وبينهم عهد نحافظ عليه ولو تضررنا في انفسنا ومصالحنا . . . الانكليز مديونون لنا ، ترى الصحيح يا استاذ ، ونحن لا نطالبهم ، من العار ان نطالبهم . ولكن ما هي سياستهم الان ، تراهم يغزلون ويغزلون . تراهم يدسون الدسائس عليّ — عليّ انا صديقهم ابن سعود — احاطوني بالاعداء . اقاموا دويلات حولي ، ونصبوا من اعدائي ملوكاً ، وهم يمدونهم دائماً بالمساعدات المالية والسياسية : الشريف في الحجاز وابنه عبدالله في شرق الاردن ، وابنه فيصل في العراق . . . وما القصد من هذه الاعمال ؟ وما الداعي اليها ؟ انا ابن سعود صديق الانكليز وهم في سياستهم الشريفية يعاملونني معاملة العدو . . . ومن هو ابن سعود في نظر الشريف واولاده ؟

هو الجلف الكافر الخارجي. ترى الصحيح ياحضرة الاستاذ. قد قالوا ذلك. او قالوا اكثر من ذلك. وهم مع ذلك يطلبون مني ان احمل على الفرنسويين في سورية لاخرجهم منها. ترى الصحيح. »

ونادى اذ ذاك احد كتاب ديوانه، فامره ان يحضر بعض اعداد من جريدة القبلة، فاطلعني فيها على قصيدة تثبت كلامه الاخير. قصيدة لشاعر حجازي يستنجد سلطان نجد على الفرنسيس في سورية. وفي عدد اخر مقالات كلها مطاعن في ابن سعود الجلف الخارجي. فقلت: الصحافة يامولاي واحدة، ان كانت في ظل الحرمين او في ظل برج ايفل. والرجل الكبير لا يكترث باقوالها. فقال السلطان وكان قد احتدم غيظاً، فذهب القرمز من شفتيه، و نور العطف من ناظريه: اسمع. انا اعلّمك[1]. هذا قول الشريف لا قول احد الكتاب المسترزقين، وساطلعك على ضده، بخط يده.. هات اخر كتاب جاءنا من مكة.

خرج الكاتب.

—هات القهوة.

من عادات السلطان انه حين يحتدم غيظاً يطلب القهوة. فنادى العبد في الباب. القهوة. وكرر الصدى خارجاً عند النار.

—لا نسلم بذرة من حقوقنا، ولا نقول في اعدائنا ما يقولون فينا، ولا نطلب غير ما كان لابائنا واجدادنا قبلنا. ليعلم ذلك اصحابنا الانكليز. وضرب بالشوحط السجادة عند قدميه.

جاء الخادم بالقهوة فوقف امامه وقفة جندي الماني وسلم ثم انتظر الى ان ينتهي من كلامه.

---

(١) كانت تغيظني هذه الكلمة «انا اعلمك» حتى سمعتها من العبيد ومن احد خدامنا. فقلت لصديقي السيد هاشم وقد طفح الكيل: ايعلمني حتى العبيد والبدو في بلادكم وهم لا يتعلمون شيئاً منا، ولا احد يتنازل ان يخبرنا او يتلطف بافادتنا؟ فاجابني السيد: اليك ذلك. فابن نجد يعلّمك وهو لا يريد غير الخبر. اعلمك هو اصطلاحهم في اخبرك. اوما سمعتهم يقولون: هات علومك اي اخبارك؟ فلا يثقل التعليم على طبعك يااستاذ.

— وليعلم ذلك الشريف واولاده . ومكنها بضربة اخرى . ثم مد يده ، فصب الخادم القهوة ، ثم صب لي ، ثم للحضور . ودخل الكاتب اذ ذاك يحمل كتاباً تناوله السلطان وبعد ان شرب ثلاثاً دفعه الي . قرأته وانا مدهوش — بعد ان قرأت مقالة القبلة — مما جاءَ فيه من كلمات التودد والاكرام والتبجيل ، اسلوب الديوان الهاشمي لا يتغير . ثم دفع الي ملحقا خطه غير الكتاب وفيه الخبر اليقين ، حاوي خير ، فحواه : ان الملك حسيناً يدعو السلطان الى الصلح والى الولاء والاتفاق ، ويعرض عليه ذلك مقيداً بشروط منها ان تعاد تربه والخرمه[1] الى الحجاز ، وان يعاد الى ابن الرشيد ملكه في حائل وسيادته في جبل شمّر .

— تسلام — كلام . ولا ندري أنصدق الكتاب ام الجريدة .

ثم سألني رأيي وكانت قد تغيرت لهجته وسكنت فيه ثورة الغضب .

— ما رأيك ياحضرة الاستاذ ؟ لا تقل لي ان لا دخل لك بالسياسة ، وان سياحتك في بلادنا سياحة علمية فقط . «حنا» نفهم . ومر يده على لحيته وهو يبسم بسمته الخلابة . لا تخدعنا ياأستاذ . لا تغزل عندنا في المقاصد والكلام . اصدقنا الخبر . فقد قابلت الشريف وحدثته ، وقابلت الامام يحي والادريسي والملك فيصل وحدثتهم كلهم . فاعطني الان رأيك . ابغي نصيحتك . تكلم . ويكفي ان تقول رأيي تسدا « كذا » ولا جزم فنقبله منك . ولكني كلمتك بالحرية وابغي منك مثلها . المندوب السامي يصل غداً . «حنا» دعوناه للنظر في هذا الامر ، امر الشريف واولاده . فما رأيك ياصديقي الاستاذ ؟ وماذا ينبغي ان اقول للانكليز غداً ؟ . اراك ساكتا .

كنت قد افصحت عن رأيي في ما يختص بالموضوع وفروعه في احاديث سابقة . ولكني وجدت ان من المستحيل ان نخطو خطوة واحدة بدون ان نتعثر بشيء للانكليز او من الانكليز في كل مكان ، خصوصاً في الخليج العجمي

(١) راجع القسم الاول صفحة ٥١ في الجزء الأول من هذا الكتاب .

وفي سواحل البلاد العربية على الخليج . فالانكليز محتكرون الخليج وهم يعززون هذا الاحتكار بنشر سيادتهم على ضفتيه الشرقية والغربية . ولا شك ان لهم هاهنا ما لهم في عدن من مصالح وحقوق قديمة لا يتنازلون عنها . وهم يأبون ان يكون لسواهم من الاوروبيين او الاميركيين يد او رجل او شراع في تلك البقعة من الارض . اما في الخليج وفي الجهة العجمية منه فهم آمنون . لكنهم في السواحل العربية لا يطمئنون كل الاطمئنان مهما عقدوه من المعاهدات مع امراء العرب . ولولا ابن سعود وهو اول المتعاهدين واكبرهم لما أمنوا تعديات العرب . لست مبالغاً اذا قلت ان ابن سعود هو حامي بريطانيه العظمى في الخليج ؛ لانه يستطيع اذا شاء ان يخرج وكلاءها من الاساكل ويقضي على سياستها في السواحل العربية الشرقية فيستولي عليها . ما ضره اذن لو قال لانكلتره في سبيل مصلحته خصوصاً ومصلحة العرب عموماً كلمة حق صريحة ؟

قلت مجيباً على سؤآله : قل للانكليز يامولاي ان قد حان الوقت لواحد من امرين . اما ان يساعدوا امراء العرب مساعدة حقيقية فيحملوهم على عقد اجتماع عربي عام للنظر في الوحدة العربية او في تأسيس حلف عربي ، واما ان يرفعوا يدهم من التدخلات كلها فينهض امراء العرب انفسهم لهذا الامر ويجتمعون دون واسطة اجنبية

فأكد لي السلطان ان الانكليز لا يعملون لا هذا ولا ذاك . ولو سعوا سعياً أكيداً ليجمعوا امراء العرب ويوفقوا بين المتعادين منهم لا يفلحون ، بل يزيدون الخرق اتساعاً . ثم ضرب مثلاً على ذلك فاطلعني على طريقتهم : لنفرض ان شيخين من مشايخ العرب مختلفان في الحدود بينهما . والخلاف بسيط يمكن حسمه بواسطة شخص ثالث من البلاد . ولكن الانكليز يتدخلون في الامر فيعقّده مأمورهم او وكيلهم السياسي فيصبح السلم بين المتخاصمين مستحيلاً . ولا يكون الحق في ذلك على المأمور الانكليزي وحده . كلا ، العرب انفسهم يشاركون في الذنب . كل من الشيخين المتخاصمين يقول في نفسه :

لا بد ان يتحزب المأمور الانكليزي اما لي واما عليّ . وهذا أكيد . هي عادة الانكليز في تدخلاتهم كلها . فيضاعف العربي مطالبه عشرة اضعاف ، ولسان حاله يقول : اذا كان الانكليز معي فيعطوني حقي وزيادة ، واذا كانوا عليّ فيعطوني في الاقل بعض ما اطلبه ، ولا بد ان يكون فيه شيء من حقي .

ثم قال السلطان : هذه طريقة العرب ياحضرة الاستاذ ، وهذه طريقة «الانكلايز» . عسى ان الله يعلمنا فنعقل ويؤدبهم فيعدلون . . . . هات اقهوَه . .

الفصل التاسع

مؤتمر العقير

بلاد الغربة — خباء الكآبة والغم — الرفيق الحزين — الاستاذ المزيّن — الشوق والحنين في الفسطاط — الشوق والحنين في المضارب — السمر — اشعار نبطيّة — « الله يغربل الانكليز » — وصول المندوب السامي — اول جلسة من جلسات مؤتمر العقير — قنبلة السلطان ونكتته — الحكومة والعشائر — الحكومة الضعيفة تسترضيهم والحكومة القوية تضربهم — أغمدوا السيف يطغون اشهروا السيف يرتدعون — رجال الاقتصاد في المؤتمر — النقابة العمومية الشرقية — شركة عبادان — امتياز الحسا — الميجر فرانك هومس — فهد الهذال — مندوب حكومة العراق — السر برسي كوكس يوكل بي السلطان .

مللنا الاقامة في العقير ونحن ننتظر المندوب السامي . وما العقير غير حواشٍ من الخليج والنفود ، شمسها في شهر كانون محرقة ، ورطوبة هوائها تنهك حتى الابل . ولها مزية اخرى يعدها العرب من الافات ، العرب الذين لا يقيمون زمناً في مكان وهم يستأنسون كثيراً بالاسفار . فقد قالوا ان العقير هي الغربة بعينها ، تبعدهم عن الاوطان ، عن الاهل والعيال . ساد في المضارب روح السآمة والكآبة فكان اشد وطأة من الرطوبة في الهواء .

سمعت حتى العبيد يشكون . وكانت خيمتي ، وانا الوحيد بين هذا الناس البعيد حقاً عن الاوطان ، البعيد عن الاهل والخلان — واحق منهم لذلك بالشكوى — كانت خيمتي خباء الكآبة والغم . فسألت رفيقي الاديب السيد هاشم عن السبب في بؤس حاله :

— هل هناك غير الهواء والوحشة والانكليز ؟

— لا شيء من ذلك يااستاذ .

— وهل هو مما يستطاع مقاومته ؟ هل يمكنني ان اقوم بشيء يخفف وطأته عليك ؟

— او كنت ياعزيزي الاستاذ مزينا ، وكان عندك مقص وكنت ترغب في استئناسي لفعلت .

ففتحت اذ ذاك حقيبتي وقلت : شروط ثلاث ، تم منها اثنان . فها المقص وها انا ذا . اتبغي ان اقص شعرك ؟

—لا ياالستاذ . بل هذه اللحية التي تطاولت علي ، فافسدت عيشي ، سودت ايامي .

ولكننا لم نفز بتبييض شيء منها ، اي من ايامه . فبعد ان شذبت لحيته وجعلتها لحية نجدية قصيرة مستديرة ، قال السيد الحزين : لله ياالستاذ ما اضعف الانسان وما اسخف اراءه ساعة يستولي الحزن عليه . حاولت ان اخفي حزني في لحيتي فما نجحت . اضحكتني يامزين — زين الله حالك — ولكنك لم تفرج غمي . لله در من قال : لا تخف ما فعلت بك الاشواق . وكانه لمس وتراً فيّ ، شدّته الى حد الانين يد الهجر والنوى ، فأنّ ولسان حالي يقول : واشرح هواك فكلنا عشاق .

—كان لي امرأة ياحضرة الاستاذ بارعة جميلة ، حسنة الخلق ، لطيفة الذوق ، شديدة الهيام ، وكانت وحيدة قلبي وبيتي . متعني الزمان بها سنتين ثم جاء القواد الموت فاختطفها من بين يدي . فهجرت الكويت وجئت نجد ابغي علاجاً في البعد والنسيان . ولكن العقير تعيد الي الم الذكرى ، ادنتني العقير من الكويت والاحزان . . لله ما اضعف الانسان . . . . ياهويدي [1] هات اقْهُوَه [2] .

ولما كنا ذات ليلة في مجلس السلطان جاء النجاب بالبريد ، وفيه كتب لأناس في معيته فوزعت عليهم . ثم شرع عظمته يقرأ كتبه والكاتب جالسٌ عند قدميه فيطرحها اليه سئماً ، حتى وصل الى كتاب عرفه قبل ان يفضه ،

(١) هويدي تصغير عبد الهادي .

(٢) في نجد يسكنون فاء الاسم ويحركون العين اذا كانت ساكنة ، او بالحري ينقلون حركة الفاء الى العين ، فلا يقولون قهوة او شجرة او الدهناء بل اقهُوَه واشجَرَه والدَهَنا

فاربد جبينه وهو يطالعه . ثم مال وجهه الي وقال : هو من الاهل ، وهم يشكون البعد والهجر . منذ اربعة اشهر « حنّا » في الحسا ، وفينا مثلما فيهم من الشوق والحنين . . . ما كنا نبطيء بالرجوع لولا المندوب السامي وهو صديقنا . انا احب السر برسي كوكس واحترمه ، ولكنه ابطأ ، ابطأ جداً . وهذا الهواء الردي ، هواء العقير ، وهذه الوحشة التي لولا انسك يااستاذ لما كانت تطاق . «حنّا» اهل العارض لا تتحمل هواء الساحل ، سئمنا الاقامة هنا ، مرضنا . وسنرجع اذا كان لا يصل السر برسي كوكس غداً ، اي بالله نرجع . ثم كلم الحاجب في الباب : هات اقهوه . فردد الحاجب : اقهُوَه . واجاب راعي المعاميل عند النار : اي والله اقهوه .

وبين كنا عائدين تلك الليلة الى الخباء مررنا بحلقة من حلقات الربع حول نار مشبوبة يؤمها كل من يبغي القهوة من الخدم والاسياد . فكانت حافلة عامرة تباري النار تأججاً واللهيب حنيننا . فافسحوا لنا مكاناً وهم يواصلون قص القصص ويروون من الاشعار ما يفصح عما فيهم من الشوق والحنين ، فيردد الجلوس اخر كلمة من كل بيت وفيهم طرب يمازجه الغم .

ياليتني حرته[1]	احمل ذهابه وماه .	الجلوس : وماه
ياليتني مهرته	وزبّنه[2] عن عداه .	» : عداه .
ياليتني محبسه	وآكل معه من عشاه .	» : عشاه
ياليتني نعلته	واطا معه ما وطاه .	» : وطاه

— زين بالله زين !

— ولكنها ابيات قيلت في مدح ابن رشيد . فقال راويها : ولكنها لسان حال صديق لي بالمنفوحه !

ياجالي الحب ما تجلاه تجلي الموده وتفطن لي[3] . الجلوس : تفطن لي

---

(١) حرته اي ناقته الحرة النجيبه .
(٢) زبّنه في اصطلاحهم ابعده او حماه اي تحميه من عداه .
(٣) ابعد الحب والمودة الا تفطن لي وتبعدني اي تدنوني منهما .

طواني الحب طوي اللحا[1] عجّزت عراويه تنحلّي. الجلوس: تنحلى

— زين بالله زين.

— صب يادْحَيْم « تصغير عبد الرحمن »

فقال دحيم وهو يصب القهوة: حنّا العرب لا نصبر على البعد والجفا،

فقال اخر شارحاً مفصحاً: يقول دحيم، اننا لا نصبر على البعد عن الحريم. نبغي النسا« أبَدْ » دائماً. والشيوخ اشدنا شوقاً اليوم. الله يغربل الانكليز[2]

وقد استجاب الله سبحانه طلبة الاعرابي فغربل فريقاً منهم في اليوم التالي وقذف ما في الغربال الى شاطيء العقير. اجل وصل المندوب وحاشيته مساء، فبادر الخدم اليهم بالخيل ولاقاهم السلطان على الرصيف عند القصر. ثم عادوا كلهم راكبين، فترجلوا عند فسطاط الاستقبال وكان قد انير بنور قنديل اسمهُ « اللوكس »ويدعى هناك بالكهرباء.

جلس المندوب السامي[3] الى شمال السلطان والى جانبه كاتب سره والوكيل السياسي في الكويت والميجر دكسون مأمور الارتباط في البحرين. وجلس الشيخ فهد الهذال بيني وبين عظمته الى اليمين.

اعتذر المندوب السامي لانه ابطأ، فقبل السلطان العذر، وشرع يفصح عما كان يتقد في صدره وهو ينظر اليه غير مكترث بسواه. فجاءت الكلمة الاولى قنبلة زعزعت المكان. — انا لا اخشى الا الرجل الذي لا شرف له ولا دين.

ثم قال: لا ندري ياحضرة المندوب ما خفي من المقاصد ولكننا نرجو منها الخير. ومما نعلمه علم اليقين ان العشائر، خصوصاً عشائر العراق، لا ترتاح الى

---

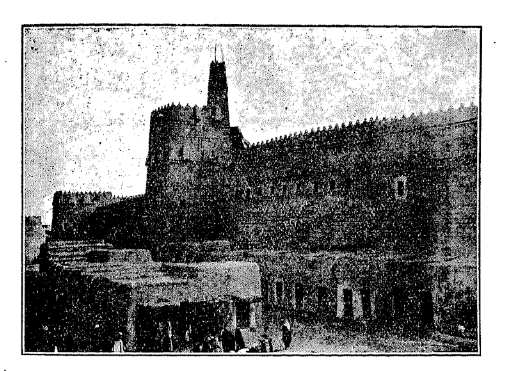
(١) اللحاء قشر شجر الطلح. ولكي يستقيم الوزن والقافية يجب ان تلفظ اللحا على القاعدة النجدية بتسكين اللامين اي ألْلْحا. وهذه الابيات من الشعر النبطي الذي يتغنى به اهل نجد.

(٢) قلما يسبون في نجد ولكنهم اذا اغتاظوا من احد يقولون: الله يغربله، اي يغربل الشر منه؛ واذا اشتد غيظهم وسخطهم يقولون: سلط الله عليه.

(٣) كان هو الداخل اولاً الى الفسطاط واظنه اختار المكان تأدباً. اما الشيخ فهد فلا اظن ان عظمة السلطان اجلسه الى اليمين.



اعضاء مؤتمر العقير



ص ٦٤ ـــ ٦٥

قصر عظمة السلطان عبدالعزيز في الرياض

حكومة قوية شديدة الساعد، بل لا تبغيها . لان الحكومة اذا كانت قوية تضربهم تؤدبهم، فيتأدبون. اما اذا كانت ضعيفة فتسترضيهم كما هي الحال اليوم ... العشائر ياحضرة المندوب لا يفهمون الا بالسيف . والا فهم يركبون على ظهر الحكومة ويسوقونها والبلاد الى مهاوي الخراب ... اشهروا السيف يرتدعوا، يتأدبوا . اغمدوا السيف ينهبوا ويقتتلوا . ويتقاضوكم مع ذلك الخوّة .

فاه عظمته بهذه الكلمات مولياً وجهه المندوب السامي وظهره فهد الهذال . وكان الشوحط الطويل بيده يساعد بالافصاح والتمكين، فرابني بل راعني منه هذا التصريح، فقلت في نفسي : سامح الله عبد العزيز . قد اخطأ في استرساله الى غضبه . ولكنه وهو السياسي المحنك اراد ان يفهم ابن الهذال بانه صريح مع الانكليز كما هو صريح مع العرب، وانه في الحق لا يهاب بشراً . على ان المجلس ادلهم هنيهة من كلامه فجاء هو على عادته، كما قلت سابقاً، يجلوه بكلمة لطيفة فازال الانقباض الذي استولى على النفوس . لانه في غمزه قناة الهذال اهان حكومة الانتداب التي تدفع له مشاهرة ليحفظ الامن في البادية بين العراق والشام .

— اغمدوا السيف يقتتلوا وينهبوا .

ثم مال بوجهه الى الشيخ فهد وقال مبتسماً : اليس كذلك يافهد . «حنّا» نعرف بعضنا . فضحك كل من كان في المجلس سوى شيخ العمارات الذي كان يحدق نظره في السجادة، ثم يرفعه خلسة الى المندوب السامي كأنه يقول : لا بارك الله بساعة جئت فيها معك .

هذه اول جلسة وان كانت غير رسمية في مؤتمر العقير، تبعها جلسات سرية بين السلطان والمندوب، وجلسات عمومية حضرها رئيس وفد العراق ووكيل بريطانيه السياسي في الكويت والشيخ فهد الهذال . وكان الكتاب والمترجمون — الميجر دكسون من الجهة الانكليزية والدكتور عبدالله من الجهة العربية — والاخصائيون أيضاً من البدو الخبراء بارض الشمال وحدودها واماكن الماء فيها، يؤمون من حين الى حين خيمتي الصغيرة . فرأيت ان رغبة الفريقين

بالسلم رغبة حقيقية، وان السعي مع ما تخلله من وعيد وتهديد ظل متواصلاً حتى النهاية، فكللت في اليوم الخامس اعمال المؤتمر بالنجاح [١]

ولم يُحرم مؤتمر العقير غير ممثلي الصحافة. اما رجال الاقتصاد وطالبو الامتيازات، الذين يحومون على كل مؤتمر يعقد في اوروبه في هذه الايام، فقد شرف بعضهم العقير وكان البعض، وهم على الشاطيء العجمي من الخليج، يتقربون من ذوي الامر فيه باسم الصداقة للعرب — والبترول. فقد علمت ان السير آرنلد ولسون رئيس شركة الزيت الانكليزية الفارسية في عبّادان كتب الى صديق له في المؤتمر يسأله مفاوضة السلطان عبد العزيز بخصوص امتياز في الحسا.

ولكن الذي كان قد باشر المفاوضة فجاء بنفسه ونصب خيمته بالقرب من فسطاط السلطان هو الميجر فرانك هومس وكيل النقابة العمومية الشرقية بلندن. كنت قد سمعت بالميجر في عدن وعسير، فادهشني امره عندما اجتمعت به على رمل العقير. هو في العقد الخامس من العمر، وفي طور الشباب همة ونشاطاً. فقد ساح في تهامة وفي الاحساء بالرغم عن انه لا يعرف كلمة في اللغة العربية، وهو يبحث عن الزيت وينشد مثل شركة عبادان الامتيازات.

على ان الفرق بينه وبين تلك الشركة هو ان حكومة بريطانيه العظمى تعضدها لانها تملك سبعين بالماية من اسهمها، وتقاوم كل شركة سواها تبغي امتيازاً في الشطر الشرقي من البلاد العربية. قال لي الميجر هومس ذات يوم في العقير: لا خصم لنا غير حكومتنا. ولكن لا دخل لنا في السياسة، نحن تجار ننفع وننتفع.

لذلك منحه السلطان عبد العزيز امتياز الحسا، بالرغم عن مقاومة الحكومة الانكليزية التي كانت تفضل ان تمنحه لشركة عبادان. ثم شدّ الميجر اطنابه في الكويت وفي البحرين حتى وفي العراق. فاذا جاء فوزه مقابلاً لجزء من سعيه،

(١) سنعقد فصلا في اعمال المؤتمر والمعاهدات التي عقدت فيه بين نجد والعراق وبين الانكليز ونجد في التاريخ الذي سيصدر بعد هذا الكتاب.

وكانت شركته بعيدة دائماً عن السياسة ، قد يصبح اشهر من نالوا امتيازات في البلاد العربية واحبهم الى العرب .

وقف في صباح اليوم السادس مندوبو المؤتمر للمصورين فينا وقفة الرضى والامتنان . وكان الميجر هومس مع الفريقين ، ممن تصوروا ومن صوروا . ثم انتثر العقد ورددت كلمات الوداع . فعاد كل في سبيله يثني على رجل المؤتمر ، بل رجل نجد الكبير السلطان عبد العزيز ، حتى ان الشيخ فهداً كان صباح ذاك اليوم من الراضين ، المسرورين ، المادحين . سأله السلطان عندالوداع : هل من حاجة نقضيها لكم ، فاجاب : نعم يلزمنا بعض العمانيات[1] . فقال عظمته : ارسل احد رجالك معنا نرسلها اليك من الحسا . ففعل . ثم جاءني يعتذر ، والرضى ابو العطف والاتضاع ، لانه لم يرد زيارتي فقال : ان اشغال المؤتمر حالت دون ذلك ، وامر كاتب سره ان يدون اسمي في دفتره ، دفتر المقربين المغبوطين . ثم دعاني بارك الله فيه الى ديرته في الشمال قائلاً : سنقوم هناك بواجبكم ان شاء الله .

اما مندوب حكومة العراق فامره يحزن . كان قد مرض في الطريق الى العقير فوصل الينا ورديفته الحمى . وكان اثناء المؤتمر يشكو كل شيء — ثقل الهواء ، وملوحة الماء ، ووحشة البيداء ، وظلم السماء ، ويقبل مع ذلك يد السلطان عبد العزيز . اظنه كان يجهل ان اهل نجد لا يقبلون يد السلطان ، وان تقبيل الايدي هو مستنكر عندهم . سالني عند الوداع قائلاً : أصحيح انك مسافر مع السلطان الى نجد ؟ فقلت : نعم . تعال معنا . فقال : وان اعطيتني ثقل رمال البادية ذهباً لا اخطو خطوة اليها . ها هنا — واشار الى البحر — خلاصي . البحر يوصلني الى بغداد . وكان في كلماته وفي تنهداته يمثل العاشق المشتاق البعيد عن جزر الواق الواق . مسكين المتمدن الذي لا يستطيع ان يستغني عن المدنية ولو يوماً واحداً .

اما الانكليز في المؤتمر فما سمعتهم مرة يشكون ، شأنهم في كل مكان .

---

[1] « النوق العمانية ، من عُمان ، وهي انجب الابل واعزها .

فهم يقتبلون كل حال حسنت او ساءت ، عاملين عملهم جادين ، راضين بقسمتهم الوقتية ساكتين صابرين . ودّعوني ولسان حال كل منهم يقول : هنيئاً لك ، ياليتني مسافر معك .

ولكن المندوب السامي السر برسي كوكس قال لي ساعة الوداع : وهلا سافرت الى الربع الخالي ؟ فقلت ضاحكاً : كأنك تبغي هلاكي . ثم فاه وهو يودع السلطان بكلمة انستني الاولى لان فيها منحت ضمناً حق الحماية الانكليزية .. قال باللغة العربيــة مخاطبا السلطان ومشيراً الي : هو بذمتك . فاجاب السلطان بكلمة الطف منها واجمل . قال ويده على كتفي . الاستاذ نجدي الان ، هو منا .

الفصل العاشر

العدل اساس الملك

عدل ابن سعود — الشرع — البسط في المذهب الوهابي — عرب البادية — الحطاب — «لولا الشيوخ والله لادبته» — الامن في نجد — من القطيف الى ابها ومن وادي الدواسر الى وادي سرحان لا يسأل المسافر من اين والى اين ؟ — طريق الحسا في عهد الاتراك — «الخوة» كل خمسة اميال — عبد الله بن اجلوي عمر الاحساء يؤدب ابنه — «اذا كنا لا نبدأ بانفسنا فكيف نعدل في غيرنا» ؟ — لصوص بني مرة — ثمانية رؤوس تقطع في ساحة الهفوف — التدخين في نجد — الصلاة — من يبسطون ممن يدخنون وممن لا يصلون في المسجد .

العدل اساس الملك ، ومن العدل ما كان يعجب ، ومنه ما كان يرعب ويخيف . وقد شاهدت من مظهريه في بلاد نجد ما لم اشاهده في البلاد العربية كلها . بل ما وجدت خارج نجد بلاداً تتمثل فيها هذه الحكمة « العدل اساس الملك » ذاك التمثُّل الصحيح الشامل ، ذاك التمثل المعجب المخيف معاً . عدل ابن سعود ! كلمة تسمعها في البحر وفي البر وفي طريقك الى نجد قبل ان تصل اليها . كلمة يرددها الركبان في كل مكان يحكمه سلطان نجد ، من الاحساء الى تهامة ، ومن الربع الخالي الى الجوف .

وما عدل ابن سعود غير الشرع — غير عدل النبي . اضف اليه قسوة في بعض الاحكام الاجتماعية اشتهر بها المذهب الوهابي . فمن يدخن مثلاً يبسط [1]. وكذلك من لا يصلي . اما احكام الشرع فمعروفة الا انها تنفَّذ في نجد بلا تردد ولا محاباة ، ولا مرافعات لولبيات طويلات . حكم ابن سعود لا يعرف في سبيل العدل كبيراً او غنياً . كل الايدي الاثيمة عند الحاكم سواء ، وكل الرؤوس سواء عند السياف . وكم من يمين في اول عهد هذا السلطان الكبير قطعت لسرقة صغيرة . وكم من رؤوس طاحت الى الارض لذنب

(١) البسط عندهم هو ان يطرح الرجل الى الارض ويضرب بالرطب من عسيب النخل .

يخففه في غير ذلك الحال وذلك المكان عذر وندامة . ان مثل هذا العدل ليثير خواطر المتمدنين ويغضب من عاشوا في ظل الاحكام المدنية التي لا تخلو من الرأفة والحنان، وان كان العدل لا يسلم دائما فيها .

شاهدت بسْط رجل في الرياض لاغتصابه فتاة صغيرة . بسطه العبيد على بطنه وامسك عبدان منهم يديه ورجليه وسقط العبدان الاخران بالعسيب الاخضر على ظهره يعدون الضربات الى ان عدوا الخمسين او الستين . نفرت من ذا المشهد نفسي، وسئمت العيش بعد ذلك اياما . ولكن من يعرف عرب البادية ويقيم بينهم ويخبرهم يرى وجوب مثل هذه القسوة في تأديبهم وضبط امورهم .

اما المظهر الجميل في عدل ابن سعود فاليك مثلاً صغيراً منه . كنا في العقير نحتاج الى الكثير من الحطب، وكان يجيء البدو باحمال منه يبيعونها الى رؤساء الخدم باسعار غالية لقلة الحطب في ذاك المكان ولعلمهم بحاجة الشيوخ وضيوفه الانكليز اليه .

وقف يوماً احد هؤلاء الحطابين ومعه اربعة جمال محملة . ساومه قيم السلطان عليها ، فطلب الجمال روبيتين [1] ثمن كل حمل ، وسعره الاعتيادي نصف روبية . نزل الجمال الى روبية ونصف . رفض القيم شراءها . ساق الجمال جماله . ناداه القيم ودفع له روبية فابى . فقال القيم وكان الجمال قد ولى باحماله ابدُويْ قواد . لولا الشيوخ والله لادبته .

أو تظن انهم كانوا يعاملون مثل هذا الحطاب مثل هذه المعاملة لو كنا في معسكر تركي او اوروبي وكان الجيش بحاجة الى الحطب او كانوا يكرهونه على البيع بما يريدون ثم يسخرونه . لولا الشيوخ لفعل الخدامون بالبدو الحطابين مثل هذه الفعلات . ولكن حق البدو يعطى لهم — وحقهم ان يبيعوا اما يملكون بما يشاؤون ويستطيعون . اما حق ابن سعود فيؤخذ منهم بالعدل، وان اقتضى الامر بسيف العدل البتار .

(١) الروبية من عملة الهند وهي تساوي نحو سبعة قروش مصرية .

العدل اساس الملك . والامن اول مظهر من مظاهر العدل . وفي نجد اليوم من الامن ما لا تجده في بلاد الانتداب السعيدة بل في البلاد المتمدنة . لا يظنني القارىء مبالغاً بما اقول ، ولست على ما اقول مستشهداً بنفسي ، مع ان رحلتي النجدية استمرت خمسة اشهر ، قطعت في اثنائها الدهناء مرتين ، جنوباً في طريقي من الحسا الى الرياض ، وشمالاً في طريقي من القصيم الى الكويت ، وكانت حقائبي وفيها مالي مكسرة الاقفال مفتوحة وهي مع الحمله بعيدة مني النهار كله ، وكان في خدمتي اناس من البدو ، ولم افقد مع ذلك شيئاً من حوائجي ولا ورقة من اوراقي . الا اني لا اقدم نفسي حجة لاثبات ما اقول عن الامن في نجد لاني كنت اسافر بطريقة ممتازة مصحوباً بعشرة الى خمسة عشر رجلاً من رجال السلطان .

ولكن الامن في نجد لا يحتاج الى رحلتي مثالاً واثباتاً . ان له اكبر دليل واقطع حجة في اهل البلاد انفسهم ، المسافرين من قطر الى قطر ، وفي القوافل التي تسير اربعين يوماً في ملك ابن سعود من طرف الى طرف ، من القطيف مثلاً الى ابها ، او من وادي الدواسر الى وادي سرحان ، دون ان يتعرض لها احد من البدو او الحضر ، دون ان تسأل من اين والى اين .

قدمت مثلاً صغيراً على العدل . وهاك مثالاً صغيراً على الأمن في نجد اليوم . كانت الطرق في الاحساء في عهد الاتراك لا تعبر الا بقوة عسكرية ، او بدفع « الخوة » . وكانت الطريق بين العقير والحسا ، وهي طريق التجارة الى نجد الاسفل ، اكثرها واشدها اخطاراً . فكان التاجر العربي المسلم الذي يروم الوصول الى الهفوف ـ مسافة اربعين ميلاً ـ يضطر ان يدفع « الخوة » كلما اجتاز خمسة اميال او عشرة من هذه الطريق المخيفة ـ طريق التجار والاموال . جاءها العجمان من الجنوب ، وبنو مرّة من الربع الخالي ، والمناصير من قطر وما دونها ، وبنو هاجر من الشمال من نواحي القطيف والكويت ، وجاء من داخل البلاد ، من وراء الدهناء ، الدواسر الاشاوس ، فحاموا على هذه الطريق وربطوها وقطعوها وتقاسموا اموال قوافلها .

كان يجيء التاجر من البحرين مثلاً فيدفع قبل ان يطأ برجله العقير « خوة » للعجمان . ومن العقير الى النخل خمسة اميال وخمسون ريالا« خوة » للمناصير . ومن النخل الى ام الذر خمسة اميال وخمسون ريالاً « خوة » لبني مرة ومن ام الذر الى العلاة خمسون ريالاً « خوة » لبني هاجر . ومن العلاة الى ... الخ واذا فاز التاجر المسكين بحياته وبقي شيء في كيسه ، فمن المؤكد ان احماله لا تصل كلها الى الحسا . وكان اذا خرج عسكر الترك لتأديب احد من هؤلاء العشائر يطاردهم البدو فيغلبونهم ، ويأخذون خيلهم وثيابهم ، ويرجعونهم الى الحسا حفاة عراة . ثم يجيء البدوي منهم راكباً حصان الجندي التركي ليبيطره على مرأى من السلطة المدنية .

هذه حال الاحساء قبل ان سقطت في يد ابن سعود . اما اليوم قد مررنا في النفود بجمل بارك ، رازح تحت حمله . فسألت عن صاحبه فقيل لي انه سار في طريقه وسيرجع بعد ان يصل الى البلد بجمل آخر يحمل البضاعة . وقد يموت الجمل الرازح ويبقى حمله على قارعة الطريق عشرة ايام فيعود صاحبه فيجده وما مسته يد بشرية ، كما تركه في مكانه . وكيف تمكن ابن سعود من اقامة مثل هذا الامن وتوطيده في بلاده ؟ بامرين : اولهما الشرع وثانيهما الارادة والوجدان في تنفيذ احكام الشرع تنفيذاً لا يعرف التردد ولا التمييز ، ولا الرأفة ولا المحاباة .

ليس السلطان وحده في هذا الامر الخطير . فان امراءه كلهم يأخذون عنه ويتمثلون به . وبين هؤلاء الامراء رجل مشهور يحكم الحسا . هو اكبرهم همة ، واشدهم تعصباً للعدل يجلس في كرسي القضاء وحده . فلا تجلس معه الرحمة ، ولا تجلس معه المحاباة . عدله عدل عمر بن الخطاب وقسوته قسوة البدو . يأمر بالقطع وبالنطم ولا يبالي . هو عبدالله بن اجْلوي[1] امير الحسا وابن عم السلطان عبد العزيز . ان اسم عبدالله ليرعب الناس اليوم ويروع منهم المجرمين . ان له صدى يقوم مقام الشرع في كل الاحساء ، من اطراف القطيف شمالاً الى

(١) اصله جلوي من جلا يجلو ولكنهم في نجد يسكنون الفاء من الاسم ومن ذلك ايضاً قولهم : ابْدوي اي بدوي .

وادي جبرين جنوباً. انه ليخيف اكبر البدو، واكثرهم استهتاراً. بل هو اسم تخوف الامهات به اطفالها.

ان لعدل عبدالله بن اجْلوي عيناً واحدة لا ترى غير المذنب ولا ترى في ذنبه غير ما يستوجب التأديب في الحال. وهو اسرع في تنفيذ احكامه واشد من ابن عمه السلطان عبد العزيز. ان ساحة الهفوف لساحة الدم، ساحة القطع والنطع. خذوه الى الساحة! وبعد هنيهة يلمع سيف السياف في شمس الضحى فتقع اليد او الرجل او الرأس في حجر القضاء ويهز العدل رأسه استحساناً.

جاء عبدالله ذات يوم رجل يشكو ولداً ضربه وشتمه. فسأل عبدالله: ومن الولد؟ فقال الرجل: لا اعرف اسمه. فقال عبدالله: وهل تعرفه اذا عاينته؟ فاجاب الرجل بالايجاب. فامر الامير ان تجمع عنده اولاد ذاك الحي من البلد. فاحضروهم كلهم وجاء الشاكي فنظر اليهم واشار الى غريمه، فهمس احد الحضور في اذنه: هو ابن الامير. فجمجم الرجل بعض كلمات اراد بها الاعتذار والعدول، فرده الامير، وسأل الولد فأقر بذنبه. فأمر العبيد ان يبسطوه امامه وان يقدموا للشاكي عسيباً اخضر من النخل. فتردد العبيد واحجم الرجل. فاخذ الامير القضيب بيده وانهال على ابنه بالضرب وهو يقول: اذا كنا لا نبدأ بانفسنا فكيف نعدل في غيرنا.

وجاء ذات يوم الى القصر في الرياض بضعة رجال من بني مرة، وهي اشد القبائل في الجنوب توحشاً، يطلبون عيشاً وكسوة. فكان لهم من السلطان ما يبغون. ثم ارتحلوا شرقاً الى الحسا فمروا في طريقهم ببعض الاباعر ترعى فساقوها امامهم، فشكاهم اصحابها الى السلطان في الرياض، فبعث السلطان بنجاب يحمل الخبر الى الامير عبد الله في الحسا. وصل النجاب قبل ان يصل عربان بني مرة، فتحركت اسباب العدل عند الامير بالسرعة التي اشتهر بها. ركب اربعماية من رجاله وراحوا منقسمين اربعة اقسام، شمالاً وشرقاً وجنوباً وغرباً، يفتشون عن عربان بني مره اللصوص. وما مر اربع وعشرون ساعة حتى جاءوا بهم وبالبعارين المسروقة الى الهفوف. فاوقفوهم امام ذاك

العربي الروماني ، العربي شرفاً، الروماني عدلاً ، وكان سؤال ، وكان جواب ، وكانت الكلمة : الى الساحة !

هناك امام الامير والجمع المحتشد يشتغل السياف ويشتغل معاونه . والطريقة في الاعدام بسيطة سريعة مدهشة . فيها دقة نظر وفيها مهارة . انهم يركعون المذنب على ركبتيه ، ثم يرقص امامه المعاون ليلهيه عن السيف الاخر المرفوع فوق رأسه ، فيكزه اولا السياف وكزة شديدة سريعة في رقبته تحت المخيخ ، فيتحرك الرأس الى الامام ، فيتقلص عصب الرقبة ، فيضربها اذ ذاك ضربة — ضربة واحدة ! — يطيح منها الرأس الى الارض . دقيقة واحدة تبدأ بالرقص وتنتهي بالنطع ، فيتحدث بها الركبان في الاحساء وفي القصيم وفي وادي الدواسر .

وفي ذاك اليوم الرهيب لمع سيف السياف لمعات ثماني في ساحة الهفوف ، وفي شمس الضحى ، فرقصت على الارض ثمانية رؤوس من بني مرة ... ياراعي البعارين ، ضاع لنا بعير فهل عاينته في الطريق ... ؟ هوذا ياخوي البعير تعالَ خذه ... العدل اساس الملك وسياجه . فان القلاع التي بناها الترك في الطريق الى الحسا هي اليوم مهجورة متهدمة ، والقوافل تسير ثمانماية ميل شرقاً وغرباً وثمانماية ميل جنوباً وشمالاً في ملك ابن سعود وهي تدعو له بطول العمر وتشكر الله .

قلت انهم يبسطون من يدخن في نجد ، ويبسطون كذلك من لا يصلي . وللكلمتين شرح توجبه الحقيقة والانصاف ، لان الناس في ما يسمعون من عجيب الامور ومنكرها يبالغون ، ولا يهمهم من الحقيقة غير ما يثبت منها المبالغات .

التدخين ممنوع في نجد بل في ملك ابن سعود كله ، ولا احد يدخن علناً او في الاسواق ، لا في الحسا ولا في العارض ولا في القصيم . ولكنهم في الحسا وفي القصيم يدخنون في بيوتهم . والمشايخ يتساهلون . وفي الرياض رأيت من يدخن سراً حتى في حضور اقرب الناس الى السلطان . ذلك لانهم لا يرون

في الدخان ما يراه المتعصبون من العلماء . اما السلطان فهو يحب الروائح الطيبة ويشمئز من رائحة الدخان . وما كان ليزورني كل ليلة على ما اظن لو كنت ادخن يوم كنت ضيفه في القصر بالرياض .

حدثنا المستر فلبي في كتابه « قلب البلاد العربية » قال : كنت أنا ورفيقي ندخن ذات ليلة (وكانا مثلي ضيفين في القصر) اذ دخل علينا عبد يعلمنا بقدوم الشيوخ . وكانت الغلايين وعلب التبغ مبعثرة على الديوان، فخبأناها مسرعين وفتحنا الشبابيك كلها . وما عتم ان دخل السلطان الى غرفة كان الدخان لا يزال منتشراً فيها كثيفاً . فجلس متجاهلاً ، وكان لطيفاً على عادته . ولكن احد العبيد جاء تواً بالمجمرة وفيها الطيب فقدمها لسموه ودار علينا بها مراراً ثم تركها على السجادة في وسط القاعة تطهيراً للهواء .

تجاهل السلطان و دخان الغلايين نار وكبريت في انفه ، وكان لطيفاً على عادته . ولكنها كانت اول زيارة منه الى ضيوفه في منزلهم ، واخر زيارة . وهاك مثلاً اخر من تلطفه وتساهله .

في الرياض حي يسكنه العلماء . وللعلماء حاسة شم تخترق الجدران فتعرف ما وراءها من دخان ، وتميز بين الحلال منه والحرام . لذلك لا يجرأ احد في ذاك الحي ان يشعل سيكارة لا سراً ولا في غرفة مظلمة تحت الارض ! واذا خاطر بنفسه واستهتر ، فاكتشف امره ، يحاكم امام الشيخ ، وعند اثبات الجرم ، بعد استماع الشهود يبسط حالاً لا محالة ، و« يطقه » ـ يضربه ـ العبيد من اربعين الى ثمانين ضربة حسب خطورة الذنب وسوابق المذنب فيه . وقد سمعت السلطان عبد العزيز يقول لرجل من اخصائه كان يبحث يومئذ عن بيت لينتقل اليه : في محلة الشيخ « اي حي العلماء المذكور » بيت كبير ولكنك تعلم انهم هناك يواظبون على الصلاة ويشددون في الاحكام فتضطر ان تصلي دائماً في المسجد .

وقد قيل لي ان في كل مسجد بالرياض جريدة باسماء الذين يصلون فيه ، يقرأها الشيخ كل يوم صباح مساء ، فاذا كان احد غائباً يزوره وفد من

الاخوان في بيته : قد يكون مريضاً فيعودونه ويؤآسون ، وقد يكون مستغرقاً في النوم فينبهونه وينصحون ، وقد يكون كسولاً فيحذرون . واذا تغيب عن الصلاة ثانياً بلاسبب فيعظونه ويوبخون ، واذا كرر فعلته فثلث يبسطونه لا محالة؛ ويعملون في ظهره النخل او الخيزران .

هذه حقيقة حال الوهابية في العارض ، بل في الرياض ، بل في حي خاص من احياء الرياض . وكلما بعدت من ذاك الحي ومن تلك المدينة ، وكلما بعدت من العارض شمالاً او شرقاً ، تبعد من الغلو في الدين ـ دين التوحيد ـ ومن التعصب في تنفيذ احكامه الاجتماعية .

الفصل الحادي عشر

الاخوان

رسل الهول ورسل التوحيد — جنود ابن سعود — غلو من يدين بدين جديد — « انا خيال التوحيد اخو من طاع الله » — الحروب النبوية — تساهل الفاتحين المسلمين — شجاعة الاخوان — هوستهم : هبت هبوب الجنة ، اين انت يا باغيها ؟ — آتون الايمان — نوار مثال من الاخوان — الزكرت — التدخين والغناء — نوّار لا يصلي من اجل المريض الكافر — اهدده بالذبح — « الله يجيرنا واياكم من النار » — الاخوان ثلاثة اصناف : المجنون والمتعصب والمتساهل — فلاسفة في الشدة والفقر — قوة هائلة ينقصها ادارة ونظام — خطبة السلطان عبدالعزيز وهو ينذر الاخوان .

من هم الاخوان ؟ من هم اولئك النجديون الوهابيون الذين يردد الناس في كل قطر من الاقطار العربية اسمهم مستعيذين بالله ؟ وقلّ من يعرف حقيقة حالهم ، ويدرك سر اشتهارهم . أهم رسل الهول والموت ، ام رسل دين لا يعرف غير الله والكتاب والسنة ، دين النبي محمد والصحابة ؟ اقول نعم جواباً على السؤالين .

الاخوان — هم الفئة المحاربة ، الفئة المتعصبة ، الفئة المديّنة[1] جديداً في الوهابية . الاخوان هم جنود عبد العزيز بن سعود الذين كانوا بالامس من العرب الرحل ، من البدو الجاهلين ، فديّنوا اي دانوا بدين التوحيد فصاروا مسلمين . وهم في غلوهم يعتقدون ان من كان خارجاً عن مذهبهم ليس بمسلم ، وفي سلامهم بعضهم على بعض يشيرون الى ذلك . — السلام عليكم يالاخوان[2] ، حيا الله المسلمين . واذا سلم عليهم سني او شيعي فلا يردون السلام .

من الحقائق الناصعة في الاديان ونشأتها ان كل من دان بدين جديد او

---

(١) ديّن اي تمذهب بمذهب الوهابية في اصطلاح اهل نجد .

(٢) اهل نجد يدخلون في المناداة ال التعريف على الاسم فلا يقولون ياخوان ويا امير مثلاً بل يالاخوان ويالامير .

كان جديداً في الدين ، يأخذ منه الغلو مأخذاً يلتوي عنده العقل ، فيسترسل في ما يظنه فضيلة ولا يطيب له عيش الا بالتبشير والجهاد . قد كان كذلك المسيحيون الاولون ثم البروتستانيون ، بل قد كانت شيع الاسلام كلها في بدايتها نازعة الى السيف معتقدة ان الدين كل الدين في نشره في الناس حرباً او سلماً كرهاً او اقناعاً .

وها ان الاخوان في هذا الزمان يحملون البنادق والبيارق باسم الله ، فيحملون او كانوا يحملون على كل من لا يدين من العرب . وكأني بهم لا يرون خيراً في حياة لا اكراه فيها على التوحيد ، فينادي الاخ منهم ممتشقاً حسامه او رافعاً بندقيته : أنا خيّال التوحيد اخو من طاع الله ، بيّن رأسك يا عدو الله ! انهم من هذا القبيل مثل رجال البروتستانت الأولين الذين حاربوا شارلس ملك الانكليز . والسلطان عبد العزيز هو اشبه برجل تلك الثورة الكبير كرَموِيل .

لكننا لا نحتاج الى الامثال والمقارنات من تاريخ الغربيين وعندنا في تاريخ الاسلام مثَل الوهابية الاعلى . أجل ان مثال «خيال التوحيد» انما هو النبي ، وان حروب الوهابية اليوم شبيهة من وجه خاص بالحروب النبوية . عودوا الى الله ايها المشركون ، عودوا الى النبي والسنة ، عودوا الى دين التوحيد . واذا كنتم لا تعودون فتكفرون بالطاغوت ولا تشركون احداً مع الله ، نحن الاخوان عليكم . ان سيفنا بتار ويومنا عصيب [1] .

قد برهنوا على ذلك في مواقع عديدة واثبتوا جوابي على السؤال الأول فكانوا رسل الهول ورسل الموت في كل مكان سُمعت فيه «هوستهم» المشهورة : هبت هبوب الجنة ، اين أنت يا باغيها ؟ . فلا الحجاز ينساهم ولا الكويت يذكرهم بالخير ، ولا العراق يحسن بهم الظن ، ولا الجوف ولا الجبل ولا القصيم يكبر

---

(١) بعد حروب النبي التي كان بعضها دفاعاً عن نفسه واتباعه وبعضها تعزيزاً لدين التوحيد صار الفاتحون المسلمون يرضون من الامم التي يتملكون بلدانهم الخضوع لسلطتهم دون ان يغيروا دينهم . وفي القرآن : لا اكراه في الدين .

في ساعة الوغى سواهم، ويردد خوفاً واعجاباً غير اسمهم. الاخوان، زرعوا الهول في كل مكان. الاخوان يحاربون مستبسلين مستشهدين. روى الناس الموالون منهم والمعادون اخبار الشجاعة والبطولة التي اشتهروا بها. قالوا انهم شياطين الدين، وقالوا انهم ابطال المسلمين. وما كانت البطولة بغير الايمان الحي والثبات في الجهاد. لولا ذلك ما كان الاخوان، وما كان ملك ابن سعود. هبت هبوب الجنة، اين انت يا باغيها؟ وكل يبغيها. لذلك يحاربون وقلما ينهزمون. الجنة امامكم والنار وراءكم. فمن منهم اذاً يتقهقر، ومن منهم يولي مدبراً؟ هم شوكة ابن سعود في ايام الحرب، وهم في ايام السلم الشوك في غصن الدين. يحملون سلّم التوحيد بالعرض ويزعجون احياناً حتى سلطانهم العزيز. حدثت كثيرين منهم فما وجدت وراء اللسان غير قلب فيه اتون من الايمان، فلا يهاب صاحبه الموت ولا يخاف غير الله. ولكنك تسألني: أمِن روح هناك فيها شيء من الحنان؟ ام من عقل فيه ذرة من البرهان؟

هو ذا نوّار اقدمه مثلاً قويماً كريماً وما نوار غير راعي بعير اكتراه منه شاب كان في خدمة السلطان ليسافر الى القصيم. وكنا يومئذٍ على اهبة الرحيل فاراد الشاب ان يخاوينا فقبلنا، فخرج راكباً معنا من الرياض، ونوار صاحب الذلول يمشي امامه او وراءه. وكان في بعض الاحايين عندما يتعب، يثب الى الرحل رديفاً، ثم يترجل مستعيذاً بالله. ذلك لأن الشاب الذي اكراه نوار بعيره هو «زكرْت» يدخن ويغني[1] والغناء في نجد اليوم محظور وفي بعض مدن العارض والقرى الجديدة، الهُجَر، محرم مثل الدخان. اما الزكرت فكان يرفع عقيرته كلما خرجنا من قرية وصرنا في الفلاة، فيتلو اذ ذاك نوار التعويذتين. لا انسى ساعة رآه لاول مرة يشعل السبيل. كان ذلوله ماشياً الى جنب ذلولي وكان نوار وقتئذٍ رديفه، فوثب فجأة الى الارض كأن ناراً اشعلت تحته وهو

(١) ازكرْت لفظة فارسية معناها من لا اهل له ولا عيال، وتطلق في نجد على من يقضي ايامه في قصر السلطان او الامير خادماً او حول القصر ينتظر قسمة ربه. والزكرت كثير الاسفار عادة وكثير الاخبار، مرن العقل والخلق، يحسن الخدمة ويحسن كذلك التهكم على الاخوان.

يردد بصوت عالٍ : اعوذ برب الفلق من شر ما خلق ... اجرنا اللهم من النار .. اجرنا اللهم من النار . والزكرت اثناء ذلك والربع كلهم يضحكون .

كان الاخ نوار مع ذلك لطيفاً وذا مروءة تشكر . فيعاون الخدم ، ويرعى الركائب عند المراح ، ويجمع الحطب ويشب النار ، ولا يأكل الا قليلاً . رافقنا هذا البشر الغريب ، خاوانا كرهاً ، عشرة ايام ، وما من مرة سلم علي او كلمني او رد سلامي . مرضت اثناء السفر بالحمى فكنت ذات يوم على الفراش في خيمتي ونوار واقف اتفاقاً في الباب . فقلت مازحاً ، بل كنت أضايقه عمداً : يانوار انا «مصخن» ـ مريض ـ اليوم . فمال بوجهه الي هاتفاً والحمد لله ! كانت عصاي طوع يدي قرب السرير فرميته بها لما ظننته منه وقاحة بل قساوة وحشية ، فاصابت منه الرأس ولكنها لم تحرك اللسان بكلمة واحدة .

نهضت بعد ذلك وخاطبته وهو واقف عند النار : انت يانوار رجل تقي ورع صدّيق وانا رفيقك في السفر ـ مريض ـ «خوياك مصخن» اليوم ، ونبغي الرحيل ولا رحيل مع مرض . فهلا ذكرتني في صلاتك وسألت الله لي الشفاء العاجل ؟ فلم يجبني بكلمة . فقلت : افلا تصلي من اجلي يانوار ؟ . ظل معرضاً عني ساكتاً . فقلت مصراً : انا « خوياك » ابغي منك ان تذكرني في صلاتك . هز الرجل رأسه متأففاً وبعد عني ، فتبعته وامسكته بعباءته ، واظنني كنت محموماً فزادني هذا الصد منه حرارة وغيظاً ، فقلت ولا مزاح : اسمع يانوار انا اعلّمك . انت واحد و«حنّا» خمسة عشر وكلنا ندخن ونغني ، فاذا كنت لا تصلي من اجلي وتسأل الله لي الشفاء ، نذبحك والله مثلما ذبح مسفر هذه الشاة . اظن ان تهديدي راعه فحرك شفتيه بهذه الكلمات : الله يجيرنا واياك من النار . وهذا منتهى التساهل منه . لم يطلب لي الشفاء ، كلا . بل اشركني من فضله بالاستجارة من النار ، نار الجحيم . كل الاخوان المدّينين جديداً هذا الرجل ، كلهم نوّار .

على ان هناك فريقاً اخر منهم ، قد مر على تدينهم او تدين ابائهم حقب من الزمان ، فلطف فيهم سورة الايمان . هؤلاء يسلمون على غير الموحدين

ومنهم من يدخن سراً ويغني اذا صار في الفلاة [(١)] ولا يلوم ابن سعود على تساهله مع الكفار الانكليز .

وهناك فريق ثالث واكثرهم من الجبل جبل شمر، دينوا بعد سقوط حائل او قبله اما خوفاً واما ارتزاقاً، فهم يتساهلون تساهل السني ولكن الاخ الجديد الاكيد يقول : انهم مدغلون .

قد كان في رجالي الذين عشت واياهم شهرين في السفر من العارض الى القصيم والكويت من الثلاثة الاخوان، الاخ المجنون، والاخ المتعصب تعصباً نسبياً معقولاً، والاخ المتساهل . وكان في الصنف الاخير ظريف ذكي الفؤاد يحسن النكتة والجواب، يدخن دائماً ولا يستأثر بالسبيل . بل كان يقدمه عند كل « تعميرة » الى رفقائه، صارخاً بصوته العريض : دخنوا ياالاخوان . بارك الله فيهم قد كانوا طيلة الطريق موضوع التهكم والضحك . اجل، قد اضحكونا وفكهونا في ساعات الضجر الطويلة .

ويقسم الاخوان ايضاً الى ثلاثة اقسام، اي المطاوعة [(٢)] والعلماء والمتعلمين المبتدئين . ويعرف هؤلاء المطاوعة في كل نجد من قيافتهم النسكية . بل من خلق اطمارهم البالية وتلك العمامة البيضاء التي هي اشبه بعصابة او ضمادة ذراع من الخام او رقعة يلفها المطوع فوق الغطرة على رأسه ويشكر الله . ثم يحمل عصا من الشوحط اذا كان كبيراً، والا فقضيباً من الخيزران ويجوب البلاد في سبيل الله . المطاوعة يعلّمون الناس الدين، والعلماء يعلمون المطاوعة وكلهم يوم الجهاد « خيال التوحيد اخو من طاع الله » . وكلهم في ايام السلم فلاسفة في التجمل والقناعة، في الشدة والصبر، في الفقر والتقوى .

---

(١) لا اظن احدا من العرب موحدا كان او مشركا يستطيع ان يقاوم ما تحركه الفلوات في نفسه من حب الغناء او الحداء . كنا ذات ليلة حول النار نبحث في هذا الموضوع فروى احد الربع قصة عن السلطان عبد العزيز قال : خرجنا يوما من الحسا مع الشيوخ وكنا عشرين من خاصة رجاله . فلما وصلنا الى الدهنا رفع عبد العزيز العقال والغطرة الكوفية عن رأسه ووضعهما في الخرج وقال باسما : لا اخوان معنا . من كان عنده حس فليسمعنا الان . فرحنا نغني والله حتى قطعنا الدهنا وعبد العزيز مسرور طروب .

(٢) جمع مطوّع اي المطوع في خدمة الله واصله متطوع فادغم .

ترى الاخ في الطريق حافيا لا يحمل غير عصاه ، ينفخ الهواء في اطماره البالية فيكشف عراه ، وقد يكون مشى يومين او ثلاثة دون ان يذوق الخبز او التمر فتسأله بعد السلام : «وتسايف» —كيف— انت ؟ فيجيبك بصوت عريض ، وقلب وطيد كانه يمثل دوراً في رواية : بخير ونعمة والحمدلله ! انما هذه فضيلة الاخوان بل فضيلة النجديين الكبرى . فهم على فقرهم وسوء حالهم في الدنيا قانعون راضون ، قلما تسمع كلمة منهم فيها شيء من اليأس او الشكوى .

والسلطان عبد العزيز امامهم في كل شيء . فهو يعرف الشجاع فيهم والتقي والصبور والعاقل والمجنون ، ويحسن سياسة الجميع ، فيستخدمهم في سبيل الله وملك ابن سعود . اجل ان عنده لكل من الاخوان وظيفة ومقاماً : المعتدل للخدمة ، والمتساهل للتجارة والسياسة ، والمجنون للقتال . اما امر الصنف الاخير ، اخوان نوّار ، فقد يستفحل عليه في بعض الاحايين ، وقد يعجز عن ضبطهم دائما ، لان المسافات في نجد بعيدة والمواصلات كلها اولية . الاخوان قوة هائلة ينقصها نظام وادارة ، والا فتتفلت من يد سيدها وتكون عليه وعلى سواه وخيمة العاقبة . مثال ذلك ما حدث في الشامية بالعراق يوم هجم الدويش باهل الارطاوية على ابن سعدون وعشائر العراق فهزموهم شر هزمة واذاقوهم من هول الاخوان ما لا ينسونه حياتهم .

ولنا في ما حدث في الجوف السنة الماضية مثال اخر . لكن عذر اخوان الجوف كان واهيا فلم يقبله السلطان عبد العزيز . بل امر بالقبض على رؤساء تلك الغزوة و باحضارهم مقيدين الى الرياض حيث سجنوا ثلاثة اشهر .

كنت في عاصمة نجد يوم اطلق سراحهم فاحضروا امام السلطان فخاطبهم قائلا : لا تظنوا ياالاخوان ان لكم قيمة كبيرة عندنا . لا تظنوا انكم ساعدتمونا واننا نحتاج اليكم . قيمتكم ياالاخوان في طاعة الله ثم طاعتنا . فاذا تجاوزتم ذلك كنتم من المغضوب عليهم . اي بالله ، ولا تنسوا ان ما من رجل منكم الا وذبحنا اباه واخاه او ابن عمه . وما ملكناكم الا بالسيف . ترى الصحيح . والسيف لا يزال بيدنا اذا كنتم ياالاخوان لا ترعون حقوق الناس .

لا والله ، لا قيمة لكم عندنا في تجاوزكم ، انتم عندنا مثل التراب . . . اما اذا عدلتم وعقلتم فحقكم بشرع الله خذوه من هذا الخشم — وضرب بالسبابة انفه — وحقي آخذه منكم دائما باذن الله . . . انتم ما دخلتم في طاعتنا رغبة بل قهرا واني والله اعمل بكم السيف اذا تجاوزتم حدود الله .

الفصل الثاني عشر

في القصر بالرياض

الشعر في نجد — بيت يشرح التاريخ — خيانات الاقربين — ولاء الاباعد — ما قاساه السلطان عبد العزيز — السياسة فوق الجنسيات والمذاهب — بيتان من الشعر فوق باب المجلس — سجايا اهل نجد — يلبون النفير وقلما يكلفون السلطان شيئاً من النفقات — هم يعطوننا في ايام الحرب ونحن نعطيهم في ايام السلم ، — معرض العطاء — مثال من الجريدة اليومية — ابرهيم بن جميعه رئيس التشريفات والمستر فلبي — امراء العرب يجيئون الى الرياض مسلمين — حلم السلطان مثل كرمه — شلهوب وزير المالية والتموين — «الذي يجيء نقيده والذي يروح نقيده والنتيجة لا شيء» — جيش من الكسالى — فقر وقناعة — مئات يأكلون في القصر مرتين كل يوم .

لا يزال للشعر مقام في نجد وان رثت حواشيه وتفاقم اللحن فيه . وكثيراً ما تجد اثراً على حيطان القصور من حكمة القدماء ونفائس الشعراء ينبئك بما يتمثل به الامراء والعربان ، او بما كان من حادثات الزمان . وفي القصر بالرياض فوق الابواب في رواق المجلس العام ، كُتبت على الحائط بالحبر الاسود بخط رديء ابيات من الشعر منها :

اذا خانك الادنى الذي انت حزبه   فواعجباً ان سالمتك الاباعد

ان اللبيب العالم بتاريخ نجد الحديث ليقرأ في هذا البيت الوحيد فصلاً في الخيانات والدسائس التي كان السلطان عبدالعزيز هدفاً لها وسيفاً لامعاً عليها . الخيانات في اقرب الناس اليه ، وفي البدو ايضاً والاخوان . اما الاباعد الذين سالموه بل والوه ، وكانوا له عوناً على اعدائه اثناء الحرب العظمى ، فهم حقاً من الاباعد ، الاباعد جنساً ، الاباعد ديناً ، الاباعد مزاراً . وما كان ليربط آل سعود بهم غير السياسة والمصلحة . ليس قصدي ان افيض الان في الكلام عن تلك الرابطة واسبابها ونتائجها « سينفسح المجال لذلك في الكتاب الذي اشرت

سابقاً اليه » . وانما القصد ان اشير الى ما في حياة ابن سعود من شدة قاساها ، وغم يكنّه ، فيبدو في بعض الاحايين يابساً كالجرح القديم في وجه الجندي .

ان السلطان عبد العزيز ، وان كان قد ذلل العقبات ، وفلّ حد النكبات ، واصبح ، اذا صح الحكم على الرجل من حديثه ومحضره ، آمناً مطمئناً ، ليفصح في هذا البيت من الشعر عن حقيقة لا يزال يؤلمه ذكرها . وقد يكون امر بكتابته فوق باب مجلسه ليذكر ايضاً به اولئك الذين كانوا بالامس حرباً عليه واصبحوا اليوم من خاصة رجاله . اما ولاء الاباعد فالعجب فيه يتجاوز ظاهر امره . العجب كل العجب من مصالح تنتصر حتى في نجـد ، حتى في الحجاز ، على رابطتي الجنس والدين . فعبثاً يكبر الناس الاولى ويقدس الثانية . ان عرى الاثنتين لتنحل وتتقطع ، كانها حبال شمس ساعة الضحى ، عندما يمسنا منها الضر او يستحثنا عليها قصد مادي او معنوي .

وهناك ابيات اخرى من الشعر تفصح عن خلة حميدة مجيـدة ، ليس في السلطان وحده او في آل سعود او في الاخوان ، بل في اهل نجد كافة . وقـد يقال انها تعبر عما في قلب كل عربي من الاباء والنخوة والشجاعة وعزة النفس ، ولكني رأيت من العرب في غير نجد من لا أثر في انفسهم لتلك السجايا الشريفة . اما في نجد ، في البادية والحضر ، فلا غرو اذا تمثل الناس بقول الشاعر الذي رفعه السلطان عبد العزيز الى ارفع مقام عنده ، فامر بكتابة كلماته فوق بابه:

فامـا حياة لا تـذم حميدة   يحدث عنها من اغار وانجدا

تنال المنى فيهـا ، واما منية   تريح فؤاداً خار من علة الصدا

هم يجيئون من كل حدب وصوب في ايام الغزو او الحرب وهـذا لسان حالهم . اجل ان امراً يصدر من الرياض فيحمله النجابون الى اقاصي البلاد ، أيجمع على احد الابار او في احد الشعاب في اليوم المضروب الوفاً من اهل نجد ، بادية وحضر ، وقـد جاء كل على ذلوله مسلحاً ببندقيته ، وممنطقـاً بذخيرته ، وحاملاً بعض التمر والماء . فهم اثناء الغزو او الحرب لا يبغون من سلطانهم شيئاً . — يعطوننا « الكلام للسلطان عبد العزيز » ولا يأخذون منا .

ونحن في ايام السلم نعطيهم ولا نأخذ منهم .

وقد شاهدت معرض العطاء في الرياض . كنت اشاهده كل يوم مدة اقامتي هناك ، واعجب جداً لا لكرم هذا الرجل بل لايمانه وثقته بالله ، مصدر الخير الغير المتناهي وولي النعم التي لا تزول . والا فكيف يؤمل بدوام حال تمكنه من العطاء في بلاد لا ثروة لها ثابتة دائمة ؟ هنالك حكومة فردية اوتوقراطية وديمقراطية معاً ، تبرأ من قواعد الادارة والنظام كلها ، وبلاد ثلاثة ارباع مساحتها بادية قفراء ليس فيها من موارد الثروة غير الانعام ، ورعية ثلثاها من البدو واكثرهم حتى اليوم لا يحسنون صناعة ما ، واقليم قيظه يحرق ويبيد وشتاوءه لا يصدق ولا يحسن الوفاء ، فتجيء السنون المجدبة فتعقم المفالي ويعم البلاء .

ومع ذلك ترى نجد اليوم عزيزة بعبد العزيز ، تستمتع بأمن منقطع النظير في كل البلاد العربية ، وبعدل كبير شامل يحمل السيف والقسطاس ، وبخير فوق ذلك لا تنفد موارده .

— هذه ياطويل العمر جريدة بمن نوّخوا اليوم .

يقدمها ابراهيم [1] رئيس التشريفات فيقرأها السلطان ويكتب الى

---

(١) ابرهيم بن جميعه من حايل كان من اعداء ابن سعود في احترابه وابن الرشيد ، وهو اليوم من اقدر رجال السلطان واكثرهم اخلاصاً له . وقد رافق المستر فلبي — كان امير حملته — الى وادي الدواسر . سألت ابرهيم ان يقص علي قصة اهل الوادي و النصراني الكافر التي رواها فلبي في كتابه . فقصها علي وكان صادقاً ولا شك اذ ما وجدت فرقاً بين الروايتين . ولكن الفرق كل الفرق بين الانكليزي العالم وبين العربي الذي يكاد يكون امياً . الفرق بين اخلاق الاثنين يستحق هذه الحاشية . يظهر ان المستر فلبي ، وهو صعب المراس ، إختلف مراراً وامير حملته . فلم يدرك مقامه في القصر على ما اظن ، وفاته ان عظمة السلطان اكرمه اكراما ممتازاً حين وكل امر رحلته الى رئيس التشريفات . اختلف الاثنان في الطريق وتنافرا ، فقص المستر فلبي القصة في كتابه وحمل على ابن جميعه بلغة لا يفهمها — طعنه في ظهره . ولعمري أن ما قاله لا يليق بشهم انكليزي ولا يجوز ان ينشر في كتاب علمي نفيس . اما ابن جميعه فماذا قال في المستر فلبي ؟ سألته مراراً ان يقص علي القصة كلها فابى وتردد . وكل ما قاله مما يشتم منه النفور : فلبي زغضوب . طبعه ما هو زين . ولكنه كريم اعطى كل واحد من الربع من الاربع الى العشر يرات . حبذا اخلاق العربي وحبذا معها العلم والتمدن .

جانب كل اسم ما يجب ان يعطى صاحبه يوم ارتحاله . وقد اذن لي عظمته باحدى تلك الجرائد وفيها اكثر من مئة اسم ، اني انقل من رأسها ووسطها وآخرها ثلاثة اسماء ليطلع القارىء على احوال ابن سعود كلها .

بخط رئيس التشريفات : حمود بن صويْط معه فرسان وذلول « بعض الزائرين يجيؤن بالهدايا من خيل وابل »

بخط السلطان : الفان روبية وبشت وبْرْ معلّم « اي عباءة مقصبة » وزبون « قنباز » جوخ وسيف مذهب .

بخط رئيس التشريفات : سليمان بن علي من اهل حايل .

بخط السلطان : اربع ماية روبية وبشت وزبون .

بخط رئيس التشريفات : هذاع بن سلطان بن زايد راعي « حاكم » عمان معه عشرة ركائب « نوق » عمانيات (هديه)

بخط السلطان : ثمانية الاف روبيه وسبعون ليرة وعشرون بندقية وفرسان . ثم الى رجاله الخمسة والعشرين كل واحد كسوة وكيس فيه من المابة الى الخمسماية روبية حسب مقامه .

هؤلاء ثلاثة من المئات الذين ينحرون [1] الرياض مستعطين ولي النعم فيها . ومنهم من يعود الى اهله ومعه فوق الكسوة والمال حمل او حملان من التمر والسمن والتمّن « الارز » والسكر والبن .

وفي الجريدة اسماء اناس من غير رعايا ابن سعود ، جاءوا زائرين مسلمين . منهم ابن حويط من مشايخ الظفير في العراق ، وابن مجلاد من مشايخ عنزه في الشمال ، وابن نايف من بني علي في المدينة المنورة ، وابن سلطان بن زايد من عمان ، وابن الدخيل من قبل نوري الشعلان . كلهم يؤمون الرياض لعلمهم

(١) نحر البلد او الديرة اي قصدها سلماً او غزواً .

ان فيها رجالاً من كبار رجال العرب اليوم بل أكبرهم . يؤمونها اما حباً واجلالاً ، واما خوفاً واستعطافا ، واما ابتغاء مساعدة مادية او سياسية . وقلما يعود احد من عاصمة نجد خائب الامل .

هذه حقائق ايها القاريء مجردة من الغرض والغلو . واذا شئت الحقيقة في الشعر ايضاً تجدها في بيت لزهير بن ابي سلمى . فكأن شاعر الحوليات نظر بعين الغيب الى ابن سعود حين قال :

تراه اذا ما جئته متهللاً كانك تعطيه الذي انت سائله

وهو في حلمه مثله في كرمه . جاءه ذات يوم شيخ قبيلة حاربته بضع سنين ثم دانت له ، فاقام الشيخ اياماً في الرياض ، وقال للسلطان عند الوداع : قالوا لي انك سحار ياعبد العزيز . صدقوا والله فقد سحرتني . واخبار حلمه ادعى الى الدهشة والاعجاب من اخبار كرمه .

ليس من ينيخون في باب السلطان كل يوم الشاهد الوحيد على جوده ، وليس من يجيئون ممن كانوا بالامس اعداء الشاهد الفرد على حلمه واقتداره . فان في الخرج والافلاج [١] وفي القصيم ، وفي ظلال أجا وسلمى [٢] ، مئات ممن يحمدون الله ثم ابن سعود على حياتهم وعلى ما هم فيه من خير ونعمة . وفي الرياض جيش من السباهلة والفقراء يتراوح عددهم بين الالف والالفين يأكلون في القصر مرتين كل يوم الظهر والمساء . وفيها ايضا مئة أسرة اوما يزيد ، منها اسر بيت الرشيد ، لا يكلفهم الله على ما يظهر أقل سعي في سبيل رزقهم . فالبيوت والخيل والابل والثياب والمؤونة والجواري والعبيد ، كلها من الشيوخ ، من السلطان .

—ادفع ياشلهوب . وزع ياشلهوب [٣]

---

(١) الخرج والافلاج من مقاطعات نجد الجنوبية وهي جنوبي العارض .

(٢) اجا وسلمى من جبال بني طي قديما ، وجبال شمر اليوم وفيها حايل .

(٣) هو محمد بن صالح الشلهوب وزير المالية ووزير التموين عند السلطان عبد العزيز وما الوزارة هناك غير صدى الارادة السلطانية وآلة من آلات احكامها . ولكن شلهوباً

رأيت العربان والاخوان ينتظرون في الرواق وشلهوب جالس وراء منضدته يعد الروبيات، واعوانه في المخازن حوله يوزعون الثياب. وكنت ارى كل يوم عند غروب الشمس صفاً طويلاً من العبيد، ساسة الخيل، كل يحمل وعاءه وينتظر عند باب من ابواب شلهوب ليملأه شعيراً. ان لشلهوب منازل كثيرة ومهمات متعددة. هو مثل يوسف في مصر الفراعنة. وملكناه... وجعلناه على خزائن الارض. وهو مع ذلك القيم الاول في المطبخ السلطاني والمطبخ العام اللذين لا يختلفان في غير التمّن اي الارز. فالصنف الذي يطبخ للسلطان ورجاله احسن من ذاك الذي يطبخ للعربان والاخوان.

يوم وصلت الى الرياض هالني، عندما انخنا، امر اولئك العربان، من بدو وحضر واخوان. رأيتهم جالسين خارج القصر وداخل القصر في الاروقة على مجالس من الطين، رجال وصبية، وبايديهم العصي ينكتون بها الارض، او يرفعون رؤوسها الى شفاههم يداعبونها مثل اماجد الانكليز. وكل واحد منهم رب امره ملتف برداء العظمة والسكينة، كأنه امير خطير لا ينظر الى جاره ولا يكترث به. مئات من «الامراء» جالسون صامتون — يتفرجون؟ سألت رفيقي: هل جاءوا يتفرجون علينا؟ فقال: لا. انما الان وقت الغداء وهم ينتظرون الامر بالدخول، الامر من وليّه شلهوب. ولكنهم في دعاتهم

هو صليب الشيوخ فيه عذاب وفيه خلاص — والخلاص لا ريب فيه. مهماته متعددة تشمل الكبيرة والصغيرة، من المدفع الى عود الكبريت. فهو يتولى امر التوزيع العام الشامل. يوزع الحطب، ويوزع السمن، ويوزع الثياب، ويوزع السلاح، ويوزع المال. طريقته في الادارة اولية بدوية، وحساباته قروية. قال لا فض فوه: الذي يجيء نقيده، والذي يروح نقيده، والنتيجة لا شيء. وليس في طريقته محاباة وتفضيل. طوّف بي ذات يوم في مخازنه فدهشت لما في ذمته من الاموال، وفي ذاكرته من الاشياء. هذا مخزن السلاح والذخيرة، وهذا بيت التموين، وهذه الخوابي صنع الهندي للسمن، وهذا التمّن مئات من الاكياس مرصوصة بعضها فوق بعض. ثم ادخلني غرفة ذكرتني بمخازن الرهون بلندن وبنيويورك. كل ما فيها مهمل مجهول بعضها فوق بعض. سألت الشلهوب عنها فقال، غنمناها في احدى المواقع ولا ادري ما فيها...

ان خللا في هذه الادارات كلها لا يدركه شلهوب ولا يشعر به السلطان، ليتجسم فيتفاقم امره. وليس في تقسيم الادارة خسارة. بل العكس. فان في توزيع العمل الذي يعمله شلهوب، وان كلف راتب وزير آخر بل وزيرين، كسب جزيل للسلطان.

لعبد العزيز بطول العمر لا يذكرون شلهوباً بغير الذم . ولماذا ؟ — التمّن ما هو زين . الله يغربلك ياشلهوب .

وكنت ارى كل يوم قبل غروب الشمس ليس في ساحة القصر بل وراءه عند باب المطبخ جمعاً آخر محتشداً هناك ، جمعاً كبيراً من فقراء البدو المخيمين خارج المدينة ، نساءً يحملن اطفالهن ، وصبياناً عراة ، وبعض الرجال في اطمار ممزقة بالية . جمعاً تأكله القذارة وتنتشر منه الروائح الكريهة . وكلهم جاءوا في هذه الساعة وبايديهم اواني من الخشب او النحاس او الفخار ينتظرون شيئاً من الطبخ ، ينتظرون فضلات المائدة العامة .

ما رأيت في الفقر مشهداً اشد وبالاً وابلغ فصاحة في ما يثير التسخط والاحزان مثل هذا المشهد الهائل . انه لفقر في ذل ، وذل في قذارة ، وقذارة في داء ، وداء في قناعة ، وقناعة في جوع وكدية .

لو كان مثل هذا الفقر في مدن نجد كلها لكان يخشى منه على ملك ابن سعود . ولكن العاصمة تمتاز على سائر المدن بمن يحوم على موارد الرزق والخير التي لسيد البلاد . ومع ذلك فان مثل هذا البؤس في قلب نجد ، مثل هذه العاهة في وجه الملك ، ليحط في عين الاجانب من كرامة ولي الامر والنعم وفي عين الحضر من العرب ايضاً . فحبذا العمل باقتراح اقترحته على عظمة السلطان ، وهو ان يشغل السباهلة المعطلين بدلاً من ان يتصدق عليهم . ليشغلهم في الاشغال العامة ايام السلم ، كاصلاح آبار المياه في البلاد مثلاً واكثرها في حاجة الى اصلاح وترميم ، فيأكلون اذ ذاك خبزهم بعرق جبينهم ، فينفعون وينتفعون .

الفصل الثالث عشر

ونفعل فوق ما فعلوا

بيت من الشعر، فيه حكمة وفيه خطل — الشرقيون والمسلمون — العصامية في العرب — الاقتداء بالاجداد — «ونفعل فوق ما فعلوا» — ما يثبت هذا القول في اعمال السلطان عبد العزيز — المشايخ والعلماء — تساهل السلطان — موقفه في الدعوة المذهبية — يجيب على سؤالين — الدين والسياسة والحرب — الحكم اللامركزي — رايه في الوحدة العربية — المقابلة بينه وبين الملك حسين.

نقلت في الفصل السابق شيئاً من الشعر المكتوب على الحائط في رواق المجلس العام، وفيه تصوير لاخلاق النجديين وقواعد في الحياة يتمشون عليها. بل فيه ينعكس بعض ما يخالج السلطان عبد العزيز من أليم الذكرى ومن شريف المقاصد والامال. وهناك بيتان آخران فيهما مزيج من الحكمة ومن الخطل الذي الفه الشرقيون. عفواً ايها القاريء. اننا نجني على الشرقيين في التعميم، لان اليابان والهند حتى الصين نبذت ذاك المزيج او قامت تصلح ما افسده الزمان في التقاليد والاحكام. يجب ان اقول اذن: ذاك المزيج من الحكمة والخطل الذي الفه المسلمون، فخدر منهم العقل والروح والقلب كذلك. خدر العقل فقلما ينشط الى فكر جديد ينعشه ويحييه، وخدر الروح فلا تكترث بما فيه صحتها، وخدر القلب فلايحس بالبلية المشتركة احساساً مدنياً قومياً يحمله على نبذ ما الفه من قديم العادات، وما يقيده من ذميم التقاليد والخزعبلات. قرأت مرة في حضرة السلطان ما كتب فوق بابه:

لسنا وان كرمت اوائلنا ... يوماً على الانساب نتكل

وهو بيت المتوكل الليْثي:

لسنا وان احسابنا كرمت ... يوماً على الاحساب نتكل

جاء مغلوطا مبنى لا معنى، فقلت، والمعنى ما يهم: ليس اشرف منه

مبدأ يامولاي ولا اجل منها حكمة . واني اجلكم واحترم اهل نجد لأنهم يعملون بها ، ولان السيادة والمجد في بيت آل سعود نشأا عنها . انتم عصاميون ديمقراطيون ، ونحن في زمن يرفع العصامي الديمقراطي الى اعلى المقامات . ولكن البيت الثاني يامولاي:

نبني كما كانت اوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا

ها هنا الخطل الاكبر . ها هنا المستنقع الذي تنتشر منه جراثيم امراضنا الاجتماعية والسياسية والدينية . وانا اذا تساهلنا في تحليل البيت وتفسيره نسلم بنصفه الذي ولا شك ينفع الشرقيين العمل به . ولا اظن اننا نستطيع نبذ الماضي كله بحذافيره . فلا بأس ان نبني كما كانت تبني اوائلنا — ان تكون حكوماتنا ملكية مثلاً . . . فقاطعني عظمته قائلاً : نحن نبني ياحضرة الاستاذ كما كانت تبني اوائلنا . ولكننا نفعل فوق ما فعلوا . فقلت : احسنت ياطويل العمر احسنت . اصلحوا البيت اذاً حتى اذا قرأ كل من تشرف بالمثول لديكم

نبني كما كانت اوائلنا تبني ونفعل فوق ما فعلوا

تحتدم فيه شعلة الحياة الجديدة ، فيسعى وهو يحترم الاجداد في مايؤهله لاحترامهم . كذلك علينا ان نسعى لنفوق ما قاموا به من خطير الاعمال ومجيدها في زمان حرم من اسباب الرقي والعمران التي يمتاز بها زماننا . والحق يقال ان السلطان عبد العزيز آل سعود استعاد في دوره الاول ، دور الفتوحات ، ملك اجداده ، وعزز هذا الملك بالعدل والامن ، وبالدين الذي هو في نجد مصدر الاثنين ، فلا يخطيء او يموه اذا قال نبني كما كانت تبني اوائلنا . ولكنه في تحضيره البدو ، وفي تأسيس الجديد من المدن والقرى التي تدعى الهُجَر[١] وفي استخدامه من يحسن الخدمة مهما كان مذهبه ،

(١) الهُجَرْ جمع هجرة . وكل مدينة او قرية جديدة في نجد بناها البدو الذين ديّنوا وتحضروا فهجروا اليها من الجهالة الى الدين ومن البداوة الى الحضر هي هجرة . اما تاريخ هذه النهضة الاصلاحية الكبيرة التي تمت في عهد السلطان عبد العزيز وبهمته ، فسيجيء الكلام عليها في كتاب اخر عن نجد .

وفي اعطاء امتياز الحسا لشركة انكليزية ، وفي ارساله اولاداً من نجد الى مصر ليتلقنوا فيها العلوم الحديثة ، وفي استحضاره الى الرياض السيارات وبعض الاطباء والمهندسين ، في كل هذه ما يثبت قوله انه يفعل فوق ما فعل اجداده .

ولا يهمه اذا كان في الخروج عن المألوف لا يرضي دائماً المشايخ العلماء. فليس لهم ان يعترضوه بشيء في سياسته الداخلية والخارجية التي لا تمس الدين . وهو ، وان قالوا انه شديد التعصب المذهبي ، يحسن المداراة فيتجاهل في ما لا يضر ، ويتساهل في ما هو مفيد لبلاده . قد يفوه احد العلماء احياناً بكلمة فيها بعض ما يكنه من الوجد والاسى فيقول مثلاً : في ايام أجدادكم ياطويل العمر كانت الدنيا مستريحة من هذه المشاكل الجديدة كلها . فيسمع عبد العزيز ويبتسم ويسير في سبيله ليتمم مقاصده .

وقلما يكترث بما يشيعه عنه الاعداء وفيهم من الادباء من يجهلون نجد الحديث . لذلك تضاربت الاراء في كثير من الشؤون التي تتعلق بــه وببلاده خصوصاً في موقفه الحقيقي تجاه الوهابية وانصارها الاولين المتعصبين — العلماء والاخوان . فقد بددت بعض الظلمات على ما اظن في تصويري الرجل للقاريء تصويراً صادقا حقيقيا ، وجئت لان اشعل مصباحاً في زوايا السياسة المذهبية التي كان يخامرني منها بعض الريب .

سألت ذات يوم احد رجال السلطان الاذكياء ان يصدقني الخبر او يجهر لي برأيه الخاص ، فقلت : لا انكر ولا ينكر احد صدق عقيدة الشيوخ الدينية ، فهو امام الموحدين . ولكني حائر ياصديقي في امره والاخوان . فهل تظنه يعتقد ان على الامام ان يحارب المشركين في كل مكان ، ان يجاهدهم حتى يدينوا ؟ في نيتي ان اسأل عظمته هذا السؤال . فقال صديقي : لا تفعل . والذي اراه ان السلطان يعتقد ان من الواجب على الامام ان يحارب المشركين ، ويعتقد ايضاً ان ليس ذلك من الواجب . لم يرضني جواب الرجل الشبيه بفتاوى الكهان الاقدمين . فتطرقت ذات ليلة الي الموضوع . ومما قلت للسلطان على ما اذكر اني

في حيرة لا يزيلها سواه ، واذا سافرت من الرياض احملها ساكتاً لا اكون راضياً عن نفسي ، وقد اسيء اليه فيما اكتب . فقال عظمته : اسألني كل ما تبغي وانا اجيبك عليه . ولا اسامحك اذا سافرت من عندنا وفي نفسك حاجة تقضيها او مسألة تجلي غامضها . فقلت : هل ترون ان من الواجب الديني محاربة المشركين حتى يدخلوا في دين التوحيد ؟

فاجاب على الفور : لا . لا ، وضرب الارض ضربتين بعصاه ثم قال : هذا الحسا ، عندنا هناك اكثر من ثلاثين الفاً من اهل الشيعة وهم يعيشون آمنين لا يتعرض لهم احد . الا انا نسألهم الا يكثروا من التظاهرات في احتفالاتهم . . . كن مطئن البال يااستاذ . لسنا كما يرانا بعض الناس . فقلت اسمحوا لي بسؤال اخر . كان سؤالي الاول : هل ترون من الواجب الديني . . . وهل ترون من الواجب السياسي ان تحاربوا المشركين حتى يدينوا ؟ فاجابني قائلاً : السياسة غير الدين . ولكننا اهل نجد لا نبغي شيئاً لا يحلله الدين . فاذا حلل الدين ما نبغيه فالسياسة التي نتخذها لتحقيقه محللة . واذا عجزت السياسة فالحرب ، وكل شيء في الحرب يجوز .

في الستة الاسابيع التي اقمتها في الرياض كان السلطان يزورني في منزلي كل ليلة فنتباحث في مواضيع شتى ، نجدية وعربية وعامة ، وهو دائماً في حديثه فصيح صريح . واية صراحة لعمري ابهر مما تقدم ومما سأذكر ؟ ان السلطان عبد العزيز مثل كل رجل كبير لا يخشى ان يقال فيه ، ان عمله اليوم يناقض عمله بالامس ، وانه في السياسة غيره في الدين . فهو في حكمه البلدان التي امتلكها والعشائر التي تغلب عليها يراعي شؤون اهلها الخاصة من مذهبية وقومية . ويندر ان يأمر فيها من هو من غير اهلها . هي السياسة اللامركزية التي يؤيدها في نجد امران ، عدل السلطان في الرعية وحب الرعية للسلطان .

قبل ان اختم هذا الفصل يجب ان اطلع القارىء على رأيه في الموضوع الذي يشغل افكار ملوك العرب اليوم وقلوبهم ، في الموضوع الذي شغل

الصحافة العربية في كل مكان ، فكانت اخبارها وآراؤها فيه مزيجاً من الحقيقة الناقصة والغرض الاعمى ، في الموضوع الذي شغل كذلك ساسة الانكليز وصحافتهم فساروا فيه على عادتهم سير صاحب المصلحة الذي يعدكل يوم اصحابه واعداءه ، ويغير كل يوم من ارائه ما توحيه الاحوال .

كانت الوحدة العربية حديثنا في جلسات عديدة . ولكن عندما دنا يوم الرحيل افاض السلطان في الموضوع فدونت خلاصة حديثه تلك الليلة وعرضتها عليه في الليلة التالية ، فقرأها واصلح خطأي فيها . واليكها ايها القارىء في الحالين :

رأي السلطان عبد العزيز في الوحدة العربية

من حديث له ليلة ٣ جمادى الثانية سنة ١٣٤١ في منزلي بالقصر

١ً — هو يبغي الوحدة العربية ويساعد من سعى باخلاص في تحقيقها ، فيحضر اجتماعاً يعقد لهذه الغاية ، ويقبل الزعامة والبيعة ملكا على البلاد العربية كلها لاعتقاده انه اهل لها ويستطيع تعزيزها .

٢ً — واذا بايع العرب غيره فهو يقبل ذلك ولا يتحول عن فكرته ، بل يستمر في خدمة القضية العربية بما يستطيع .

٣ً — واذا لم تتحقق الوحدة وكان ائتلاف او حلف عربي بين امراء العرب لتعزيز شؤونهم معنوياً وسياسياً ولضمانة مصالحهم الاقتصادية المشتركة فهو ينضم اليه .

٤ً — واذا لم تكن الوحدة ولا الحلف فهو على سياسته يحالف دولة تكون المصالح مشتركة بينه وبينها .

٥ً — وفي كل حال هو رجل سلم في بلاده لا يبغي الاعتداء على أحد ، ولكنه يأبى ان يعتدي احد عليه .

كتبت خلاصة الحديث تلك الليلة كما هو اعلاه واطلعت السلطان عليها

لانحقق صحة الرواية . فقرأ ما كتب مادة مادة واخذ القلم وضرب على المادة الثانيــة قائلاً : اسأت فهمنا فيها . نحن لا نقول كلمة ينقلها عنا الاستاذ الريحاني ولا نثبت عليها . ولكن هذا لا يكون «مشيراً الى المادة الثانية» نحن نعرف انفسنا ولا نقبل الرئاسة في غيرنا .

ايذكر القاريء ما قاله لي الملك حسين ساعة الوداع ؟ — انا لا ابغيها — اي الزعامة — واساعد في تحقيقها — اي الوحدة — تابعاً كنت او متبوعاً . او لا يذكر كذلك انه رفض ان يوقع المعاهدتين بينـه وبين الامام يحي والادريسي لانهما لم يعترفا له بالزعامة العامة ، لم يلقباه بملك العرب .

فاذا قابل القاريء بين القولين ، قول الملك وقول السلطان ، يرى الفرق بين الرجلين ، ويعجب وان كان شريفياً بصراحة ابن سعود .

الفصل الرابع عشر

الوشم

كم مرة خفت في رحلتي — الحمى والغربة — السلطان المؤاسي — الموت الذي يزعج — السيد هاشم يصلح عقاله امام المرآة — ما معنى الى الكويت — اكتب وصيتي — اهب السيد هاشم حصتي في الجنة — « وقد جعلتك وارث مرآتي ايضاً » — لا ماء الا في الحفر — مكارم السلطان عبد العزيز القافلة تخرج من الرياض — الدرعيّة — وادي حنيفة — خرائب العُيينه — تعدد القليان ولا ماء — اخوان يسلمون ويستردون سلامهم — الربع يغنون ويدرهمون · احسن الرياضات الجسدية — الجيسة والحطب — الوشم — ثرمدا وشقرا — قحطان وتميم — « دين يا امين فنزوجك بنت من بناتنا وتقيم عندنا » — غزارة الماء في الوشم — قصور الوشم — « ديرة » امرىء القيس — بلد الشاعر جرير — وادي السر .

قد غشيني الرعب ثلاث مرات في رحلتي العربية. قد خفت ثلاث مرات كما يخاف الناس ، ولا تفلسف ولا اعتذار . قبض الخوف على قلبي وحملق بي هنيهة وهنيهتين ، ويوماً ويومين ، فزعزع مني الارادة والايمان . وعرفت يومئذٍ عدو الانسان الأكبر ، وعرفت معنى السلامة والاطمئنان .

اول مرة خفت على حياتي عندما لحق بنا عساكر الحواشب واطلقوا النار ليوقفونا من اجل الفطور . وخفت ثانية على حريتي في الاقل ، خفت ان اعتقل في قلعة مظلمة عندما سئلت في ماويه : أحسني انت ام حسيني ؟ وثالث مرة يئست من رحمة الله عندما اسرتني الحمى في القصر بالرياض ، فكنت اسيرها اياماً ودرجة الحرارة تهمس في اذني تلك الكلمة التي فيها خاتمة كل شيء .

نعم ، خفت مرة في الرياض واحسست لاول مرة في رحلتي كلها اني في الغربة ، بعيد عن بلادي واهلي ، بعيد عن اسباب الصحة والشفاء ، وعن الاطباء. ولكنني في تلك المحنة كنت اتعزى بما عاضني الله من صداقة رجل نجد الاكبر سيد البلاد والمكارم كلها . فكان يعودني كل يوم ويجيء كل مرة بشيء يخفف

سورة الحمى. —هل اكلت الكنكينا ياصديقي الاستاذ ؟ هذا شراب يبرد الدم. خذ منه . خذ منه الان . ولكني في العقاقير كلها والمرطبات ، ما وجدت ما ينعشني مثل ابتسامة السلطان ومصافحته وكلماته

قد كنت مع ذلك يائساً مكتئباً ، وخائفاً على حياتي . اقول ، ياحضرة النجيب ، خائفاً على حياتي . وما هي ، وحياتك ، بشيء ثمين لولا ما سخّر له صاحبها كما يقول الاولياء . خفت الموت لا لان الموت يخيفني—اقول ذلك اتضاعاً لا فخراً — بل لانه يزعجني ، يقطع علي عملي وانا في مبْهجَة منه ، يوقفني في نصف رحلتي . وكنت اسمع صوتاً فيه ارتعاش اذ كانت درجة الحرارة على حدود الاربع بعد المئة وهي درجة يغتفر عندها الهذيان ، كنت اسمع صوتاً يقول ويردد : الوشم ، وادي السر ، عنيزه ، بريده ، الكويت . . . الى الكويت . هات الخريطة يادحَيم .

وكان دحيم — مختصر عبد الرحمن — وهو السلحفاة في سيره وعمله يروح ويجيء في قميصه البيضاء القذرة كانه طيف الموت بعينه .—ابشر يا استاذ ابشر . ولكنني ، قبل ان يجيء بالخريطة ، اكون قد سافرت على ظهر الحمى الى الكويت عشر مرات . وكان لدي خرائط كبيرة وجدتها في القصر جسمت في نظري المسافات وضاعفت المشقات . اما رفيقي السيد هاشم فكان قد تصلب من طول الصحبة او عاد الى صلابته فلم يعد يرثي لحالي . لا انساه حياتي وهو واقف عند النافذة والمرآة بيده يحكم وضع عقاله ، ويصف لي مشقات الطريق الى الكويت . وكان كل مرة يرى الخريطة بيدي يتناول تلك المرآة « ليزين روحه » فيزينها وهو يقول : لا ماء الا في الحفَر ، فيريني الحياة كلها مفازات ويسمعني فوق ذلك : كلها مفازات . ألا فاسقني غمًّا وقل لي هي الغمُّ .

الى الكويت ! . ليس في الكلمتين ، اذا كنت في غير قلب البلاد العربية ، ما يدعو الى الخوف والاضطراب . هب انك في بمباي ومحجتك الكويت فالسلامة ترافقك في مركب بخاري تعددت فيه اسباب الراحة والاطمئنان . ولو كنت في العراق وقلت : الكويت للبدّاك كذلك البخار فيحملك على العجلات

من بغداد الى البصره ويكلك هنـاك الى باخرة تريك، وهي تجري في شط العرب، شيئاً من الجنة على ضفتيه، وتنزلك في جون من الخليج حفرته يد الزمان، فاطمأن اليه البحر والانسان.

ولكن تلك الكلمة: الى الكويت وانت في الرياض، ووراؤك الدهناء وامامك الدهناء والنفود، ولست بارجل من الدواسر او من بني مرّه، وليس لديك من السيارات والطيارات غير «البل» — الابل — انما هي المحنة التي تفاخرك دائماً باخيها الشقاء وبابن عمها الموت ومع ذلك فالسيد هاشم، وقد اكثر من عشرتي وفلسفتي فشبع واتخم، كان يحبب الي الاخت واخيها وابن عمها اكراماً للشيخ احمد آل صباح والكويت.

— الشيخ احمد رجل زين، يا استاذ، متعلم متأدب، سافر الى اوروبه، وهو يتأنق بملابسه ومآكله. والكويت مدينة تنسيك الرياض: هي باريس البلاد العربية. فيها دخان، وفيها وسكي، وفيها المباح من النساء، وفيهـا طبيب ومستشفى. نعم فيهـا طبيب ومستشفى... ثم يبادر الى المرآة فيحكم وضع عقاله ويقول: لا ماء الا في الحفر.

— وقد اموت ياسيد هاشم قبل ان اصل الى الكويت.

— حياة الفلاسفة طويلة يا استاذ. وهب انك مت فقد شاهدت الرياض والاخوان فيؤذن لك بالدخول الى الجنة.

— الجنة لكم لا لي... هات الخريطة يادحيم.. واعطني الماء. سأشرب ما يكفيني حتى اصل الى الكويت.

السيد هاشم بعد ان عدل عقاله ووضع المرآة تحت المستند:

— هلا تعتقد بالجنة يا استاذ؟

— لا اعتقد لا بها ولا بك.

— ولكن الجنة كائنة بشهادة النبي والكتاب الكريم.

— جنة البله كما قال الغزالي. هي لك بخشيش مني.

— انت تمزح.

—انا أجدّ .

— أتهبني حصتك فيها .

— وهبتكها كلها .

— اوتكتب لي حجة بذلك ؟.

— يادحيم هات الورق والحبر .

فبادر الي بهما السيد هاشم فكتبت ما يلي : على فرض ان الجنة موجودة فاني اهب السيد هاشم ابن السيد احمد الكويتي السني الشافعي الرفاعي حصتي فيها ووقعت الصك ودفعته اليه ، فاعاده قائلاً : بالله يا استاذ امضه بالانكليزية ايضاً . فقلت ، وقد دونت اسمي باللغتين : أتظن ان لرضوان مستشاراً انكليزياً او ان الانكليز اصحاب الانتداب في الجنة ؟ فقال : الله اعلم . وعاد الى المرآة يعدّل عقاله وكنت قد ادركت ما للمرآة من الاهمية في حياة صديقي فقلت والموت يداعبني : وقد جعلتك وارث مرآتي ايضاً . فسرّ بالهبتين ونادى :

يادحيم هات القهوه .

يادحيم هات الخريطة . هذه هي الرياض وهذا الوشم — مئة ميل — وهاك وادي السر فشقرا فعنيزه فبريده — مئة وخمسون ميلاً — ومن بريده الى الحفر — مئة وخمسون ميلاً .

السيد هاشم : لا ماء الا في الحفر .

—توكلنا على الله . ومن الحفر الى الكويت مثلها—الجملة خمسمائة وخمسون ميلاً ، مسيرة عشرين ساعة في السيارة وعشر ساعات في الطيارة طير «الهون»[1] . ولكننا في بلاد لا نريد ان نطير فيها ولا فوقها . فقد طابت لنا حتى في مفازاتها ، واحببنا اهلها واحببنا بعارينهم ، فوددنا السير فيها على طريقة دحيم كالسلحفاة لنزداد بهم وبها علماً ونزداد حباً .

قال لي احد الموظفين الانكليز عندما كنا في العقير : احسنت في سفرك من هنا فستتعود تدريجاً على ركب الذلول فتصل الى القصيم وقد تصلبت فتقوى

(١) يقول اهل نجد في السير البطيء « سير الهون » .

اذ ذاك على السفر من القصيم الى الكويت .

انها والحق يقال اوعر الطرق في نجـد . ومعما صحبني من مكارم عظمة السلطان عبد العزيز من اسباب الراحة والامن وخفض العيش فقد كانت هذه الرحلة علي اشد الرحلات مشقة ونصباً وهماً . خرجنا من الرياض اثني عشر راكباً وفينا الرفيق والحارس والخـادم والطاهي والقهوجي وراعي البعارين وهو يسوق قدامه قطيعاً من الغنم للذبح ومعنا في الحملة الخيام وفي مواعـين المؤونة حتى العسل من عسير والبسكوت من لندن .

ولكنه كان معنا ضيف ثقيل خبيث ما رآه احد من الربع ولا علم به امير الحملة هذلول — هذلول الذي كان يرى ما وراءه كانه امامه فلا يخفى عليه شيء يختص بالحملة او بمن جهزت من اجله ، لم يرَ ذاك الضيف الثقيل ولا علم به. فقد رافقنا من الرياض رديفاً ، رديفي انا بل رفيقي الاول ، شبح الحمى! وكان يشهر حرباً علي من حين الى حين ليثبت وجوده وينفي وجودي ،فيحمل علي بالنار فاحمل عليه بالكينا . دامت الحرب شهراً ويزيد اثناء الرحلة كلها ، دون ان يفوز احد منا . فكان يتبع كل وقعة هدنة ، وكل هدنة صلح كاذب. حتى اننا يئسنا من الصلح ففضلنا الحرب عليه . ولم يكتب لي النصر المبين الا بعد وصولي الى الفريكة واستنجادي بهواء لبنان .

واين نحن الان من لبنان . اننا لا نزال ايهـا القارىء العزيز تحت سماء العارض وفي ظلال بساتين الرياض التي تمتد جنوباً الى المنفوحة بلـد الاعشى احد رجال المعلقات . صعدنا قليلاً في جبل طوَيق وعاصمة نجـد التي هي عند سفح الجبل وراءنا والمنفوحة دونها . وبعد ان سرنا مسافة ثلاث ساعات شمالاً اطللنا على برج مهدوم اشار اليه هذلول قائلاً : على ذاك التل نصب ابرهيم باشا المصري مدافعه واطلقها على الدرعيّة .

وبينما كان يقص علينا قصة تلك الحرب بدت بعد نصف ساعة الاطلال تحتنا غرباً بجنوب ، وقبالها شرقاً بشمال بساتين من النخيل والاثل اختبأت فيها القرية التي هي اليوم الدرعية الجديدة . نزلنا في شِعب من وادي حنيفة

الذي يفضي الى اليمامة ، وهي اليوم اسم بلا مسمى ، وسرنا بين الدرعيتين قليلاً ، ثم انخنا في عقيق السيل بين ظلَّي الاطلال والنخيل . وبعد ان امر هذلول بنصب الخيام واعداد العشاء وارسل الى امير البلدة رسولاً يطلب الحطب للنار والعلف للركائب ، مشى يرافقني الى عاصمة الوهابية التي دمرتها مدافع المصريين منذ مئة سنة ونيف .

صعدنا الى الجانب الغربي من السيل القائمة على حاشيته بقايا قصور آل سعود ، فاذا نحن في اسواق مدينة كبيرة كانت تشرف شمالاً على جبل طوَيْق وجنوباً على اليمامة التي هي اليوم بقعة صغيرة في مقاطعة الخرج ، فمشينا بين جدران تداعت وفي ساحات لم يبق من عمرانها غير الرسوم العافية ، ووقفنا على جسور متهدمة بين القصور ، ونزلنا في درجات مَبرية الى ابار ردمها الزمان .

وبلدة مثل ظهر الترس موحشةٍ للجن بالليل في حافاتها زَجَل

وقد كانت منذ مئة سنة اكبر مدينة في البلاد العربية ومحط رحال العرب من الاقطار كلها . سرنا في اليوم الثاني ساعة في وادي حنيفة ونحن لا نزال في ظلال طلولها الدوارس . فلا عجب اذا كانت في ايام مجدها ، في عهد عبد العزيز الاول وسعود الاكبر . قطب البلاد العربية بعد الحرمين ، يؤمها العرب من كل قطر قصي للاستنجاد بامرائها والاتجار ، من عمان ومسقط وحضرموت كانوا يجيئون الى الدرعية ، ومن العراق والكويت والبحرين ، ومن اليمن وعسير والحجاز .

هذه عاصمة نجد في وادي حنيفة وقد دمرها العدو الاجنبي . وهذه جُبَيْلة قريبة منها وقد جعلها آل سعود في حروبهم الاهلية مثل الدرعيّة . وها نحن في « بلد الشيخ » وهي على مسيرة نصف ساعة من جبيلة . « بلد الشيخ » ، مسقط رأس محمد بن عبد الوهاب ، العُيَيْنَة المشهورة وقد اخنى عليها الذي اخنى على لُبَد . كانت طريقنا بين خرائبها ورسومها ، فسرنا ساعة

فيها فادهشنا عدد القلبان [١] التي كنا نراها الى اليمين والى اليسار وهي عميقة ومحكمة البناء وكلها ، يامن اخنى على لبد ، جافة مردومة.

كانت العُيَيْنة قائمة في وسط سهل فسيح سطحه يابس جاف ولكن كان تحته ولا شك مجار من المياه كثيرة. فما معنى القلبان المتعددة لولا ذلك ؟

اما اليوم فلا ماء في العيينة لا في عيونها ولا في قلبها. هجرتها السواقي الخفية فهجرها الانس ، فنبت البَهَق [٢] في دورها والحرمل [٣] في حماها دُكَّ تحتها ضلع من الارض ،فتحولت المياه عن مجاريها ، فنضبت القلبان ، ودكت فوقها المنازل والقصور . ولو ان في جوارها اليوم بعض الماء لقامت عندها عُيَينَةٌ جديدة مثل الدرعية الجديدة . قد شاهدت في نجد غيرها من البلدان التي هجرت او نقلت لتحول مجاري المياه تحتها.

قد كانت العيينة من مدن نجد العامرة يوم فر هارباً منها محمد بن عبد الوهاب ولجأ الى الامير سعود بن مقرن في الدرعية . بل كان هذا الوادي وادي حنيفة عامراً في ايام الصحابة بالبلدان والقرى التي كان يتصل بعضها ببعض من الدرعية الى العيينة . اما اليوم فقبور الصحابة فيه و« ديرة » مُسَيْلِمَة ، ومسقط رأس الشيخ ابن عبد الوهاب هي كلها مثل القلبان تحت الارض واحدة في الخراب والهجران . بل قد هجر وادي حنيفة حتى الاطيار والازهار ، ولم يبق من الشجر غير الشوكي كالطلْح والسلَم . كأنها مخالب لزمان في كبد العمران . او اكاليل من الشوك للمدن المنكوبة.

ومثل الطلح والسلم في الاخربة هؤلاء الاخوان في الدين . هاك ثلاثة منهم وهم ذاهبون الى الرياض « ليقروا » ليتعلموا القرآن والحديث . سلموا علينا فرددنا السلام . وراح هذلول يحدثهم ليستطلع « علومهم » — اخبارهم . ثم سمعنا واحدا منهم يقول : ردوا لنا سلامنا . وسمعنا هذلولاً وقد ادبر

(١) قلبان جمع قليب تلفظ في نجد جليب اي بئر ماء وساقية
(٢) بهق الحجر نبات يعلو الصخور شبيه بالطحلب
(٣) الحرمل نبات مثل الطيون لا تأكله المواشي قيل ان حبه يخرج البلغم والسوداء اسهالاً ويصفي الدم .

بذلوله يصيح : سلامكم رد لكم وانتم في الجحيم . ثم اشعل السبيل فسألته الخبر فقال وهو يضحك ويدخن : بدو جهال . سلموا علينا ثم ندموا على السلام. سألوني عنك فقلت : سوري جاء يتاجر بالبُل فما صدقوا وقال احدهم: هو انكليزي كافر . ردوا لنا سلامنا . فرددتهم وسلامهم الى الجحيم .

فضحك العجماني بدّاح ضحكته العريضة الفضفاضة وراح يدرهم ويغني بصوت ينسيك ضحكته :

يارا آسب الّلي هجيجا زين « يا راكب الناقة التي درهامها اي عدوها حسن »
ما ضيّجت صدر راعيها « ما ضيقت صدر صاحبها »
اسرع من رماشتك بالعين « رمش العين »
ورماشة العين تلهيها « اي الغمز بالعين »
ممشى العشر تأخذه بيومين
تجيك ما مل راعيها

وكأنه كان يتغنى بمديح كل ذلول من ركائبنا الا ناقة سوداء شعراء حرون ، سميتها الحيزبون كانت تأبى السير الا غارة فيضطر راعيها سالم القهوجي ان يتخلف عن الربع من حين الى حين ثم يطلق لها العنان فتجيء كأنها « جلمود صخر حطه السيل من علِ » وهي تهدر كالرعد والبحر الهائج معا ، والمعاميل « مواعين القهوة » المعلقة بالرحل تصفق لها استحسانا . ولم تكد تلحق بنا حتى تسري منها الى ركائبنا الكهرباء ، فينزق كل ذلول لمباراتها ، فيبادر الركب الى الارسنة وقد كانت على الغوارب ملقاة ، والى الخيزران يهولون بها فوق الرقاب ، وينادي هذلول بدّاحاً وبدّاح يحمس هذلولاً . حي هلا ، حي هلا ! جات الحيزبون ، شنها سالم المجنون .

اسرع من رماشتك بالعين ورماشة العين تلهيها .

كنت في بداية امري بالغارات احس ان شيئاً في صدري يذوب فيحدث فراغاً يصعب عنده التنفس . وكنت اتصور الرحل يعلو ويهبط كانه موجة تحتي مائجة . ولكني بالممارسة ملكت النفس والعنان ، وصرت اهول بالخيزران

كأني من الدواسر او العجمان . حتى اذا ما دنت مني الحيزبون كنت أسرع الربع الى النخوة والاعتزاز — خيال التوحيد اخو من طاع الله ! — وقرينهم في الغارات .

والحق يقال ان في ركوب الهجين احسن الرياضات الجسدية . وهو يلذ ولا يتعب اذا بدل الراكب السير هوّنا بالدرهام ، والدرهام بالغارة من حين الى حين . اي اذا سار يمشي الهون عشر دقائق مثلاً ثم مثلها درهاماً ، ثم بضع دقائق غارة ، وكذلك في المسير كله ، فلا هو يتعب ولا يتعب الذلول . بل في هذا السير المختلط صحة الراكب والمركوب وسرور الاثنين معاً . فالذي يشفق على هجينه لا يسير مشياً دائماً . ولم يكن هذلول ليسمح باكثر من ساعة من بطء السير فيقول اذ ذاك : هوّوا الركائب فننشأ ندرهم .

قد يخفى على القارىء المتمدن من لا يعرف من اخبار البل — الابل — غير « سائق الاظعان يطوي البيد طي » وغيرها في الدواوين ؛ ما في الكلمة « هووا الركايب » من الحقيقة ، وما في العمل بها من الرحمة بالحيوان. ليعلم اذن ان سنام البعير هو من اعضائه الطرية الحساسة وان قل عددها ، بل هو اطرى ما فيه منها . وان الكور في شكله يحوق بالسنام ولا يضغط عليه ، فيبدو السنام منه للهوام كانه قبة من الشحم في اطار من خشب ، فيستأنس البعير بذلك . وليعلم ايضاً ان الجمل المحمّل مهما ثقل حمله هو اوفر حظاً من الذلول لان الحمل يضغط على جنبيه وظهره اكثر من ضغطه على السنام . اما الذلول فحمله الاول الكور . ثم الفرش — وسادة وسجادة وخرج وجلد غنم — فوق السنام يمنع عنه الهواء ، ثم الراكب وهو على السنام يضغط عليه فيزيد بكربة صاحبه ، ولا سيما اذا سار الهون فلا يتحرك الا ترجحاً اي حركة افقية ، فتزداد بالفرك الحرارة ويمسي . السنام كقطعة لحم مشوية . اما اذا درهم فتتغير الحركة ، تصير عمودية ، فيدخل ، وانت تنتفض في الرحل ، شيء من الهواء فيبرد السنام وينعش صاحبه المسكين .

وحبذا اعتناء اهل نجد بالاشجار اعتناءهم بالابل . مررنا في وادي

حنيفة ببقعة تدعى الحيْسيّه فيها غاب من الطلح والسَلم هو اول ما شاهدت في نجد . ولكن الاشجار متفرقـة متكسرة ، قليلة الاخضرار ، ضئيلة الظل ، تسطو على اصولها وجديدها الانعام ويفتك بفروعها فأس الحطاب . في الحيسية تحتطب الرياض . ولكن اهل العاصمة في غفلة عما يحدثه جهل الرعاة وجهل الحطابين . فهؤلاء يقتلون الشجرة واولئك يجهزون عليها ، ولا احـد يشكو ويلوم . ما رأيت ولا سمعت ان احداً اهتم لغرس الجديد من الطلح والسلم . فلا يمر والحال هذه عقـدان من الزمن حتى يضطر اهل الرياض ان ينشدوا الحطب كما ينشد الرعاة في سنة الجدب الحيا — المرعى — في الاراضي القصية. وقد لا يجدونه .

بعد خروجنا من الحيسية نطل على اول بلد في الوشم ذاك القاع الكائن بين وادي حنيفة ووادي السر هو يمتد غرباً من سفح جبل طويق . ان الوشم مشهور بقصوره ومزارعه وتاريخه وتقاليده . هـذه الهبرة كانها في قصرهـ ونخيلها واقفة عند الباب وبيدها المفتاح الى وادي حنيفة في تلك الناحية. هي قرية لا يتجاوز عدد سكانها الخمسمائـة نفس اكثرهم من عرب مطير وفيهم مئتان من الاخوان المجاهدين .

وهذه ثرمدا الكثيرة القلبان وفيها الماء المالح والماء القراح يجريان جنباً الى جنب تحت النخيل . سكانها من بني تميم واميرها العنقري الذي اضافنـا وحدثنا عن العصامي والعظامي من الرجال هو من بني سعد وهم اطيب جذوع تميم في الزمان الاول . وقد اخبرني هذا العنقري التميمي العصامي وأكد لي ان عندهم في ثرمدا ثلاثمائة قليب وثلاثة الاف مجاهد . ولكن امير شقْرا قرأ بعدئذ العددين في مذكراتي واسقط سفراً واحداً من كليهما .

هذا الصحيح . ثلاثون جليب وثلاثمائـة مجاهـد أوَ لم يعلِّمْك بطباع نساء ثرمدا ؟ هن يكرهن الاقامة فيها . رجال ثرمدا لا يعدلون في النساء ... لا يستطيعون . لذلك ترى نساءهم ، والحبل على الغارب في كل مكان

لم اتمكن من الرجوع الى ثرمدا لاسمع ما يقولون هناك عن نساء شقرا .

ولكن الامير القحطاني اكد لي ان نساء بلدهم مقصورات الطرف لا يبغين خارج السور بديلا. ثم قال: اذا ديّنت يا امين نعرّسك ببنت من بناتنا فتقيم عندنا وتتحقق قولنا. ونعطيك مع البنيّة بيتاً وذلولا، ونعلمك الغزو وضرب السيف.

ان شقْرا لاجمل بلدان الوشم واكبرها. نخيلها مثل نسائها داخل السور يزين البيوت ويحجبها بعضها عن بعض. عدد سكانها خمسة الاف وهم من بني زيد وبني خالد وفيهم قليل من تميم. اما الاغلبية فلبني زيد وهم كما يدعون من قحطان. وبنو خالد من عنيزة فعدنان. والجميع في شقرا. متآلفون متحابون. على ان الناس في نجد كثيراً ما يسخرون بالقحطاني ويتهكمون عليه. فيرمونه بالبخل، واظنهم يظلمون. فقد وجدت القحطاني في شقرا مثله في اليمن عربياً كريما. لست انسى الامير ووكيل المال والشاعر فيها. ولا انسى ضيافة حالت دونها ودوني الحمى. وهم على كرمهم ودماثة اخلاقهم متضعون. ينحرون لك، ويمدون سماطاً ملكياً، ثم يقولون: ما عندنا في نجد غير فاكهتين الماء البارد في القيظ والنار في الشتاء.

وشقرا مشهورة بمائها الزلال الذي ادهش البدوي عندما شرب منه لاول مرة فصاح قائلاً: اقحح يامطر. وعندهم داخل السور ثمانون قليباً والف من الاخوان المجاهدين يحرثون في ايام السلم الارض ويتعاطون التجارة اما عمال ابن سعود فليس فيهم من لم يخرج ولو يوماً واحدا الى الجهاد فادى شهادة التوحيد وحمل على المشركين. وانه ليدهشك ما يقوم به العامل الواحد من الاعمال. فلا دوائر هناك ولا كتاب؛ ولا كراسي تجلس فيها الالقاب، وتأخذ من مال الامة بلا حساب.

كنا في شقرا ضيوف وكيل المال محمد السباعي وهو رجل صغير نحيل عليل، يحمل في جيبه مفتاحاً من الخشب يفتح عشرين بابا في داره، ويتولى الجباية في الوشم كله، وبيته مفتوح وناره مشبوبة على الدوام. السباعي لحيته غانمة كما يقولون هناك. اي انه ذو يسر وفضل وحمية. ومع ذلك فهو

لا يوكل احدا بعمل يستطيع ان يعمله بنفسه . — نباشر امرنا بيدنا . الكاتب متيسر ولكن ما كل واحد نأمنه على الاسرار . فنصبر على المشقة ولا نشكو غير ضعف في البدن . لو كان لنا ما للبدو من الصحة والعافية ! ثم طفق يشكو البدو . — هم على صحتهم كسالى ، خاملون ، ويجب علينا مع ذلك ان نلاطفهم عندما ينيخون علينا . ونجاملهم « ونحبهم » — نقبّلهم — بين عيونهم ونحمل لهم الاكل بيدنا . والا راحوا يسبوننا ويقولون اننا كفار .. البدوي اذا شاف الخير تدلى ، واذا شاف الشر تعلى . ثم انشد يقول :

من لا يجينا والديار مخيفة «في خطر»

لا مرحباً به والبلاد عوافي « في عافية »

شكرت الحمى بعدئذ واشكرها الان على يومين في بيت السباعي تداويت فيهما بطيّبتين : لبنه وحديثه .

ذكرت ما في ثرمدا وشقرا من تعدد القلبان مما يدل على غزارة المـاء في الوشم . فان مياه جبل طويق تصب غرباً بجنوب تحت هذا القاع فتصل الى الخرج والافلاج فتتكون هناك بحيرات شتى ، كما تصب شرقا بجنوب تحت الدهناء والصمان فتظهر في الاحساء . والشاهد على غزارة الماء في الوشم تعدد القلبان في القرى وخارجها في القصور . قد أشرت في ما سبق الى القصور في نجد فازيد القارىء علما بها ، او بالحري بتلك التي في البر مثل قصور الوشم . فالقصر هناك سور مربع في كل زاوية منه مفتول او برج ، وداخلـه بيوت للسكن وللانعام ، وقليب ومقهاية ومسجد . هو اذن جامع بين القلعة والمزرعة فيستخدم في ايام الحرب للدفاع . وهذه القصور بعيدة بعضها عن بعض ، حول كل قصر منطقة خضراء مزروعة ، وبين كل منطقة واختها قفر قاحل كالصمّان .

فلو عاد تميم ووائل وقحطان اليوم الى تاريخ اجدادهم في الاندلس مثلاً لعلموا بما كان لهم على الارض من الايادي البيضاء ، لعلموا بما كان اولئك الاجداد يبنون من السدود والقني للري ، فيساوون بين كل بقعة صالحة للزرع

ويستثمرونها كلها . اني على يقين من ان الابار الارتوازية في الوشم ، وبناء السدود والقني ، واستخدام الالات البخارية للرفع والدفع تمكن اهله من زرع كل باع فيه، فتزداد غلاله عشرة اضعاف . وما يصح في الوشم يصح في القصيم .

دع عنك ذكر الزراعة الان . فها نحن في الطريق التي اكلت قديما نعال الشعراء ، « في الديرة » التي زارها يوما من قال : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل . لست ادري اذا كان سقط اللوى هاهنا او في ذا الجوار ، واذا كانت حومل والدخول بين ثرمدا والنفود . ولكن هذلولاً وهو شاعر يقول ان الى يسارنا على مسيرة نصف ساعة بلدة تدعى أثاثيه هي مسقط رأس الشاعر جرير ، وان بين ثرمدا واثاثية مرات بلد امرىء القيس

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

ولكن الوشم اليوم اصيب بادبه كما اصيب بارضه . فياله من مجد عفت رسومه ، ومن بلد عفنت علومه ، فصار حتى الدوسري يزدري ابن الوشم ، والسديري يسخر بقراريشه اي حماريه .

لا تحسبني من قراريش الوشوم من ثرمدا والمشيقر والامرات

اما المشيقر وثرمدا فاقدم بلدان الوشم ، وشقرا اخرها شمالاً ، ثم يجيء بعدها وادي السر . ولكن بين الوشم والوادي النفود [١] او بالحري نفدان ، الصغير والكبير ، فيدعى الاول البتره وهو مسير ساعتين ، والثاني الجزم مسير ست ساعات . وبين النفدين حاجز من الارض الحصوية المجدبة تستغرب في شكلها ومكانها . هي دائرة بيضاء بين كثب ذهبيه ، وفي احد اطراف الدائرة حجارة بركانية سوداء منها متبعثرة ومنها مرصوفة بعضها فوق بعض . اعجب بها من ارض يبهجك تكوينها الرملي ويدهشك دليلها البركاني . بعد ان تصعد خمسمائة قدم في النفد الكبير وننزل مثلها نشرف على وادي السر فنجوز العيون هناك ونسير في الوادي الى المذنب اول بلدان القصيم .

(١) النفود جمع نفد وهي مشتقة من نفد نفاداً اي ذهب وفني وهلك

الفصل الخامس عشر

القصيم

الهواء والاخلاق — القاع في العوشزية — نهر متجمد من الملح — اهل العوشزية ملح الارض — الإشراف على عنيزه — باريس نجد — سحر النفود والنخيل — خطار النفود — سوق عنيزه — اسر عنيزه القديمة — اكرامهم للغريب — القهوه والشاي والطيب — قاعة الاستقبال —النقش على الجدران هندسة عربية — آل سليم — آل بسام — التساهل في عنيزه — لو جاء ها « خليل النصراني اليوم لاكرمه اهلها— وادي الرمه—الفرق بين عنيزه وبريده وبين اهل المدينتين — القصر في بريده — سويلم بن سويلم وكيل الامير — التهذيب العربي في اجمل مظاهره ·

القصيم يعلو زهاء الف قدم عن العارض ويبعد مئتي ميل عن الغلو في الدين ، فيتغير الهواء والنبات ، وتتغير كذلك اخلاق الناس . سرنا في وادي السر الى جانب النفود وهي الى يميننا قافلة من الكثب تدنو وتبعد منا ، فيتقلص ظلها ويمتد ، ثم يختفي معها فلا نرى منها اذ ذاك غير الاسنمة والرؤوس الذهبية . وبعد مسير عشر ساعات في وادي يكثر طلحه وشنانه اشرفنا على العوشزيه وعلى ما يشبه النهر شرقاً منها . فسألت هذلولاً : أسراب هذا ؟ فقال هذلول : هذا القاع . وسألت سالماً فاجاب : القاع. وسألت بدّاحاً فقال : هو القاع بعينه .

وما هو القاع ؟ . في اليمن يطلقون الاسم على السهل فيقولون قاع بريم مثلاً وقاع الحقل ، فيكون القاع اذ ذاك اما اخضر او اسود او احمر اذا لم يكن مزروعاً . وهذا القاع ابيض كالثلج ولم يتغير في قربنا منه ، ولا بدا على وجهه تموج يدل على الماء فعندما وصلنا الى العوشزيه بعد الظهر تركنا الخدم ينصبون الخيام ويعدون الطعام وسددنا خطواتنا انا ورفاقي الى القاع شرقاً من القرية . فاجتزنا بستانا من النخيل وغيضة من الطرفاء وادغالاً من نبات طويل لزج يدعى الهرْطَميل ، فاذا نحن بعد ذلك في ارض سبخة موحلة واذا بالنهر او القاع قيد بضعة ابواع منا . أنهر في نجد ؟ اي نعم . نهر

من الملح المتجمد ، من فصفات السودا ، وسعه نصف ميل ، وطوله من الخمسة الى السبعة اميال ، ووجهه كوجه الماء وقد عقده القر جليدا .

خضنا الارض الموحلة الى الصفحة البيضاء فالفيناها جامدة مصقولة كالجليد ، وصلبة كالجلمود ، وناشفة كالرمل ، ولا باردة ولا حارة . جلست هناك وتربعت وشكرت الله على ذا المظهر الغريب العجيب في الكائنات . اعجبت من نهر ماؤه جامد جاف ، ومن بحيرة جليدها حار . سألت رفاقي ان يجلسوا فترددوا خائفين . هي اول مرة جاءوا الى القاع وخبروا حقيقته . دقوا ما تحت ارجلهم بخشب البنادق ليتحققوا صلابته وجلسوا وهم يضحكون. ثم قال بداح : والله ياهذلول بلاد نجد عجيبة . فاجابه هذلول : واعجب منها يابداح نحن الذين لا نعرف ما فيها .

قطعنا صفيحة من هذا الملح فاذا سمكها اربع اصابع ويتخلله شيء من التراب والقش . اما اذا دنوت من وسط القاع فيزداد السمك ويصفو الملح فيقل فيه التراب . على انه لم نر في اسواق عنيزة وبريده ملحاً نظيفاً . فهم يجلبونه من هذا المكان ويبيعونه صفائح كبيرة وصغيرة كما يقطعونها .

العَوْشَزية قرية صغيرة حقيرة فقيرة لان تربتها بسبب هذا القاع جلها سبخة لا يصلح زرع او غرس فيها . ولكن اهلها ملح الارض . جاءنا وجيههم يدعونا للقهوة — تفضلوا نقهويكم — فقبلنا شاكرين ، وكانت اول ضيافة من مثلها في القصيم . جلسنا حول الموقد على الوسائد ورب البيت يحدثنا بينا هو يعمل القهوة . ثم اشعل السبيل ودخن وقدمه لهذلول فاداره على الربع . ثم جاءنا بخبيص يدعونه عبيطا يعملونه من التمر والسمن استلذذته واستعدته . فضحك العوشزي الكريم واثنى على حريتي قائلاً : كأنكم من القصيم . جاء هذا العربي الفاضل في المساء يرد الزيارة ويشرب القهوة فازددت اعجابا به وبكرم اخلاقه اذ قدم للربع شيئاً من التبغ واعتذر قائلاً : لولا قلته والله زودناكم منه .

وكانت ضيافة العوشزي فاتحة الضيافات في الايام التالية بعنيزه مليكة

القصيم . عنيزة حصن الحرية ومحط رحال ابناء الامصار . عنيزة قطب الذوق والادب ، باريس نجد . وهي اجمل من باريس اذا اشرفت عليها من الصفرا[١] لان ليس في باريس نخيل ، وليس لباريس منطقة من ذهب النفود . بل هي اجمل من باريس حين اشرافك عليها لانها صغيرة وديعة خلابة بالوانها ، كأنها صورة صورها مانه[٢] لصفحة من الف ليلة وليلة ، وكأنها لؤلؤة في صحن من الذهب مطوق باللازورد ، وكانها السكينة مجسدة وقد بنت لها معبدا بين النخيل زانته بافريز من ذهب الرمال وكللته باكليل من الاثل . فهي في مجوف من الارض يحيط بها غاب من هذه الاشجار ليرد عنها رمال النفود التي تهددها من الجهات الثلاث ، من الشمال والغرب والجنوب . قلت مرة لاهلها : انتم والنفود قوم[٣] فاعجبوا بالكلمة وتناقلوها . انها الحقيقة ولا مبالغة . فالنفود تحاربهم بالرمال تدفعها الرياح من كل جانب فتسفيها على المدينة ، وهم يحاربونها بالاثل يزرعونه غياضاً فوق الكثب خارج السور

وقد تصغر عنيزة دون اهلها ، وهم زهاء ثلاثين الفا ، لان النفود تقيدها فلا تستطيع التبسط والامتداد . فهي لذلك مزدحمة بالسكان واكثر اسواقها كالسراديب لانهم يبنون فوقها الجسور وفوق الجسور البيوت . ولكن فيها سوقاً للتجارة كبيرة منيرة تدهشك بما فيها من الاشكال والالوان ، فتذكرك باميركه وبلاد الانكليز وتنقلك الى الهند واليابان ، وتسمعك اللغات الانكليزية والافرنسية والهندوستانية ، ولهجات من العربية متعددة .

وفي عنيزه اسر قديمة عريقة بالنسب والفضل[٤] قد ساح ابناؤها في البلدان القصية والامصار شرقاً وغرباً فزادتهم السياحة ادباً واتضاعاً ، فرفعوا الضيافة الى مقام تنفتح عنده ابواب البيوت والقلوب معاً . اجل ، ان الغريب لينسى في هذه المدينة كونه غريباً فسواء كان مسلماً او كافراً ، موحداً او مشركاً

(١) الصفرا مثل الصمان ارض حصوية مجدبة شرقي عنيزه وتعلوها نحو مائتي قدم
(٢) كلود مانه Claude Manet المصور الافرنسي الشهير .
(٣) قوم اي اعداء في اصطلاح العرب
(٤) مثل آل سليم وال بسام وال ذكير وال غماص وال قاضي .

فهو يشعر هنا انه بين اناس الفوا مثله والفوا فوق ذلك اكرامهم . فيستأنس ايما استئناس ويلبي دعواتهم مسروراً شاكراً .

— تفضل نقهويك . هي دعوة شبيهة بدعوة الانكليز للشاي . وفي الضيافتين شيء غير القهوة وغير الشاي جميل ، فيهما ميل الى الحديث والتعارف ورغبة في الالفة والولاء . على ان ضيافة العربي العنيزي تمتاز عن ضيافة الانكليزي في ان رب البيت يخدمك بنفسه من حين الاستقبال الى حين الوداع . وما اجمل ذاك الكرم وتلك الوداعة لا سيما ان الفضيلتين نشأتا في عزة نفس لا تحتاج الى الابهة لتؤيدها .

ان قاعة الاستقبال عندهم تدعى القهوة . وهي عادةً طويلة فسيحة عالية، سقفها، وقد سقف بخشب الاثل، قائم على اعمدة من الحجر مطلية بالجص ، لها نوافذ مزدوجة النافذة فوق الاخرى، العالية للدخان يخرج منها والواطئة للهواء ، وعلى جدرانها رسوم هندسية نقشت بالجص فوق ارضية من الطين فتبدو في لونيها الابيض والحنطي كانها خرج افرنسي على قميص عربية ، وفي الصدر مجوّف مستطيل لا يزيد اذا كبر على الثلاثة الاذرع هو الموقد ، يجلس عنده رب البيت ويجلس الى جنبه ابنه او اخوه او احد من اهله فينشىء الواحد يعمل القهوة والاخر يدق البن في جرن من الحجر كبير شبيه بجرن الكبة في لبنان ، الا ان قطر ثقبه لا يزيد كثيراً عن قطر الهاون ، وعند رأس الموقد خزانتان واحدة للحطب واخرى للمواعين هما قيد يد الجالس هناك فلا يضطر ان يقف ليتناول شيئاً منهما ، واهم من كل ما ذكر الاباريق ، وهي محور الدعوة وركن الضيافة المادي ، اباريق النحاس الوهاجة كانها وصلت تلك الساعة من المعمل في دمشق ، وقد صفت امام المضيف صفاً متناسقاً من الاول الصغير الذي يكفي ضيفين الى العاشر الذي يسقي مئة ضيف ويزيد . هذه هي القهوة عندهم وهي في شكلها ورسومها ولوني جدرانها وسقفها العالي وسورها اللطيف الذي قلما يمازجه نور الشمس تعيد الى ذهنك صورة معبد من معابد الاقدمين فتحدثك بجلال العتق والقدم .

قال هنري دَوْطي في كلامه عن عبدالله البسام : « وكان لجرنه صوت شجي كأنه جرس الضيافة يدعو الناس للقهوة » . وهم لا يقفون في الضيافة عندهـا ، فيقدمون بعدهـا ، في كؤوس من الزجاج ، شيئاً من الشاي جزءاه الاكبران الحليب والسكر ويسمونه في بعض الاقطار العربية القهوة الحلوة تقدم للضيف بعد القهوة المرة . وهم في الضيافة لا يسرعون ولا يلحون ، اللهم اذا كانت الدعوة الى القهوة فقط . اما اذا دعيت للغداء او العشاء فبعد الاكل الاية : واذا طُعمتم فانتشروا . ولا استثناء . لذلك كنت افضل الدعوات للقهوة رغبة في الحديث وما أكثر الفوائد والدهشات فيه خصوصاً اذا كان مضيفك بساماً او سليماً .

هذا سيدي عبد العزيز بن عبدالله آل سليم وقد اضافنا مرات عديدة بين الصلاتين وبعدها اصيلاً ومساءً ، لا ليسمعنا حديثه ، وما احلاه ، بل ليسمع حديثنا . وكنت من باب حب الذات والاستفادة اباريه في السؤالات . فننقل من الجغرافية الى الزراعة ، ومن امريكه الى بلاد طي ، ومن الاطباء الى الشعراء . وقد كان يكثر ، عافاه الله ، من ذكر الاطباء خصوصاً «طبيب السنون» ويشكو خلو عنيزه منهم . — قيل لنا يا افندي ان امهر اطباء الاسنان هم في امريكه اصحيح هذا ؟ قد نسافر الى امريكه نشاهد بناياتهـا العالية ونصلح اسنانـا .

وهذا عبدالله بن خالد ال سليم امير عنيزه وقد انزلنا في القصر الجديد الذي شُيد حديثاً لعظمة السلطان عبد العزيز ومد لنا في بيته سماطاً ازدحمت فيه الالوان وانارته من شيم الاماجد البشاشة والوقار . ثم ادهشنا صباح يوم السفر باكلة جمعت بين الخبيص [1] والعبيط ، جيء بها في جفنة كبيرة على كانون

---

(١) الخبيص في نجد هو غير العبيط . الخبيص يعمل من الطحين والماء والسكر . ضع الطحين في القدر وحركه فوق النار حتى تفوح رائحته ثم ضع الماء والسمن والسكر فوقه وحركه حتى تفوح رائحته ثانية ، فصب عليه السمن وحركه حتى تفوح الرائحة الثالثة . فارفعه اذ ذاك عن النار ودعه يبرد ويشتد ، ثم مد يدك باسم الله الى القدر ولا تكن جشعا . اما العبيط فهو من التمر والسمن كما تقدم .

من النار لتؤكل حامية . هي الحُنَيْنَة بنت الخبيص والعبيط ، وقد عملت قرصاً كقرص العيد وغمست بالسمن والسكر .

والامير عبدالله مثل عمه عبدالعزيز مزارع كبير يشتغل ساعات الفراغ في بساتينه . ولكنه مثل كل عربي لا يزال ، على شغفه بالزراعة ، اسير تقاليدها القديمة . سألنا عن الآلات البخارية لرفع المياه والري ، ثم قال : سمعنا ان السلطان عبد العزيز يبغي استخدامها في الحسا . فمتى فعل نتبعه ان شاء الله . الناس على دين ملوكهم—وعلى طريقتهم في الزراعة ايضاً .

وهذا عبدالله بن محمد ال بسام يثبت ما اقول . فهو على علمه وادبه وروحه العصرية في كثير من امور الحياة ، لا يتقدم طويل العمر في الرياض . لعبدالله ارض خارج المدينة حفر فيها قليباً عمقه ثمانون قدماً وعرضه خمسة وعشرون بعشرين ، يشتغل في رفع المياه منه عشرة جمال ، وهو مطوي بالحجارة محكم البناء . كلفه اربعمائة ليرة انكليزية ، ويكلفه رفع المياه يومياً ليرة واحدة في الاقل . اما ثمن الآلة البخارية فلا يزيد على نصف كلف القليب ، وثمن البترول يومياً اقل من اجرة الجمال . وعبدالله البسام الذي ساح في مصر والعراق والهند يدرك ما في الاستعاضة بالبخار من الاقتصاد والتوفير والسرعة في العمل ، ولكنه عربي . والعرب في الزراعة على طريقة ملوكهم واجدادهم .

اما في التساهل الديني فبين اهل عنيزة اليوم واجدادهم بون شاسع . ليس في عنيزة اليوم من يضرب بالعصا من لا يصلي فيسوق الى المسجد كالانعام من لا يلبون دعوة المؤذن . وليس في القصيم كله من اولئك الوهابيين ، امثال الاخوان اليوم ، الذين اضطهدوا « النصراني الكافر » هنري دَوْطي وطردوه من البلد . لم يجد الرحالة الانكليزي يومئذٍ غير بضعة رجال والوه واضافوه وساعدوه في محنته . واهم هؤلاء ثلاثة هم امير عنيزة يومئذٍ وعبد الله القنيني وعبد الله البسَّام . وقد ذكرهم دَوْطي في كتابه بالخير . نعتهم بالفلاسفة واثنى عليهم ثناء طيباً .

حدثني صديقه عبد الله قال : كنت شاباً يوم جاء « خليل » الى عنيزه

وكان القنيبي اكبر اصدقائه ومساعديه . فاغضب سكان المدينة فسبوه وتجنبوه . قالوا انه كافر مثل الانكليزي . وها قد مر خمس واربعون سنة وانا اشاهد التطور عندنا . نعم الفرق كبير . ثلاثةٌ يومئذٍ والوا الغريب علناً واكرموه ، ثلاثة فقط . اما اليوم فلو عاد « خليل » الينا لما وجد ثلاثة يسيئون اليه فعلاً او قولاً . اهل عنيزة اليوم يغضبون لاقل اساءة تلحق بالغريب في بلدهم .

بين عنيزة وبريده الوادي ، وادي الرُّمه ، والنفود . ولكن بين سكان المدينتين فرقاً يكاد يكون ابعد من الفرق بين البدو والحضر . انما بريده مدينة تجارية وليس لاهلها وقت لغير الاتجار والصلاة . هي محط رحال البدو من مطير وهتيم وعتيبة وحرب وغيرهم يجيئونها للبيع والشراء . هي بدوية مادية لا تهتم للادب ولا تسرف من تليد العقل والفؤاد فلا تكرم الغريب ولا تسيء اليه . ولكنه قلما يسمع فيها تلك الكلمة الطيبة ، تفضل تقهويك ، التي هي صلة التعارف والولاء . لذلك تسمى عنيزة باريس ، مع ان بريده اوفر حظاً منها في النزول على النفود . ان الرمال تفسح لها ولا تناوئها . فلو كانت المدن في انبساطها وانقباضها تؤثر في الاخلاق لكانت بريده في الضيافة ، في بسط يدها وقلبها الى الغريب . المدينة الاولى في القصيم .

وهي لا تبعد عن عنيزه اكثر من عشرين ميلاً . مسير النفود بينهما ساعتين ، فنشرف ونحن في اخر ضعسٍ منها على الخبوب التي تطوق بريده كالقلادة — قلادة من الزمرد في خيط من الذهب لبدوية القصيم . ان الارض لتتضع امامها فتخضع لها وتقف بعيدة عنها مبسوطة اليدين . لا كُثُب حول بريده قريبة ، ولا واحات عاليات الجبين — حولها الخبوب . والخب منخفض من الارض فيه ماء واثل ونخيل ومضارب واكواخ . الخبوب خنادق احتلتها جنود السلام ، المياه والايدي الزارعة .

اقمنا في بريده اسبوعاً نجدد ما وهن من القوى وما نفد من الزاد . فقد اجتزنا في رحلتنا قسماً من بلاد نجد تعددت فيه القرى والمدن ، وطابت المياه ، وبقي امامنا القسم الاكبر والاوعر . ثلاثمائة ميل بين بريده والكويت ، لا

مدن فيها ولا قرى. ولا ماء الا في نصف الطريق . وهناك النفود الكبرى ، والدهناء ، ووادي الرُّمَّه ، والدِبْدِيه ، كلها اقفار يضيع فيها حتى ابناء القفار .

نزلنا في القصر الذي اسسه ابن مهنّا وبنى جناحاً منه ابن الرشيد واخر ابن سعود . هو قصر كبير ذو ابراج متعددة وافنية رحبة وقلاع للدفاع الواحدة دون الاخرى . وفيه بيوت للضيافة وماء ومسجد ، وليس فيه في هذه الايام ، في عهد السلطان عبد العزيز العادل ، غير حامية صغيرة لا يتجاوز عددها المئة جندي

كان سوَيْلم بن سوَيْلم رئيس القصر وحاكم البلد في غياب الامير ابن مساعد جلوي [1] وسويلم بن سويلم من الرياض ولكنه ليس من « محلة الشيخ » فيها ، فلا اثر للتعصب الديني لا في اقواله ولا في اعماله . قد انتدبه عظمة السلطان مراراً لمهمات خارج نجد فسافر الى سوريه ومصر والاستانة وكان في اسفاره من الكاسبين . على ان الامطار لا تنفع غير الارض الطيبة . ما اجتمعت بعامل من عمال السلطان انعم صوتاً ، والطف حديثاً ، واجمل صبراً من ابن سويلم . كنت احضر مجلسه ساعة يقضي في الناس فيجيئه البدو ، واصواتهم كالاجراس ، غاضبين شاكين فيسمع ابن سويلم شكواهم هادئاً صابراً ويحكم فيهم ذاك الحكم العادل الشديد الذي امتاز به اكثر عمال ابن سعود . ولكني ما سمعته مرة انتهر البدو او اغلظ لهم الكلام . ولا سمعته مرة رفع صوته في الحديث او في التوبيخ ، كأنه صيني لا عربي .

— سرق البعير يالأمير . ابْدوي لص ! والله عاينته بعيني . ابدوي قواد !

فيسكته الامير قائلاً : اقصر الله يعافيك . فان لم يسكت يعيد الكلمة ولا يغير صوته او لهجته . بل يضرب الارض بعصاه مثل السلطان عبد العزيز اقصر الله يعافيك . ما اجملها كلمة تسكت بها الصيّاح الشتام . ولكنها قلما تفيد اذا لم يكن عند صاحبها شيء من تلك القوة المعنوية الروحية التي تجعل كلماته اشد وقعاً على البدو من السيف .

---

(١) هو عبد العزيز بن مساعد ال جلوي عينه السلطان بعدئذ اميرا في حايل وجعل المنطقة الشمالية كلها بما فيه القصيم والجوف وخيبر تحت امرته

الفصل السادس عشر

الدهناء

الدليل واركان حربه — عين ثميد — الاسياح — لا ماء الا في الحفر — النفود الكبرى — جمال الضعوس في الشروق والغروب — الحمى والنفود والذلول الجموح — الدهناء — « كبر يا بداح ! » — سكة زبيده — ا لبريتسه — بقعة خضراء — نرعى مع الابل — الفرق بين الدهناء والنفود — بعض النبات في الدهناء — مسفر ابو العجايب — دميم كريم — عبّه دكان — مرآة ومسواك وعود الطيب — مسفر يبر بوعده — ليلة راقصة — « حذا اهل العوجا » — هوسته الاخوان — لي لي لي لي لي لي ! فصل الحكايات — حدثنا هذلول — بداح يقص قصته — حكاية حمود — سالم والسند الذي معه على الملك حسين — ساعة من النوم ثم صوت هذلول : قوموا ، قوموا صلوا — هذلول يعلم بداحاً اصول التوحيد واركان الدين — بداح يعلم هذلولا اية العبون — شروط الصلاة — نواقض الوضؤ — الحياء شعبة من الايمان — مسفر وبداح يتشاتمان ·

ما احتجنا الى دليل في الطريق من الرياض الى بريده مع اننا عبرنا ثلاثة ابحر من النفود . ولكنها بحيرات رمل اذا قسناها بالعروض التي لا يجتازها حتى العرب بدون دليل خبير . واذا كان هذا الدليل زكرتاً[١] فله بعد امير الحملة المقام الاول ولا يمشي الا ومعه اركان حربه . نفعنا الله بهم وبه . فقد اصحبنا سويلم بن سويلم برجل من مطَير ساح في الامصار ، ورافق الكبار والصغار ، وحارب مع الترك في الحرب العظمى ، ثم مع الشريف ، ثم مع ابن سعود . رجل رهيب له صوت يرجف حتى البدو ، وخطوة كانت تذكرني ببيت للمتنبي :

يطأ الثرى مترفقاً في تيهه　　فكأنه آس يجس عليلا

اما اركان حربه جعَيثن[٢] ومبارك وابراهيم فمن العربان الشجعان ابناء

---

(١) راجع شرح زكرت في صفحة ٧٩ من هذا الجزء

(٢) جعيثن تصغير جعثن وجعثن في محيط المحيط اصول الصلّيان على وزن فعليان . والصليان بقلة واحدتها صليانة . ولكن جعيثننا يخطىء القاموس · فقد اخبرنا ان امه ولدته عند جذع إثلة وان جذع الاثل يدعى جعثن وهو قوي سوي فسمي تيمناً به جعيثن

الفر والطعان. ولكني خشيت المنافسة بين الدليل والامير. ولولا حكمة هذلول واتضاعه ورغبته في راحتي قبل كل شيء ما استقام الامر مسير يوم واحد.

كان يضحكني المطيري، وشر البلية ما يضحك، عندما ننيخ للمراح. فيقف اذ ذاك جانباً وقد التف بعباءته وطرح احد طرفيها على كتفه كانه يمثل على المسرح دور امير خطير ويصدر اوامره.

– يامبارك ساعد مسفر في الذبيحة. ياجعيثن هات الاوتاد. رح ياحمود ارعَ الركايب. وانت يا حمد ساعد في نصب الخيمة. القرب يا بداح. الحطب يا ابراهيم...

وكنت ارى هذلولاً، بارك الله فيه، يشتغل وسالماً في رفع الشراع ويساعد الجميع دون ان يصدر امراً واحداً. بذا يمتاز الرجال بعضهم عن بعض، وبذا يفلح العاملون، ويفشل، بالرغم عن الخبر والاقتدار، اولي العجب والادعاء.

كانت طريقنا من العارض الى القصيم شمالاً بغرب فاستقبلنا الشمس في بريده وسرنا منها مشرقين الى الكويت. ولا ماء الا في الحفر. ماادركت خطر الطريق ووعورة المسلك الا بعد التأهب في بريده. فخرجت القافلة منها وقد ازدادت رجالاً وركائب، وابن السويلم الذي رافقنا الى خارج السور يوصي الدليل ويلح على الامير بارسال كلمة اطمئنان بعد ان نجتاز الدهناء.

ملأنا القرب وبعض الاروية[1] من ماء عين ثُمَيد خارج المدينة ثم ملأناها ثانية كلها في اليوم الثالث من عين فهَيْد في الاسياح. واطللنا من الاسياح على العروض، اي النفود الكبرى بين القصيم والكويت، ووراءها الدهناء، ودون الدهناء المفازات. وكلها على اتساعها اجف من الاسفنج في دكان

(١) القربة وطب من الجذع اي البهائم الصغيرة سنا يحملها الراكب معلقة بالرحل. ولكل راكب قربة. والأروية جمع روي في القاموس الشرب التام والرواء الماء الكثير المروي. اما في نجد فالروي هو الوطب الكبير من جلد الابل او البقر يسع مقدار خمسة قرباً من الماء. وهم يحملون في الأروية غالباً ماء الطبخ والغسل وكل رويتين حمل جمل.

العطار . لا ماء الا في الحفر ! حجب الله عليك يا سيد هاشم كم ذكرناك في العروض وغبطناك وانت في العارض . لا ماء الا في الحفَر . ودوننا ودون الحفر جبال وبحار من الرمال ، بيد دونها بيد ، وسبعة ايام من السير ، والحمى تعود يوماً بعد يوم !

ان العروض اي النفود الكبرى بين الاسياح وقَبَه[1] هي عدة جبال من الرمل تمتد طولاً من الشمال الى الجنوب وعرضاً من الغرب الى الشرق . وهي تدعى دعوصاً ، علو الدعص يتراوح بين الخمسمائة والسبعمائة قدم ، وبين كل دعص وآخر نحو اربعة اميال نزولاً وصعوداً . احد عشر دعص هي ، بل احدى عشرة كربة ، كل واحدة اشد من الاخرى . هاك افقاً امامنا يعلوه افقان او رأسا دعصين بعيدين . وفي كل افق رسول من الذهب الوهاج يدعونا لنعيم الخيال بل لخيال النعيم .

ما اجمل ذهب النفود في الشروق وفي الغروب وما اجمل ارجوانه اذا مال الظل وتعرج في الاصيل . وما ابهج ليل النفود وقد افترشت رملاً ناعماً كالحرير وآخيت نجماً دانياً في نوره منك ، كأنه يهمس في اذنك كلمات السكينة والحب والسلام . وما اجمل اشكال الرمال وقد كونت اهراماً وقبابا وفيها امثلة السراط وقد شحذتها الرياح فامست كحد السيف .

ما اجمل — ولكن — كانت ذلولي من العارض الى القصيم سهلة المراس ، لطيفة المزاج ، قصيرة الخطى ، خفيفة الترجح ، فيرتاح فوق سنامها من لم يألف ركوب الجمال . ولكنها انقلبت علي قبل ان تصل الى بريده فشرس خلقها وثقلت خطواتها . او انها كانت خبيرة بطريق الكويت ففضلت الرجوع الى الرياض .

اما الذلول التي ابتاعها ابن سويلم في سوق الابل ببريده ، وهي اكبر

---

(١) قِبَه القاف تلفظ جيما وفاء الاسم تسكن في نجد فيقولون أجْبَه فيسمعها الرحالة الاوروبي فيكتبها كما يسمعها فينقلها الكاتب العربي عن الكاتب الاوروبي فتجيء مكتوبه جَبَه او جابه او بجيبه . ومثلها الدهناء تلفظ أدْهَنا فكتبت في الخرائط الاوربية دَهانا Dahana وغيرها من الاغلاط في كتابة الاسماء باللغات الاجنبية ثم في نقلها عنهم الى اللغة العربية اما حان لنا ان نصلح اغلاطنا دع اغلاط الاجانب في هذا الباب

سوق لبيع البعارين بالمزاد في البلاد العربية ، ووسمها بالنار على رقبتها بوسم ابن سعود ٥٥ وقدمها لي قائلاً : احسن ما في السوق ، فقد كانت حادة المزاج ، صعبة المراس ، طويلة الخطى ، سريعة السير . فيضطر الراكب ان يعالجها دائماً بالرسن والخيزران فلا يذهل هنيهة عنها حتى في نصف النهار ساعة الهاجرة ، ساعة يتسلل النعاس الى الجفون فتلقى الارسان على الغوارب ويستسلم الركب الى النوم . اماهذه العمانيــة فلا تؤمن اذا قيل لها : حبلك على غاربك . ولم يكن ذلك ليهمني وقد تمرنت وتصلبت لولا امران . ما همني طول خطواتها في الارض المنبسطة اليابسة . وما همني مزاجها في الايام التي انفردت بالرحل فكنت راكباً وحدي .

ولكن الحمى والنفود — لا اظن ان الاثنين يجتمعان لكثير من النـاس حتى في البلاد العربية . ومتى جاءت الحمى في الدرجة الرابعة من الخطر ، وكانت النفودُ العروضَ ، وكانت الذلول عمانية جموحاً ، فماذا ينفع الرسن باليد او على الغارب وما ذا ينفع الخيزران . ان اصعب السير على الركب والركائب هو السير في النفود ولا أثر البتة لطريق فيها ولا مهرب من امواج رمالها . تصعّد الذلول في الدعص الى رأســه وهي ترخ فتغوص حتى الرسغ فتجيء الخطوة الواحدة وفيها قد بذل جهد عشر خطوات ، فتئن حتى الرحال من شدة الحال . اما في النزول ، فتنتقم من الدعص الذلول ، فتروح هاويــة غاويــة ، وهي تغوص في الرمل حتى الركاب فتجيء الخطوة مقدار خمس خطوات وفي كل منها للراكب خمس نكبات . وقــد كان الدليل المطيري يعبر المنحدر في خط مستقيم دائماً ، فلا يهمه الرفيق المحموم ، فتتبعه الركائب غائرة متدهورة اذا لم يكبح جماحها . وكيف يقوى على كبح جماح ذلوله من كبحت جماحه الحمى ؟

لم تنفعني قوة الارادة في تلك الايام ، ولا ما كنت اتدرع به من الكينا صباح مساء . فقد رميت بنفسي على الرمل مرتين في العروض وانا انتفض من البرد فانتظر مجيء الحمى التي كانت تتبع البرد ، لنستأنف السير . نعم ، لنستأنف

السير . وهل تقف لنجامل الحمى ورفيقنا الاكبر خيال الموت ؟

ليس في ما اكتب الان شيء من تأثير تلك الايام . انما الحقيقة كل الحقيقة في ما اقول . ولا اقول غير كلمة فيها البرهان القاطع : الماء معنا لا يكفي الا اياماً معدودة . فاذا انخنا كل مرة شرفتنا الحمى لنجاملها حتى تزول ، ينفذ ماؤنا قبل ان نجتاز نصف الطريق . ولا ماء الا في الحفَر ! اركب يارجل وتوكل على الله . لا اظنني توكلت في تلك المحنة الفريـدة على غير الله . بل كنت احس ، استغفرك ربي ، انك ، وان كانت الحمى رديفي ، راكبا امامي قابضا على زمام الذلول وزمامي .

يادلولي حجّيْله ذلول ابن عيد قربتي قطرت والمعشى [1] بعيـد

وما كان ابعده في ايام النفود ، في ذاك البحر الرملي الذي تعالت امواجه جبالا ، وهبطت جباله امواجا ، فضاق في اجتيازه حتى صدر الدليل المطيري . وما كنت اظن ونحن نخوض عبابه ان له نهاية تنتهي عندها الشدة والعذاب . ولكننا عند ما اطللنا على الافق الاعلى فيه قال الدليل ، وهي الكلمة الوحيدة منه التي ابهجتني ، هناك ظهر العروض ومنه نعاين الدهنا .

ظهر العروض ، اخر ضلع من ضلوع الاسياح ، اخر دعص من النفود ، اخر درجة من سلم التعذيب — شكرنا الله ثم شكرنا الله . وعند ما اطللنا على الدهناء تنفس الربع كلهم الصعداء وامر هذلول بالتكبير : كبّر يابداح . فراح بداح يدرهم ويصيح : الله اكبر ! الله اكبر ! . وكانت ساعة الغروب فأنخنا فوق السهل الذي يمتد بين العروض والدهناء . وكنا قد عثرنا في ذاك النهار على اثر من طريق قديمة هي سكة زبيدة ، اي الطريق التي امرت بفتحها وتعبيدها للحجاج زبيده امرأة هرون الرشيد فتيمنا بها وكانت فاتحة الخير الى يومين .

اكرم الله مثواك ياستي زبيـدة وجعلك من المقربين — اذا كان لم يفعل حتى الان . وياليت في المسلمين اليوم اخت لك صغيرة تجدد في الاقل الطريق

(١) المعشّى مكان المراح للعشى

التي شُرفت باسمك . فها بركة من البرك العديدة التي بنيت في الصحراء لتروي الانسان والحيوان في سبيل البر والتقوى .

لم افهم من مبارك قوله : هذه البريتْسَه[١] . حتى وصلنا اليها . فالفيتها بركة لماء المطر بل صهريجاً متهدماً مردوماً . واذا صح فيه التصغير اليوم فلا يصح ذلك في ما نبت هنالك من الاعشاب ومن شجر الطلح والسلم .

ان ابهج ما يشاهد الانسان في الصحراء بقعة ارض خضراء . ولكن الحيوان ،ذا السنام كان او ذا القرون ، يشارك الانسان في ذا الابتهاج . وقد تبارينا حول البريتسه التي يدوم اخضرارها طيلة السنة . ان احسانك ياستي زبيده خالد البركات ولو في زاوية من القفر ، خالد هو ما دامت الارض خالدة . انخنا الركائب لترعى في ظلال احسانك . وكنت انا الحيوان الناطق المفكر اول من فاه باسمك شكراً واعجاباً . كيف لا وقد لقيت في ذلك المرعى كما لقي ذلولي ما الفته العين والمعدة .

جاءني مبارك وهو نباتي الحملة ببضع وريقات خضراء يقول : هذا الخنْبَصيص هي عشبة صغيرة فيها حموضة يأكلها اهل نجد ويجعلونها في الاقط . وكنت قد سئمت اللحم لانه في الثلاثة اشهر التي مضت كان يصبحني ويمسيني كل يوم دون سواه فجعلني احن الى ورقة خضراء حنين البعير الى العرفج والارطى . ثم جاءني مبارك ، بارك الله فيه ، بعشبة اخرى سال لمرآها اللعاب ، وهاج في القلب ذكر الوطن والاحباب . فياما احيلاها نبتة تزرع في لبنان حول البيوت وتسيج من غزوات الدجاج بالشوك . الرشاد ! جاءني مبارك بالرشاد . وهو في بادية نجد نفسه في لبنان لا يتغير اسماً ولاطعماً .

تبعت مباركاً الى مواطن المرعى الطيبة ، ورحت ارعى فيها كالبعير ، بل رحت ادب على الاربع مثل نبوكد نصر ، آكل الحشيش واشكر الله ثم الست زبيده ، فانتعشت وابتهجت حواسي كلها . واظن ان الرشاد والخنبصيص فعلا بالحمى ما عجزت دونه الكينا . او انني في رجوعي الى الاصل ولو ساعة اصلحت

(١) تصغير بركة والكاف تلفظ تس

ولو ليومين ، ما افسده الوقوف على الاثنين .

وهذه الدهناء تبسط لنا النمارق البيضاء وترحب بنا ، فينبغي للقارىء ان يعرف بعض الشيء عنها قبل ان نصل اليها . تختلف الدهناء عن النفود باربعة اشياء . ١ — بطولها وهي تمتد من الشمال الغربي فتنساب كالحية او تتعرج كالنهر شرقاً بجنوب حتى تصل الى الربع الخالي . ٢ — بلون رمالها وهو غالباً ابيض . ٣ — بقلة كثبها وتجوفاتها فلا يتجاوز اعلى كثب فيها المائة قدماً . ٤ — بتنوع اعشابها وغزارة المرعى فيها . وهي قليلة العرض بالنسبة الى طولها ولا يقطعها العرب الا في الاماكن التي هي اقل عرض من سواها . لذلك هي اسهل سيراً وايَنس مشهداً من النفود .

يمرون بالدهنا خفافاً عيابهم ويخرجن من دارين بجر الحقائب

وها اننا نقطعها من الغرب شرقاً الى الكويت بعد ان قطعناها من الشرق غرباً الى الرياض . وكان يومئذٍ بداح رفيقنا ودليلنا فصاح ثانية يمثل البدو عندما يصلون اليها طالبين الحيا[1] : وابيك حنّا براس الدّهَنا ! واطلق مبارك صوته في بيته المحبوب :

ياموفقين الخير يا اهل الأشدة معكم وزين «عديل» الروح الله يرده

وسرنا في سكة زبيده سير الهون اكراماً للركائب وكيف لا نكرمها والارطى في هذا المكان من الدهناء اخضر جديد اشرأبت اليه الاعناق ووقفت عند كل شجرة منه تتفكه به بعد العرفج والعُلقة والثُمام[2]. ثلاث ساعات كل ساعة منها عيد لذوي الاربع وذوي الاثنين ايضاً . وبعد ان قطعنا الدهناء

---

(١) الحيا اي المرعى . وفى القاموس الخصب والمطر والعرب تسمي النبات حياء لانه يتسبب عن المطر .

(٢) الأرطي شجر ثمره كالعناب ويسمى ايضاً في نجد عَبَلا لان ورقه كورق الصنوبر مفتول غير منبسط . وهم يستخرجون منه ومن قشره صباغاً اصفر . العُلقة شجرة غصنها ابيض وورقها دقيق تبقى في الشتاء فيعلف بها الابل حتى تدرك الربيع . الثُمام نبت ضعيف ورقه شبيه بورق النخل . ومن نبات الدهناء العَرْفج وهو للابل كالباقيه للخيل وقيل هو القتاد لشوك فيه . والعلندى الذي يشبه في ساقه الوزّال .

وانخنا في ذلك النهار صلينا المغرب وتعشينا ثم جلسنا في حلقة حول النار وطالبنا مسفراً بما وعدنا به مراراً .

ومن هو مسفر وما وعده ؟ لا اظنك ايها القارىء تأبى التعرف الى الرجل وقد تشاركني في حبه . مسفر هو مدير الحملة [1]، ورئيس الخدم ، والعين الكالئة الزاد واليد الذابحة العاملة في سبيل البقاء . مسفر هو النفاخ الطباخ راعي الفأس والفراخ ، حامل الخناجر والسياخ . وهو في شكله نكتة مضحكة جداً قد لا تليق في مجالس المتمدنين ، وفي وجهه اقرب الى الرباح منه الى يوسف الحسن . ان وجه مسفر هو ما يصفون في نجد بالعفن فيقولون : وجه عفن ويظل عفناً حتى لو غسله بالحامض الفينيك ثم بماء الورد صباح مساء . فهل يصلح الماء والكيمياء انفاً تسطح على خديه ، وفماً تطاول الى اذنيه ، وجبيناً داس بشعره حاجبيه ، وعيناً جاءت من القرد اليه ؟

اما في لبسه فهو آية في البلاغة والابتكار لا يُعرف أنجدي هو ام حجازي ، أيماني ام عراقي . بل لم يكن عربيا في غير الغطرة والعقال . وهو يلبس حذاءً مرقعاً تخض رجله فيه ، وسروالاً ، كان ، ابيض لا اظنه غسل في عهده او في عهد ابيه ، فوق معطف كذلك من الخام مفصل مثل الفراك التركي ، وفوق المعطف زنار تلمع فيه الخناجر والسياخ . وعندما يركب مسفر على بعيره الاسود فوق احماله تظنه كيساً من الاكياس .

هاك الرجل في ظاهره . اما في باطنه فسبحان رب الكائنات ، النافخ من روحه حتى في عجائب مخلوقاته . ان في ذاك الوجه العفن مبسماً ولا مبسم الحسان في جاذبه ، مبسماً يوقفك ويغريك ، ويضحكك ويلهيك ، مبسماً ينسيك الفم منه والانف والجبين ، بل ينسيك الرباح ، وضلوع الاسياح .

اي بالله . ما كان في رجالنا ، وقلما تجد في الرجال ، من هو اخف روحاً .

---

(١) تقسم القافلة الى قسمين الحملة وهي الجمال التي تحمل الحقايب والزاد ، والركائب التي تحمل المسافرين . وغالباً تسير الحملة قدام الركائب فتسبقها بساعة او اكثر لانه لا يؤذن لاصحابها بالدرهام خوف التكسير في ما يحملون فنلحق بها ونجتمع في المضحى وفي المراح

وادمث خلقاً ، والطف ذوقاً ، وارق شعوراً ، واسرع الى الخدمة يداً من هذا الدميم الكريم . فقل : تبارك رب العالمين الرحمن الرحيم ، فهو اذا مسخ الانسان قرداً يهبه من الجمال الروحي والخُلقي ما يندر في يوسف الحسن وزين العابدين .

ان للمعطف الذي كان يلبسه مسفر جيوباً هي دكان بما حوت.

اتبغي خيطاً وابرة وزراً ؟ اتبغي ملحاً او بهاراً او شيئاً من مسحوق الليمون الحامض ؟ اتبغي رقعة تمسح بها فنجاناً او تضمد بها جرحاً ؟ اتبغي قلماً وورقاً للكتابة ؟ اتبغي مسواكاً من الاراك او شيئاً من الكحل ؟ سمعاً وطاعة . لم يدهشني عندما رأيته اول مرة يكتحل لان اكثر رجال العرب يكتحلون وقاية للعيون . ولكنه ادهشني ذات يوم اذ كنا حول النار لنشرب القهوة فتناول مسفر حجراً وضع عليه بضع جمرات ثم مد يده الى كيس في « دكانه » فاخرج علبة صغيرة ففتحها واخذ منها باطراف انامله ورشه على النار . البخور ، عود الند ، الطيب ! لم يكن احد غيره يحمل هذه النفيسة من نفائس ونوافل الحياة ، فيطيبنا مثل مسفر بعد الطعام .

وقد دهشت الدهشة الكبرى ولم اتمالك ان ضحكت عندما اشار بالسبابة الى رأسه كانه يقول : مسفر لا ينسى شيئاً . واخرج من عبّه مرآة صغيرة قدمها لي لارى وجهي وازين — احكم وضع — عقالي قبل الرحيل . هوذا حقاً اقبح خلق الله صورة واجملهم نفسا وذوقا . ولا اظن انه كان يحرص على شيء في كل ما يحمله حرصه على المرآة ، فكان يتسلى بها وهو راكب فيتأمل طويلاً ذاك الوجه الذي وصفت .

وما السر في ذلك ؟ هل هو مشغوف ام ملهوف ؟ هل يرى في وجهه ما يراه الناس يا ترى ام ما يراه الله وقد تساوت في نظره المخلوقات جمعاء ؟ أو هل هو الرباح ، ذاك المخلوق الاولي فيه ، وقد اعجب بهذا الشيء الذي يعكس وجهه فكان مسحوراً ! ما قول اسيادنا العلماء . علماء الجسد والروح ؟ أفلا يأخذهم العجب من الرجل الدميم ، الدميم الى حد يضحك ويبكي معاً ،

الذي يحمل السكاكين والخناجر ولا يضع واحدة منها في قلبه عنـد ما يرى وجهه في المرآة ؟ ولكنه على ما اظن حب الذات يقينا ويقيه شر النفس اذا ما رأت العين منكرات التكوين الظاهرة. اجل، لو لا حب الذات، ذاك الغرس المبارك الذي غرسه الله في كل حيوان صامت وناطق، كان الانتحار بسبب التشويه الخلقي وحده اكثر شيوعاً من لعب القمار.

استغفرك ايها القارىء فقد اسهبت. ولكن غيري الفوا روايات ابطالها اشخاص مثل مسفر اختلقوها. ولا اظن ان «كاليبان»[١] و«غونيبلاين»[٢] يتسابقان الى الصدر اذا جمعتهما ومسفرا المجالس. ولكنهما خيالان من خيالات شكسبير وهوغو، ومسفر حقيقة من حقائق هذه الرحلة كان يطبخ لنا دجاجة كل يوم، ويطيبنا بعود الند بعد الطعام، ويحدثنا عن امرأته وعياله في سَدوس[٣] اما وقـد عرفتك اليه فساعرفك اليه كذلك مبرأ بوعده. وما الوعد ؟

عند ما كنا في شقرا رحنا ذات ليلة نتفقد مسفرا و«خوياه» في منزلهم فسمعنا ونحن داخلون الى البيت صوتاً شجيا ينشد نشيد الاخوان فاطللنا من الشباك فاذا مسفر داخلاً والسيف بيده يصحب «الهوسة» برقصة رائعة. فسألناه بعدئذ مراراً ان يرقص ويغني فابى واعتذر. وعند ما خرجنا من بريده كنا نعيد سؤلنا كل يوم فيتذرع بالشغل او بالتقاليد التي تحرم الغناء في نجد. ولكنه وعدنا انه سيرقص رقصة الاخوان عند ما نصل الى الدهنـاء. —وها قد اجتزنا الدهناء بامان الله والحمد لله وكان الحبور رفيقنا طيلة النهار فهلا استغويتـه يامسفر بصوتك وسيفك فيظل معنا ليحل محل القمر في ذا السمر ؟

كنا حلقة حول النار امام الشراع والركائب باركة في حلقـة اخرى.

(١) « كاليبان » احد اشخاص رواية « العاصفة » تأليف وليم شكسبير
(٢) « غونيبلاين » بطل رواية « الرجل الضاحك » تأليف فكتور هوغو
(٣) سدوس مدينة قديمة من مدن العارض بنجد.

حولنا تجترّ قانعة مطمئنة ، وكانت السماء سافرة صافية الجبين فتلألات كواكبها سرورا لتغيب سيدها القمر ، وزاد الظلام نورنا ايضاً لمعاناً . — الحطب ياابراهيم . وكان ابراهيم معاون مسفر الاول في النفخ والطبخ جالسا عند ركمة من حطب العرفج والارطى فيمد يده وراءه ويبسطها فوق النار فتقهقه طرباً وتزداد تأججاً . وكان حمَد العبد وهو يقلب في حضنه مقلاة البن ، وهذلول الذي اتخذ صحنا من النحاس دفاً وبداح وقد صفق كفاً على كف ، ينادون مسفرا ويحرضونه . — قم يامسفر . اسفر يامسيْفر . وكان كوكب السمر قد دخل الخيمة فخرج منها والسيف يلمع بيمينه والخنجر بيسراه . فوثب وثبة ثم اخرى الى وسط الحلقة وطفق ينشد نشيد اهل العوجا اي اهل الرياض ، وهو ينتقل نقلة خفيفة بطيئة ، ويتلوى من وسطه الى اليمين والى اليسار كالثعبان .

تَارَاتَتَاتَه تَتُّم تُم — تَارَاتَتَاتَه تَتُّم تُم !

حنّا اهل العوجا مروية السنين «تروي سنان الرماح»

عاداتنا سهْج العدو بنحورنا « ان نهجم على العدو ليلاً»

وكان يقف عند كل بيت بينا ان حمد وهذاول يردان عليه بالنحاس ، وهو يهز السيف والخنجر هزة بطيئة خفيفة . فيها ربَض الهول كانه يتأهب للوثوب. ثم عند البيت الاخير يثب فوق النار وهو يصيح : لي لي لي لي لي لي ! فيجيب الربع : حي على أ حي على ! وحمد وهذاول على النحاس :

تَارَاتَتَاتَهتَتُم تُم — تَارَاتَتَاتَهتَتُم تُم

وما هذا الا تمهيد لهوسة الاخوان : هبت هبوب الجنه اين انت ياباغيها . فغير نقلة رجله خفة واسراعا ، ورمى السيف والخنجر في الهواء ، فتناول باليسري الاول والثاني باليمين . — حطب ياابراهيم . كف ياالاخوان .

هبت هبوب الجنة

تَارَا تَاتَه تَــاتُم تُمْ

اين انت ياباغيها

تَارَا تَاتَه تَــاتُم تُمْ

لعب الهوس بالرجال، ووثب الهول من النصال. — هبت هبوب الجنة! فتغير الوزن من السريع الخفيف الى الاخف والاسرع حتى امسى كرقص الدراويش. فاغمد مسفر اذ ذاك الخنجر ونزع الغطرة والعقال عن رأسه، فرمى بهما في النار، فصاح الجميع اين انت ياباغيها!

واعتزوا مرددين: اهل التوحيد، اهل التوحيد! حتى خمدت النار، وقد ذهل ابراهيم في هوسه عن وظيفته، فكان الختام الدخان والظلام.

حطب ياابراهيم. وكان الفصل الثاني فصل الحكايات، فقص هذلول قصة وقعة كانت له مع الجن في وادي الدواسر فقتل منهم اثنين وجرح كثيرين. وقص بداح قصة غرام هو بطلها، وهو الفاسق الاكبر بشهادة نفسه، فاخبرنا كيف اخبأته الحبيبة في الصندوق عند ما عاد زوجها الى البيت وكان قد خامره منها الريب فسبها، فسبته، فطلقها، فشكرت الله، ونادت الخادم حالا ليحمل صندوقها وهي تبغي العزوبة. — «فحمله وانا فيه، والله بالله، وهي وراءنا تضحك» — وبعد ذلك يابداح؟ — لا تسل ياهذلول.

وحدثنا حمود قال: كنت حاملا كتابا من الشيوخ الى امير عنيزه فنوخت في شعيب بوادي حنيفة لأتعشى. كنت وحدي والليلة مظلمة. عقلت الذلول، وجمعت الحطب، وشببت النار، فسمعت في الحال صوت امرأة تولول وتصيح: احجب علينا حجب الله عليك. فتلفت فعاينت تحت الشجرة وجهاً كالشمس، وحياة الله، وشعرها طويل واسود كالليل. ظهر الوجه في النور لمحة بصر واختفى. فعدت الى النار اشبها، فعادت تصيح: لا تشب النار الله يجيرك من النار. احجب علينا استرنا. هي عروس الجن وقد كانت لطيفة كريمة فدنت من حمود وقبلته وهي ترجوه ان يسير في سبيله ويتركها وشأنها في ظلمات الليل. فاستجاب حمود طلبتها واسرى تلك الليلة كلها وهو يشكو من حرق في وجهه. — والله بالله يا استاذ حبتني «قبلتني» هنا وكان فمها كالجمرة. وحياة الله اقول الصدق.

ثم حدثنا مسفر فقص قصة غزوة من الغزوات التي كان فيها وختمها

قائلاً : والله ذبحت اربعة عشر ومنهم ابن طواله حي موجود . فضحك الربع وكانت ضحكة بداح طويلة مستنكرة وقرت في نفس مسفر فصاح وقد استل سكينا من سكاكينه ! اسكت او اذبحك بالله . فقال بداح وهو لا يزال يضحك : مثلما ذبحت ابن طواله . فوثب مسفر فوق النار يبغي دم العجماني فصده هذلول وسكن روعه ثم امر بداحا ان يقدم له بيده فنجان القهوة.

جاء دور راعي المعاميل القهوجي سالم ، سالم الرزين السكوت . وهو من حايل ومن ابناء الامصار . طاف في الحرب العظمى البلاد العربية كلها من اقصى الاقطار الى اقصاها ، من اليمن الى شرق الاردن ومن البصرة الى الشام . — هات حكايتك ياسالم .

—والله ياستاذ ما عندي حكايات . عندي كمبياله على الملك حسين بمائة وخمسين ليرة انكليزيه ابيعك اياها بعشر روبيات .

— وكيف تقول ما عندك حكايات ؟ هات حكاية الكمبيالة. فاخبرنا سالم بانه كان في جيش الامير عبد الله جمالاً يحمل الماء عندما زحف بعد الهدنة من المدينة على تربه . وعند ما وصلوا اليها ودخلها الامير صباح ذاك اليوم منتصراً سأل سالم سموه ان يأمر بالاجازة والحساب لانه يبغي الرجوع الى بيته وعياله . فاعطاه الامير حوالة على جلالة الملك ابيه بحسابه اي بمائة وخمسين ليرة فأخذ الحوالة سالم وراح ينحر الطائف ليزور صاحباً له فيها . فاعترضه بداح يصلح الكلمة فأتمها . هي صويحبة ياستاذ . انا اعرفها . لم يأبه له سالم فاستمر في قصته . اقام بضعة ايام في الطائف ثم نزل الى مكة . وكان ان الاخوان انتصروا على الامير ليلة يوم النصر بالذات وافنوا جيشه كما هو معلوم وحمل نجاب خبر النكبة الى جلالة الملك . فلما وصل سالم يحمل الحوالة قال له صاحب الجلالة : الله يعوض عليك وعلينا ياابني ، خسرنا كل شيء .

انتصف الليل ونحن لا نزال في فصل الحكايات ، والابل حولنا لا تزال تجتر قانعة مطمئنة ، وسالم يعمل القهوة ثم الشاي ، الابريق تلو الابريق ، فأرقنا

وما مللنا ، ولا كنا من القانتين . ثم نهضنا باكراً قبل الفجر الكاذب وكنت اول من سمع هذلولاً ينادي على عادته : قوموا — قوموا صلوا . بدّاح ، سالم ، حمود ، مبارك ، جعيثن ، قوموا ، قوموا صلوا . . اذّن يامسفر .

— الله أكبر . الله اكبر . . . حيوا على الصلاة . . . الصلاة خير من النوم .

ثم تقهونا وسرنا في سحرٍ برده شديد يصل الى العظم فانخنا بعد ساعة لنشب النار وندفيء ارجلنا وكنت انا في جزمتي أسرع منهم الى ذلك وهم في النعال شبه حفاة . ليس في البلاد العربية من هم اصبر على الشدة واثبت في المشقات من اهل نجد . استأنفنا السير وهذلول اميرنا وامامنا يعلمنا دين التوحيد . — يجب على كل مسلم ان يكون عالماً عاملاً بثلاثة اصول . اولاً : ان الله خلقنا ورزقنا وهدانا برسول ارسله الينا . فمن اطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه دخل النار . واستدل على ذلك بقوله تعالى —وذكر الآية . ثانياً : ان الله لا يرضى ان يشرك معه في عبادته احد لا ملك مقرب ولا نبي مرسل . والدليل قوله تعالى — ذكر الآية . ثالثاً : ان من اطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له موالاة من حادّ الله ورسوله . وذكر الآيـة دليلاً على ذلك . فاذا قيل لك ما الاصول الثلاثة ؟ فقل : معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً صلى الله عليه وسلم . واذا قيل لك من ربك ؟ فقـل : ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين وهو معبودي ليس لي معبود سواه . واذا قيل لك بم عرفت ربك ؟ فقل : باياته ومخلوقاتـه . ومن اياته الليل والنهار والشمس والقمر . ثم سأل بداحاً : مـا هي اركان الاسلام ؟ فاجاب بدّاح البجاح : اني اعرفها ياهذلول . اذكرهـا انت فارددها . فقال هذلول الطيب القلب الورع التقي : اركان الاسلام خمسة : شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله . فنشأ بداح يعد فقـال : واحد . واقامة الصلاة . —اثنين . وايتاء الزكاة . — ثلاثة . وصوم رمضان . —اربعـة . وحج بيت الله الحرام . — تمام ، تعرفها والله .

ثم قال بداح : وانا اسألك اتعرف اية العيون ؟ فاجابه الامير : وما هي ؟ فنطق بداح بالاية التي كنت قد سمعتها مراراً من فيه ولا اظنه يعرف سواها .

—كل عين باكية يوم الحشر الا ثلاثاً . عيناً صدّت عن محارم الله، وعيناً دمعت من خشية الله ، وعيناً باتت تحرس في سبيل الله .

—علمتني ياعجماني . جزاك الله خيراً . وما هي شروط الصلاة .

– اعرفها . اولها الاسلام .

—الاسلام . وثانيها ؟

كملها يالأمام[1] . فاجاب هذلول : الاسلام والعقل والتمييز —وكان بداح يرددها وراءه — ورفع الحدث، وازالة النجاسة ، وستر العورة ، ودخول الوقت ، واستقبال القبلة، والنية . فشكره بداح ثم قال : وما هي شروط الوضوء .

—غسل الوجه ومنه المضمضة والاستنشاق ، وغسل اليدين الى المرفقين ، وغسل الرجلين الى الكعبين . . الخ . ثم قال : وما هي نواقض الوضوء ؟ فاجاب العجماني : انا اعرفها . علمها للربع يالامام . فنشأ هذلول يعددها . هي ثمانية : الخارج من السبيلين ، والخارج الفاحش النجس من الجسد ، وزوال العقل ، ومس المرأة بشهوة ، ومس الفرج باليد ، واكل لحم الجزور ، وتغسيل الميت ، والردة عن الاسلام اعاذنا الله منها . — والله ياهذلول الشرط الرابع ينقض وضوءي دائماً . قل لنا ما هي شروط الايمان .

— اركان الايمان يابداح ستة . ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . والايمان يا بداح هو بضع وسبعون شعبة فاعلاها قول لا اله الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق . والحياء شعبة من الايمان .

— هذه الشعبة من الايمان لا يعرفها بداح . الحياء عدو له .

الصوت الذي نطق بهذه الكلمة صوت مسفر .

فقال بداح : صدقت يامسيفر السدوسي . ولكن عندي اول الايمان واخره ، اعلاه وادناه . ولولا حرمة الاستاذ لبرهنت لك اني مؤمن فازيلك يانتانة

(١) راجع الشرح فى صفحة ٧٧ من هذا الجزء

العجوز ، ياشر الاذى ، عن الطريق .

— بررر والله بالله ! واستل مسفر خنجره وساق بعيره على بداح . فوكز هذلول ذلوله وكر فاستوى بين الاثنين .

—وهل هذا من الايمان ؟ الله يغربلك يامسفر . سلط الله عليك يابداح .

—ومتى كان ابن العجمان يشتم ابن الدواسر ؟

— انا اؤدب العجماني . دونك والحملة . امش . فراح مسفر يبربر ويسب العجمان. فخاطبني بداح قائلاً : مسفر لا يحب النكتة. وحنّا نحب نغيظه لنسليك.

الفصل السابع عشر

الحَفَر

الباطن — ديرة بني هلال — الحفَر وآباره — حروب القبائل — من يحمي الماء ؟ — سائح يرقص عند وصوله الى الحفر وسائح يبكي — الرياح الاربع تحترب في الحفر — جاء مسفر بقِدرٍ من الماء يقول : تبغي تسبح ؟ — التراب في الماء وفي الطبخ — هربنا من الحفر فلحقت بنا الرياح — زهرة تبشر برجوع الحياة — والورقاء والخطاف لا يكذبان — قصة ام سالم والاعرابي — البدو يستطلعون « علومنا » — « وايش لون خد الشعيب ؟ » — الدبدبة — اربعة ايام طيبة ثم الحمى — نشرف على البحر — الجَهْر — ريح الشمال وهبوب الجنة — العاصفة — الصلاة والعشاء في الخيمه — الادلاج في ضوء القمر الربع يلبسون ثيابهم الجديده — شيء من شعر هذلول — الوداع .

بعد ان خرجنا من الدهناء دخلنا في الباطن ، وهو القسم الشرقي الشمالي من وادي الرُّمه ، وفيه كما يقول اهل نجد ديرة بني هلال . ها هنا كانت قديماً منازلهم ، وها هنا اماكن حروبهم . ولكنه لم يبق من المنازل حتى ما شبهه الشاعر بباقي الوشم في ظاهر اليد . لم يبق ظل في الديرة فوق الارض . اما تحتها فالابار العميقة ، المطوية بالحجارة ، المحفورة في الصخور تدل على همة في اولئك الاقوام عالية . ولا يزال في هذه القلبان ما لم يقوَ عليه من الاقدار غير غضب الامطار . فقد تحولت من الوادي المياه ، وجفت منذ قرون قلبان بني هلال ، فكانت الطبيعة عوناً لهم اذ أجهزت على من تبقى منهم وهم يتفانون في الحروب . حتى النبات هجر المكان فقلما تجد في الارض التي رويت بدمائهم غير تلك الدالية التي تدب وتنساب كالحية وتثمر ثمراً شبيها بالليمون . هو الحنظل يمثل مر القضاء في « ديرة » الفناء .

في الباطن بعض الرمث ايضاً وهو — في القاموس — مرعى للابل من الحمض . لكن الابل لا تدنو منه الا اذا كانت في ارض فيها ماء لانه يولد الظمأ ولا ترعاه الا قليلاً . قال بداح : الرمث للبُل مثل السكر للانسان —

يطلب الماء ولكنه للنار زين . ومع ذلك فان ناقة المتنبي فضلت دخان العنبر على دخانه .

تركتْ دخان الرمث في اوطانها طلباً لقوم يوقدون العنبرا

ترى الباطن يضيق في اماكن فلا يتجاوز خمسة عشر ذراعاً ، والى جانبيه جدار عالٍ من الطبقتين الرملية والكلسية. هوذا عقيق النهر الذي كان يجري في وادي الرُّمه . وقيل انه لا يزال يجري ويفيض مرة واحدة كل اربعين او خمسين سنة .

عندما تصل الى مكان يدعى ام الهشيم يأخذ الوادي بالاتساع فتزول تدريجاً جوانبه ، فلا يبقى حولنا وامامنا غير رحب القفر وما في فراغه وامتداده من دواعي الغم ، بل من الهول . ان النفس لتنقبض من عقمه العميم فتنقلب العين عنه خاسئة . هو القفر السبسب بالذات ، لا حد له ولا ظل فيه . وليس في هذه الكلمات ظل من المبالغة .

ان فيه مع ذلك النعيم المنتظر . هو القفر المختبيء في تضاعيفه ، ووراء افاقه ، الحفَر — الحفَر ، الماء ، النعيم ! وكنا نعد انفسنا بواحة مع الماء ورياحين ، بنخيل وظلال طيبة . فواسفاه ان الحفَر حفرة دفنت فيها كل امالنا واحلامنا . هو القفر السبسب يقيناً ، تربة رملية ولكنها سوداء ، لا ظل فيها ولا ورقة عشب خضراء او يابسة . وانه ليحزن الفلاح خصوصاً اذا علم بان هذه الارض حول الابار على مسير ساعة في الجهات الاربع هي سودا من السماد فيها لكثرة ورود المواشي على مائها .

الماء والسماد والتربة الطيبة ، ولا وريقة خضراء فيها . ولماذا ؟ ان الحفَر ايها القاريء العزيز ميدان اقتتلت وتفانت فيه القبائل . فكان يوماً في يد الضفير ويوما في يد شمّر ، وتارة في حوزة ابن الصباح ، وطوراً تحت امرة ابن الرشيد . كم وقعة هاهنا ، حول هذا الماء ، روت التربة الطيبة بدم ربيعة ومضر ، روّتها بدم ابنائك ياعدنان فلا تنبت اليوم حتى الحنظل ولا تظلل حتى الجنادب .

في الحفر ثمانية ابار كلها متهدمة الجوانب . ولا عدة لرفع المــاء الا فوق اثنين منها . ولكن من يرد الماء وليس معه حبل ولا اناء يعود منه ظمآن ، الا اذا وجد هناك من يعيره حبلاً وقربة . قد تكون الحروب في الماضي اوجبت هذا الاهمال بل هذا الظلم . الماء لي اليوم وقد يكون غدا لعدوي ، فلا اصلحه واجهزه بما قد يكون فيه هلاكي وهلاك عشيرتي . انما هي عاطفــة البدو وقاعدتهم في الحياة . وهم لا يدركون من سر التعاون والتضامن غير الغزو ثم الغنائم .

اما اليوم وسيادة سلطان نجد تمتد الى الحفر وما دونــه شرقا وشمالاً ، والامن والسلام سائدان في بلاده كلها ، والبدو بعنايته الابوية آخذون بالتحضير ، والارطاوية أكبر الهُجَر [١] واهمها هي على يومين جنوباً من هذا المكان ، ومطَيْر فيها تستطيع حماية الماء والمحافظة عليه ، فمن العار اذن ان يبقى الحفر كما كان في ايام الضفير وشمّر ، في حروب القبائل والامراء .

قال بداح : المستر فلبي [٢] عندما وصلنا الى الحفر راح يرقص من شدة الفرح .

ولا عجب اذا كان كل من سافر في هذه الطريق من القصيم الى الكويت فقطع النفود والدهناء ، يبتهج ويرقص عندما يصل الى هذا الماء . لا عجب اذا كان على الخصوص رحالة اجنبيا لا ناقة له في البلاد ولا جمل . ومع اني احق من المستر فلبي بالرقص ، اذ قد نجوت من خطرين ، خطر الطريق وخطر الحمى في الطريق ، فقد كاد قلبي يتفطر من شدة الحزن عندما انخنا في الحفر .

احتللناه يوماً واحدا فشاركتنا في الاحتلال الرياح الاربع . وقد قيل لي ان اثنتين منها في الاقل وكلها غالبا تحتل هذا المكان على الدوام . ذلك لان آفاقه مكشوفة مبسوطة كآفاق البحر . فتجيئه الشمال مدرهمة ، والجنوب

---

(١) راجع الشرح في صفحة ٩٢ من هذا الجزء

(٢) هو سان جان فِلْبي مؤلف كتاب « قلب البلاد العربية » ومستشار حكومة شرقي الاردن سابقاً

غائرة ، والشرقية صافرة ، والغربية مصفقة مولولة ، فتلتقي كلها وتحترب في ذا المكان . دخلت خيمتي واقفلت الباب وجلست استمع دوي المعركة ، فاحسست غير مرة ان بيت يومي واقع لا محالة على رأسي .

جاءني مسفر بعد الظهر يسألني اذا كنت ابغي ان اسبح . فظننته يمزح وقلت ضاحكا : نعم . ثم انتبهت الى الجد في امره لانهم في نجد يعبرون عن الحمام بالسباحة . فجاء بعد ساعة بالمرجل الذي يطبخ فيه وقد ملأه ماء حارا . فقلت : بارك الله فيك يامسفر . سنسبح في القدر . فقال مستدركا وهو جاد في كل امره : قد غسلته بالرمل ثم بالماء الحار .

وعاد بعد نصف ساعة يحمل في صحن من النحاس الجمر وعود الند وهو يقول : تطيب . ثم مد يده الى عبه واخرج كنزه الاكبر . المرآة . وساعدني في لبس الجزمة واحكام العقال وخرج من الخيمة يقول للربع : باركوا للاستاذ بالسباحة . فقال هذلول فرددت كلماته : نعيم دائم ان شاء الله . وقالت الرياح : ستأكل عشاك مطبوخا بالتراب .

صدقت الرياح . فكيف يستطيع مسفر او غيره من الطهاة العظام ان يرد عن القدر التراب ما دامت الاربعة الاهوية تثيره وتغريه على الدوام ؟ وكيف يستطيع بداح ومبارك وجعيثن او غيرهم من العربان الاقوياء الاخفاء ان يرفعوا الماء ليملأوا القرب والاروية دون ان تعترضهم الرياح فتبعدهم مراراً عن القليب وتخلط حتى بمائنا التراب ؟ ولكن ماء الحفر ، وان كان ذا لون ، فلا رائحة ولا طعم له . حمدنا الله على ذلك . وسرحنا باكراً كما سرحنا تحت قسطل من العجاج وبين امواج من دوي الاهويـة تصم . « اني اذكر الان اننا كنا وقتئذ في اخر شهر شباط ، في ما يسمى بلبنان المستقرضات »

قلت سرحنا ولو كان في الامكان لرحنا غارة من ذاك المكان نبغي السكينة والاطمئنان في الشعبان . ولكن الركائب نفسها كانت تمشي كأنها مصعدة في النفود ، فتلوي الرقاب وتصك الركاب ، من شدة صدمات العدو المحيق بنا . وعند ما انخنا للمضحّى كانت لا تزال سرياته تعج حولنا وتثج ،

فاخذ كل منا شيئاً من الخبز والطعام بيده ، وجلس على الرمل فرفع العباءة على رأسه كالخيمة وشد اطرافها تحت رجليه .

كذلك جلست . وكان الرمل مع ذلك يسبق اللقمة الى فمي . وجاءت الحمى في ذاك اليوم العصيب تجهز علي لولا رحمة الله . ولكن الرياح هدأت في اليوم التالي وكنا قد بعدنا عن الحفر ، عن القفر اليباب والموت ، فلاح في الارض حولنا شيء من الحياة . هي ذي الرَوْثة روثة العام الماضي وهي شبيهة بالرمث الا ان الحموضة قليلة فيها فتقبل عليها الابل . وهوذا نبت اخضر ، طليعة الحياء في هذا العام ، ولكنه ليس من الحيا بشيء . لان الانعام لا تدنو منه . اما مرآه فقرت به العين وانتعش منه الفؤاد . قيل لي انه يدعى بُعَيْثران وهو شبيه بالشمَّر ، زهره اصفر ، ورائحته قارصة .

وهاك في الجو جناحاً صغيراً يسف فيؤنس ، ويزلج امام الهواء كانهورقة خضراء سوداء ، جناحاً اسود فيه اخضرار يرفرف حولنا فيبشرنا بالحياة ثم ينسل في وهج من خيوط الشمس . هو الخطَّاف الذي يسميه اهل نجد الرقَيْعي . وجاءت معه الورقاء — أم سالم — تتيّم زهر البعيثران وتجر تيها ذيلها ، ذنبها الطويل على الرمل . قال الاعرابي وقد عرّفه رفيقه الى ام سالم : اي بالله واين هو ابو سالم ؟ فاشار الرفيق الى الخطاف فقال : وابيك حتى في الطيور تهوى البيض العبيد . وايش قولك يسالم ؟ اولاد العبيد منا كيد .

وكان الخد، كما يقال في نجد اي وجه الارض يتغير كلما بعدنا عن الحفر ، فتكثر المفالي [1] ويكثر البدو وقد خرجوا بمواشيهم ينتجعون . فيلاقوننا ليستطلعوا اخبارنا ويسألوا عن المرعى في الارض التي مررنا بها . وقد يرانا الاعرابي وهو على مسير نصف ساعة منا فيركض حتى يلحق بنا . واذا تعب يومىء بردنه او بطرف قميصه ان قفوا . فنقف امتثالاً لامر هذلول وما كان

---

(١) المفالي الارض التي فيها مرعى . ومن كلمات البدو اذا نزل المطر : اللهم اجعلها في مفالي ارتسابنا ولا تبل ثيابنا . اي اجعل الشتاء في الاماكن التي هي مرعى لركائبنا ولا تجعلها علينا فتبل ثيابنا . البدو مثل السياسيين يبغون النعمة دائماً صافية ومقيدة بشروط

ليرد يوماً طالبا .

— السلام عليكم ياالاخوان . حي الله المسلمين . . وتسايف أنت ؟ وتسايف حالك ؟ . الله يزين حالك . . وابو تركي[1] تسايف حاله ؟ . . وايش علومكم ؟ « اخباركم » وايش لون خد الشعيب ؟ « اي ما هو لون الارض ، المرعى ، في الشعب الذي مررتم به »

في اليوم الثاني بعد سفرنا من الحفر خرجنا من الباطن اي وادي الرُّمَّه عند مكان يدعى الرقعي وسرنا جنوباً بشرق نازلين الى الدِبْدِبَه ، فوصلنا اليها بعد ان اجتزنا بضعة تلال او شعبان ضل فيها الدليل المطيري وكان في ضلاله مشكورا لانه اقصر بدل ان يطيل الطريق .

الدبدبه سهل فسيح كبير لا يقل عن العشرين الف ميل مربع وهو يمتد شرقاً بجنوب وشمال من وادي الرمه ويحدها غرباً الحفر وشرقاً الشَقْ وتشطره شطرين الدرجة الثانية والعشرون من العرض الشمالي . قد كانت الدبدبه ولا تزال تابعة لمن يملك الحفر . الا ان قسما صغيرا منها دخل اليوم في حدود العراق .

والدبدبه كثيرة المفالي ، مخضرة الجوانب ، رقيقة الاديم ، منبسطة الارجاء تمحّي غالبا اثر الطريق فيها فيسير من كان ناحراً الكويت وظله امامه اوورائه ، واذا اسرى فبرج الجدي الدليل الذي لا يضل . وفي الدبدبة من القنص الحبارى والقطا والارانب والغزلان . ولكن الماء قليل ، ولا شيء منه في الطريقين من الحفر الى الكويت . اي الطريق الشرقية في خط مستقيم الى خَبرة الدويش وطولها مئة ميل والطريق التي اتخذناها الى الجهره شمالا وهي مئة واربعون ميلا . فلا ماء بين الحفر والخَبرة ولا ماء بين الجهرة والحفر .

ومع ذلك فقد ظفرنا في الدبدبه باربعة ايام طيبة سرنا فيها سير الهَون اكراماً للركائب ولانفسنا . وقد كان لنا ما كان لها من الخير واللذة في تغيير الهواء والمناظر والمرعى ! فالابل تستلذ العرفج والارطى الخضراء وكانت في

(١) اي السلطان عبد العزيز وابنه البكر تركي توفي في الوافدة الاسبنيولية بعد الحرب

الدبدبه وافرة من نعمة الله . ونحن نستلذ الحبارى والكمء ، وكان مبارك وجعيثن يقنصان بينما ابرهيم ومسفر وحمود كانوا يبحثون في الارض فيجيئوننا كلهم في المساء بما يندر في باريس ولندن من نعمة الله ، الا اذا بذل في سبيلها كنز من المال . لا اظن ان في الشمال كمأة تفوق خصباً ولذة كمأة الدبدبه . اربعة ايام طيبة ، ثم الحمى !

لله ما ابلدك وما اشد الحمق فيك ، ايتها العجوز البصرية ، اذا كنت تظنين انك تجيئين في اليوم الخامس لتفسدي علينا هذه الاربعة المباركة فتنسينا حسنات الدبدبه كلها . جئتِ ، لا اكرم الله مثواك ، ونزلت ضيفاً علينا فأكلت ما تبقى عندي من الكينا « وملح الاثمار » وعدت بخفي حنين . العفو ، ياحنين . هذه اول مرة في حياتي لجأت الى خفيك لاطرد بهما عجوزاً شمطاء ولو لم تكن عربية الاصل ومن البصرة ، هذه الحمى ، ولو لم اكن الآن في البلاد العربية لما ازعجتك ياحنين ولاتخذت لغرضي نعل سواك .

راحت المسكينة تعرج ونهضنا في اليوم السادس بعد نصف الليل منشطين فاسرينا في ضوء القمر لنصل الى الجهرة صباحاً . وما ابهجها ساعة اطللنا فيها على البحر ! البحر بعد اربعة اشهر في قلب البلاد العربية ، ما اجمله وجهاً ، وما اكرمه يداً ، وما ابلغه رمزاً . القفار ابعدتني عن العالم والبحر يعيدني اليه. القفار قربتني من الله ، والبحر يقربني من الاهل والخلان . وانه ليلذ لي ، وانا من الناس ، ما يلذ لعامة الناس . فلا اكتم القارىء ان العشرة الالهية الدائمة تضايق من لم ينتصر ولا حاول مرة ان ينتصر على الجسد . انني اعجب بالقديس انطونيوس وبسمعان العمودي . ولكني بعد اشهر اقمتها في ظله تعالى ، واحسست مرة ان الظل تجسم قدامي على ظهر الذلول ليساعدني على الحمى ، ابغي الرجوع الى ما فيه شيء من الحب البسيط الفاني ، ابغي الرجوع الى توافه المدنية ومبتذلات الحياة البشرية .

الجهرة بلدة عند جبل الزور على ساعد من الخليج يمتد غرباً من الجون وراءَ مدينة الكويت ، والمسافة بينها وبين العاصمة لا تتجاوز خمسة عشر

ميلاً . وهي مشهورة بكثرة ابارها ، وبقصر فيها لشيخ الكويت ، وبتلك الوقعة بين اهلها والاخوان التي سيجيء ذكرها .

انخنا خارج السور على كثيب من الرمل وارسلنا بداحاً بكتاب الى سمو الشيخ احمد الجابر ال صباح نعلمه بوصولنا ونستأذنه بالدخول الى المدينة . وكنت قد كتبت اليه من الرياض وجاءني منه الجواب مرحباً بي . ولكن هذلولاً ، وهو ولي الامر ، حريص على الرسميات فلا يدخل مدينة قبل ان يسبق منه علم بذلك الى اميرها .

ما كدنا ننصب الخيام حتى جاءَ بعض افاضل الجهرة وفي مقدمتهم امير القصر يزورونا ويدعوننا للقهوة في بيوتهم . فذكرونا باهل القصيم في ترحيبهم بالغريب . قضينا بضع ساعات من يوم رحلتنا الاخير نشرب القهوه والشاي ونسمع ما يتسرب من العاصمة الى هذه القرية من اخبار العالم . على ان اهلها يهتمون لما في البادية ، على ما ظهر لي ، ولاخبار نجد والاخوان اكثر من سواها . اخبروني بان الجهرة مجلبة للرياح مثل الحفر ، وان الهبوب التي مهبها الشمال مسلطة عليها . ولكنهم لا يخافونها على ما اظن بقدر ما يخافون «هبوب الجنة» التي مهبّها الجنوب .

وانا اكره الهبوب سواء كانت جنوبية ام شمالية ، فشكرت الله ان مسرحها في الجهرة يوم نزلنا فيها كان خالياً هادئاً . شكرت الله . وبينا كنت عائداً من البلدة رددت آية الحمد فسمعني هذلول فقال : والحمد لله في كل حال . ولكن هذا المهب[1] .

لم ارَ له اثراً حيث كنا ولكنه كان يجمع جيوشه فوق جبل الزور ودونه في الافق الغربي .

وكانت طلائع الهبوب كالغيوم السوداء الماطرة وحركتها ظاهراً بطيئة . اسرعنا الى المناخ فالفينا الربع حول نار سالم يشربون القهوة ويتحادثون وهم لاهون عما هو حادث هناك . فصاح بهم هذلول وامرهم بان يرفعوا الشراع

(١) هم يعبرون عن الهبوب او الريح المثيرة للغبار بالمهب .

ويطووه ويوطدوا اوتاد الخيمة خيمتي . فما كادوا يتممون العمل حتى وصلت الينا سريات هبوب الشمال .

امر الامير الخدم بان يرزموا العفش ويتأهبوا للرحيل . ولكن سريات من الغرب والجنوب احاطت بهم فاوقفتهم وشتتهم وكادت تذهب بقمصانهم . لجأوا الى الجهة الشرقية من الخيمة فهوت وكادت تقع عليهم .

— اقضبوا[1] الحبال . حمود وحمد وجعيثن اقضبوا الحبال ولا تبرحوا الخيمة . مكانكم .

فتمسك الثلاثة بحبالها والرياح من النواحي الثلاث تذري الرمال عليها وعليهم .

وكانت ساعة المغرب والعشاء والصلاة . الصلاة أولاً . وكيف يصلون . وهم اذا استقبلوا القبلة التي هي غرب ذاك المكان يستقبلون الهبوب — هبوباً ولا «هبوب الجنة» .

دعوتهم الى الخيمة فدخلوا كلهم الا الثلاثة القابضين على الاطناب . فاذّن مسفر ثم صلوا ، وصليت معهم وانا جالس على السرير . أوَلا يخلق بي ، وهي آخر ليلة مع «خوياي» ان اشاركهم في الصلاة وفي العشاء .

جاء مسفر وابراهيم يحملان المرجل الكبير الى الخيمة فرفعا الغطاء ، فاذا على وجهه قطيفة من الرمل فكشطها مسفر بالمغرفة وصب ما فيه من الارز واللحم . نحرنا الزاد ونحن جالسون القرفصاء . ولكن الرياح وهي تصفر وتنفخ من خلال فرج الخيمة ومن تحتها كانت تسابقنا اليه ، فيجيء الرمل ، في كل سفة من الارز ، كالبذر في الصبير . وما كنت تسمع مقطعاً او حرفاً واحداً من الشكوى الا اذا كانت باطناً مني . ولكني كظمت وتجلدت خجلاً من ابطال نجد وشكرت الله معهم على عشاء من الارز والرمل .

بتنا كلنا في الخيمة نقص القصص ، والرجال يتناوبون حراستها ، والرياح تولول حولنا وتحاول عبثاً اقتلاعها . كنت قد سألت هذلولاً غير مرة ان يملي

(١) قضب لغة اهل نجد في قبض

علي شيئاً من شعره فأبى اتضاعاً ، فالححت عليه — هي آخر لياليناايا هذلول — فاكرمني .

وكان قد انتصف الليل فطلع القمر وسكنت الرياح . فقمنا نتأهب للرحيل . أسرينا من الجهرة مكرهين ، وبعد ساعتين انخنا ليتم الربع عملاً لا بد منه . يجب ان يغيروا ثياب السفر قبل ان يدخلوا الكويت .

شببنا النار وفرشنا بعض الفرش فحاولت ان انام ساعة بينا « خوياي » يلبسون اثوابهم الرسمية ويزينون انفسهم . ولكني وجدت شرب القهوة ورعي النجوم اسهل من النوم .

لبس كل من الربع الكسوة الجديدة التي انعم بها السلطان عبد العزيز قبل السفر من الرياض . ولبس هذلول ورجاله النجاد الجلد فوقها وتمنطقوا بمناطق الفشك ، واخرجوا البنادق من بيوتها ، والغطرات الجديدة من الاخراج . وكانت مرآة مسفر الصغيرة تقوم بفضل القمر بواجبها فتداولتها الايدي وبسمت لها الوجوه .

وكنت انا ، ويا للعجب من امري ، اسير اكتئاب حاولت ان اظهر عليه او اخفيه . هي اول مرة ادركت وتيقنت اننا في المرحلة الاخيرة بل في الساعة الاخيرة من رحلتنا . وكم مرة وددت النهاية وتقت وحننت اليها . ولكني في تلك الساعة وانا مدرك ان القمر لا يطلع مرة اخرى علينا ، علي وعلى هؤلاء الاخوان الحقيقيين ، المحبين المخلصين ، في تلك الساعة ، ساعة الفراق ، اعتراني الغم ووددت من الزمان يوماً اخر نسير فيه الى واحة من الواحات ، وليلة اخرى نسمر فيها حول نار سالم ، فيرقص مسفر رقصة الاخوان ، ويطعم ابراهيم النار الى ان يتخلل دخانها خيوطَ الشمس الذهبية .

« حبذّا اهل العوجا — مروية السنين »

ولكن شعر هذلول النبطي الذي املاه علي منذ ساعة « وستظل بالرغم من الايام والليالي منذ ساعة » لا يزال يرن في الاذن والفؤاد . وما احسن اختيارك ! ايها الدوسري الكريم ، وما اجمل العاطفة في تلك الابيات التي

بعثتَ بها الى احد خلانك . فهي تنطق بلسان حالي اذا ما ذكرتك وذكرت « خويانا » كلهم اجمعين .

ياعلي يوم السبت ونّيت ونّه (انّ وحن)
يوم ارتحلتوا فوقعوص النجايب (الهجن الحره)
١ ياليتني معكم على كوارهنَّ (اكوارهن)
مع ربعي اللي هرجهم لي عجايب (حديثهم)
بالله ياخلاق نار وجنه
نسألك يامنشي صفوف السحايب (الغيوم التي تجود بالامطار)
تسيّر بمـام الدين لديارهن
حتى نشوف صويحبي والحبايب
صويحبي اللي مني وانا كنت منّه
منساه « لا انساه » لورزّت علي النصايب (حجارة القبر)

ادلجنا من ذاك المكان . وما هي الا ساعة حتى انبلج الفجر وبانت من وراء حجابه الفضي الشفاف مدينة الكويت .



ص ١٤٤ — ١٤٥

سمو الشيخ احمد الجابر آل صباح

القسم السادس

آل صباح
شيوخ الكويت

الكويت

حدودها : شرقاً خليج العجم. شمالاً وغرباً وجنوباً خط يبتدىء عند ملتقى الخطين الثلاثين من العرض الشمالي والاربعين من الطول الشرقي فيمتد في شكل نصف دائرة ويمر بالشق غرباً والشِّقَيْق جنوباً وبين جبَلي بُرقان والقَرين الى رأس القَليّة على الخليج.

ومنطقة الحياد بين الكويت ونجد هي من رأس القلية الى خبرة الدويش ومنها في خط يمتد جنوباً بشرق الى قرب الخط الثامن والعشرين والربع من العرض الشمالي ومن هذه النقطة الى رأس مشعاب على الخليج.

مساحتها : اربعة الاف ميل مربع.

عدد سكانها : نحو مئة وعشرين الف نفس منهم ثمانون الف في مدينة الكويت والباقي من العشائر خارجها.

اهم بلدانها ليس للكويت ملحقات من البلدان الكبيرة. ولكن في برها اماكن باسماء معروفة كالوَبره عند الحدود الشمالية والصبَيْحيّه في الجنوب وخَبره وام الرؤوس وغيرها. وهي كلها اماكن مياه يرتادها عرب العشائر.

مذاهبها : السنة والشيعة والوهابية وفيها من الفرس والهندوس والمسيحيين واليهود.

الفصل الاول

في الكويت

القافلة في البادية — اهمية الانسان في القفار — وهمٌ لذيذ — دهشة الذ — العود الى البصره — الصالحية جنةٌ — السماط والسّقفْ — الكمال غاية الحياة القصوى — فشلت في الفحص — عدت من نجد استاذاً — سور الكويت — المقابلة الملكية في الفلاة — سمو الشيخ احمد الصباح — القصر والفتنة فيه — مفاجئات الترف — البقولات — بندورة الكويت — الاجادة لدى السماط والشهادة — كرسي فيه الكفر بالله — جحيم يتبع النعيم — الهواء الاصفر — طبيب من بيروت — خبر الشيخ خزعل والعافية

كنت قد عاهدت « خوباي » ان أدخل واياهم الى الكويت راكباً الذلول ولكننا قبل ان نصل الى المدينة رأينا سيارة قادمة منها فوقفتْ اذ دنت منا فقال هذلول يخاطبني : من الشيخ احمد . نوّخ ، نوّخ .

أنخت آسفاً لاني ادركت في الحال ان لا بد من الركوب في السيارة فأخلف بوعدي ، واحرم لذة كنت اعلل النفس بها . ليست القافلة في البادية غير قافلة مهما كان عددها ، وليس الراكب فيها اياً كان غير واحد من المسافرين . لا اهمية للانسان والحيوان في القفار . او ان الاثنين واحد في فسيح مهالكها .

ولكن ساعة تدنو القافلة من العمران ، من الحضارة ، تتغير نفسيتها ويعظم شأنها . فتدخل بوابة السور وقد اختلط في قلبها الكُبر والسرور ، وتسير في اسواق المدينة كأنها موكب من مواكب النصر والفخار ، وكأن كل واحد من الركب امير على عرشه العالي او قائد عائد من ساحة الوغى . هو وهم في عجب ولا مراء . ولكنه وهم جميل كان يستوقف العقل مني كل مرة نصل الى مدينة كما تستوقف العين صورة جميلة . ولذ لي ولا غرو اكثر من سواي لاني حديث العهد به .

لذلك اسفت عنـد ما انخت ذلولي خارج الكويت . ولكني دهشت وسررت ، فنسيت ما كنت اعلل به النفس ، اذ رأيت صديقي القديم يوسف السالم چلبي آل بدر ومعه الشيخ عبد الله خليفه آل صباح . وقد جاءا من قبل سمو الشيخ احمد يحملان الي كتاب السلام والترحيب .

كان اخر عهدي بيوسف چلبي في البصرة عند صـديقنا الاديب الفاضل الشيخ محمد امين عالي باش اعيان العباسي يوم أدب لنا مأدبـة فاخرة في بيته « الصالحية » على نهر الصالحية هناك . فقلت متصرفاً بالبيت المأثور :

والصالحيـة جنـة والصالحون اليهاأمّوا (١)

كنا يومئـذ عشرين ونيف من الصالحين — الصالحين للنزال والطعان . وكان يوسف قد شحذ سلاحه جالساً الى جنبي يسف الارز سفاً عجيباً . وانا الطالب في هذه الطريقة اعجب به واتمنى ان يكون لي جزء ما له من المهارة والاقتدار . سألتـه عما اذا كنت استحق الشهادة في السف البسيط وهو ان تأخذ شيئاً من الارز فتعجنه بين اصابعك وتدفعه بالباهم الى فمك . فاستعرض سفي ثم قال : لا يزال ينقصك شيء من العلم والاتقان . عينك . قال هذا ومد يده الى الارز فادارها فيه ، كانه يحدد دائرة هي ملكه وقبض على كتلة منه كبيرة قد ملكها ثم رفعها وجعلها ، وهو يعصر منها السمن ، اكرة متماسكة شديدة ، فقذف بها اذ ذاك الى فمه دون ان يسقط منها او يتبقى بين انامله بذرة واحده . فقلت : سبحان الله الذي جعل الكمال غايـة الحياة القصوى . فلا شيء لعمري في الحياة اجمل من اتقان في صناعة او كمال في فن .

قلت ليوسف چلبي بعد ان شاهدت منه هذه البراعة : اني مسافر الى نجد فاتمرن هناك واعود ان شاء الله اليه ليعطيني الشهادة . وما كان في الحسبان ان ستجمعنا التقادير ثانية ، فتصير النكتة بعد اربعة اشهر حقيقة مضحكـة . قال يوسف ونحن سائرون في السيارة نعيد تلك الذكرى : سنفحصك اليوم في

---

(١) استغفرك يا سيدي الاستاذ اني اعلم ان أمّ تتعدى بذاتها ولكن النكتة الشعرية تعتذر « اليها » .

القصر ونعطيك الشهادة .باذن الله .

اول ما يسترعي النظر في الكويت اذ يصل المسافر من البر اليها ذلك السور الكبير الذي بناه اهلها بعد وقعة الجَهْره ليصدوا هجمات الاخوان . وهو سور يحيط بالمدينة من جهات البر كلها ، طوله خمسة اميال وعلوه نحو اربعة امتار وسمكه في بعض الاماكن مترٌ ويزيد ، فيه المعاقل والكوى للرمي والدفاع ، وله بوابات ثلاث يقيم الحرس عندها ، وتقفل في الليل . لم تنفق الحكومة روبية واحدة على بناء هذا السور ، فقد تبرع اهل الكويت كلٌ بما يستطيع من عمل او مال واتموا البناء في مدة شهرين فقط . انه لمن الاعمال المدنية العامة المدهشة خصوصاً في البلاد العربية .

دخلنا المدينة في الساعة الاولى من ذاك النهار ، فوقفت السيارة في الساحة الكبرى ، فترجلنا ومشينا تجاه صف من الناس جالسين في الفلاة على مجالس من الحجارة والطين الى حائط بيت صغير . فوقف اذ وصلنا من كان جالساً في الوسط ووقف على اثره الجميع . هو سمو الشيخ احمد الجابر آل صباح حاكم الكويت . خرج من قصره بحاشيته وبعض اسرته يستقبلنا في المكان الذي يجلس فيه للناس . ليس احب الى السائح وليس اقرب الى الديمقراطية الحقة والمساواة من هذه المقابلات الملكية في الفلاة .

الشيخ احمد في العقد الرابع من العمر ، ربع القامة ، دقيق الملامح ، حسن الخلق والبذة . لطيف الاشارة والحديث وهو اقرب في هيأته الى الشكل الآري منه الى السامي . فلو كان في غير النعل والثياب العربية لظننته هندياً من البنجاب او اوروبياً من بلاد الاسبان .

هنأني بوصولي واعرب عن دهشته لسفري في البلاد العربية هذه السفرة الطويلة . ثم قال : العرب انفسهم يكبرون هذه الطريق ويخافونها . ومنهم من لا يقوى على تحمل مشقاتها . وكيف تحملتم ركب الذلول كل هذه الايام ؟ نهنيكم يااستاذ ونرحب بكم . ولم يشأ ان يطيل الجلسة الاولى رغبة في راحتي فبعد ان تناولنا القهوة أمر من لاقاني ان يرافقوني الى القصر .

وكانت هناك الفتنة الكبرى. لا اريد بالفتنة ما فيه نسوة او دين او سياسة، وقد كنت بعيداً عنها كلها. ولكني افتتنت بمفاجآت الترف والرفاهية، انا الذي اقمت عشرين سنة في مدينة تزدحم وتتبذل في نزلهـا نوافل العيش ونفائس الصناعة والفنون، تلك التي كانت تنحصر في الماضي خصوصاً باوربه في قصور الاشراف والاعيان، وهي اليوم هناك لكل من يستطيع من الناس بذل بعض المال.

تالله ما تفعل البيداء وخشونة العيش. دخلت القصر في الكويت كأني بدوي لم يرَ في حياته قصراً جميلاً، تزينه الاعمـدة والقناطر، ولم يجلس مرة في صاعة مفروشة بالفاخر من الرياش. وعندما جاء الخدم الواحد بعد الآخر يحملون الاطباق فوضعوها على السجادة وجلست انا ورفيقي اليها افتتنت بما احاط صحفة الارز من الالوان المطبوخة بالبقولات.

البقولات! بعد الارز والرمل واللحم والتراب التي كان يطبخها لنا مسفر ومعاونته الرياح، انها من النعم التي يغتفر فيها الابتهاج والاسراف. نحرت الالوان نحر العاشق المشتاق واخصصت بالاسراف بندورة الكويت التي يشحنون منها الى البصرة وهي صغيرة مدملكة يطبخونها بقشرها دون ان تمسهـا السكين. ثم سمك الكويت المشهور الذي يشبه سمك المشط في طبريه، ولكنه ارق وادسم، ثم اصناف الحلوى ومـا اشد حلوها واكثر سمنها واسرارهـا. وعندما نهضنا نغسل ايدينا وقف امامي يوسف السالم آل بدر، وهو كما اشرت من رجال السماط المشهورين في البصره والكويت، فصافحني وقال: اهنئك بما احرزت. فقد صرت منـا ليس في سف الارز فقط بل في سف السماط.

وبعد ان ودعوني في تلك الليلة خرجت الى الايوان ذات العمد المشرف على الخليج فشغفت بمشهد البحر والسفن المسربلة بضوء القمر، وظللت حتى نصف الليل جالساً في كرسي هندي[1]، وانا في ثوب النوم، جلسة امـيركية

(١) اذا كنت تبغي كرسياً تستريح فيه وتنام فيه وتسيء الادب فيه. فليس اصلح من ذاك الكرسي الهندي وقد جعل لظهره درجات فتبسطه قدر ما تشاء ولجانبيه عضادتان ترفع عليهما ساقيك - فتنسى انك انسانا وتكفر بالله.

—وما اخلق ذاك الكرسي بها— رافعاً للقمر رجلي، مطلقاً العنان للذيذ الاحلام. فما احسست بهواء البحر البارد الرطب الا بعد ساعة، فدخلت وانا ارتعش الى غرفة النوم.

نمت قليلاً واستفقت أئن من شدة الالم. عاد السماط في بطني ناراً، واستحال النعيم جحيماً. فكنت منذ تلك الساعة حتى الفجر احس بشيء يتعقد فيّ ثم ينحل، ثم يتقطع ثم يذوب، فاذوب معه واكاد من شدة الوجع اموت. بل عاينت الموت في تلك الهيضة التي تندر في غير الوباء. الله! يارب المسرفين والمقترين، يا ارحم الراحمين، افي الهواء الاصفر نهاية هذه الرحلة ونهايتي. او انها بندورة الكويت تفعل ما لا تفعله الادوية والاملاح.

جاءني في الصباح يوسف چلبي فحزن لحالي وبادر الى الطبيب. وجاء بعد ساعة الطبيب فاثبت الجرم على البندورة وقال: ان لها شريكة هي الحمى. — وللاثنين عدوة هاكها. ولكن الطبيب نفسه نفعني اكثر من عقاقيره. فقد استأنست به ايما استئناس لانه من سورية واسمه شبيه باسمي. هو الدكتور ريحان من بيروت. وما الذي قذف به الى الكويت؟ اخبرني انه في معية السر دار اقدس الشيخ خزعل خان الذي جاء يقضي بعض الشتاء في قصره خارج المدينة. فكان الخبر هذا كالوردة الحمراء في ضمة من الريحان. لاني كنت عازماً على زيارة الشيخ خزعل في المحمّرة فسررت جداً بقربه مني وعادت في ذاك النهار العافية مثلما ولّت، تحمل باحدى يديها ادوات العمل وبالاخرى مصباح الامل.

الفصل الثاني

آل صباح (١)

اقسام العرب — ربيعة وعنيزة آل صباح — تاريخ الكويت — اول من حكمها من ال صباح سنة ١٢٨٣ هـ — اولاد صباح — حكم عبد الله — حكم محمد — شقاق في بيت ال سعود — تدخل الدولة — فتح الحسا — مساعدة ال صباح للدولة — الشيخ مبارك — الفرق بينه وبين اخويه — الخلاف — الفاجعة — ذبحة محمد وجراح — التجاء اولاد المقتولين الى والي البصره — التجاء مبارك الى والي بغداد — تدخل الحكومة البريطانية — قيام يوسف ال ابراهيم على مبارك — هجومه على الكويت — سفره الى الاستانة — ما عرضته الدولة على مبارك — رفضه والتجاؤه الى الانكليز — مدرعة من ابي شهر — انتصار مبارك — يوسف ال ابراهيم في جبل شمر — الحرب بين مبارك وبين ابن الرشيد — وقعة الطرفية — ظهور ابن سعود — وفاة ابن الرشيد وابن ال ابرهيم — الجو ينجلي — مبارك الحاكم بامره — اتفاقه مع الانكليز — حكم الشيخ جابر — حكم الشيخ سالم — اخلاقه — سؤ سياسته — وقعة الجهرة — طريقة انتخاب الحاكم .

ليس من يجهل ان العرب كلها تقسم الى قسمين ، قحطان اي العرب العرباء وعدنان اي العرب المتعربة ، وان عدنان تقسم الى فرعين مضر وربيعة . اما مضر فسكنت الحجاز وكانت لها الرئاسة في مكة ، واما ربيعة فكانت منازلها في نجد اي بين اليمامة والبحرين والعراق .

وهي اي ربيعة تقسم الى عمارتين ؛ بني كلب وبني اسد او يتفرع بنو اسد الى فرعين او بطنين هما جديله وعنيزه . ومن عنيزة يتحدر بكر بن وائل الذي تنتسب اليه البيوت الثلاثة الحاكمة اليوم في نجد والبحرين والكويت ، اي آل سعود وآل خليفه وآل صباح .

كانت عنيزه تقطن اولاً عين التمر في بر العراق على مسيرة ثلاثة ايام من

(١) للشيخ يوسف آل عيسى وللسيد عبد الرحمن النقيب من الكويت الفضل عليّ ببعض المعلومات في هذا الفصل والفصل الذي يليه

الانبار . ثم انتقلت منها الى نواحي خيبر فاقامت هناك ومعها احياء من طي ، فصارت تنتجع وتشتي معهم في نجـد . وقد كانت ولا تزال من اكبر قبائل العرب ، وهي تقسم الى افخاذ كثيرة منهـا جمَيْلة ، وتقسم جميلة الى فروع كثيرة منها الشِمْلان ، وتقسم الشملان الى عشائر اكبرها واشهرهـا آل صباح .

اما الكويت فتاريخها القديم غامض مجهول . وقد لا يكون لها ما يهم من التاريخ قبل ان هجر اليهـا آل صباح قادمين من خيبر منذ نحو مائتين واربعين سنة . والكويت تصغير كوت والكوت في اصطلاح اهل تلك النواحي هو بيت محوط ببيوت صغيرة . كانت يومئذ لبني خالد يجمعون فيها زادهم اذا ربعوا في الحُجْره ، فجاء آل صباح ، كما هو منقول ، وسكنوا هذه الناحية باذن من بني خالد .

ثم انتخب صباح حاكما على العشائر فيها فحكم وتوفي في زمن يجهل تاريخه حتى من سألتهم من آل صباح . ولكنه لا يرجع على ما اظن الى ما دون القرن الثاني عشر للهجره . لان ابنه الشيخ عبد الله الذي خلفه توفي في عـام ١٢٢٩ هـ .

كان الشيخ عبد الله الصباح اول من حكموا الكويت من هـذا البيت . حكمها طويلاً ، ستاً واربعين سنة ، فاتسعت في عهده وشاع ذكرها في الخليج . ثم خلفه ابنه جابر عام ١٢٧٦هـ وخلف جابراً ابنه صباح عام ١٢٨٣ هـ

اما نوع الحكم فقد كان قبل صباح شورويًا يشترك فيـه رؤساء العشائر ، فلا يقدم الحاكم على امر مهم قبل ان يستشيرهم وهم يستشيرون الجماعات . ولكن هذه الشورى بدأت تضعف في عهد صباح الثاني اي ابن جـابر حتى تقلص ظلها تماماً في ايام ابنه مبـارك الذي حكم بامره ، وخصوصاً في العقد الثاني من حكمه .

من أولاد صباح ثلاثة تولوا الحكم بعده . الاول عبدالله الذي حكم ستاً واربعين سنة ، ثم محمد الذي حكم ست سنوات ، ثم مبارك الذي استمر حكمه

احدى وعشرين سنة . ولكن مباركاً ، وهو على عسفه وشذوذه حاكم الكويت الاكبر ، حاز قبل ان تولى الحكم شهرة في القيادة تقدمت شهرته السياسية .

ففي سنة ١٢٨٧هـ — ١٨٧٠م حدث شقاق بين ابني فيصل آل سعود عمّي السلطان عبد العزيز ففاوض احدهما الدولة العثمانية بواسطة واليها في بغداد وكان يومئذ مدحت باشا فاغتنم مدحت الفرصة وارسل جيشاً الى القطيف ففتحها ، ثم الى الاحساء فحاصرها واستولى بعدئذٍ عليها .

وقد كان لمشايخ الكويت الفضل الاكبر في فتح الاحساء . فقاد الشيخ مبارك الذي كان يومئذ في ريعان الشباب جيشاً كبيراً من العشائر في طريق البر ، ورافق الشيخُ عبدالله القائدَ العثماني بحراً . ومنذ ذاك الحين وقبله الى حين الفاجعة التي اولت مباركاً الحكم كانت العلائق بين حكام الكويت والدولة العثمانية شبيهة بغيرها مع العشائر الموالية لها . فقبلت بان يكون لها سيادة اسمية في الكويت وان يعترف آل صباح بهذه السيادة .

بعد وفاة الشيخ عبدالله تولى الحكم اخوه محمد وكان مبارك واخوه جرّاح طامعين به . ولكن جرّاحاً والى محمداً وكان فعلاً لا رسمياً شريكه في الحكم . فاشتدت المنافسة بين مبارك واخويه وكان لها من غير السياسة اسباب اخرى . اما مبارك فقد كان ولا شك ابعد الاخوين مطمعاً ، واشدهما بأساً ، واحدّهما طبعاً ، وامضاهما عزماً . ولكنه كان متهوساً متسرعاً في اعماله . وكان جرّاح صاحب النفوذ الاكبر في الحكم يحب المال بقدر ما يحب مبارك المجد والشهرة . بل كان الاول بخيلاً والثاني مبذراً . وكان لمبارك النفوذ الاكبر في العشائر فنزع الى الغزوات ، فغدا في حاجة الى المال دائمة . وكان الاخوان محمد وجرّاح ينعيان عليه دائماً آراءه واعماله ، ويسيئان معاملته ، ويمسكان عنه احياناً ما تقتضيه نفقاته الخصوصية . فصبر مبارك بضع سنين على هذه المعاملة وابى ان يصبر على الدوام . وكان يرى فوق ذلك ان اخويه هما عثرة في سبيل المجد الذي يبغيه للكويت وآل صباح . فعندما فرغت كأس الصبر وامتلأت كاس التغيظ والنقمة عزم على ان يريح نفسه وآل صباح والكويت من ذينك

الاخوين . فنهض ذات ليلة للامر ونهض معه ابنه ، وكل منهما مستل سيفه ، فذبح مبارك اخاه محمداً وذبح ابن مبارك عمه جرّاحاً . وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ١٣١٣ للهجرة .

ضجت الكويت لهذه الفاجعة ثم اذعنت للشيخ مبارك صاحب الحكم فيها . أذعنت الكويت الا ابناء القتيلين واشياعهم ورجلاً اخر سيجيء ذكره . فرّ ابناء جرّاح ومحمد هاربين الى البصره فشكوا امرهم الى واليها الفريق حمدي باشا . وكان يومئذٍ رجب باشا والي بغداد فسبق مبارك ابناء اخويه الى ذاك المقام الاعلى ، فتمكن بواسطة بعض رجاله من استمالته اليه ، فكتب رجب الى الاستانة يقول ان الحادث هو من الحوادث العادية المألوفة بين البدو وخير للدولة ان لا تتدخل في الامر لان ذلك يؤدي الى تدخل الانكليز .

ولكن الانكليز لم ينتظروا احداً ليتقدمهم في عمل هم دائماً متأهبون له . فكان ان ابناء جرّاح ومحمد قد لجأوا ايضاً الى قنصل انكلترة في البصره فنصرهم على مبارك ، وسعى في سبيلهم وسبيل السياسة الانكليزية في الخليج سعياً عجيباً اثمر ذاك الأمر النهائي الذي اصدرته الدولة العلية . فخُيِّر ابن صباح الكبير بواحد من ثلاثة امور : اما ان يحضر الى الاستانة فيعينه المابين عضواً في مجلس شورى الدولة ، واما ان يسافر الى البلد الذي يريده فتخصه الحكومة بمعاش دائم ، واما القوة تستخدمها عليه اذا رفض ان يعمل باحد الامرين . ومما لا ريب فيه ان الدولة العلية اصدرت هذا الحكم ارضاءً لدولة بريطانية العظمى . ومما هو في دائرة اليقين ايضاً ان الشيخ مبارك كان قد بدأ يفاوض رئيس الخليج الوكيل السياسي لبريطانية العظمى في ابي شهر . فسمع هذا قصته وشكواه متجاهلاً ما كان من زميله في البصره .

انها لرواية محزنة مضحكة معاً . لجأ اولاد القتيلين اولاً الى حمدي باشا والي البصره . فلجأ القاتل الى رجب باشا والي بغداد . ثم لجأ طالبو الثأر الى قنصل انكلتره في البصره فلجأ مبارك الى وكيلها السياسي على شاطيء العجم . وكانت دولة بريطانية العظمى تمثل بواسطة ممثليها دورين معاً ، دور

المدعي العمومي ودور المحامي عن المدعى عليه .

ضغطت الدولة العثمانية على مبارك فطلب الحماية الانكليزيـة دفاعاً عن نفسه ، فلبت بريطانية العظمى طلبه حباً وكرامة . لا تدع يسراك تعلم بما تفعله يمناك . عندما وصل المركب الحربي العثماني الى الكويت يقل نقيب البصره وبعض موظفي الدولة وهم يحملون الى الشيخ مبارك امرها العالي ويبغون تنفيذه ، جاء مركب حربي اخر ينقـذ الشيخ مبارك ويطرد المركب العثماني من مياه الكويث .

اقف عند هذا الحد في المأساة لاعود الى اولها . قلت ان رجلاً اخر غـير ابناء القتيلين خرج على الشيخ مبارك وقام ينصر اولادهما . وهـذا الرجل هو الشيخ يوسف ال ابرهيم من كبار تجار الكويت واغنائهم . قد كان يوسف بنفسه ثورةً ودولةً وحرباً على مبارك . استمرت عشر سنين . فوقف ثروتـه ووقته وحياته للاخذ بالثأر . اجل ، قد كان هو الباذل للمال ، وهو القائـد للرجال ، وهو رسول قضيته الى الاستانة والى امراء العرب .

اول ما باشره حرباً هو انه جهز اسطولاً من السفن المشحونة بالرجال المسلحين وتولى قيادتـه في الهجوم بغتة على الكويت . ولكن ليلة دنا من الاسكلة رآه احد النوتيين فحمل الخبر الى الشيخ مبارك فاستعد لملاقاتـه وكانت المدينة معه . فلما علم يوسف بان المدينة مستعدة كذلك لمحاربته قفل راجعاً . ولجأ بعد ذلك الى الحيلة والخداع .

جاء ببعض قاطعي الطرق واوعز اليهم ان يأخذوا سفينةً من اسطولـه ويدخلوا بها الكويت فيظنهم الشيخ مبارك من اعـداء يوسف آل ابراهيم فيقربهم منه فيقتلوه . تمت المؤامرة على هذا الوجه ودخل المتآمرون الكويت بسفينة من سفن يوسف آل ابراهيم يدعون انهم غنموها بالمحاربة ، فانطلت الحيلة على الشيخ مبارك ، فقرب الرجال منـه وجعلهم من حرسه الخاص . ولكن قبل ان يغتالوه تاب واحد منهم الى الله وراح يطلع الشيخ مبارك على الدسيسة . فامر الشيخ بالقبض على الرجال هؤلاء وبنفيهم من

البلاد .

لجأ بعد ذلك يوسف آل ابراهيم الى الدولة العلية فسافر الى الاستانة وكان في مسعاه هناك عوناً لسياسة انكلتره في المسئلة او بالحري كانت سياسة انكلتره عوناً له . فصدر ذاك الامر الذي حمل الشيخ مبارك على ان يطلب الحماية الانكليزية . فاسقط ابن آل ابراهيم في يده للمرة الثالثة .

ولكن الفشل وان تعدد لم يكن ليثنيه عن قصده ومرامه . فسعى لدى امير الجبل الامير عبد العزيز بن الرشيد فاغراه على عدوه في الكويت . فشن ابن الرشيد الغارة على عشائرها فبادر الشيخ مبارك الى الدفاع بما عنده من الجيوش . وكانت هذه فاتحة الخير لآل سعود الذين كانوا مقيمين يومئذ في الكويت ، فتطوعوا في حرب اعدائهم بيت الرشيد . جهز الشيخ مبارك جيشاً اولا لعبد العزيز سلطان نجد الحالي ، ثم جيشاً اخر برئاسة اخيه حمود بن صباح ، ثم خرج مبارك بنفسه يقود الجيش الثالث ومعه الامام عبد الرحمن آل فيصل والد السلطان عبد العزيز . فالتقى الفريقان واحتربا احتراباً شديداً في اخر ذي القعدة سنة ١٣١٨هـ ١٩٠٠م في مكان يسمى الصريف فقتل خلق كثير من الفريقين وكان النصر لابن الرشيد .

بعد وقعة الصريف خرج ابن سعود عبد العزيز في نفر قليل من الرجال يبغي استرجاع الرياض عاصمة اجداده التي كانت يومئذ في حوزة ابن الرشيد . فذبح عامله فيها واستولى عليها . وكانت هذه الغزوة فاتحة غزوات وحروب ادهشت العرب في شبه الجزيرة وخارجها . فاعجب العدو والصديق بنبوغ ابن سعود ، بشجاعته واقدامه ، وحكمته وحلمه .

وعند ما بُشر مبارك بفتح الرياض خاف ان يعيد ابن الرشيد الكرة عليه فبعث بنجدة الى عبد العزيز الذي كان قد فاز ايضا بنصرة اهل الرياض ، فخرج منها بجيش عظيم ، وشرع يحارب ليسترجع ملك اجداده . فقُتل الامير عبد العزيز الرشيد في وقعة « روضة المهنّا » في سنة ١٣٢٤ هـ ، وكان قد توفى في السنة السابقة اي سنة ١٣٢٣هـ الشيخ يوسف آل ابراهيم

فاستراح مبارك من عدويه . وأخذ نفوذه يمتد بعد ذلك الى البادية ونجد .

كان الشيخ مبارك في سياسته مثله في حروبه موفقاً منتصراً . فامتد نفوذه الى البصره والمحمره وكانت كلمته مسموعة في ابي شهر . ولكنه مع تلك السياسة وذاك النفوذ لم يكن في اعماله شيء يذكر من النفع العام . فقد بنى مسجدا واحدا وقصوراً عديدة ولكنه لم يهتم بالتعليم ولا ساعد في بناء مدرسة واحدة . اضف الى ذلك انه كان يرهق بالضرائب الرعية والتجار .

اما اتفاقه مع دولة بريطانية العظمى فخلاصته . ان الشيخ مبارك تعهد بان لا يكون للكويت علائق مع حكومة اجنبية غيرها اية كانت ، وهي تعهدت ان تحمي الكويت من كل اعتداء خارجي من البحر وليس من البر ، فلا تتدخل في شؤون العشائر ورؤسائها .

وقد تبع هذا الاتفاق في اب ١٩١٣ م اتفاق بين دولتي تركيه وبريطانية العظمى بخصوص الكويت وقَطَر والبحرين ومسقط وعمان . فتنازلت الدولة العثمانية عن حقوقها في هذه الاساكل كلها ، واخذت الدولة البريطانية على عاتقها انارة الخليج وخفارته .

توفي الشيخ مبارك في محرم سنة ١٣٣٤ هـ شباط سنة ١٩١٥ م فخلفه ابنه جابر الذي لم يحكم غير سنة وشهرين . وكان جابر كريم السجايا يحبه الناس . فقد الغى من ضرائب ابيه المتعددة ، التي يستغرب مثلها حتى في ايام الحرب في تركيه ، ما يتعلق منها بالاملاك . أذ ان مباركاً كان قد فرض ضريبتين باهظتين الواحدة عن كل عقار يباع وهي ثلث المبيع ، والثانية على كل عقار يؤجر وهي ثلث الاجار . وكانت تكرر الضريبتان كل مرة يكرر الاجار او البيع .

اما امارة سالم الذي تولى الحكم بعد وفاة اخيه سنة ١٣٣٥ هـ وحكم مدة الحرب العظمى كلها فقد اشتهرت بامرين ، اي اتساع تجارة الكويت ونكبة الجهرة . في الاول برهان على مقدرته التجارية ، وفي الثاني برهان على ضعفه في سياسة البلاد .

اما التجارة فبالرغم عن الاتفاق والولاء بين انكلتره والكويت ، قد كان

الشيخ سالم يسمح بدخول البضائع التي كانت تصدر من بلاده الى الاتراك في العراق وفي سورية . فاتسعت لذلك التجارة بالرغم عن مأمور الحصار الذى عينته الحكومة البريطانية للمراقبة في الكويت ، وبالرغم عن المال الذي كانت تدفعه لرؤساء العشائر مثل ضاري بن طواله وغيره ليصادروا القوافل في بادية العراق والشام .

كان الشيخ سالم خشن البادرة ، صعب المراس ، متصلب الرأي ، فلا ينتصح ولا يعتدل . وكان فوق ذلك شديد النزعة في الدين اي انه كان يكره الوهابيين والاخوان ولا يتقي . فأدت هذه الخصال فيه الى خلاف بينه وبين سلطان نجد . وكان الخلاف سبب النكبة التي اشرت اليها . ذلك ان بضعة الاف من الاخوان هجموا على الجهره ، فذبحوا مئات من اهلها وقُتل منهم مئات ، وحاصروا الشيخ سالماً في قصره هناك فلم ينجُ الا بحيلة احتال عليهم بها .

تدخل الانكليز فردوا الاخوان عن الكويت . ثم تدخل الشيخ خزعل فارسل احد انجاله مع الشيخ احمد الجابر الذي انتُدب ليفاوض السلطان عبد العزيز بالصلح . فساعدتهم بالمفاوضات الاقدار ، اذ بينما كانوا في الرياض في شتاء ١٣٣٩ هـ ١٩٢١ م توفي الشيخ سالم وانتخب الشيخ احمد الجابر خلفاً له .

ان الوراثة او الانتخاب في آل صباح يكون غالبا باتفاق بين الاسرة والحكومة البريطانية . على ان مباركا رشح ابنه جابراً لولاية العهد دون ان يستشير الانكليز . ثم تولى سالم الحكم لانه يلي جابراً في السن ، ولم يخلُ انتخابه من تدخل الوكيل السياسي ولو في سبيل التحقيق . فقد سأل اعضاء الاسرة والمتوجهين من الاهالي اذا كانوا راضين بالشيخ سالم فاجابوا بالايجاب

اما اذا كان تدخل الوكيل السياسي في الكويت لا يتجاوز المراقبة والاستشارة فهو في غيره من الاقطار العربية ، كما سترى ايها القارىء في البحرين يتجاوزها ، اذا اقتضت السياسة والمصلحة ، الى ما فيه الامر والارهاب .

الفصل الثالث

مشكل الكويت

معمل الشراع — مصنع السفن — العمال والنوتيون يشتغلون — سفن التجارة والغوص — اللؤلؤ — مدينة تجارية — المسابلة — اهل نجد — التجار والبدو — امانة الاعرابي — المسابلة في نظر السلطان عبد العزيز — جمارك نجد — اهل نجد يمتنعون عن المسابلة — المسابلة في نظر المسابلين — طلب السلطان نجد يرفضه حاكم الكويت — الحق مع الكويت — كتاب الى السلطان عبد العزيز اقترح فيه طريقة للتسوية — وفد الكويت في الرياض — كتاب من السلطان : « مسئلة الكويت تحل قريباً حسب رغائب الجميع »

من رواق القصر نشرف على مشهد من مشاهد العمل في الكويت . فان في ساحته الفسيحة المرتكز بها العلم الاحمر وقد كتب عليه « الكويت » تجد دائماً عدداً من الناس جالسين على الارض حول شراع مبسوط . وغالباً تجد ثلاثة او اربعة اشرعة كبيرة والى كل منها عشرة ونيف من النوتيين يشتغلون فيها ، يخيطون جديداً او يصلحون قديماً منها . هوذا معمل الشراع الذي يعيش في ظله اكثر ابناء الكويت .

ودون الساحة اذا ما سرحنا النظر في السيف امامنا نرى السفن والادقال وقد اكتظت واشتبكت بعضها ببعض ، وفيها العمال يصلحون قديماً او يدقون[1] سفينة جديدة . هناك مصنع السفن التي تبحر في الخليج وتوصل حبل التجارة بين الهند والعراق وبين الاساكل العربية والفارسية ، فترسو حيث لا تستطيع المراكب التجارية وتحمل الصادرات والواردات من شاطىء الى اخر باجور لا يستطيع البخار ان يجاري الشراع بها .

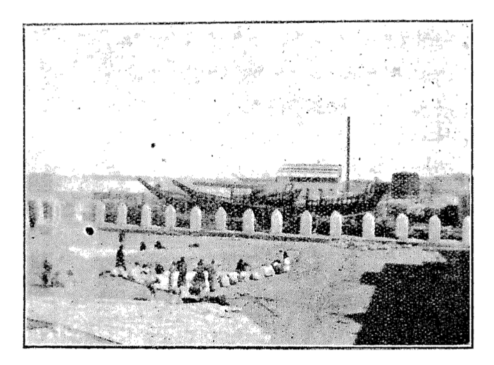
ان سفن الكويت ومراكبها مشهورة بحسن شكلها وجودة صنعها . وهي على انواع ، منها للعبور والتنزه ، ومنها للحمولة ، ومنها للغوص . الكبيرة

---

(١) دق السفينة بناها في اصطلاحهم او استأجر من يبنيها .



مصنع السفن في الكويت



ص ١٦٠ــ١٦١

نوتيون يخيطون الشراع في الكويت

مثل البوم والجلبوت تصنع بالخشب المقَلْفط[١] المطلي بالقار ثم تغشى بالواح من الساج ، وتنقش عرشتها من الخارج نقشاً انيقاً لطيفاً . والبوم التي تدعى ايضاً البغلة هي اكبر السفن واجملها وابعدها ابحارا ، فلا يقل طولها عن الثلاثين ذراعاً وعرضها الاعلى يتراوح بين الثمانية والعشرة الاذرع ، ومحمولها مائتا طن ، وهي تصل في اسفارها حتى الى جزائر مَدَغسكر وزنجبار .

واكثر السفن والمراكب التي نراها في الكويت تستخدم لاستخراج اللؤلؤ في موسم الغوص ، وللتجارة بين الهند والعراق . ولكنها تخرج من الكويت غالباً فارغة وتعود ملأى اليها . وذلك لان الكويت مدينة من مدن اللؤلؤ على الخليج وقلما يقرن اللؤلو بمصدر آخر من مصادر الثروة . هذا مالها تشتري به ما يلزمها من ضرورات المعيشة ونوافلها . ليس في بر الكويت غير المفالي وليس فيها او في جوارها شيء يذكر من النخيل ، فهي تضطر ان تجلب حتى التمر من البصره او من القطيف .

ولكن عندها كما قلت اللؤلؤ الذي تزيد قيمته على قيمة ما تحتاج اليه من مأكول وملبوس . فتشتري بالزيادة للاتجار . وعندها السفن تحمل الى تجارها ما يشاؤون من البنادر القصية ، فضلاً عن البواخر التي تجيئهم بالاحمال الكبيرة من الهند .

الكويت اذن مدينة تجارية . بل هي مثل جيزان او ميدي على البحر الاحمر وان كانت تزيد عليها في عدد السكان عشرة اضعاف ، اذ لا تقوم تجارتها وتنمو بمن فيها فقط . فلو اتكلت الكويت على سكانها وعلى العشائر في باديتها لما كانت تجارتها ربع ما هي او بالحري ربع ما كانت منذ سنتين . اما السبب في سوء حالها في السنتين الاخيرتين[٢] فاذا سألت عنه التجار هناك يجيبونك بكلمة واحدة : المسابلة .

(١) قلفط السفينة او جلفطها هو ان يدخل بين مسامير الالواح وخروزها مشاقة الكتان وقد غمس بالزيت والقار .

(٢) كانت الواردات والصادرات في السنين الماضية تتراوح بين الخمسمائة والستمائة الف روبية كل سنة . اما في السنتين الاخيرتين فهي تقدر بثلاثمائة الف روبية سنويا .

وما هي المسابلة ؟ سأكفيك مؤونة التفتيش في القاموس فقد لا تجدها فيه . المسابلة هي ان يجيء العرب الى المدينة فيسابلون تجارها اي يشترون منهم نسيئة ما يحتاجون اليه من ملبوس ومأكول . وغالباً يجيئون في الصيف فيشترون ما يلزمهم في فصل الشتاء كله ويدفعون ثمنه بعد ان «يصلحوا» مواشيهم اي يربّعوها ويستثمروها في اواخر الربيع .

اما اكثر من يجيئون الى الكويت للمسابلة فهم من نجد من رعايا ابن سعود . يجيئونها ويفضلونها على البصره والزبير لاسباب ثلاثة . اولاً لانها اقرب . ثانياً لانهم يجدون في اسواقها دائماً ما يحتاجون اليه . ثالثاً لان تجارها يتساهلون معهم فلا يتقاضونهم دفع ما عليهم ولو مر على الدين سنتان وثلاث . وهم مع ذلك قلما يخسرون .

واية ضمانة يقدمها البدوي للتاجر . كلمته بالله . فهو اذا غاب عشر سنين وعاد الى الكويت وليس معه غير جمله يجيء به الى التاجر قائلاً : هـذا حلالك . واذا مات الاعرابي قبل أن يفي ما عليه وكان قد نما ماله اي مواشيه يجي احد ابنائه او انسبائه بما يكفي منها لتسديد الدين او بعضه فيقدمه للتاجر قائلاً : هذا حلالك من فلان ترحّم عليه . ذمة الاعرابي !

ان رغبة تجار الكويت في المسابلة اذن لمثل رغبة اهل نجد بل هي اشد لان عرب نجد كما اشرت هم مصدر تجارتهم الاهم . وهم يستطيعون ان يتساهلوا بدفع المال أكثر من سواهم لان رأسمالهم أكبر ، بسبب مدخول الكويت الاخر من تجارة اللؤلؤ .

هذه احدى وجهات المسابلة . وهناك وجهة اخرى هي وجهة السلطان عبد العزيز . ان لسلطنة نجد جمارك ثلاثة في العقير والقطيف وجبيل وهو يفضل طبعاً ان يجلب اهل نجد بضائعهم من احدى هذه الاساكل النجدية في الاحساء او ان يسابلوا فيها خصوصاً في القطيف . ولكن ليس في القطيف تجار ذوو يسار فيستطيعون ان يعاملوا النجدي كما يعامله تاجر الكويت . والسلطان عبد العزيز يدرك ذلك .

ومع ذلك فقد نهى رعاياه منذ سنتين عن المسابلة في الكويت فانتهوا ، فتأثر التجار من ذلك وشرع الشيخ احمد يفاوض في القضيـة السلطان عبد العزيز . اما موقف عظمة السلطان فهو ان رعاياه يشترون من الكويت ويعودون بما يشترون الى نجد دون ان يدفعوا عليه رسما ما . فكأنهم في هذه الطريقة يهربون الأبضعة ليتخلصوا من دفع الرسوم الجمركية . وبما انه لا يستطيع ان يؤسس الجمارك في البادية على حدود نجد والكويت المترامية الاطراف وبما ان لسلطنة نجد مِينَاء فيها جمارك فقد اصدر امره ان تكون المسابلة في احدى هذه الموانى وحقه في ذلك بيّن ، لا مقاطعة فيه . لان المقاطعة تكون بين شعبين متعادين ولا عداء اليوم بين الكويت ونجد .

ولكن هناك وجهة اخرى لهذه القضية وهي وجهة اهل نجد وخصوصاً البدو الذين لا يستطيعون ان يدفعوا نقداً ثمن ما يشترون كما هي الحال غالباً اذا جاءوا القطيف للمسابلة . فهم مثل التجار متأثرون والسلطان عبد العزيز يهتم بشؤون البدو اهتماماً خاصاً ويكره الجور والارهاق . فقد اقترح اكراماً للفريقين المسابلين ، النجديين والتجار الكويتيين ، ان يعين في الكويت وكلاء له يجمعون رسماً على كل ما يشتريه اهل نجد فيدفعونه قبل ان يخرجوا ببضعتهم من المدينة . وطلب ان يكون هذا الرسم سبعة بالمئة . فرفض سمو الشيخ احمد الطلب محتجاً بحق السيادة التي لقطر الكويت المستقل ، اذ ان مثل هذا العمل مجحف بها ، ولا يكون الا اذا اكرهت الكويت عليه فيعد اذ ذاك ضرباً من الاحتلال . هو مصيب في احتجاجه محق برفضه . ولحسن الحظ ان السلطان عبد العزيز والشيخ احمد متحابان متواليان فلا يتخذ الواحد منهما خطة تؤدي الى تراخي العلائق الولائية وانقطاعها .

لذلك بعث السلطان الى الشيخ يقول : نحن لا نقيم احـداً من قبلنـا عندكم ولكننا نوكلكم في الامر فتعينون من قبلكم من يجمع الرسم المطلوب من اهل نجد المسابلين فترسلونه الينا كل ثلاثة اشهر او كل ستة اشهر او كل سنة مرة كما تشاؤون . ولكن الاكثرية في آل صباح لا يقبلون حتى بمثل هذه

التسوية لأنهم كما قال احدهم ليسوا جباة خراج لسلطان نجد.

كانت المفاوضات قد وصلت الى هذا الحد عند ما وصلت الى الكويت ، وكان سمو الشيخ احمد على شيء من القلق لتعقد القضية ثانية بين هو يعالجها بالتؤدة والحكمة. فخطر لي بعد ان مررت بقسم من الارض في تلك النواحي وعرفت الحقيقة الاولى التي تتعلق بالاسفار هناك ، وبعد ان درست المسئلة ورأيت ان ما يطلبه عظمة السلطان عبد العزيز من حكومة الكويت هو في الحقيقة مجحف باستقلالها ، ان اكتب اليه كتاباً اقترح فيه حلاً للمشكل قد يرضي الطرفين.

اما الحقيقة التي تتعلق بالاسفار والتي لا ينكرها العارفون بتلك البلاد فهي ان القوافل الخارجة من الكويت لا تسير الا في طرق معلومة غرباً كانت ام جنوباً فتمر بماء معلوم لتستقي قبل ان تدخل المفازات ، فاما ان تسير عن طريق الجهره مثلاً اذا كانت مسافرة الى القصيم ، واما عن طريق الصُبيحية اذا كانت وجهتها الحسا. وهناك طريق اخرى تمر بخَبرة الدَويش. وعند هذه الاماكن الثلاثة حدود الكويت ونجد.

فكتبت الى عظمة السلطان افصح عن رأيي في المسئلة واطلب منه ان يتنازل لا عن الطلب بالرسوم بل بجمع الرسوم في نفس مدينة الكويت ، واقترحت عليه ، حباً بحفظ الصداقة بينه وبين آل صباح ، ان يقيم ثلاث نقط جمركية في الاماكن المذكورة اعلاه او قربها فيتمكن ولا شك من تحصيل الرسوم على البضاعة التي تدخل من الكويت الى سلطنة نجد. ان هذا العمل لا يكلف غير الخيام ورواتب ستة موظفين وبعض النجابه.

ويظهر ان المسئلة دخلت بعدئذ في طور جديد لان سمو الشيخ احمد باتفاق مع الاهالي بعث ابن عمه حضرة الشيخ عبد الله السالم الى السلطان عبد العزيز يحمل منه كتاباً يفصح عن خالص الولاء والاكرام ومعه هدايا كبيرة من الارز والسكر والبن. فخرج السلطان بحاشيته لاستقبال الشيخ عبد الله خارج الرياض واركبه معه في السيارة وانزله في القصر ضيفاً

كريماً مبجلاً . فاقام هناك بضعة ايام وعاد الى الكويت مسرورا جداً ، يحمل الهدايا الثمينة وشيئاً مما اشتهر به عظمة السلطان من تلك الصراحة المقرونة باللطف والاكرام .

وقد جاءني من عظمته كتاب يقول فيه جواباً على اقتراحي : اما مسئلتنا مع الكويت فهذه تحل قريباً حسب رغائب الجميع وعلى احسن ما يكون ان شاء الله .

الفصل الرابع

الشيخ احمد الجابر آل صباح

الرجل المسالم — القوة المدخرة في اللين — الشيخ احمد في انكلتره — اعجابه بالمدنية الغربية · اما رجال حكومتها ! — مداراته للانكليز — استشارة لا امتثال — امتياز البترول — الشركة التي يفضلها — يحترم رأي الغير — حكمة كل يوم — الكويت بين شاقوفين — اصحاب الدسائس — الحاكم الحكيم — خطة اللين والمسالمة — ثروة الكويت الحقيقية — المدارس — النهضة الادبية — ادباء الكويت وسفنها — رسل العلم والتهذيب ·

لو كان غير الشيخ احمد حاكماً في الازمة الاقتصاديـة التي سبق الكلام عليها لما سلم الامر من حادث عدائي بين البلادين نجد، والكويت . ولو حدث هذا الحادث لما اختلف اثنان في نتيجته . فالفضل اذاً في سلامة الكويت وان كان على ضيق وشدة هو للشيخ احمد ذاك الرجل المسالم اللين الجانب الدمث الاخلاق. ولكنه في لينه بل في المعروف والحسنى يصل الى حد يُساء في الحاكم فهمه . فهو اذا مال الى السلم والولاء ، او الى المهـاودة والوفاق ، لا يشفع ميله بتلك الكلمة التي فيها العزم الرابض او القوة المدَّخرة. وقد يألف العزم الربوض فيتعسر انهاضه وقد تهن القوة من الادخار الدائم . الحكيم اذن من مرن قواه كلها حتى الحيوانية المحضة واستخدمها من حين الى حين . وما يصح في الرجل الحكيم يصح في الحكومات .

الشيخ احمـد مثل الشيخ خزعل ومثل الملك فيصل معجب بالمـدنية الغربية وبرجالها . وهو من امراء العرب الذين لبوا دعوة جلالة الملك جورج الخامس بعد الحرب العظمى ليزوروا انكلتره ، فنزل هناك ضيفاً على الحكومة ، وساح في تلك البلاد ، وشاهد من مظاهر الرقي والعمران المادية والادبية ، من مناجم الفحم الى المتحف البريطاني ، ما لا يزال يلهج بذكره ويود لو كان للعرب جزء يسير منه . ولو لم يكن حاكم الكويت وكانت تلك الرحلة دليله

الوحيد الى المدنية الغربية لاخذ منه الاعجاب كل مأخذ فتغيب عنه الحقيقة كلها او القسم الاهم فيها.

ولكن من حيث انه حاكم عربي يشاهد احياناً في رجال تلك المدنية، خصوصاً رجال الحكومة منهم، ما لا تجيزه احكامها ولا تبرره دائماً مبادئها. فالوكيل السياسي الانكليزي مثلاً صاحب مصلحة مثل غيره من الناس شرقيين كانوا او غربيين. هو لا يختلف عنهم بغير الواسطة والاسلوب والعدة العقلية او المادية. ومتى كان قريباً من امير عربي، وله بالدنو منه ومن شؤونه بعض الحق، يود الامير احياناً لو لم يكن الرجل متمدناً او من امة متمدنة. فيعامله اذ ذاك كما يعامل البدو، بالحسنى اولاً ثم بالعدل والصميل.

الشيخ احمد الجابر آل صباح يداري الانكليز ولا يملّكهم منه. يلين لوكيل بريطانية العظمى في الكويت ولا ينكسر. وقد يستشيره ويقبل رأيه في ما يراه نافعاً لبلاده او معززاً لسياسته، ولكنه لا يأتمر بامره. مثال ذلك ان حكومة بريطانية العظمى رغبت الى الشيخ احمد ان يمنح شركة الزيت في عبّادان امتيازاً في الكويت فابى ذلك لانه يفضل ان يمنح الامتياز شركة اخرى انكليزية مستقلة عن الحكومة ولا دخل لها بالسياسة، وشروطها احسن جداً من شروط شركة عبّادان.

وهو في سلوكه مع رعاياه واسرته مثله في سلوكه مع الانكليز. يستشيرهم ويتفاوض معهم ولا يتبع دائماً الرأي العام. ولكنه لا يزيف ما لا يريد ولا ينعي على الناس اراءهم. لكل كلام مقام، اي ان حكمة كل يوم هي حكمته. وكثيراً ما يكون الرجل العادي في كرسي الحكم انفع لامته وبلاده من الرجل الشاذ الشديد المراس.

لا ينتظر من الشيخ احمد وخصوصاً في هذه الايام ان يخرج بعشائره فيحارب مثل جده مبارك امراء العرب ويدخل البلدان فاتحاً منصوراً. واليك الاسباب. اولا لان الشيخ احمد وان كان يحمل السيف هو اميل الى اليراع واحب اليه السلم والاداب. ثانيا لان عشائره وهي قليلة لا تمكنه

لو قال السيف من ان يقول كذلك النصر . قد تلبيه فُتغلب فتنقلب عليه .
ثالثاً لان الاحوال اليوم هي غيرها منذ خمس عشرة سنة ، فالكويت التي لعبت بولاة الدولة في الشمال ، وحاربت امراء العرب ومشايخ القبائل في القصيم والاحساء اصبحت اليوم بين امتين متحدتين ، وقوتين قاهرتين ، وحكومتين طامعتين بالاستيلاء . الكويت بين نجد والعراق مثل فتاة بين عاشقين كلاهما يبغيها .

حدثني احد رجال الحكومة في بغداد قال : الكويت جزء من العراق واهلها يفضلون الانضمام الينا . اراد بذلك ان الكويت تفضل العراق على نجد اذا كان من ضم وانضمام . فلو لم يكن الشيخ احمد كما وصفت ، لكان ظفر اصحاب الدسائس بما يبغون لان الذين يغرون العشائر خارج هذا القطر فيهجمون عليه او على عشائره لا يرومون من ذلك غير احداث ذاك الحادث الذي قد يكون فيه خاتمة استقلال الكويت الاداري .

والشيخ احمد مدرك ذلك ، فلا يذهب مع التيار ولا يستسلم الى الهياج العام . فهو اذا هجمت عربان نجد او العراق على عشيرة من عشائر الكويت او على المدينة وقام الاهالي يستنفرون بعضهم بعضاً يقف وقد تسلح بالحكمة والعزم في وجوههم فيصدهم ويسكن روعهم . مثال ذلك هجوم ابن حَيْثَلَين شيخ مشايخ العجمان في هذه السنة فبادر اهل الكويت الى السلاح فصدهم الشيخ احمد وردعهم قائلاً : لنفاوض ابن سعود اولاً فهو صديقنا . والذي اظنه انه غير راضٍ عن هذا الاعتداء . فاذعن الناس له وفاوض السلطان عبدالعزيز فجاء منه الجواب يقول انه متأسف جداً لما حدث وانه مستعد ان يعوض على الكويت كل ضرر .

قد يختلف الناس في هذه الخطة السياسية ، خطة اللين والمسالمة . وفي الكويت مَن لا يستحسنها . ولكنهم اذا ما ذكروا سياسة سلف الشيخ احمد ونكبة الجهرة يتيقنون ان في دار الحكم اليوم رجلاً اقل ما يقال فيه انه محافظ على سلامة الكويت واستقلالها .

ومهما كان من امر الكويت ومشاكلها التجارية والسياسية فان فيها غير التجارة ثروة وغير اللؤلؤ كنزاً . فيها ذكاء وجرأة وادب شاهدت منه نماذج جميلة في الحفلات التي اقيمت هناك وفي المجالس .

ومهما كان من منزلة الشيخ احمد في السياسة فانه في المساعي الادبية مذكور وان لم يكن من الجميع مشكوراً . وسيعرف عهده بعهد النهضة الادبية التي تشرف العاملين في سبيلها . اجل ان في الكويت نهضة ادبية لها ركنان، المكتبة الاهلية هناك والمدارس اليومية والليلية ، وهي تتغذى فوق ذلك بما تثمر الاداب العصرية والعلوم الكونية في سورية ومصر . ثم تبث روحها في الربوع التي لا تصل اليها الجريدة والمجلة ، ولا ينفع فيها الكتاب لان ليس فيها اليوم مدارس .

فكما ان سفن الكويت الشراعية تصل الى الاساكل التي لا تدنو منها البواخر الكبيرة، فكذلك ادباء الكويت في اختلاطهم مع البدو واسفارهم في داخل البلاد العربية يستطيعون ان ينشروا روح العلم والتهذيب ، وروح القومية السليمة العامة ، في العشائر والبوادي وفي المدن الكبيرة دون الدهناء والنفود .

الفصل الخامس

الشيخ خزعل

قل مَن لا يعرفه — قل مَن يعرفه — ثروته وكرمه وادبه — ذوقه الشامل — الغواني — الشعراء — الاحبار — اجمل ازاهر الكرم فيه — الكنيسة ومحفل الماسون والراقصة — التساهل في غير القبيح الذميم — ولا يأنف من اللعب — ولا يروعه تعدد النساء في الحريم — « من هي امك يا وليد ؟ » — الزواج السياسي — جاء في الكامل للمبرد — نياشين من الملوك — ومن بابا رومه — ومن الفيلسوف ابيكوروس والشريف الرضي — لماذا ترددت في زيارته — كتابي اليه — جوابه — اجتماعنا — حديث عن اطباء الاسنان — وعن الاخوان — القهوة في مجالس آل صباح — بلية العالم — الرجوع الى الارض بعد الموت — متى يحب ان يرجع الشيخ خزعل .

هو سمو السردار اقدس ، معز السلطنة ، الشيخ خزعل خان بن نصرت الملك الحاج جابر خان الجاسبي المحَيسني الكعبي العامري ، امير نويان وسردار عربستان ومؤلف كتاب الرياض الخزعلية في السياسة الانسانية . قل من لا يعرفه من قراء الصحف العربية باسمه ولقبه الاولين في الاقل . وقل مَن يعرفه معرفة حقيقية . فهو من امراء العرب وان كان يحكم ولاية من ولايات الدولة الايرانية. بل هو اكبرهم بعد الملك حسين سناً ، واسبقهم الى الشهرة ، وقرين اعظمهم في الكرم . هذا ما يعرفه اكثر العارفين ببعض البلاد العربية وامرائها .

واما ما يجهله اكثر الناس خارج الكويت والبصره فهو ان هذا الامير العربي من طراز الامراء في عهد العباسيين . اعني بذلك انه غني حكيم كريم معاً . فهو برمكي في كرمه وفي ذوقه وفي ادبه . يحبّ اللهو والغناء حبه الادب والشعراء . بل يميل الى كل ما فيه شيء من اسباب السرور كلها ، العقلية والاجتماعية والجسدية . وان كلمة قالها معاوية : الدنيا بحذافيرها ، الخفض والدعه . لتصح ان تكون من كلماته .

اجل ان للشيخ خزعل ذوقا انسانياً شاملاً فلاينفر من غير القبيح والذميم في الحياة ، ولا يعرف في مكارمه التفضيل والتمييز ، تجيء المغنية من حلب او الشام الى المحمره وهي لا تملك غير خلخالها فتقيم عـدة اشهر في القصر وتعود غنية مثقلة بالحلي ، يجيء الادباء الشعراء وفي جيوبهم قصائد المديح فيعودون من المحمره وفي جيوبهم اكياس من المال . يجيء حبر من احبار المسيحيين فينزل على سمو السردار ضيفاً كريماً محترماً ويعود مصحوباً بالهدايا الثمينة . ثم يجيء المبشر بالماسونيــة فيحل محل الاسقف في القصر الخزعلي ويعود بعد اقامة سعيدة كما عاد المحترم قبله .

ان من اجمل ازاهر الكرم في هذا العربي تساهله وهو شيعي المذهب . فهو يساعد في بناء كنيسة في بلاده لمنكوبي الكلدان ، ويساعد في تأسيس محفل للماسون ، ويفتح خزنته لراقصة او مغنية كما يفتحها لاولي البر والاحسان من الطوائف كلها جمعاء . وهو على مقامه بل بالرغم من مقامه يميل دائماً الى ما فيه لهو او تسلية او فكاهة . فاذا ما انتابه الضجر في القصر ، وكان قصر الضيافة فارغاً ، ولم يكن ليرغب في زيارة البصرة ليشرف «طاولة البوكر» فيها ، ينادي اولاده قائلاً : ياوُلد الخير تعالوا . الا تلعبون . فيجيء السردار ارفع او السردار اجلّ او السردار جاسم او نصرة الملك او كلهم اجمعون ، فيجلسون مع عظمة الوالد الى تلك الطاولة الخضراء العزيزة الشأن حتى في المحمره والبصره .

والشيخ خزعل من امراء العرب المحافظين على تقاليد الاجداد في التعريس ، ولا سيما شريعة المتعة عند الشيعة تساعده في ذلك . فقد قيل لي ان له اكثر من ستين امرأة وانه قلما يعرف اولادهن . وكثيرا ما يجيئه احـد اولئك الصغار فيسأله قائلاً : ومن هي امك ياوليد؟ ثم اذا ناوأه احد مشايخ القبائل وهمّ بالخروج عليه وكانت له بنت صالحة للنكاح يزوره السردار اقدس ويشرفه بالمصاهرة فتجمد فيه في الحال جذوة التمرد والعصيان . سألت عن سمو الشيخ وانا في البصرة فقيل لي هو متغيب اليوم . فقلت : واين هو؟

فقال محدثي : راح يتزوج . وهو لا يزال على سنه الذي يتجاوز الستين اهلاً لمثل هذه المهمات .

جاء في الكامل للمبرد ان انعم الناس عيشاً من عاش غيره في عيشه . ولا اظن الشيخ خزعل يحتاج الى شهادة المبرّد وشهادتي في انه يعتقد بهـذه الحكمة ويعمل بها . فهو اذا لبس ثوبه الرسمي في صفته السياسية يحمل على صدره شهادات من ملوك الارض وفيها وسام القديس غريغوريوس من البابا بنادكتوس الخامس عشر بابا رومه . وبين تلك الاوسمة والنياشين كلها ارى وسامين لا يراهما كل الناس بل لا يراهما غير من نظر الى هذا الرجل بعين الشعر والفلسفة . فهو في صفته الانسانية يحمل وساما من الفيلسوف اليوناني ابيكوريوس واخر من الشريف الرضي .

ادين بدين الحب كيف توجهت ركائبـه فالحب ديني وايماني

هوذا الامير العربي الذي كنت مترددا في زيارته بالمحمره . وقد ترددت لسببين ، اولهما لان المتأدبين يؤمون تلك السدة الشريفة وفي جيوبهم قصائـد المديح الطنانة . ولست لسوء الحظ ممن يحسنون النظم ولا المديح الرسمي . وثانيهما انـه حاكم بلاد اطلق عليهـا العرب في الماضي الاهواز وهي اليوم عربستان من اعمال فارس . ولكن رغبتي في الاجتماع بامير عرفته من اخباره انه فيلسوف الامراء ، بل فيلسوف الحياة العملية ، كادت تتغلب على اسباب التردد كلها ، فوطنت النفس على ان اعرج على المحمره في عودتي الى البصره . ولكن تقـادير الخير امرضتني فجمعتني بالدكتور ريحان الذي بشرني بوجود سمو الشيخ في الكويت [1].

(١) كان الشيخ مبارك ال صباح والشيخ خزعل صديقين حميمين يتزاوران دائماً فتوفقا الى فكرة جميلة يخلدان بها تلك الصداقة الجميلة . وكان في وسعهما تحقيقها فحققاها ؛ فبنى الشيخ خزعل للشيخ مبارك قصراً في المحمره وبنى الشيخ مبارك للشيخ خزعل قصراً في الكويت . ولكنه كان الى جانب قصره في المدينة فبنى بعدئذ الشيخ خزعل قصراً خارج السور يقيم فيه بعض اشهر الشتاء . وهنالك اليوم قصر للشيخ احمد ال صباح مجهز بالكهرباء والتلفون ومفروش بالفاخر من الرياش

فبادرت الى القلم والورق اكتب اليه كلمة استأذنه بالزيارة . فوقف القلم في رأس الصفحة البيضاء جامحاً . كيف احيي هـذا الامير وهو كثير الالقاب والرتب والاوسمة ؟ بل كيف احيي من يتحدث الناس من عرب وعجم وافرنج عن مكارم اخلاقه وغرر اياديه ؟ هل احذو حذو الادباء فانظم الاسجاع، في من كرمه كالمسك ضواع، ومتفق عليه بالاجماع ؟ فقد يظنها قصيدة مدح مني فيعاملني بما يوجبه شرع المحمرة . لذلك طرحت الرسميات جانباً وكتبت الى مولاي الشيخ خزعل كلمة سلام مقرون بالاجـلال والاكرام ، فجاءني منـه الجواب الآتي :

اسعد الله اوقاتك

ايهـا الفيلسوف المكرم ، حياك الله وابقاك ، وحفظك ونجـاك ، واني مشتاق الى لقياك . فيجب ان ازورك قبل ان تزورني لان لـكل قادم حق الزيارة وقد سبقتني بالجميل في كتابك الكريم ، فاشكر ذاك الذوق السليم . واني صباحاً ان شاء الله ازورك في محل الجميع واحظى بنور تلك الطلعة واختم كتابي بالدعاء لـكم بالتوفيق والسلام عليكم

المحب لكم

خزعل

وكان اجتماعنا الاول في «محل الجميع» اي عند سمو الشيخ احمد في الجناح الجنوبي من القصر في الصاعة المفروشة بالفرش الاوروبي .

الشيخ خزعل في العقد السادس من العمر وهو ، بالرغم عن الطبيبين في معيته ، على جانب متين من الصحة والعافية . الا انه كان يشكو يومئذ من اسنانه ومن الطبيبين معاً .

— سمعت الناس يشكرون اطباء الاسنان في اميركه . وقد قال لنا احـد افاضل الاميركيين ان اطباء الاسنان هناك وباعـة الخيل وسماسرة البورص من طبقة واحدة . فلم نفهم كلامه فهل لك ان تشرحه لنا .

فقلت : اما باعة الخيل فمشهور امرهم يامولاي وهم مثل من يبيعون

المعاليق في حماه فينفخونها قبل ان يزنوها . اما سماسرة البورص فلهم اسم اخر في اميركه فيه اظن الشرح الذي تبغيه. فهم كما يدعونهم هناك اصحاب الدلو الفارغ . اي انهم يتاجرون بلاشيء ، بالهواء . فيبيعون زبائنهم ما لا يملكون من الاسهم . وكذلك الزبائن يبيعون ويشترون . هو ضرب من لعب القمار ، يكثر فيه ما هو محض شر من الاسرار .

— واين وجه الشبه بينهم وبين طبيب الاسنان.

— وجه الشبه في المبدأ يامولاي — المبدأ واحد هو الوهم والاحتراف به . فاذا رحت الى طبيب اسنان تشكو من وجع في ضرس واحد يقول لك بعد الفحص انك جبار لانك لا تشكو الا من ضرس واحد ، وان بقية اضراسك في حالة مفجعة ، ويقنعك بما اوتي من علم ان معالجتها كلها لازمة ولو اقتضى ذلك شهرا من العمل . والا فتمسي بعد اشهر وليس في فمك سن واحد .

فقال الشيخ خزعل : قد اخطأ الاميركيون اذن . فلوكان هذا الرجل عندنا لعددناه من النشالين ؟ فضحك الشيخ احمد وقال : ينشل ما في الفم وما في الكيس . فقال الشيخ خزعل : والحمدلله ان اطباءنا سوريون .

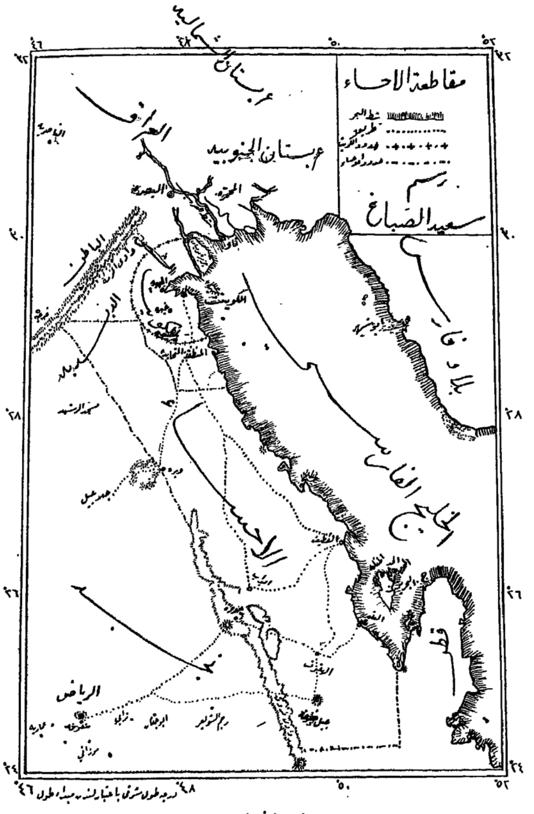
قد كان في معية سمو الشيخ طبيب اخر سوري هو الدكتور رامي . ولكن الطبيبين على ما علمت قلما يصفان من العقاقير غير المنادمة . وهما الصيدليان كذلك فيمزجونها لسيدهم في السمر وحول الغطاء الاخضر المشهور .

جاء الخادم بالقهوة . فعلمت ان مجلس حاكم الكويت الرسمي يختلف عن مجلسه العام بامرين . الاول ان المجلس الرسمي المفروش بالرياش الفاخر لا يحضره غير افراد من حاشيته واسرته . والمجلس العام المفروش بالوسائد والمساند يحضره من يشاء من الناس ، فيجلس في المكان الذي يليق به ولا يتعداه . اما الفرق الاخر فهو في تقديم القهوة . في المجلس الرسمي لا يصيح الخدم ويردد بعضهم صدى بعض . وفي المجلس العام بل في مجالس آل صباح اجمالاً اذا ما امر الشيخ بالقهوة يصيح الخادم في الباب : اقهوَه . فيهتف الخادم

الواقف في الفناء : اي والله اقهوَه ! . فيسمعه الخادم الجالس عند باب المطبخ فيصيح كذلك : اقهوه ! فيؤمن راعي المعاميل على الصياحين اجمعين مردداً كلمة السمر : اي والله اقهوَه . فتجيء القهوة في الحال ، وان كان المطبخ على نصف ساعة من المجلس .

انتقلنا في الحديث من الاسنان الى الاخوان فقال الشيخ احمد : التعصب بلية العرب .

وقال الشيخ خزعل : بل بلية العالم . واو كان لي ان ارجع بعد الموت الى هذه الارض لما احببت ان يكون ذلك الا عندما تصبح ولا أثر فيها للتعصب الديني . الانسان اخو الانسان احب ام كره .



المقياس النسبي انش ١=٤٨ ميل



ص ١٧٦ — ١٧٧

الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفه

القسم السابع

آل خليفة
شيوخ البحرين

البحرين

حدودها : هي جزيرة مستطيلة في خليج فارس وجزيرتان صغيرتان الواحدة شرقاً منها وهي المُحَرَّق والثانية غرباً وهي البِدَيِّع وهذه الجزر قريبة من الخط الواحد والخمسين من العرض الشرقي ويشطرها الخط السادس والعشرين من الطول الشمالي .

مساحتها : اربعمائة وخمسون ميلاً مربعاً .

عدد سكانها : مائتا الف نفس .

اهم بلدانها : المَنامَه والمحرَّق والرِفاع والحَد والبِدَيِّع .

مذاهبها : السنة من المذاهب الاربعة والشيعة : جعفريون واسماعيليون . والوهابية . ثم الهندوس والفرس وبعض اليهود والنصارى .

الفصل الاول

سلسلة من المدهشات

جهلي البحرين — قصور المنامه — الاشرعة والالوان — اسواق المنامه — تجارها وتجارتها — النهضة الادبية — الرسالة الاميركية — المستشفى الاميركي التبشير لا يفيد — حمير الحسا واتُن البحرين — « ما السبب في جمالها ؟ «نطعمها السمك والتمر » — دبابة المستر فورد لا تستطيع ان تباري الحمير — ساعة الزجر هي ساعة التشمير — في مجلس الشيخ عيسى في المحرق — ذنبي في تناول القهوة — ذنبي في الحديث — في بيت الشيخ ابراهيم بن محمد ال خليفة شيخ الادباء والشعراء في البحرين — حدثنا الشيخ ابراهيم عن جمال الدين الافغاني — ومجلة سركيس والمقتطف — اداب السلوك عند العرب — المأدبة والحفلة — كتاب من الشيخ ابراهيم — بعض اقوال الادباء — نهضة البحرين السياسية

ما اخطأت الظن مرة ببلاد عربية مثل خطأي بالبحرين . ومـا دهشت في قطر من الاقطار التي زرتها دهشتي اول يوم في هذه الجزيرة في خليج فارس . ولا غرو فالجهل يجسم الدهشات . قال احد الاصدقاء في الحجاز ، وهو يصف لي الطريق الى نجد : ستسافر من بمباي الى البحرين ومنها في مركب شراعي الى العقير . فظننت البحرين جزيرة صغيرة حقيرة يأوي اليها الصيادون ، وظننت شيوخها من العرب الذين يسكنون الخيام . وكنت حتى عند وصولي اظنهـا معبراً الى الاحساء . وماذا ينفع التظاهر بالعلم اذا فضحك اول عمل بعـد الكلام بل اول كلمة بعد السلام ؟ اما واني امقت الادعاء فلا احاول اخفاء جهلي وهو جهل عام يكاد يشمل كل ادباء العرب خارج شبه الجزيرة . اني اعترف عني وعنهم اذن ، وها اني بعد ان تعلمت وكنت في مـا تعلمت سعيداً اشاركهم في النعمتين .

اول ما يدهش الغريب عنـد وصوله الى البحرين ، خصوصاً اذا كان قادماً من البحر الاحمر ، عمرانُ مدينة المنامه وقصورها المشرفة على البحر . ثم

المراكب الشراعية « الجلابيت »[1] التي تشق من مياه الخليج ازرقاقاً لا صفاء بعد صفائه . ولا حفيف الطف من حفيف هواء الخليج وهو يداعب الشراع ويهمس في اذن الصباح كلمات الامان والترحيب . وانه لينطبع في تلك الاونة من اللونين ، لون الشراع ولون الماء ، صورة في الذهن هي كلوحة السينما في تغييرها المستمر وحركتها الدائمة . ذلك لان مياه البحرين قلما تخلو من « الجلابيت » السارحة المارحة فيها على الدوام . اما البواخر فهي ترسو على اربعة او خمسة اميال من البر .

واذا ما السائح وطىء ارض الجزيرة وجال في اسواقها تأخذه دهشة اخرى اذ يرى فيها للتجارة حركة لا ينبيء حتى ظاهرها بكل ما هناك . وانه ليشاهد في المخازن من الملبوس والمأكول والمشروب ومن اسباب الزينة والترف ما يندر الا في المدن الكبيرة مثل بمباي والقاهرة . اما اذا دخل احد بيوتات التجارة فيستوقف نظره لاول وهلة الدفاتر الضخمة والكتاب . ها هنا وربك ادارة ونظام ، ودواوين يجلس عليها الزائرون لا الزبائن ، فيشربون القهوة ويدختون . هو الشرق في مظهريه القديم والحديث . وفي هذه البيوتات التجارية صناديق من حديد ، واكياس من النقود ، ذهباً وفضة ، وبريد تراعى اوقات سفره وقدومه ، وحسابات ومراسلات ، وليس فيها شيء من البضاعة . وقلما يشاهد فيها حركة غير حركة الكتاب وحركة الزائرين . اما السبب في ذلك فهو بعد ان تعلمه بسيط .

ان البحرين مثل الكويت محطة للتجارة بين الشرق وبين الشطر الشرقي من شبه الجزيرة . ويصح ان يقال فيها من هذا القبيل انها سوق من اسواق نجد . لان قسماً كبيراً مما يدخل اليها من الهند وايران والعراق ومن اوروبه واميركه عن طريق الهند يباع في الاحساء وفي نجد . وانك لترى منه ايضاً في اسواق بريده وعنيزه وحايل . بل يصل منه حتى الى اليمن وعسير والحجاز لان القوافل من تلك الاقطار العربية تجيء عن طرق نجران وقلعة بيشه والخُرمه

(١) جمع جلبوت راجع الشرح في صفحة ٣١ من هذا الجزء

الى الرياض والاحساء . تجيء بين اليمن وحبوبه وتعود حاملة من البضائع ما يدخل الى نجد عن طريق البحرين والكويت .

ولا نزال في سلسلة المدهشات . فان رابع ما يدهشك اذا كنت ممن يهمهم الادب والشعر نهضة في البحرين ادبية اجتماعية مباركة. اجل ، ان في هذه الجزيرة من الادباء والشعراء عدداً ليس بقليل ، وذكاءً ليس بضئيل . ان فيها نهضة تقارن اخواتها في الكويت وفي العراق وتقارنها روحاً وطموحاً في الاقل في سوريه ومصر . كيف لا وهذا ناديها الادبي وفيه من المجلات العربية اكثرها واحسنها ، وهذه غرف القراءة وفيها من الكتب الحديثة والقديمة انفسها ، وهذه المدرسة الابتدائية وفيها يُعلم بعض العلوم التي لا تزال تُعد في اليمن مثلاً من بواعث الكفر والضلال . وفيها من المعلمين المصري والعراقي والنجدي. ان البحرين الآن معبر الى نجد! حبذا المعبر وما فيه من مدهشات التهذيب والعمران.

واليك بخامسة منها . لست كما قد يعلم القاريء ممن يعجبون بالمرسلين ويستحسنون التبشير بالاديان . ولكن في البحرين معهداً اميركياً ديني الاصل طبي وتهذيبي العمل [1] وهو مؤلف من كنيسة يخدمها قسيس ، ومدرسة كانت يوم زرت الجزيرة مقفلة . ومستشفى وصيدلية يديرهما طبيب فاضل وبعض السيدات اللواتي يساعدنه ويبثثن عملاً لا قولاً روح التهذيب والارتقاء في زيارتهن اسيرات الحجاب والحريم .

ولكن هذه الرسالة الاميركية المؤسسة في البحرين والكويت والبصره تستطيع ان تضاعف خيرها وتعممه لو اقلعت عن التبشير بالدين المسيحي وحصرت ما لديها من اسباب البر والحجى في الطبابة وفي التعليم المجرد من حب الهداية الروحية. ذلك لان المسلمين وخصوصا العرب منهم راضون

---

(١) اي الرسالة العربية The Arabian Mission وهي تحت ادارة الرسالة الاجنبية للكنيسة البروتستانية الهولندية في اميركه Board of Foreign Mission of the Dutch Reformed Church of America .

رضى عجيباً بدينهم ولا يرغبون في سواه بديلا . واكثرهم لذلك يبتعدون عن المدارس التي يديرها المرسلون . فلو فرضنا ان في مدرسة الكويت او البحرين ، وهي تجعل من دروسها التوراة ، عشرين تلميذا فان هذا العدد يزداد اضعافاً اذا الغي التعليم الديني او قرئت التوراة في المدرسة كما يُقرأ التاريخ . والمرسلون انفسهم يعلمون ذلك . ان في مدة خمسين سنة لم يتمكنوا من هداية خمسة من المسلمين [1] فما الفائدة من التبشير اذن ؟ حبذا مدارس اميركية لا مفزعات دينية فيها ، تهرّب المسلمين منها .

عفواً ايها القارىء . ليس ما يدهش في الانتقاد ولكن المرسلين في ثباتهم العقيم مدهشون . فلا نزال اذن في الموضوع ومما ادهشني في اليوم الاول من اقامتي في البحرين — وليس فيما اقول غير الجد والاعجاب — تلك الاتن البيضاء التي تفوق حسنا ونشاطا حمير الحسا . ومعلوم — عند العرب — ان حمير الحسا احسن ما في العالم على الاطلاق . حمير الحسا ملوك الحمير . وأتُن البحرين اميرات الاتن . اما السبب في حسنها وسمنها وتدملك ربلاتها ، وفي نشاطها المقرون بالحكمة ، فهو ان اهل البحرين يطعمونها السمك ثم يفكهونها بالتمر . وهو ذا مخزن السمك لا تبادر الى التصليح ايها الاستاذ . فالساحة لا تفيد المعنى . انما المخزن بعينه اريد . وكأنه مخزن قمح او شعير ، ترى فيه السمك الصغير الذي يصنعون منه السردين في اوروبه مركوما كركام الرمل . فهم يجففونه ويبيعونه كذلك بالاكياس .

اما « دبابة » المستر فورد الاميركاني التي تزعج السياح حتى في البادية وفي اقصى زوايا الارض الموحشة ، فهي اليوم من الكماليات في البحرين ولكنها غداً تصبح من المبتذلات المجلجلات شأنها في كل مكان . فيلحق شرها

---

(١) « وكان الشيخ ينهض ويخرج من المجلس عندما افتح موضوع الدين . فسألت السبب في ذلك فقيل لي انه خرج ليدخن . . . اما شيخ صور (صور بلدة على شاطي عمان) فلم يكن ليسمح بالمباحثات الدينية ولا بالحديث عن الدين . وقد قال لي : هذه المباحث لا تفيد فلا العرب يغيرون دينهم ولا انتم تغيرون دينكم »

الدكتور فان بورسم في مجلة « البلاد العربية المنسية » عدد ١٢٢ سنة ١٩٢٢

بتلك الآن الظاهرة العجيبة . الا ان في البحرين صعوبات في السفر لا يصلح لها آلة او انسان . جاءني ذات يوم بعض الادباء يدعونني لزيارة الشيوخ . في المحرّق [1] وكانت ساعة الجزر فلم نستطع الوصول الى الجلبوت الذي كان في البحر الا اذا اخترقنا السبخة حفاة وخضنا المياه حتى الركاب . فركبنا الآن الى الجلبوت وشكرنا الله ان في هذا المضمار لا تباري « الدبابة » الحمار .

ليس كل من يبحرون من المنامة والمحرق او اليهما يركبون الآن ساعة الزجر ، بل ان اكثرهم رجالاً ونساء ، وقد شمروا عن السيقان وعما فوقها في بعض الاحيان ، يخوضون المياه بين الشاطىء والجلابيت وهم يمزحون ويضحكون كانهم يسبحون ويلعبون . لا اظن ان مشهداً من مشاهد الرقص في باريس او من مشاهد السباحة في مياه بيارتز في الصيف يضاهي في العري والبهاء هذا المشهد البحراني وقد رُفع ستاره للشمس والسماء . ولكن مسرحه مسرح الفطرة والسذاجة ، فلا سبيل للهمس ، ولا باب لما ساء من الفكر والايماء . واغرب ما فيه ان النساء المحجبات يشمرن كالرجال . لم اتمالك مرة ان اظهرت دهشتي ، وبيدي آلة التصوير ، اذ رأيت احدى النسوة تنزل من الجلبوت الى المياه وقد شمرت بكرم فضاح ، فقال رفيقي : شيء مألوف . خذ صورتها ولا بأس . فصورت آية النشور ، اما الوجه فمحذور .

نزلنا في المحرّق وسرنا الى قصر الحاكم صاحب السمو الشيخ عيسى بن علي آل خليفة ، فاذا في الزقاق الى اصل الحائط عدد من العربان عاقدون الحبوة ، واذا في الفناء الكبير جمهور اخر لا يقل عن المئة جالسين على مجالس من اللبن والحجر كل يحمل سيفه او عصاه وقد خيم عليهم السكوت كأنهم الاصنام . مشيت في الفناء لا ادري أفي مجلس الحاكم انا او في معبر آخر اليه . ولما وصلت الى وسط تلك الساحة الرهيبة وقف احد الجالسين في الصدر ، وهو شيخ صغير القامة ، قصير اللحية ، طاعن في السن ، فتقدمت اليه وسلمت عليه فاجلسني على مجلس من الحجر الى يمينه . هو الشيخ عيسى بعينه . رحب بي

(١) اي شيوخ ال خليفة وفي البحرين والكويت كما في نجد يطلقون الجمع على الحاكم

ولامني لاني نزلت في المنامة ولم انزل في المحرّق ضيفاً عليه .

ثم امر بالقهوة فجاءت في ابريق من النحاس كبير جميل ، يحمله رجل اسود عمليق ، لابس معطفاً احمر مزركشاً بالقصب ، يتبعه ولد في ثوب رسمي كذلك يحمل الفناجين . وقف الاثنان امام سمو الشيخ وقوف الجندي امام القائد العام فسلما واليد على الرأس ، ثم اخذ صاحب الابريق فنجاناً من الولد فصب فيه وقدمه لمولاه ثم صب ثانية وقدم الفنجان للضيف فتناولته باليد اليسرى دون ان ادرك وقتئذٍ خطأي . ولست ادرى ما حل بي تلك الساعة فكنت في حديثي كما كنت في عملي متعثراً . قل هي سلسلة من المدهشات . وقد كنت هذه المرة مصدرها لا موضوع تأثيرها .

دُهش الشيخ عيسى ولا ريب من فعلتي الاولى . وعند ما شرعت احدثه امام ذاك الجمع الصامت الساكن في موضوع رحلتي نظر الي وفيه شيء اشد من الدهش . وما كدت اذكر امراء العرب وحاجتهم الى التعارف والتفاهم حتى وثب عن المجلس ، فوقف الحضور كلهم مثله بغتة ، وتقدم مني يشير ان اتبعه . مشيت وراءه يصحبنا بعض حاشيته وانا بينهم مثل مذنب يساق الى السجن . وعند ما صرنا في الشارع التفت سمو الشيخ الي وقال : هؤلاء العربان لا يفهمون ، ونحن لا نتكلم في السياسة امامهم . نمشي الى البيت فنتحدث هناك .

مشينا الى بيته الخاص فصعدنا الى غرفة فيه على السطح لا يدنو منها العربان ولا يصل اليها من الرقباء اذن او عين . وكان معنا حفيده الشيخ محمد بن عبدالله واثنان اخران من الاسرة الشريفة . جلسنا وانا لا ازال الوم نفسي على ما بدا مني فقال سموه دون ان يُقصر اللطف في لهجته : تكلم الان ، فجمعت شتات الفكر وافضت في الموضوع وهو منصت يهز برأسه . ثم قال : العرب لا يتحدون . فقلت : وهل تلبون دعوة الملك حسين الى اجتماع يعقد في مكة من اجل البحث في شؤون العرب والاسلام ؟ فاجاب قائلاً : اذا لبي سلطان نجد الدعوة فنحن نلبيها .

وقفناعند هذا الحد في السياسة ورحنا بعد ان ودعنا سموه نزور ابن عمه الشيخ ابراهيم بن محمد المشهور الذي حكم الجزيرة عـدة سنين وكان له والانكليز مواقع سياسية انتهت بنفيه وبوفاته في المنفى كما ساذكر فيما بعد. اما ابنه الشيخ ابراهيم فهو اشد ميلاً الى الادب والشعر منه الى السياسة . بل هو شيخ الادباء والشعراء في البحرين ، ومن خيرة رجالها . تلقى العلم في الحجاز من كبار العلماء وله المام بجُل الفنون . هو رجل عصري في ارائه واحكامه يطالع المجلات العربية ويتتبع الحركة الفكرية والادبية في العالم . ويسعى ، وهو الرئيس الثاني لمجلس المدارس ، في تمهيد السبيل في البحرين الى بعض خيرها .

حدثنا الشيخ ابراهيم في مجلسه عن جمال الدين الافغاني الذي عرج مرة على البحرين قال : لم يكن في تلك الايام من يعرف لجمال الدين مقاماً ولا من يكترث به . حتى انه لم يجد في هذا البلد من يضيفه. هذا منذ ثلاثين سنة. اما اليوم فالفرق كبير بيننا وبينهم في ذاك الزمان . ترانا اليوم نرحب بالعلم ورجاله . وان ادباء البحرين يفتخرون بزيارة الاديب اللبناني الذي قال فيه سركيس . . .

ثم انتقل محدثي من مجلة سركيس الى مجلتي المقتطف والهلال فسرني ثناؤه على اصدقائي البعيدين كما سرني ما اخصني به لانه خلو من المبالغة والمجاملة. وما كدت اقول لنفسي ما احلاه حتى جاءت القهوة وجاءت معها كلمة استفهام طيها التأنيب . قال الشيخ ابراهيم وانا امد يدي الى الساقي : وما السبب في تناولك فنجان القهوة في مجلس الشيوخ باليد اليسرى ؟ قد انتقدوا عليك ذلك . فقلت وانا صادق في عذري : ان في يدي اليمنى وجعاً عصبياً يضطرني في بعض الاحيان الى استعمال اليد اليسرى . فقال فضيلة الشيخ : عذر مقبول وسننشره في البلد دفاعاً عنك ودفعا في ما بعد للانتقاد. فقلت وعسى ان يُعلن العذر بسرعة اعلان الذنب. فضحك فضيلته ومن في المجلس .

قد يدهش القارىء اهتمام عالم لمثل هذه الامور التافهة . ولكنها ليست بتافهـة عند العرب ، وهم اشد شعوب الارض شغفا بالرسميات . فانهم على

اختلاف طبقاتهم يواظبون على اداب الجلوس في المجالس وعلى المائدة اوالى السماط مواظبة الطبقة العالية من الاوروبيين فترى البدوي في مضربه مثل الامير في قصره يحافظ على المقامات ويرعى حقوقها كما انه يحافظ على العادات والتقاليد ويحسن التمييز في ادق خصائصها .

اما امتناع الشيخ ابراهيم عن مشاركة ادباء البحرين في الحفلة التي اقاموها للاديب اللبناني فلا اظنه من هذا الباب . ولو كان المقام السبب في الاحجام لما ترأس الحفلة الشيخ محمد حفيد الشيخ عيسى ولما حضرها غيره من الاسرة الشريفة . ولكن الحقيقة هي ان الشبان الذين اقامو الحفلة ارادوا ان تنحصر بهم فلم يدعوا لها الشيوخ . وكنا قد اجتمعنا حلقة حول السماط في دار الشيخ ابراهيم العامرة كان هو فكرها اللامع فحدثنا في احوال البحرين وتاريخها حديثاً فيه لذة وفائدة . ثم شرفني بكلمة تفصح عن وطنية جلبابها الحكمة وتاجها العلم انقلها الى القارىء مثالاً من نثره وفضله :

حضرة الاستاذ الكريم .

دعاني لكتابة هذه السطور ، والدواعي جمة ، ما يدعو المشتاق لبث اشواق ، والرفيق للتحدث مع رفاق . ومجال القول في الشؤون الانسانية واسع كل يأخذ فيه بحسب امياله ، ومقتضى حاله . واهم ما يتحدث به الاخوان وان تناءت بينهم الاوطان ، هو ما يتواصون به من رفع شأن امتهم بين الامم وتنبيه اذهان خاصتهم الى مطالب عصرهم . واذا نظرنا الى ذلك بعين الاستحسان من وجه عام فلا شك اننا ننظر اليه بعين الوجوب من وجه خاص على من رزق من الاقتدار على الكتابة حظ وافر ، وتفرغ لها بعد ان خاض البحار والقفار ، وفاز بصحبته الكبار والصغار ، وحاز مزية الاختيار . وقدر له قبل ذلك ان يعيش في العالمين القديم والحديث ، ويرى مظاهر الحياة من الفريقين . فلا ريب انه يكون لكلامه التأثير التام في بني امته . فعسى ان لا يحرم ابناء الامة العربية

من اخيهم الامين ما يقوي نهضتهم من اختباراته الثمينة ونصائحه المفيدة. فالرائد لا يكذب اهله، والفاضل لا يمنع فضله. من المخلص

ابراهيم بن محمد آل خليفة

الرائد لا يكذب اهله. ما اجملها كلمة من شيخ ادباء البحرين. وقد ردد صداها الشبان نثراً ونظماً واضافوا اليها كلمات فيها من الحماسة والصراحة ما يجدر بالشباب. واني لا ازال اذكر من كلام الشيخ محمد رئيس النادي الادبي قوله: احمل سلامنا الى جميع اخواننا الناطقين بالضاد وبلغهم اننا قد اخذنا على عاتقنا السعي في تحقيق امنيتنا وهو رفع شأن امتنا عن طريق العلم... واننا مستعدون لمصافحة كل من يمد يده الينا للتعاون والتعاضد والتعارف والتواد.

والشيخ محمد هو ابن الشيخ عبدالله كبير انجال امير البحرين، كبيرهم عقلاً وهمة ووطنية وعزماً. فلا يخلو كلامه من اشارة سياسية.

اما الصراحة كل الصراحة فها كها. ان بين ادباء تلك الجزيرة العربية الجميلة شاباً ورد ادبه بواسطة المجلات العربية الغرب والشرق فاستقى من الموردين فصفت روحه واشتدت لهجته، وما كان في الاثنتين غير صراحة رائدها الصدق ودليلها الحصافة. هو عبدالله بن علي آل زايد، سلك الكهرباء بين الادباء. وكأني به يكمل كلام الرئيس في خطبته تلك الليلة اذ قال:

— قل للغربيين أني زرت مصر والحجاز واليمن والعراق ونجد والبحرين فرأيت في هاته الامصار شعوباً نفضت عنها غبار الكسل واستعدت للعمل، شعوباً تتوق الى مصافحتكم وانتم الاصدقاء والى مصادقتكم وانتم الزملاء. ولكنها لا ترضى بحال من الاحوال ان تكونوا لها بمثابة الاسياد... قل لهم ان الشعب العربي هو استاذكم الاول، ومعلمكم القديم، فلا تقابلوا الاحسان بالاساءة وتجعلوا ثواب ارشاده اطالة استعباده... قوموا لهم بمقام الناصح المحرر، لا الجبار المسيطر. دعوا الزمان الذي كيّفكم يكيّفه، والعوامل التي اعدتكم تعدّه...

هذا من عبدالله بن علي نثر فيه صراحة ، فيها حقيقة، فيها جرأة واخلاص. وقد عم ذلك كله بقصيدة جاء فيها وهو يصف اهل الشرق:

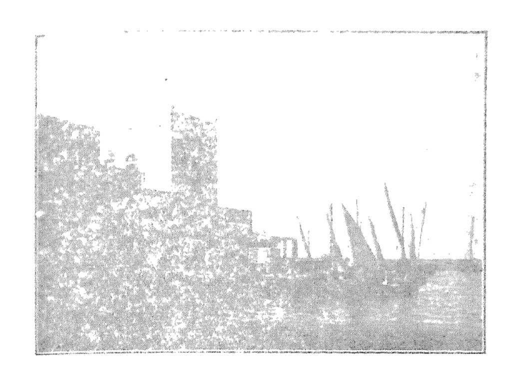
غنيهم بخيل والمداوي عليل والاجانب اولياء

نعم غنيهم بخيل في المشاريع العامة التهذيبية والصحية والمداوي عليل بما في خرجه من عقاقير الخزعبلات والتقاليد السقيمة . فاذا ما اصبح الغني في ما ذكرت كريما ، والمداوي سليماً من سموم الخرافات ، فاكد يا اخي عبد الله بن علي بان الاجانب يصبحون اصدقاء وزملاء .

في البحرين اذن نهضة سياسية هي قرينة النهضة الادبية . أجل ان في البحرين من ينشدون الوحدة العربية ، وفي نادي البحرين من يرفعون النهضتين الى مستوى الفلسفة العالي ومستوى الانسانية الاعلى . فقد ادهشني ايضاً تلك الليلة اديب من ادباء الفرس ، والفرس مهد الفلسفة والحرية الروحية ، في ذكره الشاعرين الصنوين عمر الخيام وابي العلاء المعري . قال محمد صالح الخنجي : اني احب المعري والخيام واني شغف باشعارهما . وقد سرني بنوع خاص ما بلغني من ميلك اليهما وغرامك بافكارهما . . . ان البشر لم يزالوا كما كانوا في ما سلف من الزمان وكما وصفهم المعري الخيام . . . ان الاديان الحنيفة روحها واحد وانما تختلف الشرائع التي تتضمن احكام المرافعات وفصل الخصومات . . . فالاديان بروحها ومغزاها تدعو للاجتماع والاتحاد . . . الشرقيون كلهم عائلة واحدة . . . خلاصهم وسعادتهم في ان يسود النظام بينهم والوفاق والتضامن .

مرحى ، مرحى .

وها قد اطلعت القارىء بالقرائن والامثال على بعض ما يدهش في البحرين — وهناك مدهشات تاريخية وطبيعية سيجيء ذكرها — واسمعته في اصوات الادب والشعر شيئاً من الشكوى والانين . فينبغي لي ان اطلعه اذن على الاسباب . ولكن البحث في احوال البحرين يجيء ناقصاً اذا لم تتقدمه نبذة في تاريخ هذه الجزيرة وفي حالتيها الطبيعية والاقتصادية .



ميناء البحرين



ص ١٨٨ — ١٨٩

بناية الرسالة الاميركية في البحرين

الفصل الثاني

مهد الحضارة والشراع

اصل الفينيين — شهادة التاريخ — مدافن البحرين — آثار فينيقية — قائد من قواد الاسكندر يزور بلدا فينيقياً في خليج العجم — صور وجبيل هناك — العرب والفينيقيون من اصل واحد — «عشاق أليم واسياد الشراع» — التجارة الجديدة — لؤلؤ البحرين — كمية ما يستخرج من الخليج — ما هي اللؤلؤة — كيف تنشأ في المحار — رأي العلماء ورأي القزويني — الغوص والقبص — اصطلاحات هذه الحرفة — كيف يقسم مجموع اللؤلؤ بعد الغوص — تجار اللؤلؤ — اخطار الغوص — الدول — السبب في حسن لؤلؤ البحرين — عجائب الطبيعة وعجائب القزويني — الماء العذب تحت الماء المالح — تحدر الارض من نجد الى الاحساء — اهل البحرين يشربون من مياه العارض واليمامة

قال بعض المؤرخين ان خليج العجم هو مهد الحضارة بل مهد الجنس البشري، وان سكانه الاقدمين اي سكان الجزر فيه هم اول من رفعوا شراعاً في البحار ، واقتحموا اخطار الاسفار، فمارسوا الملاحة واتقنوا علمها، وكانوا الصلة العاملة بين الشرق والغرب . وقال آخرون ان الفنيقيين هم من هذه الديار العربية . فقد جاء في بعض كتابات المصريين القديمة ذكر البُنْط Pount وهو اسم الفينيقيين قبل ان يحتلوا بلاد الشام .« والظاهر انهم من اصل عربي فقد نقلت التقاليد القديمة انهم ظعنوا من الديار المجاورة لخليج فارس الى سواحل البحر المتوسط »[١]

وقد جاء في التاريخ القديم تأليف رولنسون الانكليزي، وهو يسند كلامه الى اصح الثقات مثل هيرودوط واسترابون : ان اقدم الدول الاسيوية تأسست عند فم الخليج العجمي[٢] ويخبرنا الأثريون بان القرنة اي البلدة الكائنة على ملتقى دجله والفرات اليوم هي المكان السعيد العالي الذي

(١) لغة العرب الجزء الثاني صفحة ٢٧

(٢) موجز التاريخ القديم تأليف جورج رولنسون صفحة ٢٨ و ٣٨ Ancient History by George Rawlinson

سقط منه الابوان الكريمان — هي جنة عدن ، او كانت. ولا تزال شجرة الخير والشر خائمة فيها—ومثمرة— حتى اليوم.

ان علماء التاريخ وعلماء الآثار اذن متفقون مع الانبياء . على انه مهما كان امر الاساطير وبعدها عن الحقائق الطبيعية والتاريخية ، او قربها من تلك الحقائق ، فمن المعقول ان الفنيقيين ، وهم من الشعوب الشرقية السامية ومن رجال البحار الاولين ، نشأوا في جوار الخليج او فيه ، وكانت اسفارهم في البداية بين الهند والشام ومصر ، ثم ظعنوا الى سواحل سورية وخاضوا البحر الابيض فوصلوا الى قادش وبلاد الغال واصبحوا في تلك الايام الصلة التجارية الوحيدة بين الشرق والغرب الاقصى.

ومما قاله رولنسون انهم كانوا يسافرون من ارواد ببلوس براً الى الخليج العجمي فيبحرون منه الى الهند وسيلان ثم يعودون وهم يحملون الذهب من اوفير (١) كأنهم بعد ظعنهم غرباً الى سورية كانوا يعودون الى بلاد هي بلادهم وقد توارثوا علومها مع علم الملاحة بعضهم عن بعض ، ولا عجب اذا كان الخليج وجواره منشأ الفنيقيين ومطلع انوار المدنية الاولى ، فان ابناء هذه الربوع هم الذين مصروا ارض الكلدانيين وشيدوا قصور بابل وآشور.

ومن المؤرخين من يقول ان الصينيين كذلك نشأوا في جوار الخليج وظعنوا شرقاً الى البلاد التي هي اليوم بلادهم . ولكننا وان عدنا مع علماء التاريخ خمسة آلاف سنة فلا يلزم ، وموضوعنا البحرين ، ان نعود الى الاساطير قبل ذاك العهد او بعده . ان في جزيرة البحرين نفسها ما يثبت رأي رولنسون بل رأي هرودوط واسترابون ، في اصل الفنيقيين . ان في الجزيرة اثراً تاريخياً قديماً لم يكشف بعد كل سره.

ركبنا ذات يوم السيارة وسرنا من المنامه جنوباً فمررنا بارض ظل نخيلها

---

(١) اوفير هي البلاد الشرقية التي اشتهرت قديما بكثرة نضارها . وقد اختلف المؤرخون في موقعها فنهم من قال انها كانت على الشاطيء الهندي قبال عمان ومنهم من قال انها في افريقية الشرقية

ظليل ومياهها الجارية في القني غزيرة، ثم بخرائب قديمة عربية ، ثم بغابات وآكام افضت بنا الى ارض تقفر تارة وطوراً تزدهي اخضرارا، حتى اذ اجتزنا بضعة اميال وصلنا الى قرية علي فانكشف امامنا مشهد غريب عجيب خصوصاً وهو في جزيرة صغيرة مجهولة كالبحرين . تلال او اطلال تظنهـا لاول وهلة آثار مدينة قديمة . ولكنها آكام هرمية اصطناعية قائمة في سهل فسيح بل في قفر سبسب بين المنامة والرفاع يدعى المراقيب .

هي مدافن البحرين وقد نبت فيها العوسج والقيصوم . هي مدينة الاموات في كف الزمان، وفيها احياء كالمدينة متفرقة متعددة . وفي كل حي مئات من القبور . مدينة دارسة لا يعرف لها تاريخ. كأن سكانها خلقوا وماتوا قبل ان يكتشف الانسان للقراءة سلماً وللكتابة مسماراً .

صعدنا الى رأس اكمة علوها زهاء خمسين قدماً ثم نزلنا الى جهة منها فيها أثر البناء — باب كبير وعضادة ونصف عضادة وعتبـة امست اسكفة تحت الاقدام . دخلنا فاذا نحن في بيت فيه غرفتان بنيتا بالحجارة الضخمة الواحدة فوق الاخرى . ويظهر ان الاموات كانوا يدفنون في هـذه الغرف واقفين او جالسين . او ان هذه القبور العالية كانت لامراء الجزيرة واعيانهـا . وهي تختلف علواً ولكنها لا تنقص عن الثلاثين ولا تزيد على الخمسين قدماً . ولكن شكل الغرف والمعابر فيها واحد لا يتغير وكلها في جوار قرية علي . اما المقبرة الفسيحة الارجاء ؛ المقبرة العامة على ما اظن ، فتمتد اميالاً في جهتي الشرق والجنوب وفيها من القبور ما يزيد على الستة الاف قبر يتراوح علوها بين الخمسة والعشرة اقـدام هي من اكبر مدافن الشرق ولا يبعـد ان تكون أقدمها عهداً .

ومع ذلك لم يهتم لها علماء الآثار والتاريخ اهتمامهم لغيرها . وقـد يكون السبب في ذلك خمول ذكر الجزيرة عند عامة الناس وبعدهـا عن جادات السياح المألوفة . بيد ان رجلاً انكليزياً اسمه دوران[١] جاء الى البحرين

(١) Capt. Durand

سنة ١٨٧٩ م وكان اول من فتح مدفناً من تلك المدافن على ما اعلم وباشر الحفر والتنقيب . ومما وجده غير عظام الانسان قطع من عظام الخيل وشقف من الفخار وآنية من العاج وسجف وستائر بالية ، واخشاب نخرها السوس والديدان. ولا يذكر هذا السائح انه عثر على كتابة او صورة محفورة في تلك القبور .

ثم جاء في سنة ١٨٨٩ سائح انكليزي اخر هو ثيودور بنْت[1] وامعن بالتحري والتنقيب فعثر على آثار صناعية بعث بشيء منها الى المتحف البريطاني فدرستها لجنة المتحف وقالت انها فينيقية الاصل . فاثبتت في ذلك رأي المؤرخ روَلنسون الذي مر ذكره . واثبتت ضمناً ان هذه القبور قديمة جداً لان هجرة الفينيقيين من هذه الجزيرة الى البحر المتوسط هو منـذ خمسة الاف سنة كما يرتئي المؤرخ رولنسون . والدليل الاخر على قدم عهد هذه المدافن هو ان لا اثر فيها على اهميتها للكتابة او للتصوير الرمزي .

وعند التاريخ برهان آخر على فينيقية البحرين . فقد كتب احـد القواد المقدونيين عندما جاء الى خليج العجم من قبل الاسكنـدر مستقصياً طريق الهند انه زار مدينة فينيقية على الساحل الغربي من الخليج ثم جزيرة تدعى نيرين وهي على ما يظهر دارين العرب . ولا تزال قربها اليوم اسكلة بحريـة تدعى جبيل . وادهش من ذلك ان على شاطيء عمان الشرقي بلدة كبيرة اسمها صور سكانها عشرة الاف واكثرهم نوتيون عندهم مائة سفينة كبيرة والفان من السفن الصغيرة تسافر الى الهند والبصرة وبورت سعيد . وصور هذه من المدن القديمة ، وقد كانت في الماضي ، مثل صور الشهيرة على البحر المتوسط ، محطة تجارية بين الهند وبلاد بابل .

هاك ادلة التاريخ والآثار والديار التي لا تزال عـامرة على ان الفينيقيين ظعنوا من خليج العجم بل بلاد العرب الشرقية الى البحر المتوسط . واذا كان يريب القارىء شيء من ذلك فلا مجال على ما اظن للريب في احد امرين: اما ان الفينيقيين من اصل عربي مثل العرب ، وهم ساميون ، واما ان العرب

(١) Theodore Bent

من اصل فينيقي . فاذا صحت رواية رولنسون ثبتت القضية الاولى واذا صحت رواية قائد الاسكندر ثبتت القضية الثانية . واذا كان لا ريب في الروايتين فمنشأ الفينيقيين ومعادهم كلاهما في هذه الجزر وهذا الساحل العربي من الخليج .

ولا فرق عندي في كل حال اذا كان العرب الاصل او الفرع . فاذا كانوا الاصل فرحباً بالفنيقيين ابنائهم ، واذا كانوا الفرع فرحباً بالمتحدرين من الفنيقيين . لست من الذين يتلذذون بتعليل النور ، وتحليل روائح البخور . وان ما اتيقنه هو ان بين الشعبين العربي والفنيقي صلة جوهرية قد لا ترى ولكنها لا تنكر . بل هي ترى في سنة الوراثة وادلة الحياة في الحال . اليها اذن اعود بالقاريء .

ان اهل البحرين مثل اهل الكويت بل مثل كل العرب الساكنين على سواحل الخليج لا يزالون من عشاق اليم واسياد الشراع . بل هم اليوم الملاحون السائدون في الخليج وفي البحر الاحمر هذا اذا استثنينا السفن البخارية . اجل ، ان العرب اليوم مثل الفنيقيين قديماً قابضون على زمام الملاحة ، رافعون فوق ساري الجد علم الشجاعة والاقدام . الا انهم اكتشفوا من مصادر الرزق والثروة غير نقل الابضعة والمتاجرة في الامصار البعيدة . فقد اعتاضوا عن التنك والزجاج بالخفيف النفيس ، باثمن ما يستخرج من اعماق البحار .

لا اعرف من تاريخ اللؤلؤ غير شيء من حياته الطبيعية . اما اكتشافه واول من تاجر به من الرجال ، واول من اغرى به امرأة . واول من تحلى به من النساء فتلك امور اجهلها . وقد يكون فاتني ما قاله المؤرخون في اول من فتح صدفة واستخرج الدرة منها ، وما قاله الاثريون والروائيون في اول من صاغها واستغوى الغواني بها . قد جاء في التاريخ القديم ذكر ذهب اوفير ولم يذكر على حد علمي لؤلؤ خليج العجم الذي هو مهد الحضارة والشراع ومهد تلك الصدفة التي يكمن فيها المال والجمال .

ان اللؤلؤ مصدر الثروة الاكبر في البحرين واشهر ما اشتهرت به الجزيرة. وقد قدر ما يخرج منها سنوياً بثلاثين مليون روبيه اي مليونين ليرة انكليزية [1] وقد اجمع الاخصائيون ان مغاص البحرين هو اكبر مغاص في العالم مثلما اجمع الصاغة ان لؤلؤ البحرين يفوق صفاءً وحسنا سائر اللآلي . ولا بأس ونحن في الموضوع من الالمام بسيرة حياة هذه المخلوقة العزيزة الغالية . وان ما اورده الآن هو من كتب العلم والخبراء لا من دواوين الشعر والشعراء

اللؤلؤة بنت المحار . بيتها الصدفة وبيت الصدفة البحر على الدوام لولا يد الانسان . وعرب البحر الاحمر يقسمون المحار الى قسمين ، الصدف وهو الكبير والبَلْبيل وهو صغير الصدف . اما اللؤلؤ فيندر في الاول ويغلب وجوده في الثاني ، وهم اذا استخرجوا الدرة من البلبيل يرمون بصدفتها ولكنهم يحتفظون بالصدف الكبير فيتجرون به . وقد قيل لي ان قيمة ما يصدر من الصدف واللؤلؤ من البحر الاحمر لا تتجاوز المليون روبية لان مغاص اللؤلؤ فيه قليلة صغيرة .

اما قصة الصدفة فهاكها بالايجاز . هي في يوم الولادة تلقي بيضها الاصفر على وجه الارض في قعر البحر . وهو مثل حب الخشخاش يتجمع حُفَنا فيتلون منها القعر ، ثم تنشأ البيضة فتغدو كحبة العدس ، فينبت لها عروق خضراء براقة مائلة الى الازرقاق ، فتنمو العروق حتى تصير كالانامل طولاً وهي دقيقة كالشعر ، شديدة كحبل من مسد . وعند ما تنمو عروق الصدفة ترسب فتثبت في مكان صلب من القعر . ومنها ما تطفو فتتحرك بحركة البحر وتتفرق بعضها عن بعض ، وتظل تتدحرج حتى تلقى صخراً او شجرة او مكاناً

(١) وقدّر ما يخرج من الكويت بقيمة ثمان ملايين روبية ، ومن القطيف باربعة ملايين ومن جبيل بستمائة الف روبية ، ومن عمان بخمسة عشر مليون ، ومن لنجه وقيس بمليون ونصف فيكون المجموع من الخليج سبعين مليون روبية منها مليون ونصف من جزيرتي لنجه وقيس وهما قرب الساحل العجمي الجنوبي · قد يكون فى هذه الارقام بعض المبالغة ولكنها لا تقل عن ثلاثة ارباع القيمة المذكورة · وقد اخبرني العارفون بان مغاص اللؤلؤ يمتد من دُبَيْ في عمان الى راس المِشْعاب جنوبي الكويت وكله في الجانب الغربي اي العربي من الخليج ·

صلباً من القعر تدق اوتادها فيه ، تمكن عروقها منه . وهي لا تأخذ بالنمو الا بعد ان تنتهي من الدوران ، وتثبت في مكان . فتفتح اذ ذاك فمها اي صدفتها للغذاء وجلها من الطين . اما ما قيل بان المحار يصعد الى سطح البحر وقت الشتاء ليشرب الماء القراح فالخطأ فيه لا يحتاج الى برهان ، وقد اتضح مما تقدم انه يعيش ملتصقاً بالصخور او بالارض الصلبة .

كأني بالقارىء يقول : وعدتنا بترجمة اللؤلؤة فجئتنا بقصة المحار . ولكنني قلت ان اللؤلؤة بنت المحار ، وفي القول من الشعر اكثر ما فيه من العلم . اما الحقيقة العارية الباردة المؤلمة فهي ان اللؤلؤ بنت مرض يصيب المحار ، او بالحري نتيجة خلل يعتري نظام الافراز فيها . والذي يظنه علماء الحيوان هو ان حبة رمل او بيضة او حشرة تدخل مع الغذاء فتتهيج منها اغشية المحار فينتج عن ذلك افراز غير طبيعي يتكون منه كتلة كلسية لماعة هي اللؤلؤة [1] واذا جاءت الكتلة هذه متوسطة في اللحم كانت نفيسة ، وان لامست او قاربت الصدف كانت رديئة .

وفي سبيل هذه الكتلة الكلسية يفادي الكثيرون من رجال الغوص بصحتهم وبارواحهم . فاكثرهم يرعفون حينما يرفعون الى وجه البحر ، ومنهم من يصابون بداء الرئة . ذلك لان الغوص يلزمه مع الجرأة والخفة نفس طويل . والنفس اذا طال تعبت به الرئتان ، واذا طال تحت الماء جاء فوق الامساك ضغط تتفجر منه في بعض الناس الشرايين .

اما موسم الغوص فهو « من اول برج الثور الى اوائل برج الميزان » [2]

(١) اما رأي علماء العرب فصاحب كتاب عجائب المخلوقات اجدرهم بالذكر . قال القزويني في الجزء الاول من كتابه صفحتي ١٩٩ و ٢٠٠ على هامش كتاب حياة الحيوان للدميري : أن الرياح وقت الربيع تحمل الى بحر فارس رشاشات من بحر اوقاس وفيه ماء شبيه بالزئبق لزج مثل الغراء فيتولد منه الدر بان تقع تلك الرشاشات في محل الصدف فيلقمه الصدف كما يلقم الرحم المني . فربما وقعت فيه قطرة كبيرة فتنعقد دراً كبيراً ، وربما تقع رشاشات فتنعقد منها اجزاء صغار كما ترى في اكثر الاصداف . هذا راي القزويني وليس فيه شيء من العلم او من الشعر .

(٢) برج الثور وبرج الميزان يشتملان في دورتيهما على الاشهر التي تعرف عندنا باشهر الربيع والصيف ، اي من ايار الى ايلول .

كما يقول الشيخ النبهاني[١] الذي يعود الى الافلاك مثل كل اعرابي ليحدد الازمنة . وقد اخبرنا في كتابه انه «اورد صفة الغوص» وان كانت معلومة لانه أطلع على رحلة ابن بطوطه فرآه يصف مغاص الجواهر بخلاف ما يشاهد في هذا الزمان .

السفن التي تستخدم اليوم للغوص هي على نوعين السنبوك والجلبوت[٢] وكانت في الماضي انواعاً شتى كالبغلة والبقّارة وكلها شراعية . واهل الغوص يعبرون عن مجموع السفن بالخشب ويسمون ابتداء الموسم الرّكبه وانتهاءه القفّال . ويدعون اللؤلؤ قماشاً والجواهر دانات .

وفي البحرين يباشر صغار الغاصة العمل قبل ابتداء الموسم فيجيئون في فصل الشتاء الى ساحل البحر ويغوصون في عمق ذراع او يزيد يلتقطون ما يجدونه من الصدف . وهؤلاء يسمون «المجنّي» . فاذا ابحروا وغابوا يومين او ثلاثة يسمونهم «العزاب» لعزوبهم اي بعدهم عن المدينة . وهناك صنف اخر هم «الخانجيّه» اي الذين يتجهزون لغيبة اسبوعين في الغوص او ثلاثة اسابيع . ثم يتأهب اهل البحرين للغوص العام اذا مضى النصف الاول من برج الثور ، ويقفلون راجعين اذا دخل برج الميزان ، فيبيعون ما يغنمون من البحر ويتقاسمون .

ولمن يشتغلون في الغوص اسماء يعرفون بها . فيدعى كبير السفينة «ناخوذاه» والذي يغوص «الغَيص» والذي يجر حبال الغَيْص «السيْب» والمساعد لهم «الرّظيف» ثم الخادم التلميذ وهو «التبّاب» وهؤلاء والبحريه يخرجون في جلبوت مزود بالزاد والماء الى مكان من امكنة الغوص المعروفة التي يبعد ابعدها ثلاثين ميلاً عن البر ، ويتراوح الغمق الذي يغوصون فيه بين ثلاثة ابواع واربعة عشر باعاً . يسيرون الى موارد الخطر والثروة وهم يغنون

(١) قد قرات في وصف الغوص ما كتبه الشيخ خليفه بن محمد النبهان وهو ينطبق على ما سمعته من الثقات فلخصت بعضه لأ في الموضوع حقه .

(٢) راجع الشرح في صفحة ٣١ من هذا الجزء

او يرددون بعض الايات انغاماً ساحرة . يسيرون في ظـل الشراع مطمئنين ، واذ اشتدت الريح فيجاهدونها في سبيل الدر و الحياة . — توكلنا على الله ... صلّ على النبي ...

وها هم في مكان الغوص ، وقـد طوي الشراع ورسا الجلبوت . هـات الفطام[1] ياسيب . هات الحديد[2] يارظيف . هات الدَّيِّين[3] ياتَياب . وهوذا الغيص وقـد وضع الفطام في انفه ، والحديد في رجله ، والدَّيِّين في عنقه ، ثم يمسك نفسه وقد حجب وجهه بكفيه ويطيح . توكلنا على الله! صوت موجة تتقلقل فتتكون حلقات ، فتكبر ، فتتفكك ، فتتلاشى . راح تحتها الغَيْص يبغي الجواهر في المحار .

وهو حالما يصل الى القعر يفتح عينيه وينزع من رجله الحديد او الحجر فيرفعه السيْب بالزَّيْبَل[4] الى السفينة . ومنهم من يلبس قفازاً من جلد ثم يشرع يمشي على يديه ، ورجلاه مرفوعتان والجدا[5] بين ابهاميها ، وهو يلتقط الصدف ويضعها في الزنبيل : فاذا ضاق ذرعه او امتلأ زنبيله جـذب الجدا اي حبل الزنبيل فيصيح السيْب : «نَبَر»[6] وهو يسحب بالحبل والغيص متمسك به . فاذا اصار على وجه الماء نزع الفطام من انفه وتنفس بينما السيْب يفرغ الزنبيل في وسط السفينة، ويدفعه اليه فيعود الى الغوص . وهكذا الى ان ينتهي النهار . وهم يسمون المرة الواحدة من النزول والصعود «تبّه» وهي لا تقل عن الدقيقة ولا تزيد على العشر دقائق اي مقدار ما يستطيع ان يستمر

---

(١) الفِطام مثل القراض مصنوع من قرن الوعل او من عظم السلحفاة يجعله الغيْص في انفه ليمنع النفس .

(٢) وقد يكون حجراً او رصاصاً يتراوح وزنه بين الاثني عشر والخمسة عشر رطلا يجعله الغيص في احدى رجليه ليسرع به الى قعر البحر

(٣) الدّيِين زنبيل من حبال الليف مشبكاً مثل الغربال الا انه واسع الخروق .

(٤) الزّبيل حبل مربوط به الحجر ومتصل بالسفينة .

(٥) الجدا حبل اخر مربوط به الزنبيل . والاثنان يتولاهما السيب

(٦) « نبر » كلمة يرددونها عندما يجذب الغيص الحبل برجله اي يطلب من رفاقه بهذه الاشارة ان يرجعوه الى وجه الماء

الغيص تحت المياه . وبعد انتهاء الغوص كل يوم عند الغروب او قبله يفلقون الصدف ويخرجون ما يجدونه من اللؤلؤ فيها . اما اذا فرغ زادهم او ماؤهم فيأتون الى البر ليتزودوا ويعودون الى العمل حتى انتهاء فصل الصيف .

الناخوذاه هو مدير العمل فيجمع اللؤلؤ كله ويتولى بيعه ، فياخذ من مجموع قيمته الخمس ويقسم الاربعة اخماس بين رجاله بعد ان يحسم من قسمة كل واحد قيمة زاده ، فيعطي الغيص نصف قيمة الاربعة اخماس والرظيف ثلثا الباقي والسيْب الثلث الاخر . اما التبّاب فليس له غير اكله وفائدة التمّرين على الغوص . هؤلاء هم الغاصة اي الذين يستخرجون اللؤلؤ بانفسهم وعلى حسابهم .

اما الذين يغوصون لحساب غيرهم فهم يستأجرون السفن ومنهم من يستدين المال . والذي يكري السفن ويقرض المال يأخذ خمس قيمة اللؤلؤ الذي يجمعونه ، ثم نصف الخمس اجرة السفينة ، ثم نصف خمس اخر فائدة المال . وهم اي الغاصة يتقاسمون الثلاثة اخماس الباقية بحسب القاعدة التي مر ذكرها . اما اولئك الذين يكترون السفن فقط فلا يدفعون غير نصف خمس اللؤلؤ اجرة السفينة . لكن الغالب في الطريقتين الطريقة الاولى اي التي ينال بها صاحب السفن والمال خمسي قيمة اللؤلؤ المجموع .

وهناك تجار اللؤلؤ واكبرهم في البحرين . فهم يبيعون ما لديهم منه في الجزيرة من تجار اوروبيين ومن البنيان الذين يجيئونها في الموسم لهذه الغاية . او انهم يسافرون به الى بمباي فيبيعونه هناك . ومن هؤلاء التجار من يسمون « الطواويش » وهم الذين يخرجون الى محل الغوص ويشترون من النواخذه بعض الجواهر ، فيدفعون ثمنها اما نقدا واما تمراً وزادا . والنواخذه يفضلون الزاد في بعض الاحايين لانه يكفيهم مؤونة الرجوع الى البر للتموين .

اشرت في ما اسلفت الى اخطار الغوص والى صفاء لؤلؤ البحرين وحسنه . فعلي اذن ، قبل ان انتقل من الموضوع ، ان الحق الاشارة بكلمة

ايضاح وجيزة . قلت ان من الغواصين من يصابون بداء الرئتين واكثرهم حينما يخرجون من الغوص يرعفون . وقلما يهمهم ذلك . فهم لا يخافون الا من الدَّوْل عدوهم الاكبر، وما هو الدول؟ عدت الى الدميري والقزويني فلم اعثر في بحر علومهما على الدول . ولا جاء ذكره عرضاً حتى في الكلام على اعجب المخلوقات . في كل حال، اني ، وان ذكرت ما قاله القزويني في الصدف وتكوين الدر ، اميل الى سواه من الثقات وخصوصاً اذا كانوا من هذا الزمان . لذلك افسح للشيخ خليفه بن محمد النبهاني الذي خبر الغوص بنفسه ورأى بام عينه الدول . قال وقاه الله شره :

الدول حيوان هلامي لا يهتدي في سيره لجهة ، وانما تقذفه الامواج على وجه البحر . وهو بقدر الكف فاصغر ، مدور له خيوط طوال نحو ذراع فاطول ، كانه حرير مشتبك . فاذا لامس هذا الحيوان جسم ابن آدم احرقه حرقا مبرحا . وربما اعاب الموضع الذي لامسه ولو رفع هذا الحيوان من الماء واصابته حرارة الشمس مقدار خمس دقائق لذاب وتحلل ماءً ولم يبق له اثر . . .
اهل الغوص يلبسون ثياباً ضيقة ملامسة للجسم اتقاء شره . ويوجد كذلك نوع اخر يسمى اللوَيْثي ، وهو مثل الدول هلامي ، ولكنه احمر اللون وضرره اخف من ذاك . فاذا لامس الجسم احرقه بدون تبريح فيرم اللحم ويبقى اثره والمه نحو ساعتين . اما اذا سخن الجسم الملذوع على النار فالالم يزول منه .[1]

بقي ان اذكر السبب في تفوق لؤلؤ البحرين ، وهو من عجائب الطبيعة في هذه الجزيرة . قد اجمع العارفون بان الماء الحلو يحسن اللؤلؤ ، فاستنتج من ذلك ان المطر هو سبب ذاك الحسن ، وان الصدف يصعد الى وجه البحر ليشرب من ماء السماء . ولكن الحقيقة العلمية في التصاق المحار بالصخور قبل

---
(١) تاريخ البحرين صفحة ٢٦

نموه تفسد هذا القول . ولو صح ان المطر هو سبب الحسن لكان لؤلؤ جزيرة سيلان ، لكثرة الامطار فيها ، احسن ما في العالم . وقد فاتت هذه الحقيقة القزويني الذي نقل عن البحرانيين كلمة نصفها صحيح ونصفها خطأ . [1] قال : ان صدف الدر لا يوجد الا في بحر تصب فيه الانهار العذبة . والحقيقة كل الحقيقة هي خلاف ذلك فلو قال ان احسن صدف الدر الخ لجاء بالصواب .

الماء الحلو اذن يحسن الدر ولكنه اذا صب في البحر فقد صفاته . اما الانهار فليس منها في البحرين ، وانما هناك ينابيع من المياه العذبة هي من عجائب الطبيعة . ينابيع في وسط البحر تحت المياه المالحة . ومنها ما هي قريبة من السواحل .

في البحرين نحو خمسة وعشرين نبعاً مشهوراً يبعد بعضها عشرين ميلاً عن البر ويعلوها البحر من الثلاثة الى السبعة ابواع . مياه عذبة تحت المياه المالحة تفور من الارض على الدوام . وتلك التي تقرب من الساحل تظهر ساعة الزجر للعيان فيستقي اهل المحلة منها . ولكن البحارنة يغوصون للبعيدة العميقة كأنها اللؤلؤ فيملأون منها القرب بان يجلعوا القربة او الاناء فوق الفوارة الى ان يمتلىء . من هذه الينابيع التي يشرب منها اكثر اهل البحرين

---

(١) لصاحب كتاب عجائب المخلوقات اراء اخرى في الموضوع مضحكة منها « ان الصدفة اذا ابتغت المطر خرجت من قعر الماء الى ظاهره عند هبوب الشمال وطلوع الشمس وغروبها . ولا تخرج في وسط النهار لان شدة حرارة الشمس ووهجها يفسد الدر (كأن الصدفة مدركة عملها وطالبة الكمال فيه) فاذا خرجت فتحت فاها ليقع الشمال على الدر فينعقد من اثر الشمال وحرارة الشمس ويتكون في الصدف كما يتكون الجنين في الرحم . واذا تم الدر في الصدف ينتقل الصدف الى موضع صلب ويثبت عروقه فيه . انتهى كلام القزويني .

اما الحقيقة فعكس ذلك كما تقدم . ولا يستغرب هذا الخطا في كتاب جله عجائب واوهام هاك انموذجا اخر منه . قال القزويني : بارض اليمن نهر عندطلوع الشمس يجري من المشرق الى المغرب وعند خروجها يجري من المغرب الى المشرق .

وليس هذا باعجب من جبل هرمز بطبرستان (١٠الجزء الاول : صفحة ٢٧٩) الذي ينزل منه الماء وينصب الى وهدة فاذا صاح الانسان صيحة يقف ! واذا صاح اخرى يسيل !

القريبين من السواحل تشرب كذلك المحار فتتحسن فيه تلك الكتلة الكلسية البراقة. هي السبب ولا مراء في جمال لؤلؤ الجزيرة ذاك الجمال الممتاز .

واغرب من كل ذلك ان تلك المياه العذبة تصل الى سواحل القطيف والاحساء وتجيء البحرين من مرتفعات نجد ، من وراء الدهناء . فقد تتبع علماء الجغرافية الذين ساحوا في البلاد مجاري مياهها ومصب انهرها الغائرة. من المعلوم مثلاً أن الرياض تعلو عن البحر الف وثمانمائة قدماً وان جبال العارض هي فوق الرياض وهي كلسية تمتص جل ما يتبخر من المياه فتجري تحت الارض وتصب في وادي حنيفة . بل ان مياه العارض ووادي حنيفة تجتاز الدهناء والنفود فتصل الى الخليج .

قال المستر هوغارث[1]. لا شك ان قسماً من هذه المياه « اي مياه العارض واليمامة » عملاً بتحدر الارض ترشح تحتما يعترضها من ظهور الجبال فتجري خلال الطبقات الحصوية وتظهر على الساحل فتسقي واحات الحسا والقطيف ، وتتكون منها الينابيع العذبة في مياه البحرين .

(١) D . G . Hogarth , Penetration of Arabia . p. 342
في كتابه « التوغل في البلاد العربية » صفحة ٣٤٢

الفصل الثالث

البحرين

البحرين في قديم الزمان — بلاد عربية لم يبقَ منها غير الاسم — جزيرة صغيرة كبيرة — جوهرة في جيب الخليج — مركز للتجارة والحرب — سكان البحرين وسكان نجد — اربعمائة وخمسون نفس في كل ميل مربع — مدن البحرين — المنامه ميناء الجزيرة — الرفاع مدينة الامراء — الصخير حمى الصحة والسكينة — جبل الدخان ولا دخان فيه — البديّع عقر الدواسر — جو وكان فيها قصور شامخة الى الجو — المحرق عاصمة البحرين — الحد وفيها السادة العلويون — غزارة المياه والابار — طريقة عبد الملك بن مروان في الاستيلاء والاستعمار — عليّ وعليهم يارب — دواليب الهواء — اليابان تحذو حذو المحار .

ان البلاد الواقعة على الساحل العربي الشرقي كله ، من البصره الى عمان ، كانت تدعى في قديم الزمان البحرين ، وقد اطلق العرب الاسم عليها لانها على ما اظن على شاطئ البحرين ، بحر عمان ، وبحر فارس ، وجعلوا عاصمتها هَجَر . ثم خص هذا الاسم بقسم منها بين القطَر والقطيف وهو الاحساء لان الطامعين بالسيادة من امراء العرب تنازعوها فتقاسموها ، فاستمرت تتجزأ وتصغر حتى كاد الاسم يمسي بلامسمى . ولكن الذين نزحوا الى اقرب الجزر الكبيرة من الساحل الشرقي ، او بالحري هربوا من الجور طالبين الاستقلال والاطمئنان ، احتفظوا بالاسم فاطلقوه عليها .

وقد كانت تدعى قبلئذ أُوال ، ذكرها ياقوت في معجم البلدان قال : انها جزيرة يحيط بها البحر في ناحية البحرين . وأوال صنم لبكر بن وائل واخيه تغلب فسميت الجزيرة باسمه لان بني وائل مع عبد قيس كانوا يسكنونها في ذلك الزمان . وساجيء في ملخص تاريخها في الفصل التالي على ذكر من استولى عليها بعدهم من الامم والشعوب .

اما الان فموضوعي الجزيرة نفسها الحاملة اسم تلك المقاطعة التي تكبرها مئة ضعف . هي جزيرة صغيرة ومع ذلك كبيرة . صغيرة في مساحتها التي لا

تتجاوز الاربعمائة وخمسين ميلاً مربعاً ، كبيرة في غرائب تاريخها الطبيعي والسياسي . وهي على صغرها عامرة بمئتي الف من العرب والاعاجم من الشرق والغرب . ولكنها لا تزال عربية الاصل والحكم ، عربية اللغة والروح لان اكثر سكانها من العرب الاصليين ، عرب نجد ، وفيهم من المذاهب الاسلامية المالكي والشافعي والحنبلي والحنفي والجعفري . اما الجعفريون فهم مثل الهنود يعدون من الاجانب لانهم ايرانيون او ايرانيو التبعة .

ليس بين مسقط والبصره اجمل من مركز هذه الجزيرة . وليس اصلح منه للتجارة اوللحرب . فهي تتوسط الخليج في زاوية حصينة منه ، كأنها بارجة راسية في جون متسع بين قطَر والقطيف . او كأنها باخرة دنت من الساحل الذهبي المحيط بها ترفع علم السلم والتجارة . بل كأنها ، وهي عند مهد اللؤلؤ ، جوهرة كبيرة في جيب الخليج . فلاعجب اذا تسابق اليها الفاتحون في قديم الزمان ، وتنازعها من الامم ذوات الصولة والعرفان . وهي لا تزال محط رحال التجار يجيئونها من الهند وفارس ، ومحط رحال الطامعين بالسيادة المطلقة على خليج العجم .

ان البحرين لمثل مدينة كبيرة في ازدحام سكانها . ولولا موارد الثروة من اللؤلؤ فيها ، ولو لم يكن مجال التجارة فيها متسعا ، لانتزح عنها نصف سكانها اذ قلما تجد في العالم خارج المدن بقعة من ارض معدل سكانها في كل ميل مربع اربعمائة وخمسون نفسا . قابل بين البحرين ونجد مثلاً فتدهشك المقابلة . في مملكة ابن سعود اليوم مليونان ونصف مليون من العرب على الاكثر يعيشون في ارض مساحتها اربعمائة الف ميل مربع في الاقل . فيكون معدل سكان الميل الواحد المربع ستة انفس لا غير . ولكن نصف هؤلاء من البدو ، اي الرعاة واصحاب المواشي ، ونصف ارضهم من الرمال والمفاوز التي لا ماء فيها ولا كلاء . فالميل المربع قليل اذن على اعرابي واحد مع عياله وانعامه ، كما ان الميل المربع في البحرين ، على كثرة مياهها وخصب تربتها ، قليل جداً على اربعمائة وخمسين من عباد الله — لولا اللؤلؤ كما قلت ولولا اسواق نجد والحسا .

وقد قيل لي ان هذه الجزيرة كانت عامرة بالسكان في قديم الزمان . اي انه كان فيها من المدن ثلاثون مدينة ومعها ثلاثمائة من القرى . ولكنها ، وقد كانت دائماً مطمح الفاتحين والمستعمرين ابتُليت بما يتقدمهم ويرافقهم ويتبعهم من الفتن والحروب ، فتداعى قسم من عمرانها واضمحل ، ولم يبق فيها اليوم سوى ثماني مدن وبعض القرى التابعة لها . اما سكانها الذين لا يغوصون ، ولا يركبون لرزقهم البحار ، فهم يزرعون الارض . والذين لا يزرعون يتاجرون .

اكبر مدن البحرين المنامة[1] وهي على الطرف الشمالي الشرقي من الجزيرة . عدد سكانها اربعون الفاً من العرب والايرانيين والهنود والاوروبيين ، وفيهم المسلم والمسيحي واليهودي والفارسي[2] والهندوس . وهي الميناء العام للبحرين ومركز احد فرعي حكومتها المزدوجة ، اي الفرع الانكليزي ، ومحور التجارة ، فيها بيت البريد والبرق ، ومحجر صحي ، ومرفأ ومخازن كبيرة للجمرك امر ببنائها الشيخ عيسى آل خليفة . وفيها ايضاً « قلعة الديوان » التي بناها احد ملوك العجم ، وكثير من البيوت الفخمة الهندسة والبناء . ولكن ارضها سبخة يفسد منها الهواء فتكثر فيها الحميات . وعلى مسافة نصف ساعة من المنامة غرباً بجنوب اثر تاريخي قائم في ساحة تدعى سوق الخميس لان هناك تقام كل اسبوع سوق للبيع والشراء . والاثر التاريخي من عهد عمر بن عبد العزيز الاموي . هو بقية مسجد قديم ، ومنارتان متقابلتان طول الواحدة نحو خمسين ذراعاً . وهناك بالقرب منه عين تسمى ابا زيدان وفي جوارها ما هو اهم من الآثار القديمة اي اثر ينابيع من زيت البترول .

اذا سرنا شرقاً بجنوب من هذا المكان واجتزنا المراقيب ، حيث مدافن البحرين القديمة التي مر ذكرها ، نصل بعد ساعة الى الرفاع ، وهي مدينة الامراء السابقين من آل خليفة ، وفيها بقية قلعة قديمة تبدو في اساس القلعة الجديدة

---

(١) كانت تسمى المنعمة فحرفها الاعاجم الذين استولوا عليها . ومن قائل انه كان فيها قصر لمنام احد ملوكها السابقين فسميت به .

(٢) اي المجوسي من اتباع ازدرشت . وهو يعرف اليوم بالفارسي . Parsi

التي شيدها الشيخ سليمان بن احمد. وحول الرفاع رياض مشهورة اهمها الصُخَير تكثر فيها العيون والآبار والنخيل. اما الصُخَير فهي على ربوة الى جانب الرفاع الغربي اسسها الشيخ حمد الحاكم الحالي، وهي لطيفة الهواء، عذبة الماء، فسيحة الفناء. الصخير هي حمى الشيخ حمد، وحمى الصحة والسكينة.

من الصخير نشرف على جبل الدخان، ولا دخان فيه اليوم لا لبركان ولا لانسان. هو جبل مستطيل، فيه غار كبير، داخله بيت بقباب منحوتة كانه من بناء الانسان، وفي رأس الجبل برج قديم متهدم. واذا استمر السائح شرقاً من الرفاع يصل الى سُترة او كما يقول البحارنة «حالة ستره» وهم يسمون «حالة» كل قرية تحيط بها الماء فتجعلها شبه جزيرة. وفي «حالة ستره» التي هي مقيظ الشيخ خالد اخي الشيخ عيسى وفي القرى التابعة لها عيون كثيرة ونخيل وبساتين.

هذه من المدن والقرى في الجهة الشرقية اما في الغربية فالبـدَيّع قبال الرفاع وعلى ساعتين من المنامه، هي مسكن الدواسر وغيرهم من العرب الاشاوس. ومن قراها قرية جَوْ نزلها في قديم الزمان احد مشايخ العرب المشهورين بالهمة والعزم والاقدام يدعى الشيخ احمد رزق فعمرها وبنى فيها المساجد والبرك الكبيرة لحفظ المياه، فقال احد المؤرخين فيه: سكن الشيخ رزق بلده الجو، وبنى قصوراً شاهخة الى الجو. ثم ظعن ونزل الزُباره في رأس بر قطَر. وكان في نيته ان يفصل هذه البلد عن قطر بخليج يحفره بينها وبين البر طوله ثلاثون ميلاً. ولكن قومه، وهم من اهل البادية، لم يرضوا بذلك لاحتياجهم الى المفالي في بر قطر يجعلونها مرعىً لانعامهم.

اما عاصمة البحرين الرسمية العربية اي المدينة التي يسكنها الشيوخ فهي المحرّق الكائنة في جزيرة صغيرة شرقي المنامة على مسافة نصف ساعة منها في الجلبوت. وهي تفضل المنامة بطيب هوائها لبعدها كما يزعم العرب هناك عن النخيل. فهم يظنون ان الاوبئة تكمن في ظلاله. والاصح انها تكمن في المستنقعات التي يسببها نقص او اهمال في ري النخيل. المحرق مركز النهضة

الاديبة اليوم وفيها المدارس والنادي الادبي والشبان الغواة بالادب والعلم . وفي جزيرة المحرّق مدينة اخرى اسمها الحَدّ يسكنها السادة العلويون وبعض آل ابن علي المشهورين في تاريخ البحرين . ويتبع كل من هاتين المدينتين خمس قرى يشرب اهلها من ينابيع البحر العذبة.

ان الماء القراح غزير في البحرين لو انهم يحفرون له الابار والقني فيجمعونه في عيون يستقي منها اهل المدن والذين يسكنون داخل الجزيرة . اما اليوم فالينابيع كلها هي قرب البحر لذلك يقصدها سكان المدن في الصيف فيقيمون حولها بيوتاً من جريد النخل موقتة يتفننون في بنائها لتقيهم حر الشمس ولا تمنع عنهم الهواء . وقد قيل ان مياه هذه الجزيرة معما ردم من ابارها تزيد على ما يلزم ارضها وتحتاج اليه سكانها .

نعم ، قد ردم في الماضي كثير من ابارها . والقصة كما يرويها العارفون من اهل البحرين وبعض المؤرخين هي ان عبد الملك بن مروان الاموي لما رأى من اهل الجزيرة بطرا في غنائهم وتمرداً على خلفاء بني اميه ، امر بردم العيون ليقل زرعهم واموالهم فيفتقرون ويخضعون للامراء . وهذه من اغرب ما دونه التاريخ من اساليب الحماقة في الاستيلاء والاستعمار . ان من يقارن بينها وبين سياسة الامويين في الاندلس ، وما اوجدوه واتقنوه من اسباب الزراعة هناك ، يستغرب جداً هذا الخبر ويكاد ينكره . ولكني شاهدت في رحلتي ما يثبت ان العرب في احقادهم وثاراتهم وحروبهم ينكلون مثل هذا التنكيل باعدائهم وبأنفسهم . قد رأيت عيوناً في نجد كانت سبب الشقاق بين القبائل فلما استولت عليها القبيلة القاهرة دمرتها وردمتها لكي لا يشرب منها العدو اذا خرجت بعدئذ من حوزتها . عليَّ وعليهم يارب . فلا تستغرب اذن فعلة الاموي عبد الملك بن مروان الذي امر بردم عيون البحرين ليفتقر اهلها فيطيعوا امراءهم .

ومع ذلك فالجزيرة لا تزال غزيرة المياه كثيرة النخيل والبساتين . فيها من انواع التمر مائة نوع ويزيد حتى انه كان يضرب بها المثل فيقولون :

كناقل التمر الى أوال . وقد شاهدت في الجزيرة عـدداً من دواليب الهواء المجلوبة من الولايات المتحدة فتضاعف مياه البساتين التي يكثر فيها انواع الثمار كالليمون والموز والخوخ والكمثري والعمب والرمان .

كاني باهل البحرين ، وقد ادركوا الضرر الذي سيلحق بتجارة اللؤلؤ من الاختراع الياباني اي توليد اللؤلؤ بالطريقة الصناعية ، بادروا الى اميركه يستنجدونها بما عندها من اسباب الزراعة والري الحديثة . فاذا كانت اليابان تحذو حذو المحار وتباريها فتحط من قدرها ، فالبحارنه يشمرون عن ساعد الجد ليضاعفوا في الجزيرة مواردها الزارعية .

الفصل الرابع

البحرين في التاريخ الاسلامي [١]

مستعمرة فارسية حاكمها وسكانها من العرب — النبي يبعث العلاء الحضرمي ليدعوهم للاسلام — عبد قيس ووائل وتميم يسلمون — الردة — رجوع آلعلاء — خالد بن الوليد — تأديب اهل البحرين — فتح قطر وبلاد فارس — البحرين في حكم الامويين — في حكم العباسيين — صاحب الزنج — القرامطة — ابو طاهر في الكعبة — الامارة العيونية في البحرين — جنكيزخان وتيمورلنك — فسكو دي غاما والفونسو البوكركه — البرتقاليون في البحرين — الاتراك يخرجون البرتقاليين من البلاد العربية — الانكليز يساعدون الاتراك — الفرس في البحرين — مستعمرة فارسية — فساد الحكم الفارسي وتلاشيه — اخر عامل من عمال الشاه .

كانت البحرين ، اي البلاد التي على الساحل من البصره الى عمان ، مستعمرة فارسية قبل الاسلام وفي السنين الاولى من البعثة النبوية . ولكن عمالها كانوا غالباً من امراء العرب ، وكان سكانها من المجوس واليهود والنصارى ومن عرب نجد واكثر هؤلاء من عبيد قيس ووائل وتميم . وفي السنة الثامنة للهجرة ارسل النبي محمد احد الصحابة العلاء الحضرمي [٢] ليدعو اهل هذه البلاد للاسلام او للجزية . وكان المنذر بن ساوي التميمي يحكمها يومئذٍ من قبل ملك الفرس ، فلم يتردد في التفضيل بين الوثنية ودين التوحيد بل بين حكم قريش وحكم الاعاجم .

جاء العلاء الحضرمي ، وقد كان من رجال الصحابة وصاحب كرامات ، يدعو المنذر واهل البحرين للاسلام ، ولكنه لم يتمكن من هدايتهم كلهم . قبل الدعوة المنذر وعربانه حباً بالجنة ورجاء التخلص من ملوك الفرس ،

(١) قد اعتمدت في كتابة هذا الفصل والفصل الذي يليه على تاريخ البحرين تأليف الشيخ خليفه بن حمد النبهان المطبوع في مطبعة الاداب ببغداد سنة ١٣٣٢ ه

(٢) هو عبد الله بن عماد بن بكر بن ربيعة بن مالك بن اكبر بن عوف بن الخزرج بن إياد بن الصدف الحضرمي .

ورفضها الآخرون . فتركهم العلاء في ضلالهم يعمهون بشرط ان يقاسموه غلاتهم من الحب والتمر . فقبلوا بذلك . وعاد الصحابي الحضرمي الى مكة يحمل الى النبي بشرى النصر المبين وكثيراً من الغنائم والاموال .

ولكن اهل البحرين بعد موت النبي ارتدوا قائلين : لو كان نبياً لما مات. فجاءهم العلاء ثانية ومعه جيش من المسلمين،فادّب اهل الردّه ، وقتل كثيرين منهم ، ولكنه لم ينتصر كل النصر عليهم . فكتب الى ابي بكر يستمده فكتب ابو بكر الى خالد بن الوليد ، وهو يومئذٍ في اليمامه ، ليتوجه الى البحرين ينجد فيها العلاء . فجاء خالد فزعاً ، كما يقول العرب حتى اليوم ، وكان قد فرّ كثيرون من اهل الردّه الى الجزيرة وتحصنوا فيها فامر العلاء رجاله بالزحف عليها .

كان هذا الصحابي كما قلت صاحب كرامات مُجاب الدعوة ، وهاك منها اثنتان . بينما كان رجاله يجتازون مفازة لا ماء فيها خلصهم من الموت عطشاً بان صلى ركعتين ثم قال : يا حليم يا عليم يا علي ياعظيم اسقنا . فجاءت سحابة كانها جناح طائر فقعقعت عليهم وامطرت حتى ملأوا الآنية وسقوا الركائب . ثم جاؤوا الساحل فوصلوا الى الخليج فلم يجدوا سفناً فيه وكان المرتدون قد احرقوها فصلى العلاء ركعتين ثم قال: يا حليم يا عليم يا علي يا عظيم أجرنا . واخذ بعنان فرسه وهو يقول : جوزوا باسم الله فمشى ومشى وراءه جيش عدده اربعة آلاف ، فلم يبتل لهم قدم ولا خف ولا حافر[1]

بعدان ادب العلاء اهل البحرين وردهم الى الصراط المستقيم حمل على الزُبارة في قطر وقتل فيها المكَعْبر عامل كسرى ، ثم عاد الى البحرين فأمّر عليها ،

---

(١) في رواية اخرى انهم اجتازوا الى دارين لا الى أوال . وكانت يومئذ دارين جزيرة عامرة يؤمها عرب نجد للمسابلة . قال الشاعر :

يمرون بالدهنا خفافاً عيابهم ويرجعن من دارين بُجر الحقائب

ودارين لا تبعد كثيراً عن بر القطيف ؛ حتى انه يستطيع الناس ساعة الجزر ان يمشوا من البر اليها . فالرواية الصحيحة اذن وان كانت تنفي كرامة العلاء الحضرمي ، فهي انهم اجتازوا الى دارين لا الى أوال .

اجابة لطلب اهلها . ثم خاض عباب الخليج فوصل الى الشاطىء العجمي ودخل بلاد فارس فاتحاً . وبعد ذلك دعاه الخليفة عمر الى المدينة وولاه على البصره بدلاً من عتبه بن غزوان، وولى على البحرين عثمان بن ابي العاص ثم الربيع بن زياد الحارثي . سافر العلاء صاحب الكرامات والفتوحات الى البصره ولكن الله سبحانه وتعالى لم يشأ ان يصل اليها . فاستدعاه اليه في الطريق وهو قريب من البصره فلبى العلاء الدعوة وقبره لا يزال معروفاً هناك .

دالت البحرين للخلفاء الراشدين ثم لبني اميه الى زمان عبد الملك بن مروان، ذاك الذي امر بردم عيون الجزيرة ليفقر اهلها فيلينوا للامراء . ولكن عبد الملك لم يكن من المفلحين . فقد سبقه الى استثمار الفقر رجل يدعى ابا فديك الخارجي فاستولى على الجزيرة سنة كاملة وكانت جنود ابن مروان قادمة اليها فدخلتها منتصرة وقتلت ابا فديك وستة الاف من رجاله الخوارج، وعادت بعد ذلك السيادة لبني اميه في الشاطئين العربي والعجمي من الخليج .

ولكنه اعتراه اغتصاب اخر كان في فوزه اثبت قدماً واطول امداً . ففي سنة ١٠٥ هـ خرج على عاملهم في البحرين مسعود بن ابي زبيبة العبدي فتغلب عليه ونصب الاشعث بن عبد الله الجارودي والياً مكانه ، فحكمها تسع عشرة سنة . ثم عاد الامويون الكرة عليه، ولكنهم لم يستولوا على الجزيرة بعد ذلك زمنا طويلاً لان دولتهم كانت تلاشت واضمحلت . فقام العباسيون مقامهم في البلدان والامصار ، فاحتل عقبه بن سلم البحرين من قبل ابي جعفر المنصور العباسي . وظل عمال العباسيين حاكمي الجزيرة والاحساء حتى سنة ٢٤٩ هـ عندما استولى عليها رجل يدعى صاحب الزنج [1] احد الانبياء الكاذبين .

وقد كان صاحب الزنج شاعراً بل شويعراً في بغداد يحوم مستجدياً على مجلس المنتصر بن المتوكل وحول حاشيته . ثم جاء البحرين وهو يدعي انه

(١) هو علي بن محمد بن عبد الرحيم بن عبد قيس

من السادة العلويين فدعا القوم لطاعتـه فتبعه اناس وخالفه اخرون ، فادى الخلاف الى التحزب فالتعصب فالقتال . وكان اصحاب البحرين اول من آمنوا به ، فرفعوه الى مقام النبوة ، وجمعوا له الخراج ، وقاتلوا من اجله الاعداء . وقد قضى صاحب الزنج فترة في البادية اقتداء بالانبياء يستنزل على نفسه الوحي . فأوتي في تلك الايام — وهو الشاهد على ذلك — ايات من آيات النبوة ظاهرة . فطفق يسب الخلفاء الراشدين ومعهم عائشة والزبير ، كأن النبوة تبدأ بالمسبات !

قال ابن الاثير وابن خلدون ان صاحب الزنج كان يرى رأي الخوارج . وقد دُعي بهذا الاسم لانه في بادىء امره كان يدعو الغلمان من الزنج الذين يسكنون في نواحي البصره فيعدهم بالعتق في الدنيا وبالجنة في الاخرة . بل كان يستغويهم بشيء من الجنة سلفاً . قيل انه كان يأمر بالقبض على النساء من ولد الحسن والحسين والعباس ويبيعهن في عسكره بيع الاماء والامتعة بدرهمين وثلاثة ، فيشتري الزنجي عدداً من الشريفات ببضعة دراهم .

فلا عجب اذا اتبعوه ووالوه ونصروه ، فطفق يشن الغارات الواحدة تلو الاخرى وله في اكثرها الغلبة والغنائم . وفي سنة ٢٥٥ ﻫ ادعى صاحب الزنج النبوة وكتب على رايتـه : ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة « الاية » وراح وزنوجه يسلبون وينهبون باسم الله . ان الغريب في حكم اولئك العباسيين ان مثل هذا الطاغية يثبت اربع عشرة سنة في طغيانه ، فيحكم في هجر اليوم وفي البصره غداً وتارة في الاحساء وطوراً في البحرين ، فاراً كاراً ، صائلاً طائلا ، قبل ان يتمكنوا منه فيقتلوه .

قال احد المؤرخين ، وهم يبالغون في الكلام على حروب صاحب الزنج ، انه قتل في يوم واحد بالبصره ثلاثمائة الف شخص . ولم يقتل في اكبر مواقع الحرب العظمى هذا العدد او نصفه من الناس .

كأنه كتب لاهل البحرين مثلما كتب للعباسيين ان لا يدوم السلم والامن طويلاً في ملكهم السعيد . قُتل صاحب الزنج سنـة ٢٧٠ ﻫ فتنفست بغداد

الصعداء. ثم ظهر في سنة ٢٧٨ ﻫ ابو سعيد القرمطي. ويا لهول القرامطة.

جاء ابو سعيد حمدان من خورستان الى العراق فنزل في الكوفة فمرض ذات يوم فساعده رجل يدعى كرْميته لحمرة في عينه «اللفظة نبطية ومعناها حمرة العين» فلما شفي من مرضه سمي باسم ذلك الرجل فخفف بعدئذ فقيل قرمطة وكان ابو سعيد قرمطه زاهداً ورعاً متقشفاً ؛ ومن تلامـذة عبد الله القداح الاهوازي الاسماعيلي الذي اسس في يومه جمعية سرية باطنية من مقاصدها الظاهرة التوفيق بين العرب والعجم والتأليف بين الاديان كلها. اما مقاصدها السرية ، السياسية والدينية ، فقد ظهرت بواسطة القرامطـة بافظع مظاهرها.

دعا ابو سعيد وهو في العراق الى امام من اهل البيت قيل انه محمد بن اسمعيل بن جعفر الصادق. وقيل انه محمد بن الحنفية . وكان القرامطة بعدئذ يدعون تارة لهذا وطورا لذاك ، وفي كلتا الدعوتين فتنة على العباسيين . بل ان نهضة القرامطة ، اصلا وفعلا ، هي نهضة ايرانية دينية سياسية ضد الخلافة والعرب. وان ما ارتكبه الخلفاء العباسيون من المظالم وما اعترى ملكهم من الخلل والضعف والفساد ، خصوصاً في عهد المعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر—القاب مملكة!— كان ينفِّر منهم الناس ويساعد كل من قام عليهم من الاعداء.

لذلك اجتمع على ابي سعيد خلق كثير وجلهم من البادية لانه خفف عنهم اثقال العبادة ، فاختصر الصلاة وجعلها فرضين صباحاً ومساء ، وعفاهم من صوم رمضان. فأحب البدو ابا سعيد واكبروه وعظموه ، وقالوا انه الامـام المنتظر بعينه . فنشأ مذهبه ينتشر انتشارا عجيبا ، فأشفقت دار السلام على اربابها منه ، فجندت عليه الجنود ، فصدها بعربانه وحاربها في اماكن عديدة وهزمها . وراح السيف ينشر في البلدان ما تأصل في قلوب القرامطة من عقيدة فيها نفي العقائد كلها . فاشتدت حروبهم على الخلفاء وتعددت فظائعهم وانتزع زعماؤهم الملك من عمال العباسيين في عمان والحسا والقطيف

والبحرين . اما شمالاً فاجتازت جيوشهم البادية والحماة ووصلت الى بعلبك ، ومنهم من غزى الحجاز واليمن .

وقد نظم الشاعر ابن مقرب العيوني تاريخهم فاشار في قصيدته الى ما كان من امرهم اولاً ودمارهم آخراً بواسطة جدوده . قال :

سل القرامط من شظّى جماجمهم فلقاً وغادرهم بعد العُلى خدما
من بعد ان جل بالبحرين شأنهم وارجفوا الشام بالغارات والحرما
ولم تزل خيلهم تغشي سنابكها ارض العراق وتغشي تارة أوما[1]
وحرقوا عبد قيس في منازلهم وصيروا الغُرّ من ساداتها حُمما
وابطلوا الصلوات الخمس وانتهكوا شهر الصيام ونصّوا[2] منهم صنما
وما بنوا مسجداً لله نعرفه بل كلما ادركوه قائماً هدما

وقال المؤرخ الانكليزي غِبن : ان القرامطة هم احدى الاسباب الأوَل في سقوط الدولة العباسية وقد استمرت فتنتهم ستين سنة وتزيد وبلغ القتال بينهم وبين جيوش الخلفاء اشده في السنوات الوسطى منها اي منذ سنة ٢٨٩ هـ ٩٠٢ م الى ان دخلوا مكة بقيادة زعيمهم ابي طاهر سنة ٣١٧ هـ ٩٣٠ م فكان في ذلك الفتح ختمة المجد وختمة الفظائع والهول .

دخل ابو طاهر سليمان بن حسن القرمطي بجيوشه راكبين خيلهم واعملوا السيف بالحجاج فقتلوا في المسجد الحرام وفي مكة وشعابها زهاء ثلاثين الف رجل والوف من النساء . ووقف ابو طاهر عند الكعبة وسيفه بيده وصفر لفرسه فبالت هناك ، ثم صعد على باب الكعبة وشرع يقول ، بينما كان رجاله يرمون رؤوس الشهداء في بئر زمزم :

أنا لله ولله أنا يخلق الخلق وافنيهم أنا

وبعد ذلك امر بقلع الحجر الاسود من محله فحمله القرامطة الى الحسا ، ولكنهم بعد اثنين وعشرين سنة اعادوه كما قيل الى مكة . اما ان الحجر الذي اعادوه هو ذاك الحجر بعينه فالله اعلم .

---

(١) اسم بلدة من بلدان عمان (٢) اي نصبوا صنما

اما البحرين فدخلت في حوزة القرامطة في عهد المكتفي بن المعتضد وظلت في حوزتهم الى ان ضعف امرهم وبدأت سيادتهم تتلاشى . فقام لقتالهم عندئذٍ ثلاثة من العرب وهم الامير عبدالله بن علي العيوني في الاحساء، ويحي بن العياش في القطيف ، وابو البهلول محمد بن يوسف الزجّاج في البحرين . ثم اقتتل هؤلاء على ما غنموا . وقد كان ابو البهلول ضامناً لخراج الجزيرة فعصي فيها فجهز عليه القرامطة جيشاً من عرب عبد قيس ، فبرز لهم بجيش من البحارنة فكسرهم في اول وقعة وطرد عمالهم من الجزيرة . ثم خطب له فيها بالامارة فاستقام امره بضع سنين فظهر عليه اذ ذاك زكريا بن العياش الذي استولى ابوه يحي على القطيف وكان يطمع بالاستيلاء ايضاً على البحرين .

وما عتم ان استولى ابنه زكريا عليها بعد ان كسر البهلول في وقعة شديدة، فطمع بضم الاحساء ايضاً الى ملكه ، فقاد جيوشه من القطيف على الرجل الذي حارب القرامطة سبع سنوات وما انفك يحاربهم حتى انتزع الملك والسيادة منهم . وهذا الرجل هو الامير عبدالله بن علي آل ابراهيم العيوني. جاءه العياش يبغي ما بيده في الاحساء . فلاقاه بجيش جرار في الطريق فكسره في الوقعة الاولى وقتله في الثانية ، ثم استولى على القطيف والبحرين . وفي ذلك قال شاعرهم ابن مقرب :

وصار ملك ابن عياش وملك ابي الا بهلول مع ملكنا عقداً لنا نظما

ثم النصر للامير عبدالله فاسس الامارة العيونية التي استمر حكمها في البحرين نحو مائتين وخمسين سنة . ثم انتزع العجم الحكم ثانية من العرب. وذلك ان احد ملوك فارس الزنجيين[1] الذين استولوا على المملكة بعد انقراض الدولة السلجوقية ، وهو ابو بكر بن سعد الزنجي ، حمل على العرب في جزيرة قيس فهزمهم واحتلها ، ثم اجتاز بجنوده البحر الى جزيرة البحرين فاخذها واستولى بعدها على الاحساء والقطيف وغيرها من بلدان الخليج . واستمر حكم الزنجيين حتى بعد ان ظهر جنكيز خان[2] فشابه القرامطة بمدة دولته

(١) لا علاقة لهؤلاء بصاحب الزنج (٢) ولد جنكيز خان سنة ١١٦٢ وتوفي سنة ١٢٢٧م

—ستين سنة— وباهوالها .

وبعد مائة سنة من عهد المغول الاول جادت للبالي ، ليالي الدمار والبلاء ، بابنها الثاني تيمورلنك[١] . فكمل اعمال جده جنكيزخان القطيعة واستولى على البحرين في ما استولى عليه من البلدان قبل دخوله بغداد . ثم خرجت الجزيرة بعد موته من حكم المغول ودخلت في حوزة شعب جاء من الغرب هذه المرة لا من الشرق ، شعب ينشد ولا شك التجارة ولكنه يسعى في طلبها سعي المعمّر لا المدمّر .

فبينا كان المغول في الشرق حاملين على كل مظهر من مظاهر الحضارة والعمران ، يفتحون البلدان ويدمرونها ، ويذبحون العباد ، ويزرعون الويل والاحزان في كل مكان ، بينا كانت هذه الغيمة السوداء الكثيفة مخيمة على الشرق الادنى تحجب عنه النور وتفسد كل ما في الحياة من عوامل النشوء والبر ، كان قد راش الفكر البشري في اوروبه فشرع يجول في سماء العلم والبحث والاكتشاف . وكانت الملاحة التي هي يد التجارة اليمنى اول من انتفع بثمار الفكر والعلم فراحت ترفع علم الجد والاقدم وراء الاقيانوس في البلدان الغربية القصية .

جاء زمن ابطال البحار . ومن اولئك الكشافين الربان البرتغالي فسكودي غاما[٢] الذي ابحر حول « رأس الرجاء الصالح » ومخر عباب الاقيانوس الهندي فوصل الى سواحل تلك البلاد العجيبة ، ضالة الامم الغربية ، وكان اول من اسس لدولته مُلكاً في الشرق . وجاء بعده زميله الفونسو البوكركه[٣] فرفع علم دولته في مسقط ودخل المضيق ، مضيق هرمز ، فاستولى عليه وحصنه تحصينا ، وتقدم في الخليج متفقداً الجزر والاساكل فيه

---

(١) ولد تيمورلنك سنة ١٣٣٦ وتوفي سنة ١٤٠٥ م

(٢) فسكو دي غاما Vasco de Gama ولد سنة ١٤٥٠ وتوفي سنة ١٥٢٤ م

(٣) الفونسو البوكركه Alfonso d'Albuquerque ولد سنة ١٤٥٣ وتوفي سنة ١٥١٥ اول سفراته الى الهند كانت في سنة ١٥١٣ وهو الذي حاول ان يأخذ عدن سنة ١٥١٣ فلم ينجح ، فتقدم باسطوله الى البحر الاحمر . واحتل فيه جزيرة قمران وهي قرب الحديده .

وهو يبغي الوصول الى البصره ، ليفتح طريقاً لمستعمرة بلاده في الهند . ثم استولى البرتقاليون على جزيرة البحرين والقطيف فحصنوهما كما حصنوا هرمز ومسقط . ولكنهم لم يستولوا على الاحساء لان العثمانيين كانوا قد سبقوهم اليها ، وبسطوا سيادتهم عليها فعدوها يومئذ جزءًا من اليمن الذي كانوا قد احتلوا بعض نواحيه .

قد كان خليج العجم في قديم الزمان كما هو اليوم مفتاح الطريق للتجارة بين الشرق والغرب . ولا تطمئن دولة غربية في الهند ولا يستقر امرها اذا لم تكن هي القابضة بيدها على هذا المفتاح . اما ان الخليج اسهل واصلح الطرق لتجارة الهند فغني عن البيان . هو اقل اخطارا من البحر الهندي ، واقرب خطاً واسهل ، لانه في مأمن من العواصف والرياح . هو حصن اذا شئت وبابه مضيق هرمز حيث تكاد بلاد ايران تتصل ببلاد العرب . فضلاً عما في هذه الطريق من البلدان العامرة ، فمن سواحل الهند الى جزائر الخليج الى البصره فبغداد فسوريه فمصر فاوروبه .

ادرك ذلك اهل البرتقال قبل ان يدركه الانكليز . ولكن ابناء الجزر وان كانوا قد جاءوا الى الهند بعد مئة سنة من مجيء فسكودى غاما . فقد تغلبوا على البرتقاليين بعد جهاد طويل مستمر تخلله الجم من الحيف والتعسف فاخرجوهم كما اخرجوا الفرنسيس بعدهم من تلك البلاد .

اما حكم البرتقاليين في البحرين فلم يدم اكثر من اربعين سنة . يستدل على ذلك من كتابة على صخر في جزيرة صغيرة غربي المنامه تدعى جدا [1] اخذ البحارنة حجارة منها لتجديد القلعة التي كان قد شيدها اهل البرتقال . وهذه القلعة التي تدعى قلعة عجاج جددت بعد ان جلوا البرتقاليون عن البحرين .

---

(١) هذه صورة الكتابة التي على حجارة جبل جدا : نقل من هذه الجزيرة مئة الف حجر لتجديد قاعة البحرين على يد العبد فيروز في زمن وزارة جلال الدين شاه في شعبان سنة ٩٦٩ ه و ١٥٦٨ م تاريخ البحرين للشيخ خليفه بن النبهان

قال المؤرخ: شكا حاكم دهلي وهي عاصمة الهند الى العثمانيين ظلم البرتقال للمسلمين وطلب منهم المساعدة فجهز لهم السلطان سليمان القانوني اسطولاً وجاء به الى الهند فتحاربوا مع البرتقال حتى اخرجوهم منها ... ثم جاء الاسطول العثماني الى مسقط والبحرين واخرج من كان فيهما من البرتقال كذلك[1]

وقد كان للانكليز في اخراجهم نهائيا من الهند يدا قوية عاملة، عاملة في سبيل شركة الهند الشرقية لا في سبيل العثمانيين.

اما جلاء البرتقاليين عن البحرين فالمؤلف يزيدنا علماً بذلك. جاء في صفحة ٦٢ ما يلي: حصل اختلاف شديد بين امراء جزيرة البحرين وكان اكثرهم من الشيعة فرفعوا شكواهم الى الشاه عباس الاول الصفوي وطلبوا منه الحماية لقربه منهم موضعاً[2] ومذهبا.

فاجاب الشاه عباس طلبتهم وخلصهم من السيادة الغربية الاوروبية. ولكنه بسط عليهم حمايته الشاهانية، فعادت البحرين الى حوزة من حكموها مراراً في سالف الزمان والاوان، عادت مستعمرة فارسية كما كانت يوم جاءها الصحابي العلاء الحضرمي يدعو اهلها الوثنين والمجوس للاسلام.

ولكن الحكم الفارسي في البحرين، وقد تسرب اليه ما كان قد اعترى الملك في بلاد فارس من الخلل والفساد، تخلله فترات من حكم العرب، حتى ان اخر عامل عربي من عمالهم وهو الشيخ نصر آل مذكور استنجد حكومة ايران في حملته على آل خليفه في الزباره فلم تنجده. وكانت الوقعة بينه وبينهم « سنة ١١٩٧ هـ ١٧٨٢ م » السبب في فراره الى ابي شهر وفي دخولهم الى البحرين منتصرين.

---

(١) بعد ان تغلب السلطان سليم على المماليك سنة ١٥١٧م فكر في احتلال عدن ليجعلها مركزاً لحملة على البرتقاليين في الهند فجاء ابنه سليمان في سنة ١٥٣٨ باسطول كبير يحقق رغبة ابيه فاحتل عدن واقام حامية فيها. ولكن العرب قاموا بعدئذ على الترك فذبحوا الحامية فيها وسلموا البلد الى البرتقاليين، فجاء الاسطول العثماني ثانية الى عدن فاخرج البرتقاليين منها واعاد الحكم العثماني فيها، ثم استأنف السير الى الهند ليتم حملته على اهل البرتقال هناك.

(٢) كانت اصفهان في تلك الايام عاصمة ملوك فارس.

الفصل الخامس

آل خليفة

من الافلاج الى الكويت الى الزباره — تجارة اللؤلؤ — آل خليفة في الزباره — فتح البحرين — ظهور ابن سعود عبد العزيز الاول — سلطان مسقط — البحرين بين الاثنين — سلطان مسقط يستولي على البحرين — رجوع ال خليفة الى الزباره ومفاوضتهم لابن سعود — النجدة من نجد — ابن عفيصان ينتصر ويأمر نفسه — ال خليفة عند ابن سعود — وال خليفة عند سلطان مسقط — الرجوع الى البحرين واخراج ابن عفيصان منها — العدو في قطر — ابن عفيصان وأرحمه حليفان — الحرب بين اسطول الخليفين واسطول البحرين — ارحمه وابن عفيصان ينجوان على اوحة من خشب — ارحمه وسلطان مسقط حليفان — الهجوم على البحرين — ارحمه ينكسر ثانية — ارحمه يعيد الكرة على البحرين — البطل الضرير — « بيدي لا بيد عمرو » — الفتنة في بيت ال خليفه — حزب ال عبد الله وحزب ال سلمان — الشيخ محمد ال سلمان — ال عبد الله يستنجدون ابن سعود — الشيخ محمد ينتصر على اعدائه — اسطول البحرين وتدخل الانكليز — « إحرقوا اسطولكم ونحن نحميكم » — النزاع بين الشيخ محمد واخيه علي — الفتنة — المدرعات الانكليزية في البحرين — نفي الاخوين — الشيخ عيسى بن علي .

كانت الزباره[1] في الماضي من البلدان العربية العامرة ، تجارتها الكبرى اللؤلؤ ، وسكانها من آل ابن علي والجلاهمة ، وهم من عرب العتوب اي بني عتبه ، وهؤلاء فصيلة من جُمَيْلة ، وجميلة فخذ من عنيزه[2]. وكان آل خليفـة ، وهم من اكبر عشائر بني عِتبه ، يسكنون بارض الهدّار من بلدان الافلاج بنجـد . فنزح الشيخ خليفه واهله الى الكويت في اواخر القرن الحادي عشر للهجرة واقاموا هناك عدة سنين . وبعد وفاته هجر ابنه الشيخ محمد الكويت وجاء باهله الى الزباره فنزلوا على ابناء عمهم الجلاهمة وآل ابن علي .

كان الشيخ محمد بن خليفه ورعاً تقياً ، حصيفاً حكيماً . جاء من الكويت

(١) بلدة في قطر على شاطىء البحر قبال جزيرة البحرين .

(٢) راجع الفصل الثاني من القسم السادس صفحة ١٥٢ من هذا الجزء

مغلوباً على امره وظاهر قصده شراء اللؤلؤ . جاء يبغي التجارة لا السيادة فكان حظه من الاثنتين وافراً . احبه اهل الزباره لورعه وبره وكرمه واصالة رأيه . فرغبوا اليه والى قومه ان يقيموا بينهم ثم امّروه عليهم .

وعندما توفي الشيخ محمد تاجر اللؤلؤ السياسي الابر خلفه ابنه الشيخ خليفه الذي لم يرث من ابيه غير شيء من البر والتقوى مزجهما بشيء من الشعر . وقد حج سنة ١١٩٧ هـ وتوفي في مكة ، فناب عنه ثم خلفه في الحكم اخوه الشيخ احمد . وهو يدعى الفاتح —احمد الفاتح الذي احترب وآخر عامل من عمال الفرس في البحرين ، وهو الشيخ نصر آل مذكور الذي سبق ذكره ، فغلبه واستولى على الجزيرة .

الدول اليوم تختلق الاعذار اذا شاءت الاستيلاء . والشيخ احمد لم يشأ غير ما شاءته التقادير . فلما استقر حكم آل خليفة في الزباره ، عاد اهلها الى الاتجار ، فكانوا يجيئون الى البحرين لشراء اللؤلؤ الذي كانوا يبيعونه في الهند . وكان البحارنة من اهل الشيعة وهم يومئذ يكرهون اهل السنة ويضمرون لهم العداء . فحدث ذات يوم خلاف بين الفريقين افضى الى قتال قُتل فيه احد خدَم ال خليفة ، فثأر له اهل الزباره ، وحملوا على البحارنة فاستغاث هؤلاء بحاكمهم الشيخ نصر فجهز لهم اسطولاً من السفن مشحونة بالجنود وتولى بنفسه القيادة . ولما دنوا من الزباره خرج عليهم اهلها بالسفن فحاربوهم وكسروهم شر كسرة ، فأقلعوا هاربين الى ابي شهر . اما البحرين فكانت قد خلت من الحامية ، فسار اليها الشيخ احمد بقومه واستولى عليها سنة ١١٩٧ هـ ١٧٨٢ م وهي السنة التي توفي فيها اخوه الشاعر الورع في مكة . تجارة اللؤلؤ كانت من عوامل هذا الفتح كما كانت سابقاً من دواعي الفلاح في امارة الشيخ على الزباره .

اقام الشيخ احمد عاملاً من قبله على البحرين . وعاد الى عاصمته في قطَر . ولكنه لم يستمتع وقومه بثمار النصر غير بضع سنين . فلما توفي خلفه ابنه الشيخ سلمان ، وهو خوّار ضعيف الرأي والارادة . وكان قد نبغ في تلك الايام رجل

في نجد فراح يكتسح البلدان والامصار ويستولي على القبائل الدانية والقاصية. وهذا الرجل هو الامير عبد العزيز ال سعود امام الوهابية الذي كان قد وصل بجيوشه الى الاحساء ، فخاف عرب الزباره ان يستولي عليهم ، فظعنوا يتقدمهم الشيخ سلمان الى البحرين .

هربوا من الوهابية القاهرة ، من خطر البر ، فوقعوا في خطر ادنى واشد جاءهم من البحر يقوده ويدفعه السيد سلطان حاكم مسقط . وكأن السيد سلطان ادرك اعوجاجاً في حكم البحرين الجديد فجاء يقومه باسطوله وسيفه. فبادر اليه الشيخ سلمان موالياً لامعادياً ، لانه لم يرغب باكراه البحارنة على القتال . وكان قد اطلع ، كما يقول المؤرخ ، على بعض مكاتباتهم الى حاكم مسقط يرغّبونه في الاستيلاء على بلادهم . » هذا من الشيخ سلمان انصاف في الحكم وعدل في الرعية . الارادة للشعب ! ولكن الصلح الذي عقده والسيد سلطان والذي بموجبه قدم احد اخوانه رهينة الى حاكم مسقط الظافر ، لا يُعَد في عين عنيزة وربيعة من شيم الرجال . ولى السيد سلطان ابنه السيد سعيداً على البحرين وعاد بالرهينة والغنائم الى مسقط .

قبل العتوب بذلهم وعادوا الى الزباره وهم لا يزالون موكلين امرهم الى الشيخ سلمان . ولكنهم نهضوا لاسترجاع البحرين ، بعد ان توفي اخوه الرهينة في مسقط ، وشرعوا يفاوضون امير نجد بذلك . طلبوا منه المساعدة فاجاب طلبهم حباً وكرامة . ولم يدركوا ما كان قد ظهر وشاع من مقاصد الرجل القومية والدينية ، مع انه كان قد استولى يومئذ على الحرمين .

ابشروا ياعتوب ! هذا ابراهيم بن عفَيْصان احد قواد ابن سعود الاباسل جاء بجيوشه يسترجع ملككم — يسترجعه يابني عتبه ليضمه الى ملك اهل التوحيد وابن سعود . وكذلك كان . دخل جيش الزباره ونجدة نجد الى البحرين فضربوا السيد سعيداً فهزموه واخرجوه من الجزيرة .

وكان الكلام اذ ذاك لابن عفيصان : البحارنة مشركون ولا يصلح المشركين الا اهل التوحيد . اما آل خليفة فعفاهم القائد النجدي من الاصلاح ، فاعلاً

او مفعولاً ، واذن لهم بالرجوع الى الزباره . فعادوا ثانية مدحورين مغبونين ، وشرعوا يفكرون برفع امرهم الى حضرة الامام في الدرعيّه علّه يرسل من قبله من يؤدب ابن عفيصان ، او علّه في الاقل يأذن لهم بالرجوع الى البحرين. وبينا هم يفكرون والشيخ سلمان صدرهم يفكر اكثر من الجميع ، اذ اقبلت عليهم سرية من سريات الفاتح الكبير فاستولت على الزباره وامرت ال خليفة بالسفر الى نجد. وكان الامير سعود قد خلف وقتئذ اباه عبد العزيز.

سافر في سنة ١٢٢٤ هـ ثلاثة من ال خليفة ليقابلوا امام الوهابية في الدرعية . فلما وصلوا اليها اكرم الامير سعود وفادتهم عليه ولم يأذن لغير اعيان الزباره بالرجوع . اما ال خليفة فانزلهم في القصر ضيوفاً عليه ، واسراء بين يديه . ولا اظن خطر في بال احد منهم قول الشاعر :

والمستغيث بعمرو يوم كربته   كالمستغيث من الرمضاء بالنار

لانه لو خطر ذلك في بال احد منهم لما استبشروا بقدوم ابن عفيصان ولما استمروا يعالجون سياسته حتى اوصلتهم الى الاسد في عرينه .

ولكن هناك غير ال خليفة من العرب يلجأون الى مثل هذه السياسة وهم يظنون ان الرجل بين عدوين ، يخادع الاثنين ، فيستخدم اذا كان حكيماً الواحد منهما على الاخر . وقلما يسير الفكر بهم الى ما دون ذلك من نتائج المساعدة . قد كانت سياسة ال خليفة مطردة في مثل هذه الحال . اي انهم كانوا يستعينون بحاكم نجد اذا ضايقهم حاكم مسقط ، وبحاكم مسقط اذا كانوا في خطر من حاكم نجد.

فلا يستغرب اذن رجوعهم الى السيد سعيد بن سلطان الرجل الذي اخرجوه من البحرين ، يستنجدونه هذه المرة ليخرجوا ابن عفيصان منها . وكان الشيخ عبد الرحمن بن راشد ال فضل رسول اخواله ال خليفة الى حاكم مسقط . ولكنه ، على عزمه ودهائه ، لم يظفر من السيد سعيد بغير المال عوناً . اخذ الشيخ عبد الرحمن المال وسافر الى بلاد فارس وهي مستعمرة عربية من عرب النصور فألف منهم جيشاً — بالمال تقوم الحروب — وارسل الى اخواله

يخبرهم بذلك ويطلب منهم ان يتأهبوا الهجوم . فجاء ال خليفة برجالهم من الزباره واتحدوا مع ابن اختهم عبد الرحمن وجنوده فتواقعوا مع جيش ابن عفيصان وكسروه واخرجوه من الجزيرة . اقلع النجدي هارباً الى قطر ونزل هناك على رجل يدعى ارْحَمَه بن جابر الجلاهمة . ولأرحمه هذا دور كبير مهم في تاريخ البحرين ساروي شيئاً منه .

بعد ان استولى عبد الرحمن ال فضل على البحرين ونقل ال خليفة اليها تبعهم قوم من العرب كثيرون . ولما علم الامام سعود بخروج ابن عفيصان مهزوماً حاول استرجاع الجزيرة من الشيخ عبد الرحمن بواسطة احد اخواله الاسراء في الدرعية . فارسل الشيخ عبدالله بن احمد منهم يصحبه بعض رجاله ليستطلعوا خبر عبد الرحمن ويروا ما اذا كان استولى على البحرين لنفسه او ليعيد اليها سيادة ال خليفة . هي السذاجة في النوابغ وفي من لا يزالون على الفطرة الاولى.

لا نعلم ما اوصى به الامام سعود رجاله ،ولكن المؤرخ يقول انهم جاءوا الى الشيخ عبد الرحمن بالخشن من الكلام . —كيف يجرأ العيال ان يستولوا على البحرين واباؤهم في قبضة الامام ؟ فقال الشيخ عبد الرحمن : دونكم العيال، فانهم حاضرون. فتقدم اذ ذاك الشيخ خليفة بن الشيخ سلمان وقال : نحن اخذنا البحرين لانفسنا ولا حاجة لنا بآبائنا . وقد يئسنا منهم وسمينا باسمائهم[١] .

كفّر الولد الشجاع عن ضعف ابيه فاغضب رجال نجد فقالوا يهددون الشيخ عبد الرحمن : لو كان يمكن للخف والحافران يطأا البحرين لنثرناها حصاة حصاة . فاجابهم قائلاً : لو كان يمكن لِقُبّيت الجابري[٢] ان يطل على الدرعية لجعلنا عاليها اسفلها .

ولكن الاقدار بعثت على الدرعيّة بغير «قُبيت الجابري» ايهدّمها . ففي تلك السنة او بعدها بقليل جاء ابراهيم باشا المصري يحارب اهل نجد فشغل

(١) يقول العرب عندما يفقدون احداً من اهلهم : سمّينا باسمه .
(٢) القُبّيت انف السفينة والجابري اسم سفينة المتكلم

الامام سعوداً عن الاجزاء الصغيرة مثل قطَر والبحرين — في ملكه المترامي الاطراف . فاطلق الامام سراح ال خليفة وتركهم وشانهم فعادوا الى الجزيرة يتولون فيها زمام الاحكام .

لم يصفُ لهم الجو مع ذلك ، لان قطَر قريبة من البحرين ، وفي قطر ارحمه ، وعند ارحمه ابن عفيصان ابراهيم . وكان ارحمه بن جابر الجلاهمة عزيزاً في قومه جباراً عنيداً . فلم يدنْ لآل خليفة ، بل كان يباريهم في السيادة ويسعى في انتزاع الامارة من ايديهم . ثم جاء ابن عفيصان يزيده غلاً ونفوراً فوجدت النزعتان والثأران ، وكان ينتظر من رجلي قطَر مباشرة القتال . ولكن ال خليفة ، عندما استقر امرهم في البحرين ، جهزوا اسطولاً من السفن الشراعية وابحروا الى قطر . توكلنا على الله ! نحرقها ان شاء الله ! وكان ارحمه وابن عفيصان قد علما بذلك فتاهبا للحرب . توكلنا على الله ! هي لنا ان شاء الله ! .

خيم الليل فاوقف الخليفيون سفنهم امام المكان المقيم فيه ارحمه وابن عفيصان وهو يدعى الخوَير . وكان ارحمه ملاّحاً ماهراً وقائداً خبيرا . فلم تسره مناورة اسطول العدو اذ رأى انواره . —تعبئة هذه السفن يا ابراهيم تنبيء بوجود الشيخ عبد الله بن احمد فيها . فقال ابراهيم متهكماً : والشيخ عبدالله من المحبوسين في الدرعيه . هات الدليل على نبوتك يا أرحمه .

—تعبئتها تعبئة قائد خبير ولا يمكن ان يكون غير الشيخ عبد الله . ثم استدعي زورقاً واشعل فيه سراجاً وامر احد رجاله ان يقف به وراء السفن فلما رأى قائد الاسطول ذلك خشي ان يكون النور نور سفن ارحمه فامر سفنه ان تقف وراءه دفعاً لهجوم يجعله محصوراً بين العدو والبلد . فلما رأى ارحمه ذلك تيقن ان الشيخ عبد الله قائد الاسطول واعجب بدهائه وبمقدرته الحربية .

—لا تسرني هذه الحركة ياابراهيم . هيا بنا الى البحر .

خرجوا بالسفن الى البحر وعند انبلاج الفجر تقابل الفريقان فادرك ارحمه ان من الحزم الا يقاتل القوم لان قوته لم تكن كافية . فاغتاظ ابن

عفيصان عند ما قال له ذلك وظنها جبانة منه فاوعز الى احد رجاله ان « يحورب »[1]

لا خير في رجل يجر جريرته واذا تضايق دربه خلاها[2]

فغضب ارحمه واعتزى قائلاً : لا بالله ما نخليها . وامر بنشر الشراع وبرز للقتال .

اشتبكت السفن بعضها ببعض ، فتلاطمت الاشرعة ، وانت الاخشاب من الصدمات ، ولصقت سفينة أرحمه بسفينة راشد بن عبد الله ، فجاء ابوه يدعمه بسفينة من الجنب الاخر كيما يمنعه ساعة الخطر الاشد من الفرار . وكأني بارحمه وقد عاين الشيخ عبد الله يقول لابن عفيصان : اتبغي الدليل على نبوءتي ؟ خذه ياابراهيم .

حمي الوطيس بين الجمعين ، فدوت البنادق بالرصاص ، وابرقت خلال الدخان السيوف ، وسالت الدماء من المراكب فخضبت الامواج ، واشتعلت النيران في الخشب والاشرعة ، فتطايرت منها الشهب وتساقطت الشظايا الملتهبة . —تبغي الدليل على نبوءتي ؟ خذه ياابن عفيصان . راحت القتلى تسابق الرصاص الى قعر البحر ، وفيهم راشد بن الشيخ عبدالله . ثم حجبت النيران والدخان سفينة أرحمه ، وقهقهت فوق عرشتها زبد الموج المخضب بدم الابطال . فنجا سيد الجلاهمه وحليفه ابن عفيصان على لوحة من خشب . — هل رأيت حرب العتوب ياابراهيم ؟ ولكن الهول أصمّ ابراهيم وعقل منه اللسان .

اما ارحمه فلم يكن ممن تسكتهم الهزيمة وتصمهم الاهوال . لم يوفق في شركته وابن عفيصان الى مراده فسافر بعد تلك الوقعة الى مسقط يخطب ود حاكمها سعيد بن سلطان .

— آل خليفه اعداؤك ياسعيد واعداءي . كسروك مرة وكسروني . ولست ياسعيد ممن ينامون على الضيم . لا بالله .

---

(١) حورب اي هزج وهي من اصطلاح اللبنانين وعرب نجد .
(٢) هذا من الشعر الذي يدعى في نجد بالنبطي اي العامي .

وحلف أرحمه بعز العتوب ، وحلف سعيد برأس ابيه .

ثم ناصب صاحب مسقط الخليفين العداء وذلك انه قبض ذات يوم على تجار من البحارنه كانوا يقصدون الهند ، وفيهم الشيخ عبد الرحمن آل فضل عدوه الاكبر ، فعرجوا على مسقط فاعتقلهم في برج القلعة هناك . و كتب الى اهل البحرين يطلب منهم الطاعة والخراج . فاجابه الحاكم الشيخ سليمان ، وكانت منه حيلة من حيل السياسة والحرب : اننا بغنى عن هؤلاء وقد نسيناهم وسمينا ابناءنا باسمائهم .

اما السيد سعيد فكان قد تأهب للحرب فجاء باسطوله الى البحرين يصحبه أرحمه الجلاهمه . فنزلوا في سِتْره [1] على شاطىء الجزيرة واقاموا هناك ثلاثة ايام فلم تظهر طلائع البحارنه فتهكم سعيد قائلاً : عتوبك غابوا ـ اي ماتوا ـ فغضب ارحمه لانه عتوبي وعندما ظهرت اعلامهم خلال النخيل في صباح اليوم التالي صاح قائلاً : هم عتوبي ظهروا ياسعيد توكل على الله .

ولم تكن ساعة بعد التحام الجيشين حتى اسفرت الوقعة عن هزيمة اهل مسقط وفرارهم الى البحر . ولما رجع السيد سعيد الى بلاده همَّ بقتل تجار البحرين المعتقلين عنده فنهته عن ذلك اخته مَوْزَه وأنّفته . ـ هم في جوارنا واسرى في يدك فاي فخر في قتلهم . دوّل على البحرين وخذ بثأر اخيك . اي جهّز عليها مرة ثانية . واخوه كان قد قتل في وقعة سِتره .

اثرت في سعيد شهامة اخته موزه تأثيراً حسناً فعاد الى البحرين . ولكنه لم يحارب اهلها بل عقد معاهدة مع حاكمها الشيخ سلمان بعينه ، ذاك الذي سلم الجزيرة سابقاً الى ابي سعيد دون قتال ، من شروطها ان يدفع اهل البحرين قسماً من الخراج الى حاكم مسقط فيطلق سراح المعتقلين عنده .

وبعد وفاة الشيخ سلمان الرجل المسالم تولى الحكم اخوه الشيخ عبدالله ، وهو الحاكم الثالث من ال خليفه في البحرين . وكان أرحمه لا يزال حياً

(١) راجع الفصل الثالث من هذا القسم صفحة ٢٠٢

يرزق وخصها لا يموت الا قتالا . لكن الزمان والكروب أوهت منه العظم وذهبت بالبصر . اما القلب الذي تعشق الاخطار في سبيل المجد فلم يعتره وهيٌ او نصب ، ولم يخمد فيه ذاك النور الذي لا يرى شرفاً في غير الشجاعة والثبات . قام أرحمه ومعه بعض قومه يعيد الكرة على البحرين ، ارحمه وحده هذه المرة لا حليف ولا شريك له . فدخل القطيف راكبا سفينته المشهورة « غطروشة » فجرد عليه الشيخ عبد الله السفن وقد شحنها بالرجال وخرج يقودها بنفسه .

احاطوا بارحمه البطل الضرير في ميناء القطيف ، فامر بنشر الشراع وطلب ميداناً متسعا للقتال . فاجيب الى طلبه . افسحوا لغطروشة فخرجت الى عرض البحر ، ثم انقضوا عليها من كل جانب . وكان ارحمه وهو جالس عند خزانة السفية ومعه ابن له صغير الى جنبه وعبده طرّار واقف فوق رأسه يسأل عن السفن الهاجمة عليه وعن قوادها فيخبرونه فيقول : هذا لا يجرأ على مقابلتنا — هذه لا تلحقنا . ويصدر الاوامر للنوتية بينما رجاله يبادلون العدو اطلاق الرصاص . وعند ما دنت سفينة الشيخ احمد بن سلمان من « غطروشة » اخبروه بها فقال : هذا يطابقنا لا محالة ، لان جنبه لم يلامس ناعمات الابدان . اي انه لم يتزوج .

وبعد قتال بالرصاص شديد تلاصقت السفينتان ، فتجالد الفريقان، واشتد الضرب بينهما والطعان ، بينما ارحمه الضرير يحارب بلسانه وجنانه ، فيحرض رجاله ، ويصدر اوامره ، ويسأل تارة ابنه ، وطوراً يستخبر عبده طرارا .

—اين صاروا ياولَيْد .

—عند الدقل[1]

—جنّبوا . جنّبوا . . . والآن اين صاروا ؟

—صعدوا النيْم[2]

---

(١) الدقل الصاري

(٢) النيم سطح مؤخر السفينة .

سكت ارحمه سكوته الابدي، اذ قرن كلمته الاخيرة بالعمل، فاخذ ابنه ووضعه في حجره، وعمد الى نار فالقاها في ذخيرة البارود التي كانت تحته. «بيدي لا بيد عمرو». فدوى دويٌّ غرقت فيه اصوات البنادق كلها، وضحك الزبد المخضب بالدماء فوق عرشة الغطروشة.

تسمى هذه الوقعة في تاريخ البحرين «ذبحة أرحمه الجلاهمة». قل هي مجده وتخليده. رحم الله كل من مات بطلاً في ساحة الوغى.

كان لأرحمه ابن اخر اسمه بشر حاول الاخذ بثار ابيه فراح الى صاحب مسقط السيد سعيد يستنجده على ال خليفة. وبما انهم كانوا قد امتنعوا عن دفع الخراج جاء سعيد، اكراماً لبشر بن أرحمه، يعلمهم حفظ العهود. فخرج له الشيخ عبدالله بجيشه وكسره في اول وقعة وقتل من رجاله ثلاثة الاف.

عجايب يابني عِتْبه عجايب   ثلاثة الاف ما فيهم شايب

وقد حارب في هذه الوقعة مع ال خليفة مزيد بن هذال وبعض قومه العمارات[1].

اخذت نشوة النصر مأخذاً من الشيخ عبدالله فحببت اليه الفتح والاستعمار. وكان قد تجدد بينه وبين امير نجد الخلاف فجهز جيشاً بحرياً وسار به الى دارين ففتحها؛ ثم الى تاروت فاستولى عليها، ثم الى سيهات في القطيف فحاصرها. فجاءت جيوش نجد توقفه في فتوحاته، وقامت تساعدهم الفتنة في بيته. بل افقدته تلك الفتنة ما كان قد استولى عليه في القطيف.

ان السبب في مثل هذه الفتن المالوفة في بيوت امراء العرب الحاكمين هو غالباً تعدد الزوجات التي ينشا عنه ضغائن بين الاشقاء، ومنافسات بين الامهات خصوصاً اذا كن من قبائل مختلفة[2].

---

(١) لا يزال بنو هذال وشيخهم اليوم فهد بك مأمّرين على هذا الفخذ من عنيزه الذي يسمى العمارات. وهم من عشائر الشمال يقيمون في ارض عند وادي حوران بين سورية والعراق

(٢) «ان تعدد زوجات الملك يزيد بعدد السباهلة في البلاط ويوجب بناء القصور العديدة التي يقتضي لها نفقات طائلة؛ ويقتل الشعور في الاسرة، الشعور الابوي والبنوي

كان للشيخ عبدالله عشرة اولاد منهم ثلاثة امهم من ال بني علي، العشيرة التي مر ذكرها في الكلام على اهل الزباره. فخرجوا على ابيهم يطالبون بالامارة وقصدوا الى الحوَيله[1] يستنجدون اخوالهم فيها. فارسل الاب عليهم جيشاً بقيادة حفيد اخيه الشيخ محمد بن خليفه بن سلمان فهاجمهم في الحوَيله وهزمهم في الوقعة الاولى فتابوا وقالوا لابيهم: اننا من الطائعين فعفا عنهم واذن لهم بالرجوع الى البحرين.

هذي هي البداية والنهاية في معقّة ابنائه. ولكن روح الفتنة التي خرجت منهم حلت بالرجل الذي حمل عليهم باسم ابيهم وظهرت قرونها بعد ثماني سنوات من وقعة الحويله. ذلك ان الشيخ محمد، حفيد الرجل المسالم الشيخ سلمان، قام على الشيخ عبدالله كأن يتقاضاه اجرة تأديب اولاده. فحاصره في المحرّق. وكان ابنا اخيه سلمان الساكنان يومئذ في الرفاع[2] يميلان الى عمهما وهو يثق بهما. فاستنصرهما على ابن اخيهما الثائر عليه، وجهز لكل منهما جيشاً كبيراً. فاحتربوا في وقعتين فاندحر في الثانية الشيخ محمد بن خليفه. وبعد ان وكل اخاه الشيخ علي بان يرعى الفتنة سراً راح يستنجد الاعداء على الاقرباء.

سافر اولاً الى نجد فصده اميرها، فعاد الى قطر وارسل الى ال ابراهيم الذين كانوا يومئذٍ في جزيرة قيس من اعمال فارس يدعوهم لقتال اعدائهم السابقين حكام البحرين. فلبوا الدعوة مسرعين ومعهم الجلاهمة يرأسهم بشر بن أرحمه. وكان الشيخ محمد في قطَر والشيخ علي في البحرين يتعاونان في اضرام نار الفتنة وتجهيز الجيوش لها.

والاخوي، ويفسد الاخلاق، ويضعف القوى الجسدية، ويبعث على التخنث والترفه، ويمكن من النفوذ والسيادة في الاحكام طبقة منحطة من الناس

جورج رولنسون في كتابه « موجز التاريخ القديم » صفحة ٢٧
Ancient History' by George Rawlinson p. 27

(١) الحويله قرية في الطرف الشمالي من قطر

(٢) راجع الفصل الثالث من هذا القسم صفحه ٢٠٢

أزف يوم القتال ، فخرج الشيخ علي بجيش على الشيخ عبد الله فكسره وتقدم الى الرفاع فاستولى عليها ثم جاء الشيخ محمد بجيشه فزحف على المنامه ودخلها منتصراً . وكان الشيخ عبدالله في المحرّق فعبر اليها ووقع بينه وبين عم ابيه قتال كان على الثاني وبالاً . فلجأ وبعض رجاله الى القلعة فتحصنوا فيها ، وما كان الحصن حصينا . فر الشيخ عبدالله من القلعة هارباً الى بلاد فارس ، ومنها جاء الى الكويت يستنجد حاكمها فلم ينجده ، فسار منها الى نجد وكان نصيبه هناك الفشل ايضاً فسافر بعدئذ الى مسقط فمرض فيها ، ومات بعد بضعة ايام حزيناً طريدا .

حكم الشيخ عبدالله بن احمد بن محمد بن خليفة في البحرين اثنتين وعشرين سنة قضي جلها في قمع الفتن ، وفي ما عقمت من الحروب وخلفه محمد الثائر ، الشيخ محمد بن خليفة الذي كان السبب في انقسام ال خليفة الى حزبين حزب ال عبدالله وحزب ال سلمان . وهذا الشقاق بما نشأ عنه من الفتن والحروب ادى الى تدخل الانكليز ، فتح الثلمة التي يتعشقها «سفين» السياسة . ساقص قصة الانكليز في حينها ومكانها .

اما الان فالحلقة التي نحن فيها من هذا التاريخ تتعلق بالشيخ محمد بن خليفه ال سلمان . وقد علم مما تقدم من سيرته انه كان شجاعاً عزوماً مقداما ، ولكنه لم يعلم بانه كان ذا بداهة عجيبة تدنو من الرؤيا فتمكنه من تفسير الاحلام ، والتنبؤ بما تخبئه الايام . اما في السياسة فقد كانت الحرباء مثاله الاعلى . ولا غرو ، فالدولة العثمانية كانت قد بدأت ترمق الكويت والاحساء والبحرين بنظر الام الرؤوم ، وكانت الدولة الايرانية لا تزال تحلم برجوع ابنتها الضالة فترأم حبل سيادتها في الخليج ، وكان الانكليز ، بعد ان ثبتت قدمهم في ابي شهر ، يسيرون في المضيق بين الدولتين الى مقاصدهم الكريمة . فهل يلام الشيخ محمد اذا قام بينهم كالبهلوان يدهشهم تارة ، وطوراً يضحكهم ولا يرضي باطناً احداً منهم . قيل انه كان ينشر في القلعة علمين ، علماً عثمانياً فوق البرج الغربي منها وعلماً ايرانياً فوق البرج الشرقي ، حتى اذا حاولت

احدى الدولتين التحكم باموره ادعى النسبة الى الثانية . ولكن الانكليز ادركوا سر هذه السياسة وعلموا ان في العرب انفسهم من لا يسره نجاحها . اما قصة الانكليز فلم يحن بعد حينها .

تولى الشيخ محمد الحكم سنة ١٢٥٨هـ ١٨٤٢ م فحكم مطمئن البال ست سنوات لم يخرج عليه اثناءها احد من اعدائه . ويظهر ان ابناء سلفه الشيخ عبد الله الذين هربوا بعد سقوط ابيهم الى الدمام في القطيف كانوا يتأهبون لذلك . فقد كان في القطيف يومئذ ال ابن علي وزعيمهم عيسى بن طريف الطامع بملك البحرين . فاتحد وال عبد الله وجاءوا الى قطر يشهرون الحرب على الشيخ محمد . فبعث اخاه عليا على رأس جيش كبير نازلهم في ام سوية فقتل في الوقعة عيسى بن طريف الطامع وقفل الشيخ مبارك بن عبد الله واخوانه هاربين الى الدَمام . . . — يلزمنا ياالاولاد بوبي حليف اخر . . . — دونك يامبارك وابن سعود .

وكان امير نجد يومئذ فيصل بن تركي الذي نهض للحرب يسترجع ملك اجداده . فاجاب طلبتهم وبعث يمدهم بجيش في البحر وسار يقود بنفسه جيشاً برياً . وعند ما ابحر آل عبد الله وانصارهم الى البحرين كان الشيخ محمد قد حشد الجيوش برا وبحرا لمقاومتهم . فغلبهم ثانية في وقعة بحرية قتل فيها الشيخ مبارك وابن عدو آل خليفه الالد بشر بن أرحمه . ثم حاول آل عبد الله ثالثة ان يأخذوا بثأر ابيهم فلم يفلحوا . فبعد ان حاصرهم الشيخ علي اخو الشيخ محمد في الدمام احد عشر شهرا واضعف شوكتهم لجأوا الى ابن سعود ليكون هذه المرة واسطة الصلح بينهم وبين ابن عمهم ، فقام الامير فيصل بهذه المهمة المبرورة وكان من المفلحين . فعاد آل عبد الله الى البحرين فعفا الشيخ محمد عنهم واكرمهم غاية الاكرام .

ومع ذلك لم يصف الجو للشيخ محمد . فلم يكد يخمد نار الفتنة في القطيف حتى اشتعلت في قطر التي كانت يومئذ تابعة للبحرين فقام اهلها وعلى رأسهم الشيخ قاسم بن ثاني يخلعون نير الطاعة ويهددون آل خليفه بابن سعود .

فارسل الشيخ محمد اخاه عليا ليؤدب العصاة. فوصل الشيخ علي بجيشه الى الدَوْحة عاصمة قطر، ودخلها بغتة، فاعمل في اهلها السيف ثم دمرها تدميرا. فجاء الشيخ قاسم الى البحرين يلتمس العفو فالقاه الشيخ محمد في السجن. فهاجت لذلك قبائل قطر باسرها وفي مقدمتهم عرب النعَيْم وجاؤا باسطول من السفن يهاجمون البحرين. فلما وصلوا اليها وجدوا جيشا في البحر مستعدا للقتال فحدثت في مكان اسمه دامِسَه معركة شديدة، تلاصقت فيها السفن فشُبكت بكلاليب الحديد. وتجالد الفريقان فاحمر وجه الماء من دم القتلى وكان الفوز للبحارنه.

وكانت وقعة دامسه هذه سنة—١٢٨٤هـ ١٨٦٧م— السبب في تدخل الانكليز بشؤون البحرين.

لست ممن يشكّون في ان الانكليز يبغون السلم ويسعون في توطيد الامن في الخليج العجمي. بل هم يبغون السلم ويسعون في توطيده في كل مكان يتخذونه طريقا لتجارتهم وسبيلاً لتأييد سياستهم في الهند. وقد بان لك ايها القارىء في ما سردته من تاريخ البحرين ان الخليج، وهو اهم هذه الطرق، كان دائما مسرحا للفتن والحروب التي يسببها حب السيادة والاستعمار. جاء الانكليز بعد اهل البرتقال وقصدهم الاستيلاء عليه والمحافظة فيه على الامن والسلامة. فبسطوا شيئاً من سيادتهم ونفوذهم على بعض الجزر والاسا كل على الساحل العجمي، منها ابو شهر التي هي اليوم مركز الحاكم العام، وراحوا ينشدون الامن والسلامه—والسيادة طبعا—في الجهة العربية منه. نريد الخليج طريقاً آمنة للتجارة في ايام السلام، ونريده في ايام الحرب وهو مفتاح الهند، في يدنا وحدنا. انما هذه هي غاية الانكليز الاولى والاخيرة. ولا ريب عندي بذلك. اما الوسائل التي اتخذوها لتحقيق هذه الغاية والسياسة التي انتهجوها لتعزيز سيادتهم في الخليج، فتلك قصة اخرى لا احرم القارىء طرفا منها.

قلت ان الشيخ محمد بن خليفه كان شاذا في بداهته الى درجة تصبح

البداهة فيها ضرباً من الرؤيا. ولكنه لم ير شيئاً والأسفاه مما كنّته الاقدار في تقرب الانكليز منه. جاءه الوكيل السياسي من ابي شهر يخطب وده ويدعوه لعقد معاهدة تضمن له سلامة بلاده ومساعدة بريطانيه العظمى.[1] فمن يرفض هاتين النعمتين؟ كان الشيخ محمد كما اوضحت محوطاً دائماً بالاعداء من القبائل ومن آل بيته، تزعزع حكمه الفتن والحروب. فرأى الحكمة والمصلحة في عقد المعاهدة، وان كان من شروطها ان يتنازل حاكم البحرين عن حقوقه في تجهيز الجنود البحرية والسفن الحربية. فقد تعهدت بريطانية العظمى في مقابلة ذلك ان تردع عن البحرين كل غارة بحرية. هذه خلاصة المعاهدة او الاتفاق.

فلما ثار اهل قطر على حكومة البحرين وجاؤا يهجمون على الجزيرة خشي الشيخ محمد من استيلائهم عليها بينما هو يفاوض الوكيل السياسي في ابي شهر[2] وينتظر النجدة منه. فكانت وقعة دامسه وكانت فاتحة المحنة الكبرى.

ركب الوكيل السياسي مركباً حربيا وجاء يحتج على الشيخ محمد بانه خرق المعاهدة بينه وبين بريطانية العظمى. ولكن الشيخ محمدا وكل اخاه علياً بالامر وسافر الى قطر قبل ان يصل الوكيل الى البحرين. فعد الوكيل ذلك اعترافاً منه بنكث العهد وفرارا من التبعة والجزاء. فامر باطلاق مدافع

---

(١) حدثني احد افاضل البحرين قال: كان للبحرين اسطول شراعي كبير مسلح بالمدافع والذخيرة استفحل امره. فاستولى حكام الجزيرة على قطر والقطيف فخشي الانكليز عاقبة ذلك لان مصلحتهم تقضي بان تبقى بلدان الخليج متنافرة متشاقة لكل منها امير مستقل. فاخطروا امراء البحرين بان القتال في البحر ممنوع وان لبريطانية العظمى حقاً بمنعه تعترف لها به الدول الكبرى. فلا يجوز اذن ان يخرج اسطولكم الى عرض البحر واذا خرج فالاسطول الانكليزي يقوم بواجبه. فاحتج الشيوخ الامراء ان بلادهم جزر مفتوحة ثغورها لا حصن لها الا الاسطول. فان لم ندفع به الاعداء ملكوا بلادنا ورقابنا. واذا لم نهاجم هوجمنا. فاجاب الانكليز: اذا كان الامر كذلك فان حكومة بريطانية العظمى، اذا امتنعتم عن الهجوم البحري، تتعهد برد الاعداء عن بلادكم.

(٢) ابو شهر هي على الشاطئ الفارسي وتبعد نحو مئة وخمسين ميلا عن البحرين شرقاً بشمال

البارجة على القلعة التي كانت تزدهي بعلمي تركية وايران فهدمتها. ثم طلب من الشيخ علي ان يتولى الحكم بدل اخيه الذي سقطت امارته بخرقه المعاهدة. قبل الشيخ علي وكان في قبوله الشقاق بينه وبين اخيه . فقد اشار الى ذلك ابن اخيه شاعر البحرين اليوم الشيخ ابراهيم في القصيدة التي يرثي بها والده حيث قال :

فنازعك الشقيق وكان قدما   حسامك والامور لها انتزاع
واغرى الدهر بينكما وهاجت   على الافساد بينكما الرعاع

كان الشقيقان متحابين يخلص احدهما للآخر ، ولم يبد في خلال ثلاثين سنة التي فيها حاربا وادارا الشؤون معا اقل ميل في علي الى منازعة محمد الحكم والسيادة . كانا والحق يقال مثال الوداد والوفاء حتى مجيء الوكيل السياسي من ابي شهر . فكان الاخلق به ان يكتفي بما فرضه على البحرين من المال ، اي مائة الف روبية ، تعويضاً وتأديباً ، ولا يزرع في سياسة البلاد الداخلية تلك البذرة التي تأصلت في البيت المالك ولا تزال تنتج الفتنة والشقاق

بعد ان تولى الشيخ علي الحكم سافر اخوه الشيخ محمد الى الكويت فتدخل آل صباح يصلحون بين الشقيقين . فكتب الحاكم يومئذ الشيخ عبد الله الى الشيخ علي يسأله ان يرجع الامر الى ما كان عليه ، فقبل الشيخ علي بذلك . فجاء اخوه الشيخ محمد يصحبه حاكم الكويت واخوه الى البحرين ولكنهم علموا قبل ان ينزلوا الى الجزيرة بان الشيخ علي عدل عن رأيه واصر على امره . ولا شك ان اليد التي كانت تؤيده هي اليد التي اقامته حاكما .

لا يحكم الصياد اشباكه   الا اذا عكر بطن الغدير

عاد الشيخ محمد ، الذي لم يقهر مرة في حياته ، الى ما فيه من قوة ودهاء فنزل في دارين وشرع يتأهب هناك للقتال . فحشد جيشاً من بني هاجر واعلن الحرب على اخيه . فخرج له الشيخ علي بجيشه فاقتتلوا قتالا شديداً ذُبح فيه الشيخ علي وتفرق جيشه . فعاد الشيخ محمد الى الحكم الذي ما دامت الفتنة تشتد فيه والمحن تزداد يوما فيوماً .

كان ابناء الشيخ عبدالله من الذين نصروا الشيخ محمد على اخيه ، وهم مسرورون بماحدث بين الاخوين المغتصبي الحكم من ابيهم . ثم بادروا الى الانتفاع بما اسلفوا من مساعدة فادعوا انهم كانوا السبب في انتصار الشيخ محمد وقاموا يناهضونه . ثم قبضوا عليه فسجنوه في القلعة التي كان يرفع فوقها العلمين التركي والايراني . وقد قال لهم الشيخ محمد عند ما اعتقلوه وكان في نبوئته صادقاً : لن تظل مدة حكمكم اكثر من ثلاثة اشهر .

«وصار الامر بعدكما[1] لقوم[2] له حبلوا ولكن لم يطاعوا

وكان الامر كذلك ، اذ قبل ان يتم الشهر الثالث جاء الوكيل السياسي من ابي شهر في مركبه الحربي وتولى امور البحرين المضطربة . « فاستشار » الاهالي ، بعد ان اطلق بضعة مدافع على سراي المنامة ، في من يختارون حاكما عليهم فأجمع رأيهم على الشيخ عيسى بن الشيخ علي الذي قتل في الحرب الاخيرة . ثم طرد من البحرين بني هاجر وهم اتباع آل عبد الله ، واخرج الشيخ محمد بن خليفه من القلعة فاصطحبه ومحمدا بن عبد الله في البارجة فانزلا في جزيرة كانت منفى احد المحمدين ومحطة لمنفى الثاني اي محمد بن خليفه ابن سلمان بن احمد الفاتح ، وقد نقل من تلك الجزيرة الى بمباي ثم الى عدن ، فاقام فيها عدة سنين اسيرا فتشفع به السلطان عبدالحميد لدى حكومة بريطانية العظمى فاذنت له بالسفر الى مكة فمات فيها سنة ١٣٠٧ هـ ، كما مات الشيخ عبد الله في مسقط حزينا طريدا . فرثاه ابنه الشيخ ابراهيم بتلك القصيدة التي نقلت بعض ابياتها وفيها يقول :

واسلمك الزمان الى خطوب تذل لبعض اصغرها السباع

الى ان قال :

فان مكارم الاخلاق علق نفيس لا يعار ولا يباع
الا يانفس جدي واستعدي فان الامر جد واضطلاع
ويا قطب المعالي انت قصدي وهل يخشى مع القطب الضياع

(١) اي بعد أبيه وعمه (٢) اي ابناء الشيخ عبد الله

الفصل السادس

الشيخ عيسى والانكليز

الطريقة المثلى في التاريخ—الشيخ عيسى في نظر السجّاع—في نظر المؤرخ—سجاياه — كرمه — وفاءه — اخلاصه للانكليز — محافظته على القديم— مقاصد الانكليز الخفية — ثبات الشيخ عيسى على العهود — مدحت باشا والي بغداد يعرض عليه مساعدة الدولة — اعتراف الانكليز باستقلال البحرين — مساعي الانكليز في تقويض الاستقلال — الحوادث عدوة العهود — ثلاثة حوادث خطيره — وكالة سياسية بريطانية في البحرين — حرق الاسطول — عزل الشيخ عيسى .

عندما قُتل الشيخ علي ال سلمان ال خليفة، كما ذكر في الفصل السابق، سافر ابنه الشاب الشيخ عيسى مع اخوته وبني عمه الى قطَر فنزلوا على قبيلة النعيم فيها . وعندما استفتى الوكيل السياسي الانكليزي اهل البحرين بعدئذٍ في حاكمها اجمع رأيهم على الشيخ عيسى[1] كتب اليه الوكيل يخبره بذلك ويسأله ان يعود . فعاد بمن كان معه من عشيرته وقبيلة النعَيم ونزلوا في المحرق . ثم نصب حاكماً على البحرين في آخر شعبان سنة ١٢٨٦هـ ١٨٧٠م وهو في الواحد والعشرين من سنه[2] فعاد الحكم الى ال سلمان وكانت فيه خاتمة الفتن والحروب الاهلية .

قد انتهجت في كتابة هذه النبذة ما اظنها الطريقة المثلى في التاريخ . فغربلت الحوادث، واخترت منها الاعم والاهم، وعلقت عليها في بعض المواضع بالايجاز الذي يوجبه المقام، وافضت ببعض المواقع تتميما للصورة الذهنية،

---

(١) هو عيسى بن علي بن خليفة بن سلمان بن احمد الفاتح بن محمد، تاجر اللؤلؤ، ابن خليفة الذي نزح من الافلاج بنجد ونزل في الكويت . وال خليفة من بني عتبه وهي فصيلة من جُمَيله وجميلة فخذ من عنيزه، وعنيزه تمت الى بني اسد فربيعة فعدنان.

(٢) ولد الشيخ عيسى في محرم سنة ١٢٦٥ هـ وامه ابنة عيسى بن طريف ال ابن علي الذي خرج على الشيخ محمد عم الشيخ عيسى لما كان حاكما .

صورة الزمان والمكان والاحوال ، واجتنبت اولاً وآخراً الاطراء والاطناب ، فوصفت الرجال بما املته علي أعمالهم فقط .

ولو اني تمشيت على اسلوب التاريخ الذي بين يدي لكان ينبغي لي في الكلام على الشيخ عيسى بن علي ان اقول انه « استلم زمام الملك بيد الحزم والتدبير ، فدانت له القبائل والعربان ، ونشر رايات العدل والامان ، وقمع بسيفه البغاة والعدوان ، وشاد بعلمه وحلمه وتقواه ركن الدين ، واظل باغصان فضله الارامل والمساكين ، فالقى السعد عصا تسياره بقصره ، وخصه بين الانام بنصره . » الخ .

ولكن التاريخ هو غير السجع . يجب ان يكون للتاريخ عينان ، وعقل ووجدان . ولا بأس اذا كان له شيء من البداهة والتصور . اما القلب فلا حاجة له فيه ، ولا يجوز . ان التاريخ الصادق هو شاهد لا قلب له . وهو الان يشهد ويقول ان للبارجة الانكليزية التي كانت في ثغر البحرين يوم استفتي البحارنة ، يداً قوية في ذلك السعد الذي « القى عصا تسياره » في قصر الشيخ عيسى . ويقول ايضاً ان ملكه الذي استمر خمس وخمسين سنة كان اكثر عدلاً وسلماً واصلاحاً من ملك من سلفه من اجداده . ولذلك اسباب منها ما يتعلق بشخصه الكريم ومنها ما يتعلق بالانكليز ، ومنها ما هو ناشيء عن روح الزمان في المدنية والعمران .

كان الشيخ عيسى كريماً جواداً ، فقد انعم على القبائل التي كانت معه في قطر بمبالغ جسيمة من الاموال يوم تقلد الامارة . واعطى في جلسة واحدة اربعين رأساً من الخيل الاصائل ، ووصل بني عمه بالطرف النفيسة والجواهر والبساتين . هي السجية الاولى التي كان يسترسل اليها ويعتمد على ما فيها من قوة البرهان والاقناع . حتى انه لم يكن ليرى غير الكرم في بعض الاحايين سبيلاً الى توطيد الحكم وتعزيزه . وقلما استبقى من واردات البلاد شيئاً لنفسه . بل كان ينفقها كلها ، منذ كانت تعد بالالوف الى ان صارت تعد بالملايين ، على وفود العرب ، وافراد عشيرته ، ثم في الاصلاحات العامة .

اعتمد الشيخ عيسى على الكرم وقلما اعتمد على غيرها من مزايا النفس . اريد بذلك انه لم يكن لِيَثق كثيراً بنفسه او يعتمد عليها . بل كان في جل اموره وكلا . فاذا جرب انساناً ولو تجربة طفيفة اعتمد عليه ووثق به على الدوام ، فيصم اذنه . عن كل ما فيه ذكر مساوئه او الاشارة اليها . وقد نشأ من هذا الضعف خلل في الاحكام وفي جباية الخراج .

اما العدل فقد كان غالباً معززاً في عهده . والحق يقال ان الشيخ عيسى نفسه لم يظلم انساناً ، عرضاً او عمداً ، في مدة حكم استمر خمس وخمسين سنة . فقد كان دائماً يتحرى العدل والانصاف . ولكن ذلك لا ينفي ما كان يحدث من المظالم في دوائر احكام البحرين . وان أُسدِل عليها ستار من التمويه ، لان الرجل كما قلت كان وكلا فلا ينتبه الا بعد حين الى اعمال معتمديه .

ولم يكن الشيخ عيسى يميل الى الجديد والتجدد ، بل كان منذ حداثته محافظاً كل المحافظة على القديم ، فلا يغير شيئاً مما درج عليه ، ولا يرغب بشيء فيه بعض الخروج عن المألوف في التقاليد والعادات . وظل كذلك حتى اصابه في آخر ايامه سهم من روح الزمان وحاقت به سنن الرقي والعمران فقام يساعد في انشاء المدارس ويأمر ببناء المحاجر والمرافق العامة في بلاده . وقد وضع اول حجر في اول مدرسة بيده ، وخصصها براتب شهري بعد ان افتتح جريدة الاكتتاب بمبلغ وافر من المال .

ومن سجاياه الممتازة فضلاً عن الكرم وحب العدل انه كان صادقاً في ولائه وفيا . فقد احسن الظن بالسياسة الانكليزية لاعتقاده ان انكلترة لا تريد الا نشر تجارتها وتعزيزها . ولكنه جهل كما يجهل الكثيرون حتى من الانكليز انفسهم ما كان مطوياً من مقاصد تلك السياسة [1] ، فامن مناوأتها . اجل ان اخلاص الشيخ عيسى للانكليز خمس وخمسين سنة — للانكليز الذين ساعدوا

---

(١) حدثني احد الذين كانوا موظفين في الوكالة السياسية الانكليزية بالبحرين قال : كان يجيئنا ويخرج من عندنا كثير من الرسائل والبلاغات السرية . ان في دار الوكالة منها ما يملأ بضعة صناديق ويدهش فحواها كثيرين حتى من رجال الحكومة بلندن

في اقامته حاكماً ، ثم اذلّوه وامتهنوا حرمة ملكه مراراً ، ثم اسقطوه عن العرش الذي رفعوه اليه — ان اخلاصه لهم ، وحسن ظنه بهم لمن الفضائل التي قلما نجدها في غير العرب من الشعوب الشرقية . وما كان ذلك الا لانهم ساعدوه في بداية امره ، ولانه عاهدهم على اشياء منها الاعتراف بالاتفاق السابق بينهم وبين عمه الشيخ محمد ، ذلك الاتفاق الذي قضى على اسطول البحرين وجعل البلاد متكلة على بريطانية العظمى في الدفاع عن نفسها .

مع ذلك لم يحنث الشيخ عيسى بعهده ، ولا عقد اتفاقاً سرياً مع دولة اخرى من الدول . كتب اليه مدحت باشا عندما كان والي بغداد يعرض عليه مساعدة الدولة بعقد اتفاق ودي بينه وبينها ، فدفع الكتاب الى اصدقائه الانكليز وكتب الى مدحت يقول : حسبي بريطانية العظمى صديقة وحليفة . وقد فاوضته كذلك الحكومة الالمانية بواسطة معتمدها التجاري في البحرين فكان جوابه : لا أقدم على بريطانية العظمى احداً ، ولا اعاون عليها عدواً . وكثيراً ما اعترض بعض رجاله على هذه الثقة المطلقة ، وفيها التغاضي عن المساوىء ، فكان الشيخ يقول : ان بريطانية العظمى اثبت الامم الاوروبية في المعاهدات، فقد اعترفت باستقلال بلادي وحرية حكومتي ولا اريد اكثر من ذلك

فهل قام الانكليز بما توجبه عليهم الصداقة بل العهود بينهم وبين شيوخ البحرين ؟ قد اعترفت انكلتره باستقلالهم ، فهل احترمت هذا الاستقلال ؟ سانخذ من تاريخ البحرين في عهد الشيخ عيسى بن علي ثلاث حوادث فيها الجواب على هذا السوال ، وسارويها بما يجيزه التحقيق من الايجاز .

اما اول هذه الحوادث فهو ضرب الزباره سنة ١٣١١ هـ ١٨٩٣ م التي كانت اول ما حكم آل خليفة في قطر عندما جاؤوها من الكويت . وبعد ان نقلوا منها الى البحرين غدت عشاً للفتن والثورات . ذلك لان فيها الجلاهمة وآل ابن علي وبنو هاجر[١] النازعين دائماً الى الفتن طمعاً بالسيادة والحكم .

(١) هم الذين كانوا في البحرين عندما تولى الشيخ عيسى الامارة فطردهم الوكيل الانكليزي منها لانهم كانوا موالين لآل عبد الله اعداء آل سلمان .

فقاموا سنة ١٣١١ هـ ينفخون في نار الفتنة فاضطرمت في الزباره ونواحيها، فكثرت جموع الثائرين وقد تأهبوا للهجوم على الخليفيين في البحرين. فرأت الحكومة وجوب اخماد الفتنة ولم ترَ الى ذلك سبيلاً وواسطة غير الاسطول. الذي كان لا يزال عندها قسم منه. فتشاور الشيوخ واقروا ذلك، ثم بعثوا يعرضون الامر على الوكيل السياسي لبريطانية العظمى في ابي شهر ويستأذنونه. فحذرهم الوكيل من نقض الاتفاق. فطلبوا منه الدفاع عن البلاد، ذلك الدفاع الذي يوجبه الاتفاق. فتعلل الوكيل اولاً، ثم اشترط في مقابلة الدفاع شروطاً جديدة منها ان يكون لبريطانية العظمى وكالة في البحرين، ويكون للوكالة الحق بالمشارفة على قضايا الرعايا البريطانيين. فماذا يفعل شيوخ آل خليفة في مثل هذا الموقف الحرج؟ ويلهم من الثائرين الزاحفين على بلادهم، وويلهم من البوارج الانكليزية الراسية في الخليج اذا هم دافعوا عن البلاد. قبلوا بالشروط الجديدة، فابحرت اذ ذاك البوارج الى الزباره وفرقت بقنابلها الاقوام الثائرين.

والحادثة الثانية حدثت بعد عشر سنين سنة ١٩٠٣ وهي بنفسها طفيفة، ولكنها خطيرة في نتائجها. خادم الماني اهان ابن اخ الشيخ عيسى فضربه، فشكاه الخادم الى رئيسه، فرفع الرئيس الدعوى الى الوكيل السياسي الانكليزي[1] والى حكومة المانيه. وبعد بضعة ايام اتفقت الحكومة المحلية والرئيس الالماني فاعتذرت عما فرط من ابن اخ الحاكم، ودفعت الى الخادم ثلاثة الاف روبية. ولكن هذه التسوية لم ترضِ، على ما يظهر، الوكيل السياسي في ابي شهر وكان يومئذ السر برسي كوكوس، فجاء بمراكبه الحربية فرست في مياه البحرين

(١) ليس لانكلتره قناصل في الخليج العجمي لان وظيفة القنصل محض تجارية. ومصالحها في الخليج تقتضي ان يكون لها هناك ممثلون سياسيون. وهؤلاء في المنصب اثنان الموظف Political Officer والوكيل السياسي Political Agent وفي الخليج وكيل سياسي اول مركزه في ابي شهر يرجع اليه الوكلاء والموظفون السياسيون في الكويت والبحرين ولنجه وغيرها من الاساكل والجزر. اما مرجع الوكيل السياسي في ابي شهر فهو حكومة الهند وبما ان في البحرين كثيرين من الهنود فقد اطلقوا على الوكيل السياسي فيها لقباً هندياً فهو يدعى هناك بليوس.

وانزلت بعض جنودها الى البر . ثم عرض الوكيل لائحة بما تطلبه الحكومة البريطانية جزاء ضرب الالماني ، فنفذت مادة مادة . حُرق ما تبقى من سفن البحرين الحربية ، وحكم على ابن اخ الشيخ عيسى بالنفي خمس سنين قضاها في الهند ، واحيل الى الوكالة البريطانية بالبحرين النظر والفصل في دعاوي الاجانب كلها .

اما الحادث الثالث في سياسة الاستيلاء التدريجي فقد حدث في شهر ايار من السنة الماضية . ولا بد قبل ان ارويه من تمهيد . قد علم القارىء مما تقدم في هذا الجزء شيئاً عن اهل نجد وشيئاً في ما تقدمه عن اهل الشيعة وخصوصاً الايرانيين منهم . فمهما كان من اسباب الوئام تجارة واجتماعاً بين الشعبين اذا جمعتهما مدينة واحدة ، فالخلاف الديني ، وقل الغلو في الدين ، فضلاً عن الخلاف الجنسي والسياسي ، كلها متأصلة في القلوب ، متأهبة في ساعة الشر الموثوب . وفي البحرين من التجار والعمال النجدي والايراني ، وقد علم القارىء ان الاثنين بموجب الاتفاق الاخير بين حكومة البحرين وحكومة بريطانية العظمى يعدّان من الاجانب فيجب ان تسمع دعاويهما في دار البليوس اي الوكيل السياسي الانكليزي بالمنامه .

وهذا البليوس ، ابتغاء حزب له من الايرانيين ، سعى في عزل رئيس بلدية المنامه ونصب مكانه احد تجارهم محمد شريف خان بهدور الذي اشتهر بكرهه للعرب . وقد كان لهذا الرئيس صنيعة البليوس نفوذ في الاحكام يدنو من نفوذ الحكومة الوطنية ويتجاوزه في بعض الاحايين . هذا هو التمهيد .

اما الحادث فهو انه في اوائل ايار سنة ١٩٢٣ سُرقت ساعة من بيت تاجر نجدي ، فأتهم بالسرقة رجل فارسي فقام بعض اهل بلاده يدافعون عنه ، فأدى ذلك الى خلاف بينهم وبين اهل نجد ، فتحزب الفريقان ، واشتعلت في القلوب الاحقاد الكامنة ، فافضى النزاع الى القتال ثم الى السلاح . وكان خان بهدور محمد شريف رئيس البلدية يغري العجم في هذه

الفتنة على قتل العرب [1]

اما الحكومة فبما ان المتقاتلين كلهم من الاجانب اكتفت بحفظ الامن ما استطاعت . ولا اظن مما شاهدته في البحرين يوم كنت هناك انها كانت تستطيع كثيراً .

أبرق البليوس خبر الفتنة الى الوكيل السياسي في ابي شهر فجاء مسرعا تصحبه بارجتان. وكان اول ما طلبه من الحكومة ان يعتزل الشيخ عيسى الحكم . فابى الشيخ ، فأصر الوكيل ، وجمع فريقا من الناس فاعلن فيهم عزل الشيخ عيسى وتولية ابنه الشيخ حمد مكانه . وهذه البوارج في الثغر تلفت اليها نظر الوطنيين المشاغبين .

ثم تبع العزل والنصب سلسلة من الاجراءات خطا فيها التطور السياسي والاتكال الوطني خطوات كبيرة . فقد الغيت المحاكم الوطنية ، وعينت من واردات الجمرك وغيرها ، التي تحولت الى بنك انكليزي في المنامه ، رواتب شهرية للشيخ حمد ومن دونه من افراد الاسرة الحاكمة . وقد تأسس ديوان يدعى مركز الحكومة ليقوم مقام المحاكم الوطنية يحضره الشيخ حمد والبليوس فينظران معاً في شؤون البلاد الداخلية .

هذه هي قصة البحرين والانكليز في عهد الشيخ عيسى بن علي . من حكومة مستقلة ذات اسطول حربي ، الى حكومة ولا اسطول ، الى حكومة يراقبها وكيل سياسي انكليزي ، الى حكومة تشارك في ادارة شؤونها الداخلية والاجنبية حكومة بريطانية العظمى بواسطة بليوسها ووكيلها في الخليج ، الى — والليالي بالحادثات حبالى ! .

---

(١) « من الامور الضارة التي قام بها الماجر ديلي تشكيل بوليس اجنبي واسناد شؤون البلدية الى رجل اعجمي في بلاد عربيه ... فلما كان رمضان حدث خصام بين فارسي ونجدي فكانت النتيجة ان رئيس البلدية والبوليس ، تعصباً لجنسيتهم ، حضوا العجم على اطلاق الرصاص ... فتحول الخصام البسيط الى فتنة دموية » من ضبطة قدمها وكلاء الامة البحرانية لرئيس الخليج في ابي شهر في ١٧ ربيع اول سنه ١٣٤٢

الفصل السابع

النهضة الوطنية

شكل الحكومة الماضية — انقلاب ايار — احتجاج سلطان نجد — عزل رئيس البلدية — حكومة مزدوجة — نكبة النهضة الوطنية — من المسؤول ؟ — حقيقتان جوهريتان في تاريخ البحرين — عبرة لامراء العرب — عبرة للانكليز والاوروبيين — حكومة انكلتره لا تعلم بكل ما يجري على يد وكلائها — الوكيل المضر بالموكل والموكل من اجله — اولئك الذين لا يفهمون العرب ولا يحبونهم — حكومة الخليج وسلسلة الاحالات فيها — اوامر الحكومة في لندن وتنفيذها — مطالب اهل البحرين الوطنية — القوة لا تحترم غير القوة — الوكيل ينذر البحارنة — ما جنى على العرب غير انفسهم.

لم يكن للوكيل السياسي في البحرين قبل انقلاب ايار سنة ١٩٢٣ غير حق النظر في قضايا الاجانب . ولكنه كان يتدخل بشؤون البلاد على قدر ماتسمح به الاحوال وتمكنه من السياسة التي تستمد قوتها من مصالح التبعات الاجنبية ومشاكلها ، ومن البوارج الراسية في الخليج . وكان هذا التدخل ينعم ويخشن ملمساً بالنسبة الى البَلْيوس ، اي الوكيل ، وصفاته الشخصية . اذ ليس بين بريطانية العظمى وحكومة البحرين معاهدة مسجلة ، بل هناك اتفاقات كما اتضح مما اسلفت تضمن للانكليز ما حازوه تدريجاً من نفوذ في البلاد ، وتضمن للبلاد حريتها واستقلالها .

سألت عن شكل الحكومة عند ما كنت هناك فعلمت انها ثلاثة اشكال ، وطنية واجنبية ومختلطة . وكان سمو الشيخ عيسى يومئذٍ يدير الاولى ، والبليوس يدير الثانية ، ورئيس البلدية العجمي صاحب الكلمة النافذة في الثالثة . وقد انشأت هذه الحكومة المثلثة الزوايا اربعة انواع من المحاكم الاهلية ، اي الشرعية وهي التي تنظر وحدها في دعاوي الوطنيين ، والاجنبية ، اي دار الوكاله الانكليزية ، وهي تنظر وحدها في دعاوي الاجانب كلهم . والمختلطة اي التي كان رئيس البلدية يومئذٍ عضواً من اعضائها للنظر في

الدعاوي بين الوطنين والاجانب . ثم محكمة الغوص ولها قانون خاص يتساوى به الاجانب والوطنيون .

ولكن انقلاب ايار ، ذهب بالشكل والشعار . فعزل الشيخ عيسى كما قلت ، وألغيت المحاكم الوطنية ، ثم عزل خان بهدور شريف رئيس البلدية اجابة لطلب ابن سعود ، اذ عند ما وصلت اخبار الفتنة الى القصر بالرياض ، وعلم السلطان عبد العزيز بما كان لهذا الرجل في اثارتها واغراء قومه على عرب نجد ، طلب من الانكليز عزله فعزلوه حالاً . ثم ادغمت المحاكم على انواعها بالمجلس الذي يشترك في رئاسته الشيخ حمد بن الشيخ عيسى والبليوس ، فامست الحكومة المثلثة حكومة مزدوجة ، وامسى الحاكم الوطني شريكاً للحاكم الانكليزي .

ها قد وصلت الى بعض السبب او كله في ما سمعته من الشكوى والانين هناك واشرت اليه في الفصل الاول من هذا القسم من الكتاب . قلت ان في البحرين نهضة وطنية ، ولكنها سياسياً مقيدة . كانت قبل ايار قانطة فامست بعده منكوبة . وكان السبب في القنوط نفس السبب في النكبة ، لا يختلف الا في درجتي الشدة والاستمرار . ومن المسؤول ؟ اذا سألت البحارنة يجيبون : الانكليز واذا سألت الانكليز يجيبون : العرب البحارنة .

هناك حقيقتان في تاريخ البحرين وسياستها الخارجية لا اظن احد من الفريقين ينكرهما . الحقيقة الاولى التي الفت اليها اولاً نظر البحارنة هي ان البحرين ، عندما كان لها اسطول حربي قبل عهد الشيخ عيسى بن علي ، كانت وجيرانها في احتراب دائم . وقد علمت مما شاهدته وتحققته في البلاد العربية كلها ان بلية العرب الكبرى ـ كانت ولا تزال ـ هي النزوع في كل قبيلة ، بل في كل عشيرة ، الى الاعتزال والاستقلال . لا يعرف العرب من مبدإ التضامن غير ما توجبه القبيلة ، او يدعو اليه في بعض الاقطار المذهب الديني . لايخضع العرب بعضهم لبعض الا كرهاً ، ثم ينزعون الى السيادة المستقلة اذا وجدوا الى ذلك سبيلاً . الجهل ايها الادباء هو عدو التضامن ، والجهل المسلح

ايها الامراء هو عدو الرقي والعمران . فالسلاح بيد العرب اليوم ، اللهم اذا كانوا لا يخرجون على روح البداوة فيهم اولاً فيجمعون شملهم تحت علم واحد او علمين في الاكثر ، هو مضرّ بهم ، مضرّ جداً . لا يزال اكثر الامراء جاهلين ، او انهم من المحافظين على القديم البالي المقاومين لمبدإ النشوء والتجدد . فما الفائدة من القوة بايديهم ؟ اوجه هذا السؤال الى الشبيبة الراقية . ما الفائدة من اسطول يمكننا من الاستيلاء على قطر والقطيف والاحساء اذا كنا لا نوسع في الملك غير القوة الغاشمة ، الجاهلة ما في روح الزمان من اسباب الرقي والعمران ؟ يلزم البلاد العربية في هذا الزمان عشرون سنة في الاقل من السلم الدائم المستمر ، فتؤسس المدارس اثناءها — تفتح على الدوام — وتنفتح لابنائها الاذكياء ابواب العمل في الصناعة والزراعة وفي علوم الادارة والاقتصاد . هذي هي الحقيقة الاولى التي لا يجهلها او ينكرها احد من ادباء وعقلاء البحرين .

اما الحقيقة الثانية التي الفت اليها نظر الانكليز فهي ان السياسة العربية التي تمشوا عليها في الماضي لا تصلح اليوم لا لهم ولا للعرب . هي تضر بمصالح بريطانية العظمى ليس في البلاد العربية فقط بل في الشرق اجمع ، وتضر بالاسم الانكليزي وكل ما يرمز اليه من ادب وعلم وكرم اخلاق وثقافة . السياسة الانكليزية في البلاد العربية تخبطت في مضيق جانب منه مظلم ، وجانب براق فيه وشل من الماء خدع المحبين ، يخفيه سراب خدع الاعداء . مثل ذلك في البحرين ، وعدُها الشيوخ بالدفاع عن البلاد اذا هم دمروا اسطولهم الحربي . ولكن كل دفعة من ذاك الدفاع افقد البحرين كما يبنت شيئاً من حريتها واستقلالها . قد كان الدفاع درجات الى الاستيلاء . فمن يثق بعد ذلك بوعود الانكليز وعهودهم ؟ اما اذا كانوا يبغون رفع العلم البريطاني فوق دار الحكم في الجزيرة فليس اسهل من ذلك . ان دولة من الدول الصغيرة التي لا تزيد قوة اسطولها على ربع قوة الاسطول البريطاني لتستطيع ذلك في يوم واحد . واعمري ان مثل هذا الاحتلال خير من تلك

السياسة التي هي كالبركان او الزلزال، لا يظهر شيء من قصدها الحقيقي الا مرة كل خمس او عشر سنوات.

حدثني احد ادباء البحرين قال : اذا كان هناك فرق بين الاستعمار الانكليزي واستعمار الدول الاخرى فهو ان هذا كالجزار الذي يقتل شاته دفعة واحدة وذاك كمن يعذب الشاة وخزاً بالابر حتى الموت. فاي الميتتين اولى واي الجزارين ارحم؟

ولو لم اكن شاهدت ما شاهدت وسمعت ثم تحققت ما سمعت لكنت اقول ان محدثي الاديب انما هو شرقي يتكلم. ولكنها ويالاسف الحقيقة بعينها لا مبالغة فيها.

اما ان سياسة انكلتره في البحرين هي غير سياستها في الاقطار العربية الاخرى فما لا ريب فيه. قد اوضحت مبدأها المرن في معالجة شؤونها الخارجية بحسب اختلاف المكان والزمان، وشرحت ذاك المبدأ في سياستها العربية في كلامي على لحج والنواحي التسع المحمية. وبما ان وزارة المستعمرات تدير هذه السياسة بواسطة وزارة الهند بلندن، ثم بواسطة حكومة الهند ببمباي او بسمله، فلا اظن انها عالمة كل العلم بما يحدثه من المشاكل وكلاؤها السياسيون في البلاد العربية ولا سيما في خليج فارس. فضلاً عن ان الوكيل يموه في بعض الاحايين دفاعاً عن عمله وحفظاً لمركزه. قد توخيت الصراحة التامة في ما اكتبه بهذا الشأن غيرة على الاسم الانكليزي وحباً بتحسين وتعزيز العلائق الودية بين انكلتره والبلاد العربية. ومما ينبغي لي ان اذكره أن كثيرا ما يسوّد صحيفتها احد ابنائها المقربين الذين لا يكونون في الشرق مؤمَّرين لولا نفوذ بعض اصدقائهم واقاربهم في الحكومة بلندن.

حدثني احد الموظفين في حكومة العراق عن ثورة ١٩٢٠، وعندما علم اني مسافر الى البحرين قال : ستجتمع هناك بواحد ممن وصفت. وكان قد افاض بالحديث في طبقة من الموظفين الذين يتخذون السر آرنلد ولسون مثالا في الحكم فيحذون حذوه في سياسته وليس لهم شيء من حسناته،

ضباط قلما يصلحون لغير الخدمة العسكرية. لا يفهمون العرب ، ولا يحبونهم ولا يعطفون اقل العطف على قضيتهم .

الرجل الذي اشار اليه محدثي كان في الديوانية حاكما سياسياً ورتبته العسكرية كرنل . وكان في سلوكه متعسفاً متصلفاً فكرهه الناس . وقد اهان وضرب مرة رئيس عشيرة هناك فثارت عليه وعلى الانكليز العشيرة ، فكانت الجذوة التي اضرمت نار الثورة في العراق. وقد حوصر في مركزه بالديوانية يومئذ ففر منها في طيارة هارباً ، فجازته الحكومة بان اسقطت رتبته العسكرية من كرنل الى ميجر ثم عينته وكيلاً سياسياً في البحرين .

جئت البحرين وما تمكنت من الاجتماع بالميجر ديلي[1] الا مرة في مؤتمر العقير. ولكني مما سمعته—وقد حدثنا به الكبير والصغير والوطني والاجنبي— تحققت ما قاله زميله في حكومة العراق. الرجل مكروه ولا غرو ، فهو يكره العرب ويزدريهم ، ويقاوم كل فكرة اصلاح في الجزيرة غير التي يكون له فيها الكلمة الاولى والاخيرة ، ولا يرى حقاً في غير القوة ، ولا عدلا في غير سياسة العسف والاستبداد . فهل هي ياترى سياسة دَوْنِن ستريت بلندن او ابي شهر ؟ وما هي اذا كانت من الاثنين سيئات الموكل وسيئات الاصيل ؟

ان الميجر ديلي موظف له رئيس في ابي شهر ، وللوكيل في ابي شهر رئيس في سِمْلَه[2] ولولي الامر في سمله رئيس في دائرة حكومة الهند بلندن ، ولرئيس تلك الدائرة مستشاران او وزيران في الوزارة الخارجية ووزارة المستعمرات . ولهاتين الوزارتين سياسة ثابتة قديمة التقليد غامضة المقاصد في الشرق وفي البلاد العربية تتمشى دائماً عليها . وكثيراً ما تصدر الاوامر من احديها مبنية على هذه الخطة لا على الجديد المهم من الاحوال في البلاد التي تختص بها . فتجيء الاوامر وما فيها غير النزر من العدل والحكمة ، بل ما فيها شيء احياناً من الحكمة والعدل . فتطلق الى رجل متصلف متعسف

---

(١) Major C . K. Daly

(٢) المركز الرئيسي للحكومة الانكليزية في الهند

قصير النظر والاناة فينفذها بالحرف ويثير على امته غضب الاهالي و كوامن بغضائهم[1]. فلو كان الرجل حصيفاً حكيماً ، مدركاً عوامل النشوء في البلاد التي هو فيها ، عطوفاً ولو بعض العطف على مساعي الوطنيين في سبيلها ، لكان يطلع حكومته على حقيقة الحال ويسألها التبصر بها والاسترشاد بشيء من حقائقها في تكييف الخطة السياسية وتلطيفها . ولو كان الرجل كبيرا ، مثله الاعلى العدل في كل الاحوال ، او لو كان في الاقل دمث الاخلاق لين الجانب محباً للعرب لكان يتمكن من خدمة بلاده بما فيه كذلك مصالح البلاد التي وكّل بها . ليس هذا بالامر المستحيل ، وليس مثله بالرجل النادر في الحكومة او في الامة الانكليزية . اعود الى الحادث الذي اوجب هذا البيان . طلب اهالي البحرين في الثلاث سنين الاخيرة ثلاثة مطالب من الحكومة كلها ولا شك عادلة . فوقفت السياسية الانكليزية تصدهم وتقاوم مسعاهم . طلبوا تشكيل جمعية تشريعية فاجاب الشيخ عيسى بالايجاب وابى البليوس . طلبوا تنظيم بوليساً وطنياً فرضي الشيخ عيسى ورفض البليوس وأصر على الرفض . قدموا لائحة اصلاح[2] استحسنها الشيخ عيسى وعزم على تنفيذها فقامت عليه وعلى

---

(١) جاء في احتجاج وقّعه واذاعه الشيخ محمد بن عبد الله ال خليفة مايلي :

« قد كانت علاقة (الميجر ديلي) منذ حضوره الى البحرين قائمة على المشاكسة والمعاندة واقامة العراقيل في وجه الحكومة الوطنية واحتقار العنصر العربي . . . وكان :اول اعماله عزل سكرتير البلديه لاختلاسه كما ادعى من اموالها . ولما كتب اليه نائب احكام البحرين يطلب محاكمة الرجل زجراً لغيره غضب وحمل على كاتب المذكرة . ففهمنا من ذلك الوقت ان الوكيل لا ينفذ سياسة معينة ولكنه يخدم الشخصيات . ثم رأينا عرائض الشكر والثقة يدفعها الى بعض المترزقين فيهددون الناس بامضائها . . . ولم يمض على ذلك مدة حتى قتل احد البستكية ضربا في دار القنصلية لاتهامه بسرقة خاتم . ولما احتج مدير التعليم على هذا العمل الوحشي انتهز الفرص لابعاده . »

وبعد ان عدد غيرها من الحوادث التي انتهت في عزل جده سمو الشيخ عيسى ختم رسالته قائلا : « فانا باسم البحرين وباسم العدالة المشهور بها الشعب البريطاني ارفع صوتي لرجال بريطانيه العظمى لينقذوا من احتمى بهم منذ نصف قرن مما لحقه من الغبن وينقذوا الشرف البريطاني مما دنسه من سؤ المعامله . . . »

محمد بن عبد الله
الخليفه

(٢) من قرار مؤتمر البحرين المنعقد في ١٥ ربيع الاول سنة ١٣٤٢ الموافق ٢٦ ايار سنة ١٩٢٣ :

(اقلب)

الوطنين قيامة الوكيل وبذل ما لديه من قوة ونفوذ في حبوطها .

وبعد ان عزل الشيخ عيسى قام اهل البحرين يشكون ويحتجون فاسمعت شكاويهم ولا نفع الاحتجاج . القوة لا تحترم غير القوة . غضب السلطان عبد العزيز في الرياض فارعوى الوكيل في ابي شهر ، وعُزل الاعجمي خان بهدور شريف من رئاسة البلدية في البحرين . ولكن عندما ارسل وكلاء الامة الى الوكيل يقولون في احتجاجهم : « اذا حالت القوة النارية بيننا وبين الاحتفاظ بشريعتنا الاسلامية و كرامتنا القومية غادرنا الوطن » ــ وكان بعض العشائر قد باشروا الجلاء ــ اجابهم يقول : « ان دولة بريطانية العظمى تساعد الشيخ حمد في كل عمل معقول يجريه لمنعكم عن الخروج من البلاد . وتساعده بان يعاقب كل شخص لا يمتثل اوامره . اما حكام بلاد العرب المجاورون فقد اخبرناهم بافكار الدولة البهية وافهمناهم الا يقبلوا عشائر البحرين واهلها وان لا يأووهم في بلادهم . . .

« قد اجتمعنا وتعاهدنا على السعي في الحصول على المطالب الاتية :

اولا : استمرار الشيخ عيسى في مباشرة الامور الداخلية كما كان سابقاً بدون مداخلة القنصل مع المحافظة على ماييننا وبين بريطانية العظمى من الروابط الودية بدون زيادة او نقصان . واذا اراد الشيخ عيسى ان ينيب ابنه الشيخ حمد مثلا فلنا عليه ما لنا على والده .

ثانياً : ان تجري الاحكام جميعها على الشرع الاسلامي وعلى القانون المرضي الذي هو من الشرع ومطابق له .

ثالثاً : انتخاب مجلس شورى من عموم اهل الوطن ينظر في مصالح البلاد .

رابعاً : تشكيل محكمة من اربعة اعضاء عالمين بامر الغوص للنظر في جميع دعاوي الغوص .

خامساً : وقوف القنصل عند نص الاتفاق الذي بين الحكومة البريطانيه وحكومة البحرين فلا يتدخل في الامور الداخليه .

سادسا : انتخبنا منا اثنى عشر شخصا وهم الشيخ عبد الوهاب الزياني والشيخ عبد اللطيف بن محمود والسيد عبد الله بن ابراهيم وحسين بن علي وشاهين بن صقر ومحمد بن هندي واحمد بن جودر وعيسى الدوسري واحمد بن لاحج ومهنا بن فضل ومحمد بن صباح وجبر المسلم لاجل القيام بهذا الامر والمطالبة بتحقيقه بكل الوسائل المشروعه . »

قد اعتقل الوكيل من هؤلاء الشيخ عبد الوهاب الزياني زعيم النهضه الوطنية في البحرين وزميله احمد بن لاحج ونفاهما الى الهند بدون محاكمه .

« واذا اقدم بعد هذا الانذار اناس على الجلاء فيعاقبون اولاً بضبط اموالهم ، ثانياً باسقاط مالهم على البحارنة من الدراهم ، ثالثاً بمنع سفنهم من الغوص . فتنبهوا وامتثلوا اوامر شيخكم وافهموا ان نصيحة بليوس البحرين للشيخ حمد هي بعلم الدولة البهية ورضاها . »

يمنعونهم عن الجلاء ، ويعاقبونهم عليه ، ويطلبون من جيرانهم ان لا يقبلوهم او يأووهم في بلادهم . ان هذا لمنتهى الغرابة في الظلم . ولكن الانكليز وحدهم لا يقدمون عليه ولا يتمكنون منه ، فيستعينون بأمير من امراء البلاد ، فيعينهم على ابناء بلاده .

سمعت شكاوي الوطنيين في البحرين ، وسمعتها في ما اتصل بي من اخبارها بعدئذ في الفريكة ، فافسحت لها مجالاً في هذا الكتاب تستحقه ، وكتبت الى احد الافاضل هناك كتاباً اقتطف منه منه ما يلي :

« ان في الامر ما يضعف الامل بالانكليز . ولكن التاريخ لا ينبئنا بحادث من الحوادث كانت فيه احدى الامم القوية الاستعمارية متغلبة وحدها على امة اخرى صغيرة . بل نرى غالباً ان المغلوب يساعد على نفسه الغالب المنتصر . ماذا يحمله على ذلك ؟ الجهل ياسيدي والضعف والجبن والخنوع والمصلحة الخاصة والطاعة العمياء — اما الطاعة العمياء فقد تفيد في سبيل وطنية عامة كبيرة كما لو كان العرب كلهم اليوم يطيعون ابن سعود مثلاً او الملك حسيناً او الامام يحيى بن حميد الدين ويمتثلون اوامره . عندئذ يعز العرب وعندئذ يصلح الاوروبيون سياستهم في الشرق ، وعندئذ ، اذا طغى في البحرين او في قطر اخر طاغ اجنبي او وطني تذكرونه بكلمة ذاك العربي الى الخليفة الثاني وتقوّمون امره بحد السيف .

« اما الان فعليكم ان تقتبسوا العلوم وتصبروا . واني اعتقد ان العلم بالاقتداء هو اسرع فعلاً واثبت . لذلك استحسن وجود الشركات الاجنبية المجردة من كل صبغة سياسية في البلاد . فانها تعلمنا الاقتصاد والنظام والادارة من حيث لا ندري او نشاء . والعرب في حاجة شديدة اليها كلها . . .

« ما جنى على العرب ياصديقي العزيز غير انفسهم . كنا وكنا وكنا — حديث مبتذل . يوم اقفلت المدارس في البلاد فعم الجهل وتوارثه الابناء كنا الجانين على انفسنا ، المقيدين بالجهل ارواحنا ، وبالخرافات عقولنا . واليوم نرى العلم والمال بيد الاوروبيين . ويوم كان الاثنان بيد العرب اخذهما الاوروبيون عنهم . فهلا اقتدينا بهم في الماضي فنأخذ عنهم اليوم ثم نأخذ عنهم ؟ ونربي في الوقت نفسه روح القومية الشاملة فينا . لو كنت في سورية وعرفت سبب بليتها لقلت : اما نحن فعرب من صميم العرب ودينا الاسلام. فلا سبيل اذن الى التفرقة جنساً ومذهباً : ولو كان لكم عشر سنوات من التعليم المدني العام لفقتم غيركم في الربوع الساحلية . وهذا ما ابغيه لكم . التعليم في المدارس . التعليم بالاقتداء . ألا ان العربي الكسلان اذا رأى ما هو مدفون في ارضه من الخيرات تتغير نفسيته وعقليته وكذلك اعصابه فلا تيأس ياصديقي ، ولا تظن ان الله يخص جيلاً واحداً من خلقه بالكمالات كلها .

« واذا شئت ان احدثك كطبيعي لا كالهي اقول : ان الناموس الطبيعي الذي يعمل في عالمي الحيوان والنبات يعمل كذلك في الانسان وفي الاجتماع البشري . ومن النادر ان يرى الانسان نشوءاً تاماً ، بداية ونهاية ، في نوع واحد من النبات او جيل واحد من الناس . اما نحن الذين نقاسي ما نقاسيه في هذا الزمان فقسمتنا قسمة من يجيء في آخر دور النشوء او في اهم اطواره . فنرى بعين البصيرة نتيجة ما مضى وما هو كائن فنتألم لانها دنية منا وقصية ، دنية لاننا نراها ، وقصية لان اليد لا تصل اليها . لنحمد الله اننا نراها في الاقل فنقبل قسمتنا قانعين وعاملين في نفس الوقت في السبيل الذي هو روح الناموس والتطور .

« تلذ لي محادثتك وانت من المفكرين . فكل مفكر يتألم ، ولكن ليس كل من يتألمون واحد . منهم من يقتلهم الالم ، ومنهم من يزيدهم قوة على العمل . الامة المتألمة اليائسة تموت — تساعد المتغلب عليها . والامة المتألمة الطويلة الامل الناهضة تحيا — تساعد ابناءها على المتغلبين . »



ص ٢٥٠ — ٢٥١

جلالة الملك فيصل بن الحسين بن علي

القسم الثامن

الملك فيصل والعراق

العراق

حدوده : شمالاً ، جبال ارمينية والاناضول . شرقاً ، بلاد ايران . جنوباً ، خليج فارس . جنوباً بغرب ، البادية وحدود نجد . غرباً ، البادية وحدود الشام .

الويته : ١ً الموصل ، ٢ً السليمانية ، ٣ً كركوك ، ٤ً شبه لواء اربل ، ٥ً ديالى ، ٦ً بغداد ، ٧ً الكوت ، ٨ً الدليم ، ٩ً الحلة ، ١٠ً كربلاء ، ١١ً العمارة ، ١٢ً المنتفق ، ١٣ً البصره .

عدد سكانه : نحو مليونين وتسعمائة الف نفس ، منهم مليون ونصف مليون من الشيعة ، ومليون ومائة وخمسون الفاً من السنة . وثمانية وثمانون الفاً من اليهود ، وثمانون الفاً من النصارى ، واثنان واربعون الفاً من الاديان الاخرى .

مساحته : نحو مئتي الف ميل مربع .

شعوبه : العرب والفرس والاكراد والاتراك والارمن والاشوريون .

اهم قبائله : المنتفق وبنو لام والبومحمد وربيعة وتميم والدليم وعنيزه وشمّر والاقرع وعفك وما يتفرع عنها كلها من الافخاذ والبطون العديدة .

مذاهبه : الشيعة : جعفريون وبعض الزيديين والاسماعيليين .
السنة : حنفيون وشوافع وحنابلة .
المسيحية : يعاقبة ونساطرة وكلدان وسريان وكاثوليك وروم ارثوذكس وبروتستانيون . ثم اليهود والصائبه واليزيدية والفرس والهندوس والبهائيون .

الفصل الاول

من العُروبة الى التغرُّب

الاسلوب الغربي في المراسلة — الارقام والاسماء — اقتصاد قبيح — شرقي متحذلق — لهجة من البصرة وشتائم من لندن — مسيحي يتفوق ويتسكسك — شهم انكليزي — الفرق بين العرب والهنود — شرب الوسكي — رطانات البصره — محطة سكة الحديد — قطار مستشرق — عربية اوردية خنفشارية — القاطره تكسر رجلها — النجدة من أور الكلدانيين — الاعرابي وعياله المسافرون الى بغداد — القطار ينتظرهم عشر ساعات — ضابط انكليزي يحمل على الرئيس ولسون — في محطة بغداد — واين انتِ يا بغداد ؟ — رجل ينادي : بابو ، بابو ! — الرطانات الاوردية — عربة الموتى — اركب في جنازتي — سيارات النقل — جسر « مود » — من نزل الى اخر — اين امين الكسباني ؟ — الامينان يلتقيان — كاتب سر جلالة الملك المعظم يزين روحه في كوخ مفجع — الحرية والاخاء والتنازل عن المساواة — عند كاتب السر الاول — في القصر — الملك فيصل

ابحرت من عدن اقصد الى العراق. فلما وصلت الى بمباي التي لا بد من التعريج عليها اذا كان السفر في احدى بواخر الهند ، لقيت في قنصلية اميركه كتاباً من الديوان الملكي في بغداد كُتب على الالة الكاتبة العربية هذا نصه :

بغداد — ١٠ / ٦ / ١٩٢٢

حضرة الفاضل امين افندي ريحاني المحترم

اما بعد التحية والاكرام . فقد تناول صاحب الجلالة الملك فيصل كتابكم الصادر من لحج في ٧ شعبان وامرني بالكتابة اليكم معرباً عن سروره بقدومكم العراق ومتمنياً لكم سلامة الحل والترحال في طريقكم اليه وتوفيقكم في ما تزعمّ بهذه الرحلة لاجله .

وقد ارسلت الكلمة الى بمباي لاجل تصديق جواز سفركم الى العراق .

واما توجهكم الى الرياض فقد أرسل السؤال به الى عظمة السلطان عبد العزيز ومتى جاء جوابه بعثنا اليكم به والسلام . رستم حيدر

هوذا غير ما الفته في اليمن والحجاز . كتاب غربي الاسلوب حتى في تاريخه ، يخلو من الديباجة والتنميق . وفيه الدليل على النفرة من تلك الطريقة القديمة التي تبدأ غالباً بالبسمله وتنتهي بـ ان شاء الله ، ويُخبأ الغرض من الكتابة فيها بين مدبجات التبجيل والتمجيد او يضمّن قصاصة عنوانها « حاوي خير » . فتكون هي الكتاب يقيناً ، ويكون الكتاب الرسمي ترهة من الترهات .

قد احسن الديوان الملكي لدولة العراق المتغربة . ولكن الاحسان في الاقتباس درجات تتجاوز الخروج من المألوف العربي الى المألوف الغربي على اني وان كنت افضل الخط العربي على هذه الاحرف العربية السمجة ، وارى في الكلمة المخطوطة حساً لا تظهره بل تقتله احرف الآلة الكاتبة ، فقد استبشرت بهذا الكتاب لما يرمز اليه ، وان كان في اول سطر منه ما هو في نظري من قبيح المقتبسات الاوربية . فان الاستعاضة عن اسماء الاشهر بالارقام في التاريخ لمن المبالغات الحديثة بالاقتصاد عند الغربيين . وما كل مظاهر الاقتصاد آية في الحكمة والجمال . اما اذا قيل ان المسئلة ذوقية فجوابي هو ان ذوق الشرقيين فيها ارفع من ذوق الغربيين . وفي كل حال ان الالفاظ اجمل من الارقام نظراً وسمعا ومعنى . اذا كتبت زانها الخط ، واذا لفظت زانها النطق . مثلاً : ايار وحزيران وتموز — ٥ و٦ و٧ او شعبان ورمضان وشوال — ٨و٩و١٠ . فاية الطريقتين اجمل ، بل اي الذوقين اصح ؟

المسئلة طفيفة ولكنها حرية بالاعتبار في ما تومىء اليه من عقلية مقلّدة . قد استبشرت مع ذلك بكتاب الديوان الملكي لما قرأت خلال سطوره من المقاصد الحميدة في دولة العراق الجديدة . ورأس هذه المقاصد انما هو فك قيود التقاليد القديمة العقيمة وان كان في تاريخ الرسائل وانشائها . بيد انه يتبادر

الى الذهن فكر في سؤال : هل يعد مجرد التقليد الخارجي من مظاهر الارتقاء ؟

سافرت من بمباي الى البصرة في باخرة انكليزية من بواخر الخليج. وكان حظي فيها اني شاهدت مثالاً اخر من الرقي العراقي قبل ان اصل الى العراق. اجاب احد المسافرين سؤالي دون ان يدرك ذلك ، ودون ان يحدثني . هو رجل ابيض الاديم ، اشقر الشعر ، ازرق العين دخل ورفيقاً له يتقدمان نفراً من الخدم يحملون امتعتهما . وكأن احد اولئك الخدامين اخطأ في ما فعل فانهال عليه المسافر الاشقر بالشتائم والمسبات بلغة انكليزية فيها لكنةٌ قبيحة . اللهجة من البصره والشتائم من حانات لندن .

عرفت بعدئذ ان رفيق المسافر ارمني وهو يعرف الانكليزية ايضاً ولا يحدث حتى رفيقه بسواها . . وما شككت بانهما عرفا اني عربي لاني كنت معلناً ذلك على رأسي بالكوفية والعقال . مر اليوم الاول والثاني والثالث فاتفق ان التقينا على ظهر الباخرة صباحاً فسلمت باللغة العربية فرد سلامي باللغة الانكليزية . فقلت : انه ولا شك ارمني . ثم عرفت انه ورفيقه من تجار التمر في البصره فلم يتنازلا لمحادثة غير بعض الانكليز في الباخرة الا انه سالني ذات يوم عن الشهر الاسلامي الذي كنا يومئذ فيه فاجبته بكلمة فشكرني باخرى وكانت الخاتمة .

بعد ثلاثة اشهر كنت وبعض الاصحاب نشاهد سباق الخيل خارج البصره فرأيت هناك رفيق السفر الاشقر الامجد وهو يحمل ناظوره كالانكليز معلقاً في عنقه ، فبسم لي ابتسام التزلف ثم دنا من احد رفاقي وسلم عليه باللغة العربية — التي لا لكنة فيها . فاستطلعت بعدئذ خبره اليقين فقال صديقي : هو من البصره ، من مسيحي البصرة ، سمسار تمر . فقلت : يظهر ان عندكم في العراق طبقة من الناس شبيهة بطبقة المتفرنجين في سورية . المتحذلقين المتفوقين بين قومهم ، المتسكسكين امام الاجانب . فقال : نعم ، وهم يتشبهون بالانكليز كما ترى بحمل الناظور ولبس القفازات في الصيف .

اعود الى سؤالي : هل يعد مجرد التقليد الخارجي مظهراً من مظاهر

الارتقاء ؟ ان في رفيق السفر هذا جواباً واحداً لا اظن القارىء يرتاب بصحته. ولكن هناك رفيق سفر اخر وجواباً ثانياً . هناك طبيب انكليزي كان على عادة قومه الاماجد في السفر يعتزل الناس فيجلس في الزاويــة او في كرسيه على ظهر الباخرة يدخن الغليون ويطالع كتاباً . وهو قلما يكترث بلبسه . بيدانه وان كان «بنطلونه» غير مكوي و «ساكوه» اشبه بالكيس منه بثوب مخيّط ، فاذا وقف ومشى مشت المهابة في ظله وافصحت عن كريم محتــده . دنا هـذا الرجل يوماً مني فاعتذر وسلم وجلس الى جنبي قائلاً : انت عربي . فقلت : نعم . فقال : وعلى ما اظن من العلماء . فقلت : سائح طالب علم . فقال : هذا تواضع منك . قد سمعت من حدث عنك في بمباي . ثم قدم بطاقته فبادلته الاكرام.

—اني مما اعرفه عن العرب وهو قليل احترم الامة العربية كل الاحترام. اقمت زمناً في الهند ، في خدمة الهنود ـ وليس في الطب سياسة كما تعلم ـ فما لقيت جزءاً مما لقيته في بضعة اشهر في بلاد العرب على هذه السواحل ـ كرم الاخلاق ، الاخلاص ، الضيافــة ، انك لا تجدها في الهنود . اما الشجاعــة والرجولية فهما في المسلمين منهم فقط . لا اظننا نقاسي في الهند ما نقاسيه لو كان في الهنود شيء من وفاء العربي واخلاصه اذا آخاك ، قد تكون طالعت تاريخ الانكليز في تلك البلاد فتعرف كم من مرة طعننا الهنود في الظهر —خانونا وغدروا بنا— بعد ان عاهدونا على الولاء .

قال هذا ودعا الخادم فطلب كأساً من الوسكي والسودا وسألني متردداً عما اذا كنت اشاركه . فاجبت بالايجاب فقال : اعرف من المسلمين من يشرب الخمر . فقلت : اني مسيحي وآسف أن من المسلمين العصريين من يظنون التشبه بالانكليز منحصراً بشرب الوسكي . حبذا المسلم المواظب من هــذا القبيل على دينه . فقال الحكيم : صدقت . نحن الانكليز نبالــغ في الشرب — نشرب كثيراً . خذني مثلاً . اني اشرب الوسكي قبل الاكل ، واثناء الاكل ، وبعد الاكل ، واشرب بين الوجبات كما ترى . . . نعم ، الانكليزي في الهند ، او بالحري خارج انكلترا ، يشرب اكثر مما يشرب في بلاده . والسبب في ذلك

البعد على ما اظن عن الوطن والاهــل ، ثم ساعات الفراغ بين ساعات العمل وليس ما يملأها من الاجتماعات او الملاهي . ثم ــ وهو الخطأ الاكبر ــ ما نظنه منبها للحواس في ما يصحب كأس الوسكي . وبودي لو اقتدى الانكليز بالمسلمين . فقلت مميزاً : المسلمين الذين لا يقتدون بكم في شرب الوسكي . وكانت الضحكة مسك الختام .

عندما وصلنا الى البصره صعد الى الباخرة موظفو الجمرك والصحــة والشرطة واكثرهم من الهنود . وكنت قد ارسلت تلغرافاً من بمباي الى صديق لي في الديوان الملكي ببغداد علّه يأمر في البصره من يلاقيني ليهديني في الاقل الى محطة سكة الحديد . فوجدت نفسي ، ولا احد يسأل عني ، أغرب في هــذا البلد العربي القديم مني في «كارتشي» الهنديــة . وانا العربي الذي قضى الايام والليالي يطالع الحريري والجــاحظ ، ويطحن كريات دماغــه في طواحين الكساءي وسيبويه ، ــ ولا اقول الرحالة الشهير القادم من اليمن ــ اراني وقد نزلت من الباخرة بين قوم لا افهم لغتهم . فيكلمني الحوذي بعربية يضطر ان يترجمها الى شيء من الانكليزية يُفهَم . هو ايضاً هندي . ساق جواده الاعرج بجر عربة مكسرة وفيها بقية آمال مبعثرة تدعى الريحاني .

رحنا في قفر سبسب خارج البصره ، فاجتزنا معسكراً مهجوراً ، ثم آخر فيه بعض الجنود الهندية ، ووصلنا بعد ساعة الى محطة السكة بل الى بقعــة ينتهي عندها الخط . ولا محطــة غير كوخ لبيع التذاكر وجدناه مقفلاً . ووجدنا خارج الكوخ ولداً عربيا ، والحمد لله ، تلطف فراح ملبياً طلبنــا يبحث عن الموظف . فعاد بعد ساعة يتبعه رجل ــ هندي ــ هو مدير السكة ولكنه يحسن الانكليزية . فسألته سؤالا تعمدت فيــه التعريف علّه يكرمني في الاقل بان يخصني بشقة في العربة وحدي . وكان الرجل فهيما كريماً ، فكان لي ما شئت . اعطاني تذكرة واحلني في القطار محلاً فسيحا فيه ماء وحمــام . وكنت قد كتبت برقية الى الصديق امين الكسباني في الديوان الملكي بالعاصمة وهممت بالرجوع الى بيت البرق لارسلها فاخذها مني قائلاً : سارسلها من

هنا رأسا . ثم امر بمن يعتني بامتعتي وودعني قائلاً : اذكرني لدى نوري باشـا . الوداع صاحب .

الوداع صاحب . انت وان كنت كريماً لمن اغلاط الانكليز في العراق . والمسيحي المتفرنج وان كان عالما لمن اغلاط التاريخ في العراق ، والمتغرّب اليوم في القشور فقط ، مسيحياً كان او مسلما او اسرائيلياً لمن اغلاط الاجتماع في العراق ، بل في الشرق كله . حبذا مدنية جديدة تمتع الشعوب على السواء بثمارها اليانعة . والحق يقال ان ما ترمي اليه المدنية الحقة ، غربية كانت او شرقية هو تعميم وتعزيز قياس واحد في اداب المعاملة واداب السياسة بين الامم . فلا يستشرق الغربي ولا تستشرق الصناعة الغربية اذا ما لفحتها شمس الشرق ، ولا يتغرب الشرقي في سطحيات الحياة اذا ما بسم له خادم السيد الاوربي .

صفرت القاطرة وجرت ، فجرّت وراءها قطاراً مستشرقا جيء به وبعماله من الهند — قطاراً عسكرياً من بقايا الحرب . لا اظن امة من الامم الاوروبية او الاميركية تستخدمه لغير الشحن ، فتصلحه مع ذلك وتجدده . والقاطرات في اشد حاجة الى التصليح من العربات . بل قد تكون اجتازت زمن الخدمة فامست لا تصلح للعمل ولا يصلح فيها للبيع غير الحديد كسراً ووزناً .

خرجنا من ضواحي البصرة مساء في قطار البريد « السريع » الذي يصل الى بغداد ساعة الغروب من اليوم التالي ، اللهم اذا سلمت القاطرة من عاديات الطريق . قد سلمت والحمد لله ليلاً . فنهضنا صباحاً فاذا نحن في أور الكلدانيين في الوقت المعين بلائحة السفر . وهـذا خادم عربة الاكل جاءنا بفنجان من الشاي قدمه من النافذة اذ لا تماشي في هذه العربات تصل الواحدة بالاخرى .

وسرنا من أور الى الدراجة فوقفنا فيها وقفة نفذت بالعظم صـدمتها . وقفنا فجاة وثبتنا تجاه العاديات ثبات الابطال . نظرت الى لائحـة السفر فاذا فيها : الفطور في سماوه . ولكن خادم المائدة جاء بعد ساعة يدعونا للاكل

فخرجنا من منازلنا وسرنا نلبي دعوته ونستطلع خبر القاطرة . فعلمنا انها ، حرسك الله ، كسرت رجلها ، وانهم قد ارسلوا الى اور يستحضرون قاطرة اخرى .

ولت ساعات الصباح واشتد الهجير فصعد الزئبق في الميزان الانكليزي الى درجة المائة والست درجات ، فعمدنا الى المراوح في العربات فاذا هي مثل كل شيء في ذاك القفر نائمة ولا حياة فيها . ثم جاء الخادم يدعونا ثانية للاكل — الغذاء . فوددنا لو ان ساعات الانتظار كلها ساعات اكل وشرب وحديث ، فتنسينا مصيبة القاطرة ومصيبتنا في فيافي العراق وقيظه .

جاء ونحن في الدرّاجة اعرابي يركب حمارًا يتبعه حريمه وعياله ماشين . جاءوا يبغون السفر الى بغداد في قطار البريد السريع ، وكان وصولهم الى المحطة بعد الميعاد بخمس ساعات فقط ، فقال الاعرابي يخاطب الحرمة ام عياله: ما قلت لك ياسعيدي ان القطار ينتظرنا . وقد انتظر غيره من البدو هذا القطار المستشرق اللطيف . ثم جاءت القاطرة الصالحة من أور بعد الظهر فخرجت بنا من الدراجة وراحت تشيل بذنبها ، بارك الله فيها ، فاوصلتنا الى السماوة ساعة الشاي . ثم الى الديوانية التي كان قد اعد لنا الغداء فيها فقدّم عشاء باردا .

جلست الى المائدة واثنين من الانكليز منهما ضابط علمت من الشرائط الصفراء والحمراء والخضراء التي على صدره انه من ابطال الحرب ، وعلم ، والله اعلم ممن علم ، اني قادم من اميركه . فسدد توًا الى الرئيس ولسون اسهم غضبه.

— قد نزع من يدنا السلاح الذي لا يصلح لضبط امور العراق سواه ، سلاح القوة ، العزم ، الشدة .

فقال رفيقه : لولا تدخل اميركه لكنا اليوم نحكم العراق كما يجب . فكمل الضابط قائلاً : ولخير العراق . . . وما الانتداب؟ وما حق تقرير مصير الشعوب ؟ الفاظ هي ليس الا . قد حكم القوي الضعيف مئات من السنين قبل ان اخترع لنا رئيسكم ولسن هذه الكلمة — الانتداب . وحكمه حيناً بالعدل وحيناً بالعسف

والشدة ، بما تسمونه ظلما . وكان الظلم احياناً انفع له من العدل . وهل تظن ان هذه الكلمات الجديدة ـ الانتداب ـ تقرير مصير الشعوب ـ تصلح الشؤون وتحرر الامم ؟ ترانا مقيدين في هذه البلاد بارادة عصبة لا سيادة لها ، نعم ، عصبة الامم ، وبازاء رجل نظيري يحلم الاحلام هو رئيسكم المستر ولسون فلا نستطيع عملاً مفيداً لا لانفسنا ولا لاهل البلاد .

اعجبني من الرجل يقينه وصراحته ، فالجرأة الادبية مستحبة دائماً . وما هو بعسكري فقط بل من غواة الادب ايضاً . رأى معي كتاباً للمؤلف الشهير المستر ولْس فاستعاره ولكنه لم يُعده الي . وعل التبعة في ذلك على القطار لاننا بعد ان دخلنا كل الى منزله لم يرَ بعضنا بعضاً . وعندما وصلنا الى بغداد الساعة الثانية بعد نصف الليل — اي بعد الميعاد بثماني ساعات ـ كان هو ممن خرجوا من القطار وانا ممن ناموا فيه . والسبب في ذلك انه ، وان كان غريباً ، كان له بيت في البلد ياوي اليه اية ساعة كانت . وانا لم انتظر احداً من اصدقائي ان يوافيني الى المحطة بعد نصف الليل ولم أجز لنفسي طرق ابوابهم او ابواب الفنادق في تلك الساعة . فنمت ، فلم يشأ على ما اظن ان يزعجني ، فغنم بلطفه الكتاب .

نمت ساعة فايقظني صوت ينادي : بابو بابو ! ففحت النافذة فاذا باحد الحمالين يبغي خدمتي . فطردته وعدت الى النوم . ثم بعد دقائق سمعت طارقاً يطرق زجاج النافذة ، فنهضت فاذا بحمال آخر ينادي بالهندية : بابو ، بابو ! فعمدت الى العصا وكلمته بها . أتتبعني لغات الهند الى العاصمة عاصمة العباسيين وقطب دائرة الشعراء المحدثين ؟ رح يا ملعون الوالدين ! وبعد هذا السب والضرب نمت ثالثاً ونهضت باكراً فنظرت من النافذة يميناً ثم من النافذة يساراً فلم اجد لبغداد اثراً من الآثار ، ولا رأيت على الرصيف احداً من الناس . فساورني شيء من الغم ، كثير من الغم . فقلت في نفسي : الماء البارد للغم خير دواء وعندك الماء يا رجل . فاستحممت ولبست ثيابي هادىء البال متشبثاً بالامال . علّ وجهاً من وجوه الاحباب يشرق على المحطة مع شروق الشمس .

جاءت الشمس وحدها ، ولم اجد عند المحطة حتى من ينقل امتعتي الى البلد . فبعثت الولد الذي ضربته بالعصا يستحضر عربة وبت انتظر ، واقفاً وحدي في ذاك القفر المفجع ، افتش في الافاق الاربعة عن بغداد . و بعد نصف ساعة ظهر في جهة النخيل عربية لمّاعة ، يقودها جوادان مطهمان ، يزين رأسيهما الريش الاسود الكبير . فذكرني الريش بخيل عربات الاموات في جنازات النصارى . فقلت في نفسي : وانت في جنازة يارجل — في جنازة امالك ، وغرورك — في جنازة ما كنت تتمثله وتتصوره ببغداد .

ركبت في جنازتي ، فساق الحوذي خيله شرقاً الى النخيل فبدا لنا عند ما دخلنا على جانبيه شيء من حركة المقاهي في ظلال تخللتها اشعة الشمس . ثم سمعت صوتاً يذبح ، وقرقعة ترجرجت الارض منها . هي عربات النقل — سيارات الجيش الهائلة — يسوقها جنود الانكليز . والغريب ان غبارها وروائحها نفعتني تلك الساعة فاخرجتني من الجنازة . هي طلائع الحياة في بغداد اليوم . اما بغداد امس ففي كتاب الف ليلة وليلة تجدها .

وصلنا الى الجسر ، جسر « مود »[1] وهو مثل الارجوحة معلق بشاطيء دجله ، بيد انها ارجوحة من المراكب تنحني تحت ارجل المارين ، وتئن تحت دواليب العربات ، وتصفق تحت سنابك الخيل ، وتصرخ صرخات مزعجة تحت اثقال سيارات الجنود . وكان النهر في صباح يوم من ايلول صغير الموجة لطيفها يسير سيراً بطيئاً هادئاً . وذامجف البلام[2] يحرك اللجين فيه فيستحيل ذهباً في اشعة الشمس . وهناك في الجهة الشرقية تبدو بغداد بقبابها الزرقاء ومآذنها البيضاء ، وقصورها على الشاطيء تعيد الى من كان شغفا بمجد الزمان الغابر شيئاً من البهجة والانشراح . ولكن تلك البهجة قصيرة الاجل فهي لا ترافقه الا في النهر او الشط بلغة اهل العراق .

---

(١) Gen. C. F. Maude, K. C. B. C. M. G. D. S. O. هو قائد الجيوش البريطانية الجنرال ث ف مود الذي فتح بغداد في ٢٤ جمادى الاولى عام ١٣٣٥ — ٩ اذار سنة ١٩١٧ فسمي الجسر باسمه .

(٢) النوتي صاحب البلم . والبلم — اللفظة هندية — زورق للعبور والنزهة .

عبرت الجسر فاذا انا في شارع مهشم حزين كأنه بحاناته ومقاهيه خاض عباب الحرب العظمى ووصلت الى نزل « مود » فوجدت العمال يشتغلون في الترميم ، فقصدت الى نزل اخر ، فاذا الخدم يغسلون الصحن وكان صاحب النزل لا يزال نائما . فخاطبني احد الخدم يقول : ولا غرفة فارغة ولا سرير . ثم دلني على فندق في الجوار المبارك فبادرت اليه فاذا هو كالامل الضائع في صدر الجائع ، فانزلت مع ذلك امتعتي ودفعت الى الحوذي ما تبقى من ثروتي ، ودخلت الغرف واحدة بعد الاخرى ابغي احسنها فاذا هي مثال المساواة الاعلى — كلها صغيرة مظلمة باردة عفنة. فقلت : لا حول ولا ، قد يكشف الفطور البلا .

فطرت ثم سألت الخادم عن الهاتف فقال انه لا يزال نائما . فقلت : التلفون اريد . فقال : تجده في « المَدْ جسْتِيك » فسددت خطوات اليأس الى النزل ذي الاسم الجليل ، فلقيت صاحبه في الباب يستنشق هواء الصباح ، فقلت : عندكم تلفون ؟ فقال : نعم .

— وهل تظن ان احداً في قصر الملك يجاوبني الان اذا تكلمت ؟

— ومع من تريد ان تتكلم ؟ مع امين الكسباني ؟

بُهِتُ حقاً ثم قلت : وهل انت ساحر ام نبي ؟ فقال : انا من تل كيف[1] وامين الكسباني عندي. ثم نادى الخادم وامره ان يدلني على غرفته .

كان الباب مفتوحاً اذ لا نوافذ للغرفة غير واحدة تفتح مثل الباب على الرواق. وكان الامين في ثوب النوم واقفاً امام المرآة يزين روحه وكانت ذقنه قد ابيضت بالصابون فلما رآني ابيض منه الوجه كذلك ووقعت الموسى من يده . ثم انهال علي بالشتائم السوداء .

— متى وصلت ؟ وكيف تصل قبل الوقت المعين ؟ هذه قباحة منك. تشغل اصحابك بك فيستعدون للقائك ثم تباغتهم هذه المباغتة. وانت الاديب المشهور بالذوق والأدب .

(١) تل كيف بلد في الموصل واهله موصوفون بالحذق والنشاط

— ألا تسمح لي بكلمة ؟ .

— سامحك الله . مـاذا اقول لمن ناموا باكرًا البارح لينهضوا باكرًا اليوم لملاقاتك ؟ القطار وصل قبل الوقت المضروب ؟ يقولون لي : ولماذا لم ينتظرنا في المحطة . واذا قلت : انه رجل مثل القطـار شاذ الطبع والسلوك ، فهم لا يفهمون ولا يعذرون .

— الا تسمح لي بكلمة ؟ .

— سامحك الله . قد خاب ظني بذوقك وادبك .

فقلت وانا لا ازال واقفاً في الباب ، صابرًا على ذي السباب : وانت الذي قضيت حياتك في انكلترة ، وكنت على العمل في الليل ادأب منك عليه في النهار ، ايزعجك الرواح الى المحطة نصف الليل او بعده ؟ وهب انك علمت ان القطار لا يصل قبل الصبح افما كان يجب عليك ان تحيي الليل ، اكراماً لصاحبك على الاقل ، لاعباً بـ «البريدج» ثم تخرج ساعة الفجر الى المحطة تستنشق الهواء ؟ الحق يقال ياامين ان سنة في بغداد اورثتك الـكسل والخمول .

وبعد هذه المشاتمة تصافحنا وسلمنا سلام الاحباب . وجلست اطالع آخر اعداد جريدة الـ «تيمس» الانكليزية التي كانت على الارض .

— نحن علمنا ان القطار تأخر ولـكنه من عاداته ان يتأخر اثنتي عشرة ساعة .

— مالنا والقطار . عسى ان يكون حالك احسن من حاله . يظهر انك الفت الظلمة في انكلتره فاحببت الاقامة في هذا النزل وفي مثل هذه الغرفة .

— هـذه بغداد ، فنادقها شبيهة بعضها ببعض ، ولا فرق بينهـا في غير الاسماء والاجور .

— أحقاً مـا تقول ؟ الا يوجد في هذا النزل غرفـة ترمقهـا الشمس ولو بلحظة ؟

اجاب الامين متبرماً : هذا احسن نزل في بغداد وقد نجد لك غرفة فيه .

فقلت مصرًا على المشاكسة : مثل هذه الغرفة ؟

— افلا تتنازل الى مساواتنا ؟

— اذكر ان المساواة اقنومين آخرين هما الحرية والاخاء . وبما اني قد آخيت النجوم واقترنت ثانية بالحرية في بلاد العرب فسأتنازل عن المساواة وانام على السطح .

فسنني بالانكليزية ثم بالعربية ثم قال : جرحت عشوني — الا تخشى البرد ؟

— اخشى العفونة اكثر من البرد . اين قصر الملك ؟

— لا قصر لجلالته .

— واين هو نازل ؟

— خارج السور — خارج المدينة .

— اوَ لا يؤذن لي ان انصب خيمتي خارج المدينة ؟ صدقني يا اخي اني امرض في مثل هذه الظلمات . قد صرت بدوياً فلا يطيب لي غير الفلاة . اليس عندكم بدو خارج المدينة انزل عندهم — معهم — عليهم ؟ ... اذن نزورهم ،

فقال الامين متهكماً : ولكنك تتنازل فتزور جلالة الملك اولاً . اليس كذلك ؟

— طبعاً ، طبعاً . لا تؤاخذني .

فضحك وسر بغلبتي . فاخبرته اذ ذاك بما جرى لي منذ وصولي الى البصره حتى وصولي الى محطة بغداد فرثى لحالي وغفر لي نزقاً انساني الواجب . وكنت قد علمت وانا في بمباى بالعملية الجراحية التي اجريت لجلالة الملك واُخبرت في الطريق الى العاصمة انها نجحت وان جلالة الملك قد تماثل الى الشفاء .

— أفلا ينبغي ان اكتب الى جلالته كتابا اهنئه بصحته واعلمه بوصولي ؟

— سنكفيك مؤونة الكتابة .

وكان قد انم صديقي تزيين روحه ، ولمَّ شعث طبعه ، فعادت اليه السكينة ، وتجلى فيه الحلم والوقار ، فصار اسلس من الماء ، كما يقال ، والين من اعطاف النسيم . امَّ الهاتف في النزل وعاد يقول : ستقابل جلالته اليوم . فسررت جداً بذلك .

وبعد ساعة ركبنا سيارة اميركية سارت بنا هائجة تثير النقع في شارع بغداد الجديد، الطويل المستقيم الوحيد، الذي يمتد من اول المدينة جنوباً الى اخرها شمالاً، وخرجنا من البوابة عند نظارة الدفاع، فمررنا بثكنة الى اليمين وواصلنا السير في طريق الاعظمية حتى وصلنا الى بستان على احدى حواشيه بيت صغير انبأت المواعين في فنائه بانه بيت فلاح يكثر عنده الحليب واللبن. بل هو بيت مدير الزراعة الخاص لجلالة الملك. ثم نزلنا عند بيت اخر صغير داخل البستان شبيه ببيوت الـ «اسبتوس» التي كانت تبنى في ايام الحرب بساعة وتنقل من مكان الى مكان، فاذا هو مفروش بالفرش الاوروبي ببساطة افصحت عن ذوق لطيف، وفيه خزانة كتب معلق فوقها صورة الملك فيصل مع الكاتب الافرنسي الشهير اناطول فرانس، ومنضدتان وراء الواحدة منهما شاب عصري، وضاح المحيا، عالي الجبين، حسن البزة، بادر الى استقبالنا، وكان في ترحيبه مثله في لبسه انيقاً دقيقاً — رسمي. هو رستم بك حيدر السكرتير الاول لجلالة الملك، وصاحب الكتاب الذي صدرت به هذا الفصل.

شربت القهوة في ديوانه، وتلمست في محدثي بالرغم عن حجاب الرسميات نفساً هادئة كيسة، وعقلية راقية، وتمتعت بعدئذٍ اثناء اقامتي في بغداد بشيء منها وراء الحجاب، سأشارككَ ايها القارىء به. اما الان فهو الذي يجل، شكراً له، بتحقيق ما جئت من اجله. عمد الى الهاتف على منضدته ثم قال: سيدنا يقابلكم الان.

سرنا في ظلال النخيل الى بيت لا يعد في القاهرة او في بيروت فخماً ممتازاً. ولكنه مبني على شاطىء دجله في بستان من النخيل، في جوار الامام الاعظم، وقبال المكان الذي ازدهرت يوماً فيه المدينة المدوّرة، مدينة المنصور. دع عنك ذكر المنصور والامام الاعظم. البيت قصر حتى ولو كان مجرداً عن المحاسن الطبيعية والتاريخية والدينية كلها. هو قصر لان ملك العراق الاول مقيم فيه.

حيانا جنديان في الباب، ثم استقبلنا احد الضباط فدعانا لغرفة فيها طاولة عليها سجل الزائرين، ثم جاء احد الامناء يدعونا الى الطابق الاعلى

فدخلنا وراءه ردهة للجلوس وبعد هنيهة فتح باب افضى بي الى غرفة النوم. وكان الاسبوع الثالث من العملية الجراحيــة وكنت الاول الذي حاز شرف الاستقبال بعدها .

الامير فيصل بن حسين بن علي بن نُمَي ، ابن بنت الرسول ، قائد جيش الشمال العربي في الحرب العظمى ، ممثل العرب في مؤتمر فرساي ، حامل لواء الوحدة العربية في اوروبه ، حاكم الشام ، ملك سورية ، ملك العراق! قد تتبعت وانا في نيويورك هذه المراحل الباهرة في ذلك التاريخ ، تاريخه القصير المجيد ، وانا معجب به كل الاعجاب ، مكبراً منه الاعمال والاقوال والمقاصد العالية ، متأسفاً اني لم اجتمع به في باريس او في لندن او في الشام ، محتفظاً بكل شاردة من شوارد الشوق والأمل . ثم وفق الله فارتحلت شرقاً الى البلاد العربية فكانت عاصمة العباسيين ، خصوصاً لان فيها بطل احــلامي ، نوراً من الانوار المقصودة ومحجة من المحجات المنشودة .

لم اشعر وانا داخل الى غرفة النوم ، على ما تقدمها من الرسميات الملكية الغربية ، باني داخل على ملك من ملوك العرب ، هو اكبرهم في اوروبه شأناً واصغرهم في البلاد العربية سناً . ذلك لان الخيــال مني رافق فيصلاً في الخمس سنوات الاخيرة فادناني منه فاحسست تلك الساعة ان وراء الستار صديقاً لي واخاً في الجهاد الوطني . وما كان الحس ولا التصور خؤوناً .

دخلت فاذا بجلالة الملك جالس على الديوان مكشوف الرأس ملتفاً بعباءته . فوقف وتقدم يلاقيني وسلم عليّ سلام الاخوان . وكان وجهه الذي شبهه احد كتاب الافرنج بوجه المسيح اشبه به يومئذٍ على ما اظن منه في الماضي . لان المرض اكسبه لوناً تخف فيه حدة الحياة وتكاد تضمحل؛ فيمتزج امتزاجاً لطيفاً بالنور الناعم الجالس هادئاً في عينيه ، ثم جوّفه قليلاً تحت العظم الاعلى فصار يظهر ما فوقه اي الجبين اكثر اتساعاً ورفعة ، وما دونه مستطيلاً مسنماً . اما في صوته وابتسامه واشاراته فقد كان اشبه بجلالة

الملك ابيه .

شكرته على جميل تعطفه في استقبالي يوم وصولي وهو لا يزال في حال النقه . فقال انه يشاركني في الشوق الى المشاهدة . ثم هنأته بصحتــه وبعيد جلوسه — العيد الاول لملك العراق الاول — فابتسم ابتسامة فيها بعض الغم وانتقل بالحديث الى رحلتي .

—انها رحلة عجيبة ياامين وسيكون فيها ولا شك فوائد كثيرة للعرب . كنا مرافقين لك معجبين بكل ما وصلنا من اخبارك وبما طالعناه في الجرائد .

ثم سألني بعض سؤالات عن البلدان التي زرتها وعن امرائها وحكامها . وكان لا يزال الضعف يمنعه عن الافاضة بالحديث .

— احب ان تخبرني كل شيء وسنجتمع في ما بعد اجتماعات عديدة .

فاستأذنت بالانصراف فوقف وهو يقول : سنجتمع في ما بعد . ثم اعتذر وكان ذلك من جميل التواضع فيه ، عن تقصير في القيام بواجب الاكرام والضيافة »

ولكنه بعد ان خرجت دعا الكسباني فحدثه بكلمة ، فعاد الصديق الي يقول : امش — الى النزل بامر جلالته . وقد امر ايضا بسيارة اثناء اقامتك في بغداد .

الفصل الثاني

لا حكومة ولا انتداب

بركان الثورة — الملك في يد الاطباء — سقوط وزارة النقيب — عيد الجلوس غير المأنوس — اتحاد الاحزاب — مطالبها — ملحق من النهضة الوطنية العراقية — استعباد الف سنة واستعباد سنة واحدة — وفد الاحزاب في قصر الملك — الشيخ مهدي البصير يخطب في الجمع — رئيس الامناء يعقب على كلامه — وصول المندوب السامي مهنئاً بعيد الجلوس — الشعب يصيح : ليسقط الانتداب ! ليسقط الانكليز ! — مطالب زعماء النجف — عريضة العشائر — عزل رئيس الامناء — الفرق بين السرارنلد ولسون والسر برسي كوكس — اقفال الاحزاب الوطنية — نفي الزعماء الوطنيين — الامة ساكتة ساكنة — وحجج الاسلام لايحتجون — تأسيس حزب وطني معتدل — سياسة الملك فيصل — لا حكومة ولا انتداب ·

يوم وصلت الى العراق كان بركان السياسة قد انفجر من كل جانب ، فترامت من النجف الحمم ، واستعرت في بغداد النيران ، وتصاعد بين الرافدين اللهيب والدخان . في ذاك الحين قام الزعماء يطلبون رفض الانتداب ، وانتخاب المجلس النيابي ، واعلان الاستقلال التام ، وتأييد العرش . وسمع بين الاصوات صوت الشاعر الحكيم يقول :

«انا شاعر يبغي الوفاق موحد   بين الشعوب سبيله الارشاد
ما الفرس والاعراب الا كفتا   عدل وما الاتراك والاكراد
لم تكفنا هذي المطامع فرقة   حتى تفرق بيننا الاحقاد »

وكانت الحركة قد اشتدت قبل عيد الجلوس بايام قلائل ، فأثرت بصحة الملك وزادت بآلامه التي كانت الزائدة المعوية سببها ، فاشار الاطباء بعملية جراحية فاجلها جلالته الى بعد العيد . اما الوطنيون ، المتطرفون منهم والمعتدلون ، فلم يؤجلوا مما سعوا اليه امراً . ويظهر ان صوت الشاعر اثر

فيهم يومئذٍ تأثيراً حسنا فحملهم على توحيد المطالب والامال .

وقد كان لحملاتهم ثلاثة اهداف ، اي الوزارة والحكومة والملك نفسه ، فاستخدموا لها ثلاثة انواع من السلاح سلاح الكلام . صوبوا مدفعيتهم على الوزارة التي كان يرأسها السيد عبد الرحمن النقيب فاستقالت ، وطاروا بطياراتهم الخطابية فوق دار الانتداب فازعجت المندوب السامي فبات حائراً لا يدري ما يفعل ولا سيما ان القوات المسلحة التي لديه لم تكن تكفي لاخماد فتنة صغيرة .

اما جلالة الملك فجاءه الوفود يوم العيد ، اول عيد لتاج العراق ، عيد الجلوس — غير المأنوس — يهنئونه ويطالبونه والحكومة المشارفة بالوعود التي مر العام الاول عليها دون ان ينجز شيء منها . وكان في البلاد حزبان سياسيان ، الحزب الوطني العراقي وحزب النهضة العراقية ، فاتحدا بعد ان تشاقا واجتمعا اجتماعاً خصوصيا في اليوم السابق لعيد الجلوس قررا فيه بالاتفاق رفع احتجاج الى « اعتاب صاحب الجلالة المعظم » نقطة الدائرة فيه ان الامة كانت تنتظر بعد التتويج حكومة دستورية نيابية ، فمرت السنة الاولى ، والحكومة لا تعرف أدستورية هي ام نيابية ام ملكية مطلقة . — والامة يا صاحب الجلالة تكابد انواع الاضرار الناجمة عن سوء الادارة « المتغلب عليها نفوذ البريطانيين المنافي لروح الاستقلال لانهم اتخذوا سياسة التفريق وغيرها من الاعمال غير المشروعة رائداً لهم » . وهذه الوزارة وزارتهم اسقطناها لانها كانت العامل الاعظم في مناهضة امال الامة . وبما ان المجلس النيابي لم يتألف حتى الان ، وبما ان خطر الانتداب يهدد استقلال البلاد وحرية العراقيين ، فقد اجتمعت هيئتا المركز العام للحزب الوطني العراقي والمركز العام لحزب النهضة العراقية وقررتا عرض الحالة على جلالتكم مسترحمين صدور الارادة الملكية في ما يلي :

اولاً — الكف عن الاعمال المار ذكرها لا سيما التدخل البريطاني في الامور الادارية .

ثانياً — تأليف وزارة من ذوي الجدارة المخلصين لكي تطمئن الامة باصلاح الحال .

ثالثاً — ان لا تعقد اية معاهدة ولا تجري اية مفاوضة بشأنها قبل تأليف المجلس النيابي .

ولم يكتف المركز العام لحزب النهضة العراقية بهذا الاحتجاج وهذه المطالب فاصدر مذكرة خصوصية من قلب البركان فيها لفتات الى الماضي والآت . شكا الحزب سياسة الحكومة التي لم ير الشعب في خلال سنة منها فرقاً بينها وبين سياسة الحكومة الاحتلالية ، ورفع احتجاجه الى العالم المتمدن ، والى كل من يؤلمه ضوت الشعب المهضوم الحقوق ، المنبعث من طيات افئدة ملأى بالآلام والاماني ، على سياسة حكومة بريطانية الاستعماريين ، وعلى الانتداب وانصاره الممقوتين في البلاد ، في هذه البلاد العراقية التي كانت تستعيد في مثل هذا اليوم من العام الماضي ذكرى المنصور والرشيد والمأمون ، « مؤملة ان يكون بلسماً للجروح البليغة التي احدثها الاستعباد البينة الماضية في جسمها النحيف »[1] .

وهذه الامة ذات الجسم النحيف والقلب المفعم بالآلام والامال تعيد عيدها السعيد بتتويج جلالة مليكها وارتقائه عرش العراق الذي « شيد فوق جماجم الشهداء » وتبعث بالوفود ليرفعوا الى جلالته اصدق عبارات التبريك وبالخطباء ليسمعوه انينها وشكواها .

جاء صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر اب وفد الحزبين المذكورين ومعهم جمهور من الانصار احتشدوا في فناء القصر ، فطلب الزعماء من الملك ان يأمر بمن يمثل جلالته لسماع الخطيب هناك . فأمر جلالته رئيس الامناء لينوب عنه . فخطب في الجمع خطيب الحزب الوطني العراقي ، الشاعر الضرير الشيخ مهدي البصير ، فهيج في رئيس الامناء الشجون فانصب

---

(١) والغريب العجيب ان امة استُعبدت الف سنة ظلت حية سليمة الحواس لتشكو استعباد سنة واحدة في هذا الزمان ، ولم يسمع لها في الالف سنه مضت لا صوت ولا صدى.

خطيباً . وحق له الكلام اذا كان الملك انابه عنه وحق له ايضاً ان يبرهن على حماسة — وقيل حماقة — فيه أنسته انه موظف في البلاط ، وان المندوب السامي لبريطانية العظمى قادم في تلك الساعة ليهنىء جلالة الملك بعيد الجلوس ، وان عليه هو واجب الاستقبال والترحيب . وقد اتفق انه بين كان حضرة الاستاذ رئيس الامناء يخطب ضد الانتداب اقبل المندوب السامي السر برسي كوكس ورجال الوكالة البريطانيه لاداء التبريك فاستقبلهم الجمع صارخاً : ليسقط الانتداب ! ليسقط الانكليز .

وكان قد وصل لسعادة المندوب في اليوم السابق برقية من زعماء النجف يؤكدون له فيها انهم لا ينكرون « صداقة حكومة بريطانية العظمى ، صداقةً خالية من المحاباة » ويعلمونه برغائب الامة العراقية « التي لا يمكنها التزلزل عنها مهما كلفها الامر » وهي المواد الاتية : اولاً — رفض الانتداب بتاتاً واعلان حكومة بريطانية العظمى بالغائه رسمياً . ثانياً — مراجعة حكومة جلالة ملك العراق لوزارة الخارجية لا لوزير المستعمرات . ثالثاً — رفع تدخل ممثلي اية سلطة اجنبية لان في الامة نفسها الجدارة لادارة شؤونها .

هذا من علماء الشيعة وجلالة الملك يومئذٍ معهم . ولكن بعض العشائر لبوادعوة، قيل ان دار الانتداب مصدرها ، فاجتمعوا يحتجون على العلماء ويعلنون ولاءهم للانكليز . وقدموا عريضة بذلك الى المندوب السامي، فكانت بيده حجة على جلالة الملك . وقد اشار فخامته بان سيعلن العريضة اذا كان الملك يرفض المعاهدة فلم يكن لينتظر والحال هذه مثل تلك المفاجأة القبيحة في القصر . اما اذا قيل ان من حقوق الشعب — واليوم يومه — ان يفاجيء السياسيين في اي وقت واي مكان كان فيجب ان يكونوا متأهبين له دائماً ، فمن النادر ان يحدث في بلاط ملكي — في غير وقت الحرب او الثورة — مثل هذا التظاهر الرسمي — رسمي هو بوجود مندوب الملك واشتراكه به — ضد دولة من الدول العظمى . بل هي اهانة اقتبلها السر برسي كوكس هادىء البادرة ساكناً . واظنه سر بها . فقد كان متردداً كما قلت في اتخاذ خطة الشدة

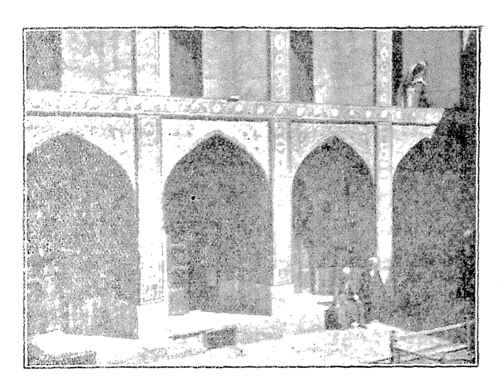
لقمع ما كان ينذر بثورة اخرى في العراق مثل ثورة سنة ١٩٢٠ فازالت حادثة البلاط التردد، وشحذت فيه عزماً كان موضوع ريب الناس .

ولكنه انكليزي واكثر الانكليز في مثل هذا الموقف واحد . فلم يدع السر برسي الحادث المؤلم يحول دون واجبه تلك الساعة ، بل دخل على الملك وهنأه بعيده الاول . ثم اجتمع بعدئذٍ به فدار بينهما حديث كانت له نتيجتان، الاولى في البلاط الملكي وهي عزل رئيس الامناء ، والثانية في دار الاعتماد — وهي الخطة التي اخمدت النيران التي كانت تتصاعد من بركان السياسة المتفجر .

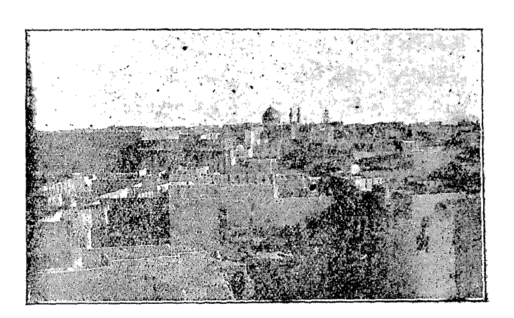
لا ريب ان الاقدار ساعدت السر برسي كوكس في عمل لم يكن من طبعه ومبادئه . لانه رأياً وخلقاً وسياسةً نقيض سلفه السر آرنلد ولسون الذي سبب او عجّل ثورة ١٩٢٠ فالسر آرنلد حاد المزاج ، سريع الغضب ، شديد البأس ، عالي الهمة ، قصير النظر ، يضرب ولا يحسب للعواقب حساباً . والسر برسي لين العريكة ، هادىء البادرة ، طويل الاناة ، يعالج الامور بالحنكة التي قلما تلجأ الى القوة . ولكنه أدرك انه في هذا الحادث يخاطر ولا شك بمنصبه اذا كان لا يقف موقف كل انكليزي بل كل انسان اهين رسمياً واهينت حكومتهُ وامته. وقد يقال ان الملك في عزله رئيس الامناء اعتذر ضمناً وصراحة عما بدا . ولكن ذلك لا يكفي . بل قد يزيد الوطنين شغباً وهياجاً . فاقدم على العمل الذي اقتبله العراق ساكناً ساكتاً .

قلت ان الاقدار ساعدته في سياسة الشدة ، لان جلالة الملك بعد عيد الجلوس سلمَ نفسه الى الاطباء ، وكانت الوزارة قد استقالت فاصبحت الحكومة كلها بيده — خلاله الجو — فاصدر امره باقفال الحزبين ، الحزب الوطني العراقي وحزب النهضة العراقية ، وبتوقيف جرائدهما ، ثم نفى الى هنجام [1] الزعماء وفيهم الحاج جعفر ابو التمّن وحمدي افندي الباجچي والشيخ مهدي البصير ، واخطر مجتهدي الكاظمين السيد حسن الصدر والشيخ مهدي الخالصي بتسفير نجليهما ، وهما ، من زعماء النهضة ، الى ايران

(١) جزيرة في الخليج الفارسي تجاه بندر عباس



زاوية كلية النجف



ص ٢٧٢ــ٢٧٣

ألنجف ومشهد الامام علي

ففعلا دون تردد او احتجاج .

وكان جلالة الملك رهين الاطباء وموضوع الاشاعات المتعددة ، منها اشاعة موته التي ضجت لها العاصمة واتخذها انصار المنفيين وما تبقى من الاحزاب الوطنية حجة على سكوتهم واخلادهم الى السكينة . ولكنه يستغرب سكوت ثلاث من « حجج الاسلام » المجتهدين وهم : السيد ابو الحسن الاصفهاني والسيد حسن الصدر [1] والشيخ مهدي الخالصي ، وقد كانوا كلهم من زعماء النهضة واعلامها . على ان بعض العشائر الموالين للعلماء ، من لم يعلموا بسكوتهم ، ظلوا يطالبون بسقوط الانتداب ، فسودت الحكومة الانكليزية صحيفتها في ارسالها الطيارات ترمي اكواخهم بالقذائف النارية . وقد كانت في غنى عن ذلك لان من ينادون مع المجتهدين يسكتون اذا هم سكتوا .

اما اذا نظرنا في الامر نظرة اجمالية فقد افلح المندوب السامي وان كان قد اخمد في عمله ولو الى حين نار الوطنية التي رأى نفسه بعدئذ في حاجة اليها ليقاوم بها الاتراك ودسائسهم في الموصل وفي بلاد الاكراد . ولكنه في ذاك الحين لم يكن ليبغي غير امرين ، عقد المعاهدة الانكليزية العراقية وتأسيس مجلس نيابي يجيزها . وكان متيقن ان الامر الاول لا يتم الا في ثبات الولاء والمؤازرة بين دار الانتداب وبيت النقيب . فسعى اولاً في تأسيس

---

(١) قد زرت السيد حسن صدر الدين في بيته بالكاظمية فالفيته رجلا عظيم الخَلق والخُلق ، ذا جبين رفيع وضاح ، ولحية كثة بيضاء ، وكمّة نبوية . له عينان هما جمرتان فوق خدين هما وردتان . عريض الكتف ، طويل القامة ، مفتول الساعد . وهو يعتم بعمة سوداء كبيرة ويلبس قميصاً مكشوف الصدر رحب الاردان فيظهر ساعده عند الاشارة في الحديث . ما رأيت في رحلتي العربية كلها من اعاد الي ذكر الانبياء كما يصورهم التاريخ ويمثلهم الشعراء والفنانون مثل هذا الرجل الشيعي العاملي الكبير وما اجمل ما يعيش فيه من البساطة والتقشف . ظننتني ، وانا داخل الى بيته ، اعبر بيت احد خدامه اليه . وعندما رأيته جالساً على حصير في غرفة ليس فيها غير الحصير وبضعة مساند ، وقد كنت علمت ان لفتواه اكثر من مليوني سميع مطيع ، وان ملايين من الروبيات تجيئه من المؤمنين في الهند وايران ليصرفها في سبيل البر والاحسان ، وانه مع ذلك يعيش زاهداً متقشفاً ولا يبذل مما يجيئه روبية واحدة في غير سبيلها ، اكبرت الرجل ايما اكبار ووددت لو ان في روسائنا الدينيين الذي يرفلون بالارجوان ، ولا يندر في اعمالهم غير الاحسان ، بضعة رجال مثله .

حزب سياسي معتدل دعي الحزب العراقي الحر يرأسه السيد محمود بن السيد عبد الرحمن النقيب ليكون عوناً للحكومة في انتخاب المجلس . ثم سعى في اعادة الوزارة المستعفية لانجاز المعاهدة . وكان جلالة الملك يؤثر غير النقيب رئيساً ، والمندوب السامي للاسباب التى بسطتها لا يبغي سواه . وسترى بعدئذ كيف خذل صديق الانكليز الاكبر في العراق بعد ان وقع المعاهدة المشهورة .

لكن بين رجوعه الى رئاسة الوزارة وبين يوم التوقيع فترة سيئة مظلمة كانت السيادة الانكليزية فيها مشلولة حقيقة ومعنى . فلم يكن في البلاد لا حكومة وطنية تذكر ولا انتداب . ذلك لان الملك فيصلا عمد بعد شفائه الى سياسة ازعجت دار الانتداب . فقبل محوقلاً برئاسة النقيب . وظل متمسكاً باهداب احزاب تلاشت ، ووطنية لجأت الى التقية واستشعرت السكون .

الفصل الثالث

مآدب الغمّ

حديث الملك — وعد المستر تشرشل — المعاهدة —الانتداب — فضل الحكومة الانكليزية في تتويج فيصل — الشيخ خزعل — السيد طالب النقيب — الملك بين جبلين — الملك محاط بالاعداء — الفرنسيس والاتراك والعجم وابن سعود — « ليدافع عن البلاد من يبغي احتلالها » — الكآبة والغم — مأدبة ملكية — حديث الخواتين الانكليزيات — سكوت الملك — احد الاربعة الذين يكفرونهم في العراق — مادبة في الهويدر — الخاتون — الطيور والازهار وانواع الثمار والملك الكئيب — مائدة الملك الخاصة — سؤال في التطور والانقلاب — راي السكرتير البلشفي — الشبقة والعمامة والطربوش — مصادر الغم ومآدبه .

سمعت الانكليز في العراق يقولون : هذا فيصل الذي اقمناه ملكاً ينقلب علينا في السنة الاولى . ولكن للمسئلة وجهة اخرى، ولجلالته قصة غير قصة الانكليز قصها علي في المقابلة الثانية .

كان لابساً صباح ذاك اليوم ثوباً مدنياً وصدارة[1] من لونه . وكان لا يزال في وجهه أثر من العياء والضعف . بيد انه في حديثه كان شديد اللهجة صريحها . صوت ناعم فيه قوة اليقين ، وعين شهلاء يضطرم احياناً نورها الهادىء ولا يروع .

— يطلبون مني عقد المعاهدة وفيها نص صريح على الانتداب . وفي بعض موادها غموض، فتحتمل التفاسير العديدة ، فيفسرها القوي في المستقبل لتوافق مصلحته وسياسته . وهذا لا يجوز . هذا غير ما عاهدوني عليه في لندن . قد صارحتهم هناك كما اصارحك الان . قلت للمستر تشرشل اني لا اقبل ان اكون ملكاً على العراق الا بشرطين اوليين ، وهما استقلال البلاد

---

(١) الصدارة قبعة يلبسها جلالته ومتوظفو البلاط وهي شبيهة بالشبقة وقد جردت من حرفها ، تختلف لونا لتلائم الثوب تحتها ولا تختلف شكلا .

والغاء الانتداب . فقبل المستر تشرشل بذلك ، ووعدني وعداً أيده بكلمة الشرف . وهو ان الحكومة الانكليزية تعترف باستقلال العراق وتساعد العراقيين بتأسيس حكومة وطنية ذات سيادة تامة وتلغي الانتداب . كل ذلك في مقابلة معاهدة نعقدها والحكومة البريطانية تضمن لها الحق ان يكون المستشارون والاخصائيون في حكومة العراق من الانكليز فقط وتضمن لها ايضاً بعض الحقوق في اقتصاديات البلاد . . . وهم اليوم يقولون اني انقلبت عليهم . وليس في ما اقول وافعل غير الثبات على العهد والولاء . هذا وعد المستر تشرشل . كلمة شرف بالغاء الانتداب . والان ياأخي امين تجيئني حكومته بمعاهدة تبتدىء بذكر الانتداب وعصبة الامم ثم تكرر هذه الالفاظ في اكثر موادها . لا والله . لا اوقعها ولا أأذن بتوقيعها . ولا تتألف وزارة جديدة[1] قبل ان يجيئوني بخطة صريحة وكلمة صريحة بانهم سيبرون بالوعد .

هب ان هناك سؤ تفاهم او ان المستر تشرشل وعد وعداً حالت بعد ذلك السياسة الانكليزية دون تنفيذه ، فموقف الملك فيصل مع ذلك لا يقدح به واكثر العراقيين يرفضون الانتداب ويمقتونه . فهل يلام يا ترى اذا فضل ان يكون ملك العراق على ان يكون فعلاً مأمور الانتداب وفوق يده يد المنديوب السامي ؟ ولكن هناك امراً اخر لا يتغاضى عنه من احب العدل والانصاف . ان فضل الحكومة الانكليزية في تتويج الملك فيصل يوازي في الاقل فضل العراقيين الذين بايعوه . فقد كان في البلاد يوم وصوله الى العراق وقبله عدد من طلاب الملك منهم الشيخ خزعل خان حاكم عربستان فانسحب بايعاز من الانكليز . ومنهم ذاك الداهية العراقي بهلوان الامة السيد طالب النقيب الذي كان يطوف البلاد يومئذٍ في صفته وزير الداخلية ساعياً في سبيل المجد الوهاج ، طالباً العرش والتاج فتعقبه الانكليز والقوا القبض عليه بحيلة لا تليق بهم واجلوه عن البلاد . وكان نقيب بغداد السيد عبد الرحمن عونهم الاكبر على ابن نقيب الموصل السيد طالب . لذلك

---

(١) كانت حكومة الانتداب تحاول يومئذٍ اعادة تأليف وزارة النقيب

قيل ان النقيب كان النصير الاعظم لفيصل . وهناك الامير عبد الله الذي كان يؤثره العراقيون على اخيه . اما طريقة الانتخاب فيكفي ان اقول ان الموظفين السياسيين في الالوية كانوا يديرونها .

وليس الملك فيصل ممن ينكرون الجميل . ولكنه بين جميلين ، هما احرق من نارين ، جميل من سعى في سبيله وجميل من بايعه . وفي الاثنين مبدأ ان لا يخطأ من يروم الحقيقة الوطنية في تفضيل مبدإ من بايع منهما على مبدإ من سعى . على انه من الخطل ان يعادي الملك الانكليز او ان تعادي الامة العراقية الحكومة البريطانية . قال جلالته بصراحة لا صراحة بعدها : — تراني اليوم محاطاً بالاعداء ولا صديق لي غير الانكليز . فمن اين لي بحليف لو شئت المحالفة . في الغرب في سورية الافرنسيون وهم اعداءي . وفي الشمال الاتراك وهم يكرهوني . وفي الشرق الاكراد وقد تفلتوا من يدي . والعجم وهم يدسون الدسائس بواسطة الشيعة على حكومتي . وفي الجنوب ابن سعود وهو دائماً يهددنا بالاخوان . من لي اذن غير الانكليز ؟ وهل يعقل اني انقلب عليهم ؟ بل هم المنقلبون يا اخي امين ، هم يعدون الوعود ولا يبرون بها .

وعاد جلالته الى وعد المستر تشرشل فذكرني بجلالة ابيه يوم كان يضرب لي الامثال ويرمز بالرموز ليبرهن على انه من النادر ان يجد المرء من يفوق الانكليز في المراوغة والتلون ونقض العهود . — يطلبون مني التصديق على معاهدة لا تمكنني من تأسيس حكومة ثابتة قوية . والحقيقة انه لو عقدنا هذه المعاهدة يستحيل علينا القيام بها ... ترانا الان نعجز دون تأسيس جيش وطني لان العراقيين لا يلبون النداء ، لا لان الوطنية فيهم ضعيفة . لا . لا . ولكنهم يقولون : اذا كان الانكليز ينوون احتلال البلاد تحت طي الانتداب فليدافعوا هم عنها . أوَ لا ترى الحق يا اخي في هذا القول ؟

كان يتكلم جلالته بصوت هادىء وكان النور في عينيه ساكناً . مع ذلك

كنت ارى في انامله دليل الاضطراب اذ كان يخرج الخاتم من بنصره فيلعب به كأنه مسبحة ثم يعيده اليه . وعندما كان يتكلم عمن يحيط به من الاعداء رفع الصدارة عن رأسه ووضعها على الديوان . فانار جبينه العالي وجهه فتراءى فيه شيء من الحسن جليل ، لا سيما ولونه الحنطي كان لا يزال مائلاً الى الاصفرار . ان في الملك فيصل حسناً جذاباً ، وان في حديثه لهجة بليغة مقنعة . ولكن الغم الذي يكمن في قلبه يظهر مراراً في طرفي فه وفي ابتسامه .

اني اعتقد ان في الملك فيصل مزية روحية تحبب اليه المثل الاعلى في الحياة . ولكن وان كان ملكاً يرى نفسه في هذا المضمار مثل كل من تعشق الكمالات ، وسعى اليها جاداً ، فرآها كقوس القزح بعيدة دائماً عنه . وهذا في نظري احد اسباب الغم ، رفيق جلالته الدائم ، وان توارى احياناً عن الابصار . هو الغم الروحي الذي يتضاعف في علو المناصب واهميتها فيكون في الملوك ، وان ندر ، اشد منه في غير الناس .

قد تشرفت بمقابلة الملك فيصل ومجالسته ومحادثته في احوال شتى ، رسمياً وغير رسمي ، في البلاط وخارج البلاط ، على المائدة الملكية والى السماط البيتي ، فلم اره مرة وحده ناعم البال مطمئناً . بل كان الغم مثل الظل في اذار يظهر في مجلسه ويختفي اذا ما تكلم واذا ما سكت .

دُعيت الى مأدبة اعدها في القصر وكان جالساً اليها في صفين متقابلين عشرون من كبار موظفي الحكومة العراقية والوجهاء وعشرون من رجال حكومة الانتداب وبعض حريمهم . وكان جلالته جالساً في الوسط والى يمينه قرينة المندوب السامي اللادي كوكس والى شماله القائد العام للجيش الانكليزي في العراق . وكان قبال الملك اخوه الامير زيد والى يمين الامير المندوب السامي والى شماله آية النساء في العراق وشمعة سياسته الخاتون جرترود بل . وكان بيني وبين المندوب السامي سيدة انكليزية ، وقبالي سيدة اخرى ، فعلمت من الواحدة انها حزينة جداً لانها تحب الموسيقى ولا تستطيع ان تقتني « بيانو » في بغداد ، واخبرتني الاخرى بان زوجها ، وهو

احد المستشارين ، لا تهمه الازياء ولا قراءة الروايات . وكان القائد العام يحدث جارته بما صدر حديثاً من الروايات في لندن . ثم سمعت السر برسي كوكس ، وهو من غواة الصيد وله المام بعلم الحيوان ، يسأل ما اسم ال Badger في اللغة العربية . فساح السؤال حول المائدة شرقاً وغرباً ، جنوباً وشمالاً ، وعاد الى فخامة المندوب خائب الامل .

اما جلالة الملك فكان اثناء المأدبة ، منذ قُدم الحساء الى ان جاء الخدم بالقهوة ، صورة من صور اليأس المحزنة ، وقد احاط نفسه بسيده لا تحسن العربية وبقائد قاتم الجبين لا يحسن لا العربية ولا الافرنسية .

قد رأيته غير مرة يتثاءب وما سمعته والمندوب السامي يتحدثان ولو عن الطقس. وقلما هم ذلك الانكليز . فلا اظنهم ما عدا المس بِلْ احسوا بواجب في مثل هذا المقام تفرضه عليهم في الاقل اداب المائدة فلا يتحدثون بامور خصوصية لا تهم جلالة الملك . ولا تهم المدعوين من الوطنيين . فقد رأيت حتى جعفر باشا ، وهو يحسن الانكليزية يجتهد في محادثة جارته التي ابت أن تخرج من موضوع الرواية الانكليزية الاخيرة . وماذا يهم العراقيين بل الشرقيين يا ترى من رواية انكليزية تبحث في احوال اجتماعية محلية وقتية في قرية من قرى انكلتره ؟

اما جاري الاخر مجيد بك الشاوي ، وهو احد الاربعة الذين يكفرونهم في العراق[1] والرجل الوحيد الذي تجاسر ان يلبي الدعوة الملكية في ثوب عادي ، فلم يكن ليهتم بحديث الخواتين والمستشارين . بل كان يحسو الشمبانيا الكأس تلو الكأس ، ويضحك لنكات جاره سكرتير مجلس النظار السيد حسين افنان . وقد كان لمجيد بك فضل على جلالة الملك تلك الليلة لانه في سلوكه فتح باباً للمجون . كان واقفاً عند الوداع الى جنبي فقال له الملك وهو يشير الى شربه الخمر . شفقتك والله شفقتك . فاجاب الشاوي وهو يشير الي — لم ادرك وجه الشبه في ذاك الحين — هذا صديقي لانه صديق المعري . ونحن

(١) الثلاثة الاخرون هم : جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي وكاظم الدجيلي . وسيجيء الكلام عليهم ولهم .

يامولانا لا نعرف غير المعري والخيام . فضحك الملك فيصل وكانت ضحكته الاولى في تلك الليلة الحافلة بكبار العراقيين والانكليز المشعشعة بنياشين الوزراء وحلي الخواتين .

اني اذكر مأدبة اخرى خارج القصر وخارج المدينة ، مأدبة ويوماً في البساتين وفي معزل عن الرسميات الغربية . هناك في شرقي بغداد على نهر ديالى ناحية بعقوبة وهي جنة العراق الشمالي ، وبالقرب من بعقوبة بلدة على شاطىء النهر تدعى الهويدر ، فيها ملاك كريم فاضل هو فخري بك آل جميل . دعا جلالة الملك وحاشيته لقضاء يوم في ضيافته . ودعا ايضاً بعض الانكليز منهم المس بل والمستر كورنواليس مستشار الداخلية . وصديقهم السيد محمود ابن النقيب .

نصب السرادق بين اشجار الليمون والرمان ، وفرش الطريق اليه بالسجاد ، ومدت المائدة تحت النخيل المزين بالذهب والياقوت من التمر ، وكان الهواء مفعماً بطيب الرياحين والازهار ، والطيور تغرد على الافنان وفي مخبئآت الادغال ، والكروم مثقلة بافخر العنب المتعدد الانواع والالوان ، والمس بل تروح وتجيء حاملة غصناً من الرمان او عنقوداً كبيراً من العنب فتقدمه جاثية لجلالة الملك .

وجلالة الملك — لله من غم يأبى الحصر في القصور ، فيرافق صاحبه الى البساتين في اجمل بقعة من ارض الله . لله من غم يجلس فوق العرش ويلصق بصاحب العرش حيثما حل وجال . لله من غم لا يحترم حتى الانكليز ، وقد يكون له في الانكليز ما يرويه ويغذّيه . اظن ان المس بل كانت تدرك ذلك فتحاول بما لها من فصاحة ولطافة ان تخفف وطأته ، وتبدد في الاقل ظلاله من بساتين آل جميل في ذاك اليوم الجميل . ولكنها واسفاه لم تفلح . وقد تكون في ما اسرفت زادت الطين بلة .

جلس الملك في الخيمة بعد ان جال في البستان يلعب بسبحته ويدخن السيكاره تلو السيكارة . وكان التعب بادياً في وجهه والحديث لا يجيء الا

ص ٢٨٠—٢٨١



جلالة الملك فيصل في قيافته العربية
امام باب مشهد الحسين



في بستان فخري بك آل جميل «باهويدر»

جلالة الملك فيصل جالس . الوقوف من اليمين الى الشمال : مؤلف الكتاب . الميجر بري . الميجر كورنواليس مستشار الداخلية . فخري بك آل جميل السيد محمود بن السيد عبد الرحمن النقيب متصرف بعقوبا .

تكلفا واجتهادا . هي السياسة وهموم العرش . اضف اليها هما جديداً جاء من الشمال . فقد كان لانتصار مصطفى كمال وقع في العراق لم يسر الملك ولا الحكومة . وكان بعض الموظفين في الموصل يفاوضون بطل الترك في الاناضول . وهؤلاء الانكليز لا يدعون جلالته ساعة وحده ، يلزمونه كالظل في كل مكان . حبذا الحكمة في سلوكهم وفي سلوك الوطنيين الذين يظنون ان المآدب لا تتم دون ان يدعى اليها احد من دار الانتداب .

ان الملك فيصلاً لاقرب ملوك العالم اليوم الى الديمقراطية ، الامر الذي لا يروق على ما اظن الانكليز الشغفين بابهة الملك . وقد يضر بجلالته سلوك لم يتعوده الموظف الانكليزي فيسيء فهمه او يتعمد الاساءة . لا احد ينكر ان يوماً في البساتين لجدير بان يكون عدو الرسميات . فلا بأس اذا جلس الملك على الديوان ، وهو في ثوب قائد الجيش العراقي ، ورفع خوذته . . ولكن الموظف في الحكومة الذي يجلس قباله على كرسي ويمد رجليه كما لو كان في بيته ولا ينزع قبعته عن رأسه يسيء الادب ويمتهن حرمة التاج . لا اظن ان موظفاً انكليزياً مهما علا منصبه يجلس كذلك في حضرة جلالة ملك بريطانية العظمى . والملك فيصل رقيق الشعور ، شديد الحس ، لا يستطيع ان يقول الكلمة التي تؤلم او تسيء . ولا يتبسط في الحديث ويجيد اذا كان في حضرته من لا يرتاح اليه . خصوصاً اذا كانت مجالسه كلها مثل التي حضرت خالية من الذكاء الحر او من الحرية المتشردة — البدوية .

اجل ان الملك فيصلاً لفي حاجة في بلاطه وفي مجالسه غير الرسمية الى من يحسن النكتة ، الى ظريف خفيف الروح ، الى نديم رسمي . قد عرفت اكثر من في القصر وما عرفت فيهم من يستطيع ان يقوم بهذه الوظيفة المهمة .

كنا ذات ليلة جالسين الى مائدته الخصوصية ولم يكن غيري وناجي بك السويدي وحسين افنان من خارج البلاط فسألني جلالته سؤالاً ادهشني لاول وهلة ، ولكني علمت انه كثيراً ما يتباحث وكاتبي سره الفيلسوفين

بمثل هذه المواضيع . قال جلالته : ما رأيك يا امين في التطور وفي الثورة ؟ اتعتقد ان عوامل العمران والتمدن الحقيقية هي اصح في التطور او في الانقلاب ؟ فقلت : اني ممن يعتقدون بالنشؤ والارتقاء في الطبيعة وفي الاجتماع ، وان التطور معراج الانقلاب الحقيقي المفيد الثابت ، وان الطفرة محال ، وان للثورات دائماً ردَّ فعل يعود بالناس الى ما كانوا فيه ، وغيرها في هذا الباب.

فعارضني كاتب سر جلالته رستم حيدر ، وهو شيعي سورى من بعلبك ، فشرع يتكلم بالثورات والانقلابات في السياسة وفي الدين كأنه دَنتون او كأنه لوتيروس . النشؤ بطيء . التطور ضرب من البلادة . والامة التي تنتظر وتتوكل عليه تفقد مثل الامة الانكليزية كثيراً من مزايا النفس الجميلة التي تظهر في الفنون وفي الاجتماعيات .

حانت مني اذ ذاك التفاتة الى الفيلسوف الاخر في الديوان الملكي ، الى ذاك الانكليزي في خلقه وعقله ، العربي في قلبه وشعوره ، الى امين الكسباني فرأيته يرفع بحاجبيه ويهز برأسه ثم سمعته يقول مخاطباً الملك : رستم يا سيدنا بلشيفي في ارائه .

فقال حسين افنان : والحمد لله انه كذلك في ارائه فقط . فضحك جلالته ضحكة كانت الاولى والاخيرة تلك الليلة . ثم سألني سؤالاً اخر ظننته مضحكاً ولكنه لم يضحك احداً .

— ما رأيك يا امين في العمامة والبرنيطة . واي شكل تظنه يصلح لنا في العراق ؟

فقلت ان العرب في تهامة وفي اليمن يلبسون الشبقة اي البرنيطة وهي صنع ايديهم ليقوا رؤوسهم حر الشمس . وهم عرب مسلمون . فما ضر العرب في الاقطار العربية الاخرى وخصوصاً في التي يشتد فيها الحر مثل العراق لو اقتدوا بهم ؟

وكان ما قلت بخصوص الشبقة في اليمن جديداً عند كل الحضور ما عدا جلالته لانه قاد مرة حملة على الادريسي في تهامه . وله علم بتلك الشبقات

الكبيرة المصنوعة من القش . فدار الحديث على الخونة وقبعة البلاط ، الصدارة، والطربوش ولم يجيء احد بكلمة تضحك اثناء البحث . ولكننا عند ما صعدنا من غرفة المائدة الى ردهة الاستقبال وجلس الملك ورستم والسويدي والكسباني الى طاولة صغيرة يلعبون الا «بريدج» خرجت والباقين الى الرواق فاسمعنا هناك افنان نكات وددت من اجل جلالته لو انه اسمعنا بعضها على المائدة .

لا اظن ان ما يسود الملك فيصلاً من الغم ناتج عن همومه الحاضرة فقط . لا اظن ان تاج العراق وحده مصدر تلك الابتسامة الناعمة المحزنة وذاك السكوت الذي يسبق الكلام الى القلوب . ان فيصلاً ، في ما لمع من نجم سعده وهوى في السبع السنوات الاخيرة ، لمن الامراء القليل عددهم في العالم اليوم . فقد دانت له ساعة قصيرة من الزمان ، فظلمته الحوادث في تسابقها حوله وعليه ، فلم يتمكن لسرعتها وتعددها من الانتفاع بها .

هوذا امير عربي كريم في دائرة خضراء من الشهرة ، حولها دائرة حمراء من السياسة الوطنية يمازجها اصفرار من دسائس السياسة الدولية . وهذه لعمري حقيقة مآدب الغم — مأدبة الشهرة التي يتلوها وجع الرأس ، ومأدبة النصر في الحرب يتلوها فشل في السياسة ، ومأدبة الكرم العربي الممدودة فوق ضريح المطامع العربية .

اما قد اشرت الى اسباب الغم في جلالة الملك ، فينبغي لي ، وانا من المعجبين بالبيت الهاشمي الذي نصر الاحلاف وجنّد الوفاً من العرب على الاتراك والالمان في الحرب العظمى ، ومن المحزونين لانه لم يفز بكل ما كان يبغيه ويحارب من اجله ، ومن الطالبين الحقيقة قبل كل شيء ، ينبغي لي ان اعيد النظر في تلك الحوادث التي كان الامير فيصل قطب دائرتها . هي جزء من سيرة حياته التي اصبحت جزءًا من التاريخ العام .

الفصل الرابع

الامير فيصل في الحرب

مختصر ترجمته حتى سنة ١٩١٦ — مع انور وجمال في المدينة — رجوعه الى الشام — الخطر والحيلة والنجاة — قائد جيش الشمال — مصادر التاريخ — تحامل كاتب افرنسي على العربان — شهادة التاريخ — اعتراف العرب لغيرهم بالفضل — الكرنل لورنس والعرب — الجيش النظامي — الزحف شمالاً — سقوط العقبه — شهادة الجنرال آلنبي بفضل العرب — جيش فيصل يتصل بجيش الجنرال آلنبي — كسر الاتراك في الطفيل وفي بحر الميت — الزحف على الكرك — اعانة منكوبي الارمن هناك ·

عندما زار انور باشا المدينة المنورة في طلائع سنة ١٩١٦ سافر في معيته من سورية وفد من العلماء وفيهم شاب عربي يناهز الثالثة والثلاثين من العمر خصه رئيس الوفد الشيخ أسعد الشقيري بالذكر لدى دولة الوزير قائلاً: مما يثبت لكم تعلق الموحدين ومكانتكم في قلوبهم انه بمناسبة هذه الزيارة وجد في معيتكم من آل الرسول صلى الله عليه وسلم الامير فيصل نجل امير مكة المكرمة[1]

---

(١) هو فيصل ثالث انجال الملك حسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون بن محسن بن عبدالله بن حسن بن محمد المعروف بابي نُمَيّ المتصل نسبه بالحسن ابن الامام علي بن ابي طالب . ولد في مكة سنة ١٣٠١ﻫ ١٨٨٣م فارسله والده عملاً بتقليد هاشمي قديم للرضاع في احدى العشائر المجاورة فنشأ في الفلاة بينهم وعلى طريقتهم ثم اخذه والده مع أخوته الى الاستانة فقرأ هناك على اساتذة خصوصيين العربية والتركية وبعض العلوم . ولما عاد والده الى الحجاز سنة ١٩٠٩ عاد معه وتقلب في مناصب الحكومة ، وتطوع مرات بصفة جندي بسيط لقتال العشائر المتمردة ، ورافق اخاه الامير عبدالله في الحملة الاولى سنة ١٩١١ على الثائرين في عسير ، ثم انتدبه والده ١٩١٣ لقيادة الحملة الثانية على الادريسي حليف ايطاليه على الترك فظفر بالقنفذة التي دخلت بعدئذ في ملك الحجاز . وبعد عقد الصلح مع ايطاليه انتخب مبعوثاً عن مدينة جده فذهب الى الاستانة وظل فيها الى ابتداء الحرب العظمى ، فعاد الى مكه . ولم يطل عليه الوقت حتى كر راجعاً الى الاستانة للاطلاع على نيات الاتراك نحو العرب وامانيهم . ثم استقدمه والده الى مكه للمفاوضة بشؤون البلاد العربيه ، وانفذه بعدئذ الى دمشق ليسأل جمال باشا الرفق بالعرب فاقام هناك بقية سنة ١٩١٥ وكان الصله بين جلالة

وكان الانكليز قد باشروا باسم الاحلاف مفاوضة امير مكة يومئذ، الملك حسين اليوم، لينهض بالعرب على الاتراك [1] فبعث جلالته يعتذر لانور على عدم تمكنه من زيارته في المدينة المنورة، وارسل سيفين مرصعين بالاحجار الكريمة هدية منه اليه والى رفيقه جمال باشا.

وبينما كانت تقام الحفلات في المدينة لدولتي « الانور والجمال » وكان الوزيران الورعان، وقد ظهرا في مظهر الدين وتزديا برداء اليقين، يقومان بالمراسيم الدينية ويرددان الصلوات، ويجلسان كالتلاميذ في حضرة العلماء ومشايخ الطرق وهم يتكلمون في علم الجهاد ويفسرون الآيات التي لها تعلق بالعلوم الحربية [2] كان الامير فيصل بك ملازماً لهما مشاركاً في كل مظهر من مظاهر الحفاوة والاكرام. ولكنه لم يكن ليستوقف الانظار، وظله الصغير يومئذ يضيع بين ظلَّي بطلين من ابطال العثمانيين — وهادمي ملكهم.

بعد ثلاثة اشهر من هذه الزيارة المباركة كان فيصل ايضاً من المشتغلين في التهديم. ولم يكن ليخطر في بال الوزيرين او احد من حاشيتهما انه سيكون كذلك وانه سيبدأ في البلد الطيب الذي هم فيه فيهدم الركن العربي من ملك بني عثمان. اما ان الامر كان يجول في صدر الامير نفسه فما يحتمل الريب. لانه لو ادرك ان اباه سينفر قريباً في النفير لما كان رافق الوزيرين في عودتهما الى الشام، وكاد يقع هناك في قبضة جمال لولا حيلة دبرها ابوه [3].

عاد الامير فيصل من الشام في صيف تلك السنة باربعة الاف بندقية وعشرة الاف ليرة ليجهز حملة من العرب تشترك في الزحف مع الترك والالمان

ابيه وجمال فيما يختص بتجنيد جيش عربي يزحف مع الجيش التركي على ترعة السويس. وقدم يومئذ انور باشا من الاستانة فرافقه ـ ها قد وصلنا الى بداية هذا الفصل ـ الى المدينه.

(١) راجع الفصل السابع من القسم الاول صفحه ٥٩ ؛ الجزء الاول.

(٢) كقوله تعالى : واعدوا لهم ما استطعتم من قوة. وقوله : ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص. وقوله : لا يقاتلونكم جميعاً الا في قرى محصنه او من وراء جدر.

(٣) راجع الجزء الاول صفحه ٦٠

على ترعة السويس. فلما وصل الى المدينة سمع النفير يستنفر من ظلال الكعبة القبائل لمحاربة الاتراك « اعداء العرب والاسلام » . فاطاع طبعاً اباه الذي كان قد بدأ بتأليف جيش من القبائل تحت قيادة نجله الامير عبدالله فانتظم الامير فيصل في هذا الجيش . ثم اسندت اليه قيادة جيش الشمال المشهور . فباشر عمله في حصار المدينة وتخريب قسم من سكـة الحديد قرب العلا ليؤخر في الاقل وصول النجدات من الشام الى العدو .

وصلت اخبار النهضة الي سورية فرددت صداها الاستانة ، ولكن اولياء الامر لم يهتموا في البدء لها[١] فادركوا خطأهم عندما صدرت الاوامر بالزحف ثانية على ترعة السويس ، اذ وجد العرب الذين كانوا قد اتكلوا عليهم يحاربون مع الاحلاف . بيد انهم لم يأتوا في بداية الامر بعمل في الشمال يُذكر . اي انهم لم يؤثروا لا سلباً ولا ايجاباً في حملة السويس الثانية .

اني في كتابة هذه النبذة ارجع الى اربعة مصادر طالباً الحقيقـة المجردة من الاهواء والتعصب . ومع ذلك اراني في بعض الاحايين حائراً بين الشهود الاربعة . هذا يبالغ ، وذاك يجامل ، واحد يزيف الاعمال ، واخر يزخرفها . فقد جاء في كتاب افرنسي طبع في السنة الماضية في باريس[٢] ان الفضل كل الفضل في انتصار العرب في شرقي الاردن هو لشرذمة من الجنود الانكليزية وطابور من الفرنسيس الاباسل . وقد قال المؤرخ الانكليزي : ان العرب في الحرب خفيفو الحركة ، سريعون ، مرنون ، لا يحملون الثقيل من العدة . وهم

---

(١) دليل ذلك ما جاء في تقرير اركان الحرب العامة في الاستانه المؤرخ في ٢٩ ت ١ سنه ١٩١٦ اي بعد اعلان الثورة باربعة اشهر : « قد حمل العرب على الاتراك في خط طوله ستون كيلومتراً جنوبا بغرب من المدينه . والثورة تمتد بسرعة توجب الاهتمام فلا يجب ان نصدق الاخبار التي تصورها لنا انها حركه بسيطه لا اهمية لها » .

• خمس سنوات في تركيه تاليف ليمان فن سندرس صفحه ١٦٥ Cinq ans en Turquie, par Liman von Sanders. Payot, Paris. p. 165

(٢) « كيف استقرت فرنسه في سوريه » صفحه ٤٥ Comment la France s'est installée en Syrie, par Comte R. de Gontaut-Biron, Paris. Librairie Plon 1923

في القتال شجعان اشداء[1] اما شهادة العرب انفسهم فاسجل منها ما فيه الاعتراف بفضل غيرهم . فقد اجمع من حدثتهم ممن شاركوا في تلك الحملة وسمو الامير فيصل في مقدمتهم ، على ان الفضل الجم في جمع شمل العربان في بداية النهضة والتأليف بينهم انما هو لشاب انكليزي يحسن اللغة العربية كاهلها ويحسن كذلك التخلق دون تكلف باخلاقهم ، هو الكرنل لورنس . وقد اخبرني بعض من حاربوا تحت قيادة الامير زيد انه لم يكن ليأمر جنوده مرة بالهجوم الا وكان هو في الصف الاول . فاذا فات ذلك الكونت دي غنطو بيرون المتحامل على العرب والانكليز تحاملاً لا يليق بافرنسي كريم ، فكيف يفوته ذكر الكرنل لورنس ولو بكلمة في كتابه ؟

اني اسجل الحقيقة كلها ، فلا انسى من له الفضل الاكبر في نجاح النهضة ، وهو « الخيّال » الانكليزي ، الذي لبى دعوته كثيرون من العربان وفيهم من عشائر القصيم ونجد . قد ينكر جلالة الملك حسين ان احداً من نجد اشترك في جهاد الاتراك ولكني اجتمعت ببعض اولئك المتطوعين فاخبروني بصراحة عرف العربي بها انهم كانوا يحاربون اولاً مع الاتراك فزاد الملك حسين الراتب فانحازوا اليه .

وما كان امراء العرب انفسهم ليركنوا دائماً الى البدو . فقد قال الامير علي الذي كان في المدينة عند ما وصل فيصل اليها ، فاشتركا في حصارها ، انه لم يتمكن بادىء ذي بدء من عمل كبير لان البدو لم يلبوه دائماً ولم يثبتوا اذا كانوا ملبين . وكذلك الامير فيصل الذي حاول متابعة الهجوم بعد تخريب سكة الحديد عند العلا ، فخرج الاتراك من حصونهم في شهر اب وحدث بينهم وبين العرب قتال خارج المدينة خسر فيه الامير خمسمائة من رجاله وخسر الاتراك ضعف هذا العدد ، فعادوا الى المدينة وطفقوا يضطهدون اشياع الشريف من اهلها وينكلون بهم . ولكن الامير لم يتمكن من متابعة ما عده

---

(١) تاريخ الحرب لجريدة التيمس الانكليزيه الفصل ال٢٤٨ الذي عنوانه نهضة العرب.
The Times History The War, chapter CCXLVIII, The Arab Uprising.

نصراً في تلك الواقعة لان قواته لم تكن منظمة. وبالاحرى لان قواته كانت لا تزال من العربان الذين لا يأتمرون بغير اوامر شيوخهم وينفرون من التنظيم.

اما اندحار الاتراك في مكة فقد اثر تأثيراً عظيماً في قوى العدو المادية والمعنوية. فتوقف جمال باشا عن شنق الاحرار في سورية، وامر انور قائد الحامية في المدينة ان يدافع عنها حتى الموت، وتضاعفت الحامية في معان للاحتفاظ بخط الحديد. واستؤنفت المواصلة بين الشام والمدينة بالرغم عما خرّبه العرب من الخط قرب العلا.

كذلك اوقف الاتراك الامير فيصلاً، فاتخذ لنفسه مقراً حربياً بين العلا وينبع ولبث ينتظر انشاء جيش نظامي يدير جيوش البدو، اذ ان الانكليز كانوا قد اسروا كثيرين من العرب وضباطهم الذين حاربوا في صفوف الاتراك، فجاؤوا بهم الى مصر حيث بدأ التجنيد لجيش العرب الشمالي. كان اكثر الاسراء من العراق وسورية وفلسطين فلبوا مهللين دعوة الشريف حسين وفيهم من الضباط الذين اشتهروا بعدئذٍ في ساحات القتال مثل جعفر وجودت ونوري السعيد وغيرهم. ولكن تنظيم هذا الجيش لم يتم حتى اوائل سنة ١٩١٧، فلما ظهر في الحجاز ازداد عدد الفارين من جيوش الاتراك[1] المنضمين الى جيوش العرب.

من انكر فضل الملك حسين وانجاله في النهضة لا يستطيع اذا كان منصفاً ان ينكر فائدتين في الاقل فيها، فائدة للاحلاف وخصوصاً للانكليز[2]

(١) «قد كانت خسارة الاتراك في هذه الوقعة (وقعة غزة الثانية) ٣٩١ من القتلى و ١٣٣٦ من الجرحى و ٢٤٢ من الفارين»
ليمون فن سندرس في كتابه (خمس سنوات في تركيه) صفحة ١٩٦

(٢) «بعد دخول العرب في الحرب بدأ الانكليز في الزحف على بادية سينا * »
ليمون فن سندرس صفحة ١٧١

* وفي الهجوم على مراكز العدو في العراق. فبدات وقعة غزة الثانية في ٢٦ اذار ١٩١٧ واستمرت الى ٢١ نيسان، وحدث في العراق قتال عنيف في ٢٢ نيسان إنكسر فيه الاتراك وتقهقروا الى ناحية سامرا. هو هجوم مثلث كان العرب الضلع الثالث فيه.

وفائدة لعرب سورية وفلسطين الذين اثارت فيهم مظالم جمال كوامن الضغينة والغضب ، فوجدوا في صاحب النهضة الاكبر زعيماً يتبعون ، وقطب ثأر فيثأرون ، ومحط رحال آمال يحققون .

جاءوا كما تقدم من مصر يقود قسماً منهم الامير لواء السيد علي باشا فانضموا الى جيش الامير فيصل الذي شرع يزحف شمالاً في شتاء تلك السنة حتى وصل الى حدود بادية التيه . وكان الامير علي مشتغلاً في ضرب مراكز الاتراك العديدة على جانبي سكة الحديد فحمى بذلك مؤخر جيش اخيه الذي استولى في زحفه على خط مسافته ستون ميلاً يمتد من البحر الى معان . اما اكليل انتصارات العرب في هذه السنة فهو سقوط العقبة ودخول الامير اليها في ٦ تموز . ولم يكن ذلك ليذكر لولا تأثيره الحسن في حركة الجنود الانكليزية في هجومهم على غزة وبير السبع .

وكان الجنرال آلنبي قد استلم آنئذٍ قيادة الجيش فاعترف بفضل العرب الاكبر في ردهم سريات الاتراك التي كانت تجيء من معان الى بادية سينا فتضرب الانكليز في مؤخرهم . ولو لم يكن للعرب غير هذا الفضل ، اي تأمين مؤخر جيش الجنرال آلنبي ، لكفى به فضلاً . ولكن فوائده المعنوية ظهرت في كل ساحة من ساحات الحرب الشرقية . لولا تقدم فيصل الى حدود سينا لما ضرب آلنبي غزة وبير السبع ، ولولا سقوط العقبة لما سقطت تلك البلدة على البحر التي دافع عنها الترك والالمان دفاعاً يستحق الذكر والاعجاب ولما عاد الانكليز الكرة على بغداد لولا ثقتهم بالنهضة العربية ورجالها وجنودها .

جاء في نشرة من نشرات الوزارة الحربية في اب ١٩١٧ : ان خطة العرب في بداية نهضتهم لخطة وجيهة فيها حذق وحزم ودهاء . فقد خرّبوا اقساماً من سكة حديد الحجاز ، واستولوا على مراكز الاتراك الى جانبي السكة ، وكانوا في اعمالهم على جانب عظيم من الجرأة والبسالة . يتغلبون غالباً على جيش اكثر منهم عدداً واوفر منهم عدة .

وجاء في كتاب الكونت دي غنطو بيرون: [1] « لا قيمة حربية لجموع العرب ، فهم يظهرون ويختفون كيفما يشاؤون وساعة يشاؤون ، ولا يستطيعون رد الصدمات الشديدة ، بل يتفرقون ويهربون اول مرة تطلق عليهم النار » .

وجاء في الاعمال وهي اصدق الشهود . عندما سقطت غزة في منتصف تشرين الثاني كانت قد وصلت سريات الامير فيصل الى ما بين عمان ودرعا فهدموا جسراً هناك وغلبوا الاتراك في واقعة صغيرة قتل فيها خمسة من العرب ومئة وعشرون من الترك ، ونسفوا القطار الذي كان مقلاً جمال باشا ، وهو عائد من القدس الى الشام فلم يصاب بضرر ما [2]

في الشهر الاول من سنة ١٩١٨ استأنف الامير القتال والهجوم . فاتصل جيشه بطرف من جيش الجنرال آلنبي في ناحية البحر الميت قرب رجم البحر ، وتجددت الهجمات على معان التي كانت لا تزال في حوزة الاتراك وامعن العرب في الغزوات شرقاً فوصلوا الى ناحية الجوف حيث كان الترك يحاولون مفاوضة ابن الرشيد في حايل ليغروه بالشريف ، فاستولى العرب على تيماء. وقطعوا الخط على العدو فاستحال عليه بعدئذ ارسال النجدات من معان الى المدينة ، ونسفوا قطاراً قرب تبوك مشحوناً بالجنود فقتلوا كل من فيه وغنموا كل ما فيه مع اربعة وعشرين الف ليرة.

قد كانت خطة الامير فيصل في بداية هذه السنة تنحصر ظاهراً في الاستيلاء على معان ، ولكنه اراد في اشغال الترك هناك ان يستولي على بقعة ارض خصبة في شرق الاردن وهي الكرك . فارسل شراذم من جنوده على معان يداومون الهجوم والمفاجآت ، وساعده الجنرال آلنبي بما ساق من الطيارات على البلد . فغنم العرب في هجماتهم مدفعين جبليين ، وثمانية عشر مدفعاً رشاشاً ، وثمانمائة بندقية ، ومائتي رأس من الخيل ، واستولوا على

(١) «كيف استقرت فرنسة في سورية» صفحة ٤٢

(٢) «وقد ساعدنا العرب في هذا الشهر العصيب ، شهر تشرين الثاني ، مساعدة تذكر في هجماتهم على الخط بين عمان ومعان فاوقفوا النقليات بضعة ايام في الوقت الذي كان الاتراك يحاولون امداد جنودهم في القدس» تاريخ الحرب العظمى: نهضة العرب

جوف الدرويش فاحاطوا بالعدو ومنعوه من ارسال نجدات الى المرابطين من الاتراك في الكرك .

كذلك تقدم الامير ، وهو امين من الغدر ، الى محجته فقسم جنده قسمين قسماً مشى من العقبة فاجتاز خط الحديد شمالاً ورد العدو الى مركز يبعد خمسة اميال من معان ، وقسماً مشى من وادي موسى فاخرج العدو من مراكزه في الطريق حتى الطفيل التي هي على مسافة ثمانية عشر ميلاً من البحر الميت . فلما سلمت حامية الطفيل اضطرب الاتراك في الكرك وخرجوا باحد عشر طابوراً وبعض الخيالة والمدافع يستعيدونها ، فالتقى الفريقان في ٢٦ كانون الثاني على شاطىء سيل الحسا ، وهي على مسافة احد عشر ميلاً شمال الطفيل ، فانهزم الاتراك وكانت خسائرهم اربعمائة من القتلى وثلاثمائة اسير .

وما كان الامير ليقف عند هذا الفوز ، فاستمر زاحفا حتى وصل بعد يومين الى البحر الميت فضرب جيشه مركزاً للترك هناك ، واغرق مركباً حربياً صغيراً وعدة ستابيك ، وغنم كثيراً من الحبوب ، واسر عدداً من الجنود . وبعد ان ثبت قدم الامير فيصل على شاطىء البحر شرقاً اعاد تنظيم جنوده ليواصل زحفه على الكرك . وكان الجنرال آلنبي قد استولى على اريحا وعبر بجنوده الاردن فتقدم نحو عمان . لا شك ان الهجوم الانكليزي شرقي الاردن كان عوناً للامير في ما سعى اليه . وكان من حظه ايضاً ان الطيارات التي جاءت تساعد الجنرال في زحفه الى عمان ساعدت كذلك فيصلاً في زحفه على الكرك التي استولى عليها في ٧ نيسان فقطع عن الاتراك في معان مورد تموين مهم .

وقد كان في الكرك مئات من الارمن المنكوبين . الذين ساقتهم مظالم الاتراك الى تلك الجهات ، فلقوا في الامير وجنوده العطف الجم والايادي البيضاء تتسابق في انقاذهم من البؤس والجوع .

الفصل الخامس

معان وعمان

مساعدة فرنسة للعرب — وفد الجزائر والهدية المشهورة — الضباط المشارفون — حاجة فرنسة الى الجنود — مشاركتها في حملة السويس — ثلاث طوابير من الجزائر والمستعمرات — الغرض السياسي — انشاء الفرقة الشرقية — البدو وضباط الجيش النظامي — تحامل الفرنسيس على العرب — خطبة في مجلس النواب — تزييف الحقائق — الاتراك يحمون عمان — العرب والانكليز يتقهقرون — سقوط معان — الهجوم العام — انهزام الجيش الرابع — سقوط درعا — الدخول الى الشام .

قد اشرت في الفصل السابق الى مساعدة الفرنسيس للعرب وما يدعيه بعضهم من الفضل في انتصارات جيش الشمال . فلا بأس، وقد وصلت الى هذا الحد، ان ابين بما لدي من المعلومات، واكثرها من المصادر الافرنسية نفسها، مقدار تلك المساعدة .

عندما كانت المفاوضات جارية بين الانكليز والشريف او بعدها بعثت الحكومة الافرنسية وفداً من مسلمي الجزائر الى الحجاز يحمل الى اميره الاكبر تلك الهدية المشهورة، تلك الساعة التي رمزت الى هدية مثلها من خليفة العرب الى ملك الفرنجة في سالف الزمان . ثم ارسلت بعض المواد والمعدات الحربية وبعض الضباط الى جده ليشارفوا تنظيم الجيش الحجازي[1]

غني عن البيان ان فرنسة في تلك الايام كانت تحتاج في بلادها الى كل جندي تستطيع تجنيده، ولم تكن مشاركتها في الحملة على الاتراك في فلسطين الا اسمية في البداية . فشاءت ان تتجاوز هذه الحال ليحق لها كلمة سياسية

(١) هم الكولونل بريموند Col. Brémond والقومندان كوس Commandant Cousse الذي قام مقامه بعدئذ في جده الملازم بيزاني Capitaine Pisani والملازم راهو Capitaine Raho وضابط آخر يدعى كادي Lieutenant-Colonel Cadi ويظهر ان هؤلاء الثلاثه الاخيرين رافقوا بعدئذ جيش الشمال فدخلوا معه الشام .

بعدئذ في ما يختص بمصير البلاد، فارسلت ثلاثة طوابير من جنود الجزائر والمستعمرات لتشترك في الدفاع عن ترعة السويس وفي الهجوم على فلسطين. وكانت قد باشرت في اوائل عام ١٩١٧ انشاء الفرقة الشرقية من متطوعي الارمن والسوريين. فنقلت الى ساحة القتال بعد فتح القدس من كان يتمرن منهم في قبرص وبورت سعيد.

ولكن هذه العساكر التونسية والجزائرية والسورية رافقت الجيش الانكليزي ولم تشارك العرب في شرق الاردن بشيء يذكر. اما الضباط الانكليز والفرنسيس فلا ينكر ان بعضهم كانوا يرافقون الجيش النظامي ويساعدونه في تنظيم العربان وتحريضهم على القتال.

كان عدد من انضم من البدو الى الجيش العربي يناهز المئة الف. والعسكر النظامي لا يتجاوز الخمسة الاف، فكان ضباطه كثيرين ولا غرو بالنسبة الى عدده. ولكنهم لم يبلغوا عشر ما ادعاه ساسة الفرنسيس المتحاملون على العرب المشنعون بهم في الصحافة وفي مجلس الامة [1] وقد فاتهم ان عدد الضباط، في مثل هذه الحال، يجب ان يقاس بالنسبة الى عدد المقاتلين كلهم لا بالنسبة الى الجنود النظامية فقط.

اعود الى الحوادث. بعد شهر من سقوط الكرك في حوزة الامير اي في ٨

---

(١) خطب الموسيو ليناَيل M. Lenail في مجلس النواب الافرنسي في ٢٥ حزيران سنة ١٩٢٠ قال: «وما هو الجيش العربي؟ اربعة الاف جندي يرأسهم ستمائة قائد والف وثمانمائة من الضباط... ولم يحارب العرب مرة واحدة وحدهم، بل كانوا دائماً محاطين بثلة من الانكليز او الفرنسيس.. وعندما كانت تطلق المدافع كانوا يفرون هاربين*... لم ينتصروا غير مرة واحدة عندما اخذوا البلدة الصغيرة معان. اوتعرفون كيف اخذوها؟ كانوا على مسافة خمسة او ستة كيلومترات منها فتقدم الملازم بيزاني بثلة افرنسية صغيرة عددها مائة واربعون رجلاً فهجموا على القرية واخذوها وسلموها الى العرب.»
من كتاب (كيف استقرت فرنسه في سورية) الفصل الثالث صفحه ٤٤

---

* «في مدة سنتين من الحرب اخرج العرب الترك من الحجاز ومن سواحل البحر الاحمر وخربوا قسماً كبيراً من سكة الحديد وقتلوا واسروا اربعين الفاً من احسن جنود الدولة العثمانيه» تاريخ الحرب العظمى: الفصل ال ١٤٨ نهضة العرب

ايار ضرب العرب محطة القطرانه واسروا عدداً من الترك، ثم بعد اسبوع هجموا على الحسا فاخذوا قطاراً كان هناك ودمروا قسماً من العدة والذخيرة. ولكن العدو اخرجهم بعدئذ من الحسا فتقهقروا جنوباً وهم يخربون في الجسورة والخط.[1]

وكانت تزداد قوات الترك بعد هجوم الانكليز على السلط وعمان. فالقيادة العامة في الناصرة، عندما وصلتها تلك الاخبار — وصلتها مؤخرة لان العرب كانوا عاملين بتقطيع سلوك البرق والتلفون — اصدرت الاوامر بانجاد الحامية في عمان وبنقل الجنود من الشام وحلب الى درعا ووادي اليرموك. يصح ان يقال ان اشد ايام القتال على العرب كانت في صيف هذه السنة ١٩١٨ وقد ظهرت نتيجة النجدات في تقهقر الانكليز من عمان والسلط الى غربي نهر الشريعة بعد واقعة الاردن الثانية.

على ان هذه الهزيمة لم تثبط من عزم العرب بل حملتهم على استئناف الهجوم والقتال. وكانوا في شهري ايار وحزيران يزدادون قوة بما جاءهم من العساكر النظامية الجديدة من عراقيين وسوريين وفلسطينيين حتى انه بينما كان شبه هدنة في ساحات الحرب غربي الاردن في شهر حزيران، كان العرب بقيادة الامير فيصل وقواده يواصلون الهجوم والغزو والقتال. ولكنهم رُدوا عن معان خاسرين مراراً، وخصوصاً في ٢٢ تموز عندما هجموا على محطة قربها فكانت خسائرهم عشرين ضابطاً ومئتين من الجنود. وكان نوري باشا السعيد[2] في تلك الناحية عين الحركة ويدها. فحمل في اواخر آب بالفين

---

(١) «من اول شهر ايار الى التاسع عشر منه خرّب العرب خمسة وعشرين جسراً» ليمون فن سندرس في كتابه (خمس سنوات في تركيه)

(٢) نوري السعيد ولد في بغداد في سنة ١٨٨٨ ودرس في مدارسها، ثم في المدرسة الحربيه بالاستانه، فتخرج سنة ١٩٠١ برتبة ملازم ثاني والتحق بالفيلق السادس العثماني في بغداد. وفي سنة ١٩١٠ دخل مدرسة اركان الحربية في الاستانه واشترك في الحروب البلقانيه. وفي سنة ١٩١٣ على اثر اعتقال عزيز بك من قبل الاتحاديين ترك المدرسه هارباً من تعقيب الديوان الحربي وسافر الى مسقط ومنها الى البصرة. ثم التحق بشريف مكة سنه ١٩١٦ وحاز على رتبة زعيم ثم امير لواء، وظفر بالاوسمة العربية الهاشمية كلها

من الجنود النظامية وخمسمائة من البدو وعشرة مدافع حملةً على معان اسقطتها بعدقتال عنيف في حوزة العرب .

وفي اواخر هذا الشهر ايضاً بعث جمال باشا الى الجنرال فن سندرس في الناصرة يقول ان الامير فيصلاً عرض عليه عهداً بان يتوقف هو وجنوده عن القتال اذا ضمنت الدولة له تحقيق مطالب العرب بحكومة عربية . ولكن القائد جمالا لم يجاوب الجنرال الالماني عند مابعث ينصحه بان يقبل شروط الامير فيتمكن اذ ذاك من استخدام الجيش الرابع في الدفاع عن فلسطين .

والظاهر انها كانت حيلة من الامير يراد بها تسليم الاتراك مراكزهم في شرقي الاردن الى العرب فيساعد هؤلاء اذ ذاك الانكليز في هجومهم العام غربي نهر الشريعة وعلى سواحل فلسطين . ومهما كان من امرها فالروح العربية الراقدة كانت قد بدأت تتهامس في الشام مستبشرة بالنصر القريب . وحام بعض العرب حول المدينة وفيها مبشرين بفيصل . رافعين علم الحجاز المربع الالوان ، وشرعت تتحرك وراء الاسترة وتحت الحجب تلك السياسة التي كادت تقضي عليها مظالم جمال وفظائعه ، فاتصل بالاستانة خبرها ، وسارع اولياء الامر هناك الى اصلاح الامر . فبعثوا يعرضون على القائد الالماني الجنرال فن سندرس الحكم في سورية علهم يقاومون بذلك تلك الروح النافرة منهم ويسترضونها . ولكنهم ابطأوا في ما اهتدوا اليه من الحكمة الموهومة وغدا الجنرال في ذاك الحين اشد اهتماماً بالهرب منه بالحكم .

صدرت الاوامر بالهجوم العام في ١٩ ايلول ، فتحركت الجنود البريطانية في خط طوله ثمانون كيلو متراً يمتد من الساحل حتى نهر الشريعة . ولم تقف الا بعد ان اخرجت الالمان والاتراك من فلسطين والجليل . وجاء العرب من شرقي الاردن يسوقون امامهم ما تبقى من الجيش الرابع حتى قربوا من

وبوسام الحرب الافرنسي والانكليزي . وقد رافق الامير فيصلاً الى اوروبه وخرج مع الملك فيصل من سورية ، فجاء الى العراق سنة ١٩٢١ وتقلد رئاسة اركان الجيش العراقي ثم في سنة ١٩٢٣ تعين وزيراً للدفاع في الوزارة العسكرية .

درعا . وكانت مفرزة النصر بقيادة جودت بك[1] في طليعة الجيش فضربت الاتراك في درعا في ٢٨ ايلول فهزمتهم واسرت منهم عدداً كبيراً من الضباط والجنود .

وبعد يومين ، في ١ تشرين الاول سنة ١٩١٨ ، دخل الامير فيصل على رأس الجيش العربي الى الشام ودخلت سريات من الجيش البريطاني الى بيروت .[2]

---

(١) «كان جودت بك البغدادي يقود هذا الطابور الذي لم يتجاوز عدده الالف ، وفيهم ثلاثون من الجنود الهندية «الفُركا» وثلاثة وثلاثون من المصريين ومعهم الملازم بيزاني وبضعة عساكر من الفرنسيس . وكان من مهمة هذا الطابور ان يخرب خط الحديد في درعا . فنجح بفضل الملازم بيزاني الشجاع الذي اشعل بيده الفتيل الممتد على الحديد تجاه العقبة الحجازية . اما العرب فتشتتوا فارين عندما حدث الانفجار»

الكونت غنطو بيرون في كتابه (كيف استقرت فرنسه في سورية)

الفصل الثالث : صفحة ٤٥

(٢) ودخلت الجيوش العربية الى حمص في ١٤ تشرين الاول ، والى حماه في ١٦ ، والى حلب بعد مقاومة شديدة في ٢٥ من الشهر عينه .

الفصل السادس

مناطق الفوضى

من الظلم الى الظلمات — عوامل السياسات الخفية — العرب والانكليز والفرنسيس — السبع ضربات — موقف الامير فيصل — غلطة العرب الاولى — بلاغ من الاحلاف ينقضه بلاغ من الانكليز — سفر الامير الى باريس — نقطة دائرة الشهرة والاعجاب — سوريو اميركه — رئيس الجامعة الاميركية — ضجة ازعجت الحكومة الافرنسيه — تصريح الموسيو بيشون وزير الخارجية — مطالب الامير الاولى — مطالبه في مؤتمر فرساي — الفوضى في سوريه — الانكليز والفرنسيس قدوة طالحه — منقذ فارغ الوفاض — اصحاب السيادة وطلابها يتسابقون الى الكراسي — الانفجار — الاحتجاج على تصريحات الموسيو بيشون — مذبحة الارمن في حلب .

عند انتهاء الشهر الاول اي تشرين الاول من سنة النصر كانت البلاد السورية قد خلت من جيوش الترك والالمان، فزالت عوامل الحرب الظاهرة، ودخلت الامة في طور من اطوار السياسية الذي يماثل بنتائجه شدائد الحرب . اجل ، ما كادت تخرج البلاد من مظالم الترك حتى دخلت في ظلمات الفوضى. ولا اظن ان عوامل السياسة وانواعها —وسمومها— تعددت في بلد من البلدان الصغيرة التي اشتركت في الحرب تعددها وتزاحمها في هذه البلاد السورية، وعلى الاخص في دمشق.

وكانت البلية الكبرى في عوامل السياسة الخفيــة . جاء الجيش العربي وجاءت معه السياستان العربية والحجازية ، وجاء الجيش الانكليزي يعضد العرب ظاهراً ويناهض سراً الفرنسيس ، فتشعبت سياسة حكومته الى ثلاث شعب اولها واهمها واثبتها المصلحة البريطانية ، وجاء الفرنسيس هائجين ناقمين وفي مقدمة قافلتهم سياسة لبنان وفي مؤخرها سياسة الموارنة وفي اولها ووسطها وآخرها سياسة فرنسة في البحر المتوسط .

وكان في البلاد ولا يزال فيها سبع طوائف رئيسية هي سبعة احزاب

بل سبع ضربات مذهبية ، وفي كل ضربة سبع ضربات وطنية . ثم جاءت اللجنة الاميركية تستفتي هذه الامة المنكوبة فزادت بنكبتها — بسموم سياساتها . وهناك وعود الاحلاف وعهودهم السرية وما فيها من اخلاص كنهه الاخطار فاذا ما زالت الاخطار زال . ثم حقوق العرب والوحدة العربية وما فيها من احلام تجلت ساعة العاصفة كقوس القزح في سماء الحرب العظمى فغدت بعدها كالحباحب في مساء الامال .

انك اذا تصورت هذه الحالة العجيبة في شكل دائرة نقطتها البلاد السورية وروح النقطة وحياتها الامير فيصل ، ثم تمثلت السياسات التي ذكرت تحوم حولها وحوله تارة ، وطوراً تجري كالضباب المكهرب تحتها وفوقها ، دون محجة تعرف ، ودون قصد ظاهر يدرك ، بانت لك الصعوبات التي يندر مثلها في حياة رجل واحد حرم ركنين من اركان العظمة السياسية وهما الامة المتحدة القوية والتقليد الوطني الحي . لا اظن ان كبيراً من كبار ساسة الاوروبيين الذين يستمدون قواهم ابان العواصف من امة حرة متحدة وقومية مجردة من النزعات الدينية والنعرات ، يود أن يكون مكان فيصل في ادوار حياته السورية .

دخل الامير الشام دخول الظافر المحبوب ، والمنقذ المطلوب ، فاحتلت جيوشه العربية ومعهم بعض الجنود الانكليزية البلدان التي فتحت لهم ابوابها وقلوبها مهللة مرحبة . ورفع العلم العربي المربع الالوان فوق دور الحكومة من السويداء الى حلب ومن دمشق الى بيروت . فاضطربت على السواحل وفي لبنان اقوام ، وطربت اقوام .

على ان العرب في بداية امرهم اخطأوا مرتين حربياً وسياسياً . فقد اخطأوا في قتلهم الامير عبد القادر الجزائري واخطأوا في انفاذ شكري الايوبي الى بيروت ليحكمها باسم الملك حسين . فما عتمت ان ظهرت في المدينة العقدة السياسية التي حجبتها عن عيون الناس زين الترحيب وازهار الفوز والتمجيد . اجل ، قد امتعض المسلمون انفسهم من هذا العمل لانهم كانوا

يفضلون ان يقام الحاكم من المدينة نفسها . كذلك يفعل الفاتح الحصيف الحكيم. ولكن الحكم العربي لم يدم اكثر من اسبوع . امر الايوبي برفع العلم العربي فوق السراي في اليوم الثاني من تشرين الاول ثم امر في اليوم التاسع بانزاله . وكان القائد الفرنساوي الكولونل بياباب [١] قد وصل بجنوده الى المدينة فخرجت اذ ذاك السياسة من طورها العربي الى اطوارها الدولية والمذهبية المتعددة .

ان التبعة في ذلك لعلى الاحلاف اصحاب العهود السرية ، والمطامع الاشعبية ؛ والوعود العرقوبية . اليك من فعلاتهم اثنتين ، ليس بينهما غير شهر من الزمان . الاولى منشورهم الذي نشر في ايلول قبل احتلال البلاد السورية والثانية بلاغهم في الشهر التالي اي بعد الاحتلال ، وهو ينقض كل ما في المنشور .

اني الخص ما أُعلن قبل الاحتلال في ما يلي : ان الغاية التي من اجلها تحارب انكلتره وفرنسة في الشرق هي تحرير الشعوب الرازحة منذ زمن طويل تحت ظلم الاتراك تحريراً تاماً ناجزاً وانشاء حكومات وطنية تستمد قوتها من اهالي البلاد عملاً بارادتهم ووفقاً لاختيارهم الحر .

اما البلاغ الذي اصدره الجنرال بُلْس [٢] المتعلق « بادارة اراضي العدو المحتلة » المؤرخ في ٢٢ تشرين الاول فهو يقسم البلاد السورية الى ثلاث مناطق على الطريقة التي قسمت سابقاً في معاهدة « سيكس ـ بيكو » . وهي المنطقة الجنوبية اي فلسطين ، التي تكون ادارتها انكليزية ، والمنطقة الشمالية اي السواحل حتى الاسكندرونة ، تكون ادارتها افرنسية ، والمنطقة الشرقية من حلب الى دمشق ، ادارتها عربية .

ولم يكن في هذا البلاغ ما يرضي احداً من اصحاب السيادة والمصالح في هذه البلاد . لم يرضِ الانكليز ، وهم يصدرونه مكرهين ، لانهم لا يرغبون

(١) Le Colonel de Piépape
(٢) Major Gen. Sir G. L. Bols

بالفرنسيس في سورية . ولم يرض الفرنسيس لانهم طامعون بالغنيمة كلها . وكانوا يفضلون الرجوع الى معاهدة « سيكس ـ بيكو » التي تضمن لهم اضعاف هذه المنطقة مساحة واهمية . ولم يرض العرب لان البلاغ سلبهم بلاداً هي جزء حي من البلاد العربية .

بعد اعلان هذه الخطة الادارية اضطربت دوائر السياسة في الشام . وكان قد اتفق الامير فيصل واولياء الامر من الانكليز ان يسافر الى باريس ليمثل العرب في مؤتمر فرساي. فنزل الى بيروت وفي معيته الكرنل لورنس، فدخلها مثلما دخل دمشق زعيماً محبوباً وكان له فيها استقبال فاق استقبال الدمشقيين رونقاً وبهاءً . نزل الامير ضيفاً على الجنرال بلفين [1] قائد الفرقة البريطانية الحادية والعشرين، واقام في المدينة ثلاثة ايام، وصرح قبل سفره انه يطالب باستقلال المناطق المحررة بمساعدة الاحلاف من حكم الاتراك وانه ذاهب الى باريس لهذه الغاية .

في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ ابحر من بيروت ، فاستُقبل في مرسيليه استقبالا رسمياً ، وما كاد يصل الى باريس حتى استحالت شهرته العربية الى شهرة اوروبية ؛ بل الى شهرة حملها البرق على اجنحة الصحافة الى اقطار العالم المتمدن كافة .

كان الامير في باريس قطب دائرة باهرة من دوائر السياسة. ولا غرو ، فهو لطيف في مقابلته ، مؤنس في مجلسه ، مقنع في حديثه ، فادهش حتى الصحافيين . واعجب به كثيرون من السوريين اللبنانيين الذين كانو يقاومون سياسته العربية بسياسة لبنانية افرنسية . والحق يقال انه كان موفقاً في انصاره اكثر من كبار ساسة ذاك الزمان. فلا اظن ان الصحافة اجمالاً عطفت على قضية من قضايا الحرب عطفها على القضية العربية وعلى حامل لوائها . وقد كان له من غير الانكليز والصحافة عضد في سوريي اميركه الذين بعثوا بوفودهم الى باريس ليعلنوا رسميا انهم من انصاره . ثم جاءه فاضل اميريكي يفتح

---

(١) General Bulfin

باب الامل الاكبر ، الامل الجديد الا بهر ، فتمثل الامير الفوز بواسطة اميركه اذا خذلته انكلتره ، ورحب بمساعي رئيس الجامعة الاميركية السابق الدكتور هاورد بليس الذي كان يعتقد ان الحكومة الاميركية تقبل الانتداب في سوريه اذا طلب ذلك السوريون .

هوذا الامير فيصل تتجاذبه العوامل السياسية العديـدة . تحوم حوله الزعماء وتتزلف اليه الامال المائعة ، وتشع امامه مصابيح الصحافة ، وتجلس لديه عرائس الشهرة والاعجاب ، وتهمس في اذنه المقاصد الدولية كلمات لها كل يوم معنى جديد . ولكنه في باريس ، تحت عين الحكومة الافرنسية ، وفي ظل ابتسامة امة نبوغها في تهكمها . بيد ان هذا النبوغ لا يشمل دائماً حكومتها . فقد أحدث وجود الامير في باريس ضجة ازعجت تلك الحكومة ، فصرّح في ٢٩ ك ١ الموسيو بيشون ناظر الخارجية يومئذ بان لفرنسة حقوقاً تاريخية وشرعية وادبية في سورية لا تتنازل قطعاً عنها .

وكان الامير لا يزال ينتظر الاذن بالدخول الى مؤتمر السلم فرفع اليـه بعد يومين عريضة فيها الجواب بما يلي من المطالب على تصريح ناظر الخارجية .

طلب الامير :

اولاً — استقلال سورية الداخلي التام مع مساعدة اخصائيين من الاجانب تختارهم وتستخدمهم الحكومة السورية . اما الامور الخارجية فتكون متصلة بامور الحجاز ، اي ان تكون حكومة الحجاز والحكومة السورية حكومة واحدة في الامور الاجنبية .

ثانياً — تشارف على العراق والجزيرة دولة من الدول العظمى .

ثالثاً — استقلال الحجاز مقرر ومعترف به .

رابعاً — اما في اليمن وفي نجد فتدير شؤون كل منهما حكومة مستقلة يكون لها اتصال مباشرة مع الحجاز[1]

---

(١) هي فكرة الملك حسين الذي يريد ان يكون الاتصال بواسطه الوزارة الخارجية

خامساً — فلسطين مثل العراق تقبل بوصاية اجنبية .

قد حاول الامير في هذه العريضة ان يوفق بين سياسة انكلتره وسياسة جلالة ابيه ولم يغفل فرنسه تماماً . فهو لم يذكر لبنان اعتباراً لما تدعيه فيه ، واحتراماً لاماني اهاليه . ولكنه عندما طلب ان يدخل المؤتمر ممثلاً لجلالة ابيه أبت الحكومة الافرنسية ولم تقبل ان يحضر الجلسات الا بصفته قائد من قواد جيوش الاحلاف . فدخل بهذه الصفة وارتقى في مطالبه الى الوحدة العربية التي تشمل الاقطار العربية كلها من جبال طوروس الى اليمن ومن الموصل الى حضرموت .

اما في سورية فبالرغم عن بلاغ الجنرال بلس ويصح ان اقول بفضل ذاك البلاغ كانت الاحوال تزداد خللاً واضطراباً . وماذا عسى ان يرجى من العوامل المثلثة في الجيوش الثلاثة ، والادارات الثلاث ؟ فقد كانت السياسات الرئيسية تتجاوز الحدود الجديدة اما جهلاً من اولياء الامر واما عفواً واما عمداً ، فتصطدم في كل حال الارادات والمصالح ، وهي في حال الالتهاب . بل كانت البلاد كلها في تلك الايام ملأى بالمواد المتفجرة ، وكان كل من تحرك فيها ممن له شيء من السلطة يحمل على لسانه وبيده النار والكبريت . فلا عجب اذا تعددت فيها حوادث الانفجار .

احتل العرب انطاكيه فجاء الفرنسيس يخرجونهم منها فرُفع فيها العلمان الافرنسي والعربي وكانت فيها ضجة من جراء ذلك ما بين احمد والمسيح . احتل جيش انكليزي الاسكندرونه فجاء الفرنسيس من البحر يحتجون عليهم فرفع فيها العلمان ، وتخاصم تحتهما الفريقان . جاء المندوب السامي الموسيو جورج بيكو [1] الجنرال آللنبي [2] ذات يوم يحتج باسم الحكومة

اي ان الحكومة الحجازية تمثل في الخارج الامارات العربيه كلها .
راجع فصل المعاهدة صفحه ١٩١ و ٣٠٣ من الجزء الاول من هذا الكتاب .
(١) Georges Picot
(٢) General Edmund Allenby

الافرنسية في امر من الامور فقال الجنرال : انا لا اعرف لا حكومتك ولا حكومتي. انا لا اعرف غير الوزارة الحربية . وتسربت الاحقاد من الكبار الى من دونهم ، فكانت المنافسات بين وكلاء الانكليز والفرنسيس تقلل من قيمة الاوروبيين في عين الاهالي مسيحيين كانوا او مسلمين .

أضف اليها تلك الضغائن التي ولدتها الحرب ونشأت بين جنود الامتين في الخنادق ، فانتقلت الى ساحة السياسة في الشرق الادنى وكان اهل سورية فريسة شرورها ، ثم الدسائس العربية على الفرنسيس والتجسس لهم ايضاً بواسطة اناس من السوريين عدوا يوماً من كبار الوطنيين ، ثم دسائس المسيحيين على العرب وكانت مصادرها تلك المقامات العالية المحترمة ، مقامات الورع والتقوى ، ثم صيحات الفرنسيس انفسهم واحتجاجاتهم المتواصلة المتعددة على الانكليز ، وعلى العرب ، وعلى الجيش الشريفي ، وعلى القيادة العامة ، وعلى الاميركيين والجامعة الاميركية ، وعلى كل من قاومهم سراً او علناً او رفض ان يعترف بحقوقهم « الادبية والتاريخية والشرعية » في البلاد .

انها لحالة عجيبة محزنة يندر نظيرها في العالم وأدعى منها الى الحزن انهم جاءوا الى سورية فارغين الوفاض يطالبون بهذه الحقوق . جاءوا يبسطون سيادتهم في البلاد دون ان يبذلوا شيئاً في سبيلها او يستطيعوا في الاقل ان يحفظوا النظام فيها . فلم يكن لديهم في السنة الاولى من المال والرجال والجنود والاعتدة ما يكفي لحكم مدينة صغيرة ، فحاولوا الاستيلاء على المنطقة الغربية منطقتهم بما تبقى من الفرقة الشرقية وببضع مئات غيرها من الجنود فأسقطوا في ايديهم ، وسقطوا حتى في عين مريديهم .

ان ضعف الفرنسيس ، والحق يقال ، وقصر ذات يدهم بالنسبة الى ما كانوا يدعون ويطلبون لمن الاسباب الاولى في تلك الاضطرابات . ومن تلك الاسباب ايضا جهل اولياء الامر من العرب ؛ جهلهم السياسة الدولية ، جهلهم طباع الاوروبيين ، جهلهم التاريخ ، جهلهم حتى خطة الانكليز في اطماعهم ، تلك الاطماع التي قيدتها وعودهم في الحرب فاضطرتهم الى السياسة

السرية في تنشيط العرب تارة وطوراً في تثبيطهم . ومن اسباب الاضطرابات ايضاً تعدد الحكومات في البلاد ، فكان فيها اولاً القيادة البريطانية العامة ، ثم الانتداب الافرنسي مدعوماً بشرذمة من الجنود البحرية ، ثم مجلس ادارة لبنان ، ثم الحكومة العربية ، ثم البطاركة والاعيان .

والكل سارعوا كالاولاد الى تبوؤ كراسي السيادة والمجد . فقد تسرع الفرنسيس في تعيين وكلاء لهم في الشام وحلب كما تسرع العرب في تعيين حاكم عربي في بيروت . وقد كانت القيادة الانكليزية العامة صاحبة الامر رسمياً في البلاد ، فلم تعترف حتى بالمندوب الافرنسي السامي الا كمستشار سياسي لديها . فماذا عسى ان تكون العلائق بين مستشارين صغيرين . ان وجود الكومندان كوس[١] يومئذ في الشام والكولونل بيشون[٢] في حلب لما زاد الحالة شدة وتعقداً .

بدأ البركان يتفجر في اواسط كانون الثاني . اذ عندما علمت الشام بتصريح المسيو بيشون في ما يتعلق بفرنسه وحقوقها في سورية ضجت المدينة غضباً واحتجاجاً ، وكان النادي العربي رأسها ولسان حالها . فاضرم في الجرائد نار العداء للاجانب ، وبعث الخطباء في انحاء البلاد يحرضون الوطنيين على التظاهرات ضد الاحتلال والانتداب ، وخطب خطيب في الجامع الاموي يدعو الناس للتجند دفاعاً عن الوطن .

في هذا الشهر ايضاً القى المسيو بيكو خطاباً في دمشق جاء فيه ما فُهم منه ان قد تم الاتفاق بين الامير والحكومة الافرنسية بشأن سورية . فغضب لذلك المسيحيون وهم يظنون ان فرنسه تفضل المسلمين عليهم وقد تفادي بهم في سبيل السياسة والمصلحة . فما كانت فرنسه في ما صرح به وزيرها ومندوبها لترضي أحداً لا الخصم ولا الصديق .

ثم خطب في سراي بعبدا رئيس الوفد اللبناني الاول داود عمون

(١) Le Commandant Cousse
(٢) Le Colonel Pichon

مفصحاً عما كانت نتيجة مسعاهم في باريس فقال : « ان بين لبنان وسورية علاقات تجارية وصلات متينة تستوجب الاّ يفصل الشقيق عن شقيقه فاجتمعت كلمتنا ، كلمة الوفد ، على وجوب انضمام الاثنين تحت لواء مراقبة واحدة » .

فجاء كلامه ضغثاً على اباله . قال زعماء العرب : ان الحكومة الافرنسية تروم احتلال سورية بواسطة اصدقائها اللبنانيين . واتفق ان يوم خطب داود عمون خطبته عقد اجتماع في دمشق احتجاجاً على تصريح المسيو بيشون فعقبت عليه المدن السورية الاخرى ، وحدثت اثناء هذه التظاهرات في ٢٨ شباط سنة ١٩١٩ مذبحة الارمن في حلب .

لا حاجة ولا مجال ها هنا للنظر في تلك الحادثة المحزنة . ولكنه من المؤكد ان لو كان في المدينة حكومة متيقظة منظمة ، عربية كانت او انكليزية او افرنسية لما كان عتو الارمن يحمل بعض العرب المسلمين على المفاداة بسمعتهم الطيبة ، خصوصاً بعد ما كان من احسان الامير فيصل وجنوده الى منكوبي الارمن في الكرك .

الفصل السابع

لجنة الاستفتاء الاميركية

نظريات المصلحين ومصالح الامم — كليمنصو يقترح اتفاقاً بشأن سوريه ولبنان — الامير يرفض ويرجع الى سوريه — امتان تتباريان في اكرامه — نظرية تستغويه — الرئيس ولسون خادع ومخدوع — فيصل في فخ الاحلام — امة تخلص من امتين — «الاستقلال يؤخذ لا يعطى» — الاستقلال التام الناجز — الحجاز تابعة لسورية — الوفد اللبناني لدى الامير — تصريحه بخصوص لبنان — الشروط التي عرضها على جورج بيكو في ١٧ ايار — البطريرك الماروني يسافر الى باريس — عاد البطريرك يحمل كتاباً من كليمنصو — الوحدة السورية والوحدة المسيحية — «لجنة الاستفتاء بروتستانية فيجب ان تقاوموها» — مطالب الدمشقيين — اللجنة تفضح فرنسه — الضرر بالقضية العربية — بلاغ اللورد آلنبي — خروج العساكر البريطانية من سوريه — رجوع الامير الى اوروبه — وحدة عربية مطاطة — تصريح لا يفيد — احتجاج بليد.

كان الامير محترماً مكرماً في مؤتمر فرساي، وكان كذلك الرئيس ولسون. ولكن السياسة الدولية لا ترعى اداب الاجتماع، ولا تهمها فروض التكريم، فلا تملك نظريات المصلحين واماني الوطنيين من مصالح الامم. قد سقت ولسون الخل والمر بعد ان شاركت صامتة في اكرامه ذلك الاكرام الفريد المجيد. وكانت ارفق حالاً بفيصل. كيف لا وقد عرض احد اساطينها في تلك الايام على الامير العربي بعض بنود فيها تضمن فرنسة استقلال سورية تحت امارته وبمشاركتها في بعض الامور الاختصاصية والاقتصادية. وتضمن كذلك استقلالاً نوعياً للبنان الى ان يتم الاتفاق بينه وبين سورية.

ولكن الامير رفض ما عرضه الوزير الافرنسي الموسيو كليمنصو وعاد الى سورية ليستشير كما قال الامة. سافر الامير الى فرنسه على المدرعة الانكليزية «غلوسستر» وفي معيته الكرنل لورنس [1] وعاد الى بيروت على المدرعة

---

(١) Col. T. Lawrence

الافرنسية « ادغار كينه » وفي معيته الكولونل تولا [١] امتان تتباريان في اكرامه ، امتان تتسارعان الى خطب وداده ، امتان تسعيان في تعزيز سياستهما في سورية والبلاد العربية بواسطته .

اني متيقن انه لولا امر واحد ، كان قد اختار احدهما في سفرته الاولى الى باريس ، بل كان قبل كل ما عرضه عليه الموسيو كليمنصو . امر واحد تخلل معقوله واضعف فيه القوة الحاكمة . امر واحد هز منه القلب والمخيلة واشعل فيها مصباح امل هو اقرب الى الاحلام منه الى احكام الايام . فخدع الامير وخدع غيره من هم اكبر منه . اجل قد خدع به احد « الثلاثة الكبار » [٢] الرئيس ولسون نفسه . وهو الذي خدع الامير ، كما خدع غيره من الناس ومن الامم والشعوب . بما ظنه مطهراً لسياسات الدول كلها وبلسماً لجروح الامم جمعاء .

« تقرير مصير الشعوب » — « حق الشعوب بتقرير مصيرها » — كلمات فتانة ! ولكنها لم يكن لتستطيع ان تخدع الامير لولا مساعي هاورد بليس في سبيلها . ولا اظن ان ما صوره وتصوره الدكتور بليس وما ضج به سوريو المهجر كان يقنع الامير كل الاقناع ، ويحمله على عمل يخالف الحكومتين الانكليزية والافرنسية لولا — وها هنا رأس الخدعة واكليلها — لولا اللجنة التي طلب تشكيلها الرئيس ولسون لتستفتي الامة السورية . مَن من الناس لا تخدعه هذه المناورات السياسية ، وبالاحرى هذه النظريات والاحكام من رئيس احدى الامم العظمى ، بل اعظمها في تلك الايام .

عاد الامير الى سورية وفي صدره ولا ريب امل بالتخلص من الحكومتين الانكليزية والافرنسية ، بل في صدره امل بتحقيق امانيه الوطنية العربية بواسطة الحكومة الاميركية . وصل الى بيروت في ٣٠ نيسان وكانت الامة

(١) Le Colonel Toulat

(٢) اي الذين اداروا مؤتمر فرساي وهم وودرو ولسون وجورج كليمنصو ولويد جورج
Woodrow Wilson, Lloyd George, Georges Clemenceau.

تنتظر قدومه وهي تائقة شيقة الى اخباره وتصريحاته . تركها منذ خمسة اشهر وآماله راقدة ، فعاد اليها وآماله تغرد في قفص الاحلام . تركها اميراً عربياً قد يفلح وقد لا يفلح في مساعيه ، فعاد اليها اميراً خطيراً ، اوسع شهرة ، واعظم ثقة بنفسه ، وارفع مقاماً . فاستقبل في بيروت استقبالاً ملكياً ترأسه القائدان الافرنسي والانكليزي فيها وخطب في الناس فادهش الناس . .

— « الاستقلال يؤخذ لا يُعطى . . . حرية الامة بيدها . . . لنسعى متحدين فنحيا حياة عزيزة . . الاستقلال التام في الاتحاد التام . » ثم قال اكراماً للفرنسيس والانكليز : « لا انكر اننا في حاجة الى المساعدات المادية والاقتصادية والعلمية . ولكننا سنطلب هذا المساعدات باجرتها ، ستستخدم الحكومة الاخصائيين من الاجانب وتدفع رواتبهم من مال الامة . »

وقد كان الامير اشد لهجة في دمشق : « الامة السورية تروم الاستقلال التام الناجز ولا تقبل بغيره بديلا . » فرددت الشام ومدن سورية كافة صدى هذه الكلمات : الاستقلال التام الناجز !

وصل الامير قبل اللجنة الاستفتائية الاميركية فبشر بقدومها ، وحث الشعب ان يطلب الاستقلال التام بدون شرط ولا قيود . — « برهنوا على انكم لستم كالانعام تباع وتشترى . . . الاستقلال بدون حدود البتة . الحرية بدون قيود اجنبية . . . من يطلب فرنسه او انكلتره او اميركه او ايطاليه فهو ليس منا . »

ثم زار المجلس التشريعي في ٧ ايار فرحب به اعضاؤه ونادوا به زعيما — الزعيم الاكبر ! — « لك الامر وعليك بعد الله الاتكال . » ووقف نوري الشعلان يعاهد بالطاعة والولاء : « عرب الروله كلنا اطوع لك من يمينك ، ومن لا يكون مثلنا ليس من دين الاسلام . »

وفي هذا الشهر تنازل الامير عن الخطة السياسية التي كان من شأنها ان تربط سورية بالحجاز بل تجعلها تابعة لحكومة والده ، فقبل جلالة الملك حسين ذلك حبا بما بدأ يتبلور من الامال ، فارسل الامير الى مؤتمر السلم يقول ان الحجاز لا تعترض ان تكون تابعة سياسياً لسورية . وقد قال لي

جلالة الحسين هذا القول مراراً .

اما في ما يختص بسورية نفسها فقد كان لفيصل رأي في تقسيم البلاد الى مقاطعات ، وفقاً لحالاتها الطبيعية والعقلية والتهذيبية ، صرح به خصوصاً للوفد اللبناني الذي جاء الى دمشق ليهنئه بعودته سالماً من باريس ، وليؤكد له ان فريقاً كبيراً من اللبنانيين يتمنون الانضمام الى سورية . فرحب الامير بهم وخطب فيهم خطبة بليغة فقال: « انه يجب ان يضم الى لبنان القسم اللازم الوافي لحياة اهاليه الزراعية فيستفيدون من توسيع ارضهم كما تستفيد هذه البلاد من ذكائهم ونشاطهم . . . اقول بكل حرية ان لبنان مستقل داخلياً واداريا ويلزم ان يبقى ما يلحق به مستقلاً وممتازاً . . . مع المحافظة على الارتباط بالوحدة السورية . ولكن هذا الانضمام لا يكون اجباراً بل اختياراً . . اني مستعد ان اعطي الضمانة الخطية بكل ما اقول . وليعلم اللبنانيون ، وهم اخواننا بل قلوبنا التي بها نحس وعقولنا التي بها نفكر ، اننا نحن واياهم واحد لا يفصلنا فاصل طبيعي او مادي . . . ما كان عندنا ولا يكون ادنى فرق بين لبناني ودمشقي او بين مسلم ودرزي . »

هوذا مبدأ الامير الذي اخلص له في تلك الايام ، وتمسك به ، وسعى في تعزيزه . ولكنه في بعض المواقف ، كما سيتضح للقارىء ، تغلبت الحوادث وبعض الرجال علي معتقده ويقينه . قد وصل في شهر ايار سنة ١٩١٩ الى ذروة القوة والنفوذ ، فكان عاملاً بمبادئه ، واثقاً من نفسه ، ذا رأي يسمع وامر يطاع . على ان الفرنسيس في البلاد ، خصوصاً المندوب السامي وكبار الضباط ، لم يثقوا كل الثقة به ، ولا كانوا يرون السداد في سياسة حكومة باريس في ما يختص به وبسورية ولبنان .

قد تقابل المسيو جورج بيكو والامير فيصل في ١٧ ايار فعرض الامير على المندوب شروطه بصراحة لا غبار عليها . قال انه يقبل بالانتداب الافرنسي اذا الغيت معاهدة « سيكس–بيكو » واذا الغي في المنطقتين الشرقية والغربيه الحكم العسكري وسحبت فرنسه جنودها من البلاد ، واذا انحصرت

المساعدة الافرنسية بالاخصائيين الماليين والمعلمين العسكريين والمهندسين والمستشارين في دوائر الحكومة. وقيل انه طلب ان تضم الموصل الى سوريه وان تساعد فرنسه عرب العراق في استقلالهم. فبلغ المندوب السامي حكومته هذه الشروط وجاءه بعد شهر تفويض بان يقبلها.

ولكن المسيحيين في المنطقة الغربية تألبوا اثناء هذا الشهر على السياسة الافرنسية السورية، وعقدوا الاجتماعات لتأييد استقلال لبنان، وتوسيع حدوده، وطلب الانتداب الافرنسي. وكان الاكليروس روح هذه النهضة والبطريرك الماروني رأسها. فرأى الموسيو بيكو ان في تعزيزها يضمن لفرنسه السيادة في لبنان في الاقل. وقد كان يظن ان الموسيو كليمنصو لم يهتم كما يجب لهذه المسئلة الخطيرة، فاوعز الى بعض اعيان لبنان ورؤساء طوائفه ان يبعثوا بطريرك الموارنة الى باريس ليمثل اللبنانيين لدى الحكومة الافرنسية ويطالب بحقوقهم.

انتدب اكثر الطوائف غبطة البطريرك ايلياس الحويك لهذه الغاية؛ فسافر على مدرعة افرنسية الى ايطاليا حيث اقام شهرين وقابل قداسة البابا ثم سافر الى باريس فقابل هناك الموسيو كليمنصو الذي اعطاه كتاباً يسكن فيه روعه وروع اللبنانيين ويعدهم بما يطلبون من الاستقلال، وضم البقاع والانتداب. فقفل غبطته راجعاً يحمل هذا الكتاب الثمين الى موكليه، فوصل الى بيروت في ٢٥ كانون الاول سنة ١٩١٩ وتكلم في الاحتفال الذى اقامته له حكومة لبنان فقال: « قد كان اتحادكم من اسباب نجاحي. فاؤمل ان تثابروا على هذه الخطة، فيحيا لبنان بعد ان يكون قد نال استقلاله... ولكم خير ضمين باستدراجه الى الحياة في مساعدة الدولة المحبوبة التي حرمت نفسها من خدمات احد اعاظم ابنائها ـ الجنرال غورو ـ حتى تكلفه بمهمة دعوها مهمة ابداع وخلق » ثم خاطب الجنرال غورو بالافرنسية قائلاً: « اني اجهر على رؤوس الملا ان فرنسه تحب لبنان، وتساعد لبنان، وها نحن نفتخر بفرنسه... ولا سيما بعد ان اوفدت الينا الجنرال غورو الخ »

فبينَ كان الامير فيصل يدعو الناس الى وحدة سورية قومية لا تفرق بين الدمشقي واللبناني ، او بين المسلم والمسيحي والدرزي ، قام اللبنانيون ، والاكليروس يستحثهم ويغريهم ، يطالبون بوحدة لبنانية ، فقلدوا بطريركهم الكبير زمام امرهم ، فجعلوا المسئلة دينية مذهبية [1] ، وابوا ان يكون لهم ادنى علاقة بالعرب المسلمين . بل امعن بالشقاق رؤساء التعصب عندما وصلت لجنة الاستفتاء الاميركية الى سورية . فبما ان اساتذة الجامعة من انصار النهضة العربية واعضاء اللجنة من وطن الجامعة ، ادعى غير واحد من رؤساء الدين ان للجنة مقاصد دينية بروتستانية وطلبوا من اللبنانيين ان يقاوموها ويتضافروا عليها .

ومما يدعو للاسف ان قد كانت اللجنة نفسها عاملاً اخر من عوامل الشقاق ، لانها في طريقة الاستفتاء عززت من حيث لا تدري مبدأ العصبيات الدينية والطائفية . ولكنها فضحت فرنسه وجردت مزاعمها من الاوهام لان الاقلية اللبنانية فقط طلبت الانتداب الافرنسي ، ولم تشمل هذه الاقلية الطوائف المسيحية كلها . فازداد العرب تمسكاً بما يطلبون وازداد قسم منهم تعصباً ادى الى الاعمال التي سودت صحيفتهم . وسيجيء الكلام عليها .

وصلت اللجنة في تموز الى دمشق فطلب فريق من الدمشقيين الوحدة السورية بما فيه لبنان وفلسطين ، والاستقلال التام الناجز ، وان تكون الحكومة ملكية دستورية لا مركزية ويكون الامير فيصل ملك البلاد . ثم طلبوا المساعدة الاقتصادية والفنية من اميركه ، واذا رفضت اميركه فمن بريطانية العظمى ، ورفضوا المساعدة من فرنسه ، وقد طلبوا ايضاً باستقلال العراق كل الاستقلال ، وان لا يكون حواجز اقتصادية بين البلادين .

ثم استفتت اللجنة العلماء فطلبوا ما يلي : الوحدة السورية المستقلة عن

(١) اول اجتماع عقد في بيروت في ٢٢ تموز سنة ١٩١٩ قرر ان تضم المدينة الى لبنان ويعلن استقلاله وانتدب لجنة مؤلفة من اربعة وعشرين شخص ليس فيهم واحد مسلم حتى ولا بروتستاني واحد بل اكثرهم من الموارنة التجار .

الحجاز ، وحكومة دستورية لا مركزية على رأسها الامير فيصل ، ومساعدة دولة غنية قوية لا مطامع استعمارية لها .

اما المتطرفون اصحاب الوحد العربية الحجازية الاسلامية فظلوا متشبثين بارائهم عاملين سراً وجهرا في نشرها وتعزيزها . وقدكان في المجلس التشريعي ، وفي النادي العربي ، وفي معيـة الامير ايضاً من لا يسكتون ولا يعقلون من الحزبين .

جالت لجنة الاستفتاء في فلسطين وسوريـة ففضحت كما قلت فرنسه ، وأضرت بالقضية العربية ، ولم تنفع احداً في البلاد . وكيف اضرت بالقضيـة العربية ؟ اني اعتقـد انها كانت السبب — بعض السبب ان لم يكن كله — في البلاغ الذي قدمه اللورد آلنبي للامير فيصل في ٩ ايلول وفيه ما يلي :

: ١ً — ان حكومة بريطانية العظمى ترفض الانتداب في سورية. ٢ً — انها توافق على المبدأ الذي يضمن لليهود وطنا قومياً في فلسطين . ٣ً — ليس من شأنها ان توجب على السوريين قبول حكومة لا يريدها اهل البلاد . ٤ً — ان المارشال آلنبي المسؤول لدى مؤتمر السلم عن الامن في البلاد يتخذ الوسائل اللازمة لقمع الفتن والاضطرابات .

وفي ١٥ من هذا الشهر ايضاً تم بين الحكومتين الافرنسية والانكليزية الاتفاق الذي بموجبه تكفلت بريطانية العظمى ان تخرج في تشرين الثاني عساكرها من سوريه بشرط ان العساكر الافرنسية لا تدخل المدن الاربع منها ، اي دمشق وحمص وحماه وحلب ، لان بريطانية العظمى قد عاهدت العرب على تأليف حكومة عربية.

أثار هذا الاتفاق وذاك البلاغ خواطر المتطرفين والمعتدلين من العرب ، وبلبل الناس . ولكن اولي الالباب الممرنين في سياسة التلون والهوادة رأوا في الوثيقتين تناقضاً قد يكون تعمده الانكليز من اجل حلفائهم العرب . فهـا ان انكلتره تنفض يدها منا ولكنها تقول انها لا توجب علينا حكومة لا نريدها ، وها انها تسحب جنودها من البلاد ولكنها تبقي السيـادة المطلقة

بيد المارشال آلنبي . فقام الناس يتظاهرون مثل تظاهرهم احتجاجاً على المسيو بيشون ، وتأسست لجنة الدفاع الوطني التي باشرت التجنيد .

وكان الامير في مقدمة المحتجين فاعاد تصريحه بالوحدة العربية وابرق الى مؤتمر السلم ان البلاد في اضطراب عظيم ، وان الشعب يقاوم اية خطة تجعله قيد المساومات ، ويتنصل من التبعة في الحاضر والمستقبل تجاه الحوادث التي من شأنها هضم حقوقه .

ثم سافر في اواخر ايلول الى لندن ليسعى شخصياً لدى الحكومة الانكليزية في سبيل الوحدة العربية الملطفة التي مر ذكرها والتي صرح بها على صفحات الجرائد فقال لمراسل روتر : ان معاهدة « سيكس ـ بيكو » لا تعتبر ولا يعمل بها في نظر الامة العربية . وقال لمحرر جريدة «الايام اليهودية» : انه يعتبر فلسطين جزءًا من سورية وانها في نظر العرب ولاية لا بلاد مستقلة . ثم قال : ان ما يسعى اليه هو تأسيس دولة عربية تشتمل في الاقل على العراق وسوريه وفلسطين .

انها في السياسة خطة لا تزدريها الدول العظمى ، ولكن القوي اذا غير رأيه يعززه بالقوة وهو يتغلب ، حتى اذا تقلب . اما الضعيف بقومه ان لم اقل بنفسه فالثبات خير له وابقى . ها هنا يبدو في الامير ضعف لا تجده في جلالة ابيه . وقد ثبت الى اليوم في مطالبه كلها ، فلم تتغير وحدته العربية وتتلون وفقاً لحوادث الايام ، وسياسات الدول العظام .

اما احتجاج الفرنسيس على الحكم العربي في الشام فلا يخلو من التحامل . قالوا ان العرب لم يحكموا باسم الحلفاء كما تحتم عليهم وانما حكموا باسم ملك الحجاز . وهل حكم الفرنسيس في المنطقة الغربية باسم الاحلاف يا ترى ؟ وهل حكم الانكليز كذلك في المنطقة الجنوبية ـ في فلسطين ؟ وقالوا ان الملك حسين عجل في طلب المكافأة على خدماته في الحرب العظمى وكان ينبغي له ان يتربص الى ان تتم المعاهدة بينهم ويصير الاتفاق بخصوص سورية . فليت شعري ما الذي فعلوه هم انفسهم ؟ أفلم يقسموا البلاد السورية ويتسابقوا والانكليز في الحصول على قسمتهم منها ؟ .

الفصل الثامن

مرجعيون

الامير في لندن — الرجوع الى كليمنصو — الشروط — المساومة — الشورى — الرفض — الرجوع الى سوريه — موقفه تجاه الامة — العصابات — ضرب الخيرة على ذبح النصارى — حادثة الحوله — الهجوم على الجديدة — النار والسيف — على من التبعة ؟ — حوادث عين إبل والقليعة — القومندان في الجديدة يلاعب الارنب — جواب المستشار لخوري عين إبل — فريضة الكولونل نياجر .

قد خابت في لندن امال الامير ، لانه وان كان اثناء اقامته هناك موضوع اكرام الطبقة العالية من الامة الانكليزية ، فقد أعلم رسمياً ان الحكومة تحافظ على العهد الاخير الذي عقدته مع فرنسه ، وانها وان كانت قد اشترطت عليها الا تدخل بجنودها المدن السورية الاربع فقد سلمت بان تكون المساعدة الفنية والاقتصادية للحكومة العربية منها لا من انكلتره . لذلك أشير عليه بان يسافر الى باريس ويتفق مع كليمنصو .

سافر الامير الى باريس ، وقابل الموسيو كليمنصو ثانية ، فدار بينهما في ٢٢ تشرين الاول حديث تناول المسئلة السورية بكل فروعها ، وكانت النتيجة لائحة تضمنت حل المشكل على طريقة تكفل له الحكم في سورية ، ولفرنسه حق المساعدة ، وللبنان توسيع الحدود والامتيازات التي يطلبها .

تردد الامير ثم لجأ الى المساومة ، فطلب ١ً — ان يكون نصف المستشارين افرنسيين والنصف الاخر من سواهم . ٢ً — ان لا يكون للمستشار الرأي الفاصل في الامور . ٣ً — ان لا يكون في سورية ولبنان عسكر افرنسي . وقبل ان يكون العسكر الوطني تحت ادارة افرنسية . رفض الموسيو كليمنصو الشروط الثلاثة ، فجمع الامير من كان في معيته يومئذٍ واستشارهم في الامر فارتأى فريق منهم وفيهم اثنان من المسيحيين ان يقبل لائحة الوزير . اما

الفريق الثاني وفيهم اثنان من المتطرفين ، الواحد طبيبه والثاني اديب من نابلس درس الحقوق في فرنسه وتشرب بغضها ، فقد قاوموا فكرة القبول اشد المقاومة ، فسطوا على الامير وبرهنوا في فوزهم على ذاك الضعف فيه الذي كان يؤلم اخلص الناس له واكثرهم تعقلاً في تدبر الامور .

عاد الامير في اواخر كانون الاول الى سورية وهو يعلم ان الحكومة الانكليزية لا تخاصم فرنسه من اجله ، وان فرنسه لا تتنازل عن سورية[1]. مهما كان من امرها في المفاوضات ، والحكومة الاميركيه[2] لا تتدخل بالرغم عن لجنة الاستفتاء في امور البلاد السياسية . فاية خطة كان ينبغي له اتخاذها ؟ هل في امكانه ان يغير سياسة انكلتره الدولية ؟ هل في امكانه ان يحارب فرنسه اذا شاءت الاستيلاء على المنطقة الشرقية ؟ اذا اجبت سلباً ، وهو اقرب الى الحقيقة ، على السؤالين ، ارى بحكم الحال ان امام الامير سبيلين وفي كلتيهما شرف وحكمة ووطنية . فاما ان يكون قادراً على قيادة الشعب السوري فيقوده في جادة الاعتدال الى ما فيه المصلحة المشتركة بين الامتين الافرنسية والسوريه ، واما ان لا يكون فيستعفي ويعيد مقاليد القضية الى جلالة ابيه .

وماذا كان بعد رجوعه المرة الثانية من باريس . هاكم الحوادث وهي اصدق رواة الاخبار . عندما وصل الامير الى بيروت خطب في الناس فاشار الى ما يزال بينه وبين فرنسه من الولاء ، فاعترضه بعدئذٍ ممثل الحكومة العربية فيها وانتقد اعتداله آخرون . وكان قد ذهب الى استقباله واستخباره وفد من الشيعة في جبل عامل فلم يكلمهم ملياً في بيروت بل استصحب لهذه الغاية بعض علمائهم الى الشام . عُقد اجتماع في وادي الحجير فضرب احد

(١) قد طالما قال وزراؤها بريان ولايغ وبيشون ان مركز فرنسة في البحر المتوسط يتزعزع اذا تركت سورية ، وان الاستيلاء السياسي على بلادٍ ما لا يفيد اذا كان لا يقرن بالاستيلاء الاقتصادي ، وان لفرنسة في سوريه مصالح مادية وسياسية فوق حقوقها التقليدية .

(٢) قد قابل الامير فيصل في باريس المستر بولك المستشار القضائي يومئذ للنظارة الخارجية بواشنطون ، فلم يعده ولا علله بشيء .

المشايخ خيرة (استخار الله بالسبحة) على ذبح النصارى. وكان في الحولة حكومة يديرها زعماء العصابات، والحكومة الافرنسية عالمة بها. اما العرب وهم اعداء فرنسه فاصبحوا اعداء من والاها بل تعصب لها من المسيحيين. وقد كان في من ولي الامر منهم في النادي العربي وفي لجنة الدفاع بالشام اناس لا يأمرون بالمنكر ولكنهم في سبيل السياسة لا ينهون عنه.

فكانت النتيجة ان في ٤ كانون الثاني سنة ١٩٢٠ اي بعد وصول الامير فيصل ببضعة ايام، أشعلت في مرجعيون، باسم الوطن والسياسة، نار الجهل والتعصب والفوضى. وكان العرب مشعليها والفرنسيس متفرجين عليها

ولكن حادثة المطلّة تقدمت الهجوم على الجديدة وكانت السبب القريب في نكبتها. وما حادثة المطلّة؟ قد كان الامير محمود الفاعور، أمير عرب الفضل، خارجاً يومئذ على الحكومة، فضرب بعض الجنود الافرنسية، على اثر حادث عدائي في الحولة، دار الامير بالخصاص وهدموها. فثارت عليهم العربان فبعثوا يطلبون النجدة من الجديدة. ولم يكن في تلك الناحيــة يومئذ، مع علم الحكومة بما يهدد الامن وبما ينذر من العصابات بالويل، غير الفين من الجنود في المطلة وخمسمائة في الجديدة.

طلبت المطلة النجدة من الجديدة فارسل القومندان اربعمائة وخمسين من رجاله فلم يبق لديه غير خمسين. ولم يكن عند الاهالي غير مائة وعشرين بندقيــة واليسير من الذخيرة. امـا الذين هجموا على الجديدة في ليلة ذلك اليوم فلا يقل عددهم عن الاربعة الاف وفيهم العرب والدروز والمتاولة، فاضرموا فيها النار واعملوا باهلها السيف والرصاص. حرقوا اربعين بيتاً وقتلوا اربعين نفساً ونهبوا من الامتعة من والرياش ما قدرت قيمتــه بمائة الف ليرة ذهباً.

ومن المسئوول؟ قد تحقق ان ثلاثةً من العرب كانوا يأخذون المال من الحكومة بدمشق باسم العساكر فيتصرفون بها ثم يأخذون من العصابات قسماً مما ينهبون. وقد كان رجال العصابات العاملية يلزمون القرى في جبل

عامل القيام بنفقاتهم ، ويقدم رؤساؤهم التقارير الى المؤتمر العربي بدمشق.
أتبغي الحقيقة كلها؟ هاكها باسم الله. قد أخبرني احد افاضل الجديدة انهم عاينوا بعض الجنود النظامية في من هجموا على المدينة.

ولكني لم اطلعك على غير نصف الحقيقة في ما تقدم وهو نصفها كاملاً. وهاك النصف الاخر. اقول وحقا ما اقول ان الحكومة الافرنسية او القيادة الافرنسية العامة التي كانت مسؤولة عن الامن في البلاد كانت تستطيع لو شاءت ان ترد عن البلاد واهله هذه النكبات كلها. فكان قد جاء الجنرال غورو ومعه بعض القوات العسكرية التي استمرت تزداد لتحقيق مقاصد حكومته في المدن الاربع بالرغم عن اتفاق ١٥ ايلول.

فاذا القينا بعض التبعة على الحكومة العربية وآخذنا الامير لانه لم يسع، واذا كان قد سعى فلم يفلح، في استتبابه على تلك الحكومة وارشادها الى ما فيه الحكمة والسداد، فاننا نلوم اولاً الفرنسيس الذين جاءوا لحماية المسيحيين وما كانوا في البلاد الا بفضل هؤلاء.

والذي يثبت فوق كل اثبات ما اقول هو انها تكررت بعد خمسة اشهر، في ١٥ حزيران، في عين ابل والقليعة والجديدة نفسها. ولم تكن الحكومة مستعدة لمقاومتها. طلب اهل الجديدة اسعافاً منها فلم تمدهم بشيء. جاء احد خوارنة عين ابل الى المسيو شاربنتييه، المستشار الافرنسي في لواء الجنوب، يشكو العصابات، وقد كان في صيدا قوة كافية لمطاردتهم والتنكيل بهم، فكان الجواب منه ان دافعوا عن انفسكم. وجاء احد اهالي مرجعيون في حادثة الجديدة الثانية الى قومندان الموقع يطلب منه بعض الذخيرة، وكان قد نفد ما عنده وهو يدافع عن نفسه واهله، فلما وصل الرجل الى دار الحكومة وجد القومندان في فناء الدار يلاعب ارنباً. فطلب منه ذخيرة فابى. فقال الرجل: لا تدافعوا عنا ولا تعطونا سلاحاً وذخيرة لندافع عن انفسنا!.

وجاء — بعد خراب البصره — الكولونل نياجر لينكل بالعصابات

ففرض على اهل جبل عامل مائة وخمسين الف ليرة ذهباً ، وفوض الى حاكم صيدا العسكري ورجاله ، وفيهم ثلاثة من السوريين ، بجمعها . فجمعوا ضعف المائة والخمسين الف ليرة بطرائق لا حاجة لذكرها — وقال العارفون المدققون ان الجباة الماهرين جمعوا اربعمائة وخمسة وثمانين الف ليرة—فدفعوا تعويضاً لاهل الجديدة خمسين الف ليرة منها و . . . واطلقت الحكومة على شارع من شوارع بيروت اسم الكولونل نياجر . Le Colonel Nieger

الفصل التاسع

ملك سورية

فيصل بين الاحزاب — ساعة الشدة وساعة الرخاء — مؤتمر يتوج ومؤتمر يحتج — الحكومة الجديدة تباشر عملها بغلطتين — الفكرة اللبنانية في الانضمام الى سورية — جزع الحزب الاكليركي — اتهام الوطنيين بخيانة وطنهم — قرار مجلس ادارة جبل لبنان — قصة العشرة الالاف ليرة — الحكومة تلقي القبض على اعضاء المجلس — البلاغ النهائي من الجنرال غورو الى الملك فيصل — « ابتدأ الفساد يوم حلت جيوشنا محل الجيوش البريطانية » — ذنوب الحكومة العربية — قرار المؤتمر السوري .

كان الشهر الاول من سنة ١٩٢٠ ويلاً على المسيحيين ولوماً على الفرنسيس . وكان الشهر الثاني من هذه السنة بداءة الويل على العرب . هاجت حول الامير فيصل الاحزاب ، وهدرت في الاسواق وفي المساجد شقشقة الخطباء ، وبدت في المؤتمر السوري قرون النعرات الدينية ؛ فاشتد تحمس بعض الاعضاء وتغيظ الاخرين ، وسمو الامير يكافح تارة ، ويستسلم طوراً ، يردد كلمة الملك الافرنسي [1] ساعة الشدة ، ويعود اذا ما صفا الجو هنيهة الى بطانته وزعمائه . حتى استقر دور الاضطراب الاول ، اوعلته فخفته افراح اليوم العشرين من شهر شباط ، يوم انتخب المؤتمر السوري العام بصوت حي فيصلاً بن الحسين ملكاً دستورياً على البلاد السورية .

حملت الانباء البرقية خبر التتويج الى العواصم الاوروبيه والاميركية فجاء من احداها ، من باريس ، من مؤتمر فرساي ، نبأ الغضب والغرور . مؤتمر يتوّج ومؤتمر يعترض ويحتج . بل يصدر الاوامر وهو يتوهم ان احكامه نافذة في كل مكان . لماذا قبلت التاج يا فيصل ؟ احضر حالاً الى هذا المجلس الاعلى وافصح عن شذوذك وشذوذ الامة السورية . انها من مضحكات

(١) الملك لويس الرابع عشر الذي قال : المُلْك انا هو .

السياسة الاوروبية . هوذا امير عربي ، في بلاد عربية ، وقد انتخبه مؤتمر عربي ، فما دخل اوروبه او بالحري فرنسه وانكلتره ليعلمها بذلك ؟ ألا يجوز لامة شرقية ، عربية ، سورية ان تقيم ملكاً عليها دون ان تستأذن اثنين او ثلاثة من وزراء اوروبه ؟ وهم يتهمون العرب بانهم يهتمون بامور غيرهم اكثر من اهتمامهم بانفسهم . ولكن الملك فيصلاً لم يهتم بغير امره وامر بلاده فلم يلب دعوة مؤتمر الصلح المبجل .

باشر جلالة الملك والمؤتمر السوري تأسيس حكومة جديدة ، وتأليف الوزارة ، وتنظيم الجيش . وكان من اعمال هذه الحكومة السورية عمل لم يسر انكلتره واخر زاد بتغيظ الفرنسيس . الاول هو اعلانها استقلال العراق عندما اعلن استقلال سورية ، والثاني هو منعها الفرنسيس من استخدام سكة الحديد الى حلب ، ورفضها التعامل بورق البنك السوري الذي اجازته حكومتهم في المنطقة الغربية .

اما الفكرة اللبنانية في الانضمام الى سورية ، فقد كانت الاحوال في المنطقة الغربية تزيدها قوة وانتشاراً . نفر بعض عقلاء اللبنانيين وولوا وجوههم شطر الشام . فاعترى الجزع الحزب الاكليريكي الافرنسي فراح كباره يسألون البطريرك الماروني ان يسافر ثانية الى باريس ليطالب الموسيو كليمنصو بما وعده به لجبل لبنان . واستمرت حكومة الجنرال غورو تقاوم كل من قال بالوحدة السورية ، فوصلت في منهجها الى ما كان من امرها واعضاء مجلس ادارة جبل لبنان . جاء في البلاغ النهائي من الجنرال غورو الى الملك فيصل ما يلي :

واخر ما لجأت اليه حكومة دمشق من المآتي هو انها اشترت بمبلغ قدره اثنتان واربعون الف ليرة القسم الاكبر من اعضاء مجلس ادارة لبنان فاوقفتهم مخافرنا بتاريخ ١٠ تموز وهم على اهبة السفر الى دمشق ليبيعوا اوطانهم بيع السلع عابثين بالاماني التي اعرب عنها اهل وطنهم منذ زمن طويل باتفاق يقرب من الاجماع » .

لست ممن استحسنوا الطريقة التي سلكها الاعضاء الى غايتهم الحميدة ، وكنت ولا ازال اظن ان ممثل الامة الشرعي لا يخرج من بلاده كالمجرم سراً، ولا يجبن فيموه رأيه اذا كان يعتقد الصحة فيه . ولكن هذه التهمة من اجنبي تنزع من الوطني ، مهما كانت عقيدته السياسية ، سلاح النقد والتثريب . مثل لنفسك انكليزياً في باريس يتهم اعضاء الندوة الافرنسية بالخيانة ... أيغار الاجنبي على لبنان اكثر من غيرة ابنائه عليه ؟ عد الى القرار الذي اصدره مجلس الادارة ترَ الحقيقة التي يسمونها خيانة ، وترَ العجب في من يطالع القرار كله ثم يقول ان اصحابه مسافرون الى دمشق « ليبيعوا اوطانهم بيع السلع .»
ان اصدق وابلغ جواب انما هو في ما انقله لك من ذاك القرار :

« قد بذل هذا المجلس مزيد الاهتمام توصلاً لوفاق يضمن حقوق البلادين المتجاورين لبنان وسورية ومصالحهما ودوام حسن الصلات بينهما في المستقبل ، وبعد البحث في هذا الشأن وجد انه من الممكن الوصول الى ذلك بمقتضى البنود التالية :

١ً — استقلال لبنان التام المطلق . ٢ً — حياده السياسي بحيث لا يحارب ولا يحارَب ويكون بمعزل عن كل تدخل حربي . ٣ً — اعادة المسلوخ منه سابقاً بموجب اتفاق يتم بينه وبين حكومة سورية ٤ً — المسائل الاقتصادية يجري درسها وتقرر بواسطة لجنة من الطرفين وتنفذ قراراتها بعد موافقة مجلس نواب لبنان وسورية . ٥ً — يتعاون الفريقان في السعي لدى الدول للتصديق على هذه البنود وضمانة احكامها . »

اما سفر أعضاء المجلس « فلاجل التمكن من العمل على ذلك بحرية وبمعزل عن ضغط خارجي ، ولاجل السعي الناجح في المراجع الايجابية لتقرير احكام البنود الاربعة المتقدم بيانها » . ولم يكن قصدهم السفر الى الشام بل الى اوروبه واميركه عن طريق حيفا . هو ظاهر قصدهم وحقيقته ، لا ريب عندي بذلك . ولكني ارى في الطريقة التي سلكوها وفي بعض المقاصد التي

اخفوها او موهوا بها ما يؤاخذون عليه .

الاسفار تقتضي النفقات ولم يكن في الخزينة اللبنانية ما يقوم بها فجاء الامير امين ارسلان ، صديق العرب واللبنانيين الاحرار ، ليسعى في ذا السبيل . قال سليمان كنعان ، احد اعضاء المجلس ، للامير امين : لا نستطيع ان نجمع مالاً كافياً للسفر . فقال الامير : انا اتكفل بذلك . وبعد قليل جاءهم بخمسة الاف ليرة ووعدهم بخمسة الاف اخرى عندما يجتازون حدود لبنان . وها نحن في دور التمويه الذي افسد على الاعضاء عملهم . المال الذي جاء به الامير امين بمؤازرة نوري باشا السعيد هو من الملك فيصل لا من عارف النعماني. ولكن السند الذي كتبه سليمان كنعان بالقيمة كلها هو لأمر النعماني وبكفالة الامير امين . فحبذا لو كان السند صادقاً فيكون المال من احد تجار الامة الذي يشارك الاعضاء في عقيدتهم السياسية ويود نجاح مسعاهم . ولكن المال من الملك فيصل وهذه حجة الفرنسيس في الرشوة

قال سليمان كنعان للامير امين : بشرط الا نمر بالشام ولا نقابل الملك فيصلاً . وكأني بالامير اللطيف الحاذق يقول : تأخذون ماله ولا « تميلون » للسلام . فاتفقوا ان يسافروا الى حيفا ويرسلوا من قبلهم اثنين او ثلاثة الى الشام للسلام — والمفاوضة. ولكنهم لم يصلوا لا الى هذه ولا الى تلك . اوقفتهم السلطة الافرنسية قبل ان يجتازوا الحدود وعادت بهم مخفورين الى بيروت حيث حوكموا امام مجلس افرنسي يرأسه ضابط اسمه ده فوكروسون [1] ونفوا الى جزيرة ارواد ثم الى جزيرة كورسيكه .

بعد ان القي القبض على اعضاء مجلس الادارة باربعة ايام اي في ١٤ تموز سنة ١٩٢٠ ارسل الجنرال غورو بلاغه النهائي الى الملك فيصل ، ومطلعه هذه الكلمات :

« بينما كانت السكينة سائدة في سورية اثناء الاحتلال الانكليزي ابتدأ الفساد يوم حلت جيوشنا محل الجيوش البريطانية ولا يزال آخذاً

(١) M. de Veaucresson

بازدياد منذ ذاك الوقت »[١]

هي الحقيقة بعينها . ابتدأ الفساد يوم حلت جيوش الفرنسيس محل الجيوش الانكليزية . فقد كانت الجيوش الافرنسية اما عاجزة واما مهملة. اما العجز فالحزم الذي ابدته هذه الجيوش بعد البلاغ النهائي ينفيه كل النفي. واما الاهمال فقد يكون ناتجاً عن قصد سياسي المسوغ له عندهم ما بدا من الرغبة منهم في الاستيلاء على المدن الاربع التي تعهدت فرنسه لانكلتره في اتفاق ١٥ ايلول من السنة الماضية الا تحتلها.

اما بلاغ الجنرال غورو فتقسم الاحتجاجات فيه الى خمسة اقسام . اولاً — « الاعمال الموجهة الى حكومة الاحتلال الافرنسية » وفيه ذكر الحوادث المفجعة التي كانت العصابات سببها وان حكومة دمشق قد قابلت القائمين بتنظيمها بالحفاوة والاكرام « ونخص بالذكر منهم صبحي بك بركات الذي اصبحت عداوته لنا اشهر من نار على علم . »[٢] ثانياً —«سياسة حكومة دمشق العدائية » وهي تنحصر على ما يظهر من البلاغ بتعيين رجال في الحكومة «معروفين بعدائهم لفرنسه .» ثالثا — «التدابير الادارية ضد فرنسه» واهمها ما يتعلق برفض التداول بعملة البنك السوري. رابعاً— « الاعمال العدائية الموجهة لفرنسه رأساً » وفيه ذكر بعض الذين أُهينوا في المنطقة الشرقية لانهم اصدقاء فرنسة والذين احترموا لانهم اعداؤها ومنهم الدنادشة وكامل بك الاسعد ثم اعضاء مجلس ادارة لبنان . خامساً — « التعديات على الحقوق الدولية » وفيه احتجاج على التجنيد الاجباري وعلى ملكية الامير « المغتصبة غير الناتجة عن ارادة الشعب الحرة » وعلى المؤتمر السوري الذي تألف وشكل بصورة غير مشروعة.

« ان هذه الاسباب تثبت جلياً انه اصبح من المستحيل الاعتماد على حكومة جاهرت بصراحة تامة بعدائها لفرنسه . . . وعليه فان فرنسه

(١) اعتمد على الترجمة التي في كتاب «مركز لبنان السياسي» ليوسف اصاف بك .
(٢) صبحي بك بركات هو اليوم رئيس الاتحاد السوري تحت الانتداب الافرنسي

ترى نفسها مضطرة ان تحتاط بالوسائل اللازمة لتأمن راحة جيوشها وراحة اهالي البلاد »... ولذلك هي تطلب الضمانات التي يلي ذكرها : اولاً — حق التصرف بسكة الحديد بين رياق وحلب . ثانياً — الغاء الخدمة العسكرية الاجبارية . ثالثاً — قبول الانتداب الافرنسي . رابعاً — التداول بالعملة السورية . خامساً — معاقبة المجرمين الذين تثبت عليهم اكثر من غيرهم مناجزة العداء للجنود الافرنسية .

وقد طلب الجنرال قبول هذه الشروط « بوجه اجمالي دون استثناء البتة في مهلة اربعة ايام تبتدىء في الساعة الاولى ليلاً من ١٥ تموز وتنتهي في الساعة الثانية عشر ليلاً في ١٨ منه . »

وصل البلاغ الى الشام في مساء اليوم التالي فاستدعى الملك للمشاورة عدداً من وجهاء المدينة من جميع الطوائف ، ففوضوا الامر اليه ليعمل بما فيه خير البلاد . ولكن المؤتمر السوري اصدر في جلسة قانونية القرار التالي :

« ان المؤتمر السوري الممثل للامة السورية في مناطقها الثلاث يعتبر قراره التاريخي بمواده الثلاث التي هي : اولاً — الاستقلال التام والوحدة ورفض الهجرة الصهيونية ، ثانياً — ملكية جلالة الملك فيصل على الاساس النيابي الدستوري ، ثالثاً — بقاء المؤتمر منعقداً يراقب اعمال الحكومة المسؤولة امامه الى ان يجتمع مجلس النواب بموجب القانون الاساسي ، قراراً واحداً لا يقبل التجزئة . وان نقض جزء منه يعتبره المؤتمر نقضاً للقرار بحذافيره . وان المؤتمر السوري لا يعترف باسم الامة السورية باية معاهدة واتفاقية او برتوكول يتعلق بمصير البلاد ما لم يصادق المؤتمر نفسه عليها . »

في هذا القرار وطنية شماء لا يزدريها من كان له وطن في العالم .

الفصل العاشر

مَيْسَلون

الخلاف بين الملك ووزير الحربية — الحكمة والاعتدال — التحمس والضحية — الثلمة بين الحكومة والامة — اعلان الحرب — قبول الشروط — وصول الجواب مؤخراً — السبب في التأخير — دعوى حكومة الانتداب — الحقيقه — الجيش الافرنسي يزحف على دمشق — الطريق التي اتخذها — قطع خط الرجعه — تسريح الجيش العربي — احتلال مجدل عنجر — دفاع البقية من اللواء الاول — الهدنة — الثورة في دمشق — معركة بين الجنود والاهلين — الملك يدعو الناس للجهاد — يوسف العظمه في ساحة القتال — وقعة ميسلون — الاستشهاد — دخول الجيوش الافرنسية دمشق .

كان يوسف العظمه ، وهو صنو انور ومصطفى كمال في المدارس الحربية الالمانية ، شديد البأس شجاعاً باسلاً ، صريح الكلمة ، صادق اللهجة ، ذا وطنية اجيجها من نار الشهداء . ولكنه في حماسته واندفاعه ، وهو وزير الحربية في الحكومة السورية ، اساء الى معقوله ونسي حقيقة الحال التي توجب الحكمة والاعتدال .

اما الملك فيصل فهو في سياسته ، وخصوصاً في المواقف الحرجة ، ينسى ان الحماسة روح الحقيقة ، وان الضحية نورها . فلو رأى الواحد منهما ما في الاخر وتنزل الى قبول شيء منه في الساعة الخطيرة ، ساعة الجزم واليقين ، لما كانت تلك الثلمة التي انقضت منها روح الفوضى فساعدت على قتل روح الحرية والامل في الامة .

كانت الثلمة ، مهما قيل في حسن الصلات بين جلالة الملك والمؤتمر السوري ، وكانت الفوضى ، وكان الاستيلاء الاجنبي . ثبت المؤتمر في قراره الاخير فاعلن الحرب على اثر وصول البلاغ النهائي ، دفاعاً عن الوطن . وصدر الامر من نظارة الحربية بارسال الفرقة الاولى الى مجدل عنجر في منطقة

ميسلون لتكون هناك مستعدة للحرب .

ولكن اعيان الامة ورؤساءها الروحيين كانوا يميلون مثل الملك الى قبول الشروط ، فوكلوا الامر اليه ، فارسل جلالته في ١٦ تموز برقية الى الجنرال غورو يقبل الشروط كلها ، واصدر امراً في تسريح الجيش واخر الى الجنود في منطقة ميسلون لترجع الى الشام ، الا اللواء الرابع فيبقى محافظاً على الحدود . ولكن البرقية لم تصل الى الجنرال الا بعد انتهاء المدة المعينة في البلاغ ، لان العصاة ، كما ادعت الحكومة ، كانوا قد قطعوا الاسلاك البرقية في جهات الزبداني .

هب انها الحقيقة ، فان القيادة العامة كانت عالمة بما كان يجري في تلك الايام في دمشق . وقد طارت طيارة في ١٨ تموز فوق المدينة فألقت منشوراً من الجنرال غورو مطلعه ما يلي : « في هذه الساعة التي تقذفكم فيها حكومتكم الى القتال وتستهدف بلادكم لاخطار الحرب وويلاتها اوجه اليكم الخطاب لاقول لكم السبب الذي من اجله تقتتلون . »

« علي اني ما زلت آملاً بان السوريين الاذكياء المتنورين سوف لا يرضون بان يلقوا بانفسهم الى التهلكة دفاعاً عن الاقلية الاثيمة . »

بعد ان ارسل الجنرال غورو البلاغ النهائي زحف جيشه ، وهو زهاء ستة الاف من الجنود السنغالية والمراكشية والجزائرية[١] على الشام متخذاً غير الطريق المعروفة ، طريق وادي الحرير ، فقطع سهل البقاع من جب جنين الى وادي القلوح ، فمر بقرية بكّا ، ثم بدير العشائر ، فاستصحب احد الرجال هناك دليلاً ، ودار من دير العشائر الى الديماس فقطع خط الرجعه على العرب المعسكرين في منطقة ميسلون ، ووقف هناك ليأمن مؤخره قبل ان يستأنف الزحف على دمشق .

---

(١) كان هذا الجيش مؤلفاً من بقية الاي البيادة ٤١٥ والاي الرماة الجزائريين الثاني والفرقة السنغالية والاي الرماة الافريقيين وطابور من الصباهية المراكشيين والمدفعية السهلية والجبلية تدعمها الطيارات والدبابات .

وقد دل الملك في زحف الجيش على استعداده للقتال ورغبته فيه ، فشاء عند وصوله الى الديماس ان يخرج الجنود العربية من مراكزها المحصنة ليضربها في الفلاة ويحتل تلك الاماكن . لذلك بادر الى احتلال مجدل عنجر عند ما انسحبت الجنود العربية منها ، واخذت تتراجع بدون نظام الى دمشق . ولكن اللواء الرابع ظل محافظاً هناك بموجب الامر الذي اصدره الملك فتصدى للدفاع عند ما تقدمت الجنود الافرنسية فاسقط في يده واسر برمته .

اما ناظر الحربية يوسف العظمه فكان قد اصدر امراً الى الجنود المسرحة يناقض امر جلالة الملك ، فاوقف قائد اللواء الاول حسن الجندي ؛ عملاً بذاك الامر ، عدداً من جنوده يتراوح بين الثلاثمائة والاربعمائة وعاد بهم الى ساحة القتال . فئة صغيرة وقفت وقوف الابطال في وجه الفئة الكبيرة فخشيت القيادة الافرنسية ان تكون القوات العربية التي انسحبت من مجدل عنجر متحصنة في جهات خان ميسلون ، وان تكون هذه الشرذمة طليعة جيش كبير من العرب . فرغبت الى الملك فيصل بهدنة مدتها ثمانية واربعون ساعة تنتهي في الساعة الاخيرة من ٢٣ تموز . فكانت الهدنة وجاء اثناءها مندوب الحكومة العربية مصحوباً بالمعتمد الافرنسي بالشام للمفاوضة مع الحكومة الافرنسية بعاليه .

اعود بالقارىء الى المسرح في دمشق حيث الثلمة بين الحكومة والامة كانت تزداد خطراً واتساعا . فلما انتشر خبر الامر بتسريح الجيش نهض جمهور من الدمشقيين يحتجون ، بل نهضوا للثورة في سبيل الاستقلال ، وبادروا الى الثكنة والقلعة يطلبون الذخيرة والسلاح . فاصدرت الحكومة امراً بتشتيتهم . وكان قد وصل الى دمشق بعض الجنود المسرحين العائدين من ميسلون ، فازدادت نار الثورة تأججاً ، وكانت الفوضى تنفخ فيها على الدوام ، فقام بعض الرعاع يصيحون مع الثائرين ويسلبون وينهبون . جاءت كتيبة من الجند لتنفيذ الامر بتشتيت هذه الجموع الهائجة فنشب بين الفريقين القتال ووقع مئات من القتلى تحت نيران المدافع الرشاشة .

وكان يوسف العظمه لا يزال مصراً على رأيه وعزمه. اما الملك فيصل فبعد التردد والتحير، نهض يوم الجمعة يشد حقويه ويستل السيف باسم الله. وقف يومئذٍ في الجامع الاموي خطيباً وطفق يدعو الناس للجهاد، ويعدهم بانه سيكون في طليعة الجيش.

ولكن وزير الحربية الباسل سبقه الى الجهاد والاستشهاد فخرج باربعمائة جندي ومئتين من الهجانة، يصحبهم ويتبعهم جيش من الاهالي والعربان يتراوح عدده بين الاربعة والخمسة الاف. جاء ينجد تلك البقية المستبسلة من اللواء الاول. ولكنه هو وزير الحربية كان يعلم ان الذخيرة والمعدات لديه لا تكفي لمعركة واحدة خطيرة، ففضل الشهادة على الحكمة والموت في سبيل الوطن على الحياة في ذله.

اتخذ العظمه عقبة الطين جبهة للدفاع ونشبت في ٢٥ تموز نار الحرب بين الجيشين في واقعة دامية استمرت ست ساعات، واستخدمت فيها الجنود الافرنسية الطيارات والدبابات. هي واقعة ميسلون المعروفة التي اضعفت القوات العربية وبدأت في صفوفهم دلائل التفكك والتقهقر.

وظل يوسف العظمه في مقدمة رجاله يحثهم على القتال، فاصيب برصاصة في فخذه، واخرى في كتفه، وظل يحرض ويقاتل حتى اصابته الثالثة في رأسه فهوى الى الارض صريعاً. رحم الله كل من مات بطلاً في سبيل الحرية والاستقلال.

وفي اليوم التالي دخلت الجنود الافرنسية دمشق وكان قد غادرها الملك فيصل ومعه بعض من لا يزالون من حاشيته في بغداد.

الفصل الحادي عشر

الثورة في العراق

شهر الحرية شهر شؤم على طلاب الحرية — ثورة ولا زعامة ظاهرة — خسارة العراقيين والانكليز — فساد الاخلاق في اوروبه — روح التمرد في الشرق — حكومة هندية في العراق — ضعف السيادة المعنوية — تأجج الفتنة — العشائر والمفاتيل — السر آلمير هالداين — المعاقل الانكليزية — سوري مقتدر حكيم — السر آرنلد ولسون — في سياسته سوط ونكتة — السر برسي كوكس — في سياسته كثير من الزيت — بلاغ المندوب السامي — حكومة وطنية — السيد عبد الرحمن النقيب الجيلاني — اعضاء المجلس الوطني — اعمال المجلس — السيد طالب النقيب — العراق يطلب ملكاً — السيد طالب يلبي الطلب .

ان الشهر الذي استقرت فيه السيادة الافرنسية في سورية لشهر شؤم على السيادة الانكليزية في العراق. فقد اختار الافرنسيس تموز ، شهر الحرية ، ليقاوموا شعباً مجاهداً في طلب حريته ففازوا ، وقد حاول العراقيون في هذا الشهر ان يخرجوا الانكليز من العراق فلم يفلحوا . وكانت الثورة قد أشتعلت وتأججت في انحاء العراق كلها ، من النجف الى بعقوبة ، ومن المنتفق الى الموصل وبلاد الاكراد .

جاءت الكلمة من العلماء ، وفي مقدمتهم كبير المجتهدين في النجف ، فقامت العشائر ترددها وتعمل بها ، فارسلت روح التمرد في البلاد سمومها ، فالتهمت الاخضر واليابس في المضارب وفي المدن ، وعمد الوكلاء السياسيون لبريطانية العظمى الى البرق والتلفون يطلبون النجدات من البصره ومن العاصمة . انه لأعجب ما حدث في العراق بعد الاحتلال الانكليزي. هوذا بلد لا صحافة فيه تذكر ، ولا طرق مواصلات حديثة صالحة ، ولا زعامة ظاهرة ولا قيادة ، تعمه الثورة فيربط اطرافه بعضها ببعض في اقل من شهر ، ثم تستمر اشهراً وهي تزداد قوة وهولاً حتى ان العاصمة بغداد كادت تسقط في حوزة الثائرين .

قد انفقت الحكومة البريطانية ملايين من الليرات وفادت بالوف من الجنود لاخمادها ، وكانت خسارة العراق كذلك كثيرة فادحة . هي ثورة شبيهة بزلزال هائل ، لا بحادث اجتماعي شاذ يديره مع ذلك العقل والحكمة. فلم يكن فيها شيء من الخير لا لأهل العراق ولا للحكومة المحتلة .

بيد انها نبهت الانكليز الى حال في البلاد العربية بل في الشرق جديدة ، وذكرتهم بحال في اوروبه هي بنت الحرب العظمى وام الانحطاط المعنوي وقد كادوا ينسونها . لكل عمل رجل ، ولكل رجل يوم ، ولكل يوم سياسة . قد كان الانكليز السبب الاول في ثورة العراق في صيف ١٩٢٠ لانهم نقلوا الى البلاد حكومة هندية قديمة عقيمة ، هندية في طريقتها ، هندية في سياستها ، هندية في رجالها . والهنود بجملتهم لا يحبون العرب ولا يحترمونهم ، والعكس بالعكس . وقد كان رئيس الحكومة في هذه الفترة رجلاً من الطراز الاول من ابناء بريطانية الاشداء الذين شادوا في الماضي معالم مجدها . ولكنه وجد في زمان غير زمان اجداده ، وبين شعب غيرت نفسيته وعقليته حوادث الايام .

السر آرنلد ولسون[1] الحاكم بالوكالة يومئذٍ في العراق هو كهل في العقد الرابع من العمر ، ومن الانكليز الذين كانوا يحملون السوط في القرن الماضي ويحكمون بموجب ضميرهم لخير انكلتره اولاً ثم لخير الناس . وكانوا في تفوقهم محسنين ، وفي ظلمهم عادلين ، قوتهم في يقينهم ، ويقينهم في اخلاقهم واخلاقهم متأصلة في فضائل شعب مجيدة ، اظهرها الشرف والعدل والصدق والثبات ، ولكن هذه الفضائل امست اليوم من التقاليد المحترمة . وقد يعيد الزمان الى التقاليد الحياة والعمل .

قام السر آرنلد ولسون يمثل في العراق امة افقدها الحرب كما افقدت امم اوروبه جمعاء كثيراً من قواها المعنوية الروحية ، فصارت تفادي بعدلها في سبيل شرفها ، او تتنزل عن شيء من شرفها لتحفظ مقامها ، او تتساهل بالصدق لتظل ثابتة القدم مسموعة الكلمة ، او تتقلب وتتلون دفاعاً عن

(١) Sir Arnold Wilson.

نفسها وكيانها . رجل من حديد يمثل امــة من فولاذ اعتراه الصدأ ، قام في العراق يحكم باسم الله وبريطانية العظمى ، فوجد شعباً ظنه كشعوب الهند في القرن الماضي يقبل دائماً بالتأديب ويشكر دائماً المؤدب .

قلت ان الحرب افقدت الامم الاوروبية كثيراً من قواها المعنوية ، الادبية والروحية ، ولم تكسب الشعوب العربية بل الشرقية غير حب الحرية والاستقلال ونزعة في سبيلها لا تماثلها شدة حتى اشد النزعات الدينية . ولكن الحروب والثورات ، اذا كسرت قيود الظلم ، لا تعلّم المظلومين النزاهة والحكمة والعدل ، ثم العمل المدني الذي فيه هذه الفضائل الثلاث . فقد الانكليزي من قواه المعنوية ما كانت تقدر في الاحكام بنصف نفوذه ، ولم يبق في العربي بل الشرقي من الخوف والاحترام ما كان يقوم مقام النصف الاخر . كانت بريطانية العظمى تحكم ثلاثمائة مليون من الناس بثلاثين الفاً من الجنود . هي حال ولّت ايامها ، فقد ارسلت سبعين الفاً من جنودها الى العراق ، وسكانه لا يتجاوزون الثلاثة الملايين ، ولم تستطع ان تخمد الثورة في اقل من سبعة اشهر .

السبب بسيط . ان كلمة الحاكم العادل المستبد تستوجب في تنفيذهـا ، اذا كان لا يحترمها الناس ، قوة الشرطة او قوة الجيش . فكيف بها اذا كان الناس ينفرون منها ويقاومونها . زرع السر آرنلد ولسون اثناء قيامــه مقام المندوب السامي ، بذور الفتنة ، وهو متيقن انها بذور الحكمة والخير ، وشاركه في الزرع وفي الحصاد رجل اخر من رجال الحكم الانكليزي هو السر آلمر هالداين[1] قائد الجيوش البريطانية يومئذ في العراق . ويظهر ان السر آلمر كان احرص على صحته وراحته من السر آرنلد . فقد اعتاد في الهند ان ينتقل مع الحكومة في كل فصل من فصول البرد والحر ، فجاء العراق في اخر الشتاء ، وما كاد يدخل الربيع الذي هو النصف الاول من صيف هذا القطر حتى احس بحر، حمله على التجوال في جبال العجم . ثم نقل مركز القيادة

(١) Lieutenant Gen. Sir Aylmer Haldane.

العامة الى تلك الجبال بين ان البلاد كانت تتمخض بالثورة . اضف الى ذلك ما كان يحدث بينه وبين وكيله المندوب السامي والوكلاء السياسيين من الخلاف الذي زاد في خلل الادارة وفي امتداد الفتنة . حتى ان السر آرنلد بعث ذات يوم يشكوه الى الحكومة بلندن فجاءت برقية من الوزارة الحربية تسأل القائد العام ماذا يعمل في جبال العجم . اجل ، ماذا يعمل في الجبال ونيران الفتنة تشتعل في السهول ؟.

اما الغاية من هذه الثورة فقد انحصرت كما يظهر بأمرين ، اخراج الانكليز واعلان الاستقلال . ولكن نهضة يديرها او يوعز بها او يدعو لها المجتهدون لا تخلو من نزعة دينية تتخلل دعوتها السياسية . فقد كان المجتهدون في النجف وبعض الزعماء مثل يوسف السويدي وجعفر ابي التمن يعملوا سراً في اثارة الفتنة . اما العشائر فقد كانوا مستعدين — وهم دائماً مستعدون — لتلبية اي دعوة تخلصهم من دفع الضرائب الباهظة التي تفرضها الحكومة عليهم وتحاول تحصيلها بالطرق الفعالة ، القانونية وغير القانونية . فما همهم شيء ولا عرفوا بشيء من مقاصد الزعماء المحتجبين الخفية .

وقد كان للعشائر قوة في الدفاع والقتال عجزت دونها الجنود البريطانية . ان ارض العراق كما هو معلوم مسطحة بسيطة يكاد لا يكون فيها ملجأ يلجأ اليه المقاتلون في الغارات او مكمن يكمنون فيه . فبنى العشائر لهذه الغاية المفاتيل . والمفتول هو برج صغير مستدير ، علوه من خمسين الى سبعين قدماً ، فيه درج غالباً لولبي يتصل بغرفة في رأسه فيها كوى كبيرة من الداخل صغيرة من الخارج يرصد منها العدو ويطلق منها النار . وهي تختلف حجماً فيمكن ان يحاصر فيها من الخمسة الى العشرين رجلاً عدة ايام . قد رأيت منها في اليمن وفي نجد ولكنها قليلة هناك .

اما العراق فقد كان فيه الوف من المفاتيل عند دخول الانكليز . بل كان في بعض الجهات لكل بيت او في الاقل لكل حي مفتول ، المفاتيل ! انما هي الويل الاكبر على الجنود الانكليزية ، وهم في الفلوات معرضون دائماً لنارها

ولا كنف يحميهم منها . فلاعجب اذا عدت حصن العراقي المنيع ، والسلاح الوحيد الذي يخشاه العدو . ولا عجب اذا كان العدو في الزحف والهجوم يسعى اولاً في هدمها ، ثم يبني في السهول مايقوم مقامها لجنوده وهو المعقل او ما يسمونه بالانكليزية Block House وليس هناك ما يحول دون ذلك . فالمعقل مربع بسيط له اربع نوافذ عالية وليس له باب ، وفي الداخل مواقف للجنود تمكنهم من الرصد واطلاق النار . قد بنى الانكليز الوفاً من هذه المعاقل ، وفي الطريق من البصره الى بغداد كثير منها ، ليس بين الواحد والاخر اكثر من مسافة ميل واحد .

اما هدم المفاتيل فيستلزم قوة وشجاعة واستبسال . وقد بذل الانكليز كثيراً من المال فوق ذلك . فكانوا يتقدمون الى شيخ القرية او شيخ القبيلة بشرك او بمعروف او برش من الرصاص او المال ، فيضغطون عليه او يستغوونه او يرشونه او يغدرون به — والحرب خدعة . اجل ، قد بذل الانكليز كثيراً من المال ومن الرجال في هدم المفاتيل . ولم تكن الطيارات التي حملوا بها على العشائر لتساعد كثيراً ، الا اذا كانت المفاتيل داخل القرية التي يضربونها ، فيهدمون ويحرقون فيها ليهدموا تلك الحصون الصغيرة المخيفة ، او ليروعوا اهلها المتمردين . لا اظن ان في مظالم الحكم مظلمة تورث العراقيين بغض الانكليز وتثير عليهم ثائرة الاحقاد مثل الطيارات ، ذلك السلاح الطائش الاعمى الذي يقتل النساء والاطفال والابرياء مع المذنبين .

وعلى الرغم من الطيارات قد حاصر الثائرون كثيرين من الضباط والوكلاء السياسيين وهم في مراكزهم يدافعون عنها الى ان تجيئهم النجدة او يقتلون . وقد كان اكثر الموظفين من الجندية فلم يحسنوا الادارة خصوصاً في بلاد اجنبية ، ولم يكن بينهم وبين اهلها شيء من العطف فضلاً عن الخلل في الادارة العسكرية التي كانت قيادتها العامة معتصمة في جبال العجم . فلا عجب اذا استمرت الثورة سبعة اشهر ، والعرب فيها فائزون بالرغم عن المعاقل المشيدة والمفاتيل المهدومة .

وعلى ذكر المفاتيل اذكر سورياً سعى في هدم مئات منها وكان من المفلحين . فقد كان في خدمة الانكليز الادارية بعض السوريين من المقتدرين المخلصين ، كما جاء في تقرير المندوب السامي الى دائرة المستعمرات . « وقد كان احد سوريينا المقتدرين المخلصين عوناً كبيراً لنا في هذا الموقف الحرج» ولكن كاتب التقرير لم يذكر اسم ذاك السوري . هو الجندي المجهول . فها اني عملاً بالواجب الانساني لا الوطني اذكر اسم من يستحق ضعف هذا الثناء . هو سوري من حيفا كان نائب متصرف البصره يوم كنت هناك ، فخدم الحكومة العراقية الانكليزية في ايامها الاولى العصيبة خدمات جليلة في وظائف شتى ، وحاز جزاء خدمه في النجف خصوصاً نيشان الدولة الهندية .

كان جاد غاوي معاون الوكيل السياسي في الشامية[1] وكانت المفاتيل في تلك الايام كما قلت اشد اعداء الجيوش البريطانية وامضى سلاح بيد العراقيين فتمكن جاد غاوي في الشامية من حمل العرب على هدم مفاتيلهم ولم يبذل من اسباب النجاح غير اللطف والمعروف وقوة الاقناع . داراهم وهو في دارهم فاكتسب ثقتهم وحب مشايخهم ، فهدموا من حصونهم ما يتجاوز الالفين منها ، وكانوا بعد ذلك من اصدقاء الحكومة والانكليز . قد لا يذكر اسم جاد غاوي في التقارير الرسمية ، ولكن سمعته حيثما سرت في العراق وما سمعته مقروناً بغير كلمات الحب والتكريم .

اما السر آرنلد ولسون ، فلا يزال في العراق من الانكليز لا من العرب ، من يعجب به بالرغم من هذه الثورة ، ويستحسن خطته السياسية ولا غرو ، فهو على نزقه وتسرعه وعنفوانه حر الطبع ، صريح الكلمة ، طلق المحيا . وهو حنطي اللون ، اسود الشعر والعين ، كانه ايطالي او اسباني . وله شيء مما كان لروزفلت من المغناطيس في المصافحة والحديث . قد كان الرئيس الاميركي الشهير يضرب بيده على كتف من يحييه عند المصافحة ، فاصبحت من عاداته

(١) هو قضاء الشامية من متصرفية الحلة وعدد سكانه نحو خمسة وستون الف نفس كلهم شيعيون ومن العشائر .

المحبوبة . اما السر آرنلد فلا يضرب بيده بل بلسانه او باشارة من اشارات النفس التي تظهر في اللحظ او الابتسام او في نبرات الكلام. قد اجتمعت به في البصرة بعد ان رجع من انكلترة ليرأس شركة الغاز الانكليزية الفارسية في عبّادان . فسلم كأنه من المعارف . وعند ما تبادلنا السلام تبادلنا كلمة بخصوص السر برسي كوكس . وكان قد علم السر آرنلد باني انتظره لارافقه في السفر الى العقير فقال على الفور : ستنتظر طويلاً . فقلت : اذا كان لا يصل في هذا الاسبوع اسافر وحدي. فقال : حسناً تفعل . هي الطريقة الوحيدة في النجاح . فخطر في بالي اذ ذاك ما قاله الشاعر العربي فترجمته له :

وانما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل

فقال السر آرنلد على الفور : عند العرب الشعر ولا ريب ، وليس عندهم العمل .

هو ذا الرجل الذي كانت سياسته في العراق من العوامل الاولى في ثورة سنة ١٩٢٠ . ولا اظنه اذا ذُكرت مرة يحس بشيء من الندم ، لانه كان ولا يزال يعتقد ان القوة في الحكم بالرغم عن التعنيف خير من اللين والفوضى. اما الرجل الذي جاء في تشرين الاول من هذه السنة ليطفىء ما تبقى تحت الرماد من جمرات الثورة ، ويؤسس حكومة وطنية لاهل العراق « وفقاً لرغائب جلالة الملك » فهو نقيض السرآرنلد على خط مستقيم .

السر برسي كوكس [1] رجل طويل القامة ، نحيل الجسم ، بيضي شكل الوجه ، دقيق الانف والشفة ، ابيض الاديم ازرق العين . هو انكليزي لا غش فيه .ظاهره ، وهو في سكون ، ينبىء عن نفس رائقة ولكنها ليست بشفافة .

(١) دخل السر برسي كوكس في سلك الحكومة الهندية سنة ١٨٩٠ ، وعين بعد ثلاث سنين نائب قنصل زيلا في بلاد الصومال ، وانتقل في السنة التالية الى بربره ، ثم عين سنة ١٨٩٩ قنصلاً في مسقط ، ثم قنصلاً عاماً في ابي شهر . وفي سنة ١٩٠٩ اسند اليه منصب المندوب السامي في خليج العجم . وعندما شبت نار الحرب العظمى انتدب لان يكون رئيس الحكام السياسيين لفرقة D من الحملة الهندية لفتح العراق . ثم ذهب بعد الحرب الى بلاد ايران بصفة وكيل الوزير البريطاني في طهران ، وعاد منها مندوباً سامياً لحكومة بريطانية العظمى في العراق .

واذا كان من اضطراب هناك فقلما يبدو للنظر . في لطفه ما يدفىء ولا يشع ، وفي صراحته شيء يشير غالباً الى التعمد . هو من السياسيين الذين يحتفظون بسرهم ، وان كان لا يهم ، كانه رأس مالهم في الحياة . واذا كشف عن زاوية منه فالا بعد ان تكون الحوادث قد كشفت الستار عنه كله .

ان سكوت السر برسي هو غالباً افصح من نطقه . وان عمله السياسي ، وان وقف فيه احياناً عند حد الغموض او العجز ، لا يخلو من الاخلاص للعراقيين وللعرب . فاذا حصرت النظر في سياسته العربية ارى ان اكبر فضله واظهر حسناته هو هـذا الاخلاص — ولا ريب عندي فيه — اخلاصه للامة العربية ولو ظهر في بعض الاحايين في مظهر مائع او في مظهر مؤلم . فقد قضى مدة من حياته قريباً من العرب ولا يزال يحبهم ويعجب بمواهبهم الراقدة ، ويود ان تكون المنافع في العلائق الانكليزية العربية مشتركاً فيها على السواء بين الامتين .

كنت اتحدث وأحد رجال السياسة المعتدلين ، غير العرب ، وكان السر برسي ونفط العراق موضوعنا فقال جليسي : ان في سياسته كثيراً من الزيت . هي استعارة غربية علمية ، وفيها خلا الاشارة الى زيت العراق مغزى لطيف . فالآلة الميكانيكية اذا كثر زيتها يخف صوتها وتنعم في احتكاك اجزائها . ولكنها تقف احياناً من الاحتقان في مفاصلها فيعتريها الخلل . وكثيراً ما وقفت الآلة السياسية في دار الانتداب ، وكان رئيس المهندسين ، بل رئيستهم المس بل ، تذكر في البلاغات بعض اسباب الخلل ، ولا تشير مرة الى كثرة الزيت والاحتقان .

مهما قيل في السر برسي فان وجوده في العراق ، في ما يعد من اهم ازمنة العراق السياسية بعد الحرب ، كان خير ضمين لكرامة انكلترة ومصلحتها ، وخير صلة بينها وبين هذا القطر الناهض من الاقطار العربية . فقد حدث في عهده من الحوادث ما ستكون باذن الله وبهمة العراقيين اول صفحة مجيدة في تاريخ العراق الجديد .

عند وصول السر برسي في تشرين الاول سنة ١٩٢٠ انتهى الحكم العسكري رسمياً . ولكن شرائم من الثورة كانت لا تزال خارجة في اماكن مختلفة فصوب المندوب السامي باكورة اعماله اليها . فسلمت كربلا ، وهي قطب الفتنة في ١٣ تشرين الاول وأنجدت الحامية في الكوفة ، فسلمت على اثر ذلك النجف ، ورضخت عشائر الشامية والديوانية ، وكان عدد ما جمع من السلاح في هذه النواحي خمس وستين الف بندقية .

اما في لواء ديالى حيث كانت الثورة في اشد حالها فقد استمر الاضطراب وما تخلله من الحوادث المؤلمة الى اواخر سنة ١٩٢١ عندما عقدت المعاهدة بين الحكومة ورؤساء العشائر هنـاك . وظل في الشمال في نواحي الموصل نفوذ الاتراك ينخر كالسوس في عظم السيادة العربية الانكليزية ، ولا يزال حتى اليوم .

عندما باشر المندوب السامي اعمـاله السلمية اصدر بلاغاً الى العشائر خصوصاً والى اهل العراق عموماً يعلمهم فيه بانه انتدب ليساعد في تحقيق اماني الامة بواسطة زعمائها ، وليؤسس بمؤازرتهم حكومة وطنية . ولكن ذلك يستحيل قبل ان يستتب في البلاد الامن والنظام ، ولما توفقت حكومة الانتداب الى ايجاد شيء من ذلك اصدر بلاغاً اخر يعلم الامة بتأسيس حكومة موقتة الى ان يجتمع المجلس النيابي العام الموعود به في ١٧ حزيران من سنة ١٩٢٠ وان هذه الحكومة الموقتة تتألف من مجلس وطني يحكم تحت مشارفة المندوب السامي في كل الامور ما سوى الامور الخارجية والعسكرية .

ان اصدار مثل هذا البلاغ لمن ابسط الامور واسهلها ، ولكن تأسيس حكومة موقتة تحوز ثقة البلاد وتكون مرنة بيد المندوب السامي من الامور التي يكثر فيها العقد ولا تخلو من النفاثات .

لا ريب ان بيت النقيب ، وعلى رأسه الشيخ الجليل السيد عبد الرحمن الجيلاني ، هو مسموع الكلمة ، محترم الجانب في بغداد بل في العراق . ولكنه في السياسة ، كما هو في الدين ، يؤثر التقاليد على البدع ، ولا يرفع على الاعتدال

حسنة من حسنات الوطنية . وقد تتغلب في اعتداله المحافظة التي يعقم عندها الرأي وتتقلص عوامل التجدد . ولكن ذلك لا يهم النفاثات في العقد اللواتي تمثلهن المس بل.

ان فضيلة النقيب صديقنا صديق انكلتره وهو ثابت في صداقته . وان له نفوذاً سياسياً مقروناً بنفوذ ديني لا يضاهيه نفوذ في البلاد . اذن هو صديق الامة وصديق الانكليز — هو الزعيم . وسأعود الى فضيلة النقيب ومجلسه وسياسته في فصل اخر .

قبل متردداً رئاسة المجلس الوطني الذي كان من اعضائه الاخصائي المالي الشهير في العراق ساسون افندي حزقيل ، والسياسي الداهية السيد طالب النقيب، نقيب البصرة ، والعالم الفقيه مصطفى افندي الآلوسي ، والوجيه الفاضل عبد اللطيف باشا المنديل . كلهم من اصحاب التجلة والكرامة ، وليس فيهم ممن حارب في الحرب العظمى وكان من الشبيبة الوطنية التي تنعكس في امالها واقوالها ، وفي بعض اعمالها ، جمال النهضة العربية ، وحقيقتها العالية ، الا جعفر باشا العسكري .

أجتمع المجلس لاول مرة في ١٠ تشرين الثاني واستمر في الحكم الى يوم تتويج الامير فيصل ملكاً على العراق . وقد كان من اعماله العفو عن بعض المنفيين ممن اشتركوا في الثورة ، ومساعدة الضباط العرب الذين خدموا في الحكومة السورية الفيصلية ليرجعوا الى العراق ، وتنظيم حكومة مدنية يديرها موظفون وطنيون تحل محل الحكومة العسكرية التي كان يديرها الوكلاء السياسيون الانكليز . ثم باشر المجلس درس انشاء جيش عراقي ودرس قانون الانتخابات التركي وتصحيحه ليطابق احوال البلاد الجديدة .

وكان قد تولى هذا الامر ناظر الداخلية طالب باشا النقيب . ولكن الانتخابات والمطامع الملكية قلما تلتئم خصوصاً اذا كان امر الاثنين منوطاً برجل واحد . بدأت الامة تطالب بتنفيذ قرار ١٧ حزيران الذي اصدرته الحكومة العسكرية واجازته الحكومة الوطنية الموقتة . بدأت تطالب بانتخاب

المجلس النيابي العام.

وكان الامير فيصل قد سافر الى اوروبه ووصل الى انكلتره ، وكانت الحكومة الانكليزية تفكر في ملكية العراق وفي نكبة الامير . اما في العراق فكان قد ولى بعض الناس وجوههم شطر الكعبة يستمدون من ظلها المبارك الوحي في تشييد ملكهم الجديد. فشاع في البلاد امر الملك حسين واولاده ، وبعث بعض اولئك العراقيين يرغبون اليه بان ينفذ احدهم ليتبوأ العرش الجديد.

ازعج الخبر وزير الداخلية الذي فكر ملياً في الامر فرآه متشعباً كثير الاخطار . ان للشريف اربعة انجال وفي كل واحد منهم الخير والبركة . ولكن الامة العراقية تأبى التفضيل ، وقد تسيء الاختيار ، فتنقسم على نفسها فيتزاحم ويتهالك الانجال الاشراف في سبيل مصالحها ... وليس في مثل هذه الحال خير للعراق.

لذلك شرع السيد طالب يطوف في البلاد ليتم اصلاحاً خاصاً في قانون الانتخابات ، كانت المادة الاولى فيه ، تلك التي تولى بنفسه نشرها وتعميمها ، ان لا تنتخبوا شريفاً اجنبياً ملكاً عليكم . ويحكم . هوذا السيد طالب وهو مثل انجال الشريف من الاشراف . فهو يتكفل لكم بمن يملأ كرسي العرش ولا يكون التاج على رأسه كبيراً او صغيراً . ولكن المستر تشرشل ، وزير المستعمرات الانكليزية ، وهو يومئذ « طنب سارح » مثل السيد طالب ، كان يسعى في غير هذا السبيل .

الفصل الثاني عشر

فليحيَ الملك

ثلاثة يهتمون والتاج واحد — السيد طالب يخطب — المستر تشرشل يدبر — الامير فيصل ينتظر — مؤتمر القاهرة — رجوع السر برسي كوكس الى بغداد — السيد طالب يهدد دار الانتداب — الخواتين يدعونه للشاي — الجنود تحمله على بساط الريح . . . — المندوب السامي يصدر بلاغا — الامير فيصل يزور والده بمكة — السفر الى العراق — الوصول الى البصرة — الاستفتاء والمبايعة — التتويج — فليحيَ ملك العراق — ملكان يتواعدان — الامة والصحافة تهللان .

ثلاثة في هذه الحوادث التاريخية عظمت همومهم فبلغت الحد الفاصل بين النكبة والنعمة . ثلاثة يمالئون الشعب الذي اصبح وبيده التاج والصولجان يهبهما من يشاء ، ويحطمهما اذا شاء . ثلاثة يهتمون والتاج واحد . اما المستر تشرشل فقد كان همه الاول ان يخفف الضرائب عن الشعب البريطاني ليحفظ السيادة له ولحزبه في الحكومة فيضمن لمليكه سلامة التاج . وثاني الثلاثة الامير فيصل الذي فقد تاجه في سورية وراح يطالب الحكومة التي اعتادت — وفي كل عادة شيء من اللذة — ان تضارب خارج بلادها بالتيجان . والثالث سيد من سادات البصره ، فيه شيء من الاسد وشيء من الثعلب ، رأى الامة وبيدها تاج تبغي صاحبه فجاء يخبرها بان صاحبه النقيب سيد البلاد الاكبر . اما اذا احببتم ان ينوب عنه السيد طالب ، وهو نقيب ابن نقيب مثله ، فلا بأس . وراح يطوف البلاد كما جاء في الفصل السابق ليتحقق رغبة الامة .

وجاء المستر تشرشل الى فلسطين ثم امّ القاهرة ليدرس الحالة السياسية في الشرق الادنى فيدعم بشيء من الاصلاح سياسة الاحرار في الحكومة . هذا ظاهر الغرض من تلك السياحة ، ومن المؤتمر الذي عقد في القاهرة .

دعا المستر تشرشل رؤوس الحكومات الانكليزية في بعض الاقطار العربية للمفاوضة فجاء من العراق المندوب السامي يصحبه بعض المستشارين والمس بل ووزير المالية ساسون افندي وجعفر باشا وزير الدفاع .

وجاء الى القاهرة في ذاك الشهر ايضا اي الشهر الثاني من سنة ١٩٢١ الامير فيصل وحاشيته — متنزهين . فصفا الجو في العراق للسيد طالب ثم اكفهر كما سيجيء الكلام . والسبب في ذلك ، مهما قيل في التقارير الرسمية ، انما هو مؤتمر القاهرة . — قد اجتمعنا ايها السادة لننظر في طريقة صالحة تمكننا من تخفيض القوات الانكليزية المسلحة في الشرق الادنى دون ان يلحق شيء من الضرر بالسيادة الانكليزية . ثم للنظر في تأسيس دائرة خصوصية للشرق الادنى في وزارة المستعمرات لتوحيد السياسة والعمل . وبكلمة اخرى ، بكلمة وجيزة صريحة ، يجب ان نخفض نفقات حكومات الانتداب لترفع عن مناكب الشعب البريطاني اثقال الضرائب . واننا نرى ان تنظموا في العراق جيشاً من الوطنيين فنتمكن من سحب جنودنا من تلك البلاد . . . قد اجتمعنا ايها السادة . . . ملك العراق ؟ نعم . نعم . . . وكان الامير فيصل وحاشيته قد امّوا القاهرة كما قلت ترويحاً للنفس .!

عاد وفد العراق الى بغداد فاصدر المندوب السامي بلاغاً في ١٢ نيسان قال فيه ان ما قرره مؤتمر القاهرة يجب ان يعرض على الحكومة بلندن قبل ان يعلن . وكان السيد طالب قد امعن في التطواف والخطابة ، وتوسع في سياسة الانتخابات والتاج فازعج فريقاً من الامة خصوصاً فضيلة النقيب الذي كان يدرك من غوامض الامور ، وهو الصوفي الكامل ، ما تعجز دونه روحية طالب باشا وعقلية امثاله . أغمض النقيب الاكبر عينيه ونظر الى ما وراء حجاب الغيب فرأى هناك وزيراً من كبار الوزراء وخاتوناً من كبيرات الخواتين ، دع النفاثات في العقد ، فسمع الاول يقول والثانية تترجم : لا ترغب حكومتي لعرش العراق بغير واحد من بيت الحسين بن علي !

ولكن السيد طالب لا يسمع ولا يرعوي . ففي مأدبة ادبها لبعض

الصحافيين الانكليز ، وحضرها عدد من الوجهاء الوطنيين ورؤساء العشائر وقف بعد ان دارت الكؤوس خطيباً ، وكان في جهره مجيباً . — ان في دار الانتداب من لا نحبهم لانهم يتدخلون في شؤون الامة التي لها الحق ، ولها وحدها ، ان تؤمّر او تملّك عليها من تشاء . وقد صرحت حكومة الانتداب بانها ستحترم ارادة الشعب العراقي . ونحن نحترمها اذا فعلت . اما اذا اخلفت فهاهنا عليها — ونظر اذ ذاك الى رؤساء العشائر — عشرون الف بندقية .

كلمة شديدة صريحة ساقت الى جو السياسة الغيوم والضباب فقامت الخواتين تبددها . دعت اللادي كوكس السيد طالباً للشاي وكانت المس بل هناك تمثل على الدوام النفاثات في العقد، فسحر النقيب ابن النقيب ،وخرج من القصر مسحوراً . فاستقبله عند الباب بعض الجنود ، فدفعوه الى سيارة كانت طيارة . حملوه على بساط الريح دون ان يدري بذلك احد من الانس ، ولم يقفوا به حتى امسوا خارج العراق . ثم صدر منشور المندوب الساميوفيه الاسباب التي حملته على نفي صاحب المعالي السيد طالب باشا النقيب .

وظل الامير فيصل سائحاً في جو صفا اديمه وطابت عنده طلائع الغيب . فوصل الى الحجاز ، وركب الهجين من جده الى مكة ليقوم بالواجب البنوي عندما القى المستر تشرشل في اوائل حزيران خطاباً في مجلس النواب يختص بالعراق . تباركت الاقدار التي تديرها سياسة بريطانية العظمى . فقد أنست الابن غضب ابيه واستيقظت في صدر صاحب الجلالة الرحمة والحنان ، فجاءت منه برقية تقول ان ابنه فيصلاً قد سافر الى العراق .

وبعد عشرة ايام اشرقت شمس الامير في خليج فارس فجاءت النقيب برقية ثانية تقول انه سيصل الى البصره في ٢٤ حزيران . وما ضل البخار ولا غوى . وصلت الباخرة في الوقت المضروب فاستُقبل من تقلّ أستقبالاً رسمياً جميلاً في البصره بالرغم عما كان فيها من عوامل الريب والتردد بشأن من جاء يجلس على عرش العراق . ولكن الامير في محضره وحديثه وخطبه اكبر حجة لنفسه على المترددين من الناس . وقبل ان أم بغداد زار

المشهد[1] والحضرة[2] فاستمال اليه القلب الجعفري الخفي . ثم في ١١ تموز اجتمع مجلس الوزراء برئاسة النقيب وقرر ان يكون الامير فيصل ملك العراق بشرط ان تكون الحكومة دستورية ديمقراطية نيابية . فاضاف المندوب السامي انه عملاً بتصريحات حكومة جلالة الملك بان يكون للامة العراقية حق انتخاب من تشاء ملكا عليها فلا يُعمل بهذا القرار قبل ان يثبته الشعب العراقي . وشرعت الحكومة في الاستفتاء او الانتخاب او المبايعة فكانت النتيجة واحدة . ان انتخابات هذا الزمان الديمقراطية ، خصوصاً في الشرق ، لاضحوكة من اضاحيك السياسة . ولكن بالرغم عن مساعي الضباط الانكليز السياسيون الذين تولوا امر الانتخاب اشترط كثير من المنتخبين بان تكون حكومة الملك حكومة مستقلة عن اية سيادة اجنبية كانت . اي انهم رفضوا الانتداب .

وكانت حفلة التتويج ، وقد تم في ٢٣ آب سنة ١٩٢١ ، فوقف السر برسي كوكس يعلن امام الجماهير المحتشدة ان الامة العراقية اجمعت بستة وتسعين من اصواتها على مبايعة الامير فيصل وان حكومة جلالة ملك بريطانية العظمى تعترف به ملكاً على العراق . فالقى جلالة الملك خطاباً جاء فيه : ان اول عمل اقوم به هو مباشرة الانتخابات وجمع المجلس التأسيسي .

وبعد انتهاء الحفلة قدم المندوب السامي للملك برقية من الملك جورج الخامس فيها الكلام المألوف في التهنئة ثم ما يلي : « وان المعاهدة التي ستعقد قريباً بيننا فنثبت التحالف الذي تحالفناه في ايام الحرب المظلمة ستمكني ولا ريب من القيام بواجباتي المقدسة لادخال العراق في عهد جديد من السلم والنجاح . » فاجابه الملك فيصل بعد كلام الشكر المألوف بما يلي : « لا اشك بان المعاهدة التي ستعقد قريباً بيننا ستمكن عرى التحالف الذي قدسه في ساحة الحرب العظمى دم الانكليز والعرب وانها ستقام على اساس متين » .

---

(١) قبر الامام علي في النجف . (٢) قبر الحسين في كربلاء .

والشعب في حماسته والأمة في ابتهاجها والصحافة في هوسها لم تدرك يومئذٍ اهمية هاتين البرقيتين ، وان الملكين عقدا عقدة استحال في السنة التالية حلها وكانت السبب في ما شوّه الاحكام الاسمية والانتدابية من الخلل والاضطراب . غمس الصحافيون يومئذٍ اقلام الفصاحة في محابر البيان ، واستعاروا من البلاغة اجنحة طاروا بها في سماء الاماني الوطنية والاحلام .

— وفي هذا اليوم شخصت انظار الامة الى مليكها تستعيد ذكر المنصور والرشيد والمأمون . وفي هذا اليوم تستمد الامة من ماضي مجد العباسيين نوراً تسير فيه الى اعالي مجدها الجديد . وفي هذا اليوم تؤسس حكومة عربية حرة دستورية نيابية ديمقراطية مستقلة كل الاستقلال . وفي هذا اليوم — سقط منذ سنة ملك سورية ، فليحيَ اليوم ملك العراق .

وبعد سنة اي في عيد الجلوس الاول رددت الصحافة آيات البلاغة الذهبية وحلقت في سماء الامال العسجدية ، فبرهنت على ضعف في ذاكرتها او في سمعها . في مثل هذا اليوم منذ سنة وقف المندوب السامي يعلن للشعب باسم جلالة الملك استقلال العراق وانتخاب الامير فيصل ملكاً على العراق . وفي مثل هذا اليوم ابرق الملك جورج الخامس الى الملك فيصل يهنئه والشعب العراقي ويذكره بالمعاهدة . فلم يكن لا في كلام المندوب ولا في برقية الملك كلمة عن الاستقلال التام .

امر تساهلت به الحكومة قبل التتويج وامر تساهلت به الامة يوم التتويج وبعده ، هاهنا رأس الخطل والخلل . فقد اشترط المبايعون في بيعتهم رفض الانتداب فلم يأبه لذلك دار الانتداب . هم المشترطون ونحن الحاكمون وقد تعاهد المليكان على عقد معاهدة في القريب العاجل فلم تدرك ذلك الامة ، او انها ادركت ولم تكترث . دع الملوك يتعاهدون . اما الحكم اليوم فللشعوب . هوذا الاساس الواهي في الملك الجديد . هوذا رأس الخطل والخلل .

الفصل الثالث عشر

المعاهدة

العجز في الحكومة عجزان — العرائب — الامة حائرة — الانكليز قانطون — اعترافهم بالخطأ — معاهدة تثبت الاستقلال وتنفيه — لا صراحة ولا ثقة ولا يقين — الاستقلال مجاناً — لا حرية ولا اتحاد — الوزارة الجديدة — المعاهدة — بعض بنود النص الاول والنص الثاني — حكومة اميركه تحتج — البند الحادي عشر ينقح اكراماً لها — خلاصة المعاهدة — توقيعها — المحتجون في بيت النقيب — سقوط الوزارة — وزارة السعدون — عبد اللطيف باشا المنديل — المعاهدة وملحقاتها في الوزارات التالية — المعاهدة في المجلس التأسيسي — سياسة الضغط والارهاب — امضاء المعاهدة — ولا تزال الامة تشكو وتحتج.

باشرت الحكومة الجديدة اعمالها بما اشرت اليه من العجز المعنوي. هو عجز لان التصريح التام في مثل تلك الاحوال، بل التحديد الاكيد الذي اقتضته تلك الحوادث الخطيرة، كان مفقوداً. فلا الملك العربي قيّد وعده للملك الإنكليزي بالشرط اللازم، ولا الامة التي بايعت الملك اصرت على الحكومة في البداية بقبول شرط ال « لا انتداب » ولا حكومة الانتداب صرحت برفضها شرط الامة في المبايعة. هذا هو العجز المعنوي الذي قلّ من سلم من نتائجه الخبيثة.

وقد كان في ميزانية الحكومة عجز مالي لا يقل عن المليون ليرة انكليزية فسُدد بقرار من مؤتمر القاهرة — أدخل في ميزانية حكومة انكلتره — تمهيداً للعهد العراقي الجديد. بيد ان ذلك القرار اوجب على الحكومة العراقية ان تخصص في ميزانيتها الجديدة ثلاثمائة وخمسين الف ليرة للجيش العراقي. فكان ذلك عجزاً اخر. لانه تعسر جمع الضرائب من امة كانت ثائرة وظلت ناقمة معاندة. هما عجزان كانت الثورة السبب الاكبر فيهما، تلك الثورة التي اتلفت في الزرع والضرع ما اثر في الضرائب تأثيراً شديداً

وفكت من عرى الامن والنظام ما اضعف الحكومة الى حد لم يكن لها فيه سيادة تحترم . على ان الامة في حبوط الثورة فقدت الثقة بنفسها وصارت في جرأتها في جسارتها ، اقرب الى التهويل منها الى العمل . وما يصح فيها من هذا القبيل يصح في حكومة الانتداب و في الموظفين الانكليز عامة . الا ان طريقة هؤلاء ، وهم يظهرون من الضعف قوة ، كانت اضمن للستر والكرامة. قد يكون الفرق بين الاثنين فرقاً طبعياً لا خلقياً . وقد يكون غير ذلك . ان امرهما امر اثنين تصارعا وتغالبا وكانا في النهاية مغلوبين على السواء في ما اصابهما من الم ونهك وقنوط . بيد ان آلام الواحد كانت ظاهرة ، وآلام الاخر خفية .

ومع ذلك فقد ابت على الكاظم الخفاء . ما كلمت انكليزياً في تلك الايام ، ايام العجز الادبي والمالي ، الا وكان ، بالرغم عن التجلد والشدة والثبات المشهور هذا الشعب بها ، متألماً من الحالة حتى اليأس . — « عندنا من المتوظفين من يظنون انفسهم اكبر من كراسيهم فلا يحسنون الجلوس فيها . وعندنا اخرون هم كالاوتاد المستديرة في الاثقاب المربعة متزعزعون متقلقلون». وقال اخر : « عساكر وضباط في وظائف ادارية ومركزهم الطبيعي انما هو في الجيش » . وآخر — بارك الله بمن يعرف خطأه ويعترف به —: «حكومة لندن تربط ايدينا وحكومة العراق تزدرينا ... النية حسنة وان كانت الاغلاط كثيرة ... نحن في حاجة الى العراق والعراق في حاجة الينا . ولا خير لنا وللعراقيين بغير المصلحة المشتركة والاكرام المتبادل . »

ولكنهم وهم ينطقون بالحق ويعترفون باغلاطهم ، يرتكبون الخطأ الاكبر في معاهدة تكفل الاستقلال للعراق وتنقض في بعض موادها ذلك الاستقلال . وقد يكون الحق في جانبهم في ما ينقض ، من الوجهة المالية في الاقل ، لا في ما يثبت الاستقلال .. ولكنهم لم يصرحوا بذلك . نعطيكم كذا وكذا ، فتعطونا كذا وكذا ، والاستقلال الحقيقي انما هو القيام بالعهود . لم يكن في العراق لا من المعتدلين ولا من المتطرفين من يقول هذا القول . طلبوا

الاستقلال مجانا ، وهذا لا يكون. ولكن الانكليز سكتوا فظن في سكوتهم القبول. ثم جاءوا بالمعاهدة تتقاضاهم ثمن الاستقلال فرفض العراقيون الدفع. وجاءوا بالمعاهدة قبل ان يجتمع المجلس التأسيسي الموعود به في قرارات سابقة أُثبتت رسمياً في حفلة التتويج.

ان المرء ليعجب من حكومة عاقلة راقية مثل حكومة انكلتره اذ تقدم على عمل في غير بلادها لا حكمة ولا سياسة ولا عدل الا في عكسه. هم يطلبون المعاهدة اولاً ، ثم يشترطون في القانون الاساسي ان لا يكون مخالفاً لموادها ، ثم يأذنون بانتخاب مجلس نيابي ليجيزها. والمثل الذي يعيب هذا المسلك مثلٌ انكليزي. على ان العربة جرّت الحصان في العراق! فهل تستطيع ان تجره الى حيث تنتهي وظيفته المضحكة ؟

ثبت الانكليز في غلطهم وفازوا. فهل يثبت الفوز المبني على الغلط يا ترى ؟

اعود الى حيث انعطفت بالقارىء لاطلعه على القسم السوري من تاريخ جلالة الملك ، فاقف به ثانية عند حادثة القصر في تاريخ الحكومة العراقية الجديدة ، اعود به الى تلك الايام التي لم يكن في العراق لا حكومة تذكر ولا انتداب ، لأكمل قصة المعاهدة المشهورة. مر العام الاول بعد التتويج وما رأى الناس فرق كبير بين سياسة الحكومة الحاضرة وسياسة الحكومة الاحتلالية الغابرة. فلم تضع الامة ثقتها التامة بوزارة النقيب الثانية ولا وضعت الاحزاب المقاومة ، وعلى رأسها الشيعة ، ثقتها التامة بجلالة الملك.

وكان دار الانتداب بين فريق يعرج ووجهته النقيب وفريق آخر مثله وجهته القصر ، يحاول الانتفاع بالحالتين ليصل الى الغاية المنشودة. والغاية عقد المعاهدة. ولكن هذا التمهيد في المعاهدة يافخامة المندوب ، وفيه نص صريح على الانتداب ، لا تقبل به الامة ولا يمكننا من العمل وايا كم بما فيه خير البلادين. اجل ، قد كان حتى النقيب من المحتجين.

استمرت المخابرات اشهراً بين بغداد ولندن بخصوص ذاك التمهيد وبعض

بنود في المعاهدة هي من بابه . وقد كان دار الانتداب شديد اللهجة على الوزارة الخارجية . — قد خفضنا باكثر من ثلثي نفقات الحكومة يامستر تشرشل فاصبحنا ولا قوة لدينا تنفذ اوامر الحكومة وتجمع الضرائب . وكل تخفيض في النفقات في بلدان الشرق، كما لا يخفى على فخامتكم ، يلازمه او يتبعه ضعف في الحكومة . ومع ذلك مشينا واياكم بما تأمرون — والحرب سهل في الخريطة يامستر تشرشل . انتم تبغون عقد المعاهدة ولا تراعون واقعة الحال . اليس من الممكن ان تتنازلوا عن الانتداب — او عن النص عليه في الاقل ؟

سمع المستر تشرشل شكوى دار الانتداب ببغداد وكان من الملبين المتنازلين عما يريدون — من الالفاظ — . وعندكم اخصائيون في العدلية يمكنكم الاعتماد عليهم . فنقحت المعاهدة، والغي ذاك التمهيد المشؤوم، واضيف الى المادة الاولى جملة احتياطية بخصوص السياده الوطنية . وابدل في المادة الثالثة الشرط الايجابي بشرط سلبي ، ثم في المادة الحادية عشرة اضيف جملة احتياطية طويلة لا اكراماً للعراقيين ولا للانكليز ، بل ارضاءً لحكومة ولايات اميركه المتحدة[1]

(١) المادة ١١ في النص الثاني النهائي : يجب ان لا يكون ميزة ما في العراق للرعايا البريطانيين او لغيرهم من رعايا الدول الاجنبية الاخرى على رعايا اية دولة هي عضو في جمعية الامم ، او رعايا اية دولة مهما قد وافق جلالة ملك بريطانيه بموجب معاهدة على ان يضمن لها عين الحقوق التي قد تتمتع بها فيما لو كانت من ضمن اعضاء جمعية الامم في الامور المتعلقة بالضرائب والتجارة الخ .

ولهذه الجملة الاحتياطية التي اضيفت ايضاً الى المادة ١٤ التي تختص بالاثار القديمة قصة لا تخلو من لذة ، هاكها بالايجاز : من المعلوم ان اميركه لم تدخل في جمعية الامم ومن المعلوم كذلك انها كانت قد اتفقت مع انكلتره وفرنسة على استثمار زيت العراق . ولكن ما لا يعلمه غير بعض الاخصائيين والسياسيين هو ان شركة اميركية ارسلت مهندسين من قبلها في شتاء سنة ١٩٢٢ الى العراق ليتحروا الحقائق العلمية والاقتصادية بخصوص الزيت فلم يمكنهم المندوب السامي من ذلك . وكانت المعاهدة يومئذ همه الاكبر . فاتصل الخبر بحكومة واشنطون التي احتجت على عمل المندوب السامي ، وبعد المفاوضات بينها وبين حكومة لندن ادخلت الجملة الاحتياطية على البندين الحادي عشر والرابع عشر من المعاهدة . فيظهر ان اميركه لا يهمها من العراق الا ما كان مدفوناً في اراضيه من الاثار ، ومن منابع الدولار !

اما المعاهدة نفسها فيمكن تلخيصها بعشرين كلمة . وهي ان حكومة انكلتره تمد الحكومة العراقية بالمال والسلاح وبالمساعدات الادارية والتقنية بشرط ان تقبل نصائحها واوامرها في كل ما يتعلق بذلك . في هذا شيء من الاستقلال ، فيه يستقل العراق عن دول الارض كلها ما سوى دولة بريطانية العظمى . ولكي يدرك القارىء ما هو اعتمادها على هذه الدولة اتوسع بما تقدم من خلاصة المعاهدة فاقتطف ما يلي من اهم بنودها .

ان جلالة ملك بريطانية العظمى يتعهد بان يقدم ما يقتضي من المشورة والمساعدة الى دولة العراق (المادة الاولى) وان يقدم من الامداد والمساعدات الى قوات العراق المسلحة ما يُتفق عليه من وقت الى اخر (المادة السابعة) وان يسعى بادخال العراق في عضوية جمعية الامم باقرب ما يمكن (المادة السادسة)

ويتعهد جلالة ملك العراق في مقابلة ذلك بان لا يعين في الحكومة العراقية من الموظفين الاجانب غير الانكليز (المادة الثانية) وان يقبل المشورة التي يقدمها ملك بريطانية بواسطة المندوب السامي في جميع الشؤون المهمة وخصوصاً الشؤون المالية (المادة الرابعة) وكذلك الخطة التي يشير بها في امور العدلية لتأمين مصالح الاجانب (المادة التاسعة) وان ينظم قانوناً اساسياً لا يخالف في مواده هذه المعاهدة ليعرض على المجلس التأسيسي للتصديق.

وقد اتفق المتعاهدان بان تضمن المساواة بين رعايا بريطانيا العظمى ورعايا الدول الداخلة في جمعية الامم في الامور المتعلقة بالضرائب او التجارة او الملاحة او ممارسة الصنائع والمهن الخ (المادة الحادية عشرة) وان تكون مدة المعاهدة عشرين سنة .

في اليوم العاشر من تشرين الاول سنة ١٩٢٢م و ١٩ صفر ١٣٤١هـ اجتمع في باب السيد عبد الرحمن نقيب اشراف بغداد ورئيس الوزارة في الحكومة العراقية جمهور من الناس ضاجين مشاغبين وهم يبغون مخاطبة الوزير فحمل احد الحجاب خبرهم الى سيده فاذن لهم بالدخول . كان قد وقع

المعاهدة صباح ذاك اليوم فدخلوا يحتجون عليها وعليه . فسألهم قائلاً : باسم من تحتجون ؟ فاجابوا باسم البـلاد . فاحتدم فضيلته غيظاً وانتهرهم قائلاً : ومن انتم لتحتجوا باسم البلاد ؟ عودوا الى بيوتكم واشغالكم . انا صاحب البلاد . فخرجوا احتراماً ساكتين وما كانوا مقتنعين ولا راضين .

ثم نشرت الجرائد صورة المعاهدة مصدرة ببلاغ من صاحب الجلالة الى الشعب العراقي يقول فيه ان قد اعترض سير المفاوضات مصاعب جمة « ولكننا تمكنامن التغلب عليها والوصول الى هذا الحل المرضي . . . وهي خطوة واسعة في سبيل تحقيق امانينا الوطنية . . . فقد اعترفت بريطانية العظمى باستقلالنا السياسي واحترام سيادتنا القومية » ثم يدعو الناس لمؤازرته ولاتخاذ الخطوة الثانية وهي مباشرة انتخاب المجلس التأسيسي ووضع القانون الاساسي للامة . فقرأ الناس البلاغ الملكي والمعاهدة وما كانوا مقتنعين ولا راضين . وقرأها اشياع الحكومة ساكتين احتراماً آسفين .

بعد شهر من يوم التوقيع سقطت وزارة النقيب . كنت يومئذٍ في العقير وكان عبد اللطيف باشا المنديل [1] عندي في الخيمة عندما استلم برقية من عبد المحسن بك السعدون في بغداد يخبره فيها بان جلالة الملك قد عهد اليه بتأليف وزارة جديدة ويسأله ان يكون وزير الاوقاف فيها . وفي ذلك اليوم نفسه علمت من السر برسي كوكس السبب في سقوط الوزارة فحزنت لما علمت .

---

(١) عبداللطيف بن ابراهيم المنديل هو من عشيرة الدواسر ويمت بنسبه الى عمر بن الخطاب. ظعن احد آجداده الى جلاجل في نجد ومنها منذ تسعين سنة جاء والد عبد اللطيف باشا الى العراق فأسس محلاً تجارياً في البصرة وآخر بعدئذٍ في بمباي ، وآخر في بغداد . وقد سلك عبد اللطيف مسلك والده في التجارة والزراعة فزاد بثروته واملاكه . وهو حر الكلمة سديد الرأي ، يخلص الود لآل سعود وخصوصاً للسلطان عبد العزيز ، ويخلص العمل لوطنه الثاني العراق . فقد انتخب في زمن الحرب عضواً في مجلس الاشراف في البصرة ، ثم اسندت اليه وزارة التجارة في الحكومة العراقية الموقتة ، وبعـد التتويج تشكلت الوزارة برئاسة النقيب ايضاً واسندت اليه وزارة التجارة مرة ثانية . ثم جاء الى الحسا يزور السلطان عبد العزيز الذي شاء ان يفاوضه في بعض الشؤون ، وبين نحن في العقير جاءه من عبد المحسن بك السعدون برقية يسأله فيها ان يرأس وزاره الاوقاف فقبل عبد اللطيف باشا واستمر في هذا المنصب سنة ، ثم انتخب في ٢٥ شباط سنة ١٩٢٤ عضواً عن البصره للمجلس التأسيسي .

اجتمعت الصداقة بالسياسة مرة في قديم الزمان فقالت الواحدة للاخرى :
وكان سلامه نحوي وداعاً .

وبعد سنة وثلاثة اشهر من يوم توقيع المعاهدة اجتمع المجلس التأسيسي في بغداد وكانت الامة لاتزال مقاومة لتلك المعاهدة مناوءة انصارها القليلين. فرفض المجلس انفاذهـا . ثم انتقلت الوزارة الانكليزية الى حزب العمال ولم تتغير في سياستها الخارجية . فاصدر المستر مكدونالد بلاغاً رسمياً اعلن عزمه على احالة المعاهدة الى عصبة الامم اذا لم تقبل كلها بحذافيرهـا في ١١ حزيران . وكانت معضلة الموصل قيد البحث بين مندوبي انكلتره وتركيه في الاستانة فاتخذتها الحكومة الانكليزية سلاحاً اخر تروّع به الامة العراقية .. اتبغي الزيادة من هذه القصة المحزنة ؟

دعي المجلس التأسيسي لعقد جلسة فوق العادة ، بعد ان ارفض في ١١ حزيران دون ان يبرم المعاهدة ، فلم يحضر الجلسة غير تسعة وستين عضواً من مائة وعشرة اعضاء . فاقترعوا على المعاهدة فكان معها ستة وثلاثون وضدهـا اربعة وعشرون . اما التسعة الباقون فرفضوا الاشتراك في الاقتراع .

هذي هي نتيجة ذاك المسلك السياسي الذي رأينا العربة فيه تجر الحصان. بل هذه نتيجة خطة سياسية يبدأ صاحبها بالسقف قبل ان يهتم باساس البيت. فستقبل دولة بريطانيـة العظمى معاهدة ابرمتها اقليـة صغيرة في المجلس التأسيسي العراقي ، ولا شرف في قبولها لانه يخالف تلك القاعـدة الاساسية للحكم الدستوري المحترم في بلادها .

الفصل الرابع عشر

اصحاب المعالي

سكرتير الوزارة يخلصني من فندق بغداد — خليلي ومضيفي — السيد عبد الرحمن النقيب — تاريخ العالم منذ سقوط حواء الى سقوط الاتراك — اهل العراق — المشانق والكرسي الكهربائي — «لسنا بسياسيين» — قصة الفيلسوف واللص — الاميركي العالم بكل شيء — اغراس النخل والزراعة — اولاد النقيب الشيوخ والصبيان — وفد من الصبيان — اراؤهم الثورية — اقيم في بيت القداسة والطهر — الولي عيدروس — مولانا عبد القادر الجيلاني — مائدة سيدي النقيب — المجتهدون والوطنيون — الفرق في حب الذات عند الانكليز وعند سواهم .

النادي العراقي — الطاولة الخضراء — اخصائي في لعب ال«بريدج» — عربي لا غش فيه — السكوت العزوم — ترجمة عبد المحسن بك السعدون — وزارته واعمالها — نفي زعماء الشيعة — مطالبهم — رسالة من معالي الوزير .

الوزارة الجعفرية — جعفر باشا لا يكذب اسمه — الجيش العراقي — وزير لا يهمه المنطق — درهم جدارة خير من قنطار مقامات — الوزير التلميذ — الحية والعصفور — رأيه في الانكليز .

الوزير الكئيب — شجا في حلق الانكليز — فيلسوف في الاحزان — على مائدة المس بل — لجنة تدقيق المعاهدة — مطالبها — وزارة ياسين باشا وترجمته — الوزير الثابت في الوزارات العراقية — ترجمة ساسون افندي .

والوزيرة الوحيدة جرترود بل — رأي احدى النساء فيها — راي احد المستشارين — انكليزية عربية — القاعدة والقضيب — خالة العرب وعمتهم .

قد كان من حظي في بغداد اني لم اضطر ان اقيم دائماً في فندق من فنادقها الفخمة ، فأروض الجسم في احدى غرفها منذ اليوم للقبر ، واكل تحت الارض في السراديب من المآكيل التي لا يُعرف لها تاريخ ، ولا قومية . والفضل في خلاصي لشاب اديب كريم ، له جذوع وفروع في تاريخ الدين والدنيا تحير علماء الانساب والآثار ، ولا تقيه مع ذلك من النار . فهو فارسي الاصل ، انكليزي التربية ، شيعي المذهب ، درويني العقيدة ، نبوي السليلة

قديماً وحديثاً . اقول قديمـاً وحديثاً . واليك البيان : هو في الاول سيد من السادة الذين يتصل نسبهم عن طريق الحسين بفاطمة الزهراء ، وهو في الثاني غصن صغير يابس من شجرة النبوة الحديثة التي زرعها « الباب » في بلاد العجم في القرن الماضي ، ثم نقلها « البهاء » الى حيفا ، فاستثمرها « عبد البهاء » خال صديقي و نقل من ثمارها الى اوروبه واميركه . وهو مع ذلك وفوق ذلك استاذ في علم الاقتصاد السياسي .

عرفته يوم وصولي الى العاصمـة . جاء به الكسباني امين يقول : هذا الحسين بن الحسين وعنده من كل فن خبر . كان من الواجب ان يسموه فنوناً ولكنهم اساءوا اختيار الجمع فسموه افنان — حسين افنان . سكرتير مجلس الوزراء والصلة المرنة المفيدة بين الوزارة والعرش ودار الانتـداب . فقلت : سبحان الله الذي جمع مساوىء الثلاثة في شخص واحد. فقال الكسباني : وقد اضاف اليها مساوىء اخرى فضحك افنان فانارت الضحكة وجهه القمري — المستدير كالقمر — وعندما سمعني اشكو من الفندق فخامةً فيه ، وفي مآكله واغانيه ، قال : غداً ان شـاء الله نريحك منهـا . وكان قد استأجر بيتاً له والكسباني فاعدّ لي فيه غرفة لا تهجرها الشمس في النهار ، ولا الهواء ولا الغبار . هي بغداد . وما فيها غير فصلين في السنة فصل الغبار وفصل الوحل . وصلت اليها في الفصل الاول ، ثم سافرت الى نجد وعدت اليهـا في الفصل الثاني كي لا يفوتني شيء من محاسنها ...

رفيقَي ، خليليَ ، ولا اخاطبكما شعرا . قد تحسنان وقد تسيئان في وظيفتيكما ، قد تكونان في ما تكتبان وتترجمان وتسعيان وتجربزان خيراً للانتداب يوماً وشراً على الامة او خيراً صافياً للاثنين في بعض الاحايين . ولكنكما وانما الرفيقان المضيفان في محلة الاشراف ، في ذاك البيت الذي كان مفتوحاً دائماً ، ليس لي فقط بل للشمس والغبار والضوضاء ، فكنا نعتصم من الحر بسردابه في النهار ، كما تذكران ، وبسطحه في الليل . اي نعم ! لم يكن فيكما وانما الرفيقان المضيفان غير الخير والبركة دائماً .

السيد عبد الرحمن النقيب

قال الحسين يوم اجتماعي به في الفندق : قد قابلت صاحب الجلالة سيد الكسباني فيجب ان تقابل صاحب الفضيلة والمعالي سيدي . فقلت : اني في الحالين طائع. وسرت واياه الى بيت جميل على شاطىء دجله كان في تلك الايام قطب السياسة والسياسيين كما هو قطب الاتقياء والمتعبدين — والمزارعين ، فان سيدي النقيب يهتم بالارض اهتمامه بالسماء .

وكان اول اجتماعي به في القاعة التي تجتمع فيها الوزارة والتي وقّعت فيها بعدئذ المعاهدة . هو ذا شيخ في العقد الثامن من العمر ، يحمل في قلبه افراح الثمانين واتراحها هادىء البال ، ويحمل في رأسه فلسفة روحية سياسية زراعية خالية من غش الاوهام والخيال ، ويحمل في مفاصله داءً اقعده فالجأه الى العصا يتوكأ عليها من عقر داره الى بهو الاستقبال . وكان يومئذ يحمل فوق ذلك كله الحمل الاثقل والاخشن ، حمل المعاهدة الانكليزية العراقية وسياستي العرش ودار الانتداب .

رجل عدل القامة ، وافر موضع النطاق ، براق العين ، ناصع الجبين ، قصير اللحية ، بسام المحيا . يلبس الانابيز البيضاء وهي دائماً كالثلج ، ويجلس على الديوان ، والى يمينه عصاه وبالقرب منه على قيد ذراعين الزائر الجديد ، وقباله على ديوان اخر شيوخ مثله اجلاء ولكنهم دونه سنا . هم اولاده . وكان قد اخبرني صديقي بان فضيلة النقيب ، على علمه وحصافته وروحانيته ، يتقزز من لمس ايدي الناس . فلما دخلت وقفت امامه محنيّ الرأس مسلماً وكان قد وقف لاستقبالي ومد يده مصافحاً فدهش الحضور كما علمت بعدئذ . ولكني زرته وانا في بغداد مراراً ، وشرفني مراراً بالجلوس الى مائدته ، فآكلني وصافحني دون ان يغسل بعد ذلك يديه . كأني به وهو اكبر المقربين من سدة مولانا عبد القادر العلوية ، وحامل مفتاح حجرته القدسية ، نظر بعين الغيب الى ما وراء الحجب ، فرأى في هذا الرحالة السوري الاميركي

رغبة في التصوف لا تزال طفلاً ، فأحب ان يغذيه بتعطفه وبقربه وبشيء من الكرامة في يده .

وكان اول ما حدثني به من مدهشات مجلسه انه قص علي في بضع دقائق قصة العالم منذ سقوط امنا حواء الى سقوط الاتراك في بغداد ثم قال : وتاريخ الانسان يا افندي مثل تاريخ الامم — مقدمات لنتيجة واحدة هي السقوط. ونحن العرب اوفر الامم حظاً من هذا القبيل . خصوصاً العراقيين . العراقيون يا افندي انت تذكر ما قاله الحجاج بن يوسف . فقلت : ولكننا في زمان غير زمان الحجاج . فقال على الفور : اما اهل العراق فلا يتغيرون . خلصناهم من الاتراك ، ومن العجم ، ومن الاحتلال العسكري ، ونحن نسعى الان في خلاصهم من الفوضى وهم لا يريدون ولا يرضون ودائماً ناقمون . . . هل رأيت في كل سياحتك يا افندي شعباً يحسن صنع الحبال وصنع المشانق ولا يجد من يجربها فيه غير نفسه ؟ وهل يستخدمون المشنقة في اعدام المجرمين في اميركه ؟

قلت : عندهم الكرسي الكهربائي . فسألني ان اصفه ثم قال : خوش طريقة. يلزمنا عدد من تلك الكراسي في العراق . فقلت : العفو اذا خالفت سيدي النقيب . فان امةً توكل امرها الى مثله لتجد في اساليب السياسة وطرق الحكمة حلاً مرضياً مفيداً لمشاكلها كلها .

فقال وهو يمكّن النفي بيديه : لا ، لا ، لسنا بسياسيين . ما عندنا من علم السياسة الا اليسير . وهذا اليسير التقطناه في اختلاطنا برجال السياسة الحقيقيين . امرنا مثل امر اللص والفيلسوف . جاء اللص في ليلة مقمرة الى بيت الفيلسوف يبغي السرقة ، فدخله من النافذة وكان الفيلسوف جالساً في الزاوية يشكر الله الذي انار بيته بنور القمر . فجال اللص في البيت وهمّ بالخروج وهو خائب الامل . فخاطبه الفيلسوف قائلاً : اذا كنت انا صاحب البيت لا اجد فيه شيئاً في ضوء النهار فهل تؤمل انت الغريب ان تجد في ضوء القمر شيئاً فيه ؟

فقلت : ولكني لم ادخل البيت من النافذة يامولاي. فضحك حتى استلقى وهو ينظر الى انجاله تارة وطوراً الي والى افنان ويقول : غلبني . غلبني .

ثم اخبرني قصة تفصح عما فيه من حب النكتة ومن البراعـة في التهكم . قال : زارنا في الاسبوع الماضي رجل اميركي مندوب احدى الجرائد هناك . وجلس هناك — اشار الى الديوان قباله — واخذ يتكلم — خوش كلام — وهو يسألنا سؤالات في السياسة وفي الامتيازات وفي النفط ويجيب عليهـا بنفسه . ونحن مثل الفيلسوف الذي قصصت عليك قصته جالسون في زاويـة السكوت نشكر الله الذي انار بيتنا السياسي بنور القمر . ولكننـا استأنسنا بهذا الاميركي — جاء مثلكم في النهار ولم يدخل من النافذة . ولكن لسانه مثل سيف ذي الفقار — خوش لسان. هل كل الاميركيين مثله حذقاً وبراعة وعلما ؟ عند ما قام يودع شكرناه على زيارته وعلى مـا استفدنا من حديثه . وخطر لنا يومئذٍ ان نسأله عن اغراس النخل التي أُخذت من هذه البلاد الى اميركه . وزرعت هناك . ولكنه لم يفسح للسؤال مجالا . فهل لك علم ياافندي بتلك الاغراس ؟ هل نجحت في اميركه ؟

فاجبته قائلاً : اذا اذنتم باستعارة استعارتكم اقول ان بيتي الزراعي مثل بيت الفيلسوف الذي وصفتم .

فضحك وقال : وانا مثلكم دخلت من الباب لا من النافذة . ثم نظر الى انجاله وهم جالسون امامه متكتفين يبتسمون ولا يضحكون فقال : اراني مع الافندي مغلوباً — مغلوبا اليوم . يجب ان يزورنا مرة اخرى . فقلت : هو احبّ ما أُحب في هذا البلد، ثم كملت جملتي السابقة : اما البيت فلكم كل ما فيه . اذكر اني قرأت مرة ان نظارة الزراعة في واشنطون استجلبت من البصرة اغراسا من النخل وغرستها في الولايات الجنوبية .

— اذن علمك وعلمنا واحد .

— في هذه المسئلة فقط .

— بيتنا بيت الفيلسوف . انتم تسوحون طالبين العلم ونحن نأخذ

علومنا من الكتب وممن نجتمع به مثل فضلكم .

فاعتذرت وشكرت . وكنت قد نظرت الى افنان فأعطاني الاشارة فقمت اودع . فنهض فضيلته ومد يده ثانية يصافحني .

ان للسيد عبد الرحمن الجيلاني ، سليل مولانا عبد القادر قدس الله سره ، طائفة من السالكين المتعبدين منتشرة في اقطار الشرق كله . وله في بيته جيلان من الانجال ، الجيل الاول كان جالساً معنا وهم ثلاثة يتراوح سنهم بين الخمسة والخمسين والستين يحضرون مجلس والدهم فلا يتكلمون ، اذا كان عنده زائر ، الا اذا سئلوا ولا يضحكون ، مهما كانت النكتة ظريفة ، ضحكة عالية . اما الجيل الثاني وعدده ستة او سبعة صبيان فمن هذا الزمان حقيقة ومجازاً . لان بينه وبين الاول فترة مقدارها نحو اربعين سنة . والسبب في ذلك سرٌّ احترمناه .

زارني ذات يوم كبيرهم ، وهو لا يتجاوز السابعة عشرة ، فلم يكن مثل الصحافي الاميركي الذي زار فضيلة ابيه . سألني ان اقول له ما الفرق بين الانتداب والاحتلال . فاجبته فقال . ولكن الانكليز يعترفون باستقلال العراق ولا يخرجون منه . وجاءني ثانية ومعه بضعة اولاد من اقاربه ورفاقه في المدرسة يبغون السلام والتعرف ثم الاحتجاج على الانكليز . فاتخذت في مقابلتهم الخطة التي اتخذها النقيب في زيارتي له اي انني سبقتهم الى السؤالات فكانوا في اجوبتهم مدهشين .

— واذا كانت اللغة الانكليزية لغة الحكومة المحتلة أفلا تتعلمونها ؟ فاجاب احدهم : اذا كانوا ينوون الاقامة في بلادنا يجب ان يتعلموا لغتنا . وقال اخر : نتعلم لغتهم ويتعلمون لغتنا فيفهم اذ ذاك بعضنا بعضاً . وقال الثالث وهو صغيرهم : اذا كان لا خير في الاجانب فلا خير في لغتهم . فاجابه ابن النقيب قائلاً : اللغة شيء والسياسة شيء اخر . فاذا تعلمنا لغتهم نتعلم طرقهم السياسية ونحاربهم بها . فرد عليه الصغير وهو يضرب الارض برجله انا لا استعير يد رفيقي لاضربك بها . انا اقاتلك بيدي .

— ولكن السياسيين لا يضربون بايديهم .

— يضربون بارجلهم اذن ؟ لنا ارجل مثلهم . الا لا يجهلن احد علينا . فنجهل فوق جهل الجاهلينا .

صفق له رفاقه ثم عادوا ، وقد وبخهم الاكبر ، الى التأدب . وكنت اخشى ان ينتقل هذا الوفد العراقي الوطني العجيب من الكلام الى الايدي فنهضت اكشف الساعة ، فكان الصغير اول من فهم الاشارة ، فنهضوا وسلموا مودعين .

كنت اقيم ببغداد بين وليين كريمين عرفت الواحد منهما لاول مرة في عدن . وهو هناك ولي البلد له مقام بِقُبة ، وعشيرة واحبّة ، وصندوق احسان يملأه كل شهر الاتقياء ، فيوزع المال على الفقراء . هو عَيْدَروس المدفون كما قيل في عدن ، وله في بغداد مقام وعباد . اما الولي الاخر الذي كان قربي ، بل كنت انا السعيد بقربه ، فهو اشهر من عيدروس واعظم ، اذا لم يكن كرامة وقداسة ، فسيادة ونفوذا . كيف لا ومن شاطىء دجله تشع شمسه شرقاً وغربا فتنير ضفتي الكنج والنيل . كيف لا وهو مولانا عبد القادر الجيلاني المدفون رمزه المادي تحت تلك القباب اللازوردية في جامع يعد من افخر واجمل ما في بغداد . هناك شرقاً من سريري على السطح مطلع الانوار ، فكنت كل يوم عند ما انهض صباحاً امتع نظري وروحي بمشهد الشروق على مسرح القداسة . فارى الشمس تكون من الغيوم البيضاء المتقطعة ، فوق قباب عبد القادر المتعددة ، ما يشبه قطيعاً من الغنم تسرح في مروج من النرجس الذهبي العين ، والعصفر الذهبي الجبين ، كانها الزوار جاءت من العجم والهند لتستقي من الموارد القدسية ، ونحيا في المروج القادرية ... عبد القادر الجيلاني ، من احسانك لا تنساني !

وما كان كرم الله وجهه لينساني وانا في بغداد . فكان يوحي الى فرع دوحته الاكبر السيد عبد الرحمن حباً موضوعه هذا الغريب في جوار الحبيب . وكنت انا المجذوب الى تلك الشخصية القُسَيْقُسائية ، كانها كُوّنت من الوان تلك المروج وتلك القباب فوق ضريح عبد القادر . ليتأكد

القارىء اني مجد في ما اقول . قد لا استحسن سياسة النقيب ، وقد لا تهمني الا في سبيل الادب مصادر القداسة حوله وفيه . ولكنني ممن يعجبون بمظاهر الحياة الفريدة ، ايما كانت ، وبشواردها المجيدة ، كيفما بانت . ولا سيما اذا تمثلت في مثل هذا البشر الكريم ، والشيخ القديم .

ما رددت مرة دعوته لمجلس او لمائدة ، وكنت كلما دنوت من صميم ذاتيته ازداد اعجابا بها . وان بين النقيب ومائدته وجه شبه لطيف . في الاثنين غذاء كثير ، وفاكهة وابازير . في الاثنين فيض برمكي اصمعي ، فترتاح الى الاول العين والمعدة كما يلتذ بالثاني السمع والفؤاد .

وما عرفت اشجع منه على سنه ودائه ، اذا مدت الايدي الى الزاد . ولكنه لا يشبه الاكول في انه يهمل من يأكله . كنت اسمعه يتكلم ، واراه يتصرف بالالوان الواحد تلو الاخر ، وعينه على ضيوفه ، يشجعهم ويحرضهم على الهجوم .

— خوش حباري يا افندي امين . من صيد اليوم . لا تزهد بها . . . اذا كنت لا تتكلم ياحضرة الكسباني افلا تأكل ؟ . . . افنان لا يحتاج الى من يغريه بشيء .

وكان الكسباني امين على علمه وادبه وسياحاته في الارض — وسنه — يخجل كابنة السادسة عشرة اذا وجه اليه الكلام في مائدة النقيب او مائدة الملك . فيغص باللقمة ويزداد ارتباكا . قليل الكلام ، قليل الاكل — في المواقف الرسمية . ولكني والحق يقال رأيته سكوتا خجولاً حتى في حضرة السيدات .

بيد انه تغلب مرة على حياه ونحن الى مائدة النقيب فاكثر من اكل الزيتون — اكل على ما اذكر ثلاث حبات . وهو يحن الى صحراء الشويفات . فجاءنا من مولانا في اليوم التالي جرة من الزيتون واخرى من الزيت . ابتغي اوضح من ذلك دليلاً على عجيب مواهب النقيب وتعددها ؟ ولعمري ان القابلية للطعام هي مثل الذكاء والكرم والتيقظ وحسن الحديث ، مواهب كلها يهبها الله من يشاء من عباده . وقد خص هذا الرجل الكبير بكثير منها كلها . اني لا

انساه حياتي وهو يأكل كالشاب، ويحدث كالشيخ، ويراقب من طرفٍ خفي كالامرأة فلا يفوته شيء مما له ومما عليه.

وما كنا في الحديث لندنو من السياسة الا نادراً. اذكر انه مر بالموضوع مرة فقال انه شديد الرغبة في العزلة. ولولا الحاح المندوب السامي وزملائه في بداية الامر، قبل التتويج وبعده، لما كان يقبل ان يدير سياسة البلاد. ولكنه بعد ان وقع المعاهدة واحسّ ان الفكرة في القصر تزداد صلابة وظهوراً عليه، وان دار الانتداب تميل تسللاً اليها، ورأى فوق ذلك ان مقاومة المتطرفين تزداد شدة وعناداً، نزع بحكم رد الفعل الى التسلط والاحتفاظ بمنصبه. ولما صدر امر الحكومة الاول بمباشرة الانتخابات للمجلس التأسيسي فاصدر على اثره احد المجتهدين في النجف فتوى بان الانتخاب مخالف لقواعد الاسلام، رأيت فضيلة النقيب مضطرباً وسمعته غضوباً :

— في البلاد وطنيون كثيرون وكلهم رجال سياسة. ولكن ليس في رؤوسهم عيون تريهم ما هم فيه. اين هم من البلاد، واين البلاد منهم؟ كانوا امس تحت اقدام الترك، واليوم يبيعون البلاد من الترك بفلس لينتقموا ممن يظنونهم اعداءهم. نحن اخذنا الامر على عاتقنا، ولا نسأل التوفيق من غير الله، ولا نتوكل الا عليه سبحانه وتعالى... أما اجتمعت بالوطنيين يا افندي وسمعتهم يتبجحون؟ غداً تجتمع بكبارهم في كربلاء والنجف .... نصف هذا الاجتهاد جهل، ونصفه عناد.

ذكرني كلامه وتغيظه بالكلمة الانكليزية المأثورة التي قالها الفيلسوف دجونسون فترجمتها لفضيلته : ان حب الوطن ملجأ المنافقين الاخير[1]. فسر بها جداً.

— خوش كلام. خوش حكمة. الانكليز يا افندي امين احكم الناس بالرغم عن سيآتهم كلها. هم ينافقون ولا شك ولكنهم لا يسمون نفاقهم اجتهاداً ولا يخلطون الدين بالسياسة. هم يحبون انفسهم ولا شك. ولكن

(1) « Patriotism is the last refuge of the scoundrel. » — Samuel Johnson.

حب الذات يختلف عندهم عما هو عند سواهم . عند الالمان مثلاً حب الذات نيٌّ بارد لا تقبله الناس . اما عند الانكليز فهو ناضج وفيه شيء من الابازير هي لبعض الناس مثل السم . عند الانكليز العلم ، وعندهم المال ، وعندهم الحكمة . اما الوطنيون في البلاد فاي شيء عندهم ؟ هل هم يحبون البلاد أكثر منا وهي بلادنا قبل ان تكون بلادهم ؟ واكثرهم لا يزالون من الاجانب . . . اعد المثل الانكليزي . — حب الوطن اخر ملجأ للمنافقين — خوش كلام ، خوش حكمة .

ولكنه بعدئذٍ ، او انه كان عالماً متجاهلاً ، بان السياسة ، انكليزية كانت او عراقية ، لا تعرف الثبات والوفاء . فقد استنصره واستخدمه الانكليز الى ان تمت مقاصدهم فيه ، الى ان تم توقيع المعاهدة ، وبعد ذلك هجروه . وقبل الهجر ، عندما اراد السيادة والتغلب ، خذلوه .

عبد المحسن بك السعدون

في النادي العراقي روح اجتماعية وطنية صحيحة لانها مبنية على المساواة والاخاء ، ولأنها فوق ذلك مختلطة اي انها عراقية انكليزية . ما رأيت الانكليز قبل اليوم ولا سمعت بهم يخالطون اجتماعياً من يحكمونهم او يساعدون في حكمهم من الشعوب . اما في العراق فالروح الجديدة يستبشر بها . قد تعرف في لعب الورق شيئاً من اسلوب خصمك في السياسة . والذي ادهشني من الموظفين والمستشارين الانكليز في العراق أن اكثرهم يحسنون التكلم باللغة العربية . كنت اجتمع بهم في النادي وارى بعضهم جالسين الى تلك الطاولة الخضراء يحاولون كسب روبية من زملائهم العرب .

اجل ان في النادي طاولة خضراء يجتمع اليها الوزراء بعد الظهر ، ساعة الشاي ، ليحافظوا على الموازنة النفسية بينها وبين تلك الطاولة الاخرى في السراي . فقد كُتب لي ان ارى الوزراء يلعبون ساعة بالورق ليبددوا هموم الاوراق الرسمية والمعاهدات . وليس في ذلك ما يؤاخذون عليه ، بل فيه

برهان على ان للفلسفة العملية مقاماً عندهم محترماً.

اما الطاولة الخضراء في النادي العراقي فهي مثل الحكومة العراقية قليلة الموارد محدودة الخراج، ولها ان تفاخرغيرها بالكيفية لا بالكمية، هي برجالها تفتخر لا بالعابها واموالها. هاك على رأسها الاخصائي المالي ساسون افندي. مَن وكلت الامة اليه امر ماليتها، يجيء كل يوم، وهو انبت في ذلك من قيم النادي، ليفادي بشيء من ماليته. ولكني لم اسمع انه خرج مرة خاسراً، او ان ارباحه كانت تتجاوز الخمس الروبيات. وكلهم في لعب ال «بريدج» اخصائيون. الا ان الكسباني امين كان يسدد حسابه في الفندق من حسابه في النادي. لانه في ال «بريدج» مثله في التحفظ السياسي، سيد الاخصائيين.

قد ذكرت النادي لاني اجتمعت فيه لاول مرة بزملاء سيدي النقيب، بساسون وصبيح ونوري وياسين وبالسعدون عبد المحسن موضوع حديثي الان، واظنني فضحت نفسي في ما كنت اجهل من امر آل سعدون وما لهم من السيادة والنفوذ في العراق [1] على ان من يقابل وزيراً لاول مرة في تلك الحال لا يلام اذا نسي التاريخ او تناساه. ظننتها جلسة «بوكر» وظننت الاعضاء مثل غيرهم في نوادي النهار فسلمنا وما تحدثنا. واظنني نسيت الرجل لانه حدث بعدئذٍ ما اخجلني. ضاع وجه السعدون بين الوجوه العديدة التي كانت تمر صورها امامي في تلك الايام فلاينطبع في الذهن منها الاالقليل. ثم اجتمعت به مرة ثانية في نادي الحزب العراقي الحر الذي خطبت فيه، وكان هو جالساً الى جنبي، فسلم علي فسلمت، وانا اذكر صورة وجهه ولا اذكر اين بدت لي سابقاً. فسألته، فاضحكني بلطفه وابتسامه.

اجتمعنا بعد ذلك مراراً، وكنت كل مرة ادنو منه اراه بعين التصور

---

(١) هم من الاشراف وقد هاجر احد اجدادهم منذ اربعمائة سنة الى العراق فاستوطن البصرة ثم ذهب الى المنتفق فتأمّر احفاده على عشائرها. والسيادة في لواء المنتفق لا تزال لهم الى الان.

قبل ان اراه بعين الجسم. فيتمثل امامي لابساً العباءة والعقال، راكباً الهجين، قائداً الى الغزو العربان. اجل، ان صاحب المعالي عبد المحسن بك السعدون الوزير الاول في وزارته الذي تبدو فيه العروبة الحقة. والثاني هو عبد اللطيف باشا المنديل. اما الاخرون ففي ظاهرهم مستعجمون. ناجي بك السويدي اشبه برجل من شمالي اوروبه. صبيح بك نشأت هو في تركيته اكثر منه في عزوبته. جعفر ونوري من الاكراد، وساسون افندي حزقيل من العالم — من الاسرائليين في العالم. ولكن السعدون من العراق. من صميم العرب، ووجهه اصدق اخباره الصادقة.

هو رجل في العقد الرابع من العمر(١) ربع القامة، اسمر اللون، حسن البزة، اوروبي حتى رأسه — حتى الاستثنائية اريد — . فالرأس اسود الشعر قصيره. ومثل كلة المدفع مستدير، والعين فيه كالمشعل بين الليل والغسق. والفم عدل ولكنه قاس. قلما يبسم وقلما يتكلم. ولكن عندما يتحرك الفم تسارع اليه نفس جذابة فتمتزج بكلماته القليلة، وفيها مضاء وليس فيها جفاء رجل سكوت. وكل سكوت لغز لمن لا يعرف شيئاً من سابق حاله. ولكني الفت السكوت في من سافرت معهم من العرب، فكنا نسير ساعات في النهار جنباً الى جنب دون ان نفوه بكلمة واحدة. وكنت غالباً اعجب بما يخبئه

---

(١) ولد سنة ١٨٧٩ م في الناصرية مركز لواء المنتفق، وكان يومئذٍ والده فهد باشا حاكما في اللواء واميراً على جميع عشائره ومقرباً من المابين. فطلب منه السلطان عبد الحميد ان يرسل ابناءه الى الاستانة ليتعلموا في المدرسة التي كان قد انشأها خاصة لابناء رؤساء العشائر. فارسل فهد باشا ابنيه عبد المحسن وعبد الكريم. وكان عبد المحسن يوم سافر الى الاستانة في الثالثة عشرة من سنه فتخرج من المدرسة المذكورة، ثم دخل واخاه المدرسة الحربية العالية فتخرجا فيها وخرجا منها ضابطين في الجيش العثماني، فاختارهما السلطان عبد الحميد مرافقين له في المابين، وبقيا في تلك الوظيفة الى اعلان الدستور، وترقيا اثناء ذلك في الجندية الى رتبة بكباشي، ولكنهما استقالا من الجندية بعد سقوط عبد الحميد، فرجع عبد الكريم الى وطنه ليهتم باملاكه التي في البصره وفي المنتفق، وبقي عبد المحسن مقيما في الاستانة. ثم انتخب نائباً في مجلس النواب العثماني عن المنتفق وظل كذلك الى بداية الحرب العظمى، فرجع اذ ذاك الى وطنه العراق وتقلد بعد وصوله منصب وزارة العدلية في الوزارة النقيبية الاولى ثم وزارة الداخلية في الوزارة الثانية التي استقالت في شهر آب سنة ١٩٢٢

السكوت فيهم من شمم وكرم وذكاء .

وهو ذا السعدون عبد المحسن العربي السكوت ، ويحق لي ان اقول الان السكوت العزوم . فقد برهن في وزارته التي استمرت سنة[١] على انه فعّال لا قوال ، وعليم في ما يفعل حكيم . فقد كانت نفسية البلاد من حيث المعاهدة كما وصفت في الفصل السابق عند ما استلم زمام السياسة العراقية . رُفعت من المعاهدة لفظة الانتداب ولكن قيود الانتداب لم تتغير . فاقدم السعدون على عمل يعدّ من اهم اعمال وزارته ولسان حاله يقول : لا نضحك من الامة فنصور لها الانتداب خيالاً زائلاً ، ولكننا نخفف عليها ثقل القيود . فتم عقد الملحق بين حكومة العراق وحكومة ملك بريطانية العظمى الذي بموجبه أُنزلت مدة المعاهدة من عشرين سنة الى اربع سنوات[٢] .

ولتلك المعاهدة ملحقات اخرى تتعلق بالجندية والمالية والقضاء وبشروط استخدام الموظفين البريطانيين في الحكومة العراقية . فتوفقت وزارة السعدون الى عقد الملحق الذي يتعلق بالقضاء ودرست الملحق الذي يختص بالموظفين البريطانيين فقدمت به لائحة فلم تقبلها حكومة الانتداب . وسعت في تحسين الصلات بين العراقيين والانكليز فكان سعيها مبروراً وان لم يكن مثمراً . وجاهدت في سبيل الميزانية فأفلحت ، اذ اعادت اليها التوازن بالرغم عن التخفيض الذي اجازته في رسوم الاراضي الاميرية ورسوم المواشي والنخيل ولكن هناك صخرة اصطدمت بها فحملها ذلك على الاستقالة .

يذكر القارىء ان في المعاهدة بنداً يوجب على الملك ووزارته وضع

---

(١) تألفت في كانون الاول سنة ١٩٢٢ واستقالت في تشرين الثاني سنة ١٩٢٣

(٢) هذا نص البروتوكول اي الملحق بالمعاهدة :

قد تم التفاهم بين الفريقين الساميين المتعاقدين على انه مع وجود نصوص المادة ١٨ يجب ان تنتهي المعاهدة الحالية عند دخول العراق عضواً في جمعية الامم وعلى كل حال يجب ان لا يتأخر انتهاؤها عن اربع سنوات من تاريخ عقد الصلح مع تركيه . وليس في هذا الاتفاق ما يمنع عقد اتفاق آخر لتنظيم ما يكون بعد ذلك من العلاقات بين الفريقين الساميين المتعاقدين . ويجب الدخول في المفاوضات بينهما لاجل ذلك الغرض قبل انتهاء المدة المذكورة اعلاه .

دستور اساسي للحكومة العراقية ثم انتخاب المجلس التأسيسي للنظر فيه وتنفيذه . فقد وضعت وزارة سعدون الدستور واصدرت قراراً يوجب مباشرة الانتخاب ، فاعترضها في ذا السبيل ما اعترض الوزارة السابقة من مقاومة علماء الجعفرية اي الشيعة . ولكنها تغلبت عليهم بعض التغلب اذ قد تم في عهدها انتخاب المنتخبين الثانويين ولم يبق سوى انتخاب الاعضاء .

وها هي ذي العقبة الكؤود . قد سمعت ما قاله النقيب عند تغيظه في هؤلاء الاقوام ، واكثرهم من الاعجام . ان لسياستهم الوطنية اصولاً ونزعات كلها او جلها ولا شك مذهبية ايرانية . وان لعلمائهم في العراق نفوذاً يفوق نفوذ اكبر المقامات الرسمية العالية . وفيهم المجتهدون الذين « يجتهدون » دائماً ان يعرقلوا مساعي الحكومة . ازعجوا السعدون كما ازعجوا سلفه النقيب . فاصدروا الفتاوي الدينية ضد الانتخاب والانتداب . وفي العراق مليون من الشيعة يسمعون فتاوي المجتهدين فيطيعونها ويعصون الحكومة .

هاك ما حمل البعدون السكوت العزوم ، بالرغم من تردد الملك والمندوب السامي ، على العمل الذي يعد من اكبر اعماله ، اذا اعتُبر فيه العزم والشجاعة ، فنفى الى الحجاز آية الله الشيخ مهدي الخالصي احد مجتهدَي الكاظمية[1] واكبر مجتهدي العراق ، فاحدث ضجة في البلاد ظن انها ستفضي الى ثورة ثانية على انه لم يكن من نتائجها غير احتجاج نفر من العلماء فسافروا الى ايران مغضبين .

اما جلالة الملك فقد كان يؤيد في البدء قولاً وفعلاً سياسة وزارته بالرغم عن احتجاج الشيعة في البلادين ايران والعراق . وبما ان اكثر اهل الشيعة في العراق من التبعة الايرانية ، وهم نابتون فيها ، فقد اصدر منشوراً طلب منهم فيه ان يتجنسوا بجنسية البلاد ليحق لهم التمتع بالحقوق التي يتمتع بها العراقيون . فزادهم المنشور سخطاً وتمرداً . وقام اولئك الذين

(١) زميله هو السيد حسن الصدر الدين . راجع الشرح في صفحة ٢٧٣ من هذا الجزء

ظعنوا الى ايران يتقدمون الشعب الايراني في التظاهرات على الملك فيصل وعلى المندوب السامي البريطاني واعلنوا مقاطعة البضاعة الانكليزية .

واحتجت كذلك حكومة طهران الى حكومة العراق فاحس بعض الخاصة في الدواوين بسلك كهربائي انكليزي في ذاك الاحتجاج . كيف لا وقد حرك دار الانتداب في بغداد فتأثر منه القصر والمجلس . فقال جلالة الملك بعد المذاكرات ما قاله فخامة المندوب . ولكن العلماء استمروا مكابرين معاندين، فقالوا انهم لا يرجعون الى بلادهم الا اذا نفذت اربعة شروط ، وهي : ١ً — اخلاء الانكليز للقطر العراقي ، ٢ً — استقالة الوزارة الحاضرة ، ٣ً — تعيين زمن الانتخاب ، ٤ً — ادخال عدد محدود من الشيعة في المجلس النيابي . قال المندوب السامي . . . فقال الملك فيصل . . . فقالت الوزارة : الوداع .

وما اجمل التغيظ في الرجل الجريء العادل . قد جاءني من معالي الوزير كلمة بعد استقالته يقول فيها : «احببت ان اسعى لرفع الغشاوة الفكرية عن اخواننا الشيعة وانارة بصائرهم بالحقائق . فبينت لهم ان الموكل موهوم والموكل غشوم . لقد قمت بهذا الامر في هذا المحيط وهذا الزمان وتحملت من الاعباء ما تحملت لافتح طريقاً لاخي الوزير الشيعي فيتمم ما بدأت به . وحينئذ يبدأ بتغيير عام لطرد جيوش الرياء والاوهام ، وينفخ في صور الاخاء والمساواة وتتم نبوءة اشعيا الفيلسوف حيث السباع والغنم يرتعون سوية ، ويسود سلام في العالم وسلامة الضمير في بني الانسان » .

هوذا عربي كبير يحلم مثل النبي اشعيا الاحلام وينشد المثل الاعلى في العالم . وهو في موقف العمل كما تبين يفقه حقائق الحياة الوضعية وما بينها كلها من صلة العقل والخيال . وان السعدون صريح اذا قال ، مخلص اذا مال . سألته عن رأيه في السياسة العراقية الوطنية وما هي عقيدته تجاه الانكليز . فاجاب بما لا يقبل التفسير والتأويل : « اني اعتقد ان منفعة الوطن تقضي علينا في الوقت الحاضر بان نكون في سياستنا تجاه الانكليز مصادقين لهم لاننا

محتاجون اليوم أشد الاحتياج في نهضتنا السياسية الحاضرة الى يدٍ مساعدة ودماغٍ راقٍ نسترشد به . ولا نجد في هذا الباب خيراً من الانكليز . ولكن على شرط ان لا يجحف ذلك باستقلال البلاد او بمنافعها . »

جعفر باشا العسكري (١)

زرته اول مرة في وزارة الدفاع التي كان يومئذٍ وزيرها . وكان الحر شديداً ، فدخل والعرق يتصبب من جبينــه يجر ما فرضه الله عليه من وزر السِمن . كأنه مدفع يتحرك بنفسه ، او كأنه في ساحة القتال حيث لا ترسم ولا تجمل . جعفر باشا لا يكذب اسمه ؛ فهو اولاً واخراً عسكري ، يسرع ولا يتكلف في ما يقول ويفعل . سلم سلام الاحباب ونزع « ساكوه » وجلس في الكرسي وراء منضدته وهو يروح بمروحة من القش ويتكلم . فتمثل امامي رجلا اميركياً رجل عمل واهلية من اولئك الذين يــديرون ادارات كبيرة بالضغط على زر كهربائي . اما وزير الدفاع في الحكومة العراقية فكان يصفق

(١) هو مثل سلفه السعدون في العقد الرابع من العمر ، وقد تلقى العلوم مثله في المدرسة الحربية في الاستانة ، فخرج منها ضابطاً ثم سافر الى المانيه ليتمم دروسه الفنية ، وقد بدا من نبوغه لانور باشا في الحرب العظمى ما حمله على ترقيته الى رتبة باشا وارساله على غواصة الى بنغازي لقيادة متطوعي العرب الذين كانوا يقصدون الزحف على البلاد الداخلة في المنطقة الايطالية . فقادهم جعفر وحدث على الحدود المصرية قتال بينهم وبين الجيش البريطاني فجرح في المعركة ، فاعتنى به رجال الصليب الاحمر ، ونقل بعد ذلك الى القلعة في القاهرة . فحاول التفلت من الاسر فوقع فانكسرت رجله فلزم الفراش ستة اشهر .

وكانت يومئذٍ الثورة العربية في بدايتهــا والضباط العرب ينضمون اليها ، فكتب لجعفر ان يكون منهم ، فجاء سنة ١٩١٧ الى مكة ثم الحق بالجيش العربي الذي كان مرابطاً حول المدينة . ثم ارسل الى العقبة فعين قائداً من قادة جيش الشمال . وبعد فتح الشام تعين مفتشاً عاما للجيش العربي في سوريه ثم حاكماً عسكريا لولاية حلب ، ثم رئيساً لحجاب جلالة الملك ، وبعد واقعة ميسلون عاد الى بغداد ليساعد في تأسيس حكومــة وطنية ، فتعين وزيراً للحربية في الحكومة الموقتة اي قبل التتويج ، ثم في وزارتي النقيب الاولى والثانية . ولما دعا المستر تشرشل رؤساء حكومات انكلتره في الشرق الادنى لمؤتمر القاهرة كان جعفر باشا ممن رافقوا مندوب العراق السامي وشاركوا في البحث في امور العراق المالية والعسكرية. وفي شتاء ١٩٢٢ـــ٢٣ كان مندوباً للحكومة العراقية في لندن فجاء منها الى لوزان باسم العراق ولكنه لم يشترك في ذلك المؤتمر .

كفاً على كف ليعطي اوامره . وهذا لا يهم عنـد روح العمل الجديدة التي تتمثل في جعفر وزملائه — روح العمل العصرية المجردة من خزعبلات الابهة الشرقية وسخافات اللياقة كلها .

— والله يا استاذ عندنا رجال وعندنا وطنية . ولكن الادارة مفقودة والمال، اين المال . مثلنا ، او بالحري مثل الحكومة التي تولت في البدء امرنا ، مثل شاب ورث ثروة من ابيه فخسرها في القمار . بذل الانكليز في سنة واحدة من المال في البلاد ما يكفي جيشاً وطنياً كبيراً خمس سنين . ولا اثر ولا نتيجة لما بذلوه . والان ونحن في اشد حاجة الى المال هم ينفضون ايديهم ويرونا كيساً فارغاً . مبدأي الوطني واملي وعملي تتوقف كلها على تنظيم الجيش العراقي . يقول لنا الانكليز : ساعدوا انفسكم نساعدكم . وهذا صواب ولكنهم افسدوا علينا وهم لا يدرون موارد المساعدة . عندما تكون البلاد في هياج سياسي يصعب على الحكومة فيها اية كانت ان تجبي اموال الخراج .

— وما هو عدد الجيش العراقي الذي باشرتم تنظيمه ، وما هي حالته ؟

— عدده خمسة الاف وحالته المعنوية دون ما تروم . لا تظن ان السبب في ذلك نقص في الوطنية . لا والله . انما هو دليل من احد الوجوه على الوطنية . وهذه هي الورطة التي نحن فيها الان . ندعو شبان البلاد الى التجنيد فلا يلبون واذا لبوا فيجيئون يعرجون ولسان حالهم يقول . اذا كان الانكليز يبغون الاقامة في البلاد فليدافعوا هم عنها . ومن وظيفتي انا ان اقنعهم بان الانكليز ، وهم في البلاد ، غير مقيمين فيها ، وانهم وهم الاغنياء بالمال والرجال ، لا يستطيعون الدفاع عنها مع رغبتهم فيه . هل تعرف وزيراً في حكومات العالم اليوم هذا موقفه في السياسة والمنطق ؟

جعفر باشا حر الكلمة صريح الاشارة والعبارة . سألته رأيه في احـد رجال السياسة العراقيين الذي كان يومئذ من الموجهين لرئاسة الوزارة فقال: اي رجل اخر احسن منه . درهم من الاهلية يا استاذ خير من قنطار مقامات

البلية الكبرى في هذه المقامات التي ليس فيها غير الادعاء والسخافة .

وهو وان رفعته الجدارة الى اعلى المقامات لا يكتفي بما عنده من خبرة وحكمة بل يسعى دائماً في ما فيه زيادة وتحسين . قد اخبرت القارىء في مطلع هذا الفصل بان حسين افنان سكرتير مجلس الوزراء هو استاذ في علم الاقتصاد ، ولا فرق في مصادر علمه اصلية كانت او منتحلة . فكنت ارى الحسين مكباً على ترجمة آدم سميث [١] وغيره من اساتذة هذا العلم واعجب باخلاصه ، وبقوله : خير لي ان اترجم عن الثقات من ان اجيئهم بما يجلب اللعنات . انك لترى الفقيه والاديب والوزير في من يحضر تلك الدروس الاقتصادية ولست مبالغاً في ما اقول .

دهشت يوم اخبرني جعفر باشا بانه يحضر دروس السيد افنان وازددت اعجاباً بمعاليه . اطلب العلم من المهد الى القبر . ليس اشرف من الحديث النبوي غير الحديث النبوي المتجسد في وزير من وزراء العرب وهو تلميذ من تلاميذ كاتب سره . جاء جعفر باشا يزورني يومئذٍ في البيت ويدعوني للعشاء في بيته .

— لا نظنك تؤاخذنا ونحن لا نزال في ما هو اشبه بالكوخ . ولكنه خارج البلد فتمر في طريقك ببساتين يروقك منظرها .

ثم تطرق في حديثه الى الانكليز ، وهو معجب بهم متخوف منهم . الانكليز وجعفر مثل الحية والعصفور . ولكن الوزير العراقي وان وقف امام الحية مسحوراً ، فلا يمكّنها منه . اسمع ما يقول :

— يجب ان نتفاهم واياهم ونتفق . وخير البر عاجله . الانكليز يختلفون عن بقية الناس . هم وحدهم يا اخي -- ممتازون ! نزلوا من السماء في قفة . أفلا ترى كيف يسلكون في نهارهم وفي ليلهم ؟ يلبس الجندي منهم البنطلون القصير فيكشف ساقه حتى الركبة — ابن عم البرابرة — ولكنه في المساء ، اذا دعي للعشاء ، تراه في ثوبه الرسمي وفي سلوكه كأنه من الاعيان . فلو كانت

(١) The Wealth of Nations, by Adam Smith.

هذه الحرية لنا لكنا برابرة في النهار وفي الليل ... يجب ان ندرس هؤلاء الانكليز ونفهمهم ، ونتفاهم واياهم . هم لازمون لنا في الوقت الحاضر .

وقد حاول في السنة التي تولى فيها رئاسة الوزارة ان يفهمهم ويتفاهم واياهم . فدرست وزارته ملاحق المعاهدة الثلاثة الباقية اي تلك التي تتعلق بالجندية والمالية والموظفين الانكليز . واتفقت مع حكومة الانتداب عليها . ولكن المجلس التأسيسي ، او بالحري اللجنة التي عينها المجلس لدرس تلك الملاحق والاتفاقيات ، رأت ان الشروط فيها فادحة فتفاقمت على الوزارة الاحتجاجات ، فاستقالت .

ياسين باشا الهاشمي

كان ياسين باشا[1] من المغضوب عليهم في دار الانتداب يوم كنت في بغداد ، وكانت المس بل مع ذلك تعجب به وتحترم اراءه . وقد يصح فيها وفيه ما قلته في جعفر والانكليز . هما مثل العصفور والحية . على ان الاية تعكس ها هنا ، فلاتنحصر الحكمة والجاذب في المرأة .

كنت اجتمع بياسين باشا في النادي فاسمعه يجهر برأيه ضد الانكليز

---

(١) ولد ياسين باشا الهاشمي في بغداد سنة ١٣٠٣ ه وتخرج في المعاهد التركية فيها ودخل بعدئذ في المدرسة الحربية بالاستانة وخرج منها في سنة ١٣٢٠ مالية برتبة ملازم ثان وبعدان تخرج في مدرسة ضباط اركان الحرب مدة سنتين تقلد عدة وظائف في الجيش التركي الى ان اعلنت الحرب العامة وهو وقتئذ رئيس اركان حرب وقد اشترك في مواقع غاليسيا وغيرها وكان في راس الفيلق الثامن لما انهزم الترك في سوريا فانخرط صاحب الترجمة في الجيش العربي وعين رئيس اركان حرب حاكم سوريا العسكري ورفع الى رتبة امير لواء وعين رئيساً لديوان الشورى ونفي بعد ذلك وجرى له يوم رجوعه من المنفى استقبالا فخماً ولما احتل الفرنسويون سوريا عاد الى مسقط راسه بغداد سنة ١٣٤٠ فعين متصرفا للمنتفق وبعد ان تولاها مدة شهرين عين وزيراً للاشغال والمواصلات في وزارة عبد المحسن بك السعدون وقد انتخب نائبا عن لواء بغداد في المجلس التأسيسي وكان فيه نائباً ثانيا لرئيس المجلس . وكان رئيسا للجنة تدقيق المعاهدة العراقية البريطانيه ولجنة قانون الانتخاب ولما اتم هذا المجلس اعماله واعتزلت وزارة جعفر باشا العسكري انتدب لتأليف الوزارة الحاليه في ٢ آب سنه ١٩٢٤

او بالحري ضد حكومة الانتداب . وكانت المس بل تدعوه لمائدتها فيجيء في ثوبه اليومي وبآرائه التي هي فمثل ثوبه طليقة ، لا تقيد فيها ولا ادعاء .

وكان على الدوام كئيباً . وكانت الكآبة بليغة مستحبة ، تنظر من عينه السوداء اليك كأنها تقول : ان هدوّ نفسه ، وحسن وجهه ، وشجا صوته ، انها كلها مني . ظننت تلك الكآبة من خلقه . ولكني علمت بعدئذ ان ابنه الصغير الوحيد كان مريضاً ولا يرجى شفاؤه . فأغلقت في وجهه ابواب الطب كلها ، وانصرف عنها وعن الاشغال يسعى بما عساه يصل الى عرش الرحمة الاعلى ، فيأذن الله بشفاء صغيره العزيز .

لم يستجب الله طلبة عبده . وعند ما رحت اعزي ياسين باشا الذي كان يومئذ وزير الاشغال في وزارة السعدون ، استقبلني هاشا ولم يأذن بتلك الكلمة المألوفة التي لا تغني فتيلا . ما شاء الله كان . هو مثل داود النبي تقي في المصيبة ، فيلسوف في الاحزان .

ولكنه في السياسة لا يستسلم دائماً الى الاقدار . اما وهو الان رئيس الوزارة التي خلفت الوزارة الجعفرية ، وكان رئيس اللجنة ، لجنة تدقيق المعاهدة ، التي عينها المجلس التأسيسي ، فماذا عسى يكون موقفه في سياسة اصبح لا يملك غير طرف واحد منها ؟

جاء في تقرير اللجنة ان في بنود المعاهدة والملحقات او الاتفاقيات ما يثقل كاهل العراق فلا يمكنه القيام بتعهداته ثم تطلب اللجنة التعديلات الاتية :

١ً — التصريح باستقلال الدولة العراقية .

٢ً — التصريح بالغاء الامتيازات الاجنبية قضائية كانت او اقتصادية .

٣ً — الحكومة العراقية حرة في تنظيم ميزانيتها السنوية .

٤ً — التصريح بان الحكومة العراقية ستصبح حكومة حرة مستقلة ذات سيادة تامة عند دخولها في عصبة الامم او عند انتهاء الاربع سنوات .

وهناك تعديلات فرعية تتعلق بالاتفاقيات المالية والعسكرية .

فمهما قيل في وجوب هذه التعديلات كلها لا اظن معالي الوزير الجديد يسعى في نقض قاعدة مالية اجمعت الامم على صحتها . يقول العراق لبريطانية العظمى : يجب ان تسحبي قواتك من العراق ويجب ان تقرضيني مالاً لانشيء جنداً وطنياً يقوم مقامها . فتقول بريطانية للعراق : يجب ان تعطيني ضمانةً على المال وستبقى بعض قواتي في البلاد الى ان تسدد الدين .

هوذا المشكل الذي يرجى حله في عهد الوزارة الهاشميــة خصوصاً لان فيها اخصائي في التجنيد هو رئيسها واخصائي مالي مشهور هو ساسون افندي [1] .

جرترود بِلْ

النادي العراقي مختص بالرجال دون النساء . ولكني سمعت يوماً صوت امرأة في غرفة القراءة ، فدخلتها فاذا هناك المس بل واحد الوزراء يتجاذبان اطراف الحديث كما يقال . وكنا يوماً مدعوين انا والسيد افنان لمأدبة فمررنا باحد المستشارين ظناً منا بانه وزوجته من المدعوين فقال المستشار: انا ارافقكم اما الست فلا . يظهر ان الليلة مختصة بالرجال . فقلت : قد سمعت ان المس بل ستكون هناك . فقالت السيدة زوجة المستشار : ولكن المس بل . . . وسكتت .

نعم ، ان المس بل في صفتها الرسمية لمن الرجال ، فهي لا تقيد نفسهـا بما يقيد بنات جنسها . وهي تغضبهن لان الحرية التي الفتها لاتأبه للاصطلاحات العقيمة . وقد تضطرها الوظيفة احياناً الى ما يظنه الناس تعمداً في الخروج

(١) هو الوزير الثابت في الوزارت العراقيه لان ليس في العراق من يضاهيه في علم الاقتصاد والتضلع من ادارة الشؤون الماليه . ولد ساسون افندي حسقيل في بغداد في ١٧ اذار سنة ١٨٦٠ وتلقى علومه في بغداد ولندن وتخرج في الحقوق بفينا عاصمة النمسه. وقد شغل عدة مناصب اداريه في الحكومه العثمانيه الى ان انتخب نائبا عن بغداد في مجلس النواب العثماني من سنة ١٩٠٨ الى ١٩١٨ وكان رئيساً للجنة الميزانية في ذاك المجلس ستين عديدة ، وعين مستشاراً لوزارة التجارة والزراعة في الاستانه . ولما تالفت الحكومة الموقته في العراق في تشرين الثاني سنة ١٩٢٠ عين وزيراً للماليه وبقي في الوزارة المذكورة ثلاث سنوات اي الى ان استقالت وزارة السعدون . ولما تالفت الوزارة الهاشمية في شهر آب سنة ١٩٢٤ اسند اليه المنصب نفسه وهو لا يزال وزير الماليه في العراق .

عن المألوف . هي الوظيفة ، وهي فيها تعمل عمل الرجال فتستحق ان تذكر مع الرجال . بل هي شبه وزير دار الانتداب فينبغي لي ان افسح لها في هذا الفصل مجالاً . ولا اظن ان اصحاب المعالي الوزراء يستنكرون او يعترضون .

ان السيدة جرترود بل كاتبة اسرار المندوب السامي في الامور الشرقية او رئيسة القلم الشرقي في دار الانتداب [1] لمن اولئك الانكليزيات القليل عددهن اللواتي يستشرقن او يتعرّبن لدافع فيهن اولاً نفسي بل روحي يصعب تعليله على ما اظن بغير ناموس التناسخ او الوراثة البعيد الاسرار والاسباب . ان امرأة عالمة ، نشيطة ، حصيفة ، ذات نشاط ومضاء مثلها لتجد في بلادها من دواعي العمل والشهرة والفخار ما يرغبها عن البلدان الاجنبية . ولكن نزعة فيها الى الشرق ، الى العرب ، تغلبت على كل اما لها ومطامعها ، فجاءت الشرق الادنى سائحة ، طالبة علم ، وجالت في البلاد العربية ، فقطعت الصحراء الى جبل شمر وحائل ، وآخت العربان ، وكتبت في ما كتبته كتباً عن العرب والبلاد العربية والسورية فيها العلم مقرون بالعطف والاخلاص . ثم جاءت ايام الحرب الى بغداد فكانت للقيادة العامة والوكلاء السياسيين عوناً كبيراً في ادارة شؤون البلاد .

ان المس بل تعلم من امور العراق وعشائره ومشايخه واشرافه وتجاره وسياسييه ما يندر ان يعلمه سواها . وهي تتكلم العربية بلسان عربي تخف اللكنة فيه وتجالس العرب فتستأنس بهم ، ولا تكلف ولا عناء ، كأنها تجالس من تحب من ابناء جنسها ، بل كأنها عربية بنت عربي .

امرأة طويلة نحيلة جليلة ، تكاد تكون مجموعة اعصاب وافكار ، هادئة الاشارة واللهجة ، هادئة البادرة ، يتغلب في حديثها العقل ، وتتغلب في عقلها السياسة . وهناك شيء من القلب ، بل اشياء ناضجة مستوية ؛ تزاحم العقل والسياسية احياناً فتجيء تارة عفواً وطوراً ثم عن اجتهاد وعناء .

حدثني احد المستشارين قال : طريقة المس بل السياسية قديمة ، وهي مع

(١) Oriental Secretary to the High Commissioner.

ذلك لا تركن في الامور لا لعقلها دائماً ولا لقلبها . وقال اخر : الناس يأبون التأديب سواء كانوا عراقيين ام انكليز .

ولكن المس بل لا تجبه العراقيين دائماً بالقاعدة والقضيب كالمعلمة المرشدة . بل تجيئهم مراراً وهي تحمل هدية بدل القضيب . هوذا قلبها عربون اخلاصها ايها الزعيم الوطني . هي ام المؤمنين يقيناً . واذا رفضت الهدية والمشورة، اذا ابيت النصح والامتثال ، فهوذا السجل وفيه سيرة حياتك منذ دببت ودرجت الى يوم وقفت مستعطفاً او محتجاً في دار الانتداب .

لذلك لا يبادلها العراقيون الحب والوداد . ولكنهم يحترمونها ، ويعجبون بها ، ويودون لها ما يوده المرء لعمته او الفتاة لخالتها . لا تحبيننا كثيراً عافاك الله ولا تتدخلي كثيراً في امورنا .

الفصل الخامس عشر

اصحاب القوافي

السياسه والمقاهي — الفرج في التدخين — الشعراء — معروف الرصافي في الفريكه — في الاستانة — الرحالة والشاعر في بغداد — الشاعر الناقم على الجميع — المس ـ بل تحافظ على اللياقة في الصحافة — الشاعر يؤنبها — غضب المرأة الراقية — لا منفى للشاعر — ذنب الحرية — عقيدته في الدين — اقاربه في العالم — شيء من شعره في الشعر —

من ذا القادم المعرّة راكبا حمارا ابن آتان!؟ — وصف الزهاوي — شيخ زاهد — ليلى الأخيلية تمسح دموعه — شكاية الشاعر الفيلسوف — قصة شاعر الملك — « لا امدح بالاجرة » — المبتذل في شعر الزهاوي — « نزعات الشيطان » — حقائق رائعة — « يا شرق ويا غرب ! » — الشعر الحقيقي —

اولئك الذين يكفرون الناس — نقيق الضفادع — الاعظمية والكاظمية وراهب كبوشي كرملي — التقليد والتقليد والتعقيد — شاعر لا قلب له — أوهام الغيرية والاحسان — الدجيلي شاعر القوة القاهرة — هاتلي ونتشي — شيء من شعر الدجيلي — الـ«رياليزم» realism في شعره — مادي يهتم بالارواح — وطني يقرّع أبناء قومه ومذهبه —

رابع الكفرة — ان الكرام قليل — «الفقر يشيعهم من الديوان الى البيت» — مجيد الشاوي — في وجهه شيء من الاسد والنمر — وليس على صدره نيشان — ولا يعرف الترسم — الى من ينتسب — ابن عمي — المعري والخيام — في مجلس السيد محمود النقيب — جدال في حلم النبي وحنانه — وما ذنب النساء في الحروب ؟

دائرة معارف الادباء في العراق روفائيل بطي — مثال من أنثره وشعره المنثور .

لولا الشعراء في العراق لسئمت السياسيين ، ولولا السياسيين لفررت هارباً من الشعراء . وبكلمة اوضح لولا الفريقان حولي لكنت من الهالكين . ولكنني وجدت نفسي مثل البهلوان على حبل الاحتفالات والتكريم احمل بيدي خيزرانة التوازن وفي احد طرفيها اكرة السياسة وفي الاخر قيثارة الشعر . تباركت الامة التي يتوازن فيها الشعر والسياسة .

ليس في امم الارض على ما اظن من يهتم بالسياسة اهتمام الامة العربية .

وليس في الاقطار العربيـة كلها من يشغفون بالسياسة شغف العراقيين . في مدينة بغداد مثلاً ثلاثمائة مقهاة وفي كل مقهاة عشرون سيـاسياً في الاقل يدخنون الارجيلة ليل نهار ويديرون شؤون العرش والانتداب ولكل سياسي لو حدثته رأي في السياسة الدولية وسياسة العراق غير رأي زميله وجاره ولكنهم لحسن الحظ يدخنون وينسون . ان في الارجيلة لتعتصم الامة .

معروف الرصـافي

ولـكن في هذه الامة اناس ممتازون يدخنون ويكـتبون ، فيجمع اليراع احلاماً يولدها التنباك ويبددهـا ، ويحفظ القرطاس من ألنغمات والنقمات ما لا تعددها . هم الشعراء . واكثرهم بل كلهم في العراق اليوم سياسيون ينظمون ، او نظامون يعالجون السياسة كرماً منهم وفي مقدمتهم شاعر تجاوزت شهرته حدود الجزيرة فرحبت بهـا سورية ومصر والاستانة ، واجلستها على ديوان الفخر والاعجاب .

وقد وصلت هذه الشهرة الى الفريكة في شخص صاحبها المحبوب معروف الرصافي يوم كان عربياً —بدوياً— في قلبه ولهجته ، وفي نظمه وقيافته . نام معروف الرصافي يومئذ في خيمة الناسك المشرفة على الوادي ، واكل من جفنته ، وشرب من ابريقه . ثم سافر الى الاستانة اولاً وثانياً ، وكان فيهـا من المرشدين الواعظين ، وعاد منها يلبس الطربوش والثياب الافرنجية ، فافصح ذا التطور الظاهر عما خفي منه فيه . اجل ، قد افسـد الاتراك او بالحري مدنية الاستانة —وهي في هذا الباب اشد واسرع فعلاً من مدنية باريس— قد افسدت شيئاً من السذاجة الجميلة في شاعر عربي مجيد . احترقت حواشي تلك السذاجة فتغير لونها وطعمها وصار الشاعر سياسياً وصار العربي مسلما . او بالحري صار الشاعر في سياسته وفي اسلامه تركيـا من اتراك ذاك الزمان .

ولـكن الرصافي وهو ممن خصهم الله بشعلة النبوغ — والنبوغ طموح ،

والطُموح جهاد مستمر — لم يقف في التطور عند حد يريب ويعيب، بل ظل يشتغل في الادب والشعر حتى امست السياسة التركية الاسلامية بعيدة عنه، تكاد لبعدها لا ترى، وحلت محلها سياسة عربية قومية مجردة من كل نزعة دينية وكل صبغة مذهبية. وكأني بمعروف قد عاد الى تلك الخيمة، خيمة الناسك، فذكر فيها الجفنة والابريق، وعقيدة الاخ الصديق، الذي كان مثله هدفاً لعوامل التطور الشديدة. فقد صار ناسك الفريكة رحالة، فراح يجول في الارض غرباً وشرقاً حتى اجتمع بعد سنين بصديقه الشاعر في بغداد وهو يشغل وظيفة صغيرة في وزارة المعارف.

وكان معروف اول المرجبين، واول من قال شعراً فيه زمجرة وفيه انين. شكا الى صديقه القديم حالاً هو فيها فقال:

اقمت ببلدة مُلئت حقودا — علي فكل ما فيها مريبُ
امرُّ فتنظر الابصار شزرا — الي كأنما قد مر ذيب
وكم من اوجه تبدي ابتساما — وفي طي ابتسامتها قطوب
سكنت الخان في بلدي كاني — اخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه — لاني اليوم في وطني غريب
وما هذا وان آذى بدائي — ولا هو امره امر عجيب
ولكني ارى ابناء قومي — يدبّر امرهم من لا يصيب

وحمل على السياسيين في العراق، الوطنيين منهم والانكليز، وحمل كذلك على الاغنياء والاعيان، وشكا الدهر والزمان، كأن صديقه الرحالة يحمل في حقيبته دواء لكل ادواء الانسانية ودرياقاً لسموم الحكومات الانتدابية والاستعمارية.

أامين لا تغضب علي فانني — لا ادعي شيئاً بغير دليلهِ
من اين يرجى للعراق تقدم — وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لاخير في وطن يكون السيف عند جبانه — والمال عند بخيله
والرأي عند طريده والعلم عند غريبه — والحكم عند دخيله

ما كنت لاغضب على صديقي الشاعر لو لم اكن جئت العراق من قطر عربي ليس فيه جزء صغير مما في العراق من دلائل الرقي وطلائع الادب والعمران . ولكن غضبي عتاب اخوان ، ولعب صبيان ، اذا قوبل بغضب اصحاب المناصب العالية ، والسيادات الدينية البالية . وليس غضب هؤلاء وهم رجال بشيء اذا قيس بغضب سيدة سائدة ، لها الامر وهي اجنبية ، ولها نفوذ يمتد حتى ادارات الجرائد العراقية .

قد اغضب الرصافي المس بل فحالت دون نشر قصائده في الجرائد . وهذا قليل من كثير جاءه منها بالاساليب الدقيقة الخفية ، لانها وهي امرأة راقية وهي فوق ذلك سياسية ، لم تناصبه العداء بالطرق الاعتيادية . ولا اخطأت كما اخطأ سابقاً دار الانتداب في نفيه الوطنيين الاحرار . كأنها قالت في نفسها : هو شاعر ، والشعراء يلتذون بالسجن ويفتخرون بالمنفى . كيف لا وفي الاثنين ما يكفيهم مؤونة العيش والعمل فيضمن لهم خبز يومهم والعزلة للنظم والتأليف . دعت المس بل معروفاً وشأنه ، ولم تلجأ في تونيبه الى غير الدقيق الخفي من اساليب النقمة عندها . وكان معروف يومئذ ناقماً على العراق كله كما تقدم وعلى كل ما فيه ومن فيه .

سأنصب للهواجس حر وجه يعود الى الشروق به الغروب
واضرب في البلاد بغير مكث اجوب من المهامه ما اجوب
الى ان استظل بظل قوم حياة الحر عندهم تطيب

وكان امله ان المس بل ، وهي ولية الامر ، تسمع في الاقل هذه الشكوى منه ، فارسل اليها كتاباً يقول فيه انه يحترمها لانها عالمة ولكنها في الامور الوطنية ليست اعلم منه ، وانه اذا احسنت العمل يخلد ذكرها في التاريخ والا فلا رادع لشعره عنها « واني ارجو ايتها السيدة ان يكون لغضبك نتيجة ظاهرة . »

سكنت الخان في بلدي كأني اخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه لاني اليوم في وطني غريب

أفلا ترثي المس بل لحاله ، وقد سئم الاقامة في بلاد لا خير ولا ما يشبه الخير فيها ، فتسعى بابعاده او بسجنه او بنفيه ؟ ولكن الغريب في امر هـذا الشاعر انه لم يفقه عقلية المرأة المهذبة ولا ادرك السر الاول من اسرار قلبها ، يطلب منها كالصبي ما يبغي حقيقةً ولا يخفي غرضه او يموه به . فلو قال لها : اني افضل زاوية مظلمة في سرداب من سراديب بغداد على قصر في الاستانة لكانت سعت ولا ريب بابعاده حالاً عن العراق ، بل بتسفيره الى الاستانة .

اما العلماء الناقمون على الرصافي او بالحري الناقم هو عليهم فانهم يجدون قصتهم في بيتين من شعره :

لقد مزقوا احكام كل ديانة وخاطوا لهم منها ثياب رياء

وما جعلوا الاديان الا ذريعة الى كل شغب بينهم وعداء

ولا همهم أأُبعد الرصافي عن العراق ام لم يُبعد ، فهم يعلمون ان الشاعر المجيد الحر الذي تتناسخ وتتناقل اشعاره الناس قبل ان تطبع يستطيع ان يضربهم اينما كان . وقد تجيء الضربة شديدة بالنسبة الى بُعد مرماها فاقتصروا لذلك على تكفيره في بلده والتشنيع به لدى العامة حتى صار ينظر اليه اذا ما مر « كانما قد مر ذيب » وهو ذئب الحرية في العراق يثب على كل من يحاول قتلها او تقييدها .

لمعروف الرصافي عقيدة في الدين والاخرة تكاد تكون مادية . ولكنه ، وهو الحكيم المدرك حدود علمه ، قلما يفصح عنها تفصيلاً وتأكيداً في مايكتب وينظم . وعندي انها في هاته الحال السديمية اشد تأثيراً في ما يقصد بها من اصلاح العقائد والتقاليد . قال لي مرة : لا تصطلح البلاد العربية وترتقي الا بالكفر . وانا افهم وهو يفهم ما يريد بما قال . ولكنه لو نطق كعالم بموجب قياس العلم والمنطق لما كان يؤثر في الناس كفره المزعوم .

ولرب قائل يقول : مالك وانت تكتب عن شاعر عبقري تقدم في شعره السياسة والدين ؟ الجواب : ان الباحث اليوم في احوال الشرق عموماً والعرب خصوصاً يرى ان للسياسة والدين الشأن الاول والاعلى في امورهم

كلها . اجل ، ان في مصبغتَي السياسة والدين تصطبغ الاقوال والاعمال والامال فيندر الشعر الصافي والنثر الادبي في ما ينظمون ويكتبون . وعند ما اجد في ثمرات العقول الكبيرة الحرة ما يعارض النعرات المبتذلة الذميمة بنزعات جديدة في الفكر والاعتقاد اقدمها عملاً باهميتها على غيرها . وكذلك سلكت في تشريح جزء من شخصية صديقي الرصافي الممتازة .

اما الشاعر فيه المجرد من نعرات الناس ومن النزعات السياسية كلها — الشاعر الذي لا يعرف في الحياة غير الشعر والجمال والحقيقة العلوية فيهما — فهو دائما فوق الجماعات والاحزاب ، لا يعتبر في الانساب غير النسب الذي بينه وبين البلبل والعواصف والكواكب والازهار . ولا وطن له غير وطن الفكر والعلم والحرية . وهو اذا سألته : ما الشعر ؟ يجيبك قائلاً :

وما الشعر الا كل ما رنّح الفتى كما رنّحت اعطافَ شاربها الخمرُ
وحرّك فيه ساكن الوجد فاغتدى مهيجاً كما يستنّ في المسرح المُهر
فمن نفثات الشعر سجع حمامة على ايكة يُشجي الحزين لها هدر
ومن شذرات الشعر حوم فراشة على الزهر في روض به ابتسم الزهر
ومن ضحكات الشعر دمعة عاشق بها قد شكا للحب ما فعل الهجر
ومن جمرات الشعر رنة ثاكل مفجعة اودى بواحدها الدهر
ومن نفحات الشعر ترجيع مطرب تعاوده مجرى صوته الخفض والبر
وان من الشعر ائتلاف كواكب بجنح الدجى باتت يضاحكها البدر
وان ابتسام الغيد عن كل اشنب ليطرب نفسي فوق ما اطرب الشعر

هو ذا الشاعر الحقيقي ، هو ذا الرصافي ينطق بلغة زملائه واقاربه في البساتين وفي السماء .

جميل صدقي الزهـاوي

وللرصافي زميل ونسيب من الناس يشاركه الاقامة في العراق كان ينبغي ، لو اعتُبر السن والعلم في الشعر ، ان اقدمه عليه . ولكن الشاعر هو شاب ابداً والعلم في الشعر يكسبه حكمة ولا يزيده جمالا . على ان لجميل صدقي الزهاوي منزلة في الشعر العربي اليوم لا يشاركه احد بها . فهو في علمه ، وفي ادبه ، وفي شعره اقرب نوابغ العرب الى المعري ابي العلاء . واذا صح مبدأ التناسخ والحلول يكون « رهن المحبسين » قد عاد الى هذه الدنيا بعد الف سنة فاتخذت روحُه الزهاوي محبساً جديداً ، ومعقلاً من الفكر مجيدا . أوَ ليس شبيهـا بصوت صاحب اللزوميات صوتُ من قال :

« نم بعيداً في خلوة الاجداث   من رُغاء الخطوب والاحداث

انمـا الموت خير ما خلفتـه   لبنيها الآباء من ميراث »

وما كان المعري في هذا التجسد الجديد موفقاً في الصحة والعافية ، لان شللاً في رجل من حل فيه يمنعه عن المشي . جاء في اللامية الزهاوية :

«وقد احاول ان أسعى فتمنعني   رجل رمتها يد الايام بالشلل »

فاضطرته اذا خرج من البيت الى الركوب وكان اختياره في المركوب اختيار الشاعر الفيلسوف . هوذا راكبا اتانه البيضاء كأنه من مدينة المأمون المدوّرة لا من بغداد الجديدة . ولكنه يلبس الطربوش لا العمامـة ، فيبدو شعره من تحته خُصلاً منثورة شاردة ، لكل منها يد من الهواء تداعبهـا فتبعدها عن اختها . وقد يتصل بعضها بشعر لحيته الشمطاء « البلشفية » التي لا تخضع حتى لمشطٍ من السيادة او لمقراض . وهي تظهر في اشد المظـاهر الفوضوية في الشوارب منها الثائرة على كل نظام وكل ظلام . وقد اختبـأ تحت الشوارب جل ذاك الفم البليـغ الذي هو ختم الغم اذا سكت وباب الصواعق والاضاحيك اذا تكلم . اما الانف فمنبسط الاطناب مستريح تحت عين دامعة تشكر النظارات على ما تجسمه وتوحده لها من الوان الحياة . ويشرف

على هذه الايات في التكوين المنثور جبين رفيع نصيع منيع .

اما ثيابه فافرنجية ولكنها كذلك حرة ابية ، لا يهمها الشكل والزي ، وقلما تلفت الاناقة فيها النظر ، بنطالونه كالكيس حول الساق ، وقميصه مفكوكة الزر عند العنق ، ومستقلة في بياضها — الغير الناصع — فلايحتل قسماً منه شيء مما تدعوه قطة او ربطة رقبة . شيخ زاهد بكل شيء سوى بالعلم والحرية ، وليلى الاخيلية . اجل ان للزهاوي ليلاه ، تطرد من نفسه الظلمات ، ومن قلبه الشبهات ، ومن بيته الطالبات . هي عروس شعره ، عروس حياته ، عروس افكاره واحلامه . وهي كذلك رمز سياسته .

« كان يهوى ليلى ابن عم لليلى فابتغاها من اهلها لخطيب
ولقد اخبروه من بعد حين ان ليلى قد زُوجت بغريب »

وان هذا الشاعر في عشقه لكالاباحي في بعض الاحايين يشرك بحب ليلى كل عاشق حزين . هي ليلى الاباحية التي يخاطبها فيقول :

« ليلى أطلي على العا شقين ليلى أطلي
تري اعزة قوم مطأطئين بذل
تري صدوراً من الشو ق والصبابة تغلي
عدي وان كان وعد ال حبيب رهناً بمطل »

ثم يتفلت الشاعر من يدي الوطني والفيلسوف ، ويركب وعروسه الاتان البيضاء ، الى الصحراء ، او يختلي بطيفها في داره ، فيسمعه من الشعر الرقيق المنسجم ما يقارن اجمل نفثات « المجنون » .

« ابيت في الدار وحدي معاتباً لخيالك
قد غرني انه كا ن باسماً كمثالك
لا تسأليني عما اصابني بعد ذلك
ما زلت اضمر حباً مناسباً لجمالك
ابيع كل حياتي بساعة من وصالك
اي بحبك يا لي لى لا محالة هالك

فهل سأخطر يوماً   اذا هلكت ببالك ؟ .. »

جاءني الشاعر الفيلسوف ذات يوم يحمل الي شكاية هي ظاهراً عن ليلى وعشاقها — ما هم والله اهلاً لها ، ينظمون الشعر للاخيلية ويقدمون الهدايا للاجنبية . والملك فيصل لا يكترث ، واذا اكترث فلا ينصف . أوَ لم اقل له في قصيدتي :

« لا يرأس الناس في عصر نعيش به   الا الذي لقلوب الناس يمتلك »

« والشاعر يا استاذ من الناس ، وله فوق ذلك حق على الناس ، في من يملّكون او يؤمّرون . ترانا نحمل النار بايدينا الى امة تكاد من الدنق تموت ، فيوقفنا في الباب اناس لا يساوون قلامة ظفر منا . »

وهذه الحقيقة في كل قطر من بلدانه . ولكنها في العراق مجسمة في كبار شعرائه . اعجب بشعراء غاضبين شاكين ، وقد تنازلوا عن مكافحة الزمان الى مكافحة الانسان . الا انهم يختارون ولا شك الاقران ، او من يدنو من الاقران . حمل الرصافي على سيدة اجنبية من اجل ليلى وعشاقها . وجاء الزهاوي يشكو من مدحه بالامس وكانت لا تزال قوافيه ترن في البلاد .

— سألوني يااستاذ ان اكون شاعر الملك وعينوا لي راتباً شهرياً . فقلت : لا امدح بالاجرة . واني اقبل الوظيفة بشرطين ، ان لا اقول الا عند ما ارى المدح واجباً وان يكون الراتب لوظيفة غير المدح .

فغضب جلالته وكان لي على بعض الاصحاب السائدين حق المساعدة فاغتنموا فرصة غضب الملك وانقلبوا علي . والله يااستاذ ما قبلت ان اكون شاعر الملك الرسمي الا بالشروط التي ذكرت . . . . معاذ الله ان اصير في اخر هذا الزمان مدّاحاً بالاجرة .

وهذه نصف القصة سمعته غير مرة في بغداد كما رواه الزهاوي . وسمعت كذلك النصف الاخر وكان جلالة الملك فيصل بين النصفين ، تتجاذبه اكثر من ارادتين . واني اروي القصة كلها لما فيها من نور يضيء بعض زوايا الملك الجديد . اننا نرى في البداية جلالة الملك بين شاعرين هما صنوان ، هما شاعرا

العراق الاولان . وللشاعرين اصحاب من ذوي السيادة والنفوذ في المدينة وفي البلاط . وبين الشاعرين ، بل بين الشعراء على الاطلاق ، منافسة دائمة تكاد تكون طبيعية . قد فات ذلك جلالة الملك فاغضب في انعامه الشاعرين معاً .

ولو كان ممن مارسوا الشعر وخبروا طبائع الشعراء لاختار لهذه الوظيفة احد ابناء الطبقة الثالثة او الرابعة لانهم يحسنون المديح اكثر من سواهم ، ولكان كفى نفسه عداء شاعري العراق الكبيرين . وقد كان في استطاعة جلالته ان يعمل احسن من ذلك ، فيقول لمن حببوا اليه « الشاعر الرسمي » ، اننا في بداية امرنا ، ولا حاجة لنا بمدّاح مأجور . او انه يقول : شاعر البلاط من كمالات الملك ونحن اليوم احوج الى ضرورياته . أفلا تظنه مفلحاً لو اتخذ هذا المسلك ورفض ان يعين شاعراً رسمياً ، فيصير شعراء العراق كلهم شعراء البلاط — وبدون اجرة ؟

— ظلمت والله يا استاذ . انا لا ابغي اجرة على المديح اذا مدحت واني لا امدح دون ما فكر او نصح . ألم اقل لفيصل :

« تلقي اعتمادك لاستتمام نهضتهم على الذين بنهج الحق قد سلكوا
على اناس لصدق القول قد لزموا على رجال لغل النفس قد تركوا
على الألى عرك الايام اظهرهم عركاً طويلاً وللايام قد عركوا »

اجل ، ومن يا ترى عركتهم الايام مثل الزهاوي ؟ ولكن الشاعر يخدم بلاده في ما لا يحسن الخدمة احد مثله . قد تقلد الزهاوي مناصب في الدولة كثيرة وكانت يوماً له ويوماً عليه وكان في ذلك واحداً من كثيرين . وقد تعددت صفاته في فنون الادب فشغف بالعلوم الطبيعية وألف كتاب «الكائنات» وكتاب «الجاذبية وتعليلها» وكان فيها واحداً من مئات الغواة . ومن غرائب اجتهاده وتنوع علومه انه كتب رسالة في سباق الخيل وكتاباً في علم الداما . وفي هذا الكتاب العجيب ذكر الف لعبة من مخترعاته ! فلو لم يكن الزهاوي شاعراً وطنياً لقلنا ان في تعليم الامة لعب الداما وظيفته

الكبرى. ولكنه شاعر كبير بالرغم عما في شعره من مبتذل القول مثل :

« العلم ثروة امـةٍ ويسـار والجهل حرمان لها وبوار »

. . .

« ان التوقف في زمانٍ حازم فيه تقدمت الشعوب لعار »

. . .

«من راح يمشي في طريق مستوٍ أمِنَ العثار فما هناك عثار»

ومثل قوله في مطلع قصيدة « الجهل والعلم » :

«الا ان ليل الجهل اسود دامس وان نهار العلم ابيض شامس

تشق حياة ما لها من مدرّبٍ وتشقى بلاد ليس فيها مدارس»

هذه حقائق لا ريب فيها . ولكنها من الحقائق المعروفة المبتذلة ، وقد اصبح الاعتقاد بها عند الغربيين من باب الاعتقاد بوجوب الرياضة مثلاً او الاكل . اما عند العرب فالامر غير ذلك . وانه ليغتفر للشاعر في امة تطرب للشعر طرب الغربيين للموسيقى اذا وضع لها حقائق كل يوم — حقائق ايام الشغل — في قوالب شعرية .

من مزايا الشاعر الحقيقي أن البؤس في الامة يحزنه حتى الالم فيصبح كانه هو الامة البائسة الموجوعة فيسمع صيحته من قد خشنت او تخدرت من الآلام اعصابهم ، فيستفيقون طالبين الدواء والشفاء . هذه وظيفة الشاعر الكبرى في امة كان للعلم فيها ربوع زاهرة امست كالقفر اليباب .

ولكن في شعر الزهاوي غير هذه الحقائق — حقائق ايام العمل — فيه كثير من حقائق الآحاد ايضاً والاعياد . هو الشاعر الذي يبهجه اريج الازهار ، وبريق الانوار ، فيود لو كان بامكانه ان يداوي بها البؤس والظلام — البؤس الذي منشأه الخمول والظلام الذي هو الجهل .

اننا نقدس سراً في الاكوان . فحبذا ما نقدس دواء لما نقاسيه . حبذا الحياة ، حياة النمو الدائم والتجدد الدائم . ولكن الجهل عدو هذه الحياة وعدو الله . والمتاجرون بالجهل رؤساء الاديان . ورؤساء الاديان في كل بلد

لا يخفّ شرهم الا بمثل الزهاوي والرصافي وشعرهما . وها هنا في هذه الامة الجديدة سبب التغيظ الجديد ومصدره . اولئك الجامدون في مكانهم وفي علومهم يكفرون الناس فيدفعون ذوي النبوغ فيهم الى الكفر بالله . ان وجودهم في المجتمع الانساني اسياداً لما يضعف الثقة بالعقائد الدينية كلها . فيخرج الزهاوي اذ ذاك من المبتذلات ومن الوطنيات وينظم ديواناً كاملاً في « نزغات الشيطان » فيسمعك من الحقائق التي هي كالنصل اليماني وكالمدفع الالماني . ويسمعك بعد الزمجرة ضحكة لا تنسى زمانك صداها وصدى التهكم فيها .

« توقفت لا ادري تجاه الحقائق أأني خلقت الله ام هو خالقي »

ان الزهاوي في « نزغات الشيطان » مثل ابي العلاء في « رسالة الغفران » وقد يفوق معري اليوم معريَ الامس جسارةً وبريقاً . فتصل يد شيطانه حتى الى العرش الاقدس ، وحتى الى لحية صاحب العرش . وبعد التطاول والتجديف يستغفر الله ويعود الى عمل كل يوم فيرى الغرب في الشرق فاغراً فاه ضارباً بعصاه . فيزجره ويهدده :

يا ايها الغرب ان الشرق مضطرب
يا ايها الغرب ان الشرق مغتصَب
خفف من الوطء فالايام تنقلب
الشرق يشبه بركاناً به حمم
اخاف من انه يا غرب ينفجر

يا سرحة الماء انت اليوم وافرة
وانت ناعمة خضراء ناضرة
لا تأمني الدهر فالايام قاهرة
يا سرحة الماء ان جاء الخريف غداً
فانما هذه الاوراق تنتثر

ثم بين التجديف والتعنيف يسمعنا الشاعر من نغماته الناعمة الصافية ما هو من صميم الشعر الذي يستأثر بمعناه الايماء فالسكوت فترى الدمعة فيهما تروي الابتسامة وترى الابتسامة تحضن الدموع كما ورق الورد يحضن الندى . من ذلك قوله مخاطباً سماء العراق:

« انظريني اذا العنادل غنت — سحراً فوق منكب الشجراء
انظريني ليلاً اذا الشمس غابت — بعيون النجوم في الظلماء
انظريني اذا الطبيعة أصغت — في الدياجي الى خرير الماء
انظريني اذا الحوادث رامت — هدأة في الصباح او في المساء
انظريني اذا الخريف تراءى — آسياً من اشجاره الجرداء
انظريني اذا غدا الروض خلواً — من زهور او زهره من رواء
انظريني من الفروج خلال الـ — سحب سراً بعينك الزرقاء
انظريني اذا نظرت بعيني — وهي شكري اليك عند البكاء»

كاظم الدجيلي

ان في العراق من العلماء من لا يزال في المعقل الذي مات فيه « ملفان » الكنيسة المسيحية يوم قضي على ما كان للكنيسة من سيادة ادبية في العالم . وعهد « الملفان » ليس ببعيد . ولكن وظيفته في مراقبة اداب الدنيا والدين لم تكن لتنحصر بالكنيسة الكاثوليكية . فان علماء اكسفورد[1] البروتستانيين كفّروا في النصف الاخير من القرن الماضي دروين واصحابه لقولهم بمبدإ النشوء والارتقاء . وقد مضى زمن ال « ملفان » في المسيحية وولى زمن ال « دون » فودعهما التاريخ شاكراً مسروراً .

اما في الاسلام ففي بعض الاقطار كالعراق مثلاً لا يزال العالم يحمل سهام التحريم والتكفير يرمي بهما من خالفه رأياً او نشر ما يخالف عقيدته في

(١) اكسفورد اكبر جامعات انكلتره وهي المدينة التي تدعى بهذا الاسم . والملفان في إكسفورد يدعى «دون» Don

اداب الدنيا والدين . ولا يحق للشيعة وحدها ان تفاخر بمثل هؤلاء العلماء وان كثر عددهم عندها . فان عند السنة منهم من يسوّد الوجه حتى يخفى على « ملافين » كربلاء والنجف .

وهناك في تلك البقعة النائية عن دوائر العلم الغربية بعض رجال الدين المسيحيين الذين ينقون نقيق الضفادع كل مرة يسمع في البلاد صوت حر كريم ، فيصدرون الفتاوي بالتحريم والتكفير اقتداء بفضيلة الشيخ الاعظم و« آية الله » الاكبر . وما الفرق يا ترى بين ثلاثة هم واحد تجاه الحقيقة؟ انهم وان اختلفوا اسماً ومذهباً اعداء الحرية احلاف على انصارها . الكرملي والالوسي والقزويني ثلاثة رؤوس هي التقليد والتقييد والتعقيد على جسم واحد ، هو التعصب . وكلهم لا دام فضلهم من فضلات السخافة والخرافة في العالم . بل من آيات السقم والعقم والادعاء والرياء ، ان كان في الكاظمية [1] او في الاعظمية [2] في النجف او في بغداد .

وكلهم يكفرون الزهاوي والرصافي والدجيلي ، ثالث المغضوب عليهم هناك . ولكنه في التساهل والصراحة والجرأة الادبية لا يُعد احد قبله . الشيخ كاظم الدجيلي فيلسوف ينفر من الخيال ، وشاعر يهوى صدق المقال ، وليس في ظاهره ما ينبيء بوجود الشاعر فيه او الفيلسوف . ليس في طلعته او في صوته ما يستميلك اليه او يستوقفك وانت غريب . بل في وجهه المخروط الضامر ما يشير الى النزق والتسرع ، اللهم اذا قسنا التكوين الالهي بمقياس الفن الانساني ، فنقول ونستغفر الله : قد ارتجفت يد المكون في تكوينه او ان الناظم اخل بالنظم فلم يك موزوناً . هاك وجه الدجيلي . عيناه بعيدتان الواحدة عن الاخرى ، فمه وانفه كبيران بالنسبة الى صفحة وجهه ، شعر رأسه وهو دائماً قصير يظهر انه ملتصق بجبينه . اما الرأس ففيه من الاذن

---

(١) الكاظمية مدينة على الساحل الغربي من دجله على مسافة اربعة اميال من الكرخ واهلها من الشيعة وفيها جامع جميل مدفون فيه الامامان موسى الكاظم ومحمد الجواد .

(٢) الاعظمية هي قبال الكاظمية على الساحل الشرقي من دجله وفيها قبر الامام الاعظم ابي حنيفة .

الى القمة طول يخالف ايضاً قواعد التناسق وهو الدليل الظاهر الوحيد على ما في الرجل من قوى التفكير والحكم والحكمة. وليس في صوته اذا حدثك ما ينسيك ظاهر صاحبه او يستغوي الغرض فيك فهو دائماً عالٍ رفيع لا منخفضات فيه ولا منعطفات. تنفر منه لاول وهلة ولا غرو . ولكنك بعد ان تألفه ترتاح الى الوتر الواحد فيه. وقد تكون المادة التي يحملها ويرمز اليها السبب في ذلك انما هي لب الرجل وكنهه، هي حقيقة وجوده.

ان الدجيلي عقل كله، عقل صافٍ لا يمازجه شيء من الروح والقلب. فيه نور الشمس ونارها، وليس فيه ظل او خيال. وهو في حريته مثل نور الشمس يحرق وينير ويحرق احياناً نفسه قبل ان يحرق سواه. ما اجتمعت في البلاد العربية برجل مثله في صراحته وجرأته واخلاصه. وانك في الشرق، حيث اللطف ضارباً اطنابه والتجمل حامل ابداً محرقة الطيب، لتعجب بالدجيلي ضعف اعجابك بمثله في اوروبه او في اميركه. وما تأثير الظواهر بعد ان ينكشف النقاب عن هذه العقلية الباهرة.

رجل ولد في مهد التقليد والتقييد والتعقيد وهو اليوم مطلق منها كلها، ينبذ المذاهب الدينية ويحمل عليها ولا يحتفظ بغير اللب من الدين. له في الحياة عقيدة مادية يجهر بها ويناضل عنها، شغف بالقوة القاهرة وهي عنده الحق، لا يرثي للضعيف، ولا توقفه زخارف التلطيف واوهام الغيرة والاحسان. هو في شعره اقرب الى شعراء الجاهلية من حيث انه لا يرى الا ما يُرى من حقائق الوجود. ولكنه في ذلك عصري، اي انه اتخذ هذه الطريقة لانها تساعد اكثر من سواها في تجريد الاداب من ترهاتها، والاديان من خزعبلاتها، والانسان من اوهامه كلها.

يذكرني الدجيلي بشاعر انكليزي من شعراء الشطر الاخير من القرن الماضي جرد شعره من حلي التقاليد الصناعية كلها — من زخارف الخيال، من اوهام الامال، من مصقول المقال، فجاءت قوافيه كالبرق يشق الظلمات وكلماته كالنصال وقد جردت من الاغماد. هو الشاعر الكبير شعراً لا شهرة

ارنست هانلي [١] القائل :

ولو احيقت بي الظلمات والاعصار ،
وكان الليل من القطب الى القطب كالقار ،
فالى الامام ولا انحدار ،
اني ربان هذي النفس ، اني سيد الاقدار .

وكأن هانلي وقد كان معاصراً لنتشي [٢] الفيلسوف الالماني الشهير يردد شعراً احدى كلماته الملتهبة او شيئاً من فلسفته المكهربة . — الارادة الارادة . العزم العزم . الاعتماد على النفس . التدرع على الضعف فلا تمكنه منك . والقوة اولاً واخراً . خذ هذه الفلسفة نظماً من شاعر عربي عصري من « هانلي » الشيعة من « نيتشي » العراق . قال الدجيلي في مطلع قصيدة « الحياة الاجتماعية » :

حديثك عن غير القوي حرام	وسعيك في نصر الضعيف اثام
تحدث بمجد الاقوياء ففيهم	قعود باحكام الورى وقيام
يؤله مذ صار ابن آدم قوة	وما الكون الا قوة ونظام
اذا كنت بين العالمين اخا قوى	رعتك عيون الناس حين تنام
حمى الغاب بأس الليث من كل طارق	ولم ينج من فتك البزاة حمام
يقولون ان الحق من فوق قوة	وما الحق الا مدفع وحسام

ولولا ما في القصيدة ما قلما يخلو شعر عربي منه ، اي العادي المبتذل من الفكر والتعبير ، لجاءت في تجردها مثل شعر هانلي من اوهام الخيال وزخرف الامال فريدة في بابها . وقد تطرق الشاعر فيها الى ذكر الاديان فقال :

حكاية اديان الانام عجيبة	تجمع فيها فرقة ووئام
تريد الهدى والخير للناس كلهم	وكم ثار منها فتنة وخصام
وغايتها القصوى عبادة واحد	حقيقته ما ان ترى وترام

(١) Ernest Heneley
(٢) Frederick Nietzche

عظيم لديه يصغر الحق كله ... وتستصغر الاجرام وهي عظام (١)

مهما كان من تزعزع عقيدة الشرقي فلا يحمله ذلك على الالحاد . بل يظل مؤمناً بالله في ما صفا وتعكر من امره وخمره . وعلى ذكر الخمر ان للدجيلي اسهماً في شركة الخيام وابي النواس كما له في شركة ابي العلاء المعري . فقد وصف الخمر ومدحها وذمها كذلك وكان في الثلاثة صادقاً . وهو المجرب القائل :

الم يك ما نظمت بها صحيحاً ؟ ... فلي فيها تجارب واختبار

وقد جاء في قصيدة له عنوانها «بوليس بغداد» وهي احدى « منظومات السجن » :

ادرها علينا بالكبير فاننا ... كبار ومن شأن الصغار صغيرها

متى يهدر الابريق عند انسكابها ... علينا يزدنا من هواها هديرها

وفي هذه القصائد من التجريد ، ومن القول الصريح الشديد ، ما يجيز المقابلة بينها وبين « منظومات المستشفى » للشاعر الانكليزي الذي ذكرت

الى ان وردنا السجن والسجن ضيق ... وقاعته محدودبات صخورها

يشم حديث العهد منا نتانة ... يزيد اذا اشتد الهجير ظهورها

. . .

وفي الصبح ساقونا الى متحكم ... باحكامه غر حكاه غريرها

. . .

وعاقبنا كلاً بعشرين جلدة ... فجيء باسواط دقاق سيورها

في اداب الافرنج وفنونهم طرائق شتى تشمل اغراض الحياة وطبائع الناس كلها . منها ما يدعى « ريالزم » Realism وهي طريقة من يلتزم في ما يصف او يفصح عنه الحقيقة المجردة . دون مبالغة ودون تنميق . وقد يجوز اهمال بعض اجزاء فيها حشمة ولياقة ، فلا يتقزز القارىء ولا ترتعد فرائصه .

---

(١) وان عظموا كيوان عظمت واحداً ... يكون له كيوان اول ساجد
« ابو العلاء المعري »

وهناك طريقة اخرى نشأت بعد الطريقة الاولى لتسد فراغاً مزعوما فجاء اصحابها وفي مقدمتهم اميل زولا بكل ما هناك من هول الحقائق الواقعة ومرعبات الوجود، وفي شعر الدجيلي شيء من الطريقتين .

يالك من آمرة ناهية احكامها نافذة ماضية
جامعة الاضداد شيطانة الاهة رشيدة غاوية
قاسية رفيعة الحاشية سافلة عالية راقية
خبيثة شريرة باغية طيبة طاهرة زاكية
يدفعها النفع على حب من ينفعها ولو الى الهاوية

ليست المرأة من يصف بل هي . . . النفس التي حيرت افكار ارباب النهى السامية . وقد قال فيها ما لا يخرج عن الحقيقة فكان في هجوه صادقاً ولكنه جائر . والجور من شيمة الـ«نيتشيين» وقد قال في عبادة الناس لله :

عبد الناس الهاً ما رأوه ورآهم
طمعاً فيه وخوفاً منه . هل يخفى هواهم؟

وقال اكثر من ذلك ولم يستثن حتى نفسه او يتناسيها :

ارى حياة الورى جهاداً في معرك دائم النضال
يخدع فيه الفتى اخاه والخدع قد جاز في القتال
كل امرىء ناصب حبالاً حتى انا ناصب حبالي

ان ادب الشاعر الحقيقي وان افقره ليقيه من حبائل مثل هذه الحياة ، وان علم العالم واخلاقه ليرفعانه عليها فيسلك مسلكا ينفي به ما يسجله على نفسه . وهذا لعمري فضل الادب والعلم حتى في من كانت عقيدتهم بالحياة مادية دهرية . والشيخ كاظم الدجيلي بعيد عن التعصب العلمي بعده عن التعصب الديني سألني مرة رأيي في الارواح واستحضارها فقلت : لا اصدق ولا انفي يهمني درس الموضوع ولا يلذ لي التشيع . فقال : وانا من رأيك . الحياة اضداد . وقد تتخذ الارواح لها جسما من الكهرباء في الفضاء . وقد تكون الكهرباء البحر الذي تعيش فيه الارواح بعد الموت كما يعيش السمك

في الماء . بل قد تكون هي مصدر الكهرباء وكنهها فيمتزج بعضها بعد الانفصال عن المادة في الفيض العام ، وبعضها تظل مدة على كونيتها الارضية فتزورنا اذا رغبنا بزيارتها وتبلبل افكارنا .

هذا مثال من عقلية الرجل العلمية . اما عقليته الوطنية فالحدة تغلب فيها ، بل هي غالبا في حالة الاضطرام . اذكر يوم كنا في كربلاء انه تكلم في مجلس غص برجال الشيعة اخوانه وكانت الصراحة تسابق التسخط في حديثه فاشفقت عليه من نقمة المتعصبين . سمعته يمدح الامة الانكليزية لما فيها من علم وادب وقوة ونظام ثم صاح بهم قائلاً :

— واين العلم واين القوة واين النظام عندنا ؟ أفي حكوماتنا العربية والعصر الماضي الذي تسمونه مجيداً انما كان عصر السفاحين ؟ أفي مدارسنا وقد عشش الفساد حتى في الكتاتيب ؟ ا في بيوتنا وقد تراكمت في زواياها وفي صحونها اوساخ التقاليد وعفونة العادات القديمة الذميمة ؟ افي ديننا وقد حلت الخرافات والقداسات المزعومة محل اليقين والعمل المفيد ؟

هو ذا الدجيلي يقرّع ابناء قومه ، ابناء مذهبه ، فلا عجب اذا افتى المجتهدون بتكفيره مراراً .

مجيد الشاوي

ها قد عرفتك ايها القارىء العزيز الى ثلاثة ممن يكفرونهم في العراق . وتذكر اني قلت انهم اربعة . اليك اذن بسجل الكفرة كله . ان الرابع في السجل الكريم عربي تجاوز العقد الخامس من العمر ولا يزال فتياً — فتياً برايه ، فتياً بلهجته ، فتياً بروحه وبواجب راحه . قد شغل هذا العربي مناصب متعددة في الحكومة ، وما خرج من واحد منها آسفاً . هو من اولئك الموظفين القليل عددهم الذين يعطون المنصب اضعاف ما يأخذون منه . فيخلصون الخدمة ، يعدلون ويصلحون ، ولا يكون جزاؤهم غير جزاء من لا يعدل ولا يصلح ، بل اقل . يبذلون من قواهم ومواهبهم خيرها ،

ويخرجون من دار الحكومة والفقر يشيعهم الى البيت ولكن النزاهة ترافقهم ايضاً وتلزمهم دائماً فتعزيهم بعض التعزية .

ان الرابع ممن أخص هـذا الفصل بذكرهم هو عبد المجيد بك الشاوي ، الشيخ عبد المجيد ، الذي يشبه السياسي الافرنسي الكبير كليمنصو ليس فقط في وجهه بل في ذكائه المتأجج وسلوكه البسيط الشاذ . وقد تكون صورة الاسد في وجه الشيخ عبد المجيد اظهر من صورة النمر . الا انه في صوته لا يهدر ولا يزمجر.

كنا في بهو الانتظار ننتظر الامر لنصعد الى بهو الاستقبال فنسلم على جلالة الملك فيصل ونقوم بالواجب الاخر الذي دعينا له . وكان في المدعوين للمأدبة من الانكليز العسكريين والمدنيين من جاءوا في اثوابهم الرسمية ونياشينهم تتلألأ على صدورهم ، ومن جاءوا يلبسون الاسود القاتم وقد صقلته المكواة وعززت اطرافه وحروفه . ولم يكن بين الوطنيين الذين ارتدوا كذلك الاسود المصقول ، والابيض الناصع المكوي ، طوعاً للامر الملكي المطبوع بماء الذهب على رقاع الدعوة ، غير واحد لم يكلف نفسه الطاعة وما تستوجبه مثل هذه الرسميات . جاء في ثوبه الافرنجي اليومي وقد اكسبه الزمان لمعة في حناياه ، وهو يلبس قميصاً — استغفر الله اذا العين اخطأت او الذاكرة — لا تعرف النشاء حتى ولا المكواة . هو عبد المجيد الشاوي ، شيخ المعريّين في بغداد .

وكان اول اجتماعي به تلك الليلة فاتحة الحب والاعجاب . لم يزرني في الفندق ، ولم يسع الي في غير مكان مثل غيره من الاخوان . ولكنه قال عندما تصافحنا : نحن ابناء عم وليس بيننا واجب التجمل واللياقة . فلم افقه مراده ولم انظاهر بغير ذلك . فقال : انت ابن المعري وانا ابن الخيام والاثنان اخوة . ليس في الانساب اشرف من هذا النسب . اهنئك واهنيء نفسي .

واذا انتسبت وقلت اني واحد من خلقه فكفى بذاك تنسباً

اراد المعري بقوله من خلق الله . ونحن فكراً ومبدءًا من خلقه اي من خلق المعري .

فقال احد الحضور : ولكن المعري كان متقشفاً الى حد النسك .

فاجاب الشيخ مجيد على الفور : لزوم ما لا يلزم . ونحن كذلك نتقشف الى حد الاضطرار .

فقال اخر : والمعري يذم بنت الحان .

فاجاب الشيخ الذي امسى نقطة الدائرة : والخيام يمدحها . وهي تستحق الاثنين · الذي ينقص المعري يكمله الخيام . هما خير الرسل ، رسولان صادقان كريمان سويان — وباي آلاء ربكما تكذبان .

وقد برهن الشيخ عبد المجيد تلك الليلة على انه من اتباع الاثنين الصادقين . رأيته الى المائدة يحسو من المشعشة الذهبية الكأس تلو الكأس وسمعته يردد من اللزوميات وهو يميل الى جاره السيد افنان :

رويدك قد عررت وانت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء

ثم رفع الكأس ولم يبق فيها غير النزر فشرب ثم قال :

وقد شرب الدهر صفو الانام فلم يبق في الارض الا العكر

ليس الشيخ عبد المجيد من اصحاب القوافي الا ان تكون لغيره . وكأني به لا يضيع وقته في النظم وعنده اللزوميات يستعين بها على الزمان واضاليله ولا هو ممن يسودون الاوراق ويبيضون مع انه غزير المادة ، صافي الذهن سريع الخاطر لا يكبو يراعه اذا راح عادياً في مضمار الانشاء . ولكنه يفضل الكلمة المقولة على الكلمة المكتوبة مثل سقراط . هو عبد المجيد كتاب نفسه ، يقرأ منه في المجالس ، ويعيد كلماته ويعكسها حسبما تقتضي الحاجة . لا يداري ، ولا يحابي ، ولا يتهيب احداً . هو في صراحته في الدجيلي والرصافي ولكنه في سرعة خاطره ونكتته وميله الى الاحماض هو اشبه بالنقيب السيد عبد الرحمن .

كنا يوماً في مجلس ابن النقيب السيد محمود فدار الحديث على حروب النبي محمد وما كان يظهر فيها من حنان صاحب النبوة وحلمه . فقال الشيخ

مجيد : حنان الذئب على الشاة . واين الحنان واين الحلم ، رعاك الله ، في تحليله الرق واباحة النساء لرجاله . كانت حروبه مثل حروب تلك الايام ، ولا تختلف عنها الا بالدعوة ... وما ذنب النساء في الحروب ؟

فاجاب السيد محمود بان النبي صلى الله عليه وسلم اراد بالنساء خيراً حينما كان يجيز سبيهن واسترقاقهن . لانه اذا دخلت جنود الاسلام بلاداً فمن باب الشفقة على النساء يأخذ كل محارب قسمته منهن فيعولهن ويحميهن .

فقال الشيخ عبد المجيد : هذا من باب الاجتهاد . ما اظن في النساء قديماً وحديثاً من ترضى ان تكون عبدة اسيرة خوفاً من ان تموت وهي حرة من الجوع . دفاعك مثل دفاع الذئب عن الشاة عندما وثب عليها ليحميها من الضبع ... لا نزال متأخرين ، متأخرين جداً يا سيد محمود ، اذا كنا نرى شيئاً من الحق في مثل هذا الدفاع عن مساوىء اجدادنا وفظائعهم ... الغريب في امرنا نحن المسلمين اننا لا نتقدم الا اذا رجعنا الف سنة الى الوراء ؛ لا نرتقي حقاً الا اذا رجعنا الى ابي العلاء المعري . فننبذ الاضاليل كلها وننبذ المتنطعين من علمائنا الذين يبثون هذه الاضاليل ويثبتونها في الناس

نكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل اولى باكرام وتصديق

وقد قال ايضاً المعري ونعم القول :

ولا تطيعن قوماً ما ديانتهم الا احتيال على اخذ الاتاوات

ان الشرائع القت بيننا احناً واودعتنا افانين العدوات

والاديان والمذاهب بلية الشرق الكبرى :

تألف غي الناس شرقاً ومغرباً تكامل فيهم باختلاف المذاهب

نعم ، وفي قلوبنا منها السم ، وفي عقولنا العفونة . يضحكني ويبكيني صياح شعرائنا وخطبائنا . يهددون الغرب بنهضة الشرق . ولعمري يجب ان ينهض الشرق على نفسه ، قبل ان ينهض على الغرب ومدنيته . ولا نتقدم نحن المسلمون الا اذا عدنا الف سنة الى الوراء — الى المعري ابي العلاء .

ابن خلّكان العراق

وفي العراق من الادباء كثيرون من هم شغفون بالحرية وبروح الادب الجديد. ولكن هذا الفصل يضيق دون ذكرهم وهذا الكتاب، «ملوك العرب» لا يسمح بفصل اخر اخصه بهم. الا اني افسح لكبيرهم عملاً لا سناً فيقف — ولا كرسي اخر للجلوس — بين من ذكرت.

هوذا دائرة معارف ادباء العراق وابن خلكانهم، صديقهم الاكبر، ناشر آثارهم، حامل لوائهم، روفائيل بطي. وهو منهم وفي الصف الاول. لكن غيرته على الادب العصري في العراق حملته على تأليف كتاب «الادب العصري في العراق العربي» الذي نشر منه الجزء الاول وسيليه ثلاثة اجزاء. وهو اهل لهذا العمل الادبي الخطير بما له من الهمة والعلم والذوق والاخلاص. لذلك سميته دائرة معارف ادباء العراق وابن خلكانهم.

ولروفائيل بطي اسلوب في الانشاء سهل منسجم جلي، لا تكلف فيه ولا اغراب. وله في معالجة المواضيع مزية مستحبة هي انه يقف عند حد بين الاسهاب والاقتضاب فلا يطولها على نفسه فيمل، ولا يقصرها على القارىء فيضل.

هاك مثالاً من الكتاب الذي اشرت اليه:

قال في الزهاوي:

« نشأ الزهاوي في بيئة تصوحت ازاهير الادب فيها بعد الازدهار، ودرست معالم العلم بعد ان ناطحت بعلوها الفضاء، فزاعه الجمود الهائل المستولي على الفهوم والاقلام، واستنكر الطريقة البالية التي يتبعها النظامون مقلدين غير مبتكرين . . . فلم تأنس روحه الناهضة هذه الخطة، وعز على عقله المتوقد ذكاء ان يبقى مصفداً باغلال التقليد.»[1]

وقال في الرصافي:

هو اول شاعر جاء قومه العرب بما يحبون وصارحهم بما لا يحبون، لم

(١) الادب العصري في العراق العربي ـ الجزء الاول ـ صفحة ٥

يعرف للتقليد او الخضوع للبيئة معنى لا في صناعته ولا في أفكاره . كان من شعره صيحات عملت على تقويض معالم الاستبداد الحميدي ، كما انه ما ابث بعد تحية الدستور العثماني واستبشاره به ان رجع ينعي على القوم تخاذلهم لما شام فيهم من الرجعة . »[1]

وقال في الدجيلي :

« لو كان للعلم والادب قيمة في هذه الديار لكان للشيخ كاظم الدجيلي مجال واسع لاظهار مواهبه وجلده على البحث . ولو كان لحرية الفكر حرمة في هذا القطر لرنّت حقائق الدجيلي في شعره رنة تحدثت بها المجالس . »[2]

وروفائيل شاعر كذلك ، وعامل في السبيل الذي فيه التحريم والتكفير . وسيكفرونه ولا شك تكفيرا مضاعفاً لانه يسيء الى اصحاب العقائد والاداب العتيقة اساءتين في الفكر وفي الطريقة . اجل ، هو من انصار الشعر المنثور . وقد قال في قصيدة له عنوانها « النابغة » :

وجدتني في مجاهل ارض كل ما فيها يثير الدهش والذهول
ورأيت نفسي مكبلاً بسلاسل التقليد ، سجيناً في قفص
الاوهام ، اسير عادات ، ورهين اوصاب .

حطمت السلاسل ، وكسرت القيود ، وقوضت جدران الوهم ،
وانعتقت مما درج عليه اجدادي
فصاح اخواني وضجوا ، واعولوا وبكوا .
رأوني خارجاً عن سجنهم ، اتمتع بحرية هم منها محرومون .
شاهدوني ارفل بصحة وسلامة ، وهم في الامهم يتعذبون

اولئك الذين يتخذون من جهل الشعب علمهم ، ومن ضعفه
قوتهم . » —

وقاك الله شرهم يا روفائيل .

(١) الادب العصري في العراق العربي ـ الجزء الاول ـ صفحة ٦٧ (٢) صفحة ١٨٧

الفصل السادس عشر

حجر الزاوية

الشعراء والسياسيون — المدارس العالية — المدارس العامة — بودقة الوطنية — في دار المعلمين — المدارس في العراق — الطريقة التركية في التعليم — الانكليز يقاومون الفكرة اللاطائفية — مساعدات الحكومة للمدارس الخاصة — الحاجة الى معلمين — هل السوريون والمصريون اجانب ؟ — ساطع الحصري — حديث عن المعلمين السوريين — معمل الشوكولاته ودار المعلمين — استعينوا بالسوريين والمصريين .

الاعلانات في الاسواق — « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » — « لا حياة بغير العلم » — « العلم اساس العمران » — المعهد العلمي مصدر الاعلانات — عميد المعهد ثابت عبد النور يصطدم بعُمد الحياة — لماذا خلق الله الانكليز ؟ — لماذا خلق الله الخواتين — اخوان ثابت في المعهد — حفلة سوق عكاظ — قف عند العمود واتل الآية — ثابت يهتدي — ثمرة الاعلانات — تعليم الاميين — بعد عودتي من نجد — لماذا خلق الله ثابت عبد النور ؟ — ليعلم الاميين الالف باء — المدارس الليلية المجانية — دورة التفتيش — ثابت يمشي في الليل ولا يصطدم بعمود واحد — المبادىء الاجتماعية الخمسة — حجر الزاوية — الملك فيصل يساعد المشروع — هرون الرشيد يزور متنكراً المدارس الليلية .

ليس بالشعراء والادباء يُستدل على ترقي الامة ، ولا بالسياسيين والصحافيين تسبر العقلية المدنية فيها . فقد تمتاز امة بتعدد شعرائها وادبائها ولا تمتاز بوطنيتها . وقد يدير المحنكون من السياسيين شؤونها ولا يعززونها وقد يقود الصحافيون الرأي العام وليس فيه روح مدنية ترفع الامة المفككة الاوصال الى وطن صحيح سالم موحد المقاصد ، موثق العرى .

وقد تكثر المدارس العالية في امة وتكون عليها ، كما هي في سورية ، بلية من بلايا التفريق والشقاق . حتى ان المدارس العالية ، ولو كانت وطنية اسماً وعملاً تنحصر فوائدها في عدد مخصوص من شبان الامة . وقد لا تفيدهم الافادة التي تؤهلهم للسعي والفوز في مضمار الحياة . بل هي تخرج شباناً ادباء

يكونون غالباً تكلاء ، فتتألف منهم طبقة الافندية الذين قلما يصلحون لعمل وطني مفيد .

لم يبق اذن غير المدارس العامة تعتمد عليها في تحسين عقلية البلاد المدنية ، وتوليد روح وطنية جامعة راقية عاملة ، اجل ، ان المدارس العامة لدليل الرقي الحقيقي في الامة ، لانها تعمم التعلم وتوحد المحجة فيه . هي البودقة التي تتكون فيها الروح الوطنية الجديدة . بل هي هي سياج الوطن وفيها عز الملك وشرف الامة .

ولكنها لا تكون كذلك ، لا تفلح في التكوين ، الا اذا كانت البودقة واحدة لا تتغير في تغيير المكان والمذهب واللغة . ان امة تعددت شعوبها ومذاهبها الدينية ولغاتها لا يتكون منها وطن عزيز الجانب ، رفيع الشأن ، مهما كان سلطانها ، مهما كان جيشها ، مهما كانت ثروتها ، الا اذا اسست الحكومة فيها مدارس عامة مجانية لا مذهبية تتمشى كلها على برنامج واحد ويكون التعلم فيها بلغة واحدة هي لغة البلاد الاصلية .

ماذا في العراق من هذه المدارس اليوم ؟ اني استبشرت باول حفلة دعيت للخطابة فيها وكانت في دار المعلمين . فاجتمعت هناك بوزير المعارف يومئذٍ السيد هبة الدين الشهرستاني ومستشاره الانكليزي ومديره الاستاذ ساطع بك الحصري ، وبزهاء مئتين من المدرسين في المدارس الابتدائية وفيهم نفر من السوريين والمصريين . كانت الحفلة عامرة بالخطباء والشعراء وكان الحديث بعد الحفلة في موضوع المدارس والتدريس ، فلم عن اشياء تثبتها بعدئذٍ من مصادر شتى . وهي مما يستوجب الاسف .

قد اشرت مراراً في ما تقدم الى الاغلاط التي ارتكبها الانكليز في العراق وهم انفسهم يعترفون بها او ببعضها . فمنها ما كانوا فيها مسيرين ، ومنها ما كانوا فيها متعمدين وهم لا يعتبرون هذه من الاغلاط . مثال ذلك التعلّم الابتدائي . قيل لي ان النية حسنة فيه ولكن الاعمال دون النيات . وقال آخرون لا النيات حسنة ولا الاعمال .

عند ما دخل الانكليز العراق كانت الطريقة في التعلم تركية ، اي ان الدولة اجازت انشاء المدارس الاجنبية الطائفية ، وكانت تخصها بشيء من المساعدة المالية . وفي هذه المدارس كان يتعلم التلاميذ دينهم ولغتهم اولاً ، ثم ما لا يضر بالروح الطائفيـة والجنسية من العلوم . ولا يخفى ما في هذه الطريقة من عوامل التفريق واسباب الشقاق . واذا خفي على الشرقيين فلا يخفى على الانكليز . ولكنهم مع ذلك تمشوا في التعلم العام على طريقة الاتراك وهذا مما يؤسف له جداً . كأنهم ارادوا ان يثبتوا الامة في طائفياتها وتقسيمها . ومع ان في العراق من ينصرون الطريقة الحديثة المجردة من المذهبية ، ويطالبون ببرنامج واحد في التعلم وبلغة واحدة ، والاستاذ الحصري في مقدمـة هؤلاء المصلحين ، فحكومة الانتـداب لم تقبل بذلك . وعذرها انما هو عذر الخائف من تسليح خصمه فيخرج عليه متحد القوى. قد جاء الانكليز العراق وخطتهم السياسية تشمل خطة تهذيبية كانت قبـل الحرب اظهر واصدق مما هي بعدها . ولـكنهم ما فتئوا يذكرونها ويذكّرون بها . واية خطة تهذيبية في الشرق تتم بدون اصلاح في طرق التعلم العـام . وما كان الانكليز قبلاً ضنينين بنشر الصالحة منها وتعميمها في من يحكمون .

اما قولهم ان اهل العراق غير مستعدين اليوم لبرنامج يوحّد التعلم العام وان الحكومة لاتستطيع ان توحد اللغة في الاقل فتجعل العربية لغة التدريس في الموصل وفي كركوك مثلها في بغداد والبصرة ، فهو قول يحتاج الى برهان . لم تقدم الحكومة على ذا العمل ولا الانكليز اذنوا بـه . وقد كان في امكانهم ان يقوموا في البداية بنصف الاصلاح فقط ، فتمنع الحكومة عن المدارس الخاصة — الطائفية —[1] المساعدة المالية وتقدم هذا المال ، الذي لا يزال يبذل في سبيل التفريق ، لوزارة المعارف ، وهي احوج اليه ، لسد نفقات مدارس الحكومة الابتدائية .

(١) في العراق من هذه المدارس الخاصة اكثر من ثلاثين مدرسة منها لليهود ومنها للطوائف المسيحية اجنبية ووطنية ، ومنها اسلامية . والحكومة تخصها بمساعدات مالية.

ان هذه المدارس تزداد عدداً كل سنة فتضاعف لدى وزارة المعارف الصعوبات في ادارتها . والحقيقة هي ان الامة العراقية اسبق الى التعلم من الحكومة في تخصيص النفقات وتسهيل الاسباب . وقد يكون بعض التبعة عليها اي على الامة . ان عدد التلاميذ تضاعف في السنتين الاخيرتين ، صعد من ثمانية الاف الى سبعة عشر الفاً ، وان عدد المدرسين لم يزدد اكثر من ثلاثين بالمائة . ولم يتخرج من دار المعلمين في السنة الاخيرة غير خمسة وعشرين مدرس . فما السبب في ذلك . هناك اسباب اولها الميزانية واخرها الوطنية العراقية . واليك البيان والبرهان .

ليس في العراق ما يكفي من المعلمين العراقيين لسد الحاجة في ازدياد عدد الصفوف والمدارس . ولم يكن في من وجد منهم تلك الجدارة التي يتطلبها التعلم الحديث . ولو وجدت الاهلية فدار المعلمين لا تكفي لتخرج العدد اللازم كل سنة . ان خير ما يعملون اذن في حل هذا المشكل هو ان يستعينوا بمعلمين من سورية او من مصر . ولكن الوطنية العراقية تحول دون ذلك .

هب انها وطنية صحيحة ، افيستغني العراق اليوم عن المساعدة الاجنبية ؟ هذا اذا عددنا سورية من اوروبه . ولكن القطرين شقيقان لغة ، وجنسا وروحا ، ومذهبا . فحبذا وطنية في التعلم اعلى من الوطنية في السياسة . حبذا وطنية مثل التي في مديرية المعارف . ان الاستاذ ابا خلدون ساطع الحصري لمن الاخصائيين في علم التدريس الذي مارسه مدة في اماكن مختلفة وحكومات عديدة . وما هو بسوري ولا بعراقي . هو عربي لا غبار على عربيته غير لهجتها . ذلك لانه ، وان كان ولد في صنعاء اليمن ، فقد اقام مدة في الاستانة يخدم الامة التركية . ثم تجرد لخدمة العرب عند ما دخلوا الشام فكان وزير المعارف في الحكومة الفيصلية . ثم سافر مع من سافر الى بغداد من رجال النهضة وهو لا يزال في وزارة المعارف يدير اهم شؤونها . والاستاذ ابو خلدون من اولئك القلائل الذين قد حرروا انفسهم وبيوتهم من قيود التقاليد الاجتماعية . اظن مجلسه هو الوحيد في بغداد الذي تستقبل فيه ربة

البيت الزائرين سافرة وتشاركهم في الاحاديث .

اول مرة زرت الاستاذ وحرمه الفاضلة المهذبة اجتمعت في بيتهما بعدد من المعلمين السوريين الذين يعلمون في المدارس الابتدائية واكثرهم من خريجي الجامعة الاميركية ببيروت . وكانت وزارة المعارف يومئذ هدفاً لانتقاد فريق من الناس شق عليهم ان يروا بعض التفضيل في معاملة المعلمين السوريين . فقاموا يحتجون على وجود معلمين من الاجانب في سلك المدرسين . ظننت لشدة الاحتجاج ان اكثرهم من الاجانب فسألت الاستاذ الحصري فقال : عدد المدرسين اليوم سبعمائة وعدد غير العراقيين منهم خمسة وعشرون .

ثم قالت حرمه باللغة الانكليزية : لو كان في العراق دار معلمين ثانية ! ولكن من اين المال ؟ الانكليز لا يساعدون ، والعراقيون لا يستطيعون . وهم يظنون ان دار المعلمين تعطيهم المعلمين بالمئات . ليست دار المعلمين مثل معمل الشوكولاته يعمل مئة صندوق كل يوم . . . ومن هم الاجانب بين المدرسين ؟ نشكر الله ليسوا بأتراك . تأمل يامستر ريحاني «كانت تكلمني بالانكليزية لانني لا احسن التركية» انهم ينظرون الى المصري والى السوري نظرهم الى الاجانب . وليس في السلك كله اكثر من ثلاثة بالمئة وما هم كلهم سوريين ومصريين . عندنا عشرة معلمين سوريين فقط وستة مصريين وتسعة انكليز . خمسة وعشرون معلماً اجنبياً ، اذا دعوناهم كذلك ، بين سبعمائة معلم من العراق .

اثنان ونصف في المئة كان يجب ان تكون عشرين . ان في نفورنا من الاجانب الاوروبيين شيئاً من التعصب في بعض الاحايين ، فكيف به اذا كان يشمل من ليس من قطرنا من البلاد العربية . الاجانب السوريون ، الاجانب المصريون ، الاجانب العراقيون — ان هذه العصبية لشبيهة بالمذهبية . والويل لنا اذا كانت تحل محل الوطنية العربية والقومية الجنسية العامة . ما السوري ، خصوصاً في دوائر التعلم التي هي غير دوائر السياسة ، الا عربي يساعد في تهذيب ناشئة عربية اينما كانت ، في العراق او في الكويت او في الحجاز ، اني اذا لمت الانكليز لاتخاذهم في التعلم طريقة الاتراك الوم العراقيين

اشد اللوم في تضييقهم نطاق الوطنية الى حد العصبية المذهبية او بالحري الُفطرية فعدوا السوريين والمصريين من الاجانب .

ليست دار المعلمين بعمل شوكولاته كما قالت حضرة حرم الاستاذ ابي خلدون، وليس المدرس من يحسن العلوم التي يدرسها فقط ، كما اوضح الاستاذ في كتابه [1] . وان الوزارة في مثل هذه الحال ، اي بين عجزين في المال والرجال ، تضطر احياناً ان تعين من ليس فيهم الجدارة ليسدوا بعض النقص في المدرسين . وكثيراً ما يؤدي ازدياد عدد التلامذة بالنسبة الى عدد المعلمين الى الجمع بين صفين اثناء التدريس ، فيخسر في هذا الجمع تلاميذ الصفين . افلا يجدر بالحكومة العراقية اذن ان تستعين بجارتها ، بسورية او بمصر لتتلافى النقص والخلل ؟ —

. . .

من يسكن في المدن الحديثة يألف نظره الاعلانات في الاسواق فيراها ولا يقرأها ، كأنها جزء من الحائط او نقش على العمود الملتصقة به . وتمسى عمد الاسلاك البرقية وعمد المصابيح مثل الاشجار لدى الفلاح يصطدم بها فيظنها حجراً في طريقه فيسب بقرته او حمارته ولا يسب الشجرة . كذلك كنت في بغداد وهي في عمد مصابيحها وفي جدران سوقها الاوحد اشبه بمدينة اميركية يجبهك الاعلان فيها كيفما سرت ، وكيفما نظرت . ولكني ما سببت بقرتي ولا حماري ، بل كنت امشي في ذاك السوق « الجديد » كاني في الدهناء ، انظر الى الارض تارة وطوراً الى السماء . فتقاضتني الاقدار يوماً ثمن هذه المكابرة . نعم ، نطحت عموداً من حديد ، فاضطررت ان اقف هنيهة ليعود الي صفاء نظري ، فقرأت كرهاً الاعلان الملصق به :

— طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة —

فقلت : والحمد لله . هوذا في الشرق شيء جديد — اعلان للعلم ! بل اخذتني نازية صديقي الزهاوي فصحت مبتهجاً : ايها الغرب ! تعالَ انظر ما

(١) قد اصدر مؤخراً كتاباً عنوانه : «دروس في اصول التدريس» طبع في مطبعة دار السلام ببغداد.

في الشرق من جديد مفيد. ايها الغرب ! هوذا اعلان يستحيل وجوده في بلادك ، ليس لانه غير لازم بل لانه يستثمر مباشرة وليس من يقوم بنفقاته .

قرأت الاعلان ثم قرأته معجباً به مبتهجاً . وصرت بعد ذلك امشي وناظري لسببين على العمود . تباركت اليد الطابعة ، واليد الناشرة ، واليد الدافعة المال . وهذا اعلان اخر : اطلبوا العلم من المهد الى القبر . وهناك آية اخرى من ايات النور : لا حياة بغير العلم . وهوذا اعلان للامة جمعاء : العلم اساس العمران . واليك على الحائط قاعدة النجاح والسعادة : تهذب وابتغ ما شئت . واعجب من ذلك كله انك عند باب الـ « سينما » على اللوحة التي تعلن الرواية الاخيرة تقرأ الانذار الاخير : بالعلم تحيا وبالجهل تموت ! !

استطلعت خبر هذه الاعلانات فعلمت ان الحكومة بريئة منها ، وان المحسنين الاغنياء او الاغنياء غير المحسنين لم يسمعوا بها . ان في بغداد جمعية ادبية اصلاحية اسمها « المعهد العلمي » والمعهد العلمي هو مخترع اعلانات العلم ، وهو طابعها وناشرها على نفقته مجاناً لوجه الله . ايها الغرب—العفو ياصديقي الزهاوي— هوذا الشرق ناهضاً ، وقد نبذ النظريات والخيالات والاوهام . هوذا الشرق ايها الغرب يحتذيك ويفوقك في الغيرية المدنية . هوذا اسلوب في الاصلاح عملي — هوذا مثال واحد من مظاهر النهضة الحقيقية في العراق .

سألت عن المعهد العلمي وسددت خطواتي اليه ، فاجتمعت هناك بعميده الاول ، وهو فيه القوة الدافعة المحركة المدبرة ؛ ثابت عبد النور . حدثت ثابتاً فابهجني وازعجني معاً . الفيته شاباً في العقد الثالث ، له من الحسن ما كان ليوسف وعنده من التسخط ما كان لايوب . وهو مع ذلك سليم الجسم والعقل ، براق العين والجبين ، صافي الذهن والصوت ، وطنه فوق مذهبه ومذهب اجداده ، وشرفه أكبر من دينه . شاب رائع تبسم له الحياة بكل ما فيها من بوادر الامل وبوارق السعد والمجد وهو مع ذلك مثل ايوب ، بل مثل « دون كيشوت » ، حاملاً رمحه على الدنيا كئيباً على الدوام حزيناً .

حدثت ثابتاً فازعجني . سمعته يشكو ويتسخط ويئن ، كأنه اصطدم بعمود في جادة الحياة ولا يزال الشرر يتطاير من عينيه . — لماذا خلق الله الانكليز ؟ لماذا خلق الخوانين ؟ لماذا خلق السادة الاشراف ؟ لماذا خلق الله المنافقين والخونة ؟ وجاءني منه بعد ايام كتاب يدعوني لتناول الشاي في بيته — «فتجتمع بصفوة الناهضين او بانموذج منهم في الاقل ، بشبان وطنيين اثبتت التجاريب صدق عزيمتهم واخلاصهم ، ومقتهم المنافقين وغيرهم من ذوي الالقاب الضخمة والابهة الفارغة الذين ما برحوا يسوقون الامة من سيء الى اسوأ . . . . الخ » فنسي ثابت كما ترى « صفوة الناهضين» الذين دعاني لاجتمع بهم في بيته .

هم اخوانه في المعهد وفي الجهاد ، يسلكون في الاصلاح ، اوسع السُبل واطولها ، سبيل التعلم : تعلم يا فتى فالجهل عار . وهو عميدهم المسؤول عن الاعلانات في شوارع بغداد . ان في هذا المعهد عقولاً عاملة مخترعة فلا مسوّغ فيه للنفوس المكتئبة . وقد كانت باكورة اعماله واختراعاته انه اعاد الى بغداد الجديدة القديمة احدى المفاخر العربية التي خلدها سوق عكاظ . اقام جماعة المعهد العلمي سوق عكاظ في عاصمة العباسيين ، وكانت اول حفلة باهرة فريدة بعد التتويج ، حضرها جلالة الملك فيصل فجلس في فسطاط بين النخيل يسمع الشعراء ينشدون والخطباء يخطبون . وكان قس بن ساعدة في مقدمة الخطباء يمثله احد الصبيان الاذكياء ، وكانت الخنساء في طليعة الشعراء تتلو قصيدتها احدى الاوانس المسلمات سافرة صافنة .

فاز ثابت وزملاؤه في اقامة هذه السوق التي ستقام بعناية المعهد كل سنة ، وحاز فوق ذلك الجائزة الاولى في النثر . وهو مع ذلك يمشي في جادة الحياة الضيقة فيصطدم بالعمد فيها . احببت ثابتاً ورافقته مراراً . وكنت كل مرة نصل الى عمود في السوق الجديد اقف امامه واتلو الاية فيضحك . العلم اساس العمران . ليس في ذلك ما يضحك يا ثابت . ان امركم كله جد وان من يخترع مثل هذه الاعلانات ويسعى في نشرها لمن اكبر الوطنيين ويحق له ان يفتخر ويفرك يديه . بل يجب عليه ان يشكر الله الذي هداه سواء

السبيل . سرّ عنك ودع المنافقين ينافقون . أن لله في خلقه مقاصد لا يدركها الناس . والانكليز واصحاب الالقاب الضخمة من خلق الله .

نعم ، وعظت ثابتاً ، بيد ان الوعظ ليس من شأني ، ولم آتأسف لذلك بل سررت بالنتيجة . وكيف لا تظهر النتيجة الحسنة وصديقي من الاذكياء النجباء الحكماء . صار يمشي في الجادة الضيقة والواسعة دون ان يصطدم بالعمد فيها . ثم جاءني ذات يوم يخبرني انه متابع للعمل الذي باشره بالاعلانات : قد فتحنا في المعهد مدرسة ليلية لتعليم الاميين مجاناً . ثم بشرني بعد اسبوع بفتح مدرسة اخرى خارج المعهد . —

سافرت الى نجد وعدت بعد اربعة اشهر الى بغداد فاجتمعت بثابت عبد النور ودهشت لتغير ظاهر فيه ، في حديثه ، وفي وجهه ، وفي خطواته . حدثته فما ذكر المنافقين . مشينا في الشارع فكانت خطواته اكثر تسدداً من خطواتي ، فلم يصطدم ببشر او بحيوان او بشيء من الاشياء الاخرى الجامدة . سألته عن مشروعه فقال : نجاحاً باهراً يااستاذ . صار عندنا اربع مدارس في المدينة وهي لا تكفي . تعال الليلة معي ترَ بعينك .

مشيت وثابتاً في الغسق ، في جادات بغداد الضيقة ، وهو ينيرها بانوار اماله العالية واعماله الناجحة . وسرنا الى مدرسة من مدارس المعهد فدهشت اذ دخلت مما شاهدت ومما سمعت . في الغرفة الاولى التي دخلناها صف الاولاد وسنهم يتراوح بين الخمس والخمس عشرة ، وكلهم يشتغلون في النهار فيحرمون التعلم في مدارس الحكومة . هم من الطبقة الثالثة في الامة ، من الشعب ، من العمال ، وفيهم بياع الخبز وبياع الليمون . وفيهم من يساعد اباه الحداد ، او عمه السنكري . وفيهم من يخدم ليتعلم صنعة من الصناعات . وفيهم الحوذي والبويجي والكناس عند الحلاق .

وقفت عند صغير الصف فوقف ويده على رأسه يجيب على سؤالي . اخبرني بحرية مدهشة انه يشتغل في احد الافران في النهار ، وانه لا يحب الشغل ولا يحب المدرسة . فقلت : ولماذا تشتغل ؟ فقال : عندي ام وعندها قضيب . فقلت :

ولماذا تجيء الى المدرسة ؟ فاجاب : امي تقول اذا تعلمت القراءة والكتابة اتخلص من الشغل في الفرن ." واخبرني صغير اخر لا يتجاوز الستة سناً بانه جاء المدرسة من تلقاء نفسه مع رفاقه في الحي . وقد بان لي من مجمل الاجوبة ان للأم في هذه النهضة الشريفة فضلاً يذكر .

دخلنا الغرفة الثانية في المدرسة فاذا فيها صف الشبان وبينهم الكهول . جالت عيني في الصف ووقفت عند الكبير فيه وهو رجل معمّ حسن البزة يناهز الخمسين . همَّ بالوقوف ليجيب على سؤالي — النظام على الكبير والصغير — فاشار المعلم تلطفا ان يقبل رجائي ويظل جالساً . اخبرني انه تاجر في السوق يتاجر بالسجاد ، وانه والحمد لله ناجح في تجارته مع انه قضى السنين فيها وهو امي . ثم قال : ولكن الزمان تغير ياافندي والرجل الذي لا يحسن الكتابة والقراءة في هذه الايام يحتقره الناس . فعقّب جاره على كلامه قائلاً : ويحتقره خصوصاً الاجانب . عار علينا ونحن نطلب الاستقلال اننا لا نحسن القراءة والكتابة . وقال آخر افصح الصباغ على يديه بصنعته : انه سمع بهذه المدارس الليلية وكان دائماً يتوق الى تعلم القراءة والكتابة بشرط ان لا يمنعه ذلك عن متابعة عمله في النهار ، لانه صاحب عيال وعليه رزقها . ومثله في صف الشباب والرجال كثيرون ، فيهم الحداد والدباغ ، والساعاتي والطيان ، والبناء والحلاق والفران . وكلهم يؤمون المدرسة الليلية راغبين بجناء ثمارها شاكرين القائمين بها .

قطعنا الجسر لنزور مدرسة اخرى في الكرْخ ، فعندما وصلت اليها رأيت عند الباب جمهوراً من الاولاد والشبان يتسابقون ويتزاحمون كأنهم داخلون الى الـ « سينما » لا الى مدرسة القباء الليلية . ها هي ذي امة جُنت بالعلم . اخبرني مدير المدرسة بان عندهم ثلاث غرف فقط للتدريس وفي كل غرفة من الخمسة وسبعين الى المائة طالب من الاولاد والشبان والرجال ، وانه لو كان عندهم ثلاث غرف اخرى لامتلأت كلها بليلة واحدة .

هنأت صديقي وزملاءه جماعة المعهد العلمي بنجاح مشروعهم هذا

النجاح المدهش . ومما هو جدير بالذكر انهم لا يقتصرون في تعليم الاميين على الكتابة والقراءة وبعض مبادىء العلوم فقط [1] فقد وضعوا لمشروعهم نظاماً اقتطف منه ما يلي :

قد رأى مجلس ادارة المعهد العلمي في بغداد انه لا يتمكن من تحقيق مبادئه الاجتماعية اذا لم تستنر الاكثرية بنور العلم الصحيح وتتلقن مبادىء الاخلاق الراقية — تلك الاكثرية التي قضي عليها ان تبقى جاهلة ... ولهذا فانه عزم على مكافحة داء الامية في بلاد العراق . . . فوضع نظاماً لهذا المشروع العلمي وقرر اذاعته مع المبادىء الاجتماعية الاتية :

١ً — حب الوطن من الايمان
٢ً — حب النظافة من الايمان
٣ً — طلب العلم من المهد الى اللحد
٤ً — مقت الكذب واحتقار الكاذبين
٥ً — حب الخير وعمله

ويجب على مدير المدرسة ان يلقن الطالب قبل كل شيء هذه المبادىء الخمسة الاساسية . مدارس ليلية تعلم الاميين ابناء الشعب الالفباء وحب الوطن والنظافة والصدق — هوذا حجر الزاوية في الرقي الحقيقي الثابت . هوذا الاساس الامتن في بناء الامة الجديد ، بناء الوطنية الصادقة ، المبنية على العلم والتهذيب ، المنيرة سبيل الاستقلال التام . هوذا حجر الزاوية ، وهو من صنع العراق ، لا يد اجنبية ساعدت في نحته ووضعه ، لا فضل لاجنبي فيه .

انه وايم الله لاجمل واعجب ما شاهدت من مظاهر نهضة العرب في

(١) الدروس مقسومة الى ثلاثة اقسام يسمونها دورات فيتعلم الطالب :
في الدورة الاولى — القراءة ، الاملاء ، الحساب ، مبادىء معلومات ارضية ، مبادىء معلومات مدنية .
وفي الدورة الثانية — قراءة ، املاء ، حساب ، جغرافية ، تاريخ ، مبادىء الصرف والنحو ، معلومات مدنية .
وفي الدورة الثالثة — قراءة ، املاء ، انشاء ، حساب ، تاريخ ، جغرافية ، صرف ونحو ، معلومات مدنية ، مبادىء هندسية .

الاقطار العربية كلها . مشروع تعليم بدأ بثلاثين طالباً في غرفة صغيرة من المعهد العلمي فعم في سنة واحدة مدن العراق الكبيرة كلها من البصرة الى الموصل . وان عدد الطلاب الاميين الذين يداومون ويتعلمون ليلاً مجاناً يتجاوز اليوم الخمسة الاف ، وقد يصل الى العشرة الاف غداً بفضل ادارة المعهد المنظمة واساليبه المبتكرة في التشويق ، وفي جمع ما يقتضيه المشروع من المال . فقد قررت بلديات المدن التي فيها مدارس ان تشترك في نفقاتها .

وهناك عدد من المؤازرين المتبرعين وفي مقدمتهم جلالة الملك فيصل الذي يعطف على المعهد ومشروعه عطف احد المؤسسين ويخصه سنوياً بمبلغ من المال . وقد اهتم جلالته اهتماماً خاصاً بمشروع تعليم الاميين وزار متنكراً المدارس الليلية فشاهد بعينه ما شاهدته من مظاهر الفلاح . وحبذا التنكر في غير سبيل اللهو والسرور ، حبذا بغداد الجديدة ، وقد جُنّدت بالعلم ، ورشيدها الجديد يمدّها ويغربها ، فيطوف ليلاً كاحد عامة الناس لا ليحدث الصياد ، ويضحك من العباد ، بل ليقف امام اللوح الاسود ، لوح الالفباء ، الذي سيبيض منه وجه الامة ، فيستطلع خبر المتهافتين عليه من رعيتـه .

والحق يقال ان جلالة الملك فيصل ، مهما كان من شأنه في السياسة والزعامة ، لمن اكبر ملوك العرب غيرة على العلم ، وله في بث روح العلم والعرفان ، وفي تشجيع الادب والمشاريع التهذيبية في الامـة ، الفضل الذي سيجعل عهده ولا شك عهداً ذهبيا مجيدا .

وانني اتمنى ان يكون في كل قطر من الاقطار العربية مشروع مثل مشروع المعهـد العلمي وامير مثل فيصل الاول يعضـد المشروع فيُقضى على الامّية والجهل في البلاد كلها .

الخــاتمة

او

تتمة البحث في الوحدة العربية .

اذا كنت تصفحت هذا الكتاب ايها القارىء او ما جاء فيه من المباحث السياسية تجد من نفسك ميلاً ، مقروناً بالعلم الذي لا يشوبه شائب الغرض والتحزب ، لتتبع هذا البحث .[1]

قلت في الفاتحة ان البلاد شرقي الاردن هي جزء اما من فلسطين واما من الحجاز ، والحجاز جزء من تهامة التي تمتد جنوباً الى المخا ، والمخا من اليمن ، واليمن هو الاصل الذي تتفرع منه نجران وعسير سهولاً وحزوناً. هوذا شطر من اساس الوحدة العربية لو كانت للجغرافية سيادة على السياسة تدوم ، او لو كان للدين نفوذ في تلطيف مطامع الامراء ، او لو كانت للقومية العربية سطوة في القلوب حقيقية تسوقها في سبيل واحد الى محجة واحدة .

أفيستنتج من قولي اذن ان الدين والجغرافية والروح القومية لا تساعد اليوم في تحقيق الوحدة العربية ؟ ليس من الصواب ان اجيب بلا او نعم . ان المذهب الديني في شبه الجزيرة لا يزال متغلباً على الدين . وهناك مذهبان قويان عصبيةً وسياسةً لا يقبلهما السنيون ، حنفيين كانوا او شوافع . وهذان المذهبان هما الوهابية في نجد والزيدية في اليمن . ومن عقبات القضية ان حاكمي البلادين ، السلطان عبد العزيز والامام يحيى يحكمان حكماً مذهبياً . هما مليكان بفضل المذهب وباسمه ويصح ان اقول كذلك ومن اجله . هما

---

(١) راجع خصوصاً الفصل الثامن من القسم الاول والفصلين السادس والرابع عشر من القسم الثاني والفصلين الحادي عشر والرابع عشر من القسم الثالث في الجزء الاول . والفصول السابع والثاني عشر والثالث عشر من القسم الخامس في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

اعظم ملوك العرب قوة واقتداراً .

فلو فرضنا ان اكثر الاقطار العربية دانت لابن سعود فيظل القطر اليماني عاصياً خارجاً محارباً . ولو فرضنا ان الامام يحيي اكتسح الاقطار الغربية والجنوبية كلها فبسط سيادته من لحج بل من حضرموت الى الطائف ومن نجران الى جيزان، ثم تقدم طالباً تحقيق الوحدة كلها فانه ليجد في نجد سداً لمطامعه عالياً منيعاً .

اما حكم الملك حسين ، وان كان اقرب الاحكام العربية الى الشكل المدني، فلا يقبله الزيود ولا الاخوان ، او بالحري لا يقبله امام الزيدية ويرفضه امام الوهابية . وليس للملك حسين اليوم قوة تمكنه من الفتح والاستيلاء .

هذا هو الداء الاول ومكروبه المذهبية . فهل تحقق اماني الوحدة او بعضها يا ترى اذا قتل المكروب او عُزل في الاقل من السياسة . لا استطيع ان اجيب بلا او بنعم لان نجاح القضية لا يتوقف على هذا الاصلاح وحده.

ان روح القبائل لا تزال سائدة في البلاد العربية ومتغلبة في اكثر اقطارها على الروح القومية . فلو فرضنا ان الامام يحيي خرج باسم القومية يجاهد في سبيل الوحدة العربية ، وقد اتخذ لقباً مدنياً وانشأ في اليمن حكماً مدنياً ، فلا تنفي نهضته ان السيف سيفها لا يزال سيف قحطان، وان قحطان لا تزال نازعة الى عصبيتها مثيرة في نزوعها العصبيات الاخرى. وبكلمة اوضح ان العداء بين قحطان وعدنان عموماً ، وبين قحطان وربيعة خصوصاً ؛ لا يزال مستحكماً في جنوبي نجد مثلاً وفي اعالي عسير فضلاً عن ان نجداً ، والصولة فيها لا تزال لربيعة ، تأبى السيادة العامة ليس في قحطان فقط بل في مضر ايضاً ومعقل مضر لا يزال الحجاز .

هذا هو الداء الثاني ومكروبه العصبية . فاذا تغلب امراء العرب الكبار على العصبيات القديمة فيهم وقاموا باسم القومية العربية المحضة الشاملة يبغون الوحدة ، فهل يظفرون بها يا ترى ؟ لا يجوز ان اجيب سلباً او ايجاباً

لان نجاح القضية لا يتوقف على هذين الاصلاحين فقط .

ان العوامل الطبيعية توجد في شكل اقسام من الارض وتقطيعها وفي من يسكنها ما يسمى وحدة جغرافية تتشابه فيها الاجناس والطباع والعادات والتقاليد، وتشترك فيها مصالح الاهالي وسياسات المتقدمين فيهم. ولكن هذه الوحدة لا تدوم الا بثلاث : حكومة منظمة عادلة ، ومدارس وطنية عامة ، وطرق مواصلات حديثة اي البرق والبخار . وليس في البلاد العربية اليوم ، ما سوى العراق ، غير قطرين في احكامها شيء من النظام المدني ، هما الحجاز واليمن . وليس في البلاد العربية اليوم غير حكم واحد عادل ، هو حكم ابن سعود . اما المدارس الوطنية العامة فلا نجدها الا في الحجاز ولحج والبحرين والكويت . وليس في شبه الجزيرة كلها ، اذا استثنينا سكة حديد المدينة «ولاسلكي» الملك حسين وسلك الامام يحيى الوحيد ، شيء من البرق والبخار .

ولكن في الحالة الجغرافية بعض الامل ، فيها اليسير مما يثبت وحدتها ويبشر بتعميم عواملها . وكأني بالقارىء يسأل سؤالاً آخر . اذا عمت هذه العوامل الاقطار العربية كلها ، فأنشئت الحكومات المنظمة ، طرق المواصلات الحديثة ، المدارس الوطنية العامة فهل نفوز بضالتنا المنشودة ؟

اجيب : نعم. ولكن بعد خمس وعشرين سنة في الاقل من بداية هذه المؤسسات ، فتزول بواسطتها العصبيات القديمة لتحل محلها روح القومية العربية الكبرى ، وتنبذ السيادات المذهبية من الاحكام المدنية ، فتقوم مقامها سيادة العقل والعدل والتساهل ، بل سيادة العقلية العربية الجديدة التي ترفع فوق كل مصلحة وفوق كل سياسة ، مصلحة العرب المشتركة وسياسة العرب الموحدة .

اذن لا امل للعرب في تحقيق الوحدة العربية الكلية اليوم . فهل من الممكن ان يتفاهم ملوكها ويتآلفون ؟ اجيب : نعم . واقول فوق ذلك انه من الممكن ان يؤلفوا وحدتين اوليتين تقسمان شبه الجزيرة شطرين في الحكم كما قسمتها الطبيعة، اي الشطر الغربي والشطر الشرقي . وما كان هذا ليتم اليوم

لولا سقوط الخلافة وتنازل الاتراك عنها .

اما رأيي فيها انا ذا اعرضه على اسيادي ملوك العرب . الخلافة يااسيادي في قريش—حديث شريف . ومن في قريش اليوم ومن سلالة الرسول اصلح واشرف من جلالة الملك حسين ؟[1] ولكننا في القرن الرابع عشر بعد البعثة النبوية ، وسنة التطور سنة الله . فاذا استنكرنا عمل الاتراك فلا يجوز ان نتعامى عما هو صالح فيه ، بدأ مصطفى كمال وزملاؤه في فصل الخلافة عن السلطنة وهذا هو النصف الصالح في اصلاحهم . واني اظن ان الاسلام لا يعود بعد اليوم الى التقليد القديم .

افلا يجدر بالعرب اذن ان يخطوا هذه الخطوة الى الامام فيقبلون من مصطفى كمال نصف برنامج اصلاحه ؟ وهم اذا بايعوا حسيناً بن علي على الخلافة فيجعلون مقره مكة اي كالبابا في رومه و ، يقيمون بعدئذ ملكاً غيره منهم .

اذا سلّمت بهذا اتقدم واياك الى ما يليه . لنفرض ان الملك حسينا قبل الزعامة الدينية الكبرى فمن من ملوك العرب اليوم يستحق الزعامة المدنية الكبرى ويحقق امال العرب بها ؟ لا اظنك اذا كنت قرأت ما تقدم تتردد في الجواب ، نعم ، ابن سعود وابن حميد الدين . فيحكم الاول الجزء الاكبر من شطر البلاد الشرقي ، والثاني الجزء الاكبر من شطرها الغربي . فلماذا لانساعد كلاً منهما اذن ليبسط حكمه على سائر الشطر الذي هو اليوم السيد الاكبر فيه؟

اني احدثك ايها القارىء بلغة فيها سداد المنطق وبساطة الف باء . ولا انتقل من مقدمة الى اختها قبل ان ابين باجلى بيان الحقيقة فيها . سلمنا بالخلافة للحسين ، وبالملكية للملكين . ولكنما السبيل الى ذلك ، ما هي ؟ وما هي العقبات التي تقوم في وجه المشروع ؟ وكيف تُذلّل ؟

ان في سبيل الفلاح عقبتين لا يستخف بهما ، الاولى في داخل البلاد والاخرى خارجها . اسم الاولى امراء العرب واسم الثانية دولة بريطانية

---

[1] قد كتب هذا الفصل قبل سقوط الملك حسين والمؤلف لايزال على رأيه ان فصل الخلافة عن السيادة المدنية الزمنية هو خير للاسلام والمسلمين .

العظمى . وان بين الاثنين صلة لا تقطع اليوم ، ولست ممن يطالبون بقطعها . انما اقترح ان تنتقل من الفروع الى الاصل ، ارتئي ان يتألف من الصلات المتعددة صلة واحدة او بالحري صلتان لا غير . اما اذا اعترض الانكليز قائلين ان الامراء لا يقبلون بذلك فاجيب : ان للامراء ولوجهاء العرب الحق في معالجة الامر دون تدخل حكومة بريطانية على شريطة انهم منذ البدء يؤكدون لها ان مصالحها في البحر الاحمر والبحر العربي وخليج فارس لا تمس بضر بتاتاً .

أما الامراء الحاكمون اليوم فاول ما يجب اقراره هو ان الحكم يبقى في بيوتهم كما كان منذ القدم ، اي ان آل صباح يظلون في الكويت ، وال خليفة في البحرين ، والعبادلة في لحج ، والادارسة في عسير الخ . ولا يتغير في استقلالهم غير اعترافهم بالسلطان الاكبر واشتراكهم واياه في الدفاع عن البلاد وفي عقد المعاهدات ، وفي نظام واحد يختص بالمسائل الاقتصادية والمصالح العامة .

ليس في هؤلاء الامراء اليوم واحد مطلق من نفوذ الانكليز مهما كان ضئيلاً . وليس فيهم من لا اتفاق او معاهدة بينه وبين دولة بريطانية العظمى فهل يفضل ان يكون النفوذ لامير عربي كبير اذا توفرت فيه شروط الزعامة فيتعزز بذلك شان الاثنين ؟ وهل تخسر دولة بريطانية العظمى او تفادي بشيء من مصالحها اذا عقد السلطان الاكبر معاهدة معها شبيهة مبدئياً بالمعاهدة او الاتفاق الذي كان بينها وبين الامراء ؟

انني ادرك انها تفضل ان يكون اتفاقها مع كل امير على حدة ، لان في ذلك تقسيم قواهم والاقتصاد بقواها . ولكن الامراء ، اذا هم فكروا ملياً ، يرون مصلحتهم الكبرى في غير هذه السياسة . فهم اذا وحدوا سياستهم يعتزون ويتخلصون من تدخل عمال الانكليز الشبه رسمي والغير الرسمي ايضاً ذلك التدخل الذي يئنون كلهم اليوم منه . وان بريطانية العظمى لتكتسب ثقة العرب وحبهم اذا قبلت بمثل هذا الاصلاح وفيه ضمان مصالحها .

ان ابن سعود صديقها وحليفها . فما ضرها اذا كان هو الموقع للمعاهدات

والاتفاقات التي بينها وبين البحرين والكويت وقطر وعمان ؟ وما ضر هؤلاء لو كان ابن سعود، وهو صاحب الصولة والاقتدار، الضامن سلامتهم، واستقلالهم، العامل في سبيلهم — على شرط — الا يكون لسيادته فيهم صبغة مذهبية. واكثر هؤلاء الامراء مثل ابن سعود من قبيلة واحدة من ربيعة وينتمون الى بكر بن وائل.

ليس في ذا الامر اذن شيء مستحيل. والخطوة الاولى في سبيله هو ان يعقد مؤتمر عربي عام في مكة مثلاً يحضره كل الامراء فتتم فيه مبايعة الملك حسين على الخلافة، ثم مبايعة الامام يحيي على الملك في الغرب والسلطان عبد العزيز في الشرق، ويكون بين الملكين معاهدة ولائية اقتصادية واتفاق بان يكون ايضاً بينهما وبين بريطانية مثل هذه المعاهدة او مايقترن بها مبدئياً.

اما الملك حسين فيشترط العرب في بيعتهم انه يقبل بمن يقيمونه ملكاً عليهم. واذا بايعه كل العرب يبايعه ولا شك المسلمون في الهند وفي الاقطار الاسلامية الاخرى. فهلا يرضى، وهو الحصيف الحكيم، ان يكون خليفة يحترمه المسلمون اجمع، ولا يكون ملكاً في الحجاز همومه السياسية الخارجية والداخلية هي اشد من هموم حاكم من حكام الدول العظمى في هذه الايام ؟

ان في البلاد العربية اليوم اربعة ملوك كبار، وان في نفسية الرعايا رعاياهم نصاً على شخصية اولئك الملوك وشرحاً على حالة تسود سياستهم في البلاد.

رعية الملك حسين تطيعه وتخافه.

رعية ابن سعود تطيعه وتحبه.

رعية الامام يحيي تطيعه دون حب ودون خوف.

رعية الملك فيصل لا تخاف ولا تحب ولا تطيع الا مكرهة.

فمن من الملوك المذكورين في شبه الجزيرة يستحق ان يسود العرب ؟

تم تأليف الكتاب «ملوك العرب» في ١٤ ايلول سنة ١٩٢٤
و ١٥ صفر سنة ١٣٤٣

فهرس الاعلام

الموجودة في هـذا الكتاب

ملاحظـات :

(A) هذه العلامة تدل على ان الارقام التي ما بعدها من صفحات الجزء الاول
(B) : : : : : : : : : : : : الجزء الثاني
- فاصلة بين الارقام
— تدل على وجوب تعداد الارقام ما بين الرقين . مثلا ١ — ٥ يعني ١-٢-٣-٤-٥

— حرف الالف —

— حرف الباء —

— حرف التاء —

— حرف الثاء —

— حرف الجيم —

— حرف الحاء —

— حرف الخاء —

— حرفي الدال والذال —

— حرف الذال —

— حرف الراء —

— حرف الزاي —

— حرف السين —

— حرف الشين —

— حرف الصاد —

— حرف الضاد —

— حرفي الطاء والظاء —

— حرف الظاء —

— حرف العين —

— حرف الغين —

— حرف الفاء —

— حرف القاف —

— حرف الكاف —

— حرف اللام —

— حرف الميم —


Bibliotheca Alexandrina
03376972